

والنص القرآني جاء بقوله الحق : « لا يؤمنون » وجاء العلماء عند هذه المسألة واختلفوا ، وجزى الله الجميع خيرا ؛ لأنها أفهام تتصارع لتخدم الإيمان . ونسأل : ما الذي يجعل الأسلوب يحىء بهذا الشكل ؟ ونقول : إنها مقصودات الإله حتى نعيش في القرآن . لا أن نمر عليه المرور السريع . والأسلوب في قوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » هو دليل على أنه ليس لكم علم . وقلنا : إن الشعور يحتاج إلى إدراك ومواجيد ونزوع ، فعل أي أساس بنيتم شعوركم هذا ؟ أنتم أخذتم ظاهر كلامهم ، ولكن الحق يعلم ويحيط بما يخفون ويبطنون . وكأنه سبحانه يوضح أن طلب الآية إنما هو تمحيك ، وأنتم لا تعلمون أن الله إن جاء لهم بالآية فلن يؤمنوا .

وبعض من المفسرين قال : إن (لا) زائدة ومنهم من كان أكثر تأديبا فقال : (لا) صلة لأنهم خافوا أن يقولوا : (لا) زائدة وقد يأخذ البعض بمثل هذا القول فيحذفها ، لذلك أحسنوا الأدب ؛ لأن الذي يتكلم هو الإله وليس في كلامه حرف زائد بحيث لو حذفته يصح الكلام ، لا . إنك إذا حذفته شيئا فالكلام يفسد ولا يؤدي المراد منه ؛ لأن الله مرادات في كلامه ، وهذه المرادات لا بد أن يحققها أسلوبه . والمثال في حياتنا أن يقول لك واحد : « ما عندي مال » أو ما عندي من مال ؟ إن « من مال » هنا ابتدائية أي ما عندي من بداية ما يقال : إنه مال ، أما من يقول : « ما عندي مال » أي ليس عنده ما يعتد به من المال الذي له خطر وقيمة ، بل عنده قروش مما لا يقال له : مال . إن في جيبه القليل من القروش .

و « لا » في هذه الآية جاءت لأن الحق يريد أن يقول للمؤمنين : ما تعلمكم يا مؤمنون أنني إذا جئت لهم بالآية يؤمنون ، فكأنه سبحانه ينكر على المؤمنين تأييد مطلب الكافرين . وقد تلمظ الحق مع المؤمنين وكرم حسن ظنهم في التأييد لأنهم لا يؤيدون الطلب حيا في الكفار ، بل حيا في النبي والنبي ، وكان الحق يقول لهم : أنا أعذرکم لأنکم تأخذون بظاهر جهد اليمين « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » ومبالغتهم فيه . ولا أنكر عليكم تصديقكم لظاهر قولهم ؛ لأن هذا هو مدى علمكم ، وما أدراكم أنني إذا جئت بالآية أنهم أيضا لن يعلنوا الإيمان . ولو كنتم تعلمون ما أعلم لعرفتكم أنهم لن يؤمنوا . إذن حين جاء الأسلوب بـ « لا يؤمنون » فـ « لا » حقيقية وليست زائدة . ومن أجل أن يطمئن الحق المؤمنين أظهر لهم أن علمه الواسع يعلم حقيقة أمرهم يقول :

﴿وَنَقْلِبُ اَفْئِدَتَهُمْ وَابْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوْا بِهِۦٓ اَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوْنَ﴾ (١١٠)

وحين نقول : أنا قلب السلعة فهذا يعنى أنك تفحصها . والحق يبلغنا هنا : أنا قلبت قلوبهم على كل لون ولن آخذ بظاهر القواد ، بل بلطفى وعظيم خبير أعلم الباطن منهم فاطمئنوا إلى أن حكى هو الحكم الحق الناتج من قلب لطيف خبير .

وقد يكون هنا معنى آخر ، أى أن يكون القلب لونا من التغيير ؛ فمن الجائز أنهم حينما أقسموا بالله جهد أيمانهم كانوا في هذا الوقت قد اقتربوا من الإيمان ولكن قلوبهم لا تثبت على عقيدة . بل تتقلب دائما . ومادامت قلوبهم لا تثبت فأتى لنا بتصديقهم لحظة أن أقسموا بالله جهد أيمانهم على إعلان الإيمان إن جاءت آية ؟ وهل فيهم من يملك نفسه بعد مجيء الآية أبطل أمره كذلك أم يتغير ؟ . لأن ربنا مقلب القلوب وما كنت تستحسنه أولا قد لا تستحسنه ثانيا . حين « نقلب أفئدتهم وأبصارهم » أى أن الحكم قد جاء عن خبرة وإحاطة علم (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) .

إن الإيمان يحتاج إلى استقبال آيات كونية بالبصر ، وبعد أن تستقبل الآيات الدالة على عظمة الإله تؤمن به ويستقر الإيمان في فؤادك . وسبحانه يوضح لنا أنه يقلب أفئدتهم وأبصارهم ، هل يبصرون باعتبار واقتناع ؟ أو هي رؤية سطحية لا فهم لهم فيها ولا قدرة منهم على الاستنباط ؟ وهل أفئدتهم قد استقرت على الإيمان أو أن أبصارهم قاصرة وقلوبهم قاصرة ؟

﴿وَنَقْلِبُ اَفْئِدَتَهُمْ وَابْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوْا بِهِۦٓ اَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوْنَ﴾ (١١٠)

(سورة الانعام)

إذن فهم لا يؤمنون ويسيرون إلى ضلالهم . فإن جاءت آية فلن يؤمنوا ، وفي هذا عذر للمؤمنين في أنهم يرجون ويأملون أن تنزل آية تجعل من أقسموا جهد الإيمان أن يؤمنوا .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

○ ٢٨٧٣ ○

لماذا؟ لأن الحق قال : « كما لم يؤمنوا به أول مرة » ، أى أنهم لم يتغيروا ولذلك يصدر ضدهم الحكم « ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » والطغيان هو تجاوز الحد ، وهم قد تجاوزوا الحد هنا فى استقبال الآيات ، فقد جاءتهم آيات القرآن وعجزوا عن أن يأتوا بمثلا ، وعجزوا عن أن يأتوا بعشر سور ، وعجزوا عن أن يأتوا بسورة ، وكان يجب ألا يطفوا ، والا يتجاوزوا الحد فى طلب الاقتناع بصدق الرسول .

« ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » و« العمه » هو التردد والحيرة ، وهم فى طغيانهم يترددون ، لأن فىهم فطرة تستيقظ ، وكفرا يلح ، يقولون لأنفسهم : أنؤمن أو لا نؤمن ؟ والفطرة التى تستيقظ فىهم تلمع كرمضات البرق ، وكان يجب ألا يترددوا : أو « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم » فى النار ؛ لأن البصر لم يؤد مهمته فى الاعتبار ، والقلب لم يؤد مهمته فى الفقه عن الله ، فيجازيهم الله من جنس ما عملوا بأن يقلب أبصارهم وقلوبهم فى النار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ آلِهِمُ الْمَلَايِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَتَانَا بَشَاءَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (٣١)

هنا يوسع الحق المسألة . فلم يقل : إنهم سوف يؤمنون ، بل قال : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة » مثلما اقترحوا ، أو حتى لو كلمهم الموتى ، كما قالوا من قبل :

[سورة الدخان]

﴿ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٦)

ويأتى القول : « وحشرنا عليهم كل شيء » و« الحشر » يدل على سوق بضغط مثلما نضع بعضا من الكتب فى صندوق من الورق المقوى ونضطر إلى أن نحشر كتابا لا مكان له ، إذن : الحشر هو سوق فيه ضغط ، وهنا يوضح الحق : لو أتنى

أحضرت لهم الآيات يزاحم بعضها بعضا وقدرتى صالحة أن أتى بالآيات التى طلبوها جميعا لوجدت قلوبهم مع هذا الحشر والحشد ترضن بالإيمان .

«وحشرنا عليهم كل شئ قبلا» و«قبلا» هى جمع «قبيل»، مثل سرير وسرر .

«وحشرنا عليهم كل شئ قبلا» . وهذا يعنى أن الحق إن جاء لهم بكل ما طلبوا من آيات ، وكأن كل آية تمثل قبيلة والآية الأخرى تمثل قبيلة ثانية ، وهكذا . فلن يؤمنوا ، أو «قبلا» تعنى معاينة أى أنهم يرونها بأعينهم ، لأن فى كل شئ دبرا وقبلا ؛ والقبيل هو الذى أمام عينيك ، والدبر هو من خلفك . فلما حشرنا عليهم كل شئ مقابلا . ومعاينا لهم فلن يؤمنوا . وإن أخذتها على المعنى الأول أى أنه سبحانه إن حشد الآيات حشدا وصار المعطى أكثر من المطلوب فلن يؤمنوا . وإن أردت أن تجعلها مواجهة ، أى أنهم لو رأوا بعيونهم مواجهة من أمامهم فلن يؤمنوا .

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُوتَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ...﴾ (١١١)

[سورة الأنعام]

وجاء الحق هنا بمشيئته لأن له طلاقة القدرة التى إن رغب أن يرغمهم على الإيمان فلن يستطيعوا رد ذلك ، ولكن الإرغام على الإيمان لا يعطى الاختيار فى التكليف ولذلك قال سبحانه :

﴿لَعَلَّكَ بَلِّغَ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) **﴿إِنْ تَشَاءُ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمُ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾** (٤)

[سورة الشعراء]

والله لا يريد أعناقنا تخضع ، وإنما يريد قلوبنا تخضع . لذلك يذيل الحق الآية بقوله : «ولكن أكثرهم يجهلون» . والجهل يختلف عن عدم العلم ، بل الجهل هو علم المخالف ، أى أن هناك قضية والجاهل يعلم ما يخالفها ، أما إن كان لا يعلم القضية فهذه أمية ويكفى أن نقولها حتى يفهمها فورا . لكن مع الجاهل هناك مسألتان : الأولى أن نزيل من ادراكه هذا الجهل الكاذب ، والأخرى أن نضع فى

إدراكه القضية الصحيحة ، وما دام أكثرهم يجهلون . فهذا يعنى أنهم قد اتبعوا الضلال .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ
الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ
الْقَوْلِ غَمُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا
يَفْقَرُونَ ﴾

« وكذلك » إشارة من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسل والأنبياء ليعطى الأسوة للرسول بإخوانه السابقين له في موكب الرسالات ، فليست بدعا - يا محمد - في أنك رسول يُواجه بأعداء ، فكل رسول من الرسل ووجه وقبول هؤلاء الأعداء .

وهل فت أعداء الرسل في عهد من أرسل إليهم وأضعفوا قوتهم وأوهنوا عزائمهم وأنتوهم عن دعوتهم ؟ أو ظل الرسل أيضا صامدين ؟ . . إنهم صمدوا وأيدهم الله ونصرهم وإذا كنت أنت خاتم الرسل ، وسيد المرسلين ، والمعقب على رسالات سبقتك ولا معقب على رسالتك فلا بد أن يكون الأعداء الذين يواجهونك مناسيين للمهمة التي تؤديها . وإياك أن تظن أن المقصد في هذه العداوة أننا تركناهم أعداء لمجرد العداوة ، لا ، بل نحن قد أردنا هذه العداوة لصالح الدعوة ؛ لأن الإنسان إذا ما كان في منهج خير وأهажه الشر يتحمس لمزيد من الخير . ولذلك لا نجد الصحوات الإيمانية إلا حين يجد المؤمنون تحديا من خصومهم ، هنا نجد الصحوة الإيمانية قد استيقظت لأن هناك خصوما يتحدونها ، ولولم يكن هناك خصوم لبقيت الصحوة فاترة . وهذا ما نراه حين يوجد من خصوم الإسلام من أى لون من ألوانهم من يتحدى أى قضية من قضايا الدين . في هذه الحالة نجد حتى غير الملتزم بمنهج الإسلام يفار على الدين .

إذن فالعداوة لها فائدة ، وإياك أن تظن أن في أى مظهر في الوجود يُغلب الله على مراداته في كونه ، والشر له رسالة لأنه لولا أن الشر موجود ويصاب الناس من أذاه لما تحمس الناس للخير ، فالذي يجعلنا نتحمس للخير هو وجود الشر ، وأوضحنا من قبل أن الباطل جندى من جنود الحق ؛ لأن الباطل حين يعرض ويعربد في الناس يتساءل الناس متى يأتى الحق لينقذنا ، وأنت ساعة ترى مريضاً يتألم إياك أن تظن أن الألم قد جاءه دون سبب ، بل الألم جندى من جند الشفاء . وكأن الألم يقول لمن يصيبه : يا إنسان تنبه أن عطفاً في هذا المكان فسارع إلى علاجه . ولذلك نجد أعنف الأمراض وأشرسها وأخبثها ، هي الأمراض التى تأتى بلا ألم يسبقها ، ولا تظهر أعراضها إلا بعد أن يستعصى شفاؤها ، وهكذا نرى أن الألم جندى من جنود العافية .

وحين يكون لك عدو في الحارة أوفى البلدة وعيونه مركزة عليك فأنت تخاف أن تقع منك هنة وعيب حتى لا يشنع عليك ؛ لذلك تسير على الصراط المستقيم لأنك لا تريد أن تنصره على نفسك .

والشاعر القديم ، الذى أعجبه الشعر فشطره . يقول لك :

عداى لهم فضل على ومنة فعندى لهم شكر على نفعهم ليا
فهم كدواء والشفاء بمره فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا
هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها فأصبحت بما دنس العرض خاليا
وهم أججوا جهدى ولكن يغيضهم وهم نالسون فاكتسبت المعاليا

لذلك لا بد أن تنظر إلى كل شيء بحكمة إيجاد الحكيم له فقد شاء الحق أن يوجد الأعداء للدعوة الإسلامية حتى تنتصر وتقوى .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ ۝۱۱۶ ﴾

(سورة الأنعام)

وجعل الحق سبحانه وتعالى الأعداء للأنبياء ، مهيجين ومثيرين للنبي ولأتباعه ، لأن الأمر إذا حصلت فيه معارضة من مخالف أججت في نفس المقابل قوة حتى لا يهزم

أمامه ولا يغلب أمام منطقته . ولذلك قال الحق : «وكذلك جعلنا» أى أنهم لم يتطوعوا بالعداوة إنما هو تسخير للعداوة «جعلنا لكل نبي عدوا» .

وكيف يجعل الله لكل نبي عدوا؟ إنه يفعل ذلك بما أودع فى الناس من الاختيار، وما داموا مختارين فالذى اختار الهدى يكون نصيراً للنبي ، والذى اختار الضلال يكون عدوا للنبي .

إذن فهم لم يكونوا أعداء بطبيعتهم ، وإنما بما أودع الله فيهم من الاختيار .

وإذا كان الله هو الذى أودع الاختيار فقد أراد أن يحقق مشيئته فى قوله :

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ..﴾ (٤٢) [سورة الأنفال]

ولو شاء الله ألا يكون للنبي أعداء لفعل ذلك ؛ لأن له طلاقة القدرة ، ولكن ذلك سيكون بالقهر ، والله لا يريد قهراً للعقلاء ، وإنما يريد أن يذهبوا إليه بمحض اختيارهم ؛ أى وهم قادرون على ألا يذهبوا . وكلمة «عدو» فى ظاهرها أنها مفرد ، ولكنها تطلق على الواحد ، وتطلق على الاثنين ، وتطلق على الجماعة ، فتقول : «هذا عدو لى» ، و«هذه عدو لى» ؛ ولا تقل «عدوة» ، وتقول : وهذان عدو لى ، وهاتان عدو لى ، وهؤلاء عدو لى ، لأن كلمة «عدو» تطلق على الذكر والأنثى وتقال للمفرد وللثنى ، وللجمع .

اقرأوا قول الحق :

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٧) [سورة الشعراء]

واقرأوا قول الحق :

﴿قَالَ أَخِيطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ..﴾ (١٢٣) [سورة طه]

ولم يقل أعداء ، إذن فكلمة «عدو» تطلق على المفرد والمفردة ، والثنى والمثنى ،

وعلى جمع المذكور وجمع المؤنث . لكن بعض الذين يحبون أن يكونوا مستدركين على كلام الله . يقول الواحد منهم : كيف يقول : « فإنهم عدو لي » ، أو « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » ؟! ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ (٧٧) ﴾

[سورة الأعراف]

والشيطان عدو ، وهم عدو . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ۝ (١٠٢) ﴾

[سورة آل عمران]

ونقول له : أنت قد فاتك أن الذي يتكلم هو الرب الأعلى . والعداوة نوعان ، فإذا تعدد العدو ، وجمعت مصلحته واحدة في معاداة المعادى يكونون وحدة في العداوة فهم عدو واحد لاجتماعهم على سبب واحد في العداوة . لكن إذا تعددت أسباب العداوة فالأمر يختلف ، فقد يكون لك عدو لأن مظهره أحسن منه ، وعدو آخر لأنك أذكى منه ، وعدو ثالث لأنك أغنى منه . فلتعدد الأسباب صار كل واحد منهم عدواً برأسه وجمع على أعداء لتعدد سبب العداوة .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ۝ (١١٢) ﴾

[سورة الأنعام]

وشياطين الإنس والجن كما يقول النجاة بدل من عدو و « شياطين » جمع شيطان وهو اللعين المطرود ، البغيض ، سواء أكان من الإنس أم من الجن .

« يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » والروحى - كما نعرف - هو إعلام بخفاء ، ولماذا يوحى بعضهم إلى بعض ؟ لأن غلبة الحق لا تجعلهم قادرين على أن يتجاهروا ؛ لذلك يتآمرون مع بعضهم البعض ، لكن الناس المحققين في قضية يتحركون في علانية . ولا يستخفون من الناس .

« يوحى بعضهم إلى بعض » ومن الذى يوحى ؟ ومن الذى يوحى إليه ؟ ليس لنا دخل بهذا الموضوع ، إنما الوحى : هو إعلام بخفاء ، إن كان إلهاماً فى النفس ، أو إن كان بالإشارة أو بالدس ، أو إن كان بالوسوسة ، أو إن كان بواسطة رسول نحن لا نراه ، كل ذلك أساليب الوحى الشامل للخير والشر .

وإذا كان الوحى من شياطين الجن فهل يوحون إلا بشر ؟ نعم . وكذلك هناك شياطين من الإنس يوحون أيضاً بشر . مصداقاً لقوله الحق : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » وزخرف القول ، المقصود به أنهم يدخلون على المسائل بالتزيين ، فيزينون للناس الشهوة ، ولذلك سماها ربنا « وسوسة » ، ونعلم أن المعانى حين يؤخذ لها ألقاظ تؤخذ من الأشياء الحسية ، والوسوسة هى صوت الحلى ، وقد اختار الله لما يفعله الشياطين من الإنس والجن للفظ الموحى بالمعنى المراد لأن وسوسة الحلى تغرى بالنفاسة وعظم القيمة ، والوسوسة طريقها هو الخفاء .

« يوحى بعضهم إلى بعض » وهم شياطين من الإنس والجن ، إنس يوحى لإنس بأن يزين له المعصية والشهوة ، وكثيراً ما يقع ذلك .

وجئى يوحى لجنى ؛ لأن الجن مكلف أيضاً . وكذلك يوحى الجن للإنس .

« يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » الزخرف . هو الشيء لمزين ظاهره لكن باطنه فاسد ، ولذلك قال عز وجل :

﴿ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْخَيْرِ الدُّنْيَا ۚ ۝٢٥ ﴾ [سورة الزخرف]

أى أموراً مزخرفة ظاهراً ، لكن ليس لها عمق أو عمر أو نفاسة .

﴿ يُوحَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا ۚ ۝١١٢ ﴾ [سورة الأنعام]

وذلك ليغروهم ويخدعوهم ليفعلوا ويقتربوا المعصية ، وإن لم يأتوا للمعصية بكلمات تزخرفها وتزينها فلن يستطيعوا أن يدخلوا بها على الناس ؛ لذلك يعرضون ويبدون محاسن المعصية فى ظاهر الأمر ، مثال ذلك أنك لا تجهد من يقول لآخر :

اشرب الخمر لنصاب بتليف الكبد مثلاً !! ولكن هناك من يقول : احتس الخمر ليذهب همك وتنشط نفسك ويكثر فرحك .

« زخرف القول غروراً » أى ليغروهم ؛ بإظهار فائدة موهومة فيه ؛ ويسترون عن الناس مضرة هذا الشيء ومهالكه .

ويتابع سبحانه : « ولو شاء ربك ما فعلوه » إن الحق سبحانه وتعالى هو الذى أعطى خلقه اختياراً فى أن يكونوا مؤمنين أو أن يكونوا كافرين ، مهديين أو ضالين ، فى نور أو فى ظلمة . ويأتى الوقت الذى يشب فيه سبحانه أو يعاقب ؛ لذلك فهو - جل شأنه - لا يرغمهم على فعل ثم يعاقبهم عليه ؛ لأنه هو العدل . ولذلك نجد من يقول : ماذا العقاب ولا شيء فى الكون يقع على غير مشيئة الله ؟ ونقول : نعم كل شيء من فعل الله ؛ لأن سبب الاختيار من الله . وسبحانه هو الذى خلق الاختيار . فالكافر لا يقدر أن يؤمن إلا إن شاء الله ، لكن المطلوب منه أن يؤمن لأن طبيعته صالحة للكفر وصالحة للإيمان .

إذن خلق الله الإنسان مختاراً فى أن يفعل أو لا يفعل فى بعض الأمور ، فالذى ينظر إلى أن كل فعل من الله أى ليس بطاقة من عبيد ، نقول له : صح رأيك . ومن يقول : إن هذا الأمر من العباد نقول له أيضاً : صح موقفك ؛ لأن ربنا خلق الإنسان صالحاً لأن يحصل منه كذا ويحصل منه كذا . فإن أردت الحقيقة نجد كل فعل يأتى من الله ، فأت - على سبيل المثال - لم تخلق القوة التى لليد لترتفع ، ولا خلقت القوة للأصابع لتقبض . وإذا أردت أن تقبض يدك . فما هى العضلات التى تتحرك لتفعل الانقباض ؟ أنت لا تعرف . إنك تقبض يدك بمجرد إرادة منك أن تقبضها ، والذى خلق لك هذه القوة يأمرك ألا تستعملها فى قهر الآخرين ، ولكن عليك أن تستعملها فيما يفيد الناس . واليد صالحة للضرب وللعمل الطيب وأنت لم تخلق الطاقة التى فى اليد ، ولا خلقت الانفعال فيها لإرادتك .

« ولو شاء ربك ما فعلوه » أى لو شاء عدم فعله لفعل ؛ لأن له طاقة القدرة فلا يقدر أحد أن يخرج عن مراده أبداً . ونحن نرى السماء والأرض وكل ما دون الإنسان مسخراً ، ثم لماذا نأخذ أمثلة من السماء والأرض والنبات والجماد والحيوان ؟ نأخذ المثال من نفسك . أنت فىك أشياء ليس لك سيطرة عليها ، ولا اختيار لك عليها ، ألك اختيار أن تمرض ؟ لا .

ألك اختيار أن يقع عليك حجر وأنت غشي ؟ لا .

ألك اختيار في أن يصيبك سائق سكران ؟ لا .

ألك اختيار في أن تموت أو لا تموت ؟ لا . لقد جعل الله فيك الأمرين الاثنين :

قهرك في أمور . والفهرية تثبت له . سبحانه . القدرة وطلاقتها ، وجعلك مختاراً في أشياء ، والاختيار يثبت صحة التكليف .

ويتابع الحق مذيلاً الآية : « فذرهم وما يفترون » لأن افتراءهم وكذبهم وزعمهم الباطل لن يغير من حقيقة الأمر شيئاً ، وهم يرون أن افتراءهم يعرق الدعوة ، لا ، فقد صار افتراءهم وكيدهم وعداوتهم للنبي وقوداً مهيباً للدعوة ؛ لأن يخلص الدعوة من الشوائب ويصهر المؤمنين بها ويخرج منهم خصال الشر ويملاهم بخلال الخير .

﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۖ ﴾ (١٧)

[سورة الرعد]

ولو لم يكن هناك مهيجات لهذه المسائل لدخل الدعوة العاطل والباطل ولاندس فينا من لا يعرف قيمة الإيمان ؛ لذلك يمحصر الله الدعوة بالأعداء ، وبالقوم الذين يقفون أمامها حتى لا يكون في حملة الدعوة أحد من ضعاف العقائد وضعاف الإيمان ، وهم الذين يخرجون هرباً من مسئوليات الإيمان ولا يبقى إلا أصحاب الرسالة الذين يخلصون الصديق مع الله وينقيهم الله بواسطة الأعداء . ولذلك قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِئَكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ۖ ﴾ (١٧)

[سورة التوبة]

فمن الحكمة أنه . سبحانه . شبط عزيمتهم وضعف رغبتهم في الانبعاث والخروج معكم .

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا

مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ (١٦)

[سورة التوبة]

وهنا يقول الحق : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » وزخرف القول هو لون من الأداء له سماع ، ومن يسمعون قد لا يؤثر في قلوبهم ولا في نفوسهم ، ومرة أخرى يسمعون ويكون عندهم ميل وليس عندهم عقيدة ثابتة راسخة إلى هذا القول .

وكيف يسلك هؤلاء الناس :

﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْضَوْهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾

كان من يؤمن بالآخرة لا يقرب منه الزخرف أبداً ولا يميل إليه . وإن رُئيت له معصية فإنه يتساءل : كم ستدوم لذة هذه المعصية ؟ دقيقتين ، ساعة ، شهراً ، وماذا أفعل يوم القيامة الذي يكون فيه الإنسان إما إلى دخول الجنة وإما إلى دخول النار . إذن فمن يؤمن بالآخرة لا تتقبل أذنه ولا فؤاده هذا الزخرف من القول ، ولا يتقبله إلا من لا يؤمن بالآخرة ، وهو لا يعرف إلا الدنيا ، فيقول لنفسه : فلتتمتع في الدنيا فقط ، ولذلك لو استحضر كل مؤمن العقوبة على المعصية ما فعلها ، وهو لا يفعلها إلا حين يغفل عن العقوبة . وإذا كنا في هذه الدنيا نخاف من عقوبة بعضنا بعضاً ، وقدراتنا في العقوبة محدودة ، فما بالنا بقدرة الرب الفاهرة في العقوبة ؟ ولذلك نجد الذين يجعلون الآخرة على ذكر من أنفسهم وبأهم إذا عرضت لهم أى معصية ، يقارنونها بالعقاب ، فلا يقتربون منها . (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) .

والإصغاء هو ميل الأذن إلى المتكلم ، لأنك قد لا تسمع من يتكلم بغير إصغاء ، وحين يسير الإنسان منا في الطريق فهو يسمع الكثير ، لكن أذنه لا تتوقف عند كل ما يسمع ، بل قد تغف الأذن عندما يظن الإنسان أنه كلام مهم . ولذلك يسمونه التسمع لا السمع ، وهذا هو الإصغاء . ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام : من تسمع غانية - أى امرأة تغنى بخلاعة - ولم يقل : « من سمع » ، والإنسان منا قد يسير ويذهب إلى أى مكان والمذبذب يذيع الأغاني ، ويسمعها الإنسان ، وآلة إدراك

السمع منطقة وليست مفتوحة ؛ فهو لا يتصنت ، وآلة إدراك الانطباقية أو الانفتاحية مثل العين ؛ فالعين لا ترى وهي مغمضة ، إنها ترى وهي مفتوحة ، والعين تغمض بالجفون أما الأذن فليس لها جفون يقول لها : لا تسمعي هذه ، وهذه اسمعها .

إذن فالسمع ليس للإنسان فيه اختيار ، لكن التسمع هو الذى له فيه اختيار .

﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾ (١١٣)

[سورة الأنعام]

كان فيه شيئاً يبع طلب السمع فيه من الفؤاد ، أى يوافق ما فى الأعماق ، وشيئاً آخر يمر عليه الإنسان من الكرام غير ملتفت إليه . والأفئدة هى القلوب ، صحيح أن الأذان هى التى تصغى ، لكن القلوب قد تسمع ما يقال ، وكأن النفس مستعدة لهذه العملية ؛ لأنها لا تؤمن بأن هناك آخرة وعندما استعداد لأن تأخذ لذة الدنيا دون الثقات للآخرة . ولذلك ينقل الحق سبحانه الإصغاء من الأذن إلى الفؤاد وهذا إدراك .

﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ .. ﴾ (١١٣)

[سورة الأنعام]

ثم تأتى المرحلة الثانية والمرحلة الثالثة :

﴿ .. وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾ (١١٤)

[سورة الأنعام]

وقد يصغى إنسان ، ثم تنبيه نفسه اللوامة ، ويمتنع عن الاستجابة . لكن هناك من يصغى ويرضى وجدانه ويستريح لما يسمع ، ثم يتزعج للعمل ليقتترف الإثم . وهذه ثلاث مراحل : الأولى هى : « ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة » . ثم المرحلة الثانية : « وليرضوه » ، ثم المرحلة الأخيرة : « وليقترفوا » أى يرتكبوا الإثم ، وهذه المسألة حددت لنا المظاهر الشعورية التى درسها علماء النفس فالإدراك « لتصغى » ، والوجدان « ليرضوه » ، والتزوع « ليقترفوا » .

وقبل أن يولد علم النفس جاء القرآن بوصف الطبيعة البشرية بمراحلها المختلفة من إدراك ووجدان ، وتزويج ، والشرع لا يتدخل عند أى مظهر من مظاهر شعور المرء إلا عند التزويج إلا فى حالة واحدة حيث لا يمكن فصل التزويج عن الوجدان وعن الإدراك ؛ لذلك يتدخل الشرع من أول الأمر ، وهو ما يكون فى عملية نظر الرجل إلى المرأة ؛ لأنك حين تنظر تجد فى نفسك : تحبها وتعشقها تفتن بها ، ومحرم عليك التزويج ، فحين تتقدم ناحيتها يقول لك الشرع : لا . ولأن هذا أمر شاق على النفس البشرية ، ولا يمكن فصل هذه العمليات ؛ لأنه إن أدرك وجد ، وإن وجد نزاع ، فأمر الحق بالامتناع من أول الأمر :

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُوا مِنْ آبْصَارِهِمْ... ﴾ (٣٠) [سورة النور]

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَفْقَضْنَ مِنْ آبْصَارِهِنَّ... ﴾ (٣١) [سورة النور]

إذن فقد منع الإدراك من بدايته ولم ينتظر حتى التزويج ، لماذا ؟ لأن الإدراك الجمالى فى كل شيء يختلف عن الإدراك الجمالى فى المرأة . الإدراك الجمالى فى المرأة يحدث عملية كيميائية فى الجسم تسبب التزويج ، ولا يمكن فصلها أبدا . ولتنصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون . وساعة ما نقول : « ما » ويأتى الإيهام فهذا دليل على أن هناك أموراً كثيرة جداً . ولذلك يقول الحق :

﴿ ... فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (٧٨) [سورة طه]

أى أنه أمر لا يمكن أن تحدده الألفاظ ، مثله مثل قوله : (وليقتروا ما هم مقترفون) .

أى أن كل واحد يقترب ويكتسب ويعمل ويرتكب ما يعيل إليه ؛ فهناك من يغتاب أو يحسد أو يسرق وغير ذلك من شهوات النفس التى لا تحددها لذلك جاء لها باللفظ الذى يعطى العموم .

وما دامت المسألة فى نبوة واتباع نبوة ، وفى أعداء شياطين من الإنس والجن

ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً إذن فهذه معركة ، وحتى يتم الفصل فيها لابد من حاكم يحكم . فأوضح الحق : يا محمد أنا أرسلتك ، ولك أعداء وسيكيدون لك بكذا وكذا ويبدلون قصارى جهدهم في إيدائك ومن اتبعك ، فإياك أن تبتغي حكماً غيري ؛ لأن أنا المشرع وأنا من أحكم ، وأنا الذي سوف أجازي .

لماذا ؟ لأن الخلاف على ما شرع الله ، ولا يستقيم ولا يصح أن يأتي من يقول مراد المفسر كذا ، أو المفسر الفرنسي قال كذا ، والمفسر الإنجليزي قال كذا ، لا ، إن الذي يحكم هو من وضع القانون ، ومراداته هو أعلم بها ، والحق الواضح هو أعلم به ، وسبحانه هو من يحكم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :
(إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي فليحل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليركها)^(١) .

أى إياك أن يقول واحد : إن النبي قد حكم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد حكم بظاهر الحجة ، وقد يكون واحد من المختصمين قوى الحجة ، والآخر لا يجيد التعبير عن نفسه . إذن فالحكم هو الله لأنه هو الذي قنن ، وما دام هو الذي قنن وهو الذي يحكم بينكم ، فليطمئن كل إنسان يتخاصم مع غيره ؛ لأن القضية يفصل فيها أعدل العادلين وأحكم الحاكمين .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ
الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ
أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

فسبحانه هو من يحكم وهو من قنن ، وهو من يعلم القانون ويعلم من يتبع

(١) رواه مالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَئِبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

والمقصود هنا بالذين آمنَتْهم آتيناهم الكتاب اليهود والنصارى ؛ لأنهم يعلمون صفاتك يا رسول الله ويعلمون نعتك ويعلمون الكثير من كتابك فكل ما يتعلق بك موجود عندهم لكن الأفة أنهم اعتنقوا دينين : ديناً يعلن يبدونه ويظهرونه ، وديناً يُسرُّ به ، فما يسر به لا يعلنونه ويخترمون السؤال فيه ، ولا يقبلون فيه نقاشاً ، وعندما تصل إلى الحقيقة وتعرضها عليهم لا يقبلونها ، وما الذى جعلهم يلتزمون هكذا ؟ لأن لهم حالين اثنتين : حال أيام أن كانوا يعاديهن من لا يؤمن بالسما ومنهج السما كعبدة الأوثان والمشركين . وقال فيه الحق :

(وكانوا من قبل يستفتحون على الدين كفروا)

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

لقد كانوا من قبل أعداء للذين كفروا وأشركوا فكان مهمهم وشغلهم الشاغل أن يتصرفوا على هؤلاء الكافرين ، وقالوا :
(أظل زمان نبى تتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم)
وحينما جاءهم ما عرفوا كفروا به لأنهم :
(اشترؤا بآيات الله ثمنا قليلا)

(من الآية ٩ سورة التوبة)

وكان الثمن هربقاء السلطة في أيديهم ، وعندما تأتى النبوة تنزع منهم السلطة ، فليس في الإسلام سيطرة لرجال الدين ولا كهنوت . وكانوا يريدون أن تستمر سيادتهم ، فاشترؤا بآيات الله ثمنا قليلا .

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَئِبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وهم يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، وهم يعلمون أن الذي يشيعونه هو باطل . إذن فهناك علم بينهم وبين نفوسهم ؛ وعلم آخر يقولونه للآخرين . وقوله الحق : « فلا تكونن من الممترين » أى الشاكين فى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق . هذا خطاب للنبي ﷺ ، وتعلم أنه إذا طلب المتكلم من المخاطب أمراً هو فيه فالمراد المداومة عليه والزيادة ؛ لأن هناك أموراً قد تنزل الإيمان ؛ لذلك يأتى الأمر بالثبات ، أو هو إهاجة له ، أو هو تسلية للمؤمنين إذ قال لهم لا تغتروا ولا تشكوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١١٥﴾

وكلمة « تمت » تدل على أن المسألة لها بداية ولها خاتمة ، فما المراد بالكلمة التى تمت ؟ . أمى كلمة الله العليا بنصر الإسلام وانتهاء الأمر إليه ؟ أو هو تمام أمر الرسالة حيث قال الحق :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. (٢) ﴾

[سورة المائدة]

أو « كلمة ربك » المقصود بها قرآنه ؟ . ونرى أن معنى « تمت » استوعبت كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة ، فليس لأحد أن يستدرك على ما جاء فى كتاب الله حكماً من الأحكام ؛ لأن الأحكام غطت كل الأقضية . ولفظ « كلمة » مفردة لكنها تعطى معنى الجمع . وأنت تسمع فى الحياة اليومية من يقول : وألقى فلان كلمة طيبة فويلت بالاستحسان والتصفيق . هو قال كلمات لكن التعبير عنها جاء بـ « كلمة » إذن « تمت كلمة ربك » المقصود بها المنهج الذى يشمل كل الحياة ، واقرأ قوله الحق :

﴿ كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥) ﴾

[سورة الكهف]

أهي كلمة أو كلمات؟ أنها كلمة ولكن فيها كلمات. إذن لفظ «كلمة» تطلق ويراد بها اللفظ المفرد، وتطلق ويراد بها الكلام. والكلمة في الأصل لفظ مفرد، أي لا يكون معها لفظ آخر، ولكنها تدل على معنى، فإذا كان المعنى غير مستقل بالفهم، ويحتاج إلى ضمنية شيء إليه لفهمه فهذا حرف، وأنت تقول: «في» وهو لفظ يدل على الظرفية، إلا أنه غير مستقل بالفهم؛ لأن الظرف يقتضي مظلوماً ومظروفاً فيه، فبقول: «الماء في الكوب» لشؤدى المعنى المستقل بالفهم. وكذلك ساعة تسمع كلمة «من» تفهم أن هناك ابتداء، وساعة تسمع كلمة «إلى» تعلم أن هناك انتهاء. وإن كان يدل على معنى في نفسه وهو غير مرتبط بزمن فهو الأسم. وإن كان الزمن جزءاً منه فهو «الفعل». أما «الكلام» فهو الألفاظ المقيدة.

وحين تسمع «سما» تفهم المعنى، وكذلك حين تسمع كلمة «أرض» وهو معنى مستقل بالفهم. وحين تسمع كلمة «كتب» فهي تدل على معنى مستقل بالفهم، والزمن جزء من الفعل، فكتب تدل على الزمن الماضي و«يكتب» تدل على الحاضر و«سيكتب» تدل على الكتابة في المستقبل. إذن فـ «الكلمة» لفظ يدل على معنى فإن كان غير مستقل بالفهم فهو حرف. و«الكلمة» قد يقصد بها الكلام.

وقوله الحق: «أتمت كلمة ربك» تعنى الكثير. فإن إردت بها القرآن فالمقصود هو كلمة الله. وكلام الله نسميه «كلمة» لأن مدلوله كلمة واحدة. انتهت وليس فيها تضارب، هذا إن أردنا بها القرآن، ولتفهم أن القرآن قد استوعب كل شيء، وكل قضية في الوجود وأيضاً لم ينس أو يدك فيه حرف؛ بل بقى وسيبقى كما أنزل؛ لأن الآفة في الكتب التي نزلت أنهم كثموا بعضها ونسوا بعضها، وحرفوا بعضها، وكان حفظها موكولاً إلى المكلفين، ومن طبيعة الأمر التكليفى أنه يطاع مرة، ويعصى مرة أخرى. وإن أطاعوا حافظوا على الكتب، وإن عصوا حرفوها بدليل قوله الحق:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ آمَنُوا لِلَّذِينَ هَادُوا
وَالرَّبُّنِيُّونَ وَالْأَحْيَارُ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ .. (٤١)﴾ [سورة المائدة]

و«استحفظوا» أى طلب منهم أن يحافظوا عليه ، وهذا أمر تكليفي عرصة أن يطاع ، وعرصة أن يعصى ، لكن الأمر يختلف بالنسبة للقرآن فقد قال الحق :

﴿ إِنَّا نَعْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٩)

[سورة الحجر]

فسبحانه هو من يحافظ على القرآن ، وليس ذلك للبشر لأن القرآن معجزة ، والمعجزة لا يكون للمكلف عمل فيها أبداً .

إذن فقوله الحق : « تمت كلمة ربك » المقصود بها أن تطمئن على أن القرآن الذى بين يديك إلى أن تقوم الساعة هو هو لن تتغير فيه كلمة ، بدليل أنك تتعجب فى بعض نصوص القرآن ، فتجد نصاً مساوياً لنص ، ثم يختلف السياق ، فيقول الحق :

﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ ﴾ (٥٤) ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴾ (٥٥)

[سورة الدثر]

ومرة أخرى يقول سبحانه :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرَةٌ ﴾ (١١) ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴾ (١٢)

[سورة عبس]

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ (٢٩)

[سورة الإنسان]

فهذا لون ونوع من التشابه من الآيات ليقول لنا الحق :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (١٨)

[سورة القيامة]

والحق يقول :

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
الْفُحْرِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ
(٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ
هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩)﴾ [سورة المؤمنون]

وفي آية أخرى يقول :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٢٤)﴾ [سورة المعارج]

وكل ذلك يدل على أن كل كلمة وصلتك كما أنزلت ، وبذلك تكون كلمة ربك
قد تمت . أو قول الله : « وتمت كلمة ربك » لبذل على أن كلمة الله هي العليا ،
ولذلك تلاحظ أن « كلمة الله هي العليا » لم يجعلها الحق جملاً ، وإنما جاءت ثبوتاً ،
وسبحانه القائل :

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى .. (١٠)﴾ [سورة التوبة]

هذا السياق الإعرابي حصل فيه كسر مقصود ، والسياق في غير القرآن أن يقول :
وجعل كلمة الله هي العليا ، ولكنه سبحانه يقول :

(وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا)

وسبحانه أراد بذلك أن نفهم أن كلمة الله هي العليا دائماً وليست جملاً . وهذا
دليل على أن كلمته قد تمت .

ونلاحظ أن قول الحق : « وتمت كلمة ربك » تأتي بعد « أفغير الله أبغى حكماً » ،
واستقرىء مسوكب الرسالات من لدن آدم ، وانظر إلى حكم الله بين المبطلين

والمحقين ، وبين المهتدين والضالين ، إنه الحق القائل :

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ۝ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

والحاصب هو الريح التي تهب عملة بالخصى وكانت عقوبة لقوم عاد .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ۝ ﴾

(من الآية ٤١ سورة العنكبوت)

وهم قوم ثمود ، يسميها مرة الصيحة ، وأخرى يسميها الطاغية :

﴿ قَالُوا ثَمُودُ قَاتِلُكَوَا بِالطَّاغِيَةِ ۝ ﴾

(سورة الحاقة)

ومرة يخسف بهم الأرض مثلما فعل مع قارون : (فخسفنا به وبداره الأرض) .

وكذلك : (ومنهم من أغرقنا) .

وقد أغرق الله قوم فرعون وكذلك أغرق - من قبلهم - المكذبين لنوح . إذن كل قوم أخذوا حكم الله عليهم ، لكنك يا محمد مختلف عنهم وكذلك أمة محمد التي أصبحت مأمونة على الوصية ، وعلى المنهج ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

ويعد أن يبعث الحق رسوله صلى الله عليه وسلم قال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ۝ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأنفال)

إذن « تمت كلمة ربك » ، وهي الفصل النهائي :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ (٧١) إِنَّهُمْ لَمُِّمَّ الْمَنْصُورُونَ ۝ (٧٢) وَإِنْ جُنَدْنَا

لَهُمُ الْقَالِبُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴿

[سورة الصافات]

وأنتم المنصورون لأنكم منسربون إلى منهج غالب ، والتصر للمنهج الغالب يقتضى الإخلاص ، فإن تنصروا المنهج باتباعه ينصركم من أنزل المنهج ، فهو القائل :

﴿لَاغْلِبُنَاْنَا وَرُسُلِي .. ﴿٢١﴾﴾

[سورة المجادلة]

وما قاله كان هو الواقع وما جاء به الواقع كان مطابقاً للكلام .

﴿وَقَعْتُ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا .. ﴿١١٥﴾﴾

[سورة الأنعام]

أى وافق الواقع الكونى ما قال الله به . وكيف كان الواقع صادقاً وعادلاً فى أن واحد ؟ لنفرض أنك أحضرت مدرساً خصوصياً لولدك ، وصادف أنه هو الذى يدرس فى المدرسة وهو الذى يدرس لابنك ثم قلت له : أريد أن ينجح الولد فى الامتحان . ووعد المدرس بذلك ثم جاء الامتحان ونجح الولد ، فتكون كلمة المدرس قد صدقت . لكن هل هذا عدل ؟ قد يكون المدرس هو واضع الأسئلة ولمح للولد بالأسئلة ، ويكون النجاح حينئذ غير عادل ، لكن كلمة الله تحيىء مطابقة لما قال ، موقعها مطابق لما قال ، وهى كذلك عدل ؛ لأنه سبحانه أوضع الشراب والعقاب : (ومنت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) . لأنه لا مبدل لكلمات الله ، ولا يوجد إله آخر يعارضه فله سبحانه طلاقة القدرة .

أما بالنسبة للبشر فقد علم الله عباده احتياط الصدق فى كلامهم ؛ فأوصاهم :

﴿وَلَا تَقُولْنَ لِمَنْ شِئْنَا إِنَّا فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الكهف]

لأن فعل ذلك غداً والإتيان به وإحداثه هو أمر يتعلق بالمستقبل الذى لا نتحكم فيه ، فاحم نفسك وقل : « إن شاء الله » ، فإن لم يحدث يمكنك أن تقول : لم يشأ

ربنا حدوث ما وعدت به ، وبذلك يحمي الإنسان نفسه من أن يكون كاذباً ويجعل نفسه صادقاً فلا يتكلم إلا على وفق ما عنده من قوانين الفعل وعدم الفعل ؛ لأنه عندما تقول : « أفعل ذلك غداً » . ماذا ستفعل غداً وأنت لا تضمن نفسك وحياتك وظروفك ؟ لكن الله إذا قال : « سأفعل » فله طلاقة القدرة .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ حَقًّا وَعَدْلًا لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١١٥)

[سورة الأنعام]

ومادامت الكلمات ستتحقق والحكم سيصدر فهذا دليل على أنه سبحانه سميع لما قالوه في عدوانهم ، وعليم بما دبروه من مكائدهم ، وهو القائل من قبل :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. ﴾ (١٢١) [سورة الأنعام]

أي ليعلموهم بخفاء ، فإن كان كلامهم ظاهراً فهو مسموع ، وإن كان بخفاء فهو معلوم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (١١٦)

« من في الأرض » المقصود بهم المكلفون ؛ لأنهم هم من يتميزون بالاختيار ولهم أوامر ونواه ، فما دون الإنسان لا أمر له ، « أكثر » لا يقابلها بالضرورة كلمة « قليل » أو « أقل » ، وما دام القول هو : « أكثر » . فقد يكون الباقون كثيراً أيضاً ، وأما كثير فإنها ، تعطى له كميته في ذاته وليست منسوبة إلى غيره ، ولذلك كنا نسمع من يقول : مكتوب على محطة مصر أو على « المطار » أو على « الميناء » ، يا داخل

مصر منك كثير ، أى إن كنت رجلاً طيباً فستجد مثلك الكثير ، وإن كنت شريراً فستجد مثلك الكثير أيضاً .

ويقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴾ (١٨٨) [سورة الحج]

فكل الكائنات مقهورة مسخرة ، وعند الناس انقسام الأمر ؛ لأن لهم اختياراً ، فراح أناس للطاعة وذهب أناس للمعصية ، فلم يقل الحق : والناس . بل قال « وكثير من الناس » ، ولم يقل الحق : وقليل حق عليه العذاب ، لكنه قال : « وكثير حق عليه العذاب » فهؤلاء كثير وهؤلاء كثير ، وإن نظرت إليهم فى ذاتهم فهم كثير ، والآخرى أيضاً إذا نظرت إليهم تجدهم كثيراً . ولماذا يقول الحق : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ؟ »

« الطاعة » - كما نعرف - استجابة للأمر فى « افعل » ، والنهى فى « لا تفعل » إذا قال الحق للإنسان افعل كذا ؛ فالإنسان صالح لأن يفعل وأن لا يفعل ، وإن قال « لا تفعل » فالإنسان صالح أن يفعل ، وأن لا يفعل ، وإن كان هناك شيء لا تقدر عليه فلن يقول لك : افعله . والإنسان عادة حين يؤمر أو ينهى إنما يؤمر وينهى لمصلحته ، فإن لم يوجد أمام مصلحة معارض من منهج إلهى فهذا من مصلحته أيضاً ؛ لأن الله أجاز له حرية الفعل والترك . ويوضح الحق : من رحمتى أن جعلت لكم تشريعاً ؛ لأننا لو تركنا الناس إلى أهوائهم فسيأمر كل واحد من الذين لهم السيطرة على الناس بما يوافق هواه ، وسينهى كل واحد من الناس بما يخالف هواه ؛ لذلك نعصم هذا الأمر بالمنهج . حتى لا يتضارب الخلق ولا يتعاكس هواك مع هوى أخيك . ومن المصلحة أن يوجد مطاع واحد لا هوى له ، ويوجد منهج يقول للجميع « افعلوا كذا » و « لا تفعلوا كذا » وبذلك يأتى الاستطراق لنفعهم جميعاً . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِنْ تَطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾ (١٩٦) [سورة الأنعام]

فهناك أناس مزمونون وهم أصحاب الفطرة السليمة بطبيعتهم ؛ لأن الخير هو الفطرة في الإنسان ، وقد جاء التشريع لينمي في صاحب الفطرة السليمة فطرته أو يؤكد ما له ، ويعدل في صاحب النزعة السيئة ليعود به إلى الفطرة الحسنة .

والذين يضلون عن سبيل الله ماذا يتبعون ؟ يقول الحق : (إن يتبعون إلا الظن) .

كل واحد منهم يظن أن هذا الضلال ينفعه الآن ، وبغيب عنه ما يجبر عليه من الريال فيما بعد ذلك .

و«الظن» - كما نعلم - هو إدراك الطرف الراجع ويقابله الوهم وهو إدراك الطرف المرجوح والظن هنا ، هو ما يرجحه الهوي :

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (١٦) [سورة الأنعام]

و«إن» - كما نعرف - تأتي مرة بجازمة : إن تفعل كذا تجدد كذا ، وتأتي مرة نافية ، مثل قوله الحق :

﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهُتُّهُمْ إِلَّا الشُّعْبَى وَلَدْنَهُمْ .. ﴾ (٢) [سورة المجادلة]

أي : ما أماتهم ، ف«إن» هنا نافية . وقوله الحق : « إن يتبعون إلا الظن » أي ما يتبعون إلا الظن ، هم إما أن يتبعوا الظن وإما أن يخرصوا . (فالخارص) هو من يتكلم بغير الحقيقة ، بل يخمن تخميناً ، كأن ينظر إنسان إلى آخر في سوق الغلال ويسأله : كم يبلغ مقدار هذا الكوم من القمح ؟ . فيرد : حوالي عشرة أراذب أو اثني عشر أردباً ، وهو يخمن تخميناً بلا دليل يقيني أو بلا مقاييس ثابتة ، أو يقول كلاماً ليس له معنى دقيق .

فإذا اتبعت الناس فسوف يضلونك . لأنهم لا يملكون دليلاً علمياً ، ولا حقاً يقينياً ، بل يتبعون الظن إن كان الأمر راجحاً ، ويخرصون ويخمتون حتى ولو كان الأمر مرجوحاً .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

وساعة ترى «هو» هذه فاعرف أنها ترد وتجب على ما يمكن أن يقال ، فهناك من يقول : أنا سوف أرى تصرفات فلان ، ولأنك من البشر فمهما علمت عنه فأنت محدود الإدراك ، لأنك ستري تصرفات فقط ، ولن ترى انفعالات قلبه وتقلبات عقله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الأعلم ، لأن الميزان كله عنده ، إنه يدرك الظاهر والباطن ، وهو سبحانه يقول هنا : «أعلم» وهناك «عليم» ، و«العليم» هو من يرى ظاهر الأمر ويحيط به ، لا يخفى منه ، أما الذي يرى الظاهر والخفى فهو أعلم .

ولذلك كان النبي ﷺ في مسائل كثيرة يعامل الناس بعلايتهم ، ويترك سرائرهم إلى الله . وعندما قتل مسلم رجلاً أعلن الإسلام ، سأله ﷺ لماذا ؟ ، قال : لأنه أعلن الإسلام نفاقاً . فقال ﷺ : أشققت عن قلبه ؟ ! .

وسبحانه وتعالى «أعلم» ، لأنه يعلم الظاهر والباطن ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ويقول الحق :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ
مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ
وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ
إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرَ الْيُضْلُونَ بِأَهْوَاءِهِمْ يَغَيِّرُ عَلَيْهِمْ إِنْ رَبِّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ ١١٨

ما الذى أدخل هذه المسألة فى هذا السياق ؟ لقد تكلم الحق عن أن هناك أعداء لكل نبي يلتمسون ثغرة فى منهجه ليتكلموا فيها ، وهذه هى مهمتهم التى היאها الله لهم ، فحين يقولون الاعتراضات نجد المنهج يرد عليهم وبذلك تتفع الدعوة إلى أن تقوم الساعة .

مثال ذلك نجد الجماعة الذين عارضوا رسول الله ﷺ فى الإسراء والمعراج ، فحين قال لهم : إننى أسرى بى إلى المسجد الأقصى وعرج بى إلى السماء فى ليلة واحدة ، التمسوا له ثغرة ليتفدوا منها ويضللوا غيرهم وقالوا له : أنتدعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ لكن أبو بكر الصديق قال : إن كان قال فقد صدق ، وهذا هو الإيمان الذى يحسن استقبال الأمر المخالف للنواميس . ويجادلون أبا بكر ، فيقول : أنا صدقته فى خبر السماء فكيف أكذبه فى ذلك ، ما دام قال فقد صدق ، وهذا كلام منطقي .

لكن المعارضين لرسول الله ﷺ قالوا : أنتدعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ! فأعطى ﷺ لهم الأمارات ووصف لهم العير التى فى الطريق ، وغير ذلك من العلامات التى تجعل من الأمر حجة إلى يوم القيامة ، ولو مرت مسألة الإسراء والمعراج من غير أن يعترض أحد من الأعداء ، لما وجدنا الحرارة فى تصديقها .

إننا نجد حالياً من يقول : وهل من المعقول أنه ﷺ راح إلى بيت المقدس وجاء فى ليلة ؟ لا بد أن ذلك كان حلماً ، لو لم يقولوا هم هذا ما كنا عرفنا الرد ؛ إنما هم قالوها حتى نعرف الرد ويظل الرد رادعاً إلى أن تقوم الساعة ، وهذه هى المهمة التى جعلها الله للأعداء ؛ لأنه ﷺ لو قال

لهم : إننى حللت أنى رحمت بيت المقدس . أكان هناك من يعترض على أن يحلم النبى حتى ولو قال : إنه ذهب إلى آخر المعمورة إنه لا يجرق واحد أن يكذبه ، لكنهم ما داموا قد كذبوه ، ورفضوا تصديق الإسراء فهذا دليل على أنهم فهموا من الذهاب أنه ليس ذهاب رؤيا وإنما ذهاب قالب ، لقد فهموا عنه أنه قد انثقل بجسده من مكة إلى بيت المقدس ، ولذلك كذبوه ، وهذا التكذيب منهم ينفعنا الآن ، لتردبه على المكذبين المعاصرين .

إذن فوجود الأعداء يهيج القرائح التى يمكن أن نرد على أية شبه يشيرها أى إنسان سواء أكان ماضياً أم معاصراً .

والحق هنا يقول :

﴿ فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٦٨) [سورة الأنعام]

هذه الآية لها قصة توضح كيف يحاول الأعداء اصطياد الشغرات لينفذوا منها ، وقالوا : يقول النبى لكم : إن الميتة لا يحل لكم أن تأكلوا منها ، وما تدبحونه بأيديكم كلوا منه ، والذبح لون من الموت ، هذه هى الشبهة التى قالوها ، وهى أولاً منالطة فى الأساليب ؛ لأن الميتة غير المذبوحة وغير المقتولة . فالمذبوحة إنما ذبحتها لتظهرها من الدم ؛ لذلك فالمناقشة الفقهية أو العلمية تهزم قولهم ؛ لأن هناك فرقاً بين الموت والقتل . فالموت هو أخذ للحياة بدون سلب للبنية ، إنما القتل هو سلب للبنية أولاً فتزهر الروح ويبقى الدم فى الجسم . ثم هل يأخذ المشرع وهو الرب الأعلى الحكمة منا أو أن الحكمة عنده هو وحده ؟ .

وقد تبين لنا فى عصرنا أن غير المؤمنين بدأوا فى الاهتمام إلى أن الميتة فيها كل الفضلات الضارة ، واهتدوا إلى إزالة كل الفضلات الضارة من الحيوانات التى يريدون أكلها ؛ لأن تكوين جسم الحيوان يتشابه مع تكوين جسم الإنسان ، فهو يأكل ويهضم ويمتص العناصر الغذائية ليتكون الدم والطاقة ، وفى الجسد أجهزة تصفى وتنقى الجسم من السموم الضارة ، فالكلية مثلاً تصفى الدم من البولينا وغيرها ، ويسير الدم ليمر على الرئة ليأخذ الأوكسجين ، وكل ذلك لتخليص الجسد من الفضلات الضارة ، وأوعية الدم فى الإنسان والحيوان فيها الدم الصالح والدم

الفساد ، والدم الفاسد هو الذى لم تتم تنقيته ، وعندما نذبح الذبيحة ينزل منها الدم الفاسد وغيره ، أى أننا ضحينا بالدم الصالح فى سبيل وقايتنا من الدم الفاسد . لكنها إن ماتت دون ذبح ، فأثار الدمين الاثنى عشرة موجودة . وكذلك أثار الفضلات التى كان يجب أن يتخلص منها ، وهذا ما نفعله فى هذا الأمر ، لكن هل لنا مع الحق سبحانه وتعالى تعقل فى شيء إلا فى توثيق الحكم والاطمئنان إلى مجيئه منه بجلت قدرته ؟

كان جدلهم أنهم قالوا : أنتم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ، فأنتم تظهرون أنفسكم أحسن من الله ، وهذا افتراء منهم . ثم إن الحيوان حين يموت لم يذكر عليه اسم الله ، لكن الذبيحة التى نذبحها نذكر عليها اسم الله ، فكان الحق سبحانه وتعالى يوضح : فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . أى غير الميتة وغير ما يلذع للأصنام .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٨) [سورة الأنعام]

إن تلقى أى حكم من الحق ، لا يصح أبداً أن نبحث عن علة أولاً ثم نؤمن به ، بل علينا بعد أن تثق بأنه من الله الذى آمنا به . علينا إذن أن نأخذ الحكم الذى أمر به الله .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ (١١٩) [سورة الأنعام]

وللآيتين - كما علمنا - سبب نزلنا من أجله وهو أن بعض المعارضين لرسول الله الذين يفترون من الدعوة موقف التكذيب والعمل على إبطالها والقضاء عليها ، كانوا يُشيعون عند المؤمنين إشاعات قد تفت فى عضدهم العقدى فعرضوا هذه المسألة وهى فى ظاهرها تشكيك . وهم قد عرضوا القضية بهذا الشكل غير المتسق ؛ لأن من الذى قتل ؟ لقد قالوا : إن الميتة قتلها الله ، فهل الله هو الذى قطع رقبتها ؟ وهل

ضربها الله على رأسها فأما أصل إدارة الحياة وهو المنع ؟ هل صوّب شيئاً إلى قلبها ؟ سبحانه جل وعلا منزّه عن مثل هذه الأفعال البشرية ، فكيف يسمون الموت قتلاً ؟ إن تسمية الموت قتلاً هو الخطأ ، فقولهم : كيف تبيحون لأنفسكم ما قتلتموه أى بالذبح . ولا تبيحون ما قتله الله أى أماته ، فيه مغالطة فى عرض القضية ، ويريد الله سبحانه وتعالى أن يضع عند المؤمنين مناعة من هذه الهراجس التى يثيرونها ؛ فقال : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٦٨)

وما معنى الذكر ؟ إن عدم تحديد العلماء المعنى المقصود بالذكر ، هو الذى أوجد بينهم خلافاً كبيراً ، فسيدنا الإمام مالك يرى أنك إذا ذبحت ولم تذكر اسم الله سواء أكنت ناسياً أم عامداً فلا يصح لك أن تأكل من الذبيحة . ويرى الإمام أبو حنيفة : إذا كنت لم تسم ناسياً فكل مما ذبحت ، لكن إن كنت عامداً فلا تأكل ، والإمام الشافعى - رحمه الله - يرى : ما دمت مؤمناً ومقبلاً على الذبح وأنت مؤمن فكل مما لم تذكر اسم الله ناسياً أو عامداً لأن إيمانك ذكر الله .

ونقول : ما هو الذكر ؟ هل الذكر أن تقول باللسان ؟ أو الذكر أن يمر الشئ بالخاطر ؟ إن كنتم تقولون إن الذكر باللسان فلنبحث فى الحديث القدسى الذى قاله الله تعالى : « أنا عند ظن عبدي ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منهم » (١) .

إذن فقد سمى ربنا الخاطر فى النفس ذكراً وبذلك يصبح من حق الإمام الشافعى أن يقول ما قال .

لذلك أقول : يجب أن نحدد معنى الذكر أولاً حتى ننهى الخلاف حول هذه المسألة ، فليس من المقبول أن نقيم معركة حول معنى « الذكر » ؛ لأن الذكر وهو خطور الأمر على البال قد يصحبه أن يخطر الأمر على اللسان مع الخطور على البال ، وقد يظل خطوراً على البال فقط ، بدليل ما جاء فى الحديث السابق .

والمؤمن حين يجد أمامه أشياء كثيرة ، قد يوجد شيء جميل وآخر ليس له من الجمال شيء ؛ فالجاموسة أقل في الجمال من بعض الحيوانات التي حرم الله أكلها ، وأقبل المؤمنون على ذبح الجاموسة ليأكلوا منها ، ولم نسمع عن مسلم تقدم إلى حيوان حرم الله أكله ليذبحه ، لماذا ؟ لأن المؤمن يقبل على ما أحل الله ، وهذا الإقبال دليل على أنه ذكر في نفسه المحلل والمحرم وهو الله ، إذن اختياره حيواناً للذبح دليل على أنه ذكر الله في النفس أو في القول ، وبهذا تتفق على أن ذكر المؤمن يكون في قلبه قال أو لم يقل ، وينتهي الخلاف في هذه المسألة . إذن الإمام الشافعي أخذ بهذه المسألة ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما سئل عن أكل المسلم من ذبيحة لا يعرف من ذبحها وهل سمي أو لم يسم ، أوضح لمن سألته : سم وكل .

فإنسان منا لا يحضر وقت الذبح دائماً ، ويكفيه أن يستحضر المحلل والمحرم ساعة الأكل . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : اذكروا اسم الله ، وسبحانه يعلم أنك تقبل على أشياء لتفعلها . وهذه الأشياء تنقسم إلى قسمين : قسم يمر على بالك قبل أن تفعله ، وقسم لا يمر على بالك ، بل تفعله تلقائياً بدون ما يمر على البال ، ومثال ذلك الأفعال العكسية كلها التي يفعلها الإنسان إنها لا تمر على باله . فلو حدث أن حاول واحد أن يضع إصبعه في عين آخر ، فهذا الآخر يغمض عينيه تلقائياً . ويختلف ذلك عن الفعل الذي تفكر فيه قبل أن تفعله . فالذي يفعل الفعل بعد أن يمر بخاطره هو فعل ذو بال . ولذلك أراد الرسول عليه الصلاة والسلام ألا يكلفنا عناء أو مشقة ؛ فقال :

« كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع » (١) .

والأمر ذو بال هو الأمر الذي يكون قد خطر على بالك أن تفعله أو لا تفعله . إذن قاله سبحانه وتعالى لا يكلفنا إلا عند الأمر الذي يمر على الخاطر ؛ لأنك حين تقبل على أي فعل فينفعل لك كما تريد ، إن هذا من عطاء الله لك ، وأنت حين تذبح عاجلاً ، أو خروفاً ، وتأمل أنت كيف يُقدرك الله على هذا الكائن الحي . وإنك لم تفعل ذلك إلا لتسخير الله كل الكائنات لك . فباسم الله تذبحه .

إذن هناك أمور كثيرة وأفعال ذات بال تمر عليك ومن حسن الأدب والإيمان أن

(١) رواه عبد القادر الرمادي في الأربعين عن أبي هريرة .

تقبل عليها باسم الله . ولذلك يخطئ بعض الناس حين يظنون أن الإنسان عندما يذبح حيواناً فهو يؤذيه . لا ، بل ذبح هذا الحيوان هو تكملة لمهمته في الحياة ، لأنه مخلوق لهذا الهدف ومذلل له .

لقد قلنا سابقاً : إن هناك عجيبة من عجائب المزاوالت الفعلية ، هذه العجيبة أنك حين تأتى إلى الحيوانات التى لم يحلها الله للإنسان ، كالخمار مثلاً إذا ما تعرضت هذه الحيوانات إلى ما يمينها ، كان التف حول عنقه جبل ، واختنق فهو يموت دون أن يمد رقبته إلى الأمام ، لكن الحيوان الذى أحله الله للأكل ، مثل الجاموسة أو الخروف أو العجل ، نجد الحيوان من هذه الحيوانات إن اختنق يمد رأسه إلى الأمام ، فيقول أهل الريف في مصر : إنه يطلب الحلال ، أى الذبح . فلا يسمى ذبح الحيوان اعتداء عليه ، لأن الحيوان مخلوق لهذه المهمة .

إذن فمعنى كلمة « باسم الله » أى أنى لم أجترى على هذا العمل إلا فى إطار اسم الله الذى أحل لى هذا .

بعد ذلك يقول الحق للمؤمنين : لا تسمعوا كلام الكافرين ، ويأتى السؤال الاستنكارى : « وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه » والمعنى : أى سبب يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؟ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، فما ذكر اسم الله عليه ليس من ضمن المحرمات التى نص الله عليها ، فربنا سبحانه هو من حلال وحرم . وإن قيل : ما دام قد حرم علينا بعض الأشياء فلماذا خلقت هذه الأشياء ؟ ونقول : إن من يفكر بمثل هذا الأسلوب يتناسى أن كل مخلوق من الحيوانات ليس مخلوقاً للأكل ، بل لكل حيوان مهمة . وإن ذبحت محرماً ، فقد يناقض هذا الفعل مهمته . فالحنزير - مثلاً - حرمه ربنا ، لأنك إن ذبحته فستذهب به بعيداً عن مهمته ، لأنه مخلوق كى يلم جراثيم الأشياء التى لا تراها العين ، فأنت حين تذبحه تخرجه عن مهمته . والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الإنسان ، ويعلم ما يناسبه من غذاء يولد الطاقة ولا يهدر الصحة ، لذلك حرم وحلل له ، وإياك أن تقول : إن الله سبحانه وتعالى لم يحرم إلا الشئ الضار ، فقد حرم شيئاً غير ضار لأنه يريد بذلك الأدب فى : « افعل هذا » و « لا تفعل هذا » . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قُلْ ظَلِمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

وفي حياتنا اليومية هل نقول : إن الذين يربون أبناءنا في الجيش بالشدة ، يقعون على الأبناء ؟ لا ، بل إنهم يعدونهم لمواجهة المهام الشاقة . وأن يتعودوا التزام الأدب والطاعة والانضباط ، فكذلك حلل الحق ما أراد وحرم ما شاء ليجعل الكون منضبطاً بقدرة الحكيم القادر ، فسبحانه يحرم أشياء مثل المخدرات ، ونحن في بعض الأحيان نتناولها لندأوى بها الأمراض ، فلرأخذها الإنسان من غير مرض أو داء ، فإنها تسرق الصحة من بنية الإنسان ، وإن أخذها من بعد ذلك للعلاج لا تأتي بالمفعول المطلوب منها . ولذلك نجد من الأطباء من يسأل الإنسان قبل إجراء الجراحات الدقيقة إن كان المريض قد تناول المخدرات أولاً ، وذلك حتى يتعرف الأطباء على حقيقة ما يصلح له من ألوان التخدير .

وسبحانه وتعالى قد منح عنا تلك الألوان من مغييات العقول ، لعلنا نحتاج إليها في لحظة الشدة والمرض .

إذن فالحق سبحانه وتعالى قد ربط كل حكم من الأحكام التحليلية والتحريرية بـ « إن كنتم مؤمنين » ، ومعنى « إن كنتم مؤمنين » أي يا من آمنتم بالإله الحكيم الذي لا يأمر إلا بما فيه مصلحتكم ، امتنعوا عن مثل تلك الأفعال ، وإذا أقبلت على أي شيء مما أحله الله لك فاقبل عليه باسم الله ، وسبحانه وتعالى له أسماء علمها لنا ، وأنزلها في كتابه ، وأسماء علمها لأحد من خلقه ، وأسماء استأثر بها في علم الغيب عنده ، وهذه الأسماء هي صفات الكمال لله ، التي لا توجد في غيره . وحين تستحضر الاسم الجامع لكل صفات الكمال نقول : باسم الله . وتنتهي المسألة . وحين نأش العلماء مسألة التحريم والتحليل ، قال بعضهم : إن الحق سبحانه وتعالى قال في أول سورة المائدة :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

وهنا في سورة الأنعام يقول :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

والتيهون من العلماء قالوا : إن سورة المائدة مدنية ، ومعنى كونها مدنية أنها نزلت

للعمل . والله سبحانه وتعالى يعطى الإنسان الرخصة فى أن يتناول ما حرمه إذا كان مضطراً .

﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ (١١٩)

[سورة الأنعام]

والذين يضلون بأهوائهم بغير علم هم من أرادوا زراعة الشك فى نفوس المسلمين . ومعنى الضلال بالهوى أن تكون عالماً بالقضية ، ولكن هواك يعدل بك عن مراد الحق من القضية . ولذلك يصف الحق رسوله ﷺ :

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٢)﴾

[سورة النجم]

وحين يقول الحق : « وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم » فمعنى ذلك أنه يوجد ضلال بغير هوى ، وهو عدم وصول الإنسان إلى الحقيقة ؛ لأنه لا يعرف الطريق إليها ، والضلال بالهوى أى أن تكون عندك الحقيقة وأنت عارف بدورها ولكنك تعدل عنها .

﴿وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ (١١٩)

[سورة الأنعام]

وساعة ترى مجيء متعلق بعد « يضلون » وهو قوله : (بأهوائهم) تقول كان هناك ضلالاً بغير علم ، وهو غير مذموم ؛ لأن صاحبه لا يعرف الحكم فى القضية ، وهذا يختلف عن الذى يضل وهو يعرف الحكم ، فهذا ضلال بالهوى ، وهذا الفهم يحل لنا إشكالات كثيرة أيضاً . و« بغير علم » أى ليس عندهم علم بالقضية وأحكامها .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿...إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (١٢٠)

[سورة الأنعام]

وقد أفسح الله فى النص القرآنى لبعض خلقه الذين يعرفون المهتدى من غير المهتدى ، والكثير من الناس لا يعلمون المهتدى من غير المهتدى ولكن إن علموا فالله أعلم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِي
يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ (١٤٠)

هذه تقنيات السماء التي تحمى المجتمع من بعضه وذلك في الانقاع عين أحد على مخالفة من أحد ، وإذا وقعت عينك على مخالفة من غيرك تكون المخالفة مما يدرك لكنها ليست كل الفساد في المجتمع ؛ ففساد المجتمع يأتي من أشياء كثيرة لا تقع تحت دائرة الإدراكات . وهناك أشياء تكون في منابع النفس البشرية التي تصدر عنها عوامل النزوع ؛ فقبل أن يوجد إثم ظاهر يوجد إثم باطن ، والإثم الباطن سابق على الإثم الظاهر . والتقنيات البشرية كلها تحميها من ظاهر الإثم ، ولكن منهج السماء بحميها من فساد ظاهر الإثم وباطن الإثم .

ويوضح لنا الحق الفرق بين تقنين البشر للبشر وتقنين الإله ، فسيحانه رقيب على مواجيدكم ووجداناتكم وسرائركم ، فلماذا أن تفعلوا باطن الإثم ، ولا يكفي أن تحمي نفسك من أن يراك القاتون ؛ لأن قصارى ما يعمل القاتون أن يمنع الناس من أن يتظاهروا بالجريمة ويقتربوها علانية ، والفرق بين تشريع السماء وتشريع الأرض أن تشريع الأرض يحمي الناس من ظاهر الإثم ، ولكن تشريع السماء يحمي الناس من ظاهر الإثم وباطن الإثم ، وباطن الإثم هو أعنف أنواع الإثم في الأرض .

وبعض أهل الاكتساب في الشر برياضتهم على الشر يسهل عليهم فعل الشر وكأنهم يفعلون أمراً قد تعودوا عليه بلا افتعال .

وه كسب ، - كما نعلم - تأتي بالاستعمال العام للخير ، وه اكتسب ، تأتي للشر لأن الخير يكون فيه الفعل العمل رتبياً مع كل الملكات ، ولا افتعال فيها ، فمن يريد - مثلاً - أن يشتري من محل ما فهو يذهب إلى المحل في وضع النهار ويشتري . لكن من يريد أن يسرق فهو يرتب للمسقة ترتيباً آخر ، وهذا افتعال ، لكن الافتعال قد يصبح بكثرة المرات والدربة عليه لا يتطلب انفعالاً ، لأنه قد أصبح لونا من

الكسب . و« يكسبون » تدل على الربح ؛ لأن « كسب » تدل على أنك أخذت الأصل والزيادة على الأصل ، والإنسان حين يصنع الخير إنما يعطى لنفسه مقومات الحياة ويأخذ أجر الآخرة زائداً ، وهذا هو قمة الكسب .

ويريد الحق سبحانه وتعالى من العبد فن حركته أن يحقق لذاته نفعاً هو بصدد الحاجة إليه ، ولكن الإنسان قد يحقق ما ينفعه وهو بصدد الحاجة إليه ، ثم ينشأ من ذلك الفعل ضرر بعد ذلك ؛ لذلك يحمى الله الإنسان المؤمن بالمنهج حتى يميز بين ما يحقق له الغرض الحالى ويحقق نفعاً ممتداً ولا يأتى له بالشر وما يحقق له نفعاً عاجلاً ولكن عاقبته وخيمة ونهايته أليمة ، إننا نجد الذين يصنعون السيئات ويميلون للشهوات - مثلاً - يحققون لأنفسهم نفعاً مؤقتاً ، مثل التلميذ الذى لا يلتفت إلى دروسه ، والذى يتام ولا يستيقظ ، والذى إن أيقظوه وأخرجوه من البيت ذهب ليتسكع فى الشوارع ، هو فى ظاهر الأمر يحقق لنفسه راحة ، لكن مآله إلى الفشل . بينما نجد أن من اجتهد وجد وتعب قد حقق لنفسه النفع المستمر الذى لا تعقبه ندامة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [سورة الأنعام]

ففى الدنيا نجد أن الجزاء من بشر لبشر ، ولكن ماذا عن لحظة العرض أمام الله وهو العليم بظاهر الإثم وباطن الإثم ؟

قالذى يصون المجتمع - إذن - هو التقيين السماوى ، فالمنهج لا يحمى الإنسان من حوله فحسب ولكنه يقن حركة الإنسان لتكون صحيحة .

ويعود الحق بعد ذلك إلى قضية الطعام فيقول :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ

لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوَّلِيَّائِهِمْ

لِيُجْدِلُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [١٦١]

وهنا يسمى الحق ما لم يذكر اسم الله عليه بـ «الفسق» وهو ما تشرحه الآية الأخرى وتبرزه باسم مخصوص :

﴿ قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. ﴾ (١١٥) ﴿ [سورة الأنعام]

إذن قد «فسقاً» معصوفة على الميتة والدم المسفوح ولحم خنزير، لكنه سبحانه فصل بين المعطوف وهو (فسقاً) ، والمعطوف عليه بحكم يختص بالمعطوف عليه ، وهذا الحكم هو الرجس وهكذا أخذت الثلاثة المحرمات حكم الرجس . وعطف عليها ما ذبح وذكّر عليه اسم غير الله كالأصنام وهو قد جمع بين الرجس والفسق

ويقول الحق : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » وسبحانه يريد أن يبين لنا أن الفطرة السليمة التي لا يميلها هوى تصل إلى حقائق الخير ، ولذلك نجد أن الذين يحشون ويحضر بعضهم بعضاً على الشر ويعلم بعضهم بعضاً بخفاء إنما يأخذون مقام الشيطان بالوسوسة والتحريض على العصيان والكفر ؛ لأن المسألة الفطرية تأتي هذا ، وحين يرتكب إنسان موبقة من الموبقات ، إنما يلف لها ويتحایل ليصل إلى ارتكاب الموبقة ، وقد يوحى بذلك إلى غيره ، فيدله على الفساد . ويكون بذلك في مقام الشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم بإعلام خفى ؛ لأن الفطرة السليمة تأبى الأشياء الشريرة وتتف أيضاً فيها ، ولا يجعلها تتقدم إلى الشر إلا الهوى ، فإذا ما أراد شيطان من الإنس أو شيطان من الجن أن يزين للناس فعلاً فهو لا يعلن ذلك مباشرة . إنما يلف ويدور بكلام ملفوف مزين .

« وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » وفي ذلك إشارة إلى قول المشركين : تأكلون ما قتلتم أنتم ولا تأكلون ما قتل الله وأنتم أولى أن تأكلوا مما قتل الله .

وكان مجرد الطاعة لهؤلاء المشركين لون من الشرك ؛ لأن معنى العبادة امتثال وإتباع عابد لمعبود أمراً ونهياً ، فإذا أخذت أمراً من غير الله فإنه يخرجك عن صلب وقلب منهجه سبحانه وبذلك تكون قد أشركت به .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَوْ مَنْ كَانَتْ مِثْلًا فَأَحْيَيْتَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا
يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ
بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴾

والحق سبحانه وتعالى - كما عرفنا - يعرض بعض القضايا لا عرضاً إخبارياً منه ، ولكن يعرضها باستفهام ؛ لأنه - جل وعلا - عليم بأنه حين يأتي لك الاستفهام ، ثم تدبر ذهنك لتجيب فلن تجد إلا جواباً واحداً هو ما يريد الحق . إذن فالأسلوب أحياناً يكون أسلوباً خبرياً أو يكون استفهاماً بالإثبات أو استفهاماً بالنفي . وأقواها الاستفهام بالنفي . وحين يعرض سبحانه القضية التي نحن بصدد حلها يوضح وهو العليم أنك إن أحبت أن تجيب فلن تجد إلا الجواب الذي يريد الحق .

إننا نجد في الآية الكريمة موتاً وحياة ، وظلاماً ونوراً .

وما هي الحياة ؟ . الحياة هي وجود الكائن على حالة تمكنه من أداء مهمته المطلوبة منه ، وما دام الشيء يكون على حالة يؤدي بها مهمته ففيه حياة ، وأرقى مسترى للحياة هو ما نجتمع فيه الحركة والحس والفكر ، وهذه الأمور توجد كلها في الإنسان . أما الحيوان ففيه حس وحركة وليس عنده فكر . غير أن الحيوان له غريزة أقوى من فكر الإنسان ، فهو محكوم بالغريزة في أشياء وبالاختيار في أشياء ، وليس لك في الغريزة عمل . لكن في مجال الاختيار لك عمل ، تستطيع أن تعمله وتستطيع ألا تعمله .

إذن فالحياة هي أن يكون الكائن على حال يؤدي به مهمته المطلوبة منه . وعلى هذا الاعتبار ففي الإنسان حياة ، وفي الحبة حياة ، وفي النبات حياة ، وفي الجماد حياة ، وكلما تقدم العلم يثبت لنا حيوات أشياء كثيرة جداً كنا نظن ألا حياة فيها ، وإن ظهر لنا في التفاعلات أن بعض الأشياء تتحول إلى أشياء أخرى ، فعلى سبيل المثال الحيوان فيه حياة فإذا ذبحناه وأكلناه ، ورمينا عظامه ، كانت فيها حياة من نوع ثم صارت أجزائه إلى جمادية لها حياة من نوعها ، بدليل أنه حين يمر بعض من الزمن يفتت العظم .

وكنا قديماً في الريف نحلب اللبن في أوعية من الفخار وتوضع في مراقد ، ويستمر اللبن أسبوعاً في المرقد ، ويكون أحلى في يومه عن أمسه . ويزداد اللبن حلاوة كل يوم ، ثم تأخذ زوجة الفلاح قطعة القشطة الأخيرة وتصنع منها الجبن الجميل الطعم . أو الزبد لكن بعد أن غلينا اللبن نجده يفسد بعد عدة ساعات ، لأنك حين وضعته في المرقد ، أخذته بالحياة فيه فظلت فيه حيوية حيانه ، لكن حين غليته فقد قتلت ما فيه من الحياة ، فلما لم تضعه في ثلاجة لا بد من أن يتعفن ، ومعنى التعفن أنه لم يعد يؤدي مهمته كلبن ، إنما انتقل إلى حياة أخرى بفعل البكتريا وغيرها ، ولا يذهب الحية إلا الهلاك وهو ما قاله الحق :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ . . (٨٨) ﴾ [سورة النقص]

إذن ، لا تأخذ الميت على أنه شيء ليس فيه حياة ، ولكنه انتقل إلى حياة ثانية .

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ . . (٢٢) ﴾

[سورة الأنعام]

كان للإنسان حياة في ذاته ، ثم جعل الحق له نوراً يمشي به . كأن الحياة متنقلة في أشياء ، ويحتاج الإنسان إلى حياة ، ويحتاج إلى نور تتضح به مرائي الأشياء . وكانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى حين ينتقل شعاع من عينه إلى المرئي فيراه ، إلى أن جاء العربي المسلم ابن الهيثم . وقال هذا رأى جانب الصواب في قانون الضوء ، وقال : إن الإنسان يرى ؛ لأن شعاعاً من المرئي يصل إلى عين الرائي . بدليل أن المرئي إن كان في ضوء يدركه الإنسان ، وإن كان في ظلمة لا يدركه الإنسان ،

ولو كانت الأشعة تخرج من عين الإنسان لرأى الأشياء سواء أكانت في نور أم في ظلمة، وتعذلت كل النظريات في الضوء على يد العالم المسلم، وجاءت من بعد ذلك الصور الفوتوجرافية والسينما. إذن فالنور وسيلة إلى المراتب.

ويترك الحق سبحانه وتعالى في أفضية الكون الحسية أدلة على الأفضية المعنوية؛ فالنور الحسي الذي نراه إما ضوء الشمس وإما ضوء القمر، وإما ضوء المصباح، وإما غير ذلك، وهذا ما يجعل الإنسان يرى الأشياء، ومعنى رؤية الإنسان للأشياء أن يتعامل معها تعاملًا تفهيميًا غير ضار. ونحن نضئ المصباح بالكهرباء حين يغيب النور الطبيعي - نور الشمس - وعندما نضئ مصابيحنا نرى الأشياء ونفعل معها ولا نحطمها ولا نحطمنا، وكل واحد منا يأخذ من النور على قدر إمكاناته. إذن كل واحد بضئ المكان المظلم الذي اضطر إليه بغيبوبة المنير الطبيعي على حسب استطاعته، فإذا ظهرت الشمس أطفأنا جميعاً مصابيحنا؛ هذا دليل من أدلة الكون الحسية الملموسة لناخذ منها دليلاً على أن الله إن فعل لقيمنا نورا فلا تأتي بقيم من عندنا، ما دامت قيمة موجودة.

ويوضح الله أن الإنسان بدون قيم هو ميت متحرك، ويأتيه المنهج ليحيا حياة راقية. ويوضح سبحانه لكل إنسان: احرص على الحياة الثانية الخالدة التي لا تنتهي وذلك لا يتأتى إلا باتباع المنهج، وإليك أن تظن أن الحياة فقط هي ما تراه في هذا الوجود لأنه إن كانت هذه هي غاية الحياة لما أحسن الإنسان بالسعادة؛ لأنه لو كانت الدنيا هي غايتنا للزم أن يكون حظنا من الدنيا جميعاً واحداً وأعمارنا واحدة، وحالاتنا واحدة، والاختلاف فيها طويلاً وقصراً وحالاً دليل على أنها ليست الغاية؛ لأن غاية المتساوي لا بد أن تكون متساوية.

إذن فقول الله هو القول الفصل:

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۖ ۝ (٦١)﴾

[سورة العنكبوت]

فهذه هي الحياة التي لا تضيع منك ولا تضيع منها، ولا يفوتك خيرها ولا تفوته. إذن فالذي يحيا الحياة الحسية الأولى وهي الحركة بالنفخ في الروح هو ميت متحرك.

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

أى أنه سبحانه قد أعطى مثل هذا العبد حياة خالدة ونوراً يمشى به ، لا يحطم ولا يتحطم .

أما من يقول : إن الحياة بمعناها الدنيوى ، لا تختلف عن الحياة فى ضوء الإيمان ،
لمثل هذا نقول : لا ، ليس بينهما تساوى فهما مختلفتان بدليل أن الحق يقول :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

فسبحانه يخاطبهم ، وما دام يخاطبهم فهم أحياء بالقانون العادى ، لكنه سبحانه أنزل لرسوله المنهج الذى يحيا به المؤمن حياة راقية ، وافطنوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى أعطى ومنح الروح الأولى التى ينفخها فى المادة فتتحرك وتحس بالحياة الدنيا ،
إنه أعطاها المؤمن والكافر . ثم يأتي بروح ثانية تعطى حياة أبدية . ولذلك سُمى
منهج الله لخلق روحاً :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

فالمنهج يعطى حياة خالدة .

إذن فقول الحق : « أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ » أى أَوْ مَنْ كَانَ ضَالًّا فَهَدَيْنَاهُ ،
أَوْ مَنْ كَانَ كَافِرًا فَجَعَلْنَاهُ مُؤْمِنًا ، ولنلاحظ أن فيه « مَيِّتًا » بالتخفيف ، وفيه مَيِّت
بالتشديد . والمَيِّت هو من يكون ماله الموت وإن كان حياً ، فكل منا مَيِّت وإن كان
حياً . ولكن المَيِّت هو من مات بالفعل وسلبت وأزهقت روحه . ولذلك يخاطب الحق
نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول له : (إِنَّكَ مَيِّتٌ) .

أى تؤول إلى الموت وإن كنت حياً الآن . لأن كلاً منا مستمر فى الحياة إلى أن
يتلبس بصفة الفناء ، ويقول الحق : « فَأَحْيَيْنَاهُ » أى بالمنهج الذى يعطيه حياة ثانية ،
ولذلك سُمى القرآن روحاً ، وسُمى من نُزِّل بالقرآن روحاً أيضاً .

« وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس » ولماذا يمشى به في الناس فقط ، وليس بين كل الأشياء ؟ ، لأن الأشياء الأخرى من الممكن أن تختاط أنت منها ، ولكن كلمة الناس تعبر عن التفاعل الصعب لأنهم أصحاب أغيار . ويتابع الحق : « كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » وهذا تساؤل جوابه : لا ، أي ليس كل منهما مساوياً للآخر ، مثلاً نقول : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ . والفطرة هنا تقول : لا ، مثلاً تؤكد الفطرة عدم استواء الظلمات والنور ، أو الظل والخروج ، وهنا يأمُننا الله على الجواب ؛ لأنه سبحانه - يعلم أن الأمر إذا طرح كسؤال وكاستفهام فلن نجد إلا جواباً واحداً هو ما يريد الحق أن يقوله خبراً .

ويذيل الحق الآية :

﴿ كَذَلِكَ زَيْنَ الْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

والمعنى هنا أي تركناهم عرضة لأن يفعلوا للتزين ، ولم يحمهم الحق بالعصمة في اختيارهم ؛ لأنه سبحانه قد ترك الاختيار حراً للإنسان :

﴿ مَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِينَ
لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

ويقول الحق سبحانه : « وكذلك » تدل على أن شيئاً شبه بشيء ، فكما وُجد في مكة من يناصبك العداء ويناهضك ويقاومك في أمر الدعوة إلى الله ، ويصدّ عن

سبيل الحق ؛ إن تلك قضية لست فيها بدعاً من الرسل ؛ لأن هذه المسألة قضية سائدة مع كل رسول في موكب الإيمان ، و«كذلك» أى كما جعلنا فى مكة مجرمين يمكرون جعلنا فى كل قرية سبقت مع رسول سبق هذه المسألة ، فلم تكن بدعاً من الرسل . وحيث إنك لم تكن بدعاً من الرسل فلتصبر على ذلك كما صبر أولو العزم من الرسل . وأنت أولى منهم بالصبر ؛ لأن مشقاتك على قدر مهمتك الرسالية فى الكون كله ، فكل رسول إنما جاء لأمة محدودة ليعالج داءً محدوداً فى زمن محدود . وأنت قد جئت للأمر العام زماناً ومكاناً إلى أن تقوم الساعة ، فلا بد أن تتناسب المشقات التى تواجهك مع عموم رسالتك التى خصك الله بها .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ ۖ ﴾ (١٢٣) [سورة الأنعام]

والإجرام هو مأخوذ من مادة «الجيم» و«الراء» و«الميم» ، الجرم والجُرم والجريمة . فيها معنى القطع . و«مجرمها» جمع مجرم ، ومجرم من أجرم ، وأجرم أى ارتكب الجرم والجريمة ، ومعنى ذلك أنه قطع نفسه بالجريمة عن مجتمعه الذى يعايشه ، فهو يعزل نفسه لا لمصلحة لأحد إلا لمصلحته هو ، فكأنه قام بعملية انعزال اجتماعى ، وجعل كل شيء لنفسه ، ولم يجعل نفسه لأحد ؛ لأنه يريد أن يحقق مرادات نفسه غير مهتم بالنتائج التى تترتب على ذلك .

بذن فالإجرام هو الإقدام على القبائح اقديماً يجعل الإنسان عازلاً نفسه عن خير مجتمعه ؛ لأنه يريد كل شيء لنفسه . ومادام يريد كل شيء لنفسه فعامل التسلط موجود فيه ، ويرتكب الرذائل . ولأنه يرتكب الرذائل فهو يريد من كل المجتمع أن تنتشر فيه مثل هذه الرذائل ؛ كى لا يشعر أن هناك واحداً أحسن منه .

﴿ لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢٤) [سورة الأنعام]

والمكر - كما نعرف - مأخوذ من التفاف الأغصان بعضها على بعض انتفاهاً بحيث لا تستطيع إذا أمسكت ورقة من أعلى أن تقول هذه الورقة من هذا الفرع ؛ لأن الأغصان والفروع ملفوفة ومتشابكة ومجدولة بعضها مع بعض . والمكر يصنع ذلك

لأنه يريد أن يلف تبييته حتى لا يكشف عنه ، وما دام يفعل ذلك فاعلم من أول الأمر أنه ضعيف التكوين ؛ لأنه لو لم يعلم ضعف تكوينه لما مكر لأن القوى لا يكرر أبداً ، بل يواجهه ، ولذلك يقول الشاعر :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

والضعيف عندما يملك فهو يحدث لنفسه بأن هذه فرصة لن تتكرر ، فيجهز على خصمه خوفاً من ألا تأتي له فرصة أخرى ، لكن القوى حين يأتي لخصمه ليمسكه ثم قد يحدث نفسه بأن يتركه ، وعندما يرتكب هذا الخصم حماقة جديدة فيعاقبه . إذن فلا يكرر الا الضعيف . والحق سبحانه وتعالى في هذه المسألة يتكلم عن المجرمين من أكابر الناس ، أى الذين يتحكمون في مصائر الناس ، ويفسدون فيها ولا يقدر أحد أن يقف في مواجهتهم . وهناك كثير من الآيات تتعلق بهذه المسألة ، وبعضها وقع فيه الجدل والخلاف ، ومن العجيب أن الخلاف لم يُصَفَّ ، وكل جماعة من العلماء يتمسكون برأيهم . وهذه الآية التى نحن بصدد خوارطنا عنها تلتقى مع القول الحق :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۖ ﴾ (١٦)

[سورة الإسراء]

وهذه الآية فيها اشكال ، وقامت بسببها معركة بين العلماء ؛ فنجد منهم من يقول : وكيف يأمر الله أناساً بالفسق ؟ . وحاولوا أن يجدوا تأويلاً لذلك فقالوا : إن الحق قد قسر وأجبر أكابر هؤلاء الناس على الفسق . والجانب الثانى من العلماء قالوا : لا ، إن الحق لا يقسر البشر على الفسق ، بل على الإنسان حين يقرأ كلمة أمر الله فى المنهج فلا بد أن يعرف أن هذا الأمر عرضة لأن يطاع وعرضة لأن يعصى ؛ لأن الأمور - وهو المكلف - صالح أن يفعل ، وصالح الا يفعل ، وأن الأمر قد أمر بشىء ، والأمور له حق الاختيار ؛ وبذلك تجد أكابر القوم إنما استقبلوا أمر الله بالعصيان ؛ لأن الحق هو القاتل :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ . . ﴾ (٥)

[سورة البينة]

والفسق - إذن - مترتب على اختيار المأمور .

وحين نتأمل نحن بالخواطر معنى : « أمر الله » نجد أن أمر الله يتمثل في التكوينات الطبيعية الكونية ولا يوجد لأحد قدرة على مخالفة الله في ذلك ، فهو القائل : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

وتمثل أيضاً أمر الله في التشريعات ، وللبشر الذين نزلت لهم هذه التشريعات أن يختاروا بين الطاعة أو العصيان ، وسبحانه القائل عن الأمر بالتشريع : (وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ) .

وحين يقول الحق : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا) . فسبحانه لا يهلك هذه القرية ظلماً ، وإنما يرسل إليهم المنهج ، فإن أطاعوا فأهلاً وسهلاً ، وإن عصوا فلا بد لهم من العقاب بالدمار .

وهكذا نرى أن العلماء الذين ظنوا أن الفسق مترتب على الأمر من الله لم يلتفتوا إلى أن ورود الأمر في القرآن جاء على لوتين : أولاً : أمر التكوين بالقهريات فلا يستطيع المأمور أن يتخلف عنه ، ويمثل الأمر الفهري قوله الحق :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٥٧)

(سورة يس)

فالأمر جاهز في علم الأزل ليبرز حين يشاء الحق . والأمر الثانى : هو الأمر التشريعى وهو صالح لأن يختار المكلف بين أن يطيع أو يعصى ، وفي هذا الإطار نفهم قوله الحق :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا ﴾

تَذَمُّرًا (١٦)

(سورة الإسراء)

فلا تقل : إن الله يأمر بالفسق ؛ فالحق قد أمر المؤمنين بالمنهج لأنه سبحانه لا يأمر بالفحشاء ، بل جاء الأمر لكل البشر أن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، لكن كبار

أهل هذه القرية أخذوا البديل للطاعة وهو الفسق والمعصية ، فلما أمرهم ففسقوا ماذا يصنع بهم ؟ ، هو سبحانه يدمرهم تدميراً . فإن كان في الكونيات فلا أحد من خلق الله مكلف في الكونيات ، أما أمره الثاني في اتباع المنهج فلنا أن نفهم أنه الاختيار .

وهكذا نعلم ونفهم معنى هذه الآية لتلتزم مع الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها : أي وإذا أردنا أن نهلك قرية أنزلنا منها لها فأكابرها كانوا أسوة سيئة ففسقوا فيها بعدم إطاعة منهج الله فحق عليها القول فدمرناها تدميراً . وكذلك - أيضاً - نفهم قوله الحق : « وما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » لأن المكر إنما يريد به الماكر أن يحقق شيئاً من طريق ملتوٍ لأنه ضعيف لا يمكن أن يواجه الحقائق ، وهذه الحقائق تستقبلها الفطرة السليمة ، وهو يريد تزييف المسألة على هذه الفطرة لذلك يلتوى . ولئلا هذا الماكر نقول : أنت تريد أن تحقق لنفسك خيراً عاجلاً وشهوة موقوتة ، ولكنك إن استحضرت العقوبة التي تنشأ من هذا الأمر بالنسبة لك ، وكذلك عقوبتك على أنك أضللت الآخرين لرأيت كيف يأتي الشر .

﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة الأنعام)

أي لا يعلمون ، لأنهم لا يوازنون الأمور بدقة تؤدي إلى النفع الحقيقي . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾

وكان الآية التي أرسلها الله مع رسوله وهي القرآن لتثبت لهم صدقه في البلاغ عن

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٣٩١٩﴾

الله لم تقنعهم ، ولم يكتفوا بها ، بل طالبوا بآيات أخرى ، فهم قد قالوا :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩١﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩٢﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٣﴾ ﴾

[سورة الإسراء]

هم لا يريدون أن يؤمنوا بل إنهم يدخلون في اللجاج ، والتماس سبل الفرار من الإيمان ؛ لذلك نجد أن كل الحجج التي وقفوا بها أمام دعوة الرسول هي أكاذيب ؛ فقالوا إنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه ، وبين الولد وأبيه ، ويدخل بما جاء به - ويؤمن أنه من عند الله - الفتنه في الأسرة الواحدة .

لكن لماذا لم يتساءلوا : مادام قد سحر غيرنا فلماذا لم يسحرنا ؟ . وهل تأبوا هم على السحر ؟ . وهل للمسحور رغبة أو خيار مع الساحر ؟ . إنهم في ذلك كاذبون .

ثم قالوا : إن الرسول ﷺ شاعر . ولو أن أحداً غيرهم قد مثل هذا الكلام لكان مقبولا لأنه يجهل رسول الله ، ولأنه ليس من قوم هم أهل فصاحة وأهل بلاغة وأهل بيان ، نهم يعرفون الشعر ، والنثر ، والخطابة والكتابة . فلو كان هذا الأمر من غيرهم لكان القول مقبولا ، ولذلك نجد منهم من تصفون نفسه بقول : والله ما هو بقول كاهن ولا بقول شاعر . ويطلب الحق منهم ألا يقولوا رأيا جماهيريا ؛ ففي الرأي الجماهيري يختلط ويلتبس الحق بالباطل . بل كان يطلب منهم أن يكون الكلام محدداً بحيث تنسب كل كلمة إلى قائلها فيقول الحق :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِئًا وَفَرَادًى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جَنَّةٍ .. ﴿٩٤﴾ ﴾

[سورة سبأ]

أي لا تأتوا في أثناء هياج الناس وتشتموا الرسول ﷺ بالجنون ؛ لأن قولكم في الهياج الجماهيري غير محسوب على أحد لكن المطلوب أن تقوموا لله

مثنى أى اثنين اثنين ، وكل اثنين يقولان : هيا بنا نستعرض أمر هذا الرسول ونرى قضاياه : أهو كاهن ؟ . أهو ساحر ؟ . أهو شاعر ؟ فين الاثنين لا يضيع الحق أبداً لأن كلا منهما يناقش الآخر ، وحين يجلس اثنان للنقاش ، إذا انهزم منها واحد أمام الآخر لا يُفصح أمام الغير ، لكن حين يتناقش ثلاثة أو أربعة فكل منهم يخاف أن يهزم أمام غيره ، ونجد كل واحد يدافع عن نفسه . ولذلك حين يجلس اثنان معاً ليشاقشا ، ويبحثا أى أمر لا يخشى أحدهما الهزيمة ؛ لذلك يأمر من الله أن يقوموا لله مثنى أو فرادى ، ويتذكر كل واحد منهم أمر هذا الرسول : أهو مجنون ؟ .

إن أفعال المجنون وأعماله تكون متقطعة غير مستقيمة . ومحمد على خلق عظيم ، وهل يقال للمجنون : إنه على خلق عظيم ؟ ؛ لأن الإنسان منا لا يعرف كيف سيقاتله المجنون ، يضربه ، أبشتمه ، أيقطع له ملابسه ؟ . أما الخلق العظيم فمعناه الخلق المضبوط بالقيم ، وخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مضبوط بالقيم حتى صار ملكة وليس أمراً افتعالياً . وحين يقول الناس عن إنسان إن خلقه الكرم أى قد تأصلت فيه صفة الكرم تأصلاً بحيث أصبحت تصدر عنه أفعال البذل ببسر وسهولة ، والصفة حين ترسخ في النفس تصير هي الخلق وتصدر عن النفس الأفعال ببسر وسهولة . وفي أعمال المعاني نسميها خلقاً ، وفي أعمال المادة نسميها آلية .

وكلنا يعرف أن الإنسان إن أراد أن يتعلم قيادة سيارة فهو يتعلم الأفعال التي تؤدي إلى سير السيارة حتى يكتسب المهارة ويؤديها ببسر وبدون صعوبة ، وكذلك الشأن في الخلق حين تصدر عنه الأفعال بدربة ومهارة ، ونجد - على سبيل المثال - من يتعلم الفقه ، فيسأله إنسان عن الحكم في الأمر المعين ، فيستعرض الأمر من كل أوجهه في وقت طويل ، لكن من يتدرب يصح الفقه بالنسبة إليه ملكة ، فلا يتعب في استنباط الحكم . كذلك الخلق .

ويوضح لهم الحق : أنتم تقولون عن الرسول : إنه مجنون ، فاجلسوا مثنى مثنى أو فرادى وادرسوا تصرفاته متجدون أنها تصرفات منطقية مبنية على خلق كامل مكتمل ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون ؛ لأن المجنون لا ضابط له في حركاته ولا في سكناته ولا فيما يأتي ولا فيما يدع . وكذلك لا يمكن أن يكون شاعراً ؛ لأنكم أنتم أهل شعر ، وكذلك ليس بكاهن ؛ فالكهنة قد يستبدلون بآيات

الله ثمنا قليلا، وهو الذى أعلن لكم رفض الملك والثروة والجاه. لكنهم قالوا :

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ .. (١٦٤) ﴾

[سورة الأنعام]

وقد حدث الوليد بن المغيرة نفسه بذلك، وكان من ناحية السن أسن من رسول الله، ومن ناحية المال كان غنيا، ومن ناحية الأولاد عنده العزوة والولد، وقال : لو كانت الرسالة بكل هذه الأمور لكنت أنا أولى بهذا لأننى أسن ولأننى أكثر مالا ولأننى أكثر ولداً. وهو قد قاسها بمقاييس البشر، وكأن الوليد لم يكن يعلم أن الرسالة ليست رثاسة، فإذا كنت أنت دون غيرك عندك المال وعندك الأولاد وعندك الزروع وغير ذلك لكنك لست على خلق محمد ﷺ، الذى فطره الله عليه وأعده واصطفاه ليكون رسولا، ولكن مع هذا قال بعضهم :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٢١) ﴾ [سورة الزخرف]

ولنسمع رد القرآن :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. (٢٢) ﴾ [سورة الزخرف]

ويوضح لهم الحق : نحن قسمنا بينهم الأمور الحياتية، لكنكم تريدون تقسيم رحمة الله، وفرق بين الرحمة فى الرسائل وبين امتداد الحياة بالأقوات والمال؛ لأن هذه عطاءات ربوبية. لكن الرحمة هى عطاءات ألوهية، انكم تميزتهم فى دنياكم بالمال والبنين والبساتين لا لخصوصية فيكم ولكن لأن نظام الكون كله إنما يحتاج إلى مواهب متكاملة لا إلى مواهب متكررة، ولو امتلك كل الناس مثل ما عندك يا وليد من أرض ومال لما وجدت من يفلح لك الأرض، ولما كان عندك من يسرج لك القرمس. ولهذا جعل الحق مسألة الثروة دولا، أى يقلب سبحانه هذه الأمور لتكون متداولة بين الناس، تكون لهذا فى زمن ولآخر فى وقت وزمن آخر ولا تدوم لأحد.

وحين جاء الناس إلى أبى جهل يحدثونه فى الرسالة قال : زاحمنا بنى عبد مناف فى

الشرف ؛ أطلعموها فأطعمنا ، كسوا فكسونا ، ذبحوا فذبحنا . حتى صرنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبي يوحى إليه والله لا نرضى به ولا نسمعه أبداً إلا أن يأتينا بوحي كما يأتىه ، ومعنى كفرسى رهان ، أى فحين تنطلق الخيل فى السباق فى وقت واحد كانوا يندفون عوداً فى الأرض عند نهاية السباق ومن يجذبه من الأرض يقال له : حاز قصب السبق ، وعود القصبه هو غاية المشوار ، حتى لا يقولن أحد لقد سبقنى بخطوة أو غير ذلك .

وهنا يقول الحق : (وإذا جاءتهم آية) .

وانظر إلى كلمة « جاءتهم آية » ، فمرة يقول : (قد جئناك بآية من ربك) ، ومرة يقول : « جاءتهم آية » ، فكأن الآية بلغت من وضوحها ومن استقلالها ومن ذاتيتها وخصوصيتها أنها تحيى .

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ۚ ۞ ﴾ (١٦٤) [سورة الأنعام]

ويقول الله لهم رداً عليهم : لا تقترحوا ذلك على الله ؛ لأن الله أعلم حيث يجعل رسالته « لأن الرسالة إنا تحيى لننشر خيراً فى الجميع ، ولكنها تعف نفسها عن آثار الانتفاع من ذلك الخير . والخير يريد أن يأتى له الخير ثم يترك بعضاً من الخير للناس . والرسول قد جاء لينشر خيره للآخرين ، وهو نفسه لا ينال من هذا الخير إلا البلاغ به . ويأمر سيدنا رسول الله ﷺ قبل أن يموت ألا يأخذ أهله الزكاة ، أمّا ما تركه فقد صار صدقة للناس ، أى أنه لم ينتفع به فى الدنيا ؛ لذلك هو مأمون على الرسالة ، ولم يرُد أن يأخذ الدنيا ليرثها أهله من بعده . وقد أراد الله كذلك ليكون خيره لكل الناس . فالرسالة تكليف ، والنبوة ليس جزاؤها هنا ، بل من عظمة الجزاء أنه فى الآخرة ، ولذلك حينما جاء رسول الله ﷺ فى بيعة العقبة وقالوا : اشترط لنفسك . قال : تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وتعملون كذا وتعملون كذا .

قالتوا له : فما لنا ؟ أنت اشترطت لنفسك ، فما لنا إن نحن وفينا ؟ . ماذا قال الرسول ﷺ ؟ . قال : لكم الجنة . هذا هو الثمن الذى عنده ،

فمن يريد الجنة يأتى إلى الإيمان، ومن يريد ما هو دون الجنة فليس مكانه مع أهل الإيمان. مع أنه قال لهم فيما بعد ستركبون السفن وتفرشون الزرابى والوسائد وتجلسون عليها، وبشرهم بالكثير، لكنه لم يقل لهم ذلك من البداية لأن من هؤلاء من لا يدرك خيراً فى الدنيا مع الإسلام؛ بل يموت والإسلام ضعيف واتباعه فى قلة، لذلك أعطاهم أجزاء المضمون لهم جميعاً حين قالوا له: ماذا إن نحن وقينا؟ قال: لكم الجنة. وكأنه ﷺ يعلمهم أن الدنيا أهون من أن تكون جزاءً على العمل الصالح، فجزاء العمل الصالح خالد لا يفوتك ولا تفوته.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ .. (١٦١)﴾ [سورة الأنعام]

وحين نتأمل قولهم: (لن نؤمن) نجد أن فى هذا القول إصراراً على عدم الإيمان، أى لن نؤمن حتى فى المستقبل إنهم تحكموا فى المستقبل. ثم يفصحهم الله فيموت بعضهم على الكفر، ومن بقى منهم يأتون مؤمنين بعد الفتح. ومن العجيب أن العبارة التى يتفقون بها هى عبارة مهزوزة لا تستقيم مع منطق الكفر منهم، قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله، كأنهم قد عرفوا أن هناك رسلاً من الله، والأصل فى الآية أن يؤمنوا برسل الله ورسول الله ﷺ خاتم الرسل، وهذا القول يدل على مجرد المعارضة المقترنة بالغيباء، فما دمتم تعرفون أن الله رسلاً يصطفاهم، فكيف تحاولون أنتم تحديد إرادة الله فى الاختيار؟

إن رسل الله كانت لهم آيات كونية، حسية مرئية، وهى وإن كانت فيها قوة المشهد الملزم، إلا إنه لا ديمومة لها، فمن رأى سيدنا موسى وهو يضرب البحر فينفلق لن يكذب هذه الآية الكونية، إلا أنها أصبحت خبراً والخبر مناسب لمحدودية رسالة موسى، وكذلك رسالة عيسى عليه السلام حيث أبرأ الأكمة والأبرص بإذن الله. وهذه رسالات لزمان محدود وفى قوم محددين، لكن الرسول ﷺ جاء ومعه المنهج المعجزة الباقي إلى قيام الساعة، فإن كانت المعجزة حسية فلن يراها إلا قوم مخصصون لأن الأمر الحسى لا يتكرر، بل ينتهى، وسيدنا محمد رسول إلى أن تقوم الساعة. فلا بد له من آية باقية إلى قيام الساعة؛ لذلك كانت الآية فى المعنويات والعقليات التى لا تختلف فيها الأمم ولا تختلف فيها الأزمان،

لكنهم أرادوا معجزة حسية، وأخرى عقلية، حتى إذا جاءت واحدة فقط أنكروا الثانية، فحسم الحق الأمر وقال: «الله أعلم حيث يجعل رسالته».

ولو نظروا إلى كلمة «الله أعلم حيث يجعل رسالته»، فكلمة «أعلم» تدل على أنه قد يمكن الله بعضاً من خلقه ليعلموا لماذا اختار الله محمداً ﷺ، لأن الذين واجههم ﷺ بأمر الدعوة، هل انتظروا منه أن تكون له آية أو معجزة، أو آمنوا به بمجرد الإخبار؟ لقد آمنوا بمجرد الإخبار، لأن تجربتهم معه أكدت أنه صادق وأمين على خبر الأرض، ولا بد أن يكون مأمونا على خبر السماء، لأنه لم يكذب عليهم في أمر الأرض، فكيف يكذب في أمر السماء؟

إننا نجد أن سيدنا أبا بكر، بمجرد أن علم بأمر الرسالة قال: صدقت، وسيدتنا خديجة صدقته من فور أن قال، وأخذت صدق بلاغه من مقدمات حياته، وقالت أول استنباط فقهي في الإسلام. وكان ذلك لسيدتنا أم المؤمنين خديجة قبل أن يعرف الفقه بمعناه الإصطلاحي الحديث، مما يدل على أن الاستنباطات للأدلة هي استنباطات للعقل الفطري السليم البعيد عن الأهواء. إنه يقدر أن يستقرىء الأمر ولا بد أن يهتدى، فحين أعلن لها أنه خائف أن يكون الذي أصابه مرض أو مس من الجن رفضت ذلك لأنه يصل الرحم، ويحمل الكل، ويعين على ثواب الدهر، وقالت له: والله لا يخزيك الله أبداً.

إذن فقد جاءت بالمقدمات التي تشرح أن ربنا لا يمكن أن يخذله، وكل المقدمات مفاخر، كلها خلق عظيم، وكلها الثقات إنسانية قبل أن يأتي منهج السماء، الثقات إنسانية بالفطرة دون تقدير أو تدبير، وكان هذا أول استنباط فقهي في الإسلام. ولذلك نعرف السر لماذا جعل الله لرسوله أم المؤمنين خديجة أول زوجة له؟ لأنه ستمر به فترة لا يحتاج فيها إلى زوجة فقط، بل إلى ناضجة، ذلك النضج الكامل الذي تستقبل به مسائل النبوة، ولذلك حين يخرج إلى الغارات أتى له حكمة خديجة في الاستنباط قبل أن يوجد فقه الإسلام؟

«الله أعلم حيث يجعل رسالته»؟، وهم قد أصروا على ألا يعلموا على الرغم من أنهم وجدوا منه خصالاً وأشياء حكما بوجودها فيه وأنها صفات رسول.

﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام)

هنا نجد فجوة انتقالية في الأداء ، فمن قيل يتحدث سبحانه عن يظنون أنهم كبار ، فيأتى ليقول : إن الصغار سيصيبهم ، وليس معنى الصغار الذل والهوان لدى الناس ، لا ، بل صغار وذل وهوان عند نفس كل منهم ذاتياً ، فكل منهم سيشتعر بالذل أمام نفسه ويستصغر نفسه . كأن الصغار سيصيب الإنسان في نفسه ، ويكون هذا الصغار من عند الله ، وما دام الصغار منسوباً إلى عندية الله فهو لا يزول أبداً ، لأنه لا توجد قوة ثانية تقول لله إن قدرك لن يتحقق . فالصغار والذل والهوان سينزل بهم وهم مع كونهم أكابر المجرمين فلن يستطيعوا دفعه عن أنفسهم ، وسيصيبهم مع ذلك عذاب شديد .

لماذا العذاب الشديد ؟

لقد قلنا من قبل : إن العذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ويوصف مرة أخرى بأنه مهين ، ويوصف هنا بأنه شديد . والعذاب المهين الذى تكون فيه ذلة النفس . والعذاب الأليم الذى يكون في البنية ، لأن الإنسان له بنية وله معنويات قيمة ، فمن ناحية البنية يصيبه العذاب ، ومن ناحية المعاني النفسية تصيبه الإهانة ، فهناك من يتعذب لكنك لا تعلم أن تهبه ويتحمل المشقة برجولة ، ومهما تلى من الإهانة فلا تزال نفسه كريمة عليه ، مصداقاً لقول الشاعر :

وتجلى للشامتين أريهمو أق لربب الدهر لا أتضعضع
لذلك ينزل قدر الله بالعذاب على نوعين : عذاب بنية وعذاب قيم ، وهذا هو الصغار ، والعذاب الشديد ، وهو الذى لا يقوى الإنسان على تحمله ، ولم ينزل الحق العذاب هؤلاء جزافاً ، لكنه بسبب ما كانوا يكرهون ، فسبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا ظَنَنَّا لَهُمْ لَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة النحل)

والحق سبحانه وتعالى حينما عرض هذه القضية عرضها ليبين لنا أنه لم يرغم بقدره خلقاً من خلقه على مسائل الاختيار في التكليف بل أوجد ذلك في إطار :

[سورة الكهف]

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُزِمْنِ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾ (٢٨)

ولكن الإرغام من الحق جاء للأمور القهرية القدورية الكونية الخارجة عن نطاق التكليف، أما أمر التكليف فالله سبحانه وتعالى قال فيمن يرفضون الطاعة: «يصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد» وسبحانه قد أوضح لنا: نحن لم نجعل ذلك قهراً منا لهم دون عمل عملوه باختيارهم بل إن العذاب والصغار كانا جزاءً لمكرمهم.

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى لنا بقضية يقع فيها الجدل التبريري لبعض الناس الذين أسرفوا على أنفسهم، ويريدون أن يجعلوا إسرافهم على أنفسهم في الذنوب خاضعاً لأن الله أراد منهم ذلك؛ فيقول سبحانه:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ
لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا
حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ
يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٥)

نجد من يقول إن رينا حين يريد لإنسان أن يشرح صدره للإسلام فذلك من إرادة الله وما ذنب المكلف إذن؟

وللرد على هذا نقول: لقد عرفنا من قبل أن الهداية لها معنيان: المعنى الأول: الدلالة وهي أمر وارد وواجب حتى للكافر. فإن هدى الله للكافر أن يبدله إلى طريق الخير، ولكن هناك هداية من نوع آخر وهي للذي آمن، ويصبح أهلاً لمعونة الله بأن يخفف عنه أعباء التكليف ويسرها له ويجعله يعيش كل الأوامر ويعشق البغض والتجافي عن كل النواهي.

يقول بعض الصالحين: «اللهم إني أخاف ألا تثيبني على طاعة، لأنني أصبحت أشتهيها» كأنه عشق الطاعة بحيث لم يعد فيها مشقة أو تكليفاً، لذلك فهو خائف، وكأنه قد فهم أنه لا بد أن توجد مشقة، ولمثل هذا الإنسان الصالح نقول: لقد فقدت الإحساس بمشقة التكليف لأنك عشقته فألفت العبادة كما ألفتك وعشقتك، وحدث الانجذاب بينك وبين الطاعة، وجعلت رسول الله مثلاً لك وقدوة، فقد كان ﷺ يرى أنه إذا نودي إلى الصلاة يقوم الناس إليها كسالى لكنه ﷺ يقول لبلال حينما يأتي وقت الصلاة: «أرحنا بها يا بلال».

وهذا غير ما يقوله بعض ممن يؤدون الصلاة الآن حيث يقول الواحد منهم: هيا نصل لتزيحها من على ظهورنا، وهؤلاء يؤدونها بالتكليف لا بالمحبة والعشق. أما الذين ألفوا الراحة بالصلاة حينما يحزبهم ويشد عليهم أمر خارج عن نطاق أسبابهم، يقول الواحد منهم: ما دامت الصلاة تريح القلب، فلاذهب إليها وألقى ربي زائداً على أمر تكليفه لي متقرباً إليه بالتوافل، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة. ومعنى حزبه أن الأسباب البشرية لا تنهض به. فيقوم إلى الصلاة، وهذا أمر منطقي، ولله المثل الأعلى.

كان الإنسان منا وهو طفل إذا ما ضايقه أمر يذهب إلى أبيه، فما بالنا إذا ما ضايقنا أمر فوق الأسباب المعطاة لنا من الله فلمن نروح؟ إننا نلجأ لرينا ولقد كان ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة.

إذن فعشق التكليف شيء يدل على أنك ذقت حلاوة الطاعة، وقد يجوز أنه شاق عليك؛ لأنه يخرجك أولاً عما ألفت من الاعتياد. فعندما يأتيك أمر فيه مشقة تقول: إن هذه المشقة إنما يريد إيهالي حسن الجزاء، فإذا ما عشقت الصلاة صارت حباً لك، وكان واحد من الصالحين - كما قلت - يخاف ألا يشاب على الصلاة لأنها أصبحت شهوة نفس، والإنسان مطالب بأن يحارب نفسه في شهواتها لكن رسول الله ﷺ وضع لنا المثل فقال: «لا يؤمن أحدكم حتى يصبح هواء تبعاً لما جئت به» أي يصبح ما يشتهي موافقاً لمنهج الله، فإذا وصل وانتهى المؤمن إلى هذه المنزلة فهو نعم العبد السوي.

وهكذا عرفنا أن الهداية قسمان: هداية بمعنى الدلالة، وهداية بمعنى المعونة.

فإذا ما اقتنعت بهداية الدلالة وآمنت بالحق فسيحانه يخفف عليك أمور التكليف . . .
ويجعلك عاشقاً لها ، ولذلك يقول أهل الصلاح : ربنا قد فرض علينا خمس
صلوات ، وسيحانه يستحق منا الوقوف بين يديه أكثر من خمس مرات ، وفرض علينا
ربنا نصاب الزكاة وهو اثنان ونصف بالمائة ، وسيحانه يستحق منا أكثر من ذلك لأنه
واهب كل شيء ، وهذا عشق التكليف ، وهذا هو معنى قوله : (فمن يرد الله أن
يهديه يشرح صدره للإسلام) .

« فمن يرد الله أن يهديه » أي يدلّه سبحانه كما دل كل العباد إلى المنهج ، لكن
الذي اقتنع بالدلالة وآمن بسهل عليه تبعات التكليف مصداقاً لقوله الحق :
﴿ وَيُزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَلَيْتُ الَّذِينَ صَلَّحْتُ عَنْهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابٌ وَخَيْرٌ
مَرْدًا ﴾

(سورة مريم)

فهذه هداية المعونة ، وفيه فرق هنا بين الإسلام والإيمان لأن الإيمان لا يحتاج فقط
إلى الاعتقاد ؛ إنما هو حمل النفس على مطلوبات الإيمان . ولذلك نجد أن كبار رجال
قريش رفضوا أن يقولوا : « لا إله إلا الله » ؛ لأنهم علموا أنها ليست مجرد كلمة
تقال ، ولكن لها مطلوبات تنعب في التكليف الناجمة عنها بـ « افعل »
و « لا تفعل » . فالتكليف يقول لك : « افعل » لشيء هو صعب عليك ، ويقول
لك : « لا تفعل » في شيء من الصعب أن تتركه ، لذلك يقول سبحانه :

﴿ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

وسبحانه يشرح صدره للإسلام بعد أن علم أنه قد اعتقد شريعة التوحيد ورضيها
وأطمأن بها ، فيأتى إلى فهم التكليف ؛ لأن صحيح الإسلام يقتضى الانقياد لأمر
التكليف ، فمن أخذ الهداية الأولى وآمن بربه ، يوضح له سبحانه : آمنت بـ
وجنتي ؛ لذلك أخفف عنك تبعات العمل ، ويشرح صدره للإسلام ، وشرح
الصدر قد يكون جزاء . فسيحانه هو الفائل :

﴿ أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾

(سورة الشرح)

فقد جازاه ربنا بذلك ؛ لأنه أدى ما عليه وصمد . كأن الله يريد بالإيمان من المؤمن أن يقبل على الحق ، وحينما يقبل على الحق ، يبحث العبد ليتعرف على المراد والمطلوب منه فيعلم أنها التكاليف ، فإذا رأى الله منك الاستعداد المتميز لقبول التكاليف ، فإنه يخففها عنك لا بالتقليل منها ، ولكن بأن يجعلك تشتهيها ، وقد تلزم نفسك بأشياء فوق ما كلفك الله ، لتكون من أهل المودة ومن أهل التجليات ومن الذين يدخلون مع الله في ود ، وتلتفت لنفسك وأنت تقول : لقد كلفني الله بالقليل وسبحانه يستحق الكثير . فتزيد من طاعتك وتجد أمامك دائماً الحديث القدسي :

« من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » (١) .

أي بالأمور التي تزيد على ما كلفه في الصلاة والزكاة والصيام والحج .

إذن فمعنى « فمن برد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » أي يجعل الأمور التي يظن بعض من الناس أنها متعبة فإنه بإقباله عليها وعشقه لها يجدها مريحة ويقبل عليها بشوق وخشوع . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يترك في خلقه مثلاً للناس ، فنجد المال عزيزاً على النفس حريصة عليه لأنه إن كان المال قد جاء بطريق شرعه الله وأحله فهو يأتى بتعب وبكد ؛ لذلك يحرص عليه الإنسان ، فيحنن الله العبد من أجل البذل والعطاء .

إتنا نجد المؤمن يعطى للسائل لأن السائل هو الجسر الذي يسير عليه المسلم إلى الثواب من الله ، فيقول العبد المؤمن للسائل : مرحباً بمن جاء ليحمل زادى إلى الآخرة بغير أجره ، ولذلك عندما جاء مسلم إلى الإمام علي - رضي الله عنه وكرّم الله وجهه - ، قال المسلم : أنا أريد أن أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟

واختار الإمام على مقياساً للإيمان في نفس كل مؤمن ، وقال له : إن جاءك من يطلب منك ، وجاء من يعطيك ، فإن كنت تهش لمن يعطيك فأنت من أهل الدنيا ، وإن كنت تهش لمن يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ؛ لأن الإنسان يحسب من يعمر له ما يحب .

إذن قد يشرح صدره للإسلام أي يخفف عنه متاعب التكليف بحيث لا توجد مشقة ، ثم يرتقى بعد ذلك ارتقاءً آخر بأن يعشقه في التكليف . ويهديه الله إلى طريق الجنة ، لأن هناك هداية إلى المنهج وهداية إلى الجزاء على المنهج ، ولذلك نجد القرآن يقول : عمن ضلوا :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. (١٦٩) ﴾ [سورة النساء]

كان هناك هداية إلى العمل وهداية إلى الجزاء ، ونجد الحق يقول :

﴿ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦) ﴾ [سورة محمد]

وقد يتساءل إنسان : كيف يهدي الله من قتل ، وهل هناك تكليف بعد القتل ؟ .
نقول : انظر إلى الهداية ، إنها هداية الجزاء « سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم » .

وهكذا نعرف أن هناك هداية الجزاء ، من يحسن العمل يُجزئه الله الجنة ، أما من يسئ فله عذاب في الدنيا والآخرة .

﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾ [سورة الأنعام]

وهل هذا نحن من الله على خلقه؟ لا، لأنه مادام دعاهم للإيمان فأمن بعضهم وصاروا أهلاً للتجليات، وكفر بعضهم فلم يؤمنوا، فصاروا أهلاً للحرع وضيق الصدر. ومعنى الضيق أن الشيء يكون حجمه أقل مما يؤدي به مهمته، فحين يقال: ضاق البيت بى ويعيالى، فهذا يعنى أن الرجل وزوجه فى البداية عاشا فى غرفتين، وكان البيت متسعاً، ثم ألجبا عيالا كثيرة فضاقت بهن البيت. وهكذا نعلم أنه لم يطرأ شيء على الجدران ومساحة البيت، لكن حين زاد عدد الأفراد شعر رب الأسرة بضيق المنزل. ويقال: صدره ضيق أو ضيق فقد ورد فى القرآن لفظ ضيق على لغتين: فالحق يقول:

﴿.. وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧)﴾ [سورة النحل]

وهناك فى الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها توجد كلمة ضيق، والحق يقول:

﴿قَلْعَلْكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ.. (١٢)﴾ [سورة هود]

فما المراد من «ضائق»، و«ضيق»، و«ضيق»؟. نعرف أن الصدر هو مكان الجارحتين الأساسيتين فى التكوين: القلب والرئة، والرئة هى الجارحة التى لا تستمر الحياة الا بعملها؛ فقد تبطىء الأمعاء مثلاً، أو تتوقف قليلاً عن عملها، ويتغذى الرئسان على خزيته من الدهن أو اللحم ولذلك يصبر الإنسان على الجوع مدة طويلة، ويصبر على الماء مدة أقل، لكنه لا يصبر على افتقاد الهواء لدقائق، ولا صبر لأحد على ترك الشهيق والتزفير.

ولقد قلنا من قبل: إن الحق سبحانه وتعالى قد يملك بعضاً قوت بعض. وأقل منه أن يملك بعضاً ماء بعض، لكن أملك أحداً هواء أحد؟ لا؛ لأن الرضا والغضب أغيار فى النفس البشرية. فإذا غضب إنسان على إنسان، وكان يملك الهواء وحبه عنه فالإنسان يموت قبل أن يرضى عنه هذا الآخر، ولذلك لم يملك الله الهواء لأحد من خلقه أبداً.

إذن كل المسألة المتعلقة بقوله: «يجعل صدره ضيقاً حرجاً» نعلم أنها أن الصدر

هو محل التنفس، والريئة تأخذ الأوكسجين وتطرد ثاني أوكسيد الكربون، وعندما يصاب الإنسان بنوبة برد نراه وهو يجد صعوبة في التنفس، كأن حيز الصدر صار ضيقاً، فلا يدخل الهواء الكافي لتشغيل الرئتين، ويحاول الإنسان أن يعوض بالحركة ما فاتته فينهج. ويشخص الأطباء ذلك بأن المريض يريد أن يأخذ ما يحتاجه إليه من الهواء، فينهج؛ لأن الحيز قد ضاق، وكذلك عندما يصعد الإنسان سلماً، ينهج أيضاً؛ لأن الصعود يحتاج إلى مجهود، لمعادنة الجاذبية الأرض، فالأرض لها جاذبية تشد الإنسان، ومن يصعد إنما يحتاج إلى قوة ليتحرك إلى أعلى ويقاوم الجاذبية.

إننا نجد نزول السلم مريحاً؛ لأن في النزول مساعدة للجاذبية، لكن الصعود يحتاج إلى جهد أكثر، فإذا ضاق الصدر فمعنى ذلك أن حيز الصدر لم يعد قادراً على أن يأخذ الهواء بالتنفس بطريقة تريح الجسم، ولذلك يقال: «فلان صدره ضيق» أي أن التنفس بجهد إجهاداً بحيث يحتاج إلى هواء أكثر من الحجم الذي يسعه صدره.

«ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً» والخرج معناه الحجز عن الفعل، كأن تقول حرّجت على فلان أن يفعل كذا، أي ضيقت عليه ومنعته من أن يؤدي هذا العمل. (كأنما يصعد في السماء).

وعلمنا أن الصعود لأعلى هو امتداد لفعل الجسم إلى جهة من جهاته، فالجهات التي تحيط بأي شيء ست: هي فوق وتحت، ويمين، شمال، وأمام، وخلف، وعرفنا أن الهبوط سهل؛ لأن الجاذبية تساعد عليه، والمشى ماذا يعنى؟ المشى إلى يمين أو إلى شمال أو إلى أمام أو إلى خلف، فهو فعل في الاستواء العادي الظاهر، والذي يتعب هو أن يصعد الإنسان، لأنه سيعاند الجاذبية، وهو بذلك يحتاج إلى قوتين: قوة للفعل في ذاته، والقوة الثانية لمعادنة الجاذبية.

«ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء» وذلك بسبب مشقات التكليف؛ لأنه لم يدخلها بعشق، فلا يدخل إلى مشقات التكليف بعشق إلا المؤمن فهو الذي يستقبل هذه التكاليف بشرح صدر وانسباط نفس وتذكر بما يكون له من الجزاء على هذا العمل، والذي يسهل مشقة الأعمال حلوة تصور الجزاء عليها؛ فالذي يجتهد في دروسه إنما يستحضر في ذهنه لذة النجاح وآثار هذا النجاح

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٢٩٢٣﴾

في نفسه مستقبلاً وفي أهله . أما الذي لا يستحضر نتائج ما يفعل فيكون العمل شاقاً عليه .

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ .. (١٢٥)﴾

[سورة الأنعام]

والسماء هي كل ماعلاك فأظلك ، فالجو الذي يحلوك هو سماء ، وكذلك السحابة ، وأوضح لنا ربنا أنه أقام السموات السبع ، وهنا أراد بعض العلماء الذين يحبرون أن يظهروا آيات القرآن كمعجزات كونية إلى أن تقوم الساعة ، أرادوا أن يأخذوا من هذا القول دليلاً جديداً على صدق القرآن ، وتساءلوا : من الذي كان يدرك أن الذي يصعد في الجو يتعب ويحتاج إلى مجهودين : الأول للعمل والثاني لمناهضة الجاذبية ولذلك يضيق صدره لأنه لا يجد الهواء الكافي لإمداده بطاقة تولد وقوداً .

ونقول لهؤلاء العلماء : لا يوجد ما يمنع استنباط ما يتفق في القضية الكونية مع القضية القرآنية بصدق ، ولكن لنحبس شهوتنا في أن نربط القرآن بكل أحداث الكون حتى لا نتهافت فنجعل من تفسيرنا لآية من آيات القرآن دليلاً على تصديق نظرية قائمة ، وقد نجد من بعد ذلك من يشب خطأ النظرية .

إنه يجب على المخلصين الذين يريدون أن يربطوا بين القرآن لما فيه من معجزات قرآنية مع معجزات الكون أن يمتلكوا اليقظة فلا يربطوا آيات القرآن إلا بالحقائق العلمية ، وهناك فرق بين النظرية وبين الحقيقة ؛ فالنظرية افتراضية وقد تخيب .

لذلك نقول : أنبعد القرآن عن هذه حتى لا تعرضه للذبذبة . ولا تربطوا القرآن إلا بالحقائق العلمية التي أثبتت التجارب صدقها .

ونائل القرآن هو خالق الكون ، لذلك لا تتناقض الحقيقة القرآنية مع الحقيقة الكونية ؛ لذلك لا تحد أدانت الحقيقة القرآنية وتحدسها في شيء وهي غير محصورة فيه . وتنبه جيداً إلى أن تكون الحقيقة القرآنية حقيقة قرآنية صافية ، وكذلك الحقيقة الكونية .

﴿.. كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ

[سورة الأنعام]

لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)﴾

والرجس وهو العذاب ، إنما يأتيهم بسبب كفرهم وعدم إقبالهم على التكليف .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴾ (١٢٦)

و « هذا » مقصود به ما تقدم من آيات . من كتاب الإسلام وهو القرآن ، وذلك ما يشرح الصدر القابل للإيمان ، والقرآن هو الحامل لمنهج الإسلام ؛ فمرة تعود الإشارة إلى القرآن أو إلى الإسلام . وليس هناك خلاف بين القرآن والإسلام .

(وهذا صراط ربك مستقيماً) . و « الصراط » هو الطريق السوى ، والطريق السوى قد يكون مع استوائه معوجاً لكن هذا الطريق مستو ومستقيم ، ونعلم أن الطريق المستقيم هو أقصر الطرق الموصلة للغاية وعلى هذا فصراط لا تغنى عن مستقيم ، ومستقيم لا يغنى عن صراط ، بل لابد من صراط معبد ومستقيم ليكون أقصر طريق إلى الغاية وبلا متاعب ، إنا - نحن البشر - نرى المهندسين وهم يقيسون الأبعاد والمسافات والغايات والبدائيات والنهايات ، وبعد ذلك يربطون البدائيات بالغايات .

إنهم يحضرون آلات معينة ليرصدوا استقامة الطريق وكيفية تمهيده . وقد يعترض استقامة الطريق عقبات صعبة شديدة كأداء كجبل مثلاً ، فيقوم المهندسون إما بنحت نفق في الجبل ليضمنوا له الاستقامة ، وإما بأن يحنى الطريق ليضمنوا جودة تعبيد الطريق . فإن جاء المهندسون وقالوا نحشى من هنا لنضمن استقامة الطريق فلإننا نفعل ذلك . وإلا جعلوا الطريق متعرجاً أو حلزونيّاً ، وذلك لينفادى السائر العقبات التي ليس له قدرة عليها .

لكن إذا كان الصراط قد مهده رب ، أتوجد له عقبة ؟ طبعاً لا ، إذن فهو طريق مستقيم . ولنلاحظ أنه سبحانه قال : « صراط ربك » أى أنه جاء بها من ناحية

الربوبية ، والربوبية عطاء الرب ، إنه سيد ، ومرب ، وخالق الخلق ويضمن لهم ما يعينهم على مهمتهم في الوجود معونة ميسرة سهلة . وهكذا نعرف أن طريق الحق هو الصراط المعبود المستقيم ، أى الذي يصل بين البداية والنهاية . فإن كان الطريق الذى تتبعه مستقيماً ومعهداً ، وسهلاً ، فلماذا لا تتبعه ؟

« وهذا صراط ربك » . ونلاحظ أنه سبحانه قد أسند الرب لمحمد ، أى من أجل خاطره جعل الصراط مستقيماً ؛ لأنه سبحانه هو المتولى لربوبيتك يا محمد ، وسبحانه رب الكون كله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عين أعيان الكون .

﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمٌ قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (١٦٦)

(سورة الأنعام)

« فصلنا » أى أن كل شيء فى هذا الكون مخلوق لما يناسبه ، وكل قضية من قضايا الكون خلقها ربنا لتحقيق الفائدة منها بدون مشقة ، وبدون عنت . والمنهج الذى أنزله الله إنما يصلح الكون ويجعل كل شيء فيه مناسباً لمهمته ؛ لأن الله إله كل الناس وهم بالنسبة إليه سواء لأنه لم يتخذ لا صاحبة ولا ولداً . ولا يعطى سبحانه الحياة لمخلوق ويوجده فى الكون ، ثم يعزبه من أسلحة الحركة فى الحياة ، ولكل إنسان سلاح من موهبة أو قدرة وبذلك تتعدد لأسلحة المواهب والقدرات ، فمن يريد أن يبني بيتاً ، أنقول له : اذهب إلى كلية الهندسة لتتعلم كيف ترسم البيت وتخططه ؟ أنقول له : تعلم كيف تكون فنياً وكهربائياً ونقاشاً ؟ إن الفرد الواحد لا يمكن أن يتعلم كل هذه التخصصات ، لذلك ورع الله المواهب على خلقه ؛ هذا عنده موهبة ليعمل لنفسه ، ويعمل لغيره . وبعد ذلك يأتي غيره ليؤدى له عملاً ليس له فيه موهبة بحيث يتكامل المجتمع كله ولا يتكرر أفراد .

ولو كنا تخرجنا جميعاً كأطباء أو مهندسين لما نفعت الدنيا ، ومن نقول عليهم : إنهم فشلوا فى التعليم يقومون بأعمال فى الحياة ما كنا نستطيع الحياة بدونها ؛ فقد خلقهم الله بقدرات عقلية محدودة ليهبهم قدرات أخرى تصلح فى مهمات أخرى . وإن تعلم المجتمع كله تعليماً عالياً لصار الهرم مقلوباً . وإن انقلب الهرم فمعنى هذا أن أجزاء منه ستكون يغير دعائم فى الأرض . لذلك نجد أن هناك إعداداً عقلياً أراد به الحق لكل واحد من الخلق ، ولا نستطيع أن نقول لكل إنسان : تعلم وتخرج فى

الجامعة ثم اكسب الشارع . وكن في الغد حداداً . لذلك ربط الحق كل عمل بالحاجة إليه ، ومن يحسن استقبال قدر الله في نفسه يُعطي الله له من العمل كل الخير .

ونلاحظ الآن أن من يعمل موظفاً في الدولة يحيا في راتب محدود ، بينما تجد السباك يقدر عمله بأجر يحده هو ، ويبقى الوكيل والتعب لمن كان تقدير عمله في يد غيره . (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) .

وانظر كل قضية في الكون ، لم يدخل ابن آدم فيها أنفه نجدها مستقيمة ، ولا يأن الفساد إلا في القضايا التي أدخل ابن آدم أنفه فيها بدون منيح الله . فإن دخلت في كل مسألة بمنح الله يستقم الكون تماماً . ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى النظام الأعلى في كونه والذي لا تدخل لنا فيه . ولا سيطرة عليه ، السموات ، والكواكب ، والشمس ، والقمر ، وحركة الأرض ، كل تلك الكائنات نجد أمورها تسير بانتظام ، ولذلك يقول لنا الحق سبحانه :

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٥﴾ أَلَّا تَطْغُرَ فِي الْمِيزَانِ ﴿٦﴾﴾

(سورة الرحمن)

فإن أردتم أن تستقيم أموركم في شئونكم وأحوالكم الاختيارية فادخلوا فيها بمنح الله ، لأن الأشياء التي تدار بمنح الله بدون أن يتدخل فيها البشر تؤدي مهمتها كما ينبغي .

فعل الإنسان - إذن - أن يتذكر كيف يأخذ من المقدمات التي أمامه ما يوصل إلى النتائج ، ولا بد أن يأخذ المقدمات السليمة ليصل إلى الغايات القطرية . وأقصر الأمور أن تسأل نفسك : أنت صنعة من ؟ صنعة نفسك ؟ لا ، هل أنت من صنعة واحد مثلك ؟ لا . وهل ادعى واحد في كون الله - وما أكثر ما يدعى - أنه خلقك أو خلق نفسه ؟ لا . بل أنت وهو وكل الكون من صنعة الله ، فدعوا الله بقرقر قانون صيانتكم ، وسيظل الناس متعيين إلى أن يسلموا الصنعة إلى خالقها . (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) .

ولم يقل فصلنا الآيات لواحد ، بل قال « لقوم » حتى إذا ما مال أو غفل واحد في الفكر يعدله غيره . وكلنا متكافلون في التذكير ، وهذا التكافل في التذكير يعصم كل

مؤمن من نفسه ؛ فإن حصل عندي قصور من سهو أو من غفلة أو من هوى يعدله
غيري . وهذه قضية كونية لو استقرأت الوجود كله وجدت أنها لا تتخلف أبداً ، ولا يد
من تذكر الغاية التي جاء بها في قوله الحق :

يَعْمَلُونَ لَكُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ إِلَيْهِمْ رِعَابٌ
يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

أي أن لهؤلاء المتقدمين الذين صبروا وصابروا وربطوا ، لهم دار السلام ، وهو
أسلوب مكون - كما يقال - من مبتدأ وخبر ، «لا أن المبتدأ أخر هنا ، والخبر تقدم ،
وكان المنطق أن يقال : «دار السلام لهؤلاء» ولكن الأسلوب القرآني جاء ليقدّم الخبر
المكون من الجار والمجرور ومتعلقه ، ويؤخر المبتدأ وذلك لخصوصية أرادها الحق ،
وهي أن هذه الدار لهم وحدهم دون غيرهم فهي خالصة لهم يوم القيامة و«دار
السلام» مكونة من كلمتين ، «دار» ومعناها ما يستقر فيه الإنسان ، ويجمع هذا
المكان كل ما تتطلبه حياة الإنسان ، وهي أوسع قليلاً من كلمة «بيت» ؛ لأن البيت
مكان يعد للبيتوتة ، لكن كلمة «دار» تعد للحياة ولما يتعلق بالحياة من مقوماتها .

و«دار» هنا مضافة إلى السلام ، وهو - كما نعلم - اسم من أسماء الله ، إذن
فالحق هنا يوضح : لهم دار منسوبة للسلام وهو الله ، وهم مستحقون لها جزاءً منه ،
فإذا كانت الدار التي وعدها الله هي دار السلام وهو الله ، فلا بد أن فيها متعاً
وإمكانات على قدر فضل المضاف إليه وهو الله ، ولماذا لم يقل الله : «دار الله ؟» ؛
لأن الله أراد أن يأتي بوصف آخر من أوصافه ؛ ليعطيهم السلام والأمن والاطمئنان .

وهناك فرق بين دور الدنيا ، وهذه الدار ؛ فدور الدنيا فيها متع ، ولكنك فيها بين
أمرين : إما أن تغرب أنت ما هي فيه ، وإما أن يفوتك ما فيها ، ولذلك لا يوجد في
الدنيا أمن ؛ لأن غيرك قد يشاؤك فيها ويعاديك ، وقد تأتي لك مكدرات المرض ،
وقد تأتي لك معكرات الأعداء ، كل ذلك ينغص عليك الأمن والسلام في الدنيا ،
ولذلك أراد الحق أن تكون لك الآخرة دار سلام مادمت قد آمنتم ، وأن تأمن فيها

من كل الآفات التي كانت في دار الدنيا .

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ ۝١٢٧﴾

[سورة الأنعام]

وكان دار السلام ليست وعداً من الله بأن تكون ، ولكنها جاهزة معدة عند الله ومحفوظة لديه تنتظر المؤمنين ، وسبحانه قد خلق جناتاً تتسع لكل خلقه على فرض أنهم آمنوا ، وجعل من النار مثل ذلك على قدر خلقه ، على فرض وتقدير أنهم كفروا . وسيأخذ المؤمنون ما أعد لهم من دور الإيمان ويثرون ما أعد للكافرين من دور الإيمان على فرض أنهم آمنوا في الدنيا .

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٢٨ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٢٩﴾

[سورة المؤمنون]

فلم يخلق الحق جناتاً محدودة ، لا ، بل أعد وهيا من الجنان ما يتسع لكل الخلق إن آمنوا ، ومن النيران ما يتسع لكل الخلق إن كفروا . ومادامت العندية منسوبة إلى الله فهي عندية مأمونة .

وبعد ذلك أينخلى الله عنهم ويكلهم إلى ما أعد لهم ؟ . لا ، بل قال :

﴿ ۝١٢٧ وَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٢٨﴾

[سورة الأنعام]

فهناك إعداد ، ثم قيومية ولاية الله ، وهذه القيومية لله ، هي للمؤمنين في الدنيا . لكن فلنلاحظ أن الولاية في الدنيا قد تكون فيها أسباب مخلوقة لله ، لكن في الآخرة هناك الجزء الذي لا يكله الله للأسباب ، فتكون الولاية مباشرة له ؛ لأنه سيعطيك نوراً ، وإذا خطر أى شيء ببالك تجده حاضراً ؛ فهي متعة على غير ما ألف الناس ؛ لأن الناس يتمتعون في الدنيا بواسطة الأسباب المخلوقة لله . ولكن في الآخرة فلا ملكية لأحد حتى في الأسباب ، لذلك يقول سبحانه :

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۝١٢٩﴾

[سورة غافر]

وستجد الإجابة هي قوله - سبحانه - :

﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والحق هو الولي الذي يليك ، قريباً تنتفع به ، فلا تضطر حتى أن تنادي عليه ليأتي لك بالمنافع ويدفع عنك المضار كما عمل لك في الدنيا ووفقك للعمل وهو وليك في الآخرة بحسن الجزاء لك بسبب ما كنت تعمل ؛ فالعمل في الدنيا هو الزرع وهو الحراث ثمرة الآخرة . ولكن أعطينا الله على قدر أعمالنا ؟ لا ، بل يعطينا على قدر صبرنا ؛ لأنه إن كان العطاء على قدر الأعمال ، إنا لو حسبناها لما أدينا ثمن عشر معشار نعم الله علينا في الدنيا . فكأننا نعمل في الدنيا لنؤدى شكر ما آفأ علينا وأعطانا من النعم ، فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وأعطانا بعد ذلك ثواباً فهو الفضل منه ، ولذلك بوضح الحق لنا : إياكم حين توفقون في العمل أن تفتنوا بأعمالكم ، بل عليكم أن تتذكروا أن ذلك فضل من الله :

﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾

(سورة بقره)

وقد شرح النبي عليه الصلاة والسلام هذا الأمر وقال :

« لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ » (١) .

إذن المسألة كلها بالفضل من الله ، ولكن فضل الله شرطه العمل الصالح ؛ فأنتم تعمل العمل الصالح ، ويعطيك ربنا أصعافه ، وبطبيعة الحال فعملك لن يرفع جلالة أو جماله أو كماله أو يزيد صفة أو يزيد ملكاً ، لكنه يعطيك على ما عملته لنفعك ولنفع بني جنسك .

ولذلك نجد الإمام الرازي - رضى الله عنه - يقول : إن العمل في ذاته يورث

(١) رواه مسلم في المصابيح واللفظ له ، ورواه البخاري في الرقاق وترمذي ، وابن ماجه في الزهد ، والدارمي في الرقاق ، ورواه أحمد في المسند ٢/٢٣٥ ، ٢٥٦ .

الذات شيئاً من الصفاء الذي ترتاح له وتسعد به ، حتى تجد الجزاء في الراحة ، والراحة النفسية هي الأمر المعنوي الذي يوجد في بنية مادية هي قالبك . فساعة يوجد شيء في النفس فهو يؤثر في القالب أغياراً ، فإذا غضب الإنسان فهذا الغضب يظهر أثره في البنية نفسها فيحمر الوجه ، ويرتعش الإنسان للاتفعال بالغضب ، والغضب أمر معنوي لكنه أثر في البنية ، وكذلك إذا ما حدث ما يترك ، يظهر ذلك في البنية أيضاً ، فنشرق وتهلل أساريرك . إذن فالعمل يؤثر في البنية ، والبنية تؤثر في العمل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ
اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ
رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي
أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ
اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

وساعة نسمع « يوم » اعرف أنها « ظرف زمان » ، أى أن هناك حدثاً ، وقوله الحق : « ويوم يحشرهم جميعاً » أى اليوم الذي يقف فيه الجميع ويحشدون ، ونحن ننظر إلى ما بعدها نجد أن الحدث لم يأت ، ولكن جاء « يامعشر الجن » وهذا « نداء » . فكان الحدث هو النداء نفسه ، والنداء يقتضى منادياً ، وهو الحق سبحانه ، ومنادى وهو معشر الجن والإنس ، وقولاً يبرز صورة النداء . فكان العبارة هي : يوم يحشرهم جميعاً فيقول يامعشر الجن والإنس ، و « الحشر » هو الجمع ، و « المعشر » هم الجماعة المختلطة اختلاط تعايش ، بمعنى أن يكون فيهم كل عناصر ومقومات الحياة ، وقد يضاف المعشر إلى أهل حرفة بخصوصها ، يامعشر التجار ، يامعشر العلماء ، يامعشر الوزراء . لكن إن قلت : يامعشر المصريين فهي جماعة مختلطة اختلاط تعايش ومعايشة .

[سورة الأنعام]

﴿يَمَعُشَرِ الْجِنَّ لَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ.. (١٢٨)﴾

و«استكثرت» أى أخذ منه كثيراً ، كمن استكثرت من جمع المال ، أو استكثرت من الأصدقاء ؛ فمادة «استكثرت» تدل على أنه أخذ كثرة . وماذا يعنى استكثراهم من الإنس ؟ . نحن نعلم أن من الجن طائعين ، ومنهم عاصرون ، والأصل فى العصيان فى الجن «إبليس» الذى أقسم :

[سورة ص]

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾

فكان الحق يوضح : أنكم معشر الجن قد حاولتم جاهدين أن تأخذوا الإنس إلى جانبكم واستكثرتهم بهم ، فبعد أن كان العاصون فقط من شياطين الجن وجند عصاة من الإنس أيضاً ، واستكثرتهم منهم ، بأن ظنتم أن لكم غلبة وكثرة وعزاً ، لأنهم إذا أطاعوكم فى الوسوسة أصبحت لكم السيادة ، وذلك ما كان يحدث ، فكان الإنسان إذا ما نزل وادياً مثلاً قال : أعوذ بسيد هذا الوادى - من الجن - ويطلب أن يحفظه ويحفظ متاعه ، وحينما يوسوس له شىء يسارع إلى تنفيذه ، وهذا استكثار .

﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُم مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ.. (١٢٨)﴾ [سورة الأنعام]

وكذلك لم يستمتع الجن والإنس فقط ، بل استمتع أيضاً بالجن ، وهكذا نجد تبادل استمتاع من خلف منهج الله ، لهؤلاء إغواء وسيادة ، يأمرونهم بعمل الأشياء المخالفة لمنهج الله ، وهؤلاء يستمتعون بهم يحققون لهم شهواتهم فى صورة تدين ، فيقولون لهم : اعبدوا الأصنام ، واعبدوا الشمس ، واعبدوا القمر ، فيفعلون . وذلك يرضى فيهم غريزة الانقياد للتدينى ؛ لأن كل نفس مفعورة على أن ترتبط بقوة أعلى منها ؛ لأن الإنسان إذا نظر لنفسه وإلى قرنائه وجددهم أبناء أغيار ، الواحد منهم يكون اليوم صحيحاً وغداً مريضاً ، ويكون اليوم غنياً وغداً فقيراً ، فما الذى يضمن للنفس البشرية حماية من هذه الأغيار ؟ .

إن الإنسان يحب أن يلجأ ويرتبط بقوى ؛ حتى إذا جاءت هذه الأغيار كانت

سنداً له . إلا أن هناك من يصعد هاهنا التدين وهؤلاء هم الذين يركنون إلى الإيمانية لله ويعتمدون عليه سبحانه ويقبلون على الإيمان بالله بمطلوبات هذا الإيمان في «افعل» و«ولا تفعل» . لكن الأشياء التي يعبدونها من دون الله ليس لها مطلوبات أو تكاليف إلا أن تكون موافقة لأهواء النفس ، وهذا الإكذاب للنفس أي حمل النفس على الكذب لا يدوم طويلاً ، لأن الإنسان لا يغش نفسه ؛ فالإيمان يحسب النفس إذا جاء أمر فوق أسبابك ، وليس هناك من يقول : يا شمس أو يا قمر ، يا شيطان أو يا صخر ! لا يمكن ؛ لأنك لن تكذب على نفسك أبداً . ومثال ذلك قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانٌ لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِمْ .. (١٧) ﴾

[سورة يونس]

وهنا يقول الحق عن الإنس :

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا .. (١٦٨) ﴾

[سورة الأنعام]

أي أن هذا الاستمتاع أمداً ، هو أمد الأجل أي ساعة تنقضي وتنتهي الحياة ، ثم يبدأ الحساب فيسمعون قول الحق :

﴿ . قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٦٨) ﴾

[سورة الأنعام]

و«الشواء» هو الإقامة ، و«مَثْوَاكُمْ» أي إقامةكم ، «إلا ما شاء الله» وهذا الاستثناء كان محل نقاش بين العلماء ، دار فيه كلام طويل ؛ فهناك من قال : إن الحق سبحانه وتعالى قال : «إلا ما شاء الله» أي أن له طلاقة القدرة والعيشة ؛ فيفعل ما يريد لكنه حسب الأمر وحدد هو «ما شاء» فقال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ [سورة النساء]

وهنا حدد «ماشاء» ، أى أن ما شاء يكون فى غير الشرك به فإن الشرك لا يكون محل غفران منه سبحانه . أو يجوز «إلا ما شاء الله» أن بعضاً يفهم أنه بمجرد البعث والحشر ستكون النار مثواهم ، ولكن المثوى فى النار لن يكون إلا بعد الحساب ، وهذا استثناء من الزمن الخلودى ، فلن يحدث دخول للجنة أو للنار إلا بعد الحساب . فزمن الحساب والحشر مستثنى وخارج عن زمن الخلود فى الجنة أو النار .

ونحن نجد أيضاً «إلا ما شاء ربك» فى سورة هود حيث يقول الحق :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ففى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا ففى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوزٍ (١٠٨) ﴾

[سورة هود]

إذن فهناك الاستثناء فى النار والاستثناء فى الجنة ، فقول الحق : «خالدين فيها مادامت السموات والأرض» إلا ما شاء ربك ، فمجيء الاستثناء بعد الوصف بالخلود ، يدل على أن الخلود ينقطع مع أنه قد ثبت خلود أهل الجنة فى الجنة وخلود أهل النار فى النار للأبد من غير استثناء فكيف ذلك؟

والرد على هذا أن أهل النار لا يخلدون فى عذاب النار، وحده بل يعمدون بالزمرير ويأنواع من العذاب سوى عذاب النار بما هو أغلظ منها كلها وهو سحق الله عليهم ولعنتهم وطردهم وإهاتة إياهم . وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعا ، وهو رضوان الله كما قال : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومسكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر) فلهم ما يفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو ، فهذا هو المراد بالاستثناء ، والدليل عليه قوله : (عطاء غير مجذوذ) ومعنى قوله فى مقابلته : (إن ربك فعال لما يريد) أن ربك يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب ، كما يعطى أهل الجنة الذى لا انقطاع له .

ويُذِلُّ الْحَقُّ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ : «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» . حَكِيمٌ فِي أَنْ يَعَذِّبَ ، عَلِيمٌ
بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَعَذَّبَ ، وَمَقْدَارُ عَذَابِهِ ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَنَابُ وَيُنْعِمَ ،
وَبِمَقْدَارِ ثَوَابِهِ وَنَعِيمِهِ ، وَحَكِيمٌ فِي أَنْ يَرْحَمَ . وَيَقُولُ الْحَقُّ بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّنُ بِعَصِ الْأَعْلَامِينَ بَعْضًا لِّمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٩)

«وكذلك» تشير إلى ما حدث من الجن والإنس من الجدل ، فقال الحق على ألسنة
الإنس :

﴿رَبَّنَا اسْتَمِعْ بَعْضَنَا يَعْضُرُ ..﴾ (١٢٨) [سورة الأنعام]

ولم يأت بكلام الجن ؛ لأن كلامهم جاء في آيات أخرى ؛ فالحق هو الغالب :

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ
وَمَا كُنْ أَلَىٰ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْ كُنْتُمْ
أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ..﴾ (١٢١) [سورة إبراهيم]

وكذلك أورد الله ما يجيء على لسان الشيطان في سورة أخرى :

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ..﴾ (١٢٠)

[سورة الحشر]

وكذلك جاء الحق في آيات أخرى بأقوال الإنس الذين ضلوا :

﴿ رَبَّنَا ارْحَمْ الَّذِينَ أَصْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ تُجْعَلُهُمَا نَحْتُ أَقْدَابًا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة فصلت)

وقوله الحق هنا في سورة الأنعام :

﴿ وَكَذَلِكَ نَوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأنعام)

نرى كما صنعنا مع الجن والإنس ، باستكثار الجن من الإنس واستمتاع بعضهم ببعض إضلالا وإغواء ، وضاعة وانقيادا ، نجعل من بينهم ولاية ظالم على طام ، ولا نولي عليهم واحداً من أهل الخير ؛ لأن أهل الخير قلوبهم مملوءة بالرحمة ، لا يقوون على أن يؤذوا الظالم ؛ فهم قد ورثوا النبوة المحمدية في قوله يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، ولذلك إذا أراد الله أن يؤذب ظالماً لا يأتى له بواحد من أهل الخير ليؤذبه ، إنه - سبحانه - بتكريمه لأهل الخير لم يجعل منهم من يكون في مقام من يؤذب الظالم . إنه - سبحانه - يجعل أهل الخير في موقف استفرج على تأديب الظالمين بعضهم بعضاً .

والتاريخ أرانا ذلك . فقد صنع الظالمون بعضهم في بعض الكثير ، بينما لو تمكن منهم أعداؤهم الحقيقيون لرحمهم ؛ لأن قلوبهم مملوءة بالرحمة .

ولذلك بلغنا عن سيدنا مالك بن دينار وهو من أهل الخير . يقول : قرأت في بعض الآثار حديثاً قدسياً يقول فيه الحق :

« آنا ملك الملوك قلوب الملوك بيدي »^(١) .

فإياكم أن يظن الطاغية أو الخاكم أو المستبد أنه أخذ الحكم بذكائه أو بقوته ، بل جاء به الحق ليؤذب به الضلعة ، بدليل أنه ساعة يريد الله أن تنتهي هذه المسألة فهو

(١) تذكرة الموضوعات لابن القيسران .

بجلاله ينزع المهابة من قلوب حراسه ، ويدلاً من أن يدفع عنه بالبندية ، بصوب
البندية إليه .

فإياكم أن تظنوا أن ملكاً يأخذ الملك قهراً عن الله ، ولكن إذا العباد ظلموا
وطشوا يسلط الحق عليهم من يظلمهم ، ولذلك يقال : « الظالم سيف الله في الأرض
ينتقم به ويتقم منه » .

﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّنُ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١)

(سورة الأنعام)

فكان ما سلط على الناس من شرِّ عاتٍ هو نتيجة لأعمالهم ، ولذلك كان أحد
الصالحين يقول : أنا أعرف منزلي من رب من خلق دابتي ؛ إن جمحت بي أقول ماذا
صنعت حتى جمحت بي الدابة ؟ ! وكان المسألة محسوبة . وهذه معاملة للأخيار ،
عندما يرتكب ذنباً يؤاخذ به على الفور حتى تصير صفحته نظيفة دائماً . قال عليه
الصلاة والسلام : « ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه ، حتى الشوكة
يُشاكها » (١) .

فإذا فعل العبد من أهل الخير بعضاً من السيئات ، يوقيه الحق جزاءه من مرض في
جسمه أو خسارة في ماله ، وكذلك المسيء الذي لا يريد له الله النكال في الآخرة .
يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يصيبه أذى شوكه فما فوقها إلا
حط الله تعالى له به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها » (٢) .

(وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) هم اعتقدوا أنهم أخذوا
شيئاً من وراء الله وخلصوا به . نقول : لا ، فربك سيحاسبك ثواباً أو عقاباً وذلك
بما قدمت يداك وما عملت من سيئات أو حسنات .

ويقول الحق بعد ذلك :

(١) رواه البخاري ومسلم واحد .

(٢) رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود .

﴿يَمَعَشِرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَقُصُّونَ عَلَيْكُم مَّا يَكُنِي وَنُذِيرٌ لَّكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ
هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا
وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

ونلاحظ أنه قال هنا: «يامعشر الجن والإنس» لأنه يريد أن يقيم عليهم الحجة بأنه سبحانه لم يجرم أعمالهم ولم يضع لهم العقوبات إلا بعد بلغهم بواسطة الرسل ؛ فقد أعطاهم بلاغاً بواسطة الرسل عما يجب أن يفعل ، وما يجب أن يترك . فلم يأخذهم - سبحانه - ظلماً .

وهنا وقفة ؛ فالحطاب للجن والإنس «ألم يأتكم رسل منكم» فقال بعض العلماء : إن الجن لهم رسل ، والإنس لهم رسل ، وقال آخرون : الرسل من الإنس خاصة ؛ لأن القرآن جاء فيه على لسانهم : (إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى) .

إذن فقد احتج الجن بكتاب أنزل من بعد موسى عليه السلام وعندهم خبر عن الكتاب الذي جاء بعده ، كأن الجن يأخذون رسالتهم من الإنس ؛ فكأن الله قد أرسل رسلاً من الإنس فقط وبلغ الجن ما قاله الرسول ، وهو هنا يقول سبحانه :

﴿يَمَعَشِرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ .. (١٣٠)﴾ [سورة الأنعام]

وأنت حين تأتي إلى اثنين : أولهما معه مائة جنية ، والثاني يسير معه وليس معه شيء وتقول : «هذان معهما مائة جنية» فهذا قول صحيح . فقله سبحانه : «ألم يأتكم رسل منكم» أي من معجموعكم . أو أن الرسل تأتي للإنس ، وبعد ذلك من الجن من يأخذ عن الرسول ليكون رسولاً مبلغاً إلى إخوانه من الجن :

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾
[سورة الأحقاف]

فكان المنذرين من الجن يأخذون من الرسل من الأنس وبعد ذلك يتوجهون إلى الجن.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي .. ﴿١٣٠﴾﴾ [سورة الأنعام]

والآيات تطلق على المعجزات التي تثبت صدق الرسل ، وما يكون من شرح الأدلة الكونية الدالة على صدق الرسل . وكلمة «يقصون عليكم آياتي» أي يروون لهم الموكب الرسالي من أول «آدم» إلى أن انتهى إلى «محمد ﷺ» . «يقصون عليكم آياتي» قول يدل على دقة الأداء التاريخي ، لأن «قص» مأخوذ من قص الأثر ، ومعناها تسبج القدم بدون انحراف عن كذا وكذا ، وهكذا نجد أن المفروض في القصة أن تكون مستلهمة واقع التاريخ .

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا .. ﴿١٣٠﴾﴾ [سورة الأنعام]

وهو اليوم المخزى حيث سيقفون أمام الله ويذكروهم الحق أنه قد نبههم وقد أعذر من أنذر .

﴿.. قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [سورة الأنعام]

وقولهم : «شهدنا على أنفسنا» إقرار منهم على أنفسهم ، فقد شهدوا على أنفسهم ، ولكن ما الذي منعهم أن يتضموا إلى الإيمان بمواكب النبوة ؟ . تأتي الإجابة من الحق : (وغرتم الحياة الدنيا) .

والذى يقرّ هو الشىء الذى يكون له تأثير ، وهو موصوف بأنه «دنيا» ، لذلك فالغرور الذى يأتى بالدنيا هو قلة تبصر . (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) . ومن يستقرئ آيات القرآن يجد آية تقول :

﴿وَاللّٰهُ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأنعام)

فمرة ينفون عن أنفسهم أنهم كفروا ، ومرة يشبّون أنهم كافرون ، وهذا لاضطراب المواقف أو اختلافها . أو أنهم «شهدوا على أنفسهم» ، بمعنى أن أبعاضهم شهدت عليهم ؛ لأن الإنسان فى الدنيا له إرادة ، وهذه الإرادة مسيطرة على ماله من جوارح وطاقات مخلوقة لله ؛ لأن الله جعل للإرادة فى الإنسان ولاية على الأبعاض التى تقوم بالأعمال الاختيارية . لكن الأعمال الاضطرارية القهرية ليس للإنسان إرادة فيها ؛ فلا أحد يملك أن يقول للقلب انضض كذا دقة فى الساعة ، ولا أن يقول للأعضاء : تحركى الحركة الذودية هكذا . لكنه يقدر أن يمشى برجليه إلى المسجد ، أو يمشى إلى الخنّارة . ويستطيع أن يقرأ القرآن أو يقرأ فى كتاب يضرو لا يفيد .

إذن فلإرادة الإنسان مسيطرة على الأبعاض لنحقق الاختيار المصحح للتكليف . لكن يوم القيامة تسلب الإرادة التى للإنسان على أبعاضه ، ويبقى الأبعاض كلها حرة ، وحين تصير الأبعاض حرة فالأشياء التى كانت تقبلها فى الدنيا بفانون تسخيرها لإرادتك قد زالت وانتهت ، فهى فى الآخرة تشهد على صاحبها ؛ تشهد الجلود والأيدى والأرجل :

﴿وَقَالُوا جِلْدُوهُمْ لَمَّا شَهِدُوا عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

وحين يقولون لربنا : ما كنا مشركين ، فهذا كلامهم هم ، لكن جوارحهم تقول لهم : يا كذّابون ، أنتم عملتم كذا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾

« ذلك » إشارة إلى ما تقدم ، وهو إرسال الرسل مبلغين عن الله ؛ حتى لا يكون لأحد حجة بعد الرسل ، وقد أقرّوا بأن الله أرسل إليهم رسلاً ، وشهدوا على أنفسهم ، وماداموا قد أقرّوا على أنفسهم بأن الله أرسل لهم رسلاً وشهدوا على أنفسهم بذلك ، إذن فهذا إقرار جديد بأن الله لم يكن مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعاقب على جرم ، وقبل أن يجرم ينزل النص بواسطة الرسل . أي أن الله لا يهلكهم بسبب ظلم وقع منهم إلا بعد ذلك البلاغ .

« وأهلها غافلون » ، و « الغفلة » ضد اليقظة ، فاليقظة هي تنبّه الذهن الدائم ، و « الغفلة » أن تغيب بعض الحقائق عن الذهن ، ومعنى أن ربنا لا يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون أي غير يقظين ؛ فلو أنهم كانوا يقظين ومتنبهين لما احتاجوا إلى الرسل ؛ لأن الله عندما خلق الخلق أرسل آدم إلى ذريته ، وكان المقروض كما يلقن الآباء الأبناء وسائل حياتهم أن يلقنهم مع ذلك قيم دينهم . فكما أن الآباء يعلمون ذريتهم وسائل حياتهم ، ثم ينقلونها ويزيدون عليها بابتكاراتهم ، كان من الواجب على الآباء أن يقوموا بهذا العمل بالنسبة للقيم فتعيش القيم في الناس كما عاشت وسائل حياتهم .

ولماذا - إذن - عاشت وسائل حياتهم وتوارثوها وزادوا عليها أشياء ؟ لأن زاوية الدين هي التي يغفل الناس عنها ، بسبب أنها تقيد حركتهم في « افعل » و « لا تفعل » ، ولكنهم يريدون الترف في وسائل حياتهم . لماذا إذن أيها الإنسان تحرص على الترقى في ترف الحياة ولا تحرص على الترقى في القيم ؟ . لقد كنت - على سبيل المثال - تشرب من الماء أو النبع بيدك ثم صنعت كوباً لتشرب منه ، ونقيت الماء من الشوائب ونقلته من المنابع في صهاريج . أنت ترقه حياتك المادية والمعيشية فأين إذن الاهتمام بقيم الدين !!؟

ولو كانوا متيقظين لكان كل أب قد علم ابنه ما ورثه من آبائه من القيم ، وعلى الرغم من ذلك رحم الحق سبحانه وتعالى هذه الغفلة ، وكرّر التنبيه بواسطة الرسل ، وكلما انطمست معالم القيم التي يحملها المنهج فهو - جل وعلا - يرسل رسولا رحمة منه وفضلا وعدالة ، ولم يكن يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، والغفلة ضد اليقظة .

إذن لو كانوا متيقظين لما كانت هناك ضرورة للرسل ، لأن الآباء كانوا سينقلون لأبنائهم القيم كما ينقلون إليهم وسائل حياتهم ، وهذا الأمر مستمر معنا حتى الآن ، إن الأب - مثلاً - إن غاب ابنه عن المدرسة يوماً يلوم الابن ، وإن أهمل في دروسه أو رسب فهو يعاقب الابن ، وهذه هي الغفلة على المستقبل المادى للابن ، ولا غفلة على أدائه لغروض الدين ، لماذا ؟ . إن الناس لو عتوا بمسائل قيمهم كما يعتنون دائماً بمسائل حياتهم لاستقام منهج الخير في الناس وأصبح أمراً رتيباً .

وعرفنا أن الغفلة ضدها اليقظة ، كما أن السهو ضده التذكر ، والغروب ضده الشروق ، والغياب ضده الحضور .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ

يَغْفِلُ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٣٤)

« ولكل » ، وجاءت بالتثنية أي لكل من الإنس والجن درجات مما عملوا ، فكان الأعمال تتفاوت ، فقد تكون في ظاهرها قوالب متحدة ، لكن التفاوت إنما ينشأ بكثرة العمل ، أو بإخلاص الممارف للعمل والمكتسب والفاعل له ، فهناك من يخلص بكل طاقته ، وهناك من يؤدي عمله بنصف إخلاص ، ومسألة الإخلاص هذه لا تحددها لوائح ولا قوانين إنما يحددها الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك يقول محمد صلى الله عليه وسلم مبلغاً عن رب العزة هذا الحديث القدسي :

« الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحيت من عبادى » (١) .

إذن فمقاييس الإخلاص لا يعرفها إلا ربنا سبحانه وتعالى ، وعلى مقدار ذلك تكون الدرجات . وتكون الدرجات على مقدار ما يزيده العبد من جنس ما فرضه الله عليه ، فالحق قد فرض صلوات خمساً ، فيزيد العبد عشر ركعات في الليلة مثلاً . والله قد فرض الصيام شهراً ، فيصوم العبد يومى الاثنين والخميس .

والذى يقف عند ما فرض الله يجازيه الله على إخلاصه في أداء ما عليه ، وحينما سأل أعراب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موقف الذى لا يؤدي إلا الفروض فقط ، قال له : (أفلح إن صدق) (٢) ، فالذى يزيده عما فرض الله من جنس ما فرض الله أشد فلاحاً . ولا يصل الإنسان إلى المرتبة التى هى أشد فلاحاً إلا إذا كان في درجة أعلى ، وكلمة « درجات » تفيد العلو ، وكلمة « دركات » تفيد الهبوط ، والحق لا يغفل عن ظاهر وباطن كل عمل لآى عبد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ

وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ

مِنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٢٣﴾

وهنا يحنتنا الله سبحانه وتعالى إلى عبادته ، وإلى تكاليفه ، يحنتنا إلى فضيلة الطاعة ، وكل ذلك لمصلحتنا وهذا مطلق الربوبية الرحيمة ، فيحسن لنا الجزاء ، ويفضخ لنا فيه لتعمل لصالحنا نحن ، لأن كل أعمالنا - كما قلنا - لا تزيد في ملك الله قدر جناح بعوضة ، وكل معصياتنا لا تنقص من ملك الله قدر جناح بعوضة ، لأن الله بكل صفات الكمال خلقنا ، ولم نزده نحن شيئاً . لقد أوجد الدنيا من عدم ،

(١) رواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب .

(٢) رواه النسائي والبيهقي في السنن الكبرى .

وفرق بين الصفة القائمة بذات الله ، وإيجاد متعلق الصفة . فالله خالق ، والله رحمن ، والله وحيم ، والله قهار ، وسبحانه رحمن ورحيم وقهار وخالق حتى قبل أن يبرز ويظهر ما يخلقه ؛ لأنه بصفة الخالق فيه خلق ، وهو رزاق قبل أن يخلق المرزوق ، فالصفة موجودة فيه قائمة به ، وبهذه الصفة رزق ، وبوجود هذه الصفات فيه يقول للنبي : كن فيكون ، وله هذا الكون كله ، وهو غني عن العباد وله كل الملك ، وكذلك خلق التوبة ، والرسول ﷺ يقول :

«لَكُلِّ أَفْرَحٍ بِتُوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرَةٍ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ»^(١).
﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (١٣٢)
[سورة الأنعام]
إذن فالخلق مستمر الإيجاد من العدميات وهو دليل على أن صفة الخالقية موجودة .

وما آدم في منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أو آدم
فالكون كله من أول آدم موجود ، وكل الكون المسخر لآدم كخليفة في الأرض
خاصه لله ، فإن شاء اذهب الخلق وأتى بخلق جديد .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنَّكَ مَا تُوْعَدُونَ لَا تَرَى وَمَا أَنتُمْ

بِمُعْجِزِينَ﴾ (١٣٦)

والحق سبحانه وتعالى لأنه لا إله إلا هو ، إذا وعد فلا بد أن يتحقق وعده ، وإذا أوعد فلا بد أن يأتي وعيده ، والوعد إذا أطلق فهو في الخير ، والوعيد يكون في الشر ، والذي يخلف الوعد أو الوعيد من الخلق فهذا أمر متوقع لأنه من الأغيار ، فيتغير رأيه

(١) رواه البخاري في الدعوات ، ومسلم في التوبة ، والترمذي في الدعوات .
سقط على بعيره : أي صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به .

فلم يعد أملاً لهذا الوعد ؛ لأنه ربما يكون قد وعد بشيء كان يظن أنه في مكتته ، وبعد ذلك خرج عن مكتته ، فليس له سيطرة على الأشياء ، لكن إذا كان من وعد قادراً ، ولا يوجد إله آخر يناقضه فيما وعد أو أوعده فلا بد أن يتحقق الوعد أو يأتي الوعيد . . . ولذلك حينما يحكم الله حكماً فالْمُؤْمِنُ يأخذ هذا الحكم قضية مسلمة ؛ لأنه لا إله مع الله سيفير الحكم ، وسبحانه ليس من الأغيار ، والمثال أنه قال :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ ﴾ (٢) وَأَمْرَآتُهُ حَمَالَةٌ الْحَطَبِ ۚ (١) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ (٥) ﴿ [سورة المسد]

وهذا وعيد في أمر لهم فيه اختيار ، ومع ذلك لم يسلموا . وجاء بعدها ما يؤكد لكل مسلم : إياك أن تأخذ هذه القضية مأخذ الشك ، وتقول : قد يتوب أبو لهب هذا وزوجه ويسلمان ، ألم تنب هند ؟ ألم يسلم أبو سفيان ؟ ! لكنه سبحانه عالم بما يصير إليه اختيار أبي لهب واختيار زوجته ، وإن كان كل منهما مختاراً ، ولا يوجد إله سواه ليغير الأمر عما قال .

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۚ (١) . . . ﴾ [سورة الاخلاص]

أي لا يوجد إله آخر ليعدل هذا الأمر .

﴿ إِنَّمَا تَوَعَّدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۚ (١٣٤) ﴾ [سورة الانعام]

قد يظن بعض الناس أن الله قد يأتي بما وعد به لكنهم قد يهربون منه ، ولكن ليس الأمر كما يظنون ؛ فالوعد أت وأنتم لا تستطيعون الهرب منه ، ولا أحد بقادر على أن يمنع الله عن تحقيق ما وعد أو أوعد ، ولن تفروا من وعده أو وعيده ، ولن تغلبوا الله أو تفوتوه وتعجزوه ؛ فإله غالب على أمره .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۚ
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ
إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ ﴾

والقوم هم الجماعة ، وعادة يطلق على الرجال لانهم اهل القيام للمهمات ، لان الشأن والاصل في المرأة الستر والبيتوتة والاستقرار في البيت للقيام على أمره ورعايته .
وحين نقرأ القرآن نجد كلمة « قوم » نفهم أن المقصود منها الجماعة التي تجمعهم رابطة ، وأنها للرجال خاصة ، والمثال هو قول الحق :

﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة المجرات)

ومادام قد جاء بمقابل « قوم » : « ولا نساء » ، فـ « قوم » هذه للرجال وماخوذ منها « القيام للمهمات » ، وماخوذ منها « القوامة » . ولذلك الشاعر يقول :
ولا أدري ولست أخال أدري أقوم آل حصن أم نساء
يعنى أرجال أم نساء .

﴿ قُلْ يَنْقُومِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة الأنعام)

و « المكان » هو الحيز الذي يأخذه جسم الإنسان ، فكل كائن له مكان ، إن وقف له مكان ، إن قعد له مكان ، والمكان هو المملوك والمخصص لك من الأرض ، فحين تقف في مكان لا يقدر آخر أن يقف فيه وأنت واقف ، بل يجب أن يزحزحك عنه ، وحين تزحزح من هو واقف ، فهو يروح إلى مكان ثانٍ ، ويمتنع التداخل بين اثنين في حيز لا يسع إلا واحداً ، وهذا أمر فطري ، فتجد الولد الصغير الذي لم يدرك أى شيء ويقدر أن يقف فقط ، ثم يريد أن يقعد على الكرسي الذي تجلس عليه

أخته أو أخوه ، فقبل أن يقعد على الكرسي يشد من يجلس عليه ؛ لأنه يعرف بالفطرة أن اثنين لا يوجدان في حيز واحد .

وترى ذلك أيضاً في غير الجرم المرنى ، فأتت حين ثاق بفارورة وتضعها في ماء لتمتلئ ، تسمع صوت الهواء الخارج منها في بقعة ؛ لأن الماء لا يمكن أن يدخل إلا إن خرج الهواء ، ولأن المياه أكثف فهي تضغط ليخرج الهواء ، وهذا ما يؤكد عدم التداخل . أى لا يوجد شيان اثنان في حيز واحد . ومكانتك هي الموقع الذي تستولى عليه ، ولذلك حتى في الجيوش وفي الحرب توضع الخطط من أسلحة مختلفة ، لتستولى على الأماكن .

« اعملوا على مكانتكم » هو قول موجه إلى الجماعة الذين عارضوا النبوة ووقفوا منها هذه المواقف ، فيقول لهم الحق مهددا لهم وتيسرا من أنهم لن يصلوا إلى النيل من رسول الله : اعملوا على قدر استطاعتكم من التمكن ، أو أثبتوا على ما أنتم عليه من الخلاف والمناهضة ، لماذا ؟ ، لأنه صلى الله عليه وسلم عامل أيضاً : فلن يكون ثباتكم مانعاً لي من العمل ؛ أنتم تعملون وأنا أعمل ، أنتم تعملون على طاقاتكم ، وأنا أعمل على طاقات الإيمانية ومدد ربى الأعلى من الطاقة .

﴿ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١٦٥)

(سورة الأنعام)

« فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار » وله ؛ تعطى دلالة إلى أن الإيمان ستكون عاقبة الدار لصالحه ؛ لأن الآخرين لن تكون لهم بل عليهم ، وساعة ترى اللام ؛ اعرف أن الأمر لهم لا عليهم . فكان الظالمين إن تنلهم عاقبة فهي ليست لهم ، وإنما عاقبتهم عليهم ، ولن يفلح الظالمون . ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

﴿ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا
فَمَا كُنَّا لِشُرَكَائِهِمْ فَلَايَصِلُ إِلَى
اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

وهنا رجوع إلى كلام عن الذين يناهضون منهج الله .

و«ذراً» أى خلق ، وبث ، وبشر ، والحراث يراد به الزرع ، وسمى الزرع حراثاً ، لأنه يأتى بالحراث ، و«الأنعام» وهى تتمثل فى ثمانية أزواج فى آية تأتى بعد ذلك ، وهى الإبل ، والبقر ، والضأن والماعز .

«وجعلوا لله مما ذرأ من الحراث والأنعام نصيباً» أى مما خلق ، وهم قد حراثوا فقط ، لأن الذى يزرع هو الله ، سبحانه الذى أعطى للبذرة قوتها لترى لها جذراً ، وتمنص عناصر الغذاء من الأرض ، وهو الذى جاء بعناصر الأرض كلها ، وهو الذى جعل البذرة تتوجه إلى العناصر الصالحة لها ، وتترك غير صالح بقانون» الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى . والذى صنعه الله الحراث وفى الأنعام تتخيلون أنكم تتصرفون فيه على رغم أنه هو الذى ذرأ وخلق . إنه - سبحانه - هو المتصرف .

هم جعلوا لله مما ذرأ من الحراث والأنعام نصيباً فقالوا: هذا لله «بزعمهم» وهذا لشركائنا ، أى جاءوا بالحراث وقسموه قسمين . وقالوا: هذا لله ، وهذا للأصنام . وكذلك قسموا الأنعام وجعلوا منها قسماً لله ، وقسماً لهم ، ألم يكن من العدل أن يقسم الذى خلق بدلاً من هذا الزعم منكم لأنكم أخذتم غير حقكم ، وباليتمكم أنصفتهم فترضى بقسمتكم قبلذهب القسم الذى لله للصدقات على الفقراء ، والذى للشركاء يذهب للأصنام وللسدنة الحجاب عليها والخادمين والذين يضربون لكم الأقداح ، وباليتمكم عرفتم العدل فى القسمة بل أن ما صنعتهموه هو قسمة ضيزى جائرة وظالمة ، لماذا ؟ . تأتى الإجابة من الحق :

﴿ فَمَا كَانَ لَشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ أَنَّهُ يَهْدِيَ إِلَى شُرْكَائِهِمْ ۖ ﴾ (١٣٦)

[سورة الأنعام]

أنتم قسمتتم وقتلتم : هذا لله وهذا لشركائنا ، فاصدقوا مع أنفسكم في هذه النسبة ، لكنهم كانوا يسرقون حق الله ، وكان لهم في الهلاك تقسيم معين ، وفي الزيادة لهم تقسيم آخر . فإذا ما جاءت آفة للزروع وأهلكته أخذوا ما خصصوه لله وأعطوه للشركاء وقالوا : إن ربنا غنى ! وبرغم أنكم قسمتتم ولكنكم لم توفوا بالقسمة التي فرضتموها ورضيتم بها .

وكذلك في الأنعام يقصدون عدداً من الأنعام ويقولون : هذه لله ، وتلك للشركاء ، فإن ماتت بهيمة من المذخور لله لم يعرضوها ، وإن ماتت بهيمة من ذرية للأصنام يعرضوها يأخذوا بدلاً منها من القسم الذي نذروه لله ، وأيضاً لفترض أن عيناً جارية ساحت فيها المياه لشروى الزرع المقسوم لله ، فيأخذوا منها للأرض المزروعة للأصنام . إذن هي قسمة ضيزى من البدايعة ، وليتهم وفوا بهذه القسمة ، وهكذا ساء حكمهم وفسد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَّاؤُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (١٣٧)

وأيضاً نقلوا تلك القسمة الضيزى إلى ما يعلق بذواتهم في الإنجاب والإنسال ؛ فشركائهم زينوا لهم قتل أولادهم ، و«التزيين» هو إدخال عنصر التحسين على

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿ ٢٩٥٩ ﴾

التزيين أمراً عرضياً طارئاً ، ووجه التزيين أنهم كانوا إما أغنياء ، وإما فقراء ، فإن كانوا فقراء يقل الواحد منهم لماذا أجلب لنفسي هُماً على هم ، وإن كانوا أغنياء يقل الواحد منهم : إن الأبناء سيأخذون منك ويفقرونك . إذن ففيه أمران : إما فقر موجود بالفعل ، إما فقر مخوف منه ، ولذلك تجد الآيات التي تعرضت لهذا المعنى ، تأتي على أسلوبين اثنين ؛ فالعجز مختلف باختلاف المصدر ، والذين يحبون أن يستذكروا على أساليب القرآن لأنه مرة يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَرِثُنَّ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. ﴾ (٣١) [سورة الإسراء]

ومرة ثانية يقول :

﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. ﴾ (١٥١) [سورة الأنعام]

فما الفرق بين العبارتين ؟

ونقول لمثل هذا القائل : أنت تقارن بين التذليل : نحن نرزقكم وإياهم ، و«نحن نرزقهم وإياكم» . هذه تذييل لآية ، وهذه تذييل لآية ثانية . هات ذيل الآية مع صدرها نجد أن ذيل كل آية مناسب لصدرها . ومادام قد اختلف في الصدر فلا بد أن يختلف في الختام ، ففي الآية الأولى يقول الحق سبحانه : «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق» فالإملاق وهو الفقر واقع موجود . إذن فشغل الإنسان برزقه أولى من شغله برزق من يعوله من الأولاد ، فيقول الحق لهؤلاء :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. ﴾ (١٥١) [سورة الأنعام]

فالإملاق موجود ، وشغلهم برزق أنفسهم يملأ نفوسهم . لذلك يقول لهم : «نرزقكم وإياهم» فيطمئنتهم سبحانه نحن نرزقكم ثم نرزقهم . أما إن كان الإملاق غير موجود فالحق يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَرِثُنَّ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. ﴾ (٣١) [سورة الإسراء]

أى لا تقتلوا أولادكم خوفاً من فقر ، فأنتم تملكون رزقكم ، وحين يأتى الأولاد رزقهم ونرزقكم معهم . وهكذا نرى أن المصدر مختلف فى الآيتين ، وكذلك العجز ، والشركاء كانوا يزينون قتل الأولاد ، وهذه مسألة تحتاج إلى تزيين قاس ، لأن حب الأبناء غريزة فى النفس البشرية ، والنفس تحب أن يكون لها ذرية ؛ لأن الإنسان يفهم أنه مهما طال عمره فسوف يموت فيحب أن يظل اسمه فى الأجيال المتتابعة . ونجد الإنسان وهو ممتلىء بالسعادة حين يأتيه حفيد ، ويقول : لقد ضمنت ذكرى بلخيلين قادمين ، وينسى أن الذكر الحقيقى هو الذى يقدمه الإنسان من عمل ، لا ذكرى الأبناء وحب امتداد الذات . وقتل الأبناء يحتاج إلى تزيين شديد ، كأن يقال : إن أنجبت أبناء فسيفقرونك ويدلونك ، فأنتم أمة غارات وأمة حروب وكل يوم يدخلك أبنائك فى قتال ونزال فتكون بين فقد لأبنائك أو انتهاب لمالك ، وإن كانوا بنات فسيتم سبيهن من عندك ، وهكذا تكون المبالغة فى الإغراء لعملية تناقض الفطرة السليمة فى امتداد النسل .

﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ ۖ ۝١٤٧﴾

[سورة الأنعام]

و«لكثير من المشركين» تفيد أن بعضهم كان يرفض قتل الأولاد ، و«يردوهم» من الردى ، وهو الهلاك ، والموت .

﴿ وَلْيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ ۝١٤٨﴾

[سورة الأنعام]

أى يخلطوا عليهم الدين ، فهل كان عندهم دين ؟ . لقد ورث هؤلاء من أمر قيم الدين ما كان سابقاً وهو ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى مالوا وزالوا عنه إلى الشرك ، إنهم زينوا لهم أعمالاً ليوردوهم موارد الهلكة . وحاولوا أن يخلطوا عليهم مابقى لهم من دين .

﴿ ۝١٤٩ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١٥٠﴾

[سورة الأنعام]

لأن وأد الأولاد وقتلهم إنما ينافى فكرة خلق الله ، فهل يخلق الله لتقتل أنت ؟ !

كانهم يصادمون إرادة الإيجاد من الحق سبحانه وتعالى ، لكنه - سبحانه - لو شاء ما فعلوا ذلك ، فهو قد أعطاهم الاختيار ، ومن باب الاختيار يتغذون إلى كل مراد لهم ، ولولم يخلق الله فيهم اختياراً ما فعلوا ذلك ، لأنه لو أراد ألا يفعلوا لما فعلوا ، وقد أراد الله أن يوجد خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم الملائكة .

إذن فهذه المسألة ليست عزيزة على الله ، وسبحانه ساعة يقهر على مراده ، إنما يكون ذلك لمصلحة المخلوق ، وساعة يتركه مختاراً فمن إمداد الخالق له بالاختيار ولا يفعل المختار شيئاً غصباً عن الله ، لأن الألوهية تقتضي أمرين اثنين : تقتضي قدرة تتجلى في الأشياء القهرية التي لا يستطيع العباد أن يقفوا أمامها ، والإنسان هو الكائن الوحيد الذي له حق الاختيار بين البديلات في مراداته ، أما بقية الكون فسائر بقائون التسخير وليس له اختيار .

والكائنات المسخرة أثبت الله طلاقة القدرة ، ولكنها لا تثبت لله محبوبة المخلوق ، لأن المحبوبة تنشأ من أنك تكون حراً في أن تفعل ، ولكنك تؤثر فعلاً مراد الله على مرادك . (ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون) .

و « الافتراء » هو الاختلاق والكذب المتعمد ، وهم عفترون ، لأنهم أرادوا أن يغيروا صدق الواقع في الإنجاب ، فقد خلق الله الزوجين - الذكر والأنثى - من أجل الإنجاب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا

إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حَرِّمَتْ ظُهُورُهَا

وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ

سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٧٨﴾

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٣٩٦٢

وهذا تمام في الشرك ؛ لأنهم قسموا الحيوانات والحراث وحجزوا قسماً للأصنام ، وهذه الأنعام المرصودة للأصنام لا يتصرف فيها أحد ، فلا يؤخذ لبنها ولا يستخدمها أحد كمطايا ، ولا يتعدى نفعها للناس . ولم يتبهاوا إلى أن هذه الأنعام نعمة من الله ، ولا بد من الانتفاع بها ، وليس من حسن التعقل أن تترك حيواناً تستطيع أن تستفيد من تسخيرها لك ولا تفعل ، هم قد فعلوا ذلك وحكى الحق عنهم فقال : ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثَ حَجَرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ .. ﴾ (١٢٨) ﴿

[سورة الأنعام]

أى هى أنعام محرم استخدامها ، وحرموا أيضاً ركوبها .

[سورة الأنعام]

﴿ وَأَنْعَمَ حَرَمْتَ ظُهُورَهَا .. ﴾ (١٢٨) ﴿

ومنادوا فى الكفر نذكروا أسماء الأصنام عليها :

﴿ وَأَنْعَمَ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ .. ﴾ (١٢٨) ﴿ [سورة الأنعام]

وهذا لون من الافتراءات قد فعلوه ونسبوه إلى أنه متلقى من الله ، ومأمور به منه - سبحانه - ولو قالوا : إن هذه الأمور من عندهم لكان وقع الافتراء أقل حدة ، لكنه افتراء شديد لأنهم جاءوا بهذه الأشياء ونسبوها إلى الله ، وهم قد انحلوا عن الدين وقالوا على بعض من سلوكهم إنه من الدين ، ولذلك يجازيهم الله بما افتروا مصداقاً لقوله :

[سورة الأنعام]

﴿ .. سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (١٢٨) ﴿

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ
لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ
مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ
إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٢٩) ﴿

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿ ٣٩٦٣ ﴾

ويتورد هم الباطل إلى باطل آخر فادعوا أن ما في بطون هذه الأنعام من اللبن ومن الأجن إذا نزلت حبة فهي للذكور منهم فقط ، ولا تأكل النساء من ذلك شيئاً ، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء وهذا يدل على التشقيق في القسمة .

ويبين الحق الآية بالقول الكريم :

﴿ .. سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣٩)

[سورة الأنعام]

أي سيجزيهم على كذبهم وافتراءهم بما يليق عقاباً للكاذبين ؛ لأنه - سبحانه - (حكيم) في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره (عليم) بما يفعلونه من خير وشر ، وإنه سيجازيهم على ما فعلوه أتم الجزاء وأكمله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ
ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١١٠)

وجه الخسران أنهم لم يلتفتوا إلى أن الله يرزقهم ويرزق أبناءهم أيضاً ، ولعلك أيها الأب قتلت ولداً ، كنت ستعيش أنت في رحاب رزقه ، وكثيراً ما يكون البعض من الأولاد صاحب رزق وفير ، ويقال عن مثل هذا الابن : إن وجهه وجه الخير والسعد والبركة ، فمن يوم أن ولد ولد معه الخير ، وذلك حتى لا يتأبى الإنسان على عطاء الله ؛ لأنك حين تتأبى على عطاء الله تحرم نفسك العطاء فيما تظنه غير عطاء ، وهذا خسران كبير .

إننا نلاحظ أن العرب كانوا في بيئة تستجيب وتلبى الصريخ ، فساعد بصرخ من في شدة نزلت به واستنجد ، يجد من ينقذه ، والأولى بالنجدة أهل الرجل وأولاده .
والمثال على ذلك ما حدث من جد رسول الله ﷺ حينما ذهب ليحفر البئر ، وجاءت قريش ووقفت له حتى لا يحفر ، فقال : لو أن لي عشرة أبناء سأضحى بواحد منهم . إذن فكثرة الأولاد في هذه المسائل تعطى العزوة وتكثر الصريخ ، ولا يفعل ذلك إلا المفطور على النجدة .

وإن قتلت ابناً خوفاً من الفقر فقد تخسر رزقاً قد يكون في طي من تقتل من الذرية ، وفوق ذلك تفقد مباحج الشأن أو العزوة أو الآل . أو على الأقل أنهم قد خسروا لأنهم عاكسوا مرادات الله في الإيجاد بالإيجاب .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴾ (١٤٠) [سورة الأنعام]

و«سَفَهًا» تعنى طيشاً ، وحمقاً ، وجهلاً .

﴿ .. وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١٤١)

[سورة الأنعام]

وهم حين يحرمون على أنفسهم ما رزقهم الله من الأنعام ، فهم أهل حمق وضلال وخسران فلو تركوها لاتضعوا منها في حمل أنقالهم أو فيما تدره من لبن ، أو في أكل لحمها . إنهم بحمقهم وجهلهم قد خسروا كثيراً ، وهم مع ذلك فعلوا ما فعلوا يكذب متعمد على الله ، وهم قد ضلوا ولم يكونوا أهلاً للهداية ، وكان يكفي أن يصفهم بقوله : « قد ضلوا » ؛ لكنه أضاف : « وما كانوا مهتدين » لأن الضلال هو عدم الذهاب إلى المقصد المرصّل للقاية ، وقد يكون ذلك عن جهل بالطريق ، لكن الحق سبحانه رسم لهم طريق الحق فأثروا الذهاب إلى الضلال مع وجود طريق الحق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ
مَّعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ
وَالرُّمَّاتَ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ كُلُوا مِنْ
ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا
تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

وقول الحق : « أنشأ » أى أوجد على إبداع لم يسبق له مثيل فلم يكن هناك نماذج توضيحية تدل الله سبحانه ، وإنما ابتدأها على غير مثال سابق ، لأنه لا يوجد خالق سواه . والخالق إذا لم يكن هناك سواه من شريك أو نِد فإنه حين يخلق إنما ينشئ خلقاً على غير نظام أو مثال كان قد سبقه .

وكلمة « جنات » تؤدى ما نعرفه من المكان المحدد الذى يجمع صنوف الزروع والثمار مما تقتات ، ومما تنفكه به ، وتسمى جنة وتسمى جنات ، لأن المادة كلها تدل على الستر وعلى التغطية ، ومنه الجنون لأن فيه سترًا للعقل ، ومنها الجن لأنهم مستورون عن رؤية العين ، وكذلك « الجن » لأنه الذى يستر عن الإنسان طعنات الخصم .

والجنة هى المكان الممنوع بالزروع والثمار وتعلو الأشجار فيه وتكثف وتلتف أغصانها وفروعها بحيث تستر من يكون بداخلها وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة ، لأنه لا حاجة له إلى الأمكنة الأخرى ، ففى الجنة كل مقومات الحياة من غذاء وفاكهة ومرعى ، وماء وخضرة ومنعة ، وفيها كل شيء . كما تسمى البيت العظيم المكتمل الذى يضم ويشتمل على كل المرافق « قصرًا » لأنه قصرٌ عن أى مكان سواه ، لأن فيه الأشياء التى تحتاج إليها كلها ، فلا تحتاج إلى شيء بعده .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ ۖ .. ﴾ (١٤١) [سورة الأنعام]

ومادة العرش تدل على العلو ، ومنه قيل للسقف «عرش» ويطلق العرش أيضاً على السرير ، مثل قوله الحق : (ورفع أبويه على العرش).

ويطلق العرش على الملك مثل قوله الحق : (ولها عرش عظيم).

كل ذلك يدل على «العلو» وقوله الحق هنا : «مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ» ، أى أن الزرع من نوع العنب ، حين نعى به نجعل له القوائم والقواعد التى يقوم عليها ، لأن امتداد أغصانه اللينة لا تنهض أن تقوم وحدها ، ولكن هناك نوع أيضاً يقوم وحده نسميه العنب الأرضى ، وكأن الكلام فيما يختص بالكرم. أى : أنك إذا ما نظرت إلى الزرع الذى لا ساق له كالبطيخ ، وكالشمام ، وكالكوسة ، وكل الزروع التى ليس لها ساق تجدها مفروشة فى الأرض أى غير قائمة على قواعد وقوائم وعروش. وإن كنا الآن نحاول أن نرفعها لنعطى لها قوة الإنتاج. والكلام جاء على ما كان موجوداً عند العرب أيام بعثة النبى ﷺ (وهو الذى أنشأ جنات معروشات والنخل والزرع). والزرع يطلق ويراد به ما تنبت به من الحبوب .

﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ۖ .. ﴾ (١٤٢) [سورة الأنعام]

وحين ننظر إلى هذه الآية نجد أنه قد سبق لها آية فيها كل هذه المعانى يقول سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ۚ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٦٩) [سورة الأنعام]

وبعض الناس يحاولون نقد القرآن فيقولون : إنه يكرر المعاني الواحدة ؛ لأهم لا يمتلكون فطنة أن المتكلم هو الله ، وسبحانه يتكلم في كل شيء لأمر حكيم ، فهو هنا يتكلم عن هذه الأشياء كدليل على الخالق ووحدانيته بدليل أنه ذيل الآية بقوله : (إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) ، ولكن الكلام في الآية التي نحن بصدد خراطها عنها قد جاء بقصد الحديث عن الانتفاع بها فيقول :

﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ولاشك أن استقامة العقيدة بالإيمان بالإله الواحد تحتاج إلى الدليل أولاً ؛ لأن فائدتها أشمل ، وأعم ، وأعمق ، وأخلد من الأكل ، لأن الأكل قصارى ما فيه أنه يقوتنا هذه الحياة ، ولكن الأدلة الأولى تعطينا الثواب الباقي والنعيم المقيم ؛ لذلك فالآية الأولى متعلقة بالدليل ، وهذه الآية متعلقة بالانتفاع ، وهنا نلاحظ أنه قال : « كلوا من ثمره إذا أثمر » ، وفي هذا إباحة لتناول الأشياء منه قبل أن تنضج دون أن يترتب على ذلك لون من الضرر وإلا عاجلناها بما يزيل وينفي عنا الضرر ، فإذا ما وجدت ثماراً لم تنضج لك أن تأكل منها ، ولم يجعل الحق لنا حرجاً فيها تحرث وتبذر وتروى ولكن الله سبحانه هو الذي يزرع ونحن نأكل منه ، ونجد أهل الريف يشوون الذرة قبل أن تنضج ويقول سبحانه : (وآتوا حقه يوم حصاده) .

لقد قالوا إن الآية مختصة بما يُحصَد وهي الزروع ، أما الأشياء التي لا يقال فيها : حصد فهي خارجة عن ذلك مثل الفواكه ، لكن الإمام أبو حنيفة يرفض ذلك ويرى : أن كل ما تنبت الأرض ينطبق عليه هذا النص ؛ لأنه لا يصح أن تأخذ معنى الحصاد على العرف ، ولكن بفهم اللغة .

ما معنى الحصاد في اللغة ؟ . الحصاد في اللغة القطع ، فحينما تفصل الثمرة المطلوبة فهذا هو الحصاد . ولكن يوم الحصاد للحبوب ؛ تكون الغلال في السنبيل ، ويرى الإمام أبو حنيفة أن تعطى من البداية لمن حضر القسمة ، وكذلك حينما تدرسه وتذريه تعطى ، وعندما تغربل الحبوب أعط أيضاً ، ويستدعى الحصاد من ساعة أن تُكْمِل ، وما تقدم غير محسوب ، ما تأتية من الحق يوم حصاده هو غير المقروض ؛ لأنه لم يقل الحق المعلوم ، وفي هذا اتساع لدائرة امتداد الخير إلى غير الزارعين .

﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنعام)

والإسراف هو مجاوزة الحد ، والبعض قد فسّر الإسراف بالزيادة فقط ، ولكن الحقيقة أن أى تجاوز للحد زيادة أو نقصاً يسمى إسرافاً ، لأنه مأخوذ من « سرف الماء » ، وهو أن يُطلق الماء ويذهب في غير نفع ، وسيدنا مجاهد يقول : لو أن للإنسان مثل جبل ابن قيس ذهباً ثم أنفقه في حل ما عُدَّ سرفاً ، ولو صرف درهماً واحداً في معصية يعد سرفاً .

إذن فمعنى : « ولا تسرفوا » أمران اثنان بمعنى لا تتجاوزوا الحدود التي شرعها الحق فتستعملوا هذا في معصية ، أو لا تسرفوا في أن تعطوا للفقير أقل مما يستحق .

وكان ساتم الطائي كريماً جداً ، وقعدوا يلومونه على هذا الكرم ، فقال واحد له : لا خير في السرف . رد عليه فقال له : ولا سرف في الخير . أى أنه مادام في الخير فلا يكون سرفاً .

وإذا كنا سنأخذ الأمر على المعنيين الاثنين : النقص والزيادة ، فما المانع أن نعطي للفقير أكثر ؟ . ويحكى الأثر أن أناساً قد تأخذهم الأريحية والنشاط للبدل والعطاء ساعة يرون كثرة غلتهم ، وما أفاء الله عليهم من ريع أرضهم . إنهم يعطون الكثير مثلما عمل ثابت بن قيس ، وكان عنده خمسون نخلة وجزءها وأعطاهما كلها للفقراء ، ولم يترك لأولاده شيئاً . فلما رُفِعَ الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أعط ولا تسرف ، لماذا ؟ تخافه أن تحتاج بعد ذلك إلى ما أعطيت فتندم على أنك أعطيت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءُ كُلُوا
مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ

لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٢٩٦٩

وبعد أن تكلم سبحانه عن نعمه علينا في الزراعة ونعمه علينا في الماشية قال :
 «ومن الأنعام» وهي الإبل والبقر والغنم ، «حمولة» والحمولة هي التي تحمل ،
 فيقال : «فلان حمول» أي يتحمل كثيراً . والحق يقول :
 ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ ﴾ (٧)

[سورة النحل]

والذي تحمله فرق ظهرها يسمى «حمولة» . ولذلك نقول عن السيارة التي تتقل
 «حمولة كذا طن» . (ومن الأنعام حمولة وفرشا) .

والإبل نحمل عليها الرحال ، وكل متطلباتنا ، و«فرشا» معناها : مقابل
 الحمولة . فالحمولة هي المشتدة التي تقوى على أن تحمل . وكل ما لا يستطيع الحمل
 لصغره ، أو لأنه لم يعد لذلك ، إذا ما نظرت إليه نظرة سطحية تجده وكأنه فارش
 للأرض . أو «ومن الأنعام حمولة» ؛ وهي التي تحمل متاعكم إلى بلد لم
 تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . «وفرشا» أي ومن ما تتخذون منه فرشاً بأن
 تنسج من وبره وصوفه وشعره ما تفرشه .

﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ
 إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١١٢)

[سورة الأنعام]

وفي الحديث عن الأنعام ، جاء بالحمولة والفرش ويأتى أيضاً بسيرة الأكل ؛ لأننا
 نأكل لحمها وألبانها ومشتقات الألبان كلها ، وهكذا تتعدد المنافع ، فهي تحملنا
 ونأخذ من أصوافها وأوبارها وشعرها الفرش ، والوبر وهو شعر الجمال ، والصوف
 وهو شعر الغنم ، وشعر الماعز يتميز بللمعة وانفصالية بين شعيراته .

ونلاحظ أنه سبحانه قال في الآية الأولى : «كلوا» وفي الثانية : «كلوا» ؛ لأن ذلك
 جاء بعد الكلام عما حرموه على أنفسهم من أرزاق الله في الأرض ، فكان ولا بد
 أن يؤكد هذا المعنى ، ويوضح : إن الذي خلق هو الله ، والذي كلف هو الله ، فلا
 تأخذوا تحليلاً لشيء ولا تحريماً لشيء إلا عن خلق ومن كلف .

(كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) .

الشيطان هو الذي يوسوس لهم بالمخالفة لمنهج الله ، وعداوة الشيطان ظاهرة .
فإذا ما كنت العداوة سابقة ، فقد أنزل آدم وحواء من رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية
وجزأهما على المخالفة فخرجتا من الجنة ، كان من الواجب أن نحاطُ في قبول هذه
الوسوسة .

ثم يفصل الحق لنا الأنعام التي نتخذها حمولة ، أو نأخذ منها فرشاً فقال :

﴿ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ
الْمَعِزِّ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ
أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَحْنُوْنِي بِعِلْمٍ
إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٣﴾﴾

وكلمة «أزواج» ، جمع زوج ، و«الزوج» يطلق على الشيء معه ما يقارنه مثل
«زوج النمل» ، ونحن في أعرافنا نأخذها على الاثنين ، لكنها في الأصل تطلق على
الواحد ومعه ما يقارنه ، إلا أنه إذا لم يكن هناك فارق بين الاثنين بحيث لا يتم
الارتفاع بأحدهما إلا مع الآخر ولكن لا تميز لأحدهما على الآخر كالجوارب مثلاً ،
ففي مثل هذا تستسمح اللغة في أن نسمى الاثنين زوجاً ، لكن إذا كان هناك خلاف
بين الاثنين لا نقول على الاثنين : زوج .

والذكر والأنثى من البشر ، صحيح أنهما يقتربان في أن كل واحد منهما إنسان ،
لكن للذكر مهمة وللأنثى مهمة مختلفة . أما الجوارب فكل «فردة» منها نضعها في
أى قدم لأنه فارق بينهما ، إذن كلمة «زوج» تطلق ويراد بها الشيء الواحد الذي معه
ما يقارنه . والحق يقول :

﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ . . (٢٥)﴾

وكلمة «زوج» هنا أطلقت على حواء ؛ فأدم زوج وحواء زوج ، والحق هو القائل :

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ (٤٥) [سورة النجم]

ولم يقل عن الاثنين : إنهما «زوج» واللفظ : خلق الزوج الذكر والأنثى . إذن فكلمة «زوج» تطلق على واحد معه ما يقارنه ، مثلها كمثلي كلمة «نساء» وهي لاتقال للاثنين ، بل يقال لواحد معه آخر . لكن الاثنين يقال لهما : توأمان .

﴿ثُمَّ نَبِّئِ الْأَزْوَاجَ مِنَ الضَّانِّ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ (١٤٣) [سورة الأنعام]

و«من الضأن اثنين» أى ذكرها وأنثاها فتسمى الذكر كبشاً والأنثى «نمجة» . ومن المعز اثنين ، والذكر نسميه «تيساً» ، والأنثى نسميها «عزرة» ، وبذلك يكون معنا أربعة ، ومن هنا نفهم أن الزوج مدلوله فرد ومعه ما يقارنه .

﴿.. قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نُبَيِّنُ بِعِلْمٍ إِن

كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١٣) [سورة الأنعام]

ومادمت أنتم تحرمون وتحللون ، وتقولون : إن هذا من عند الله فقولوا لنا أحرم الذكرين أم حرم الأنثيين؟ ولا يجدون جواباً ؛ لأن سبحانه لأحرم هذا ولأحرم ذاك ، ولذلك أبرزت المسألة إبراز الاستفهام ، والشئ إذا أبرز الاستفهام فمعناه أنه أمر مقرر بحيث إذا سألت الخصم لا يقول إلا ما تتوقعه ، واسمه السؤال أو الاستفهام التقريري . ويقول الحق : «نبينى بعلم إن كنتم صادقين» أى أخبرونى بعلم ذلك فى التحريم إن كنتم أهل صدق ؛ لأنكم لستم أهلاً للتحريم ، إنما يحرم ويحلل من خلق وشرع . فإن كان عندكم علم قولوا لنا هذا العلم .

ثم يأتى الحق بخبر الأربعة الباقية من الأنعام فيقول :

﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ
 آلَذَكَّرِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ
 عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ
 وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى
 عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ
 لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ١٤٤

ومن البقر اثنين : ذكر وأنثى أيضاً ، والذكر من البقر نسميه ثوراً ، ويغطى بعض
 الناس في تسمية الأنثى من البقر « بقرة » ، إن البقرة اسم لكل واحد منها : للذكر
 والأنثى ، والتاء في بقرة للوحدة ، واسم الأنثى « ثورية » ، ومن الإبل اثنين ومن البقر
 اثنين قل الذكربين حرم أم الانثيين ؟ أنتم تقولون : إنكم لم تتبعوا رسولاً ، وكنتم
 على فطرة من الرسل ، ولم يأت لكم رسول ، إذن فلا تحريم إلا من الله ، ولا يبلغكم
 تحريم الله إلا عن طريق رسول . بل أكنتم شهداء مسألة التحريم ، أي أشاهدتم
 ربكم ورأيتموه حين أمركم بهذا التحريم ، أم أنتم الأنبياء ؟ . إنكم تتعمدون
 الكذب على الله لإضلال الناس . إذن ، فالحق لا يهدي من يظلم نفسه ويظلم
 الناس .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ
 يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا

﴿ أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤٥)

والحق سبحانه وتعالى قد تكلم عن التحريم في آيات كثيرة ؛ فهناك الآية التي قال فيها :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ .. ﴾ (٣)

[سورة المائدة]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خوارطنا عنها نجد الحصر في أربعة فقط ، فيقول سبحانه :

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مُسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. ﴾ (١٤٥)

[سورة الأنعام]

فكيف يتفق هذا النص مع النص الآخر ؟

من يقول ذلك نقول له : أنت لاتفرق بين إيجاز وإطناب ، ولاتفرق بين إجمال وتفصيل ؛ فالذي ترك في هذه الآية داخل في الميتة ؛ لأن المنخقة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ، والذي ذبح على النصب وما أهلكه لغير الله موجود ودخل في كلمة «الميتة» .

ثم : من قال : إن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ؟ التشريع أيضاً لرسول الله ﷺ ، بتفويض من الله في قوله تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۖ ۝ (٧) ﴾ [سورة الحشر]

فلاتقل إن المحرمات فقط محصورة في هذه الآية لأن فيه محرمات كثيرة ،
بدليل أن الله مرة يُجملها ، فيحرم علينا الخبائث ؛ فكل خبيث مُحَرَّم . وقلنا من
قبلي : إن الدم المسفوح مُحَرَّم ، والدم المسفوح هو السائل الذي ينهال ويجري
وينصب ساعة الذبح ، وهل هناك دم غير مسفوح ؟ نعم ، وهو الدم الذي بلغ
من قوة تماسكه أن كون عضواً في الجسم كالكبد أو الطحال . ولذلك يقول
الرسول ﷺ : «أحلت لنا ميتتان ودمان : فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان
فالكبد والطحال»^(١) وفي رواية أخرى : السمك والجراد .

وعلى منطق التحريم للميتة والدم كان لابد ألا نأكل الميتة من السمك . ولا الكبد
والطحال ، ولكن الله أحل لنا السمك والجراد والكبد والطحال لأنها لا تضر
الجسم ، فالسمك والجراد ليس لهما نفس سائلة أي دم يجري ؛ فإذا ما ذبحنا
أحدهما لا يسيل له دم ، أما الكبد والطحال فهما من دم وصل من الصلاحية
أنه يكون عضواً في الجسم ، ولا يتكون عضو في الجسم يؤدي مهمة من دم فاسد ،
بل لا بد أن يكون من دم نقي .

والحق الذي شرع يقدر الظروف المواتية للمكلفين ، وقد غمربهم ظروف
وحالات لا يجدون فيها إلا الميتة ، وهنا يأكلون أكل ضرورة على قدر دفع الضرر
والجوع . لكن على المسلم ألا يملأ بطنه من تلك الأشياء .

﴿ ۝ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (١٤٥) ﴾ [سورة الأنعام]

وأنواع الإضطرار : ألا تجد ما يؤكل من الحلال ، أو أن يكون ما يؤكل من
الحلال موجوداً إلا أن هناك من يكرهك على أن تأكل هذا المحرم ، فالإكراه داخل
في الإضطرار ، والاضطرار يحملك ويدفعك إلى أن تمتنع عن نفسك الهلاك ؛

(١) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي عن ابن عمر .

فتأخذ من طعام حتى تقتات فلا تموت من الجوع ، فإذا كان الله قد أباح لك أن تأكل من المينة في حال مظنة أن تموت من الجوع فمالك من الإكراه بالموت العاجل ؛ إنه أولى بذلك ؛ لأنه سبحانه هو الذي رخص ، وهو الذي شرع الرخصة ، ومعنى ذلك أنها دخلت التكليف ؛ لأن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه ، وما دامت قد دخلت في دائرة التكليف فهذا يكون الغفران والرحمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ
وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنِيِّ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا
مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ
ذَلِكَ جَزَيْنَهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (١٦٨)

هنا يأتي الحق بالتحريم الثاني ، وهو التحريم للشهذيب والتأديب ، مثلما قال من قبل :

﴿فَيُظْلَمُ مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ (سورة النساء)

و«الظُّفْر» هو ما يظهر عندما ننظر إلى أقدام بعض الحيوانات أو الطيور ، فهناك حيوانات نجد تشقق إصبعها ظاهراً والأصابع مفصلة ومنفرجة بعضها عن بعض ، فهذه ليست حراماً عليهم ، ونوع آخر نجد أصابعها غير مفصولة وغير منفرجة مثل الإبل ، والنعام ، والبط ، والأوز وهي ذو الظفر . فكل ذي ظفر حرم على اليهود ، وقد حرم عليهم لا خبث وضرر في المأكول ، ولكن تأديباً لهم لأنهم ظلموا في أخذ غير حقوقهم ؛ لذلك يحرمهم الله من بعض ما كان حلالاً لهم ؛ فالأب يعاقب ابنه الذي أخذ حاجة أخيه اعتداءً ؛ فيمنع عنه المصروف ،

والمصروف في ذاته ليس حراماً ، ولكن المنع هنا للتأديب . والحق هو القائل :
﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبَصَدَهُم بَعْدَ سَبِيلِ اللَّهِ
كَثِيرًا ۖ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْباطِلِ ۖ ۝ (١٦٦) ﴾

[سورة النساء]

ولأنهم فعلوا كل ذلك يأتي لهم التحريم عقاباً وتأديباً
﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا
إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبِقِيَّتِهِمْ وَإِنَّا
لَنَصْنَعُ فُوقَ ۝ (١٦٦) ﴾

[سورة الأنعام]

وأنت حينما تذبح الذبيحة تجد بعضاً من الدهن على الكلى ، ونجد في داخلها
مايسمونه «متدبل الدهن» وكذلك «آلية الخروف» ، وحين تقطع الرأس تجد
فيها نوعاً من الدهون ، وقد حرّم الحق عليهم في البقر والغنم شحومهما . وكذلك
«كل ذي ظفر» محرم كله . وهناك استثناء في البقر والغنم هو : ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ
ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا ۖ ﴾

أي أحل لهم ما هو فوق الظهر من الشحم ، وأحل لهم ما حملته الحوايا من
الشحوم و« الحوايا » جمع حوية أو حاوية أو حاوياء وهي ما تحوى من الأمعاء أي
تجمع واستدار ، وفي الريف تقول المرأة عن قطعة القماش التي تبرمها وتلفها
وتصنع منها دائرة مستديرة نضمها على رأسها لتحمله عندما تحمل فوقه الأشياء ؛
تقول : صنعت «حواية» والحواية هنا هي الأمعاء الغليظة ، وطولها كذا متر ، ومن
حكمة تكوينها الربانية نجد أنها تلف على بعضها ، ولذلك اسمها « الحوايا » ،
وهي ما نسميه «المبار» . وكذلك حلل لهم ما اختلط بعظم في القوائم والجنب
والرأس والعين ، وكذلك أحل لهم شحما اختلط بعظم منه الآلية ، لأن الآلية تمسك
بعنقب الذئب . أي أصله ، وهو الجزئ . في أصل الذئب عند رأس العُصْعُص .
ولأنه رحيم فهو ينزل عقوبة فيها الرحمة فيبيح له شيئاً ويحرم شيئاً آخر .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ ذَلِكْ جَزَيْنَاهُمْ بَيْنَهُمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ .

وليس هذا التحريم تعدياً عليهم ، أو تمتاً في معاملتهم ، بل لأنهم بقوا ، والباغى يجب أن يأخذ حظه من الجزاء ، حتى يفكر ماذا يحقق له البقى من النفع ، وماذا يمنع عنه من النفع أيضاً ، وحين يقارن بين الاثنين قد يعدل عن بغيه ، وهم قد صدّوا عن سبيل الله ، وأخذوا ربا لينموا أموالهم وأكلوا أموال الناس بالباطل ، لذلك حرّم عليهم الحق بعض الحلال . وسبحانه صادق في كل بلاغ عنه ، ونعرف بذلك أن علة التحريم لبعض الحلال كانت بسبب ظلمهم وما بدر منهم من المعاصي فكان التحريم عقوبة لهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٤٧)

وكان مقتضى أنهم يكذبونك فيما أخبرت به عن الله ، أن يجعل الله لهم بالعذاب ، لكن الحق لم يجعل لهم بالعذاب لأنه ذو رحمة واسعة .

﴿ قُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾

(من الآية ١٤٧ سورة الأنعام)

ولكن إياكم أن تطمحوا في الرحمة الدائمة ، إنها رحمة تأجيل فقط . ولن يفوتكم عذابه ، وهنا يحثهم أيضاً فيقول سبحانه : ﴿ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ وكأنه يقول لهم : راجعوا أنفسكم واستحوا من الله ولا يغرنكم أنه رب ، خلق من عَذَمٍ وأمد من عَذَمٍ ، وتولى التربة ، لكنه لن يرد ويمنع بأسه وعذابه عن القوم المجرمين منكم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا
وَلَاءَ آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا آيَاتِنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ
مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ
إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

وكلما تقرأ آية فيها «سيقول» فاعلم أنها تنطوي على سرٍّ إعجازي للقرآن ،
والذي يعطى هذا السر هو الخصم حتى تعرف كيف يؤدي عدو الله الدليل على
صدق الله ، مما يدل على أنه في غفلة . ومن قبل قال الحق سبحانه :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

و «سيقول» معناها أنهم لم يقولوا الآن ، ويخبر القرآن أنهم سيقولون ،
ولم يخبر ويستر القرآن هذه الآية ، بل قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأنا
يُقرأ ويُصلى به . ولو أن عندهم شيئاً من الفكر لكانوا يسترون القول حتى يُظهروا
المتكلم بالقرآن بمظهر أنه لا يقول الكلام الصحيح ، أو على الأقل يقولون إنه
يقول : «سيقول السفهاء» ، ونحن لسنا بسفهاء فلا نقول هذا القول . لكنهم
يقولون القول السفه برغم أن الآية قد سبقتهم بالتنبؤ بما سوف يقولون ، لأن الذي
أخبر هو الله ، ولا يمكن أن يجئ احتياط من خلق الله ليستلذك به على صلق الله .
هم سمعوا الكلمة ، ومع ذلك لم يسكتوا بل سبقتهم ألسنتهم إليها ليؤيدوا القرآن .

وكل مسرف على نفسه في عدم اتباع منهج الله يقول : إن ربنا هو الذي يهدي
وهو الذي يضل ، ويقول ذلك بتبجح ووقاحة لتبرير ما يفعل من سفه . وسيظل
المسرفون على أنفسهم وكذلك المشركون يقولون ذلك وسيحاولون تحليل ما حرم
الله . وقد جاء المشركون بقضيتين : قضية في العقيدة ، وقضية في التكليف ؛ قالوا

مِنْ رِزْقِ الْإِنْعَامِ

02949

في قضية العقيدة: «لوشاء الله ما أشركنا»، وكأنهم أشركوا بمشيئة الله، وجاءوا إلى ما حرموا من حلال الله وقالوا إنهم قد فعلوا ذلك بمشيئة الله أيضاً؛ ليوجدوا لأنفسهم مبرراً، وهذا القول ليس قضية عقلية؛ لأنها لو كانت وقفة عقلية لكانت في الملحظين: الخير والشر، قالوا أحد منهم يقول: كتب ربنا علينا - والعبادة بالله - الشر، لماذا يعذبني إذن؟ لا يقول هذا الإنسان «وكتب الله لي الخير». هذا ما كان يفرضه ويتنصبه المنطق لكنهم تحدثوا عن الشر وسكتوا عما يعطى لهم من خير.

وقولهم «لو شاء الله ما أشركنا» صحيح المعنى ؛ لأنه سبحانه لو شاء أن يجعل الناس كلهم مهديين لفعل ، لكنه شاء أن يوجد لنا اختياراً ، وفي إطار هذا الاختيار لا يخرج أمر عن مشيئته الكونية ، بل يخرج الكفر والشر عن مراده الشرعي . وعلمنا من قبل أن هناك فرقا بين الكونية والشرعية ؛ فكفر الكافر ليس غصباً عن الله أو قهراً عنه سبحانه ، إنما حصل وحدث بما أعطاه الله لكل إنسان من اختيار ، فالإنسان صالح للاختيار بين البديلات :

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾ (٦٩) [سورة الكهف]

فالإنسان قادر على توجيه الطاقة المرهوبة له من الله الصالحة للخير أو الشر. إذن فأختيار الإنسان إما أن يدخله إلى الإيمان وإما أن يتجه به إلى الكفر ، لذلك يقول الحق عن الذين يدعون أن كفرهم كان بمشيئة الله:

﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا ۖ﴾ (٦٤٨) [سورة الانعام]

وَالسَّابِقُونَ لَهُمْ قَالُوا ذَلِكَ وَفَعَلُوا مِثْلَ مَا يَفْعَلُ هَؤُلَاءِ مِنَ التَّكْذِيبِ ؛ وَجَاءَهُمْ
بِأَسْوَءِ عَذَابٍ مِنَ اللَّهِ شَدِيدٍ ، وَلِذَلِكَ يَأْمُرُ الْحَقُّ مُحَمَّدًا ﷺ :

﴿... قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

تَخْرُصُونَ ﴿١١٨﴾ [سورة الأنعام]

ويسألهم محمد ﷺ عن علم يؤكدون به صحة ما يدعون . . . ويزعمونه أى هل عندكم بلاغ من الله ، والحق أنهم لا علم لديهم ولا دليل ، إنهم يتبعون الظن ، ويخترصون ، أى أن كلامهم غير واضح الدلالة على المراد منه ، إنه تخمين وظن وكذب .

لذلك يقول سبحانه :

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴾ (١١٩)

نعم فلو شاء سبحانه لقصرهم على الهداية وما استطاع واحد منهم أن يخرج عن الهداية ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل أراد أن يكون الإقبال على الإيمان به ، واتباع التكليف أمراً داخلياً فى اختيارهم . ألم يخلق سبحانه خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون؟ ألم يخلق الكون كله مؤتمراً بأمره؟!

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ .. ﴾ (١١٩)

[سورة الأنعام]

والحجة هي الدليل الذى تقيمه لتأييد قولك فى الجدل ، ولذلك نسمى عقودنا حجة على الملكية . أو الحجة البالغة أى التى لا ينقض منها شيء أبداً يعطل المراد منها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَلْ مِمَّنْ شَهِدَ كُفُّوا الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ
حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا

تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِشَايِدَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

ومادمتُم لا تملكون العلم فمن المحتمل أنكم تملكون شهوداً على ما تقولون .
والخطاب : « هلم شهداءكم » هو خطاب للجماعة ، و « هلم » يستوى فيها المفرد
والمفردة والمثنى مذكراً كان أو مؤنثاً . والجمع مذكراً أو مؤنثاً ، فنقول : هلم
يازيد إلى ، وهلم ياهند إلى ، وهلم أيضاً لجماعة الذكور ولجماعة
الإناث ، وهذه لغة الحجازيين . وتختلف عن لغة بني تميم التي يزيدون عليها
فيقال : « هلم يارجل » ، و « هلمى يا امرأة » ، و « هلمما » و « هلموا »
و « هلمن » . والقرآن نزل بلغة قريش « الحجازيين » ، والحق يقول : « هلم
شهداءكم » . أى هاتوا وأحضروا شهداءكم أن الله حرّم هذا ، إنكم بلا علم ،
وكذلك لا شهود عندكم على المدعى ، فإن كان عندكم شهود هاتوا هؤلاء
الشهود .

وماذا إن أحضروا شهود زور ؟ إنه - سبحانه - يحذر رسوله ويوضح له أنهم حتى
ولو أحضروا شهداء إياك أن تصدقهم فهم كذابون :

وكان الله يريد أن يفضح الشهود أيضاً أمام المشهود أمامهم ، ويعطى أيضاً
قضيتين اثنتين : سبحانه يدحض ويبطل حجّتهم ، ويفضح الشهود الذين جاءوا
بهم . فكانه قال : هاتوا هؤلاء الذين قالوا لكم هذا الكلام ، وفى ذلك فضيحة
لمن لقنهم هذه الأوامر .

ويأمر الحق رسوله ألا يتبع الذين كذبوا بآياته سبحانه . وكلمة « أهواء » جمع
هوى ، وهو ما يختلج فى الدهن ليلوى الإنسان عن الحق ، فهو شهوة ترد على
الدهن فتجعله يعدل عن الحق :

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأنعام)

وهم لا يكذبون بآيات الله فقط بل لا يؤمنون بالآخرة أيضاً ؛ لأنهم لو كانوا يؤمنون بالآخرة لعلموا أنهم مجازون على هذا جزاء يناسب جرائمهم ، ولو أنهم قدروا هذه المسألة لامتنعوا عن اتباع أهوائهم .

ويذيل الحق الآية بقوله الكريم :

﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأنعام)

ونفهم من كلمة « يعدل » أنها من العدل بمعنى القسط ؛ إذا قيل : عدل في كذا ، أو عدل بين فلان وفلان ؛ أو عدل في الحكم ، أما عدل بكذا فيكون المراد منها أنه جعله عديلاً ومساوياً . وجاءت بهذا المعنى في آية أخرى هي قوله الحق :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾

(سورة الأنعام)

أى يجعلون ما لا يصح أن يكون مساوياً لله ، مساوياً وعدلاً لله . وهذا فعل من جعلوا لله شركاء ، وكذلك من لا يؤمنون بالله ؛ فالواحد منهم يعدل عن ربه عدولاً ويميل ويعرض عنه ويشرك به ويسوى به غيره . ويجب أن نلاحظ عند النطق بكلمة « التوحيد » وهى : « لا إله إلا الله » ألا نقف عند قول : « لا إله » لأن ذلك يعنى إنكار ونفى وجود إله وهذا والعباد بالله كفر . إذن يجب علينا أن نصلها بما بعدها فنقول : « لا إله إلا الله » أو تكون عند نطقنا بلفظ « لا إله » قد انعقدت قلوبنا على وحدانيته وما يجب له - تعالت عظمته - من صفات الجلال والكمال ، ومعنى « لا إله إلا الله » أنه لا معبود بحق إلا الله ، لأن المعبودين يبطل كثيرون كالأصنام والنجوم والجن وبعض الإنس والملائكة وغير ذلك .

وكلمة « برهيم يعدلون » تعيد أنهم أهل شرك ، وكذلك من ينكر وجود الله إنه عن ربنا يعدل ويميل ويحيد عن الاعتراف به إلها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ
الْأَشْرَكَ إِنَّهُ شَيْئٌ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ
وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَنَعَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

تنظر في هذه الآية فلا نجد شيئاً من المحرمات من الأطعمة التي بها قوام الحياة ،
ولكن نجد فيها المحرمات التي إن اتبعناها تهدر القيم المعنوية التي هي مقومات الحياة
الروحية ، إنها مقومات الحياة من القيم ﴿ قل تعالوا أتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ﴾ .

والأداء القرآني هنا يأخذ لفظ « تعال » بفهم أعمق من مجرد الإقبال ، فكان
الحق يقول : أقبل على إقبال من يريد التعالي في تلقى الأوامر . فانت تقبل على
أوامر الله لتعمل وترتفع عن حظيظ تشريع البشرية ؛ فلا تأخذ قوايتك من حظيظ
تشريع البشر ؛ لأن الشرط الواجب في المشرع ألا يكون مساوياً لمن شرع له ،
وإلا يكون متنعماً ببعض ما شرع ، وأن يكون مستوعباً فلا تغيب عنه قضية ولا يغفل
عن شيء والمشرع من الخلق لا يشرع إلا بعد اكتمال عقله ونضجه . ولا يقدر أن
يمنع نفسه من الانتفاع بالتشريع .

الراسمالي - مثلاً - يشرع ليستفيد ، والماركسي يشرع ليستفيد . وكل واحد

يشرع وفي نفسه هوى ، ومن بعد ذلك تعدل التشريعات عندما نستبين أنها أصبحت لا تنفي ولا تغطي أمور الحياة ، فكأن المشرع الأول نقصور علمه غابت عنه حقائق فضحتها المجتمع حين برزت القضايا ، فنظر في قانونه فلم يجد شيئاً يغطي هذه القضايا ، فيقول : تعدل القانون ، ونستدرك . ومعنى استدراك القانون أى أن هناك ما جهله ساعة قنن .

إذن يشترط في المفتن ألا يكون مساريئاً للمفتن له ، وألا تنيب عنه قضية من القضايا حتى لا يستدرك عليه ، وألا يكون مستفعماً بالتشريع ، ولا يوجد ذلك في بشر أبدأ ، فأوضح الحق : اتركوا حضيض التشريع البشرى وارفعوا إلى السماء لتأخذوا تقنينكم منها ؛ فحين ينادى الله « تعالوا » لمعناها ارتفعوا عن حضيض تقنين بشريتكم إلى الأعلى لتأخذوا منه تقنيناتكم التي تحكم حركة حياتكم ، فهو لا ينتفع بما شرع ، بل أنتم الذين تنتفعون ، ولأنه لا يغيب عنه شيء سبحانه ، وهو خالق ، هو أولى أن يشرع لكم .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

« أتل » من التلاوة وهي القراءة ﴿ ما حرم ربكم عليكم ﴾ أى ما جعله حراماً . . . أى يمتنع عليهم فعله ، وسأقول لكم كل البلاغات بلاغاً بعد بلاغ .

﴿ أَتَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

لقد جاء سبحانه بتحريم الشرك من خلال تركيب لغوى يؤكد علينا ألا نشرك به ؛ فانت ساعة تأتي لتلقى أوامر لمن ترأسه تقول له : استمع إلى ما أمتنعك منه فاتبعه . ثم تبدأ في التفصيل ، والحق هنا جاء بأول بند من المحرمات والمحظورات هو ألا تشرك به شيئاً . أى أتلو عليكم تحريم الشرك ، فأول المحرمات الشرك ، وعلينا أن نوحده الله ، فكل نهى عن شيء أمر بمقابله وكل أمر بشيء نهى عن مقابله . وعلى ذلك فكل أمر يستلزم نهياً ، وكل نهى يستلزم أمراً . فلا تلبس عليكم الأوامر والنواهي . أو تكون (عليكم) منقطعة عما قبلها ، أى عليكم ترك الشرك ، وعليكم إحساناً بالوالدين ، وألا تقتلوا أولادكم ، وألا تقرّبوا

الفواحش . . أى ألزموا ذلك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ وسبحانه يأمر هنا بتأكيد الإحسان إلى الوالدين ؛ فهو أمر بإيجاب ويستلزم نهياً عن مقابله وهو عقوق الوالدين ، أى لاتعقوهم . فعدم الإحسان إلى الوالدين يدخل فيما حرم الله . ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقْنَا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَأَبَاءُكُمْ ۖ ۞ (١٥١) ﴾ [سورة الأنعام]

أى استبقوا حياة أولادكم ، فإن أردتها من قبيل النهى فقل هو نهى عن قتل الأولاد ، وإن أردتها من قبيل الإيجاب فقل : استبقوا الحياة . وقول : ﴿ مِمَّنْ إِمْلَقْنَا ﴾ أى من فقر ، فكأنهم كانوا فقراء ، ومادام الإملاق موجوداً فشغل الإنسان برزق نفسه يسبق الانشغال برزق من يأتى بعده ؛ فيا أهل الإملاق تذكروا أن الله يرزقكم ويرزق من سيأتى زيادة وهم الأولاد . ويقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْقَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ ۞ (١٥٢) ﴾ [سورة الأنعام]

وهذا نهى عن القرب ، أى نهى عن الملابس التى قد تؤدى إلى الفعل لانهى عن الفعل فقط ؛ فحينما أراد الله يحرم على آدم وعلى زوجه الشجرة قال :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ۖ ۞ (١٧) ﴾ [سورة الأعراف]

لأن القرب قد يغرى بالأكل ، وكذلك : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ﴾ أى لا تأتى إلى مقدمات الفواحش بأن تلقى نظرة أو تحلق النظر إلى محرمات غيرك ، وكذلك المرأة التى تبرج ؛ إنها تقوم بالإقبال على مقدمات الفواحش ، فإذا امتنعت عن المقدمات أمنت الفتنة والزلل ؛ لأن رسول الله ﷺ يقول : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لدينه

وعرضه ومن وقع في المشبهات وقع في الحرام كراخ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت كله ألا وهي القلب ^(١) .

ويمنعك الحق : ألا تقرب ، أي أبعد نفسك عن مظنة أن تستهويك الأشياء ، مثلها مثل «اجتنب» تماماً ، وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ .. ﴾ (٢٠)

[سورة الحج]

ويقول : ﴿ .. وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (٢١)

[سورة الحج]

وهنا يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ .

وكل ما ظهر من الفواحش هو من أفعال الجوارح التي ترتكب الموبقات وما بطن « هو من أفعال السرائر مثل الحقد ، والغل ، والحسد .

ويتابع سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْطُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ .. ﴾ (١٥١)

[سورة الأنعام]

وكلمة «النفس» يختلف الناس في معناها ، ولا تطلق النفس إلا على التقاء الروح بالمادة ، والروح في ذاتها خيرة ، والمادة في ذاتها خيرة مسيحة عابدة .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴾ (١١)

[سورة الإسراء]

وإذا التقت الروح بالمادة تقوم الحياة ، فمعنى قتل النفس أن تفصل الروح عن المادة بهدم البنية وهذا غير الموت ؛ لأن الله هو الذي يميئ النفس ، أما الإنسان به في الآية فتستجد التعقل يعطيك التوازن في القرار ، وقد ختم الحق الخمسة الأشياء

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

فهو يقتل النفس إن هدم بنيتها . والذي وهب الحياة هو الله ، فلا يسلب الحياة إلا هو . وبعد ذلك يشرع الله لنا أن نسلب الحياة قصاصاً ، أولئزنا من الشيب المحصن رجلاً أو امرأة ، أو للردة ، فهذا قتل بحق ، لكن سبحانه وتعالى يلعن من يهدم بنيان الله بغير الحق ، والإنسان بنيان الله فلا تعتدى عليه . ولذلك أمرنا الله بالقصاص من إنسان قتل إنساناً ؛ حتى يحافظ كل واحد على حياة نفسه ، وحين يحفظ الإنسان كل نفس ، فإنه ينجو بنفسه وسلم .

هكذا يأمر الحق بأن نقتل الثيب ، والثيب الزاني يطلق على الذكر والأنثى وهو من تزوج ودخل على زوجته وذاق كل منهما عيلة الآخر وأفضى إليه ، وكذلك المرتد ، فنحن نحرص على حرية الاعتقاد ؛ بدليل أننا لا نقتل الكافر الأصلي لكفره ، ولكن يجب على الإنسان أن يفهم أن الدخول إلى الإيمان بالإسلام يقتضى أن يدرسه دراسة مستوفية مشقة ، وأن يعلم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فإذا علم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فلن يدخله إلا وهو مقتنع تمام الاقتناع . ونحن نحمل الاختيار ، فنعلن لكل من يقبل على الإسلام ونحذره : إياك أن تدخل بظاهر القول دون فهم لمعنى الإسلام لأنك لو دخلت ثم بعد ذلك ارتددت فسوف تقتل ، ومادام الشيء ثمنه الحياة ، فالواجب أن يحناط الإنسان الاحتياط الشديد . وفي ذلك أيضاً ثقة من أن الإنسان إذا ما بحث في الأدلة فسيقتنع بأن له إنها حقاً ، ولكننا لا نقتل الكافر الأصلي .

إذن فقتل المرتد حماية لحزم الاختيار ، فإياك أن تدخل بدون روية ؛ لأنك لو دخلت ثم ارتددت فسوف تقتل ، وبذلك يصفى الحق المسألة تصفية لازمة بأن يعرض من يقبل على الإسلام جميع الحجج على نفسه ، ولا يدخل إلا بنية على هذا ، ففي أى عقد يحاول الإنسان أن يعرف التزاماته وأن تتضح أمامه هذه الالتزامات . ولا يدخل إلى الدين الدخول الأهوج ، أو الدخول الأرعن ، أو الدخول المتعجل . بل يلزمه أن يدخل بتؤدة وروية .

وفي الزواج يدخل الإنسان بكلمة ويخرج بكلمة أيضاً هي : « أنت طالق » ، ولذلك تحناط المرأة . فمادامت قد عرفت أن بقاء زواجها رهن بكلمة فعليها أن تحرص ألا تضع هذا الحق إلا في يد أمينة عليه . وساعة أن يقول لها أبوها :

اسمعى ، إن لك أن تختارى الزوج الذى إن أحببك أكرمك ، وإن كرهك لا يظلمك ؛ لأنه بكلمة منه تنتهى الحياة الزوجية . إذن فعلى المرأة أن تفكر فى الإنسان الأمين على هذه الكلمة .

ومع ذلك فهناك احتياط للغفلة ؛ فالرجل يتزوج بكلمة واحدة ، من مرة واحدة لكن فى الطلاق هناك ثلاث مراحل ؛ كرسيد للغفلة . فالرجل يتزوج المرأة بكلمة « زَوَّجْتُكَ نَفْسِي أَوْ يَزُوجُهَا وَلِيهَا وَيَكُونُ الْقَبُولُ مِنَ الزَّوْجِ وَبِهَذَا يَتِمُّ الزَّوْاجُ » . لكن فى الطلاق أباح الله لغفلة الرجل ولرعونته أن يطلق مرة ، ثم يراجع هو من غير دخول أحد بينهما ، ثم يطلق ثانية ، ويراجعها ، ولكن بعد الطلاق الثالث يحسد التنبيه من الحق : لقد احتطنا لك برصيد من غفلتك . ولكن عندما تريد لها زوجاً لك فلا يتم ذلك إلا أن تتزوج غيرك ، وبعدها قد تعود لك أو تبقى مع من تزوجها . فاحتط جيداً للأمر الذى تدخل عليه ، وللتعاقد الذى التزمت به . فإذا كان هذا هو الشأن فى تعاقد الزواج ، فما بالنا بالرَّدة ؟ إننا نقتل المرتد ، ولا نفعل به ذلك قبل أن يؤمن وقبل أن يعلن إيمانه وقبل الدخول فى حيز المؤمنين ، ليعلم أنه إن رجع عن الإسلام فسيفتنل . وهكذا يصعب الإسلام الدخول إليه ، ويحمى الاختيار فى الوقت نفسه .

ويتابع سبحانه :

﴿ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الأنعام)

و « الوصية » لا تكون إلا للأمور المهمة التى لا تستقيم كالحياة إلا بالقيام بها ، إنها فى أمهات المسائل التى لا يصح أن نغفلها . ولذلك حين تنظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لقد ظل ثلاثة وعشرين عاماً يستقبل من السماء ويناول أهل الأرض ، ثم جاء فى حجة الوداع وركز كل مبادئ الدين فى قوله تعالى :

﴿ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

و « وصاكم » غير شرع ؛ فشرع تأن بكل الشريعات وما فيها من تفاصيل صغيرة ، والوصية تضم أمهات المسائل فى التشريع . و العقل يجب أن يسمع المسألة من أولها إلى آخرها ؛ فلو استعملت عقلك فى كل منى عنه ، أوفى كل مأمور

به في الآية فستجد التعقل يعطيك التوازن في القرار ، وقد ختم الحق الخمسة الأشياء التي ذكرها في هذه الآية بـ ﴿ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ . وهذه الأوامر متفق عليها في جميع الرسالات وفي جميع الأديان ، ويسمونها : «الوصايا العشر» .

والأشياء الخمسة التي أوصى بها سبحانه هي :

• ألا تشركوا به شيئاً .

• وبإلوالدين إحساناً .

• ولا تقتلوا أولادكم من إملاق .

• ولا تقربوا الفواحش مآظهر منها وما بطن .

• ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق .

فكان يجب أن يقول : ذلكم وصاكم بها ، لكنه قال : ﴿وصاكم به﴾ ، فكان أوامر الله ونواهيه أمر واحد متلازم تمثل كلها في : التزم ما أمر الله به ، واجتنب ما نهى الله عنه .

وقوله سبحانه : ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فكان العقل لو خُلِّيَ ليبحت هذه الأشياء بحثاً مستقلاً عن منهج السماء لوجد أن ضرورة العيش على الأرض تتطلب وجود هذه الأشياء .

إذن ، كيف نُعْصِم من أهوائنا المتضاربة بعضها مع بعض ؟ . لا بد أن يكون الإله واحداً حتى لا يتبع كل واحد منا هواه . إننا نعرف أن الأصل في الإنسان هو الأب والأم . لذلك وصى بالأصل في ﴿وبإلوالدين إحساناً﴾ ، ووصى أننا لا نقتل الأولاد خشية الفقر ؛ لأن الحياة تستمر بهم ، وبعد ذلك لا بد أن تكون الحياة نظيفة ، طاهرة لجميع الأفراد ، ولا تشوبها شائبة الدنس أبداً ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا تركنا الفواحش : مآظهر منها وما بطن ؛ لأننا نلاحظ أن كل الأولاد غير الشرعيين يُهْمَلُونَ ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد طهارة الأنسال في الحياة ؛ حتى يتحمل كل واحد مسئولية نسله . ويكون محسوراً عليه أمام المجتمع ، ويحذرنا سبحانه من أن نقتل النفس إلا بالحق ؛ لأن النفس أصل استبقاء الحياة .

ثم يجيء الحق بعد ذلك فى الآية التالية ليكمل الوصايا فيقول :

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ
لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ
وَصَّيَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

وتعلم أن اليتيم هو من فقد أباه ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ، هذا فى الإنسان ، أما
اليتيم فى الحيوان فهو من فقد أمه . وقوله الحق :

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ . . .﴾ [سورة الأنعام]

هنا يفرض سبحانه أن اليتيم له مال ، فلم يقل : لا تأكل مال اليتيم . بل أمرك
ألا تقترب منه ولو بالحاضر ، ولو بالتفكير ، وعليك أن تبعد عن هذه المسألة ، وإذا
كان قد قال : ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ فهل هذا الأمر على إطلاقه ؟ لا ؛ لأنه
أضاف وقال بعد ذلك : ﴿إلا بالتي هى أحسن﴾ أى بأن تُشمر له ماله تُشمر أى يسمع
عيشه ، ويبنى له الأصل وزيادة ، ولذلك قال فى موضع آخر :

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا . . .﴾ ﴿٥﴾

[سورة النساء]

فلا يأخذ أحد مال اليتيم ويدخره ، ثم يعطيه منه كل شهر جزءاً حتى إذا بلغ
الرشد يجد المال قد نقص أوضاع ، لذلك لم يقل : ارزقوهم منها ، بل قال :
﴿وارزقوهم فيها﴾ أى ارزقوهم رزقاً ناشئاً منها . فمآلهم ظرفية للرزق ، ولا يأتى
هذا إلا بأن تنموها لليتيم ، ولانحرم الوصاية على اليتيم لرعاية ماله من أصحاب

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

○ ٢٩٩١ ○

الكفاءات في إدارة الأعمال والأمناء ، وقد يوجد الكفاء في إدارة العمل ، والأمين فيه لكن حاله لا ينهض بأن يتحمل تبعات ومؤنة حياته وقيامه بإدارة أموال اليتيم ؛ فقال - سبحانه - في ذلك :

﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ .. ﴾ (٦)

[سورة النساء]

أي أن يهب الوصي تلك الرعاية الله ، وحين يهب تلك الرعاية لله ولا يأخذ نظير القيام بها أجراً ؛ يضمن أنه إن وجد في ذريته إلى يوم القيامة يتيم فسبجد من يعوله حسبه الله وتطوعاً منه مدخراً أجره عند الله . والحق هو القائل :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴾ (٩)

[سورة النساء]

وحيثما يبجد اليتيم من يرعاه ، وحين يتعاطف المجتمع مع كل يتيم فيه ، ويثولي أمور اليتامي أناس أمناء قادرين على إدارة أمورهم فسوف يقل جزع الإنسان من أن يموت ويترك صغاره ؛ لأنه سيبجد كرامة ورعاية لليتيم ، فالناس تخاف من الموت لأن لهم عيالاً صغاراً ويرون أن المجتمع لا يقوم برعاية اليتامي ، لكن الإنسان إن وجد اليتيم مكرماً ، ووجد آباء من الأمة الإسلامية متعددين ، فإن جاءه الموت فسوف يطمئن على أولاده لأنهم في رعاية المجتمع ، ولكن لا تتظر حتى يصلح شأن المجتمع بل أصلح من نفسك وعملك تجاه أي يتيم ، ويمكنك بذلك أن تطمئن على أولادك فستجد من يرعاهم بعد مماتك ، وحين يرعى المجتمع الإيماني كل يتيم ستجد الناس لا تضيق ذرعاً يقدر الله في خلقه بأن يموت الواحد منهم ويترك أولاداً . والمثل واضح في سورة الكهف بين العبد الصالح وسيدنا موسى حينما مرأ على قرية :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَ أَهْلُهَا .. ﴾ (٧٧)

[سورة الكهف]

فلم طلبا نفرداً ليدخرها ، ولكنهما طلبا طعاماً لسد الجوع ، وهذه حاجة ملحة . ومع أنهما استطعما أهل القرية أبي أهل القرية أن يضيفوهما . ومعنى ذلك

أنها قرية لنسمة الأهل . وعلى الرغم من العبد الصالح وجد رزقهم عليه وامتناعهم عن إطعامهما ، ولكنه عندما وجد جدار ، وبفراسه علم أن الجدار يريد أن يتقص ، وكان الجدار له إدارة ، فأقام الجدار ، ولأمه سيدنا موسى ﷺ ، وكان سيدنا موسى منطوقيا مع نفسه ، فقد طلب هو وشيخه من أهل القرية مجرد الطعام فرفضوا ، فكيف ترد عليهم بأن تبنى لهم الجدار ، وكان يجب أن تأخذ على البناء أجره ، فهم قوم لئام ، هذا كلام موسى . لكن العبد الصالح جازاهم بما يستحقون ، لأنه يبنائه الجدار قد حال بينهم وبين أخذ الكنز ، لأنه لو ترك الجدار ينهار لظهر الكنز الذي تحته وهو لئيمين ، وهكذا عرف العبد الصالح كيف يرببهم . وبعد ذلك أراد الله أن يشرح لنا أن الجدار لغلामين يتمين في المدينة .

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا .. ﴾ (٨٢) [سورة الكهف]

فكان استخراج الكنز مقارن بلوغ الرشد ، وكان العبد الصالح قد بنى الجدار بناء مؤقتا ، بحيث لا ينهار إلا حين يبلغ الغلامان مبلغ الرشد ، لقد بنى العبد الصالح البناء وكأنه يضبط الميفات فلا يماسك الجدار إلا لساعة بلوغ الغلامين أشدهما ، وعندئذ يستخرج الغلامان كنزهما . وبعد ذلك جاء لنا بالحبيشة لكل ذلك ، فقال سبحانه :

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا .. ﴾ (٨٢) [سورة الكهف]

فكان صلاح الأب هو الذي أراد به الحق أن يظهر لنا كيف حمى كثر الأبناء ، فيأبى العبد الصالح وموسى لأهل القرية اللئام ، ويطلبان طعاما ، فلا يطعمونهما ، فيبى العبد الصالح الجدار الموقوت الذي يصون الكنز من اللئام . والحق يقول هنا :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴾ (١٥٢) [سورة الأنعام]

من لا يقدر على قرب مال اليتيم بالتي هي أحسن فليبتعد عنه .

وحتى لا يتحرز ويتوقى الناس من رعايتهم مال اليتيم ، قال سبحانه :

﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْعِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

وكلمة «فليأكل بالمعروف» أى لا يكثر ولا يدخر منه أبداً ، بل يأكل بما يدفع الجوع فقط ويكتسب ما يستر جسده . ونعرف أن اليتيم لم ينضج عقله بعد ، وكذلك الكبير السفيه هو أيضاً لا يقدر على التصرف ، لذلك قال الحق في أدائه البيانى حيث يؤدي اللفظ ما يوحى بالمعنى الواسعة :

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾

(من الآية ٨ سورة النساء)

وجعل الحق مال السفيه في مرتبة مال الولي ، لأن السفيه لا يحترم ملكيته وقد يبددها . ولكن المال يعود لهذا الإنسان حين يذهب عنه السفه فيقول الحق :

﴿فَإِنْ أَتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إنه أداء قرآن عجيب ، يشجع الناس ألا يتركوا السفيه يبدد ماله فتكون خسارة للمجتمع كله ، فمادام هو في سفه فانظر إلى المال كأنه مالك ، ولتكن أميناً عليه أمانتك على مالك . وعندما ترى وتجد رشده وتطمئن على ذلك ، فإن الحق يأمر أن تعيد له ماله . ونعود إلى اليتيم ، هنا يقول الحق :

﴿وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ .

هذا إن كان له مال ، فماذا عن اليتيم الذى لا مال له ؟ . هنا تكون الوصية أقوى ، عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » (وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما) (١) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الساعى على الأرملة والمساكين كالمجاهد في سبيل الله وكالذى يصوم النهار ويقوم الليل » (١) .

وخذوا بالكم واجعلوا مسح رأس اليتيم لله ، فمن الجائز أن تكون لليتيم أم جميلة ، ويريد الولي أن يتقرب منها عن طريق الولد ، احذروا ذلك ، فإنه فضلاء على أنه يسخط الله ويغضبه فهو خسة ولؤم وندالة .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

لم يقل الله - سبحانه - بالتي هي حسنة ولكنه قال : « بالتي هي أحسن » لتشديد الحرص على مال اليتيم حتى يبلغ أشده لأن بلوغ الأشد ، يعنى أن اليتيم صارت له ذاتية مستقلة ، وما المعيار في الذاتية المستقلة ؟ ، أن يصبح قادراً على إنجاب مثله ، وهذا معيار النضج . مثله مثل الثمرة حين تنضج ؛ أى صارت البذرة التى فيها صالحة لأن نضعها فى الأرض لتكون شجرة . وأنت إن قطفت الثمرة قبل أن تنضج لا تجد طعمها حلوا ، ولا تستسيغ مذاقها إلا حين تستوى البذرة وتنضج .

و « الأشد » أى أن الإنسان بصير قادراً على إنجاب مثله وهو ما نسماه البلوغ ، ويصبح أيضاً قادراً على حسن التصرف فى المال وفى كل شيء . ويتابع سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والكيل هى المعاير لما يكال حجماً ، والموازين هى المعاير لما يُقَدَّر كثافة ، فهناك معيار للحجم ومعيار للكثافة . معيار الحجم الكيل ، ومعيار الكثافة هو الوزن ، وهناك أيضاً التقديرات العادلة فى القياس ، للأقمشة مثلاً ، القياس فيها هو المتر ، إذن كل شيء يحسبه ، وإذا أردت الموزون فلا بد أن يكن بالقسط ، أى بالعدل .

وهذه المسألة من الصعب تحقيقها ، ولذلك تختلف الموازين باختلاف تفراسة الأشياء ، فحين نزن الفول أو العدس أو البطاطس أو الفلفل ، فنحن نزنه بميزان

كبير؛ لأن فرق الميزان قد يكون حول الكيلو جرام، فالأمر حينئذ يكون مقبولاً، وحين نزن أشياء أثنى قليلاً، نأتى بالميزان الدقيق، فإن كان الشيء الموزون ذهباً نحيط الميزان بجدران زجاجية لأن نفحة الهواء قد تقلل أو تزيد الوزن.

إننا نحاول أن نمنع تأثير تيارات الهواء عليها، وحين نزن المواد الكيماوية نأتى بميزان يعمل بالفرة، إذن كل موزون يأخذ درجة ميزانه بمقدار نفاسته وتأثيره؛ لأن تحقيق العدالة فى الميزان مسألة صعبة، وكذلك الأمر فى الكيل، فحين يكيل الإنسان كيلاً بمك إناء الكيلة ويهزه؛ حتى يأتى الميكال دقيقاً محرراً، وإن أراد أن يلغى ضميره، ويأخذ أكثر من حقه فهو يملأ المكيال بأكثر مما يحتمل ويسند الزيادة بيده حتى لا تقع. وربنا يقول:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝۱ الدِّينَ إِذَا كَتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝۲ وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُغْفِرُونَ ۝۳﴾ [سورة المطففين]

فحين يكتال يستوفى ويطفف أى يزيد ماسرف يأخذه شراء، وحين يبيع يقلل الكيل أو الوزن ليأخذ ثمن أكثر من ثمن ما يزن أو يكيل. وأصل المبادلات غالباً بين طرفين، وبعض المتطففين يقول: كيف يقول الحق: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ والتطفيف فى أى مسألة يكون بالزيادة، لا بالنقص. ونقول: انتبه إلى أن المتحدث هو الله، والتطفيف يزيد طرفاً وينقص من طرف، وكل صفقة بين اثنين فيها بيع وشراء. فإن أراد واحد أن يجعل الخسران على طرف وأن يستوفى لنفسه فهو مطفف.

ولذلك تأتى دقة الأداء القرآنى من ربنا:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۝۱۵۲﴾

[سورة الأنعام]

وقال الحق ذلك لأنه يعلم أن الكيل والميزان بالعدل أمر متعذر؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو أوسع رحمته فى التشريع لنا لم يجعل مجال الاستطاعة أمراً يمكن أن تتحكم فيه أشياء لا تدخل فى الاستطاعة؛ ففى ضبط المكيال والميزان قال: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا

نفساً إلا وسعها ﴿ لأن المكيال والميزان أداتان تتحكم فيهما ظروف لا تدخل في نطاق الإنسان . ولذلك قلنا : إن وزن الأشياء التي نعلمها إن كانت من الأشياء التي ليست فيها نفاسة فوزنها له آلة . وإن كانت في المتوسط فوزنها له آلة ، وإن كان في الأشياء النفيسة الدقيقة التي للقدر الصغير فيها قيمة مؤثرة ، فإن لها آلة مضبوطة مصونة من عوامل الجو حتى لا تتأثر بهبة الهواء ، فقول الحق : ﴿ لا تكلف نفساً إلا وسعها ﴾ إباحة للأشياء الزائدة أو الناقصة التي لا تدخل في الاستطاعة ، ثم قال سبحانه :

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ ۝١٥٢ ﴾ [سورة الأنعام]

نعلم أن القول نسبة كلامية ينطق بها المتكلم ليسمعها مخاطب ، يفعل للمطلوب فيها خيراً أو إنشاءً ، والقول مقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، فالقول عمل والفعل عمل ؛ قل أو افعل ، فافهم أن القول متعلق بجراحة اللسان ، والفعل متعلق بكل الجوارح ما عدا اللسان ، فإذا رأيت ، وإذا سمعت ، وإذا شممت ، وإذا لمست كل ذلك يطلق عليه أنه فعل ، ولكن إذا ما تحرك اللسان فذلك قول : ﴿ وإذا قلتم فاعدوا ولو كان ذا قربى ﴾ .

وهل العدل مقصور على القول ؟ أو العدل أيضاً يكون في الفعل ؟ إن العدل قد يكون في خلاف بين اثنين ، وهذا لا يتأتى بفعلك ، وإنما يتأتى الحكم والفصل فيه بقولك ، وإذا ما تعودت العدل في قولك ، ألفته وأنست به وأحببته حتى في أعمالك الخاصة الأخرى .

والقول منه الإقرار ، وإن تقرر على شيء في نفسك فقله بالعدل وبالحق ، والشهادة . قلها بالحق ، والحكم . قل بالحق . والوصية . قلها بالحق . والفتوى . قلها بالحق . إذن فالحق في القول أمر دائر في كثير من التصرفات ؛ لأنك إذا قلت بالحق أمكنتك أن تعدل ميزان حركة الحياة ؛ فميزان حركة الحياة لا يختل إلا إن رجح باطل على حق ؛ لأنك إذا حكمت لواحد شيء لا يستحقه فقد أعطيته ما ليس له ، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك في الحياة يزهد في الحركة . لكن إذا ما حافظت على حركة كل متحرك ، وأخذ كل واحد حظه من الحياة بقدر ما يعمل اتزنت كل

سورة الأنعام

○ ٢٩٩٧ ○

الأمور ، ولم يعد هناك قوم يعيشون على جهد غيرهم وعرق سواهم ، إذن فقول العدل هو مناط حركة الحياة الثابتة المستقيمة الرتيبة الرشيدة : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ .

والذى يؤثر في العدل هو الهوى ، وحين يوجد الهوى فهو يحاول أن يجلبك إلى ناحية ليس فيها الحق ، وأولى النواحي أن يكون الأمر متعلقاً بك أو بقراءة لك ، وقد تريد إن حكمت - والعباد بالله - باطلاً ، أن تسعد ذا قرباك ، وأنت بذلك لم تؤد حق القرابة ، لأن حق القرابة كان يقتضى أن تمنع عنه كل شيء محرّم وتحصى عرضه ، وتحصى دينه قبل أن تحصى مصلحته في النفعية الزائلة . ولذلك يأمرك الحق بأن تقول الكلمة بالعدل ولو كان المحكوم له أو عليه ذا قربى ، لأنك حين تحكم بالباطل فأنت في الواقع حكمت عليه لاله .

﴿ وَيَعْقِدِ اللَّهُ أَوْفُوا ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

ونحن نعلم أن عهد الله هو ما عاهدنا الله عليه ، وأول عهد وقعة العهد هو الإيمان به سبحانه ، وترتب على ذلك أن تنطلق منه التكليف ، فكل تكليف من تكاليف الله لخلقك يُعتبر عهداً داخلياً في إطار الإيمان ، لأن الله لا يحكم حكماً أويبينه لمكلف إلا بعد أن يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

أى يا من آمنت بالعهد الأصيل في القيم وهو العقيدة ، وآمنت في إلهاً : أخذ التكليف منى ، لأنك قد دخلت معى في عهد هو الإيمان .

ولذلك لا يكلف الله بالأحكام كافراً به ، إنما يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ولذلك يجب أن نأخذ كل حكم بدليله من الإيمان بمن حكم به ، فلا تبحث عن كل حكم ، وإنما علة كل حكم أن تؤمن بالذى أمرك أن تفعل كذا ، فَعِلَّة كل حكم هي الحكم .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

و « ذلكم » إشارة إلى ما تقدم ، من أول قوله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنِ اتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إلى أن انتهينا إلى قوله سبحانه :

﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والتوصية تخصيص للتشريع ؛ لأن التشريع يعم أحكاماً كثيرة جداً ، ولكن الوصية التي يوصي الله بها تكون هي عبود التشريع . ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنه عن هذه الآيات : « إنها محكمات لم ينسخن شيء من جميع الكتب ، وقيل لهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار » .

ولم يوجد شرع جاء لينسخ واحدة من هذه الوصايا ، ولذلك يقول اليهودي الذي أسلم وهو كعب الأحبار : « والذي نفس كعب بيده إن هذه الآيات لأول شيء في التوراة : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنِ اتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ﴾ . ثم نجد أن هذه الوصية الأخيرة هي جامعة لكل شيء ؛ نجد تسع وصايا قد مرت ؛ خمساً منها قال فيها : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، وأربعاً قال فيها : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، والعاشرة يقول : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ، وهذه الوصية العاشرة هي الجامعة لكل أنواع الفضائل التكليفية إنها قوله الحق :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ شَرِّكُمْ وَمَنْ اتَّبَعَهُ يَفْضَلْ عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِ أَلْفَ ضِعْفٍ وَلَاحِقَ الْأَلْفِ وَلَهُ الْحُكْمُ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ فَتَبْلُغُ أَرْضَ كُنُوزٍ هَامَّةٍ فِيهَا ثَلَاثُونَ مِائَةً وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا فَسَوَّى الْجَنَّةَ الْوَسْطَى وَالْمَلَائِكَةُ كُفَّتُ نَجْمُهُنَّ وَتَبَسَّوْنَ لَهُمْ ثَلَاثُونَ خِلْفًا وَقَامَتْ هُمْ مَحْشُورَةً فَأَخْرَجَتِ الْمَلَائِكَةُ الْفَرِيقَ وَالْأُخْرَى فِي الْأَشْجَارِ أَكْبَادٌ مِثْلُ الْقِمَارِ فَتَبَسَّوْنَ لَهَا وَتَكْفُرُونَ بِهَا وَالْأُخْرَى فِي الْأَشْجَارِ أَكْبَادٌ مِثْلُ الْقِمَارِ فَتَبَسَّوْنَ لَهَا وَتَكْفُرُونَ بِهَا وَالْأُخْرَى فِي الْأَشْجَارِ أَكْبَادٌ مِثْلُ الْقِمَارِ فَتَبَسَّوْنَ لَهَا وَتَكْفُرُونَ بِهَا »

تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرِّقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَالِكُمْ
وَصَّانِكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٢﴾

أى أنه ختم الوصايا التسع بهذا القول ؛ لأن الصراط المستقيم يشمل الوصايا التسع السابقة ويشمل كل ما لم يذكر هنا . وفلت : إننا نلاحظ أن الخمس الأول ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، والأربع التي بعدها ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ والواحدة الجامعة لكل شيء قال تذيلاً لها : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ .

فما الفرق بين التعقل والتذكر والتقوى ؟

إن الأشياء الخمسة الأولى التي قال الحق فيها :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ هُمُ أَهْلُ نِكَاحٍ تَحْنُ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّانِكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

هذه الأشياء كانت موجودة في بيئة نزول القرآن ، إنهم كانوا يشركون بالله ويعقون والديهم ويقتلون الأولاد ويقارفون الفواحش ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ، فأوضح لهم : تَعَقَّلُوا ، فإذا ما تعقلتموها تجدون أن تكليف الله بمنعكم من هذه الأفعال ، إنه أمر يقتضيه العقل السليم الذي يبحث في الأشياء بمقدمات سليمة ونتائج سليمة ، لكن « الأربع » الأخرى ، هم كانوا يفعلونها ويتفخرون بها . ففى التي كانوا يعملونها من القيام على أمر مال اليتيم والوفاء في الكيل والميزان والعدل في القول والوفاء بالعهد قال : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى إياكم أن تغفلوها ؛ فإذا كنتم تفعلونها وأنتم على جاهلية ؛ فافعلوها من باب أولى وأنتم على إسلامية . ثم جاء بالوصية الجامعة :

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٦)

(سورة الأنعام)

ونظراً لأن هذه الوصية تستوعب كل الأحكام إيجاباً وسلباً، نهياً وأمرأً، فوضح لهم أنه يجب عليكم أن تتبعوا الصراط المستقيم : لتقوا أنفسكم آثار صفات القهر من الحق سبحانه وتعالى ، وأول جنودها النار .

والصراط : هو الطريق المعبّد ، ويأخذون منه صراط الآخرة ، وهو - كما يقال - « أدق من الشعرة » ، وأخذ من السيف » ، ما معنى هذا الكلام ؟ . معناه أن يمشى عليه بيقظة تامة واعتدال ؛ لأنه لوراح بمنة يهوى في النار ، ولوراح يسرة يسقط فيها ، فهو صراط معمول بدقة وليس طريقاً واسعاً ، بل - كما قلنا - « أدق من الشعرة وأخذ من السيف » فلتمش على صراط الله ومنهجه معتدلاً ، فلا تنحرف يمنة أو يسرة ؛ لأن الميل - كما قلنا - يبعدك عن الغاية ، إنك إذا بدأت من مكان ثم اختلفت توازنك فيه قدر ملليمتر فكلما سرت يتسع الخلل ، وأى انحراف قليل في نقطة البداية يؤدي إلى زيادة الهوة والمسافة .

كذلك الدين ، كلما تلتقى فيه ويقرب بعضنا من بعض ، نسير في الطريق المستقيم ، وكلما ابتعدنا عن التشريع تفرق بنا السبل .

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٦)

(سورة الأنعام)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ جلى بالحركة الفعلية منطوق النسبة الكلامية ، حينما جلس بين أصحابه وخط خطاً . وقال : هذا سبيل الله . ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ، ثم قال : هذه سبيل وعلى كل سبيل منها شيطان ؛ يدعو إليها ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ .

ولذلك فكل أهل الحق ، وأهل الخير كلما اقتربوا من المركز كان الالتقاء ، وهذا الالتقاء يظل يقرب ويقرب ويقرب إلى أن يتلاشى ويصير الكل إلى نقطة واحدة .

وانظر إلى جلال الحق حينما يجعل الصراط المستقيم إليه في دينه ، منسوباً إلى رسوله : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ فالرسول يسير على هذا الصراط وهو لا يغش نفسه ، والذي يفعله ويمشى فيه يأمركم بأن تمشوا فيه ، وهو لم يأمركم أمراً وهو بنجوة وبعد عنه ، ولو غشكم جميعاً لا يغش نفسه ، وهذا هو صراطه الذي يسير فيه .

والسبيل هنا معروف أنه إلى الله فكان سبيل الله هو طريق محمد ﷺ . ونسب الفعل والحدث لله وحده ، ففي البداية قال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ ، ثم قال : « سبيله » فالصراط لم يعمله محمد لنفسه ، ولكن أراده الله للمؤمنين جميعاً ، ورسول الله هو الذي يأخذ بأيديهم إليه .

وحين ننظر إلى كل الخلافات التي تأتي بين الديانات بعضها مع بعض ، بين اليهودية والنصرانية على سبيل المثال :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ .. ﴾ (١١٣) [سورة البقرة]

والمشركون قالوا : لا هؤلاء على شيء ، ولا هؤلاء على شيء :

﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ .. ﴾ (١١٣) [سورة البقرة]

أى أننا أمام ثلاثة أقوال : اليهود قالوا : ليست النصارى على شيء ، والنصارى قالوا : ليست اليهود على شيء ، وقال الذين لا يعلمون - وهم أهل مكة - مثل قولهم ، ثم نجد الدين الواحد منهما ينقسم إلى طوائف متعددة ، وكل طائفة لها شيء تعصب له . وترى أن الذي تقول به هو الحق ، والذي يقول به غيرها هو الباطل ، وكيف ينشأ هذا مع أن المصدر واحد ، والتنزيلات الإلهية على الرسل واحدة ؟ إن

أفة كل هذا تنشأ من شهوة السلطة الزمنية ، وكل إنسان يريد أن يكون له مكانة ونفوذ وخلافة ، وهذا يريد أن يتزعم فريقاً ، وذلك يريد أن يتزعم فريقاً ، ولو أنهم جُمعوا على الطريق الواحد لما كانوا فرقاء .

ونجده عليه السلام يقول : «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة» (١) .

وفى رواية : «كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة» ، والجماعة : هم أهل السنة والجماعة ، وفى رواية : «مأنا عليه وأصحابى» .

ونلاحظ دقة هذا القول فى عدد المذاهب والفرق ، وإن كنتم لاتسمعون عن بعضها لأنها ماتت بموت الذين كانوا يتعصبون لها ، والذين كانوا يريدون أن يعيشوا فى جلالها .

إذن الأفة تأتى خير ننظر حين إلى حكم من الأحكام ، يرى فيه واحد رأياً ، ويأتى الآخر فيرى فيه رأياً آخر ، لالشيء إلا للاختلاف . ونقول لهم : انتبهوا إلى الفرق بين حكم مُحَكَّم ، وحكم تركه الله مناطاً للاجتهاد فيه ، فالحكم الذى أراده الله محكماً يجاء فيه بنص لا يحتمل الخلاف ، وهذا النص يحسم كل خلاف . والحكم الذى يحبه الله من المكشَّفين تخفيفاً عنهم على وجه من الوجوه يأتى بالنص فيه محتملاً للاجتهاد ، ومجىء النص من المشرع فى حكم محتمل للاجتهاد هو إذن بالاجتهاد فيه ؛ لأنه لو أراده حكماً لاختلف فيه لجاء به محكماً .

والمثال المستمر ما تركه لنا رسول الله عليه السلام فى سنته الشريفة ، فحينما أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يضع السلاح قبل أن يؤدب بنى قريظة ، وهم من شايعوا مشركى مكة فى الحرب . فقال عليه السلام : «لَا يُصَلِّينَ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِى بَنِي قَرِظَةَ» (٢) .

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة .

(٢) رواه البخارى فى المغازى ، والبيهقى فى الدلائل والنسائى .

فذهب الصحابة في طريقهم إلى بني قريظة ، وأذنت الشمس بالمغيب وهم في الطريق فانقسم صحابة رسول الله إلى قسمين : قسم قال : نصلي العصر قبل أن تغيب الشمس ، وقال قسم آخر : قال رسول الله لا نصلي العصر إلا في بني قريظة . فصلى قوم العصر قبل مغيب الشمس ، ولم يصل الآخرون حتى وصلوا إلى بني قريظة ، ورفعوا أمرهم إلى المشرع وهو رسول الله ، فأقر هذا ، وأقر هذا ، لأن النص محتمل .

لماذا ؟ . لأن كل حدث من الأحداث يتطلب ظرفاً له زمان ومكان ؛ فالذين قالوا إن الشمس كادت تغرب ولا بد أن نصلي العصر قبل مغيبها نظروا إلى الزمان . والذين قالوا لا نصلي إلا في بني قريظة نظروا إلى المكان . وحينما رُفِعَ الأمر إلى المشرع الأعلّم أقر هؤلاء وأقر هؤلاء .

إذن فالحكم إن كان فيه نص محكم فلا احتمال للخلاف فيه . وإن كان الله قد تركه موضعاً للاجتهاد فيه فهو يأتي لنا بالنص غير المحكم . ومن ذهب إليه لا يصح أن نخطئه ، ولذلك بقي لنا من أدب الأئمة الذين بقيت مذاهبهم إلى الآن بعضهم مع بعض . نجد الواحد منهم يقول : الذي ذهب إليه صواب يحتمل الخطأ ، والذي ذهب إليه مقابلي خطأ يحتمل الصواب ، وجميل أدبهم هو الذي أبقي مذاهبهم إلى الآن ، وعدم أدب الآخرين جعل مذاهبهم تندثر وتختفي ولا تدرون بها ، والحمد لله أنكم لا تدرون بها .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَالَمِهِمْ
يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ مُّؤْمِنُونَ

ونحن إذا سمعنا كلمة « ثم » نعلم أنها من حروف العطف ، وحروف العطف

كثيرة ، وكل حرف له معنى يؤديه ، وهنا ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ ، وإيتاء موسى الكتاب كان قبل أن يأتي قوله : ﴿ قل تعالوا آتِل ما حرم ربكم عليكم ﴾ فالتوراة جاءت ثم الإنجيل ، ثم جاء القرآن ككتاب خاتم . فكيف جاءت العبارة هنا بـ « ثم » ؟ . مع أن إتيان موسى الكتاب جاء قبل مجيء قوله الحق : ﴿ قل تعالوا آتِل ما حرم ربكم عليكم ﴾ ؟

ونقول لأصحاب هذا الفهم : أنت أخذت « ثم » لترتيب أفعال وأحداث ، ونسيت أن « ثم » قد تأتي لترتيب أخبار . فقد يأتي من يقول لك : لماذا لا تسأل عن فلان ولا تؤدى الحق الواجب عليك له ، كحق القرابة مثلا ، فنقول : كيف ، لقد فعلت معه كذا ، ثم أنا فعلت مع أبيه كذا ، ثم أنا فعلت مع جده كذا .

إذن ، فأنت تقوم بترتيب أخبار . وتتصاعد فيها ، وترقى ، ولذلك قال الشاعر العربي :

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

فالسيادة جاءت أولاً للجد ، ثم جاءت للأب ، ثم انتقلت للأبن . و « ثم » فى هذه الحالة ليست لترتيب الأحداث وإنما جاءت للترتيب الإخبارى أى يكون وقوع المعطوف بها بعد المعطوف عليه بحسب التحدث عنهما لا بحسب زمان وقوع الحدث على أحدهما فالمراد الترقى فى الإخبار بالأحداث .

وانظر إلى القرآن بكمال أدائه يقول :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

ونعلم أن الأمر من الله للملائكة بالسجود لآدم كان من البداية . فسبحانه فى هذا القول الكريم يريد أن يرتب حالنا ، إنه - سبحانه - خلقنا بعد أن صورنا ، وصورنا ، بعد أن قال للملائكة اسجدوا لآدم .

ولله المثل الأعلى ، تجد من يقول لابنه : لقد اعتنيت بك فى التعليم العالى ،

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٤٠٠﴾

ثم لاتنس أنى قد اعتيت بك فى التعليم الثانوى ، ثم لاتنس أننى قد اعتيت بك فى التعليم الإعدادية ، ثم لاتنس أننى قد اعتيت بك من قبل كل ذلك فى التعليم الابتدائى . وأنت بذلك ترتقى إخبارياً لا أحداثياً . فقد يكون الحدث بعد ولكن ترتيب الخبر فيه يكون قبل .

[سورة الأنعام]

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ . . (١٥٤)﴾

طبعاً مادام جاء بسيرة موسى فالكتاب هو التوراة وإذا أطلق الكتاب من غير تحديد ، فإنه يتصرف إلى القرآن ، لأنه هو الكتاب الجامع لكل ما فى الكتب ، والمهمن على كل ما فى الكتب أما لو قيل مثلاً : أنزلنا على موسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو التوراة ، أو أنزلنا على عيسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو الإنجيل .

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَلْقَآءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٥)﴾

[سورة الأنعام]

والتمام هو استيعاب صفات الخير ، ولذلك يقول الحق :

[سورة المائدة]

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى . . (٣)﴾

و«أكملت» فلا نقصان ، وأتممتها فلا استداك . ولماذا جاء بالتمام على الذى أحسن فى أمر موسى ﷺ ؟ . جاء ذلك لأن الذين تصدوا للججاج واجدل معه ﷺ هم اليهود .

وأنتم تعلمون أنهم صوروا فى مصر هنا فيلماً سينمائياً اسمه « الوصايا العشر » عن قصة سيدنا موسى ﷺ . والوصايا العشر هى التى أقر « كعب الأحرار » أنها موجودة فى التوراة وجاءت فى الآيات السابقة التى تناولناها وشرحنها . فمن المناسب أن يأتى هنا ذكر موسى ﷺ .

وحينما جاء موسى عليه السلام بالتوراة كما أنزلها الله عليه عاصره أناس آمنوا بما في التوراة ، وكانوا من الناجين ، وقد ماتوا . أما الذين استمرت حياتهم إلى أن جاء رسول الله ، فكان من المطلوب منهم أن يؤمنوا به ؛ لأن الحق أوضح لهم في التوراة أن هناك رسلاً قادمًا ، ولا بد أن تؤمنوا حتى تتم نعمة الإحسان عليكم ، لأنكم وإن كنتم مؤمنين بموسى ، وعاملين بمنهجه فلا بد من الإيمان بمحمد عليه السلام . والسابقون لكم أحسنوا في زمن بعثة رسالة موسى عليه السلام ، وجاء محمد بالرسالة الخاتمة فإن أردتم أن يتم الله عليكم الحسن والكرامة والنعمة ، فلا بد أن تعلنوا الإيمان بمحمد عليه السلام ، منكم من أحسن الاقتداء بموسى عليه السلام وآمنوا بمحمد فتم لهم الحسن : ﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يُقَالُ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

«وتفصيلاً لكل شيء» أي أنه مناسب لزمته ، ولله المثل الأعلى ، عندما يكون لك ولد صغير السن فتقول : أنا فصلت له ملابسه ، أي فصلت له الملابس التي تناسبه . وحين يكبر لن تظل ملابسه القديمة صالحة لأن يرتديها . وتفصيلاً لكل شيء أي القيم التي تناسب الوقت الذي يعيشونه ، فإذا ما جئنا بتفصيل جديد في القرآن فهو مناسب لوقته ، ولقائل أن يقول : هنا تفصيل ، وهنا تفصيل ، فما الفرق بين تفصيل وتفصيل ؟ . نقول : إن كل تفصيل مناسب لزمته ، وآيات القرآن مفصلة جاهزة ومعدة لكل زمن وللناس جميعاً إلى أن تقوم الساعة .

والآفة - دائماً - في القائلين على أمر التشريع ، فحينما تأتيهم حالة لدى جاء وسلطان يحاولون إعداد وتفصيل حكم يناسبه ، فنقول مثل هذا الرجل : أنت تفصل الحكم برغم أن الأحكام جاهزة ومعدة وظاهرة ، إننا نجد القوالب البدنية تختلف فيها التفصيلات للملابس بينما القوالب المعنوية نجد فيها التماثل بين الناس كلها ، فالصدق عند الطفل مثل الصدق عند اليافع ، مثل الصدق عند الرجل ، مثل الصدق عند المرأة ، مثل الصدق عند العالم ، مثل الصدق عند التاجر . وليس لكل منهم صدق خاص ، وكذلك الأمانة . ورحمنا الإسلام بالقضية العقيدية وكذلك بالقضية الحكمية الجاهزة . المناسبة لكل بشر ، وليست هناك آية على مقاس واحد تطبق عليه وحده ، لا ، فالآيات تسع الجميع .

﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ۖ ۝ (١٥٤) ﴾ [سورة الأنعام]

والهُدَى هو ما يدل على الغايات ، لأن دين الفطرة قد انطمس بعدم تبليغ الآباء إلى الأولاد منهج السماء في أمور الحياة ومتعلقاتها والقيم التي يجب أن تسود . والآفة أن الأب يعلم ولده كيف يأكل ويشرب ، ويتسى أن يعلمه أمور القيم ، لكن الحق سبحانه وتعالى رحم غفلتنا ، ورحم نسياننا ؛ فشرع وأرسل لكل زمان رسولا جديداً ، وهدى جديداً ليذكرنا .

﴿ ۝ لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأنعام]

إن كل آفة تنبع من العزوف عن تشريعات الله ، وهم ينسون أن يضعوا في أذهانهم لقاء الله ، لكن لو أن لقاء الله متضح في أذهانهم لاستعدوا لذلك ؛ لأن الغايات هي التي تجعل الإنسان يقبل على الوسائل . والشاعر يقول :

ألا من يرى غايته قبل مذهبي ومن أين والغايات هي بعد المذاهب

ونقول لهذا الشاعر : قولك : ألا من يرى غايته قبل مذهبي كلام صحيح ، أما قولك : ومن أين والغايات بعد المذاهب ، هذا كلام غير دقيق ، فالغاية هي التي تحدد المذهب ، وكذلك شرع الله الغاية أولاً ، بعد ذلك جعل لها السبيل . وقد شرع الله لكل شيء منقضيته ظروف البشر الحياتية ، ولذلك لاستدراك عليه لأن فيه تفصيلاً لكل شيء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا ۚ

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

وهذه إشارة وعادة ماثلة وترد على متقدم ، ولكن إذا لم يكن الاسم

الإشارة متقدم أو حاضرة يشار إليه فهذا دليل على أنك إن أشرت لا ينصرف إلا إليه لأنه متعين ينصرف إليه الذهن بدون تفكير لوضوحه ، وكلمة «كتاب» تدل على أنه بلغ من نفاسته أنه يجب أن يُكْتَبَ ويسجل ؛ لأن الإنسان لا يسجل ولا يكتب إلا الشيء النافع ، إنما اللغو لا يسأل عنه ، وقال ربنا عن القرآن : إنه «كتاب» ، ومرة قال فيه : «قرآن» فهو «قرآن» يتلى من الصدور ، و«كتاب» يحفظ في السطور ، ولذلك حينما جاءوا ليجمعوه أتوا بالمسطور ليطابقوه على ما في الصدور .

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَّارَكٌ ۝ (١٥٥) ﴾ [سورة الأنعام]

و«أنزلناه» أي أمرنا بإنزاله ، ونزل به الروح الأمين ، وكلمة مبارك مأخوذة من «البركة» أي أنه يعطى من الخير والثمرة فوق ما يُظَنُّ فيه ، وقد تقول : فلان راتبه مائتا جنيه ، ويربى أولاده جيداً ويشعر بالرضا ، وتجد من يقول لك : هذه هي البركة . كأن الراتب لا يؤدي هذه المسئوليات أبداً . وكلمة «البركة» تدل على أن يد الله ممدودة في الأسباب ، ونعلم أن الناس ينظرون دائماً إلى رزق الإيجاب ، ولا ينظرون إلى الرزق الأوسع من الإيجاب وهو رزق السلب ، فرزق الإيجاب يأتي لك بما تتي جنيته ، ورزق السلب يسلب عنك مصارف لا تعرف قدرها . فنجد من يبلغ مرتبه ألفاً من الجنيهات ، لكن بعض والده يمرض ، ويحتاج ولد آخر إلى دروس خصوصية فتتبدد الألف جنيه ويحتاج إلى ما فوقها .

إذن فحين يسلب الحق المصارف وإنفاق المال في المعصية أو المرض فهذه هي بركة الرزق ، وتجد الرجل الذي يأتي ماله من حلال ويعرق فيه يوفقه الله إلى شراء كل شيء يحتاج إليه ، ويخلق الله على المال القليل صفة القبول ، وتجد آخر يأتي ماله حرام فيخلق الله على ماله صفة الغضب فينفضه في المصائب والهلايا ويحتاج إلى ما هو أكثر منه .

وأنت حين تقارن القرآن بالشرواية في الحجم تجده أصغر منها ولكن لو رأيت البركة التي فيه فستجدها بركة لا تنتهي ؛ فكل يوم يعطى القرآن عطاءه الجديد ولا تنقضي عجائبه ، ويقرأه واحد فيفهم منه معنى ، ويقرأه آخر فيفهم منه معنى جديداً . وهذا دليل على أن قائله حكيم ، وضع في الشيء القليل الفائدة الكثيرة ،

وهذا هو معنى ﴿كتاب أنزلناه مبارك﴾ ؛ فكل كتاب له زمن محدود وعصر محدود وأمة محدودة ، أما القرآن فهو يواجه من يوم أن أنزله الله إلى أن تقوم الساعة قضايا متجددة يضع لها حلولاً . والمهم أن القرآن قد جاء على ميعاد مع طموح البشرى ، وحضارتها وارتقاءاتها في العقول ؛ لذلك كان لابد أن يواجه كل هذه المسائل مواجهة تجعل له السبق دائماً ولا يكون ذلك إلا إذا كانت فيه البركة .

وكلنا يعلم أن القرآن قد نزل على رجل أُمِّي ، وفي أمة أُمِّيَّة ، ولذلك حكمة بالغة لأن معنى « أُمِّي » أي أنه لم يأخذ علماً من البشر ، بل هو كما ولدته أمه ، وجاءت ثقافته وعلمه من السماء .

إذن فالأمة فيه شرف وارتقاء بمصادر العلم له . وتزل القرآن في أمة أُمِّيَّة ؛ لأن هذا الدين وتلك التشريعات ، إنما نزلت في هذه الأمة المثبديَّة المتنفذة من مكان إلى آخر وليس لها قانون بل يتحكم فيها رب القبيلة فقط ، وحين تنزل إليها هذه القيم الروحية والأحكام التشريعية ففي ذلك الدليل على أن الكتاب الذي يحمل هذه القيم والأحكام قادم من السماء . فلو نزل القرآن على أمة متحضرة لقليل نقلة حضارية ، لكنه نزل على أمة لا تملك قوانين مثل التي كانت تحكم بها الفرس أو الروم .

ومادام الكتاب له هذه الأوصاف التي تريح الخلق من عناء التشريع لأنفسهم ويضم كل الخير ، لذلك يأتي الأمر من الله :

﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأنعام)

وساعة تأتي بـ « لعل » فاعلم أن فيها رجاء ، وقد ترجو أنت من واحد وتقول : لعل فلاناً يعطيك كذا ، والرجاء هنا من واحد ، ومن يفعل العمل المرجو لإنسان آخر ، وقد يفعل الآخر هذا العمل ، وقد يغضب فلا يفعله ؛ لأن الإنسان ابن أغيار ، بل ومن يدري أنه ساعة يريد أن يفعل فلا يقدر . وإذا قلت : « لعلني أفعل لك كذا » ، وهذا تكون أنت الراجي والمرجو في آن واحد ، ولكنك أيضاً ابن

للأغيار ، فأنت تتوقع قدرتك على الفعل وعند إرادتك الفعل قد لا تيسر لك مثل هذه القدرة .

ولماذا أنزل الحق هذا الكتاب ؟ ، يأتي الحق هنا بالتمييز للأمة التي أراد لها أن ينزل فيها القرآن فيقول :

﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ [١٥٦]

فالكتاب يصفى العقائد السابقة التي نزلت على الطائفتين من اليهود والنصارى ، وإذا كنتم قد غفلتم عن دراسة التوراة والإنجيل ، لأنكم أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ؛ لذلك أنزلنا إليكم الكتاب الكامل مخافة أن تصطادوا عذراً وتقولوا : إن أميتنا منعنا من دراسة الكتاب الذي أنزل على طائفتين من قبلنا من اليهود والنصارى . وكان الله أنزل ذلك الكتاب قطعاً لاعتذارهم .

﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سََجَرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ [١٥٧]

قد يحتاج المشركون من أن التوراة والإنجيل لو نزلت عليهم لكانوا أهدى من

اليهود والنصارى ، وفى هذا القول مايعنى أن أذهانهم مستعدة لتقبل الإيمان ، وقد قطع الله عليهم كل غدر فجاء لهم بالقرآن ، ويقول الحق :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۖ ۝ (١٥٧) ﴾ [سورة الأنعام]

و«صدف» من الأفعال التى تُستعمل متعدية وتُستعمل لازمة ، ومعنى «لازمة» أنها تكتفى بالفاعل ولا تتطلب مفعولاً ، فمثلاً إذا قيل لك : جلس فلان . تفهم أن فلاناً قد جلس ويتم لك المعنى ولا تتطلب شيئاً آخر . لكنك إن قيل لك : ضُرب زيد ، فلا بد أنك تتسظر من محدثك أن يبين لك من الذى ضُرب ، أى أنك جئت بفعل يطلب شيئاً بعد الفاعل ليقع عليه الفعل . وهذا اسمه فعل «متعدد» أى يتعدى به الفاعل إلى مفعول به .

و«صدف» فيها الخاصتان . وجاء الحق بهذه الصيغة المحتملة لأن تكون لازمة وأن تكون متعدية ليصيب الأسلوب غرضين ؛ الغرض الأول : أن تكون «صدف» بمعنى انصرف وأعرض فكانت لازمة أى ضل فى ذاته ، والأمر الثانى : أن تكون صدف متعدية فهى تدل على أنه بصرف غيره عن الإيمان ، أى يضل غيره ، ويقع عليه الوزر ؛ لضلالات نفسه أو لأشتم عليه وزر من أضل ثانياً ، ولذلك جاء سبحانه باللفظ الذى يصلح للثنتين «صدف عنها» أى انصرف ، ضللاً لنفسه ، وصدف غيره أى جعل غيره يصدف ويعرض فأضل غيره ، وبذلك يعذبه الله عذابين ، فيقول سبحانه :

﴿ . . سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ۖ (١٥٧) ﴾

[سورة الأنعام]

فكان المسألة يرتكبها : الذين صدفوا أنفسهم ، وصرفوها عن الإيمان ، ويصدفون كل من يحاول أن يؤمن . وهؤلاء هم القوم الذين أعرضوا وانصرفوا عن منهج الهدى ، أو تغالوا فى ذلك فصرفوا غيرهم عن منهج الهدى ، ولو أنهم استقروا الوجود الذى يعاشونه لوجدوا الموت يختطف كل يوم قوماً على غير طريقة رتيبة ، فلا السن يحكم ويحدد وقت وزمن انتضاء الأجل ، ولا الأسباب تحكمه ،

ولا المرض أو العافية تحكمه ، فالموت أمر شائع في الوجود. ومعنى ذلك أن على كل إنسان أن يتروى نهايته ، فكأنه يتساءل : لماذا إذن يصدفون ؟ وماذا يتظرون من الكون ؟. أروا خلوداً في الكون لموجود معهم ؟.

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا أَنْظُرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

فهل يتظرون من عطاءات الوجود المحيط بهم إلا أن تأتيهم الملائكة التي تقبض الروح ؟ والملائكة تأتي هنا مجملة. وفي آيات أخرى يقول :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا السَّلَامَ .. (١٥٨) ﴾ [سورة النحل]

ولن يتأبى أحد على الملائكة ؛ لذلك يلقون لهم السلم وتنتهي المسألة .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا أَنْظُرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

ووقف العلماء عند هذا القول الكريم لأنهم أرادوا أن يفسروا الإتيان من الرب على ضوء الأتيان منا ، والأتيان منا يقتضى إخلاعاً من مكان كان الإنسان فيه إلى مكان يكون فيه ، وهذا الأمر لا يصلح مع الله. ونقول : أفسرت كل مسجى على

ضوء المجيء بالنسبة لك ؟ بالله قل لى : ما رأيك فى قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٩ سورة ق)

كيف جاءت سكرة الموت وهى المخلوقة لله ؟ إننا لا نعرف كيف يجيء الموت وهو مخلوق ؟ فكيف تريدون أن نعرف كيف يجيء الله ؟ . عليكم أن تفسروا كل شىء بالنسبة لله بما يليق بذات الله فى إطار « ليس كمثله شىء » ولتأدب ونعط العقول مقدارها من الفهم ، ولنجعل كل شىء منسوباً لله بما يناسب ذات الله ؛ لأن المجيء يختلف بأقدار الجائين ، فمجىء الطفل غير مجىء الشاب ، غير مجىء الرجل المعجوز ، غير مجىء الفارس ، فما بالنا بمجىء الله سبحانه ؟ !! إيالة - إذن - أن تفهم المجيء على ضوء مجىء البشر . وأكررها دائماً : عليك أن تأخذ كل شىء بالنسبة له سبحانه لا بقانونك أنت ، ولكن بقانون الذات الأعلى ، واجعل كل ما يخصه لى إطار « ليس كمثله شىء » ، ولذلك قل : له سمع ليس كسمعنا ، وبصر ليس كبصرنا ، ويد ليست كأيدينا ، فى إطار « ليس كمثله شىء » . وإياكم أن تسمعوا مناقشة فى قوله : « يأتى ربك » . وقل إن إتيان الله ومجيئه ليس كفعل البشر ، بل سبحانه « ليس كمثله شىء » ﴿ أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك ﴾ .

و « بعض آيات ربك » ، هى العلامات ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « يَأْتِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْتًا : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالْدُّخَانُ ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ ، وَالذُّجَالُ ، وَخُوصَّةٌ أُخِيذُكُمْ وَأَمْرُ الْعَامَّةِ »^(١) .

و « خُوصَّةٌ أُخِيذُكُمْ » تصغير : خاصة ، والمراد حادثة الموت التى تخص الإنسان ، وصغرت لاستصغارها فى جنب سائر العظام من بعث وحساب وغيرها . وقيل : هى ما يخص الإنسان من الشواغل المقلقة من نفسه وماله وما يهتم به .

و « أمر العامة » : أى القيامة ؛ لأنها تعم الخلائق ، أو الفتنة التى تعمى

وتصم ، أو الأمر الذي يستبد به العوام ويكون من قبلهم دون الخواص .

﴿ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

لأن الإيمان لا يكون إلا بأمر غيبى ؛ فكل أمر مشهدى مدرك بالحواس لا يسمى إيماناً ؛ فانت لا تقول : أنا أؤمن بأننى أقرأ الآن فى كتاب خواطر الشيخ الشعراوى حول آيات القرآن الكريم ؛ لأنك بالفعل تقرأ هذه الخواطر الآن . وانت لا تقول : أنا أؤمن بأن النور يضىء الحجرة ؛ لأن هذا أمر مشهدى ، وليس أمراً غيبياً . والإيمان يكون دائماً بأمر غيبى ، ولكن إذا جاءت الآيات نزلنا فننتقل من الإيمان بالأمر الغيبى إلى الإيمان بالأمر الحسى ، وحينئذ لا ينفع الإيمان من الكافر ، ولا تقبل الطاعة من صدقة أو غيرها من أنواع البر والخير بعد أن تبلغ الروح الحلقوم وتقول : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد كان لفلان . هذا لا ينفع ؛ لأن المال لم يعد مآلك ، بل صار مال الورثة ، كذلك الذى لم يؤمن وبعد ذلك رأى الآيات الستة التى قال الشارع عنها : إنها ستحدث بين يدي الساعة أو قبل مجئ الساعة . وساعة ترى هذه الآيات لن يُقبل منك أن تقول : آمنت ؛ لأن الإيمان إنما يكون بالأمر الغيبى ، وظهور الآيات هو أمر مشهدى فلن يُقبل بعده إعلان الإيمان ، والحق هو القائل :

﴿ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَبَّتَ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

أى أن الإيمان يجب أن يكون سابقاً لظهور هذه الآيات ، وألا يكون المانع له من العمل القصور ، كأن يكون الإنسان - والعياذ بالله - مجنوناً ولم يبق إلا بعد مجئ العلامة ، أو لم يبلغ إلا بعد وجود العلامة فهذا هو من ينفعه الإيمان .

وقد عرض الحق لنا من هذه الصور ما حدث فى التاريخ السابق ، فهو القائل :

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٤٠٦٥﴾

﴿وَجَنَوْزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

[سورة يونس]

وماذا كان رد الله عليه ؟ لقد قال سبحانه :

[سورة يونس]

﴿ءَالَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ . . ﴿٩١﴾﴾

إذن : إذا بلغت الروح الخلقوم ، وهذه مقدمات الموت فلا ينفع حيثئذ إعلانك الإيمان .

ويذيل الحق الآية بقوله :

[سورة الأنعام]

﴿ . . انتظروا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

هم منتظرون الحية ونحن منتظرون الفلاح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

هذه الآية تشرح الآية التي سبقت خواطرننا عنها ، وهي قوله الحق :

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ

[سورة الأنعام]

وَصُكُّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

والذين فرقوا دينهم نسوا أن الدين إنما جاء ليجمع لا ليفرق ، والذين جاء ليوحد مصدر الأمر والنهي في الأفعال الأساسية فلا يحدث بيننا وبين بعضنا أى خلاف ، بل الخلاف يكون في المباحات فقط ؛ إن فعلتها فأهلاً وسهلاً ، وإن لم تفعلها فأهلاً وسهلاً ، ومالم يرد فيه أفعل ولا تفعل ؛ فهو مباح .

إذن الذين يفرقون في الدين إنما يناقضون منهج السماء الذي جاء ليجمع الناس على شئ واحد ؛ لتتساند حركات الحياة في الناس ولا تتعاند ، وإذا كان لك هوى ، وهذا له هوى ، وذلك له هوى فسوف تتعاند الطاقات ، والمطلوب والمفروض أن الطاقات تتساند وتتعاقد .

والشيء هم الجماعة التي تتبع أمراً ، هذا الأمر يجمعهم ولو كان ضلالاً .

وهناك تشيع لمعنى نافع وخير ، وهناك تشيع لعكس ذلك ، والتشيع على إطلاقه هو أن تجتمع جماعة على أمر ، سواء أكان هذا الأمر خيراً أم شراً .

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٦)﴾

[سورة الأنعام]

إذن هم بعيدون عن منهجك يا محمد ، ولا يصح أن ينسبوا إلى دينك ؛ لأن الإسلام جاء لإثبات القيم للوجود مثل الماء لإثبات حياة الوجود . ونعرف أن الماء لا يأخذ لوناً ولا طعماً ولا رائحة ، فإن أخذ لوناً أو طعماً أو رائحة فهو يفقد قيمته كماء صاف . وكذلك الإسلام إن أخذ لوناً ، وصار المسلمون طوائف ؛ فهذا أمر يضر الدين ، علينا أن نعلم أن الإسلام لون واحد .

﴿.. إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٧)﴾ [سورة الأنعام]

إن شاء سبحانه عاجلهم بالهزيمة أو بالعذاب ، وإن شاء أجلهم إلى يوم القيامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن
جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴾ ١٦٠

هناك « حسن » ، و « حسنة » ولا نقل : إن حسنة هي مؤنث حسن ، لأن فيها تاء . كأنها تاء التانيث ، ولكن اسمها « تاء المبالغة » تأتي على اللفظ الذي للذكر ، مثلما تقول : « فلان علامة » ، و « فلان راوية للشعر » وفلان نسابة . هذه هي تاء المبالغة .

والحسنة هي الخير الذي يورث ثواباً ، وكلما كان الثواب أخلد وأعمق كانت الحسنة كذلك . وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ .

ف « أمثالها » جمع « مثل » ، والمثل مذكر ، والقاعدة تقول : حين يكون المعدود مذكراً تأتي له بالتاء ، وحين يكون مؤنثاً تحذف التاء . لأن أصل الأعداد مبني على التاء ، لأنك عندما تعد تقول واحد ، اثنان ثلاثة إلى عشرة فأصل الأعداد مبني على التاء ، وإذا استعملته مع المؤنث تخالف بحذف التاء فيه ، وإن استعملت العدد مع الأصل وهو المذكر ، تستعمله على طبيعته فتقول : « ثلاثة رجال » . وإذا أردت أن تتكلم عن الأنثى ، تقول : « ثلاث نسوة » ، والحق هنا يقول : ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ ، و « مثل » - كما قلنا - مذكر . والحق لم يجعل الأصل في المعطاء هو « المثل » ، بل جعل الأصل هو الحسنة :

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

وهذا هو مطلق الرحمة والعفو . ولذلك ورد الحديث القدسي .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى - « إن ربكم عز وجل رحيم . من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرًا إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عز وجل ولا يهلك على الله إلا هالك » (١) .

وتعرف أن الحق يجرى الحسنة بعشر أمثالها ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف ، لأن كل فعل تلازمه طاقة من الإخلاص في نفاذه ، فكأن الحق قد وضع نظاماً بأن الحسنة بعشر أمثالها ، ثم بالنية المخلصة تبلغ الأضعاف إلى ما شاء الله . وقد وضع الحق هذا النظام ؛ لأنه جل وعلا يريد للحسنة أن تفعل ، ويستفيع الغير بها ، فإن كان فاعلها حريصاً على الأجر الزائد فهو يقدمها بنية مخلصة ، ويقول الحق لنا :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١١ ﴾

(سورة الحديد)

ويقول أيضاً :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ١٢ ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

ويحدد هنا جزاء الحسنة بأن ثوابها عشر أمثالها ، ونية معطى الحسنة هي التي يمكنها أن تضاعفها إلى سبعمائة أو أزيد . والحق سبحانه وتعالى يعطي مثلاً لذلك في قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبِثَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ٢٤٦ ﴾

(من الآية ٢٦٦ سورة البقرة)

وإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تعطيها أنت حبة فتعطيك سبعمئة قمحا يعطى خالق الأرض ؟ إن عطائه غير محدود ولا ينفد ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿وَاللَّهُ يَضْعَفُ لِمَنِ يَشَاءُ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

ويتابع الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

مادام لا يجزى إلا مثلها فهم لا يظلمون أبداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَفِيقِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا

مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾

و « دينا قيميا » أى تقوم عليه مسائل الحياة ، وهو قائم بها ، و « قيميا » مأخوذة من « القيمة » أو من « القيام » على الأمر ، وقام على الأمر أى باشره مباشرة من يصلحه ، كذلك جاء الدين ليصلح للناس حركة حياتهم بأن أعطاهم القيم ، وهو قائم عليهم أيضاً : ﴿ دينا قيميا ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ .

وفى كل أمر مهم له خطره ومنزله يأتى لنا الحق بلمحة من سيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، لأنه صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه فيه القدر المشترك الذى يجمع كفار مكة ، وأهل الكتاب الذين يتمحكون فيه . فقالت اليهود : إبراهيم كان يهودياً ، وقالت النصارى : إن إبراهيم كان نصرانياً ، وربنا يقول لهم ولنا :

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾

(من الآية ٢٧ سورة آل عمران)

واليهودية والنصرانية جاءتا من بعده . أما بالنسبة للجماعة الأخرى ففى بيئتهم ، وكل حركات حياتهم ، وتجاربتهم وتضعهم من آثار إبراهيم عليه السلام ما هو ظاهر وواضح . يقول الحق :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ قُورَيْنِي يَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

فبيدنا إبراهيم هو الذى رفع القواعد من البيت الحرام ، وهو الذى عمل لهم مهابة جعلت تجاربتهم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب ولا يتعرض لها أحد ، وجاءت لهم بالرزق الوفير . وحين يقول الحق :

﴿ دِينًا قِسْمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأنعام)

المقصود هو الدين الذى تعبدون فى كنف خيرات آثاره ، و« الحنف » هو اعوجاج فى القدم . وبطبيعة الحال لم يكن دين إبراهيم مائلاً عن الحق والصواب بل هو مائل عن الانحراف دائم الاستقامة . ونعرف أن الرسل إنما يجيئون عند طغيان الانحراف ، فإذا جاء إبراهيم مائلاً عن المنحرف فهو معتدل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾

و« صلاتي » مقصود بها العبادة والركن الثانى فى الإسلام الذى يتكرر كل يوم خمس مرات ، وهى الركن الذى لا يسقط أبداً ، لأن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - كما قلنا سابقاً - يكفى أن تقولها مرة فى العمر ، وقد يسقط عنك الصوم إن كنت لا تستطيع ، وقد لا تزكى لأنه ليس لك مال ، وقد لا تستطيع

الحج ، وتبقى الصلاة التي لا تسقط أبداً عن العبد . وهي - كما نعلم - قد أخذت التكليف حفظها من الركنية .

إن كل تكليف من التكاليف جاء بواسطة الوحي إلا الصلاة فإنها جاءت بالمباشرة ، تلقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه دون واسطة . وحين يقول الحق : « إن صلاتي » ، فهو يذكر لنا عمدة الأركان والتي اشتملت على كل الأركان كما أوضحنا سابقاً . حتى إن الإنسان إذا كان راقداً في مرض ولا يستطيع القيام فعليه أن يحرك رأسه بالصلاة أو يحنط أعمال الصلاة على قلبه . ويقول الحق : ﴿ ونسكى ﴾ . و « النسك » يطلق ويراد به كل عبادة ، والحق يقول :

﴿ لِكُلِّ أُمَةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحج)

« النسك » إذن هو عبادة ويطلق بالأخص على أفعال كثيرة في الحج ، مثل نسك الطواف ونسك السعي ، ونسك الوقوف بعرفة ، ونسك الرمي ، ونسك الجمار ، وكل هذه اسمها مناسك ، والأصل فيها أنها مأخوذة من مادة « النسب » وهي السبيكة من الفضة التي تصهر صهراً يخرج منها كل المعادن المختلطة بها حتى تصير غاية في النقاء . فسميت العبادة نسكاً لهذا ، أي يجب أن تصفى العبادة لله كما تصفى سبيكة الفضة من كل المعادن التي تخالطها : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي وروحي ﴾ .

وهنا أمران اختياريان ، وأمران لا اختيار للإنسان فيهما ، الصلاة والمناسك كلاهما داخل في قانون الاختيار ، لكن المحيا والممات لا يدخل أي منهما في قانون الاختيار ؛ إنها في يد الله ، والصلاة والنسك أيضاً لله ، ولكن باختيارك ، وأنت لا تصل إلا لأنك آمنت بالأمر بالصلاة ، أو أن الجوارح ما فعلت كذا إلا لله . إذن فأنت لم تفعل شيئاً من عندك أنت ، بل وجهت الطاقات المخلوقة لله لتأدية المنهج الذي أنزله الله . إذن إن أردت نسبة كل فعل فانسبه إلى الله .

ولماذا جاء بالصلاة والنسك وكلاهما أمر اختياري ؟ ؛ لأنه إن كان في ظاهر الأمر لكم اختيار ، فكل هذا الاختيار نابع من إيجاد الله لكم مختارين . وهو الذي وضع

المنهج فجعلكم تصلون ، أو : إن صلاتي لله ونسكي لله ، أى أن تخلص فيها ، ولا تشرك فيها ، ولا تصلى مرثياً ، ولا تصنع نسكاً مرثياً ، ولا تذهب إلى الخج من أجل أن يقولوا لك : «الحاج فلان» أبداً ، بل اجعلها كلها لله ؛ لأنك إن جعلتها لغيره فليس لغيره من القدرة على الجزاء ما يجازيك الله به ، إن جعلتها لغيره فقد اخترت الخيبة فى الصفقة ؛ لذلك اجعل الصلاة والنسك للذى يعطيك الأجر .

﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام]

والحياة هبة الله ، وإياك أن تصرف قدرة الحياة ومظاهر الحياة فى غير ما يرضى الله . فينبغى أن يكون حياتك لله لالشهوتك ، ومماتك لله لالتورثتك ، وتذكر ذلك جيداً لأن الحق يقول بعد ذلك :

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

وهذا القول يدل على أن بعض الخلق قد يجعل لله شريكاً فى العبادة فيجعل صلاته ظاهرية رياء ، ومناسكه ظاهرية رياء ، وحياته يجعلها لغير واهب الحياة . ويعمل حركاته كلها لغير واهب الحياة ، ويجعل مماته للتورثة وللذرية ؛ لذلك عليك أن تتذكر أن الله لا شريك له .

﴿ .. وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام]

وهذا أمر من الله لرسوله ، وكل أمر للرسول هو أمر لكل مؤمن برسالته ﷺ ، والأوامر التى صدرت عن الرب هى لصالحك أنت . فسبحانه أهل لأن يُحب ، وكل عبادة له فيها الخير والنفع لنا ، وأنا لا ادعيه لنفسى بل هو عطاء من ربكم وربى الذى أمر . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حينما رأى أن رسوله ﷺ مشغول بأمر أمته أبلغنا :

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

وفي كل شيء كان صلى الله عليه وسلم يقول : أمتي أمتي أمتي ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يطمئن رسوله على محبوبة أمة فقال له : « إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك »^(١) .

والحديث بتمامه كالآتي :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم : ﴿ رب إني أحببت كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ﴾ الآية .

وقال عيسى عليه السلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

فرجع يديه وقال : « اللهم أمتي أمتي ، ويكي ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وريك أعلم فسأله ما يبكيك ؟ فأنه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فسأله وأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال عز وجل : « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك »^(٢) ونزل قوله الحق :

﴿وَلَوْ يَشَاءُ رَبُّكَ لَتَهَوَّاهُ الْجِنَّةَ وَالنَّاسُ﴾

(سورة الضحى)

روى عن علي رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار »^(٣) .

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان .

(٣) غرائب القرآن ورجائب الفرقان للنيسابوري .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

وحين يقول ﷺ : وأنا أول المسلمين في أمته فهذا قول صحيح صادق لأنه قبل أن يأمر غيره بالإسلام آمن هو بالإسلام ، وكل رسول أول المسلمين في أمته ، لكن هناك أناس يقولون : لناخذ العبارة هكذا ، ونقول : إن الرسول ﷺ له منزلة بين رسل الله أجمعين تتجلى في أنه أخذ العهد على غيره له ، ولم يؤخذ العهد عليه لأحد . فإن كان أول المسلمين في أمته ، فهو أول المسلمين بين الرسل أيضاً ، وإن لم تأخذها حدثاً أخذها للمكانة . وأضرب هذا المثل : هب أن كلية الحقوق أنشئت مثلاً سنة كذا وعشرين ، لكل سنة لها أول من التلاميذ ثم جاء واحد وحصل على ١٠٠٪ هذا العام فنقول عنه : إنه الأول على كلية الحقوق من يوم أن أنشئت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿قُلْ أَغْنَىٰ اللَّهُ عَنِّي رَبِّيَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ نَقِصًا وَلَا زِيَادًا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

معنى الرب أنه هو الذى تولى التربية ، وله السيادة ، وكل شيء فى الوجود مبروب لله ، فكيف أخذ شيئا من الأشياء التى هو ربها وخالفها ليكون شريكاً له ١٦٦ إن ذلك لا يصح أبداً . ﴿قُلْ أَغْنَىٰ اللَّهُ عَنِّي رَبِّيَ﴾ .

وهذا إنكار يأتى فى صورة استفهام من كل سامع . وكأن الحق يقول لكل منا : أعرض هذا على ذهنك عرضاً غير متحيّز ، وأنا سأنتمتك على الجواب . ولاتقال

ذلك إلا وقد تأكد أن الجواب يكون : لا ، فلو كان الجواب يحتمل هذه أو تلك لما آمنك على الجواب . وكأنه يقول : إن أى عاقل يجيب على هذا السؤال سيوافقنى فى أنه لا ينبغي أن يتخذ غير الله رباً .

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبَنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

و «أبغى» أى أطلب ، و «تكسب» مأخوذة من مادة «كسب» ، و «اكتسب» ، و «كسب» دائماً تاتى فى الخير - كما علمنا من قبل - ، و «اكتسب» تاتى فى الشر . لكن هناك أناس يعتادون على فعل السيئات ولم تعد تكلّفهم شيئاً ، فكانها لسهولة ذلك عليهم تعتبر كسباً . ومن الحق أن تقول هذا كسب ، وهو عليك وليس لك ، لأنك حين تنظر إلى التسمية نفسها تفهم أنها ليست رصيذاً لك بل عليك .

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

والوزر هو الحمل الشاق ، وإن اشتق منه شيء فإن المشقة والصعوبة تلازمه ؛ ككلمة «وزير» ، والحق هو القائل :

﴿ وَأَجْمَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِ ۖ هَٰؤُلَاءِ ۖ هَٰؤُلَاءِ ۖ أَشَدُّ بِهٖ أَزْرَى ۖ ﴾

(سورة طه)

كان موسى عليه السلام عرف أن حمل الرسالة إلى اليهود عملية شاقة فقال لله : أعطني أخى يساعدنى فى هذه المشقة .

والحق هو القائل :

﴿ أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ ۝ أَلَدَّىٰ أُنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ ۝ ﴾

(سورة الشرح)

وكان النبى عليه الصلاة والسلام فى أول استقباله للوحى قد عانى من وقع هذه

العملية وكان أمرها شاقاً عليه ؛ لأن المسألة تقتضى التفاءات ملكية بشرية ، ولا بد أن يحدث تفاعل ، وهذا التفاعل الذى كان يظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحمر وجهه ، ويتصبب منه العرق ، وبعد ذلك يقول : زملون زملون وذثرون ، وإن كان قاعداً وركبته على ركة أحد بجانيه فيشعر جاره بالثقل ، وإن كان على دابة تنط وتثن تعباً ، لأن التفاء الوحي برسول الله صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى أمرين : إما أن يتحول الوحي وهو حامل الرسالة إلى بشرية مماثلة لبشرية الرسول ، وإما أن الرسول ينتقل إلى ملائكية تتناسب مع استقباله للملك . وهكذا كان التفاء بالملكية يتطلب انفعالاً وتفاعلاً .

لكن لما أنس صلى الله عليه وسلم بالوحي عرف حلاوة استقباله نسي المتاعب ، ولذلك عندما فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتاق إليه . وكان الوحي من قبل ذلك يتعبه ، ويجهده ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبقى في نفسه حلاوة ما أوحى به إليه ، وتهدأ نفسه وترتاح ويشتاق إلى الوحي ، فإذا ما استقبل الوحي بشوق قلن يتذكر المتاعب .

﴿ وَلَا تَكِيبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهِ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

إذن مادة الوزر هي الثقل بمشقة ، أى لا يحمل إنسان مشقة ثقيلة عن آخر ؛ فالمسئولية لا تتعدى إلا إذا تعدى الفعل ، وعرفنا من قبل الفارق بين من ضل في ذاته ، ومن أضل غيره ليحمل أوزاره مع أوزارهم لتعديه بإضلالهم . وسنعود جميعاً إلى ربنا لينبئنا بما كنا فيه نختلف .

ويقول جل وعلا بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ

بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْبُلُوكُمْ فِي مَاءٍ اتَّسَكُمُ
 إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

وهناك قول كريم في آية أخرى :

﴿وَالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ﴾

(من الآية ٣٩ سورة فاطر)

وهنا يقول الحق : ﴿خلقت الأرض﴾ .

ومعنى « خليفة » أى الذى يخلف غيره ؛ فلما أن يخلفه زماناً ، ولما أن يخلفه مكاناً . وخليفة الزمان أن يأتي عصره بعد عصره ، ويومه بعد يومه ، وخليفة المكان أى أن يكون جالساً ثم يرحل ليأتي آخر ليستقر مكانه ، وانظر إلى كل قواعد الحياة بالنسبة للإنسان تجده في شبابه قوياً ، ثم يرحل عنه الشباب ليأخذه آخره ، ويذهب إلى الشيخوخة . وكذلك نجد إنساناً يملك مكاناً ثم يتركه ويأتي واحد آخر يملكه . أو أن الحق سبحانه وتعالى أراد من الخلافة ، لا خلافة بعضنا لبعض ولكن خلافة الإنسان لرب الإنسان في الأرض ؛ لأن كل شيء منفعل لله قهراً ، والحق سبحانه وتعالى منح بسطة عطائه ؛ فجعل بعض الأشياء تنفعل لبعضها هبة منه سبحانه ، فإذا أوقدت النار - على سبيل المثال - تنفعل لك ، وإذا حرثت في الأرض ووضعت فيها البذور تنفعل لك ، وإذا شربت ترتوى ، وإذا أكلت تشبع . من أين أخذت كل ذلك ؟

إنك قد أخذت من أن الحق الذى سخر لك مافى الكون ، وجعل أسباباً ومسببات ، فكانك أنت خليفة لإرادات ؛ لكى يثبت لنا سبحانه أنه يفعل ما يريد ، فعلينا أن نأخذ هذه القضية قضية مسلمة ، وإن أردت أن تختبر ذلك فانظر إلى أى إنسان ولو كان كافراً ويريد أن يقوم من مكانه ، وتنفعل له جوارحه فيقوم ، فأى جارحة أمرها أن تفعل ذلك ؟ . إنه لا يعرف إلا أنه بمجرد أنه أراد أن يقوم قد قام . وحتى لا تفهم أنك أخذت كل ذلك بشطارتك فهو يجعل بعضاً من الأمور

مشاعاً عالمياً ، مثل الموت والحياة إنهما أمران ، لا يختلف فيهما الإنجليزي عن الفرنسي ، عن العربي ، وكذلك الضحك والبكاء ، وهل هناك فرق بين ضحكة إنجليزية ، أو ضحكة شيرعية أو ضحكة رأسمالية؟ . طبعاً لا ، نكلها ضحك وهو لغة عالمية ، ولذلك قال:

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي (٤٢)﴾

[سورة النجم]

وسبحانه جاء بأمر مشترك موجود في الناس كلها ، فأنت تتكلم وتعمل على الصورة والكيفية التي تريدها ، لكنك ساعة تضحك فهو سببحانه الذي يضحك . وأنت حين تود مجاملة أحد وتضحك له فتفاجأ بأن ضحكك صناعية .

والحق يوضح لك : إن زمام كوني في يدي ، أجعل القوم مختارين في أشياء ، وأجعلهم مرغمين ومتحدين على رغم أنوفهم في أشياء ؛ فأنا الذي أضحك وأبكي . ولا يوجد بكاء إنجليزي أو بكاء فرنساوي أو بكاء ألماني ، وكل البشر شركاء في مثل هذه الأمور .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ . . (١٦٥)﴾

[سورة الأنعام]

إن إرادتك على أبعاضك ، وعلى جوارحك-أيها الإنسان- موهوبة لك من الوهاب الأعلى والمريد الأعلى ، وسببحانه يلب ذلك من بعض الأفراد ، فيأمر المخ : إياك أن ترسل إشارة لتلك الجارحة لتتفعل . فيصاب هذا الإنسان بالشلل . ولو كان الأمر شطارة من الإنسان لقاوم ذلك .

أنتم -إذن- خلائف الأرض ؛ تفعل لكم الأشياء بقدر ما أراد الله أن تفعل لكم ، فإذا سلب أنفعلها عنكم فلكي يثبت أنكم لم تسخروها بقدراتكم ، بل به هو ، إن شاء أطلق الخلافة ، وإن شاء قيد الخلافة ، وإن شاء قيد الخلافة . ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ .

كأن من الخلافة أننا لانكون متماثلين متطابقين ، بل أورد سبحانه أن نكون متكاملين في المواهب ، وفي الكماليات ؛ لأن الناس لو كانوا صورة مكررة في المواهب ، لفسدت الحياة ، فلا بد أن تختلف مواهبنا ، لأن مطلوبات الحياة متعددة ، فلو أصبحنا كلنا أطباء فالأمر لا يصلح ، ولو كنا قضاة لفسد الأمر ، وكذلك لو كنا مهندسين أو فلاحين . إذن فلا بد من أن تتحقق إرادة الله في قوله سبحانه :

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ۖ . (١٦٥) ﴾ [سورة الأنعام]

أى أن البعض قد رُفِعَ ، والبعض الآخر رُفِعَ عليه ، فمن هو البعض المرفوع ؟ ومن هو البعض المرفوع عليه ؟ . إن كل واحد فيكم مرفوع في جهة مواهبه ، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه ؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المخلوقون ، ولا ينشأ التكاتف تنفلاً ، وإنما ينشأ لحاجة ، فلا بد أن تكون إدارة المصالح في الكون اضطراراً ، وهذه هي هندسة المكون الأعلى سبحانه التي تتجلى في أنك وضعت خريطة لمن دخلوا معك في مرحلة التعليم الابتدائي . ومن ترك منهم الدراسة ومن استمر ليدخل الدراسة الإعدادية . إنك تجدهم أقل ، ومن درس في المرحلة الثانوية أقل ، ومن تعلم التعليم العالي أقل ، ومن نال الدكتوراه أقل .

وهكذا نجد أن البعض يتساقط من التعليم لأن هناك أكثر من مهمة في الكون لا تحتاج إلا إلى حامل الابتدائية فقط ، أو حامل الإعدادية ، أو إلى حامل شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، ولو ظل كل واحد منهم في التعليم العالي ، فلن نجد لتلك المهام أحداً . لذلك جعل الله التكاتف في الكون احتياجاً لا تنفلاً .

والحظوا جيداً : أن الإنسان إذا عضه جوع بطنه أو جوع عياله فهو يقبل أي عمل ، وإن رضى بقدر الله فيما وضعه فيه ، ولم يحقق على سواء فسيقتن هذا العمل ، وسيثبوق فيه وسيرزقه الله الرزق الحلال الطيب . ولذلك قال الإمام علي : قيمة كل امرئ ما يحسنه ، فإن أحسن الإنسان عمله ، فهو إنسان ناجح في الوجود .

وهكذا أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يجعلنا أشخاصاً مكررين ، ولكن جعلنا متفاضلين متفاوتين ، فرق بعضاً على بعض ، وكل منا مرفوع فيما يجيد ، ومرفوع

عليه فيما لايجيد ، حتى يحتاج الإنسان منا إلى غيره ليؤدي له العمل الذي لايجيده
وبذلك يربط العالم ارتباط مصلحة وحاجة لا ارتباط تفضل .

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ (سورة الأنعام)

كان هذا الرفع هو اختبار للبشر فيما أعطاهم الله من المواهب ، ليعلم علم الإلزام
للعبد ؛ فسبحانه يعلم ألا كل ما يصدر عن العبد ، ولكنه يترك للعبد فرصة أن يؤدي
العمل ليكون ملتزماً بما فعل . وتكون حجة على العبد . وحينما يقول الحق :

﴿ لِّيَتْلُوَكُمْ ﴾ فالمقصود ليختبركم اختبار إقرار على نفوسكم ، لا إخباراً له .

﴿ لِّيَتْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (سورة الأنعام)

وسبحانه «سريع العقاب» ، وإياك أن تستبطنى « الآخرة » فالثواب والعقاب سيأتى
بعد أن تنتهى وغوت . وليس للموت سبب ؛ فكل إنسان عرضة لأن يموت ، وبذلك
تكون قيامته قد قامت ، وإن قامت قيامة الإنسان فلن يقوم بأى عمل آخر . إذن
فسبحانه سريع العقاب . ولكن البعض من القوم يغريهم حلم الله ويستبطنون
الآخرة . لذلك يقول أحد العارفين : اجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل
طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن فكل صفة من صفات الحق يتجلى ويظهر أثرها فى المخلوق هبة من الله له ،
فأنت إذا أردت أن تقف ، مثلاً ، لاتعرف ماهى العضلات التى تحركها لتقف ،
ولكنك بمجرد إرادتك أن تقف تقف ، وذلك مظهر لإرادة الله إذا أراد شيئاً أن يقول
له كن فيكون .

ومادنا خلائف فلا بد أن نتكامل ولانتكرر ، بمعنى أن كل واحد فيه موهبة تنقص
من الآخر ، وفى الآخر موهبة تنقص فى غيره ، ليضطر كل مخلوق فى الأرض أن
يتعاون مع آخر ، ليأخذ ثمرة مواهب غيره ، ويعطى هو ثمرة مواهبه . ولا يريد الحق منا
أن نعطي ثمرات المواهب تفضلاً ، وإنما يريد أن يجعلها حاجة . فأنت تحتاج إلى موهبة
من لا موهبة لك فيه ، إنك تحتاج إلى الغير ، وهو كذلك أيضاً يحتاج إلى عملك .

راجع أصله وخرج حديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وحين يستخلفنا الله تبارك وتعالى بهذه الصورة فبعضنا في ظاهر الأمر يكون أعلى من بعض ، لذلك يوضح سبحانه : أنا فضلت بعضكم على بعض ، لكني لم أفضل طائفة لأجعل طائفة مفضلاً عليها ، ولكن كل مفضل في شيء لأن له فيه مواهب ، ويكون مفضلاً عليه في شيء آخر لا مواهب له فيه ، وهكذا يتساوى الناس جميعاً .

إننا جميعاً عيال الله ، وليس أحد منا أولى بالله من أحد ، لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولذلك إن حاولنا إحصاء المواهب في البشر وتوزيعها على الخلق جميعاً لوجدنا أن مجموع كل إنسان يساوي مجموع كل إنسان آخر ، ولكن أنت تأخذ في موهبة ما تفوق ، وفي الموهبة الأخرى لا تمجد نفسك قادراً عليها ، وفي موهبة ثالثة قد تقدر عليها لكنك لا تحبها ، واجمع الدرجات كلها في جميع المواهب ستجد أن كل إنسان يساوي الآخر ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

﴿وَمَوَالِدِي جَعَلْتُ خَلْقِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضُكَ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكَ فِي مَا آتَاكَ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

إذن فكل واحد منا يقدر أن يقول : أنا مرفوع ، ولكن عليه ألا يغتر ، لأنه مرفوع عليه أيضاً . والتوازن يأتي من هذه الناحية ، فلا غرور برفعتك في درجة ، ولا مذلة بانخفاضك في درجة ، لأن هذا مراد الله وذلك مراد له - سبحانه - والذي يحترم قدر الله في توزيع مواهبه على الخلق يعطيه الله خير موهبته ، فلا يتميز ذو موهبة أخرى عليه أبداً .

ولكن أينجح الناس جميعاً في هذا ؟ لا ، فهناك أناس يتساقطون ، وهناك من يرى واحداً أغنى منه وهو فقير ، فيبدأ في الغل والحقد والحسد ، ونقول له : انظر إلى قوتك فقد تكون أقوى منه ، وقد تكون أسعد منه في أمور كثيرة . نخل الموهبة التي أعطاه الله لك ، والموهبة التي أعطاه لغيرك وستجد مجموع كل إنسان يساوي مجموع كل إنسان ، فالذي ينجح في هذه المعادلات التفاضلية يكون له من الله ثواب . فمتجاوز له سبحانه عن بعض سيئاته ، ويغفر له . والذي لا يحترم قدر الله في خلق الله يعاقبه الله ؛ لذلك أوضح سبحانه : أنا أبلوكم وأختبركم ، فمن ينجح

فله غفران ورحمة ، ومن لا ينجح فله عقاب ، ولا تظنوا أن عقابي بعيد ؛ لأن ما بين الإنسان والعقاب أن يموت ، وليس هناك سبب معروف للموت ؛ فمن الممكن أن يموت الإنسان لوقته ، فيبدأ عقابه .

﴿ .. إِنَّ رِثْكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٦٥)

[سورة الأنعام]

وبذلك ختمت سورة الأنعام ، التي استهلها الله بقوله سبحانه : ﴿ الحمد لله ﴾ .

وختمها بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فالحمد لله في الأولى .

والحمد لله في الآخرة .

سورة الاعراف

مكية

قبل أن نبدأ خواطرننا في سورة الأعراف لابد أن نلاحظ ملاحظة دقيقة في كتاب الله ، الله يقول :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

ونقرأ الكلمة الأخيرة في سورة الأنعام « رحيم » ، ونجدها مبنية على الوصل ، لأن آيات القرآن كلها موصولة ، وإن كانت توجد فواصل آيات ، إلا أنها مبنية على الوصل ، ولذلك نجد ﴿ غفور رحيم ﴾ وعليها الضمة ويجوارها ميم صغيرة ؛ لأن التنوين إذا جاء بعده باء ، يقلب التنوين ميماً ، فالميم الصغيرة موجودة على رحيم ، قبل أن تقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، وتصبح القراءة : « غفور رحيم » « بسم الله » .

وكل آيات القرآن تجدها مبنية على الوصل ، فكان القرآن ليس أبعاضاً ، وكان من الممكن أن يجعلها سكوناً ، وأن يجعل كل آية لها وقف ، لا ، إنه سبحانه أراد القرآن موصولاً ، وإن كان في بعض الآيات إقلاب ، وفي بعضها إدغام ، وهذا بغنة ، وهذا بغير غنة ، ويقول الحق :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المص

وفي هذه الآية فصل بين كل حرف ، فنقرأها : « ألف » ثم نسكت لنقرأ « لام » ، ثم نسكت لنقرأ « ميم » ثم نسكت لنقرأ « صاد » . وهنا حروف تحركت القاعدة لحكمة ؛ لأن هذه حروف مقطعة ، مثل « الم » ، حم ، طه ، يس ، ص ، ق ، وكلها مبنية على السكون مما يدل على أن هذه الحروف وإن خيل لك أنها كلمة واحدة ، لكن لكل حرف منها معنى مستقل عند الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألفٌ حرف ، ولامٌ حرف ، وميمٌ حرف » (١) .

والرسول ﷺ أشار إلى أن هذه الحروف بها أمور استقلالية ، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت لها فائدة يحسن السكوت والوقوف عليها ، فهمها من فهمها ، وتعبد بها من تعبد بها ، وكل قارئ للقرآن يأخذ ثوابه بكل حرف ، فلو أن قارئاً قال : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ونطق بعد ذلك بحرف أو بأكثر ، فهو قد أخذ بكل حرف حسنة ، وحين نقرأ بعضاً من فواتح السور ، نجد أن سورة البقرة تبدأ بقوله الحق :

﴿ اَلَمْ يَكُنْ ﴾

(سورة البقرة)

ونقرأ هنا في أول سورة الأعراف :

﴿ اَلْمَصْ ﴾

(سورة الأعراف)

وهي حروف مقطعة . نطقت بالإسكان ، وبالفصل بين كل حرف وحرف . ويلاحظ فيها أيضاً أنها لم تقرأ مسميات ، وإنما قرئت أسماء ، ما معنى مسميات ؟ وما معنى أسماء ؟ . أنت حين تقول : كتب ، لا تقول « كاف » « تاء » « باء » ، بل تنطق مسمى الكاف كَ ، واسمها كاف مفتوحة ، أما مسميها فهو « كَ » . إذن فكل حرف له مسمى ، أي الصوت الذي يقوله الإنسان ، وله اسم ، والامي ينطق المسميات ، وإن لم يعرف أسماءها . أما المتعلم فهو وحده الذي يفهم أنه حين يقول : « كتب » أنها مكونة من كاف مفتوحة ، وتاء مفتوحة ، وباء مفتوحة ، أما الامي فهو لا يعرف هذا التفصيل .

وإذا كان رسول الله قد تلقى ذلك وقال : ألف لام ميم ، وهو أُمي لم يتعلم . فمن قال له انطق مسميات الحروف بهذه الأسماء ؟ .

(١) رواه الترمذي ، والدارمي .

لا بد أنه قد عَلَّمَهَا وتلقاها ، والحق هو القائل :

[سورة القيامة]

﴿ فَإِذَا قُرَأَتْهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ﴾

فالذي سوف تسمعه يا محمد مستقرأه ، ولذلك تجد عجائب ؛ فأنت تجد « أَلَمْ » في أول البقرة ، وفي أول سورة آل عمران ، ولكنك تقرأ الآية الأولى من سورة الفيل :

[سورة الفيل]

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾

ما الفرق بين الألف واللام والميم في أول سورة البقرة ، وسورة آل عمران وغيرهما ، والحروف نفسها في أول سورة الفيل وغيرها كسورة الشرح ؟ أنت تقرأها في أول سورة البقرة وآل عمران أسماء . وتقرأها في أول سورة الفيل مسميات . والذي جعلك تفرق بين هذه وتلك أنك سمعتها تقرأ في أول البقرة وآل عمران هكذا ، وسمعتها تقرأ في أول سورة الفيل هكذا . إذن فالقراءة توقيف ، وليس لأحد أن يجترى ، ليقرأ القرآن دون سماع من معلم . لا ، لا بد أن يسمعه أولاً حتى يعرف كيف يقرأ .

ونقرأ « المتصر » في أول سورة الأعراف ، وهي حروف مقطعة ، ونعرف أن الحروف المقطعة ثمانية وعشرون حرفاً ، ونجد نصفها أربعة عشر حرفاً في فروع السور ، وقد يوجد منها في أول السورة حرف واحد مثل :

[سورة ق]

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) ﴾

وكذلك قوله الحق :

[سورة ص]

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾

وكذلك قوله الحق :



﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (١)

[سورة القلم]

ومرة يأتي من الحروف المقطعة اثنان ، مثل قوله الحق :

﴿ حَمِ ﴾ (١)

[سورة الاحذاف]

ومرة تأتي ثلاثة حروف مقطعة مثل :

﴿ أَلَمْ ﴾ (١)

[سورة البقرة]

ومرة يأتي الحق بأربعة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

﴿ أَلَمْص ﴾ (١)

[سورة الأعراف]

ومرة يأتي بخمسة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

﴿ كَهَيِّصَم ﴾ (١)

[سورة مريم]

وإذا نظرت إلى الأربعة عشر حرفاً وجدتها تمثل نصف الحروف الأبجدية ، وهذا النصف فيه نصف أحكام الحروف ، فبعضها منشور ، أو مهموس ، أو مخفى ، أو مستعل ، ومن كل نوع تجده النصف ، مما يدل على أنها موضوعة بحساب دقيق ، ومع أن توصيف الحروف ، من مستعل ، أو مضخم ، أو مرقق ، أو منشور ، أو مهموس ، هذا التوصيف جاء متأخراً عن نزول القرآن ، ولكن الذى قاله يعلم ما ينتهى إليه خلقه فى هذه الحروف المقطعة وله فى ذلك حكمة ، وكان رسول الله ﷺ أمياً ، ولم يجلس إلى معلم ، فكيف نطق بأسماء الحروف ، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا من تعلم ؟ أفهو إذن قد تلقنها ، وإننا تعلم أن القرآن جاء متحدثاً بالعرب ؛ ليكون معجزة لسيد الخلق ، ولا يتحدى إلا من كان بأسرعاً فى هذه الصنعة . وكان العرب مشهورين بالبلاغة ، والخطابة

والشعر، والسجع وبالأمثال؛ فهم أمة كلام، وفصاحة، وبلاغة، فجاء لهم القرآن من جنس نبوغهم، وحين يتحدى الله العرب بأنه أرسل قرآناً لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، فالمادة الخام - وهي اللغة - واحدة، ومن حروف اللغة نفسها التي برع العرب فيها. وبالكلمات نفسها التي يستعملونها، لكنهم عجزوا أن يأتوا بمثله؛ لأنه جاء من رب قادر، وكلام العرب وبلاغتهم هي من صنعة الإنسان المخلوق العاجز.

وهكذا نعلم سر الحروف المقطعة التي جاءت لتثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن من الملائكة الأعلى لأنه أمي لم يتعلم شيئاً، لكنه عرف أسماء الحروف، ومعرفة أسماء الحروف لا يعرفها - كما قلت - إلا المتعلم، وقد علمه الذي علم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم، ويمكن للعقل البشري أن يحوم حول هذه الآيات، وفي هذه الحروف معان كثيرة، ولجد أن الكثير من المفكرين والمتدبرين لكلام الله وجدوا في مجال جلال وجمال القرآن الكثير، فتجد متصوفاً يقول إن «المصر» جاءت هنا لحكمة، فأنت تنطق أول كلمة ألف وهي الهمزة من الخلق، واللام تنطقها من اللسان، والميم تنطقها من الشفة، وبذلك تستوعب مخارج الحروف من الخلق واللسان والشفة.

قال المتصوف ذلك ليدلك على أن هذه السورة تتكلم في أمور الحياة بدءاً للخلق من آدم. إشارة إلى أولية خلق الإنسان، ووسطاً وهو المعاش، ونهاية وهو الموت والحساب ثم الحياة في الدار الآخرة، وجاءت «الصاد» لأن في هذه السورة قصص أغلب الأنبياء.

هكذا جال هذا المتصوف جولة وطلع بها، أنردها عليه؟ لأنردها بطبيعة الحال، ولكن نقول له: أذلك هو كل علم الله فيها؟ لا؛ لأن علينا أن نتعرف على المعاني التي فيها وأن نأخذها على قدر بشرتنا، ولكن إذا قرأناها على قدر مراد الله فيها فلن نستوعب كل آفاق مرادات الله؛ لأن أفهامنا قاصرة.

ونحن البشر نضع كلمات لا معنى لها لكي تدل على أشياء نخدم الحياة، فمثلاً نجد في الجيوش من يضع «كلمة سر» لكل معسكر فلا يدخل إلا من يعرف

الكلمة . من يعرف «كلمة السر» يمكنه أن يدخل . وكل كلمة سر لها معنى عند واضعها ، وقد يكون ثمنها الحياة عند من يقترب من معسكر الجيش ولا يعرفها .

﴿الْمَص ١﴾

[سورة الأعراف]

ونجد بعد هذه الحروف المقطعة حديثاً عن الكتاب ، فيقول سبحانه :

﴿يَكْتُبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ

لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

وساعة تسمع «أنزل» فافهم أنه جاء من جهة العلو أى أن التشريع من أعلى . وقال بعض العلماء : وهل يوجد فى صدر رسول الله حرج ؟ . لنتبه أنه ساعة يأتي أمر من ربنا ويوضح فيه ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ ، فالله ليس لرسول الله (ﷺ) وإنما النهي للحرج أو الضيق أن يدخل لرسول الله ، وكأنه سبحانه يقول : يا حرج لا تنزل قلب محمد .

لكن بعض العلماء قال : لقد جاء الحق بقوله سبحانه : ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ ؛ لأن الحق يعلم أن محمداً قد يضيّق صدره ببشريته ، ويحزن ؛ لأنهم يقولون عليه ساحر ، وكذاب ، ومجنون . وإذا ما جاء خصمك وقال فيك أوصافاً أنت أعلم منه بعدم وجودها فيك فهو الكاذب ؛ لأنك لم تكذب ولم تسحر ، وتريد هداية القوم ، وقوله سبحانه : ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ قد جاء لأمر من اثنين : إما أن يكون الأمر للحرج ألا يسكن صدر رسول الله ، وإما أن يكون الأمر للرسول طمأنة له وتسكيناً ، أى لا تتضايق لأنه أنزل إليك من إله ، وهل ينزل الله عليك قرآناً ليصبح منهج خلقه وصراطاً مستقيماً لهم ، ثم يسلمك إلى سفاهة هؤلاء ؟ لا ، لا يمكن ، فاطمئن تماماً .

﴿.. فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأعراف]

والإنذار لا يكون إلا لمخالف ، لأن الإنذار يكون إخباراً بشر يتظر من تخاطبه . وهو أيضاً تذكير للمؤمنين مثلما قال من قبل في سورة البقرة : ﴿ هدى للمتقين ﴾ .

وهنا نلاحظ أن الرسائل تقتضى مُرسِلاً أعلى وهو الله ، ومُرسِلاً وهو الرسول ، ومُرسِلاً إليه وهم الأمة ، والمرسل إليه إما أن يستمع ويهتدى وإما لا ، وجاءت الآية لتقول : ﴿ كتاب أنزل ﴾ من الله وهو المرسل ، وإليك ، لأنك رسول والمرسل إليهم هم الأمة ، إما أن تنذرهم إن خالفوا وإما أن تذكرهم وتهديهم وتعينهم أو تبشرهم إن كانوا مؤمنين .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

ومادام العباد سينقسمون أمام صاحب الرسالة والكتاب الذى جاء به إلى من يقبل الهداية ، ومن يحتاج إلى النذارة لذلك يقول لهم :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وينهاهم عن الشرك وعدم الاستهداء أى طلب الهداية فيقول :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وحينما يأتى الحق سبحانه فى مثل هذه الآيات ويقول : « وذكروا » . أو « وذكروا » إنما يلفتنا إلى أن الفطرة المطبوع عليها الإنسان مؤمنة ، والرسالات كلها لم تأت لتنشئ إيماناً جديداً ، وإنما جاءت لتذكر بالعهد الذى أخذ علينا أيام كنا فى عالم الذر ، وقبل أن يكون لنا شهوة اختيار :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا .. (١٧٢)﴾
[سورة الأعراف]

هذا هو الإقرار في عالم الذر ، إذن فحين يقول الحق : ﴿قَبْلَ مَا نَذْكُرُون﴾ فنحن نلتفت إلى ما نسي الآباء أن يبلغوه للأبناء ؛ فالآباء يعلمون الأبناء متطلبات حياتهم ، وكان من الواجب أن يعلموهم مع ذلك قيم هذه الحياة التي تلقوها ؛ لأن آدم وحواء أول ما نزلوا إلى الأرض قال لهما الحق :

﴿فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ .. (١٧٣)﴾ [سورة مائدة]

وهكذا نعلم أن هناك «هدى» قد نزل على آدم ، وكان من الواجب على آدم أن يعلمه للأبناء ، ويعلمه الأبناء للأحفاد ، وكان يجب أن يظل هذا «الهدى» متقولا في سلسلة الحياة كما وصلت كل أفضية الحياة . ويأتي سبحانه لنا يحييات الاتباع .

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ .. (٢)﴾ [سورة الأعراف]

فالمنهج الذي يأتي من الرب الأعلى هو الذي يصلح الحياة ، ولا غضاضة على أحد منكم في أن يتبع ما أنزل إليه من الإله المربى القادر . الذي ربى ، وخلق من عدم ، وأمد من عدم ، وهو المتولى للتربية ، ولا يمكن أن يربى أجسادنا بالطعام والشراب والهواء ولا يربى قيما بالأخلاق . ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ .

وما دام قد أوضح : اتبعوا ما أنزل إليكم من أعلى ، فلا يصح أن تأتي لمن دونه وتأخذ منه ، مثلما يفعل العالم الآن حين يأخذ قوانينه من دون الله ومن هوى البشر . فهذا يحب الرأسمالية فيفرضها بالسيف ، وآخر يحب الاشتراكية فيفرضها بالبشر . بالسيف . وكل واحد يفرض بسيفه القوانين التي تلائمه . وكلها دون منهج الله لأنها أفكار بشر ، وتتصادم بأفكار بشر ، والأولى من هذا وذلك أن تأخذ عما لا نستكشف أن نكون عبيداً له .

﴿ .. وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأنعام]

ونذكر أيها المؤمن أن عزتك في اتباع منهج الله تتجلى في أنك لا تخضع لمساوئك ، وهذه ميزة الدين الذي يجعل الإنسان يحيا في الكون وكرامته محفوظة ، وإن جاءته مسألة فوق أسبابه يقابلها بالمتاح له من الأسباب مؤمناً بأن رب الأسباب سيقدم له العون ، ويقدم الحق له العون فعلاً فيسجد لله شاكراً ، أما الذي ليس له رب فساعة أن تأتي له مسألة فوق أسبابه تضيق حياته عليه وقد يتتحر.

ثم بعد ذلك يبين الحق أن موكب الرسالات سائر من لدن آدم ، وكلما طرأت الغفلة على البشر أرسل الله رسولاً ينبههم . ويوقظ القيم والمناعة الدينية التي توجد في الذات ، بحيث إذا مالت الذات إلى شيء انحرافي تنبه الذات نفسها وتقول : لماذا فعلت هكذا ؟ . وهذه هي النفس اللوامة . فإذا ما سكنت النفس اللوامة واستمر الإنسان الخطأ ، وصارت نفسه أماراة بالسوء طوال الوقت ، فالمجتمع الذي حوله يعلله .

وهذه فائدة التواصي بالحق والصبر ، فكل واحد يوصي في ظرف ، ويوصي في ظرف آخر ؛ فحين تضعف نفسه أمام شهوة يأتي شخص آخر لم يضعف في هذه الشهوة وينصح الإنسان ، ويتبادل الإنسان النصيح مع غيره ، هذا هو معنى التواصي ؛ فالوصية لا تأتي من جماعة تحترف توصية الناس ، بل يكون كل إنسان موصياً فيما هو فيه قوى ، ويوصي فيما هو فيه ضعيف ، فإذا فسد المجتمع ، تتدخل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، ومنهج جديدة ، لكن الله آمن أمة محمد على هذا الأمر فلم يجرى رسول بعده لأننا خير أمة أخرجت للناس . والخبرة تتجلى في أننا نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ، فالتواصي باق إلى أن تقوم الساعة .

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .. ﴾ [سورة آل عمران]

وهذه خصاصة لن تنتهى أبداً ، فإن رأيت منكراً فلا بد من خلية خير تنكره .
وتقول : لا ، وإذا كان الحق قد جعل محمداً خاتم الرسل ، فذلك شهادة لأمرته أنها
أصبحت مأمونة ، وأن المناعة الذاتية فيها لا تمتنع ولا تنقطع ، وكذلك لا تمتنع
منها أبداً المناعة الاجتماعية فلن يأتي رسول بعد سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا

أَوْهَمَ قَائِلُونَ ﴿١﴾

وساعة تسمع «كم» فاعرف أن المسألة خرجت عن العد بحيث تستوجب أن
تستفهم عنها ، وهذا يدل على أمر كثير فوق العدد ، لكن عندما يكون العدد قليلاً
فلا يستفهم عنه ، بل يعرف . والقرية اسم للمكان المعد إعدداً خاصاً لمعيشة
الناس فيه . وهل القرى هي التي تهلك أم يهلك من فيها ؟ . أوضح الحق أنها
تأتي مرة ويراد منها المكان والمكين : أو يكون المراد بالقرية أهلها ، مثال ذلك
قوله الحق في سورة يوسف :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. ﴾ (٨٧)

وبطبيعة الحال لن يسأل إنسان المكان أو المبنى ، بل يسأل أهل القرية ، ولم يقل
الحق : اسأل أهل القرية ؛ لأن المسئول عنه هو أمر بلغ من الصدق أن المكان يشهد
مع المكين ، ومرة أخرى يوضح الحق أنه يدمر القرية بسكانها ومبانيها .

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾ .

وأيهما يأتي أولاً : الإهلاك أم يأتي البأس أولاً فيهلك ؟ . الذي يأتي أولاً هو
البأس فيهلك ، فمظاهر الكونيات في الأحداث لا يأتي أمرها ارتجالاً ، وإنما أمرها
مسبق أولاً ، وكان الحق يقول هنا : وكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ حَكَمْنَا أَنْ تَهْلِكَهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا
ليتحقق ما قلناه أولاً ، أى أن تأتي الأحداث على وفق المرادات ، حتى ولو كان
هناك اختيار للذي يتكلم عنه الحق .

ونعلم أن القرية هي المكان ، وعلى ذلك فليس لها اختيار . وإن كان لمن يتحدث عنه الله حق الاختيار ، فسبحانه يعلم ألا أنه سيفعل ما يتحدث عنه سبحانه . ويأتي به في قرآن يتلى ، ليأتي السلوك موافقاً ما أخبر به الله .

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَبِجَاءِهَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والبأس هو القوة التي لا ترد ولا تقهر ، و « بيئات » أى بالليل ، « أو هم قائلون » أى في القيلولة . ولماذا يأتي البأس في البيات أو في القيلولة ؟ . ونجد في خبر عَمَّنْ أَهْلِكُوا مثل قوم لوط أنه حدث لهم الهلاك بالليل ، وقوم شعيب حدث لهم الهلاك في القيلولة ، والبيات والقيلولة هما وقت الاسترخاء ووقت الراحة ونفاجتهم الأحداث فلا يستطيعون أن يستعدوا .

﴿ فَإِذَا تَزَلَّ إِسْحَاتِهِمْ قَسَاءَ صَبَاحٍ نَّامِدِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى يأتيهم الدمار في وقت هم نائمون فيه ، ولا قوة لهم لمواجهة البأس .

﴿ فَبِجَاءِهَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأعراف)

وإذا قال سبحانه : ﴿ بيئات أو هم قائلون ﴾ فيصح أن لهذه القرية امتدادات ، ووقت القيلولة عند جماعة يختلف عن وقت من يسكن امتداد القرية ، فيكون الوقت عندهم ليلاً ، والقيلولة هي الوقت الذي ينامون فيه ظهراً للاسترخاء والراحة . ولكن كيف استقبلوا ساعة مجيء البأس الذي سيهلكهم ؟ .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَانُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا

إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

بهذا القول اتضح المسألة ، ومن قوله ﴿ دَعَوَاهُمْ ﴾ نفهم أن المسألة دعاء .
ونحن نقول : فلان ادعى دعوى على فلان ، فلما أن يقيم بينة ليثبت دعواه ، وإما
الآن يقيم ..

والدعوى تطلق أيضاً على الدعاء :

﴿ وَاتَّبِعْ دَعْوَهُمْ إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ١٠ سورة يونس)

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِذَا كَانَ دَعْوُهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ بِأَمْسِنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

(سورة الأعراف)

ويشرح ربنا هذا الأمر في آيات كثيرة ، إنه اعتراف منهم باقترافهم الظلم
وقيامهم عليه ، فسبحانه القائل :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

﴿ لَا أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

(سورة الملك)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَنَنْسَأَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَنْسَأَنَّ

الْمُرْسَلِينَ ﴾

والحق يسأل الرسل بعد أن يجمعهم عن مدى تصديق أقوامهم لهم ، والسؤال
إنما يأتي للإقرار ، ومسألة السؤال وردت في القرآن بأساليب ظاهر أمرها أنها
متعارضة ، والحقيقة أن جهاتها منفكة ، وهذا ما جعل خصوم القرآن يدعون أن

القرآن فيه تضارب . فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١١)

(سورة المؤمنون)

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَمِّمْ حَمِيمًا ﴾ (١٢)

(سورة الممارج)

ويقول جل وعلا :

﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ (١٣)

(سورة الرحمن)

ثم يقول هنا :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٤)

(سورة الاعراف)

وهذا ما يجعل بعض المستشرقين يندفعون إلى محاولة إظهار أن القرآن - والعياذ بالله - متناقضات . ونقول لكل منهم : أنت تأخذ القرآن بنبر ملكة البيان في اللغة ، ولو أنك نظرت إلى أن القرآن قد استقبله قوم لسانهم عربي ، وهم باقون على كفرهم فلا يمكن أن يقال إنهم كانوا يجاملون ، ولو أنهم وجدوا هذا التناقض ، أما كانوا يستطيعون أن يردوا دعوى محمد فيقولوا : أليكون القرآن معجزاً وهو متعارض ١٤ لكن الكفار لم يقولوها ، مما يدل على أن ملكاتهم استقبلت القرآن بما يريد قائل القرآن . وفي أعرافنا نورد السؤال مرتين ، فمرة يسأل التلميذ أستاذه ليعلم ، ومرة يسأل الأستاذ تلميذه ليقرر .

إذن فالسؤال يأتي لشيئين اثنين : إما أن تسأل لتتعلم ، وهذا هو الاستفهام ، وإما أن تسأل لتقرر حتى تصبح الحجة ألزم للمسئول ، فإذا كان الله يسأله ، أى يسأله سؤال إقرار ليكون أبلغ فى الاحتجاج عليه ، وبعد ذلك يقولون :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ٥١ ﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا

لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ٥٢ ﴿

(سورة الملك)

وهذا اعتراف وإقرار منهم وهما سيدا الأدلة ، لأن كلام المقابل إنما يكون شهادة ، ولكن كلام المقر هو إقرار واعتراف .

إذن إذا ورد إثبات السؤال فإنه سؤال التقرير من الله لتكون شهادة منهم على أنفسهم ، وهذا دليل أبلغ للحجة وقطع للسبل على الإنكار . فلما أن يقر الإنسان ، وإن لم يقر فستقول أبعاضه ، لأن الإرادة انفكت عنها ، ولم يعد للإنسان قهر عليها ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ٥٣ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

والحق هنا يقول : ﴿ فلنسئلكم الذين أرسل إليهم ولنسئلكم المرسلين ﴾ .

وهو سؤال للإقرار . قال الله عنه :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ ٥٤ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة المائدة)

وحين يسأل الحق المرسلين ، وهم قد أدوا رسالتهم فيكون ذلك تقريباً للمرسل إليهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ ٧

أى سيخبرهم بكل ما عملوا فى لحظة الحساب ؛ لأنه سبحانه لم يغب يوماً عن أى من خلقه ؛ لذلك قال : ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ ، ونعلم أن الخلق متكرر الذوات ، متكرر الأحداث ، متكرر المواقع ، هم ذوات كثيرة ، وكل ذات لها حدث ، وكل ذات لها مكان . فإذا قال الحق للجميع : ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ أى أنه مع الجميع ، ومادام ليس بغائب عن حدث ، ولا عن قاعل حدث ، ولا عن مكان حدث ، وهؤلاء متعددون . إذن هو فى كل زمان وفى كل مكان .

وإن قلت كيف يكون هنا وهناك ؟ أقول : خذ ذلك فى إطار قوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، ومثل هذه المعانى فى الغيبيات لا يمكن أن تحكمها هذه الصور . والأمر سبق أن قلناه حين تحدثنا عن مجيء الله ؛ فله طلاقة القدرة وليس كمثله شيء ، وما كان غائباً فى حدث أو مكان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ٨

فى هذه الآيات نجد الحديث عن الوزن للأعمال ، وهذا كله تأكيد للحجة عليهم ؛ فالله لا يظلم أحداً ، وفى وزن الأعمال إبطال للحجة من الذين يخافون النار ، ولم يزدوا حقوق الله فى الدنيا ، وكل ذلك ليؤكد الحجة ، ويظهر الإنصاف ويقطع العذر ، وهنا قول كريم يقول فيه الحق سبحانه :

هذه الموازين هي عين العدل ، وليست مجرد موازين عادلة ، بل تبلغ دقة موازين اليوم الآخر أنها هي عدل في ذاتها . وهنا يقول الحق : ﴿ وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ . نعم ، الميزان في هذا اليوم حق ودقيق ، ولنذكر أنه قال من قبل :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١٦٠)

(سورة الأنعام)

والميزان الحق هو الذي قامت عليه عدالة الكون كله ، وكل شيء فيه موزون ، وسبحانه هو الذي يضع المقادير على قدر الحكمة والإتقان والدقة التي يؤدي بها كل كائن المطلوب منه ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ (٥٧)

(سورة الرحمن)

ولم نر السماء قدفت وألفت علينا أحداثاً غير متوقعة منها ، فالكون له نظام دقيق . والوزن في يوم القيامة هو مطلق الحق ، ففي هذا اليوم تبطل موازين الأرض التي كانت تعاني إما خللاً في الآلة التي يوزن بها ، وإما خللاً في الوزن ، وإما أن تتأثر بأحداث الكون ، وما يجري فيه من تفاعلات ، أما ميزان السماء فلا دخل لأحد به ولا يتأثر إلا بقيمة ما عمل الإنسان ، وساعة يقول سبحانه : ﴿ وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ .

فكان الميزان في الدنيا يمكن أن يحصل فيه خلل ، وكذلك المملك أيضاً ؛ لأنه سبحانه أعطى أسباباً للملك المناسب لكل إنسان ، فهذا يملك كذا ، والثاني يملك كذا ، والثالث يملك كذا ، وبعد ذلك يتصرف كل إنسان في هذا الملك إن عدلاً ، وإن ظلماً على ضوء الاختيار . لكن حين يأتي اليوم الآخر فلا ملك لأحد :

﴿ لِمَنْ أَمْلَكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

فالأمر حينئذ يكون كله لله وحده ، فإن كان الملك في الدنيا قد استخلف فيه الحق

عباده ، فهذه الولاية تنتهى فى اليوم الآخر : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وسبحانه هو القائل :

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ ﴿١﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ ﴿٣﴾ فَأَمَّهُ مَادِيَةٌ ﴿٤﴾ وَمَا آدَرَاكَ مَاهِيَةً ﴿٥﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة القارعة)

إذن فالميزان يثقل بالحسنات ، ويخف بالسيئات . ونلاحظ أن القسمة العقلية لإيجاد ميزان ووازن وموزون تقتضى ثلاثة أشياء : أن تثقل كفة ، وتخف الأخرى ، وأن يتساويا ، ولكن هذه الحال غير موجودة هنا . ويتحدث الحق عن الذين تخف موازينهم فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿١﴾ ﴾

والسورة السابقة جاء فيها بالحالتين ، وفى هذه السورة أيضاً جاء بالحالتين ، ومن العجيب أن هذا الكلام عن الثقل والخفة وعدم وجود الحالة الثالثة وهى حالة تساوى الكفتين يأتى فى أول سورة الأعراف ، ولكنه - سبحانه - يقول بعد ذلك فى سورة الأعراف : ﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ﴾ .

وهؤلاء هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقد جعل لهم ربنا مكاناً يشبه عرف الفرس ، وعرف الفرس يعتبر أعلى شئ فيه ، فحينما يأتى شعر الفرس يميناً ، وحينما يأتى شعر الفرس يساراً ، وليس هناك جهة أولى بالشعر من الأخرى . وقد أعد الحق لأصحاب الأعراف مكاناً يسمعون فيه أصحاب النار وهم يتادون أصحاب الجنة ، وأصحاب الجنة وهم يتادون أصحاب النار ، وأصحاب الأعراف

يجلسون ؛ لا هم في الجنة ولا هم في النار ، فهم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، وبذلك صحت القسمة العقلية في قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيَمَتِهِمْ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

فلا الحسنات ثقلت ليدخلوا الجنة ، ولا السيئات خفت ليدخلوا النار ، فميزانهم تساوت فيه الكفتان . وقال بعض العلماء عن الميزان : إن هناك ميزاناً بالفعل . وقال البعض إن المراد بالميزان هو العدالة المطلقة التي أقامها العادل الأعلى ، والأعجب أن الحق قال : إن هناك موازين ، فهل لكل واحد ميزان أو لكل عمل من أعمال التكليفات ميزان : ميزان العقائد ، وميزان الأحكام . . الخ ، وهل سيحاسبنا ربنا تبعاً . أو أن هناك موازين متعددة ، بدليل أن سيدنا الإمام علياً عندما سألوه : أيحاسب الله خلقه جميعاً في وقت واحد ؟ فقال : وأى عجب في هذا ؟ اليس هو رازقهم في وقت واحد ؟ إذن فالميزان بالنسبة لله مسألة سهلة جداً . وهيئة فسبحانه لا يتأبى عليه شيء .

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ قَارِئُكِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

(من الآية ٩ سورة الأعراف)

نعم هم قد خسروا أنفسهم فكل منهم كان يأخذ شهوات ويرتكب سيئات يمتنع بها نفسه ، ويأتى اليوم الآخر ليجد نفسه قد خسر كل شيء ، وكما يقول المثل العام : خسر الجلد والسقط . لماذا ؟ تأتي الإجابة من الحق : ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا

مَعِيشٌ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٤٠٥٢﴾

المُمْكِن هو الذي يحتل المكان بدون زحزحة ؛ فيقال : مَكَّنْتُكَ مِنْ كَذَا . أَيْ
أَعْطَيْتُكَ الْمَكَانَ وَلَا يَنْزَعُكَ أَحَدٌ فِيهِ . وَقَدْ مَكَّنَّا سَبْحَانَهُ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا فِيهَا
وَسَائِلَ اسْتِغْثَاءِ الْحَيَاةِ ، وَتَرْفَ الْحَيَاةِ ، وَزِينَةَ الْحَيَاةِ ، وَرِيَاضَ الْحَيَاةِ ، وَلَمْ تَبْخُلِ
الْأَرْضُ حِينَ حَرَّثْنَاهَا ، بَلْ أَخْرَجَتْ لَنَا الزَّرْعَ ، وَلَمْ تَغِبِ الشَّمْسُ عَنَّا بِضَوْئِهَا
وَإِسْجَاعِهَا وَحَرَارَتِهَا . مَا فِي الدُّنْيَا يَزِيدُ مِهْمَتَهُ ، وَلَمْ نُمْكِّنْ فِي الْأَرْضِ بِقُدْرَاتِنَا بَلْ
بِقُدْرَةِ اللَّهِ . وَكَانَ يَجِبُ إِلَّا يَغِيبَ ذَلِكَ عَنَّا أَنْظَارُنَا أَبَدًا . فَلَا أَحَدٌ مِنَّا مُسَبِّطٌ عَلَى
الشَّمْسِ أَوْ الْقَمَرِ أَوْ الرِّيحِ أَوْ الْأَرْضِ ، وَلَكِنَّ الَّذِي خَلَقَهَا وَجَعَلَهَا مُسَخَّرَةً ، هُوَ
رَبُّكَ وَرَبُّهَا ، فَأَنْتَ مُمَكِّنٌ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُسْتَجِيبٌ لَكَ . بِتَسْخِيرِ اللَّهِ لَهُ .

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (٥٢)

(سورة الأعراف)

و « مَعِيشٌ » : جَمْعُ مَعِيشَةٍ ، وَالْمَعِيشَةُ هِيَ الْحَيَاةُ ، فَالْعِيشُ هُوَ مَقْرُونَاتُ
الْحَيَاةِ ، وَلِذَلِكَ سَمَوْا الْخَبْزَ فِي الْقَرْيَةِ عِيشًا لِأَنَّهُمْ عِنْدَهُمْ دَقَّةٌ بِالْفَعْلِ ، لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّهُ
مَقُومٌ أَسَاسٌ فِي الْحَيَاةِ .

وَقَوْلُ الْحَقِّ : ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ دَلٌّ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَشْكُرُ ، وَمِنْ النَّاسِ
مَنْ يَشْكُرُ نِعْمَ اللَّهِ شُكْرًا عَامًّا عَلَى مَجْمُوعِ النِّعَمِ ، أَوْ يَشْكُرُهُ شُكْرًا خَاصًّا عِنْدَ كُلِّ
نِعْمَةٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْكُرُ شُكْرًا خَاصًّا لَا عِنْدَ كُلِّ نِعْمَةٍ ، وَلَكِنْ عِنْدَ جَزْئِيَّاتِ النِّعْمَةِ
الْوَاحِدَةِ ، فَعِنْدَمَا يَبْدَأُ فِي الْأَكْلِ يَقُولُ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ، وَيَقُولُ بَعْدَ
الْأَكْلِ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ » ؛ وَهُنَاكَ مَنْ يَقُولُ عِنْدَ تَنَاوُلِ لِقْمَةٍ وَاحِدَةٍ : « بِسْمِ اللَّهِ » ؛
وَعِنْدَمَا يَمْضِيهَا وَيَلْعَقُهَا يَقُولُ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ » ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَقِفْ فِي حَلْقِهِ ، وَأَيْضًا حِينَ
نَشْرَبُ عَلَيْنَا أَنْ نَشْرَبَ عَلَى ثَلَاثِ دَفْعَاتٍ : أَوَّلُ دَفْعَةٍ نَقُولُ : « بِسْمِ اللَّهِ » . وَتَنْتَهِي
مِنْهَا فَتَقُولُ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ » وَكَذَلِكَ فِي الدَّفْعَةِ الثَّانِيَةِ وَالدَّفْعَةِ الثَّالِثَةِ . وَمَنْ يَفْعَلُ
ذَلِكَ فَلَا تَتَأَنَّى مِنْهُ مَعْصِيَةٌ ، مَا دَامَتْ آثَارُ شَرِبَةِ الْمَاءِ هَذِهِ فِي جَسْمِهِ ؛ لِأَنَّهَا كُلُّهَا « بِسْمِ
اللَّهِ » . فَتَحْرُسُهُ مِنَ الْخَطِيئَةِ ؛ لِأَنَّ النِّعْمَةَ الْوَاحِدَةَ لَوْ اسْتَقْصَيْتَهَا لَوَجَدْتَ فِيهَا نِعْمًا
كَثِيرَةً .

وَأَنْتُمْ حِينَ لَا تَشْكُرُونَ إِنَّمَا تَضِيقُونَ عَلَيْكُمْ أَبْوَابَ النِّعَمِ مِنْ اللَّهِ ؛ لِأَنَّكُمْ

لر شكر نعمه على النعم ل زادت النعم عليكم ، ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ ومن الحمق ألا نشكر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَرِيكَنٌ مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

ومسألة الخلق سبق أن تقدمت في سورة البقرة : خلق آدم ، والشيطان ، والقضية تنوزع على سبع سور ، في سبعة مواضع موجودة في سورة البقرة ، وسورة الأعراف ، وسورة الحج ، وسورة الإسراء ، وسورة الكهف ، وسورة طه ، وسورة ص ، إلا أن القصة في كل موضع لها لقطات متعددة ، فهنا لقطه ، وهناك لقطه ثانية ، وتلك لقطه ثالثة ، وهكذا ؛ لأن هذه نعمة لا بد أن يكررها الله ؛ لتستقر في أذهان عباده ، ولو أنه ذكرها مرة واحدة فقد تُنسى ، لذلك يعيد الله التذكير بها أكثر من مرة . وإذا أراد الله استحضار النعم والتنبية عليها في أشياء ، فهو يكررها كما كررها في استحضار النعم في سورة واحدة في قوله سبحانه : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

إنه يذكر هذه النعم من بدايتها ، فيقول :

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَحَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾

[سورة الرحمن]

وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴿

[سورة الرحمن]

وكل نعمة يقول بعدها: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

وأراد سبحانه بذلك أن يكثر ويردد تكرارها على الأذان لتستقر في القلوب حتى
في الأذان الصماء؛ فمرة يأتي بها في شيء ظاهره أنه ليس نعمة، مثل قوله:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾ [سورة الرحمن]

وجاء الحق بذكر كل ذلك؛ لأنه ساعة يجلى لنا الأمور على حقائقها ونحن في در
التكليف فهذه رحمة ونعمة منه علينا؛ لأن ذلك يدعونا إلى اتقاء المحظورات والبعد
والتحجى عن المخالفات .

ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد، فحين يدخل الابن إلى المدرسة نقول له: إن
قصرت في كذا فسوف ترسب، وأنت بهذا القول ترحمه بالنصيحة، فلم تتركه دون
أن تبصره بعواقب الأمور، وأيضا ساعة ترى شرأ يحيق بالكافرين، فإن هذا الأمر
يسرك، لأنه لو تساوى الكافرون مع المؤمنين لما كان للإيمان فضل أو ميزة، فالعذاب
نقمة على الكافر، ونعمة على المقابل وهو المؤمن.

وقد جاءت قصة خلق آدم بكل جوانبها في القرآن سبع مرات؛ لأنها قصة بدء
الخلق، وهي التي تجيب عن السؤال الذي يبحث عن إجابته الإنسان؛ لأنه تلفت
لبيجد نفسه في كون معدله على أحسن ما يكون. ولم يجيء الكون من بعد
الإنسان، بل طرأ الإنسان على الكون، وظل السؤال وارداً عن كيفية الخلق،

والسؤال مهم أهمية وجود الإنسان في الكون ، فأنت تستقريء أجناساً في الكون ، وكل جنس له مهمة . ومهمته متعلقة بك ، جماد له مهمة ، ونبات له مهمة ، وحيوان له مهمة ، وكلها تصب في خدمتك أنت ؛ لأن الجماد ينفع النبات ، ويتغذى منه لكي يغذى الحيوان ، والحيوان ينفعك ويغذيك ، إذن فكل الأجناس تصب في خدمتك . أما أنت أيها الإنسان فما عملك في هذا الكون ؟ ؛ لذلك كان لابد أن يتعرف الإنسان على مهمته . وأراد الحق سبحانه أن يُعرف الإنسان مهمته ؛ لأنه جل وعلا هو الصانع ، وحين يبحث الإنسان عن صانعه تتجلى له قدرة الله في كل ما صنع . وكان لابد أيضاً أن يستقبل الإنسان خبراً من الخالق . إنه - سبحانه - يُنزل لنا المنهج من السماء ويصاحب هذا المنهج معجزة على يد رسول ، وأنزل الحق عليه المنهج وأوكل له مهمة البلاغ . فالرسول يخبر ، ثم تستدل بالمعجزة على صدق خبره . فكان من اللازم أن نصدق الرسول ، لأنه قادم بآية ومعجزة من الله .

والرسول عليه الصلاة والسلام جاء بالرسالة في سن الأربعين ومعه المنهج المعجزة ، وأبلغنا أنه رسول من الله . وكان لابد أن نبحث لتثبت من صدق البلاغ عن الله بالتعقل في دعواه ؛ فهذا الرسول جاء بعد أربعين سنة من ميلاده ومعه معجزة من جنس ما نبغ فيه قومه ، وليس من جنس ما نبغ فيه هو ، إن معجزته ليست من عنده ، بل هي من عند الله ؛ لأن الرسول جاء بالمعجزة بعد أربعين سنة من ميلاده ، ومن غير المعقول أن تتفجر عبقرية بعد أربعين سنة من الميلاد ؛ لأننا نعلم أن العبقريات تأتي في آخر العقد الثاني وأوائل العقد الثالث من عمر الإنسان ، ونلتفت فنجدته يتكلم كل الكلام البلاغي المعجز . وليس من المعقول أن يأتي بأخبار الكون وهو الأمي الذي مات أبوه وهو في بطن أمه ، ثم ماتت أمه وهو في السادسة ، وكذلك مات جده . ورأى الناس يتساقطون من حوله ، فمن الذي أدراه - إذن - أنه سيمهل ويمد في أجله إلى أن يصل إلى الأربعين ليلفنا بمعجزته ؟ .

ولذلك نجد القرآن يستدل على هذه ، فيقول :

﴿ وَإِذَا نُنَادِيهِمْ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتُمْ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا

أَوْبَدَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَايَ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ
وَإِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

(سورة يونس)

وهكذا تنجلي الحجة القوية من أنه صلى الله عليه وسلم مكلف بالبلاغ بما يوحى إليه ، ويتأكد ذلك مرة ثانية في قوله الحق :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ ۚ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ
قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿١٦﴾

(سورة يونس)

وهنا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تلقى الأمر من الله بأن يبين لهم :
هل علمتم عنى خلال عمري أنى قلت شعراً أو حكماً أو جئتكم بمثل ؟ إذن إن
نحن عقلنا الأمر وتبصرنا وتأملنا دعواه لصدقنا أنه رسول الله ، وأن المعجزة نزلت
عليه من السماء .

﴿ وَنَقَّحْنَاهُ لَكُم مِّنْ صُورَتِهِ ۖ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِ أَتَدْرَأُ لَا ذَمَّ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿١٧﴾

(سورة الاعراف)

وهكذا نرى أن مسألة الخلق والإيجاد ، كان يجب على العقل البشرى أن
يبحث فيها ، ليعلم مهمته في الوجود . وحين يبحث فيها ليعلم مهمته في الوجود
يجب عليه أن يترك كل تخمين وظن ، لأن هذه المسألة لا يمكن أن تأتى فيها
بمقدمات موجودة لتدلنا على كيفية خلقنا ولا لآى شىء ومهمة خلقنا فكيفية
الخلق كانت أمراً غيبياً وليس أمامنا ما نستقرئه لنصل إلى ذلك . وقد حكم الله في
قضية الخلق ، سواء أكان الأمر بالنسبة للسموات والأرض وما بينهما أم للإنسان ،
وقد حكم سبحانه في هاتين القضيتين ، ولا مصدر لعلم الأمر فيهما إلا من الله
سبحانه ، وأغلق باب الاجتهاد فيها ، وكذلك باب التخمين ، وسمى القائمين بكل
بحث بشرى في هذا المجال بأنهم ضالون مضللون ، ولذلك قال ليحكم هذه

القضية ويحسمها ، ويريج العقول من أن تبحث فيها ؛ قال :

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُنْخَذًا
الْمُضِلِّينَ عَصُدًا ۝٥١ ﴾

(سورة الكهف)

فكان الذى يقول : كيف خلقت السموات والأرض وكيف خلق الإنسان هو مضيل ؛ لأن الله لم يشهده ، ولم يكن هذا القائل عضداً لله ولا سنداً ولا شريكاً له .

وقص سبحانه علينا قصة خلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، وهذه الآية تتعرض لخلق الإنسان . ومن يبحث بحثاً استقرائياً ويرجع إلى الوراء فلا بد أن يجد أن الأمر منطقي ؛ لأن العالم يتكاثر ، وتكاثره أمر مرثى ، وليس التكاثر فى البشر فقط ، بل فيمن يخدمون البشر من الأجناس الأخرى ، نجد فيهم ظاهرة التكاثر نباتاً وحيواناً ، وإذا ما نظرنا إلى التعداد من قرن وجدنا العدد يقل عن التعداد الحالى وهو خمسة آلاف مليون ، وكلما عدنا ورجعنا إلى الزمن الماضى يقل التعداد إلى أن نصل إلى اثنين ؛ لأن الخلق إنما يأتى من اثنين ، وحل الله لنا اللغز فقال :

﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ۝٥٢ ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

وهذا كلام صحيح يشبه الإحصاء ويقتنه ؛ لأن العالم يتكاثر مع مرور الزمن مستقبلاً .

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۝٥٣ ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

وهذا كلام صادق . وسبحانه القائل :

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ۝٥٤ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الداريات)

وأبلغنا سبحانه بقصة خلق آدم ، وكيفية خلق حواء فهل أخذ جزءاً من آدم وخلق منه حواء ؟ قد يصح ذلك ، أو خلق منها زوجها ويكون المقصود به أنه خلقها من الجنس نفسه وبالطريقة نفسها ؟ وذلك يصح أيضاً ، فسبحانه قد اكتفى بذكر خلق آدم عن ذكر خلق حواء ، وأعطانا النموذج في واحد ، وقال : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ .

و ﴿ منها ﴾ في هذه الآية يحتمل أن تكون غير تبعية ، مثلها مثل قوله الحق : ﴿ ورسول من أنفسكم ﴾ .

فسبحانه لم يأخذ قطعة من العرب وقال : إنها « محمد » ، بل جعل محمداً صلى الله عليه وسلم من الجنس نفسه خلقاً وإيجاداً ، وسبحانه حين يتكلم هنا يقول للملائكة :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

وهذا هو أول بلاغ ، ثم أتبع ذلك :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ٢٦

(سورة الحجر)

إذن فقبل النفخ في الروح مستوجد تسوية ، فلمن تحدث التسوية ، ومن هو « السوي » ؟ . إن التسوية لآدم . وجاء القول بأنه من صلصال ، ومن حمأ مسنون ، ومن تراب ، ومن طين ؛ إنها مراحل متعددة ، فإن قال سبحانه عن آدم : إنه من تراب ، نقول : نعم ، وإن قال : « من ماء » نقول : نعم ، وإن قال « من طين » فهذا قول حق ؛ لأن الماء حين يختلط بالتراب يصير طيناً . وإن قال : ﴿ من حمأ مسنون ﴾ ، فهذا جائز ، لأن الحمأ طينٌ اختمر فتغيرت رائحته ثم جف وصار صلصالاً . إذن فهي مراحل متعددة للخلق ، ثم قال الحق : ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ .

وهكذا تكتمل فصول الخلق ، ثم قال : ﴿ فقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ .

ويقول العلماء : إن المراد من السجود هو الخضوع والتعظيم ، وليس السجود كما نعرفه ، وقال البعض الآخر : المراد بالسجود هو السجود الذي نعرفه ، وأن آدم كان كالقبلة مثل الكعبة التي نتجه إليها عند الصلاة . ولكن لنا هنا ملاحظة ، ونقول : إننا لا نسجد إلا لله ، وما دام ربنا قد قال : اسجدوا فالسجود هنا هو امتثال لأمر خالق آدم . والنية إذن لم تكن عبادة لآدم ، ولكنها طاعة لأمر الله الأول . والأمر بالسجود لآدم قد أراده الله ؛ لأنه سبحانه سخر الكون كله لخدمة آدم ، ومن الملائكة مميزات أمر ، ومنهم حفظة ، ومنهم من موين يدي الله ، فلم يكن السجود للملائكة خضوعاً من الملائكة لآدم ، بل هو طاعة لأمر الله ، ولذلك سجد من الملائكة الموكلون بالأرض وخدمة الإنسان ، لكن الملائكة المقربون لا يدرون شيئاً عن أمر آدم ، ولذلك يقول الحق لإبليس :

﴿ .. أَتَكْبِرُتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (٧٥)

[سورة صر]

والمقصود بالعالين الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم ، فليس للملائكة العالين عمل مع آدم ؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر لمن لهم عمل مع آدم وذريته والذين يقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴾ (١١)

[سورة الرعد]

وهناك الرقيب ، والعقيد والتعبد . وفي كل ظاهرة من ظواهر الكون هناك ملك مخصوص بها ، ونبيلنا الحق بمسألة الخلق ، والخطاب لنا ﴿ خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ وهذا ترتيب اخباري ، وليس ترتيباً للأحداث ، أو أن الحق سبحانه وتعالى طمر الخلق جميعاً في خلق آدم ، والعلم الحديث يعطينا أيضاً مؤشرات على ذلك ، حين يأتون ببذرة ويكتشفون فيها كل مقومات الثمرة ، وكذلك الحيوان المنوي توجد فيه كل صفات الإنسان . ولذلك نجدهم حين يدرسون قانون الوراثة يقولون : إن حياة كل منا تتسلسل عن آخر ، فأنت من ميكروب أبوك ، وقد نزل من والدك وهو حي ، ولو أنه نزل ميتاً لما اتصل الوجود . ووالدك جاء من ميكروب جده وهو حي ، وعلى ذلك فكل كائن الآن فيه

كائن الآن فيه جزىء حتى من لدن آدم، لم يطرأ عليه موت فى أى حلقة من الحلقات .
إذن فكلنا كنا مطمورين فى جزئيات آدم، وقال ربنا سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ .. (١٧٢) ﴾

[سورة الأعراف]

ونقول : صدق الحق فهو الخالق القادر على أن يخرجنا من ظهر آدم، وهكذا كان الخلق أولاً والتصوير أولاً، وكل ذلك فى ترتيب طبيعى، وهو سبحانه له أمور يديها ولا يتنديها، أى أنه سبحانه يظهرها فقط، فإذا خاطب آدم وخاطب ذريته فكانه يخاطبنا جميعاً .

﴿ وَتَقَدَّرَ خَلْقُكُمْ ثُمَّ صُوِّرَتْكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١٦) ﴾ [سورة الأعراف]

وعرفنا من هم الملائكة من قبل، وماهى علة السجود . ﴿ فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ .

والحق سبحانه يستثنيه بأنه لم يكن من الساجدين . وهذا دليل على أنه دخل فى الأمر بالسجود، ولكن هل إبليس من الملائكة ؟ لا ؛ لأنك إذا جئت فى القرآن ووجدت نصاً يدل بالالتزام، ونصاً يدل بالمطابقة والقطع قاحل نص الالتزام على النص المحكم الذى يقطع بالحكم . وقد قال الحق فى ذلك :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠) ﴾ [سورة الكهف]

وفى هذا إخراج لإبليس من جنس الملائكية، وتقرير أنه من الجن، والجن كالإنس مخلوق على الاختيار، يمكنه أن يعصى يمكنه أن يعطى أو أن يعصى، إذن فقرله الحق : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ .

يعنى ان هذا الفسوق أمر يجوز منه ؛ لكن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإن تساءل أحد : ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضمن الحديث عن الملائكة ؟ . نقول : هب أن فرداً مختاراً من الإنس أو من الجن التزم بمنهج الله كما يريد الله ، فأطاع الله كما يجب ولم يعص . . أليست منزلته مثل الملك بل أكثر من الملك ، لأنه يملك الاختيار . ولذلك كانوا يسمون إبليس طاروس الملائكة ، أى الذى يزهو فى محضر الملائكة لأنه ألزم نفسه بمنهج الله ، وترك اختياره ، وأخذ مرادات الله ففعلها ، فصار لا يعصى الله ما أمره ويفعل ما يؤمر ، وصار يزهو على الملائكة لأنهم مجبورون على الطاعة ، لكنه كان صالحاً لأن يطيع ، وصالحاً - أيضاً - لأن يعصى ، ومع ذلك التزم ، فأخذ منزلة متميزة من بين الملائكة ، وبلغ من تميزه أنه يحضر حضور الملائكة . فلما حضر مع الملائكة جاء البلاغ الأول عن آدم فى أثناء حضوره ، وقال ربنا للملائكة : ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ .

وكان أولى به أن يسارع بالامتثال للأمر بالطاعة ، لكنه استنكف ذلك . وهب أنه دون الملائكة ومادام قد جاء الأمر للأعلى منه وهم الملائكة ، ألم يكن من الأجدر به وهو الأدنى أن يلتزم بالأمر ؟ لكنه لم يفعل . ولأنه من الجن فقد غلبت عليه طبيعة الاختيار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ

خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

ثم قال كما يحكى القرآن الكريم :

﴿ أَتَعْجِدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

وهكذا كان الموقف استكباراً واستعلاءً ، وقوله الحق :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

ونحن حين نحلل هذا النص ، نجد قوله : ﴿ ما منعك ﴾ أى ما حجزك ، وقد أورد القرآن هذه المسألة بأسلوبين ، فقال الحق مرة : ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ . وقال مرة أخرى : ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ . وهذا يعنى أن الأسلوب الأول جاء بـ « لا » النافية ، والأسلوب الثانى جاء على عدم وجود « لا » النافية . وقوله ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كلام سليم واضح ؛ يعنى : ما حجزك عن السجود . لكن ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ هى التى تحتاج لوقفه . لذلك قال العلماء : إن « لا » هنا زائدة ، ومن أحسن الأدب منهم قال : إن « لا » صلة . لكن كلا القولين لا يتفح ولا يناسب ؛ لأن من قال ذلك لم يفتن إلى مادة « منع » ولأى أمر تأتى ، وأنت تقول : « منعت فلاناً أن يفعل » ، كأنه كان يهيم أن يفعل فمنعته .

إذن ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كأنه كان عنده تهيج للسجود ، فجاءت قوة أقوى منه ومنعته وحجزته وحالت بينه وبين أن يسجد . لكن ذلك لم يحدث . وتأتى « منع » للامتناع بأن يمتنع هو عن الفعل وذلك بأن يقنعه غيره بترك السجود فيقتنع ويمتنع ، وهناك فرق بين مشرع ، وممتنع ؛ فممنوع هو فى ﴿ منعك أن تسجد ﴾ ، وممتنع تعنى أنه امتنع من نفسه ولم يمنعه أحد ولكنه أقنعه . وإن كان المنع من الامتناع فالأسلوب قد جاء ليؤكد المعنى الفعلى وهو المنع عن السجود . وهذا هو السبب فى وجود التكرار فى القرآن . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وسبحانه قد أمر الملائكة وكان موجوداً معهم إما بطريق العلو ، لأنه فاق الملائكة وأطاع الله وهو مختار فكانت منزلته عالية ، وإما بطريق الدنو ؛ لأن الملائكة أرفع من إبليس بأصل الخلقة والجبله ، وعلى أى وضع من العلو والدنو كان على إبليس أن يسجد ، ولكنه قال فى الرد على ربه :

﴿ .. أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (١٦) [سورة الأعراف]

وسبحانه لم يسأل إبليس عن المقارنة بينه وبين آدم ، ولكن سألوه وهو يعلم ألا أن إبليس قد امتنع باقتناع لا يقهر ، ولذلك قال إبليس : أنا خير منه ، فكان المسألة دارت في ذهنه لوجود حشية لعدم السجود . ولا يصح في عرفه الإيلسي أن يسجد الأعلى للأدنى ، فما دام إبليس يعتقد أنه خير من آدم ويظن أنه أعلى منه ، فلا يصح أن يسجد له . وأعلى منه لماذا ؟ لأنه قال : ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فكان النار لها علو ، وهو في ذلك مخطيء تماماً لأن الأجناس حين تختلف ؛ فذلك لأن لكل جنس دوره ، ولا يوجد جنس أفضل من جنس ، النار لها مهمة ، والطين له مهمة ، والنار لا تقدر أن تؤدي مهمة الطين ، فلا يمكن أن نزرع في النار .

إذن فالخيرية تنأت في الأمرين معاً ما دام كل منهما يؤدي مهمته ، ولذلك لا تقل : إن هذا خير من هذا ، إنما قل : عمل هذا أحسن من عمل هذا ، فكل شيء في الوجود حين يوضع في منزلته المرادة منه يكون خيراً ، ولذلك أقول : لا تقل عن عود الحديد إنه عود مستقيم ، وثقل عن الخطاف : إن هذا عود أعوج ، لأن مهمة الخطاف تقتضي أن يكون أعوج ، وعوجه هو الذي جعله يؤدي مهمته ، لأن الخيرية إنما تنأت في مساوي المهمة ، ولكن إبليس قال :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ .. ﴾ (١٧) [الأعراف]

فألهذا للمعاندة ، للكبر ، للكفر حين أعرض عن أمر الله وأراد أن يعدل مراد الله في أمره ، وكأنه يخطيء الحق في أمره ، ويرد الأمر على الأمر . فما كان جزاء الحق سبحانه وتعالى لإبليس إلا أن قال له :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ

إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (١٨)

والهبوط يستدعى الانتقال من منزلة عالية إلى منزلة أقل ، وهذا ما جعل العلماء يقولون إن الجنة التي وصفها الله بأنها عالية هي في السماء ، ونقول : لا ، فالهبوط لا يستدعى أن يكون هبوطاً مكانياً ، بل قد يكون هبوط مكانة ، وهناك فرق بين هبوط المكان ، وهبوط المكانة ، وقد قال الحق لنوح عليه السلام :

﴿ قِيلَ يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ۚ ۝ (٤٨) ﴾

[سورة هود]

أى اهبط من السفينة ، إذن مادة الهبوط لا تفيد النزول من مكان أعلى إلى مكان أدنى ، إنما نقول من مكان أو من مكانة . ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ .

وهذا تنزيل من المكانة لأنه لم يعد أهلاً لأن يكون في محضر الملائكة ؛ فقد كان في محضر الملائكة ؛ لأنه ألزم نفسه بالطاعة ، وهو مخلوق على أن يكون مختاراً أن يطيع أو أن يعصى ، فلما تخلت عنه هذه الصفة لم يعد أهلاً لأن يكون في هذا المقام ، وذلك أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ ۚ ۝ (١٣) ﴾ [سورة الأعراف]

أى ما ينبغى لك أن تتكبر فيها .

إن امتناعك عن أمر من المعبود وقد وجهه لك وأنت العابد هولون من الكبرياء على الأمر ، والملائكة جماعة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فمادمت أنت أهل استكبار واستعلاء على هذه المكانة فلست أهلاً لها ، فكأن العمل هو الذى أهله أن يكون في العلو ، فلما زايله وفارقه كان أهلاً لأن يكون في الدنو ، وهكذا لم يكن الأمر متعلقاً بالذاتية ، وفي هذا هبوط لقيمة كلامه فى أنه من نار وآدم من طين ؛ لأن المقياس الذى تروى به الأمور هو مقياس أداء العمل ، ومن حكمة الحق

أن الجن يأخذ صورة القدرة على أشياء لا يقدر عليها الإنسان ، مثل السرعة ، واختراق الحواجز ، والتغلب على بعض الأسباب ، فقد ينفذ الجن من الجدار أو من الجسم ، وكما قال الرسول ﷺ :

« إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم »^(١).

وهو ذلك مثل الميكروب ، لأن هذه طبيعة النار ، وهي المادة التي خُلِق منها . وهي تتعدى الحواجز . والجن قد بلغ من اللطف والشفافية أنه يقدر على أن ينفذ من أى شئ ، لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح للجن : لا تعتقد أن عنصرتك هي التي أعطتك هذا التميز ، وإنما هي إرادة المُعْتَصِر ، بدليل أنه جعلك أدنى من مكانة الإنسان ، إنه - سبحانه - يجعل إنسياً مثل سيدنا سليمان مخدوماً لك أيها الجنى ، إنه يسخرك ويجعلك تخدمه . وأنه فى مجلس سليمان ، جعل الذى عنده علم من الكتاب ، يأتى بقوة أعلى من قوة « عفريت » من الجن . فالحق هو القائل :

﴿ قَالَ عَفْرَيْتٌ مِّنَ الْجِنِّ .. (٢٩) ﴾

[سورة النمل]

وهذا يدل على أن هناك أذكباء وأغبياء فى عالم الجن أيضاً . وجاء الذى عنده علم من الكتاب فتسامى فوق عفريت الجن فى الزمن ، فقد قال هذا العفريت :

﴿ أَنَا وَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ .. (٢٩) ﴾

[سورة النمل]

والمقام هو الفترة الزمنية التي قد يقعد بها سليمان فى مجلسه ، فماذا قال الذى عنده علم من الكتاب - وهو إنسان - ؟

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٣٠) ﴾

[سورة النمل]

(١) رواه البخاري فى الأدب ، ومسلم فى السلام ، وأبو داود فى السنة ، وابن ماجة فى الصوم ، ورواه أحمد ١٥٦ / ٣ ، ٢٨٥ ، ٣٣٧ .

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿ ١٠٦٧ ﴾

كانه سيأتى بعرش بلقيس قبل أن يته سليمان من ردّ طرفه الذى أرسله ليبصر به شيئاً ، إن سليمان رأى العرش بين يديه ، ولذلك نجد عبارة القرآن معبرة :

﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة النمل)

كان المسألة لا تتحمل . بل تم تنفيذها فوراً ، إذن فالحق يوضح للمخلوقين من العناصر : إياكم أن تفهموا أن تميزكم بعناصركم ، إنني أقدر بطلاقة قدرتى أن أجعل الأدنى يتحكم فى الأعلى ؛ لأنها إرادة من غنصر العناصر .

﴿ قَالَ فَاقْبِضْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ

الصَّغِيرِينَ ﴾ ﴿ ١١٤ ﴾

(سورة الأعراف)

وكلمة ﴿ فاقبض ﴾ تشير وتدل على أن الهبوط أمر معنوى ، أى أنك لست أهلاً لهذه المرتبة ولا لتلك المكانة . هذا ما تدل عليه كلمة ﴿ فاقبض ﴾ ، ثم جاء الأمر بعد ذلك بالخروج من المكان .

والصغار هو الذل والهوان ؛ لأنه قابل الأمر باستكبار ، فلا بد أن يجازى بالصغار . وبذلك يكون قد عومل بضد مقصده ، والمعاملة بضد المقصد لون من التأديب والتعذيب والتعليم ؛ مثلما يقرر الشرع أن الذى يقتل قتيلاً يحرم من ميراثه ، لأنه قد قتله ليمجّل الإرث منه ، ولذلك شاء الله أن يحرمه من الميراث ؛ فبارتكابه القتل صار محجوباً عن الميراث . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿ ١١٤ ﴾

ومعنى ﴿ أنظرني ﴾ أمهلنى أى لا تمننى بسرعة ، ولا تجعل أجلى قريباً ، بدليل قوله سبحانه :

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ (١٥)

فالإنتظار طلب الإمهال ، وعدم التعجيل بالموت ، وقد طلبه إبليس لكي يشفى غلبته من بنى آدم وادم ؛ لأنه جاء له بالصغار والذلة والطرد والهبوط ، ولذلك أصر على أن يجتهد في أن يغري أولاد آدم ليكونوا عاصين أيضاً . وكان إبليس في هذا العناب أراد أن يتخذ من الموت وأن يبقى حياً إلى يوم البعث الذي يبعث فيه كل من مات . وكأنه يريد أن يقفز على قول الحق :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

فأوضح الحق : أن تأجيل موتك هو إلى يوم الوقت المعلوم لنا وغير المعلوم لك ؛ لأن الأجل لو عرف فقد يعصى من يعلمه مدة طويلة ثم يقوم بالعمل الصالح قبل ميعاد الأجل ، ولكن الله أراد بإيهام زمان الموت أن بشيع زمانه في كل وقت . وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ (٢٨)

(سورة الحجر)

والوقت المعلوم هو النسخة الأولى :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَمِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (٢٨)

(سورة الزمر)

وكان إبليس كان يريد أن يفر من الموت ليصل إلى النسخة الثانية ، لكن ربنا أوضح أنه باق إلى وقت معلوم ، وآخر الوقت المعلوم هذا لا بد أن يكون قبل النسخة الأولى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ

الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾

والإغواء . إغراء بالمعصية ، ومن الإغواء الغي وهو : الإهلاك ، يقول الحق سبحانه وتعالى :

[سورة مريم]

﴿.. فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٩٩﴾

وحين نقرأ ﴿فِيمَا أُغْوَيْتَنِي﴾ أي فبإغوائك يا الله لي سأفعل كذا وكذا ، وبذلك يكون قد نسب الإغواء لله . لكن هل يغوي ربنا أو يهدي ؟ ، إن الله يهدي دلالة وتمكيناً ، وسبق أن تكلمنا كثيراً عن هداية الدلالة ودلالة التمكين ، وسبحانه خلق الشيطان مختاراً ، ولم يخلقه مرغماً ومسخرأ كالملائكة ، ولأنه قد خلق مختاراً فقد أعطاه فرصة أن يطيع وأن يعصى ، وكأن الشيطان بقوله هذا يطمئن لو أنه قد خلق مقهوراً . ويقول إن الله هو الذي أعطاه سبب العصيان . ولم يلتفت إلى أن الاختيار إنما هو فرصة لا للغواية فقط ، ولكنه فرصة للهداية أيضاً . وأنت أيها الشيطان الذي اخترت الغواية .

إذن فقول الشيطان : ﴿فِيمَا أُغْوَيْتَنِي﴾ إنما يريد به الشيطان : أن يدخل بمعصيته على الله ، ونقول له : لا ، إن ربنا لم يغو ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يغوي وإنما يهدي ؛ لأن الله لو خلقه مرغماً مقهوراً ما أعطاه فرصة أن يختار كذا أو يختار كذا ؛ فقد خلقه على هيئة «افعل» و«لا تفعل» ، واختار هو ألا يفعل إلا المعصية .

[سورة الأعراف]

﴿قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾

والمفهوم من العبارة أنهم بنو آدم ، والقعود لون من ألوان حركة الجسم الفاعل ؛ لأن المتحرك إما أن يكون قائماً ، وإما أن يكون قاعداً ، وإما أن يكون

مضجعاً نائماً. وأريح الحالات أن يكون نائماً مضجعاً ؛ لأن الجسم في هذه الحالة يكون مستريحاً بفعل الجاذبية الأرضية ، وحين يكون الإنسان قاعداً تقاومه الجاذبية قليلاً ، وحين يكون واقفاً فهو يحمل ثقل جسمه على قدميه ، ولذلك نقول لمن وقف طويلاً على قدميه : « اقعد حتى ترتاح » ولو قعد وكان متعباً فيقال له : « مضجع قليلاً لترتاح ».

ولماذا اختار الشيطان أن يقول : ﴿ لَا قُعْدَنُ ﴾ ؟ حتى يكون مضطئاً ، فقد يشعب من الرقعة ، أيضاً وهو في حالة القعود يكون متيقظاً ، والحق يقول :

﴿ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ ۝٥٠ ﴾

[سورة النوبة]

ولم يقل : « قفوا » حتى لا يرهق الناس أنفسهم بالوقوف الطويل ، ولكن ساعة يواجهون الأمر فعليهم بالتهوض ، والقعود أقرب إلى الوقوف ، لأن الاضجع أقرب إلى التراخي والنوم ، وقد اختار الشيطان الموقف الذي يحفظ له قوته ، ويبقى له استباحه : ﴿ لَا قُعْدَنُ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ ۚ ۝٥١ ﴾ .

ومادام الشيطان سيفوى ، وسيضل الغير ، فسيختار للغواية من يكون في طريق الهداية . إنما من غوى باختياريه وضل بطبيعته فالشيطان قد استراح من ناحيته ولا يريد ، وتلك ظاهرة تحدث للناس حينما يجدون ويجتهدون في الطاعة ؛ فالشباب الطائعين الملتزم يحاول الشيطان أن يخايله ليصرفه عن الصلاة والطاعة ؛ لأن الشيطان يتلصص على دين الإنسان ، فهو كاللص ، واللص لا يحوم حول بيت خرب . إنما يحوم اللص حول بيت عامر بالخير .

إننا نلاحظ هذه المسألة في كل الناس حينما يأتون للصلاة فيقول الواحد منهم : حينما أصلى يأتى له الوسواس ، ويشككنى في الصلاة ، نقول له : نعم هذا صحيح ، وحين يأتى لك هذا الوسواس فاعتبره ظاهرة صحية في الإيمان ؛ لأن معناه أن الشيطان عارف أن عملك مقبول ، ولذلك يحاول أن يفسد عليك الطاعة ؛ لأنك لو كنت فاسداً من البداية ، ووقفت للصلاة دون وضوء لما جاءك الوسواس . لكن الشيطان يريد أن يفسد عليك الطاعة ولذلك يقول الله :

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ ۝٢٠﴾ [سورة الأعراف]

لماذا ؟ لأن الله خلقك وخلقك ، وإن كنت لا تستطيع دفعه لأنه يجري منك مجرى الدم في العروق وينفذ إليك بالخواطر والمواجيد التي لا تضبطها ، ويأتي إليك بمهام الأشياء في وقت الصلاة ؛ فتذكر الأشياء التي لم تكن تتذكرها ، ويأتي لك بأعقد المسائل وأنت تصلي ؛ وكل ذلك لأنه قال : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، ولم يقل إنه سيقعد على الطريق المنحرف ، ولن يجلس الشيطان في مجلس خمر ، لكنه يقعد على أبواب المساجد أو في المساجد ليفسد للناس أعمالهم الصالحة . فماذا نفعل في هذه الحال ؟ . يدُلُّنا الحق سبحانه أن نستعيد : ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾

فمعنى ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ أي فالتجئ منه إلى الله ؛ لأن الله الذي أعطاه الخاصية في أن يتغلغل فيك ، وفي دمك ، وفي خواطرك ، هو القادر على منعه ، وحين تقول : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» بفزع والتجاء إليه سبحانه - فبرأه - جل شأنه - يتفذك منه . وإن كنت تقرأ القرآن ثم جاء لك الخاطر من الشيطان فقل : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فإذا قلت هذا فكانك نبهته إلى أنك أدركت من أين جاءت هذه التزعة : مرة واثنين وثلاثاً ، فيقول الشيطان لنفسه : إن هذا المؤمن حاذق فطن وحذر لا أستطيع غوايته ، ولأبحث عن غيره .

ولذلك رأينا الإمام أبا حنيفة ، وقد شهر عنه الفتيا ، وذهب إليه سائل يقول : ضاع مني مال في أرض كنت قد دفنته فيها ، ولا أعرف الآن مكانه . دلني عليه أيها الشيخ ؟ . وبطبيعة الحال كان هذا السؤال في غير العلم ، فقال أبو حنيفة : يا بني ليس في ذلك شيء من العلم ، ولكنني احتال لك ؛ إذا جاء الليل فقم بين يدي ربك مصلياً هذه الليلة ، نعل الله سبحانه وتعالى يبعث لك جنداً من جنوده يقول لك عن مكان مالك .

وبينما أبو حنيفة يؤدي صلاة لفجر ، وإذا بالرجل يقبل ضاحكاً مبتسماً قائلاً : يا إمام لقد وجدت المال ، فضحك أبو حنيفة ، وقال : والله لقد علمت أن

الشیطان لا یدعک تتم لیلک مع ربک ، و سیأتی لیبخبرک ، فهلاً أتممتها شکراً لله ،
هیا قم إلی الصلاة .

إذن فقد عرف الشیطان کیف یقعد : و کیف یقسم ، لأنه فی آیه أخرى یقول :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا غَوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٢)

(سورة ص)

لقد استطاع أن یأتی بالقسم الذی یعینه علی مهمته ؛ فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ
لَا غَوِيَنَّهُمْ ﴾ أى بامتناعك عن خلقتك وعدم حاجتك إلیهم فأنت الغالب الذی
لا یقهر ؛ لأنك إن أردتهم ما استطعت أن تأخذهم ، لكنك شئت لكل إنسان أن
یختار :

﴿ قَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الکهف)

فأقسم ، ومن هذا الباب یدخل الشیطان علی الإنسان : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَا غَوِيَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴾ .

واستدرك علی نفسه أيضاً وقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٨٣)

(سورة ص)

لأن الذی یریده الله مهدياً لا یستطیع الشیطان أن یغويه ؛ لأنه لا یناهض ربنا
ولا یقاومه ، إنما یناهض خلق الله ، ولا یدخل مع ربنا فی معركة ، إنما یدخل مع
خلقه فی معركة لیس له فیها حجة ولا قوة ؛ لأن الذی یغلب فی المعارك إما أن
یرغمك علی الفعل ، وإما أن یقنعك لتفعل أنت بدون إرغام . وهل یملك إبلیس
واحدة من هذه ؟ لا ، ولذلك سیأتی فی الآخرة یقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهیم)

والسلطان قسمان : سلطان يقهر ، وسلطان يقنع . والشيطان يدخل على الإنسان من هذه الأبواب .

ويقول الحق بعد ذلك على لسان إبليس :

﴿ ثُمَّ لَا يَنْتَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ
وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (١٧)

فالذي بين اليد هو ما كان إلى الأمام ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ أى من الوراء ،
﴿ وعن أيماهم ﴾ أى من جهة اليمين ، و ﴿ عن شمائلهم ﴾ أى من جهة اليسار .
والشيء الذى أمام العالم كله ، وتسير إليه جميعاً هو ﴿ الدار الآخرة ﴾ وحين يأتى
الشيطان من الأمام فهو يشككهم فى حكاية الآخرة ويشككهم فى البعث . ويحاول
أن يجعل الإنسان غير مقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بقاء الله ،
ويشككون فى وجود دار أخرى سبجأزى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .
وقد حدث ذلك ووجدنا من يقول القرآن بلسان حاله :

﴿ أَوْذَاهُمْ شَرًّا وَكَاثُرًا أَبَا وَعَظْمًا أَوْنَا لَمَجْعُونَ ﴿ ١١ ﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿ ١٧ ﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ولذلك يعرض الحق قضية البعث عرضاً لا يجعل للشيطان منفذاً فيها ، فيوضح
لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خلقنا أولاً ، لذلك لن يعجز عن إعادةنا ، والإعادة
بالتأكيد أهون من البداية ، لأنه سيعيدهم من موجود ، لكن البداية كانت من
عدم ، إنه - سبحانه - عندما يبين للناس أن الإعادة أهون من البداية فهو يخاطبهم
بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره ، وإلا فالله - جل شأنه - تستوى لدى طلاقة قدرته
كل الأعمال فليس لديه شيء سهل وهين وآخر صعب وشاق ويبلغنا - سبحانه -
بتمام إحاطة علمه فيقول :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِظٌ ﴿ ١١ ﴾ ﴾

(سورة ق)

أى أن لكل واحد كتاباً مكتوباً فيه كل عناصره وأجزائه .

والشيطان - أيضاً - يأتى من الخلف ، وخلف كل واحد منا ذريته ، يخاف ضيعتهم ، فيوسوس الشيطان للبعض بالسرقه أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء ، وفساد أناس كثيرين يأتى من هذه الناحية ، ومثل هذا الفساد يأتى حين يبلغ بعض الناس منصباً كبيراً ، وقد كبرت سنه ، ويقبل على الله بشر ، ويظن أنه يترك عياله بخير . لكن إن كنت تخاف عليهم حقاً فأمن عليهم فى يد ربهم ، ولا تؤمن حياتهم فى جهة ثانية .

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرْكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً يَضَعَفُوا عَلَى اللَّهِ قَلْبَهُمْ وَهُمْ قَلْبُورٌ
قَوْلًا سِدِيدًا ۝﴾

(سورة النساء)

ولماذا لم يأت الشيطان للإنسان من فوق ومن تحت لأن الفوقية هى الجهة التى يلجأ إليها مستغيثاً ومستجيراً بربه ، والتحتية هى جهة العبودية الخاصة - فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، فهو فى هاتين الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾ . ويقول تعالى :

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ
أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝﴾

(سورة الاعراف)

ويأتى الشيطان من اليمين ليزهد الناس ويصرفهم عن عمل الحسن والطاعة . واليمين رمز العمل الحسن ؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال ، ويأتى عن شمائلهم ليغريهم بشهوات المعصية . ونلاحظ أن الحق استخدم لفظ ﴿عن أيمنهم﴾ و﴿عن شمائلهم﴾ ولم يأت بـ «على» لأن «على» فيها استعلاء ، والشيطان ليس له استعلاء أبداً ؛ لأنه لا يملك قوة القهر فيمنع ، ولا قوة الحجة فيقنع . ولأن أكثر الناس لا تتذكر شكر المنعم عليهم ، فيجيد الشيطان غوايتهم . ولذلك يقول الحق تذكيراً للآية :

[سورة الأعراف]

﴿.. وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)﴾

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)﴾

لقد بلغ الغرور بالشیطان أن تخيل أنه ذكي ، فشرح لنا خطته ومنهجه فدلل لنا على أن حكم الله فيه قد نفذ بأن جعل كيده ضعيفاً ، فسبحانه القائل :

[سورة النساء]

﴿.. إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾

لقد نبهنا الحق لكيد الشيطان وغروره ، والناصح هو من يحتاط ، ويأخذ المناعة ضد التزغ الشيطاني . وهنا يقول الحق :

[سورة الأعراف]

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا .. (١٨)﴾

وقال له الحق من قبل :

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٦)﴾

[سورة الأعراف]

إذن فهناك هبوط وخروج بصغار ومجاورة المكان ، ثم هنا أيضاً تأكيد بأنه في حالة الخروج سيكون مصاحباً للذم والصغار والطرود واللعن . ويقول الحق مسبحاته :

﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٨) [سورة الأعراف]

وفى هذا الخبر لمن يتبعون الشيطان بأنهم أهل لجحيم ، ولم يعد لها سبحانه تسع الكافرين فقط ، لكنه أعدّها على أساس أن كل الخلق قد يكفرون به سبحانه ، كما أعدّ الجنة على أساس أن الخلق جميعاً يؤمنون به ؛ فليس عنده ضيق مكان ، وإن آمن الخلق جميعاً ؛ فإنه - جل شأنه - قد أعد الجنة لاستقبالهم جميعاً ، وإن كفروا جميعاً فقد أعدّ النار لهم جميعاً ؛ تأكيداً لقوله الحق :

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الزَّادُونَ ﴾ (١٩) الَّذِينَ يَزِيدُونَ الْفَرْدُوسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ (٢٠)

[سورة المؤمنون]

وقوله الحق :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴾ (٩٨) [سورة الأنبياء]

وبهذا نكون قد شرحنّا مسألة إبليس الذي امتنع عن طاعة أمر الأمر الأعلى بالسجود لآدم.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَتَذَكَّرُ أَلَمْ أُسْكِنُ أُنْتِ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩)

ويعاود القرآن الحديث عن آدم بعد أن تناول مسألة إبليس فيقول : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ .

كثير من العلماء تواتر نقل العلم عندهم إلى أن الجنة هي جنة الآخرة والخلود ، واعترض البعض متسائلين : كيف يدخل إبليس جنة الخلود ؟ . وكيف يخرج منها ؟ . وهل الذي يدخل الجنة يخرج منها ؟ . وهؤلاء العلماء الذين قالوا : إن الجنة هي جنة الآخرة ، لم يفتنوا إلى مدلول كلمة « جنة » ؛ فساعة تطلق كلمة جنة ، تأخذ ما يسمى في اللغة « غلبة الاستعمال » ، أى تأخذ اللفظ من معانيه المتعددة إلى معنى واحد يستقل به عرفاً ، بحيث إذا سُمع انصرف الذهن إليه ، فأنت إذا سمعت يا مؤمن كلمة الجنة ينصرف ذهنك إلى جنة الآخرة ؛ لأنها هي التي تُعتبر جنة بحق ، لكن حينما يأتي اللفظ في القرآن والمنكلم هو الله ، فلا بد أولاً أن تدرس اللفظ واستعمالاته في اللغة ؛ لأن القرآن جاء بلسان عربى مبين ، فمن الجائز أن يوجد اللفظ في اللغة وله معاني متعددة . وعندما يتعلق الأمر بالدين والفقهِ فإننا نأخذ اللفظ من معناه اللغوى ، ونجعله ينصرف إلى المعنى الشرعى الاصطلاحي .

مثال ذلك كلمة « الحج » ، فأنت ساعة تسمع كلمة « الحج » تقول : هو قصد بيت الله الحرام للنسك والعبادة في أشهر معلومة ، على الرغم من أن « الحج » في اللغة هو القصد ، فإذا قصدت أى شيء تقول : حججت إليه . فلما جاء الإسلام أخذ هذا اللفظ من اللغة واستعمله في الحج بالمعنى الشرعى ، وهو قصد البيت الحرام للنسك ، وكذلك كلمة « الصلاة » إنها في اللغة الدعاء ، فقوله تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أى ادع لهم ، ولما جاء الإسلام أخذ الكلمة من اللغة، وجعلها تطلق على معنى اصطلاحى جديد بحيث إذا أطلق انصرفت إليه ، وهى الأقوال والأفعال المخصصة ، المبدوءة بالتكبير المختومة بالتسليم بشرائطها الخاصة .

ولكن هل معنى أننا أخذنا اللفظ من اللغة وجعل له الشرع معنى اصطلاحياً أن هذا يكون تركاً لمعناه الأصيلي ؟ . لا ؛ لأنك إن أردت أن تستعمله في معناه الأصيلي فلك ذلك ، ولكنك تحتاج إلى قرينة تدل على أنك لا تريد الصلاة الشرعية لأن كلمة « صلاة » أصبحت هى الصلوات الخمس المعروفة لنا ، مع أن معناها الأصيلي كان الدعاء ، وهذا هو ما جعل العلماء يذهبون إلى أن كلمة « الجنة » ساعة تطلق ينصرف الذهن إلى جنة الخلود . ونقول : المعنى اللغوى للجنة أنها المكان الذى فيه أشجار غزيرة ومتنوعة ، أما غزارتها وعلوها فتستر

الإنسان وتُجَنِّه عن كل ما حوله ، وأما ما فيها من الثمار والضروريات والكماليات فلأنها تستر الإنسان عن خارجها ويكتفى بأن يكون فيها ، والقرآن لم يجر بالجنة بمعنى جنة الخلد فقط ، بل يقول أيضاً :

﴿ أَيُودُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ جَنِّبَيْ وَأَعْنَابٍ ﴾

(من الآية ٢٦٦ سورة البقرة)

وكذلك يقول سبحانه :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِّثْلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِّنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بَخَلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ۝٢٦٧ ﴾

(سورة الكهف)

وقوله الحق :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسِيٍّ فِي مَكْنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلٌّ مِّن رِّزْقِ رَبِّكَ وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَةً طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ ۝١٥ ﴾

(سورة صبا)

وأقول : إن علينا أن نبحت في آفاق مرادات الله حين يُنزلنا من لدنه ويقفنا على المعنى المراد ، إننا نعلم أن أول بلاغ نزل من الله بخصوص آدم أخبرنا فيه أنه قد خلق آدم خليفة في الأرض :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

إذن فآدم مخلوق للأرض ، ولا تظلموا آدم وتقولوا إنه مخلوق للجنة ، وكنا سنعيش فيها لكنه عصي وأنزلنا إلى الأرض . لذلك نقول : لا ، وعلينا أن نتذكر أن أول بلاغ من الله عن آدم أنه جعله في الأرض خليفة . والذي كان يجب أن نسال

عنه : مادام قد جعله الله خليفة في الأرض فما الذي جاء بحكاية الجنة هذه ؟

لقد خلق الله آدم ليكون خليفة في الأرض ، وكان عليه أن يتلقى من الله التكاليف محصورة في « افعل » و « لا تفعل » ؛ لأنك إن لم تمتثل سيظهر الفساد في المجتمع ، أما الذي لا يظهر منه فساد فسبحانه يتركه مباحا ، لذلك فكل ما لم يرد فيه « افعل » و « لا تفعل » لا يفسد به المجتمع . إذن فـ « افعل » و « لا تفعل » هي مقياس ضمان الصلاح في الأرض .

وهل خلق الله الإنسان هكذا بدون منغصات تفسد عليه متعج الله ؟ لا ، فمادام الشيطان قد وقف هذا الموقف مع آدم ، وقال أنا سأغوي ؛ فسيزين لك في « افعل » ، و « لا تفعل » ويأتيك الأمر بالصلاة فيترغك الشيطان حتى لا تصلي . ويأتيك الأمر ألا تشرب الخمر فيزين لك الشيطان أن تشربها ، ويحاول أن ينقل مجال « افعل » إلى مجال « لا تفعل » ، وكذلك يحاول أن يزين لك « أن تفعل » ما هو في مجال « لا تفعل » فترتك حركتك .

إن الحق سبحانه يريد منهجاً يحكم حركة الحياة ، ويضمن للخلافة في الأرض أن تؤدي مهمتها أداة يسعد الإنسان فيها في الدنيا وينعم في الآخرة ؛ لذلك كان لا بد أن يدرّب الحق سبحانه خليفته في الأرض على المنهج ؛ حتى لا يتلقى المنهج تلقياً نظرياً ، لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى ألا يجعل آدم يباشر مهمة الخلافة إلا بعد أن يعطيه تدريباً على المهمة في « افعل » و « لا تفعل » . وحذره من العقبات التي تعترض « افعل » ؛ حتى لا تجيء في منطقة « لا تفعل » ، وكذلك من العقبات في منطقة « لا تفعل » حتى لا تجيء في منطقة « افعل » ، واختار له مكاناً فيه كل مقومات الحياة وترفها حتى لا يتعب في أي شيء أبداً في أثناء التدريب ، وأوضح له أن هذه هي الجنة وهي بستان جميل وفيه كل مقومات الحياة وترفها ، وأمره : كُلْ من كل شيء فيها ، ولكن لا تقرب هذه الشجرة .

« كل » هذا هو الأمر ، و « لا تقرب » هذا هو النهي . وأوضح سبحانه لآدم أن الذي سيعكر عليه تطبيق منهج الله هو العدو الذي ثبتت عداوته إنه « إبليس » ؛ لأنه حين امتنع عن السجود لآدم تلقى الطرد واللعنة فأقسم وقال :

﴿ قَالِ فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٥٦)

(سورة ص)

كان الحق سبحانه وتعالى جعل الجنة كمكان فيه كل مقومات الحياة لأدم بصنع الله - سبحانه - وإعدادة ، وأعطى له منها القدر الذي يعطى المقوم بلا فضلات تنعبه ، ولا ينتفخ ولا يعاني من متاعب في الصحة . . . إلخ ؛ لأنه سبحانه يعطى لأدم القدر المقوم . وسبحانه قادر على كل شيء بدليل أنه يرعى الجنين في بطن أمه ، والجنين ينمر ، والنمر معناه أنه يتلقى الغذاء ، ولا يخرج منه فضلات ؛ لأن الغذاء الذي يدخله الله له على قدر النمو فقط ، وحين يكون ربنا هو الذي يمد جنة التدريب بالغذاء ، فهو قادر على كامل الإعداد .

إذن فالجنة التي وُجد فيها آدم بداية ليست هي جنة الجزاء ؛ لأن جنة الجزاء لا بد أن تأتي بعد التكليف . ولا يمكن أن يكون فيها تكليف ، ومن يسكنها لا يخرج منها . وآدم - كما علمنا - مخلوق للأرض ، إذن وجود الجنة هنا يعني أنها مكان التدريب على المهمة في الخلافة أمراً متمثلاً في ﴿ فَكَلَّا ﴾ ، ونهياً متمثلاً في ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ ، لم يقل لهما : لا تأكلا ، بل قال : ﴿ لَا تَقْرَبَا ﴾ لأن القربان مظنة أنه يؤدي إلى الغواية ويدفع إليها . وهو قد أكل منها لأنه جاء ناحيتها واقترب منها ، ولو كان قد استمع ولم يقرب لما أكل منها .

فكان الله جعل لأدم في جنة التدريب والتعريف رمزين : الرمز الأول : ﴿ افْعَلْ ﴾ ، والرمز الثاني : ﴿ لَا تَفْعَلْ ﴾ ، ونجد أن الذي نهى الله عنه قليل بالنسبة لما أباحه وأمر به . وهذا من رحمة الله بالعباد ، فيفعل المؤمن ما يؤمر به ، ولا يحوم حول ما حرمه الله ؛ لأنه لا يأمن حين يرى ما حرم الله أن تميل نفسه إليه ، ولذلك قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ فلو أنهما لم يقربا ما كانت الشجرة تغريهما بأي منظر . ولذلك في كثير من الأشياء التي يحرمها الحق سبحانه وتعالى وفي قمتها ما يصون ويحفظ العقيدة الأساسية ، يقول بعدم الاقتراب أو الاجتناب ، فسبحانه هو الغافل :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

ولم يقل : « لا تعبدوا الأوثان » ، بل قال : « فاجتنبوا » ، والشأن في « الخمر » أيضاً جاء بالاجتناب . لكن بعضاً من السطحيين يقولون : لم يرد في الخمر تحريم بل قال بالاجتناب ، ونقول له : الاجتناب أقوى من المنع ومن التحريم ، لأن غاية التحريم أن يمنعك من شرب الخمر . لكن الاجتناب يقتضي ألا تذهب ناحيتها ، ولا تقعد في المكان الذي توجد فيه ، ولا تعصرها ولا تحملها .

﴿ .. وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩) [سورة الأعراف]

والظلم هو تجاوز الحد أو إعطاء الشخص غير حقه ، ويوضح سبحانه : أننا لم أجعل لكما حقاً في أن تقربا ناحية هذه الشجرة ، فإن قربها أى منكما ، فهو قد خالف ما شرعته لكما ، « فتكونا من الظالمين » أى تدخلنا في إطار من يظلمون أنفسهم لأن الله لا يظلم أحداً ، وأنت تظلم نفسك لأنك تعطى نفسك شهوة قليلة في زمن يسير ، وبعد ذلك تأخذ عقابها عذاباً أليماً في زمن طويل وبشكل أشد . وهذا ظلم لنفسك ، كما أنه دليل على أنك غير مأمون عليها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِبَدْيِ لَّهُمَا مَا وَدَّعَنَّهُمَا
مِنْ سُوءَ تَبَهُمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ
إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ (٢٠)

كلمة « وسوس » تدل على الهمس في الإغواء ، ونعرف أن الذي يتكلم في خبر لا يهمه أن يسمعه الناس . لكن من يتكلم في شر فيهمس خوفاً من أن يفضحه أحد ، وكأن كل شر لابد أن يأتي همساً ، وصاحبه يعرف أن هذا الكلام لا يصح أن يحدث ، ويستحي منه ، ولا يحب أن يعرف المجتمع عنه هذا الشيء ،

و «وسوس» مأخوذة من الصوت المغرى ، لأن الوسوسة هي صوت رنين الذهب والحلى ، إذن فما قاله الشيطان لأدم وزوجه هو كلام مغرٍ ليلفتهما عن أوامر رب حكيم .

وقوله الحق : ﴿ فوسوس لهما ﴾ يعطينا حثيات البراءة لحواء ، لأن الشائع أن حواء هي التي ألحت على آدم لياكل من الشجرة ، وكثير منا يظلم حواء على الرغم من أن القرآن يؤكد أن الوسوسة كانت لأدم وحواء معاً .

﴿ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءٍ تَهُمَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

وهل وسوس الشيطان لهما ليبدى لهما ما وورى من سوءاتهما ، أو وسوس ليعصيا الله ؟ . لقد وسوس ليعصيا الله ، وكان يعلم أن هناك عقوبة على المعصية ، ويعلم أنهما حين يأكلان من الشئ الذي حرمه ربنا ستظهر سوءاتهما ، و «السوءة» هي ما يسوء النظر إليه ، ونطلقها على العورة ، والفطرة تستكف أن يرى الإنسان المكتمل الإنسانية السوءة . وكأنهما في البداية لم ير أحدهما سوءة الآخر أو سوءة نفسه لأن الحق يقول : ﴿ ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما ﴾ .

والسوءات أربع : اثنتان للرجل واثنتان للمرأة ، فكان كل إنسان منهما لا يرى سوءته ، وكذلك لا يرى سوءته الآخر ، لأن السوءات كلها لها ما يخفيها عن الرؤية ، وهذا كلام معقول جداً . ألم تقل سيدتنا أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - : « ما رأيت ولا رأى مني » ، وفي هذا القول تتجلى قمة الأدب لأنها لم تجئ حتى باللفظ ، لأن العضو مادام سوءة فهو مبني على الستر . وذلك حين حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين » (١) ، تعجبت السيدة عائشة فقال لها : « الأمر أخطر من أن ينظر أحد إلى أحد » .

(١) رواه البخاري ومسلم .

﴿لِيُذَيِّعَ لَهَا مَآوُودِيَّ عَنْهَا مِنْ سَوْءِ تَيْمَآءٍ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

وبماذا ووري ؟ . لا بد أن هناك لباساً كان على كل منهما ، وقال العلماء الكثير عن هذا اللباس ، فمن قائل : إن أظافر الإنسان هي بقية اللباس الذي كان موجوداً عند آدم وحواء ، وهو ما كان يوارى السوءات ، ويقال : إن أى إنسان يكون في غاية الضحك والانبساط ، ويريد أن يكتُم نفسه ، ويمتنعها ويحول بينها وبين الضحك إنه يحدث له ذلك لو نظر إلى أظافره ، عندئذ لا يمكنه أن يضحك لأنها بقية لحظة الندم على كشف السوءة . وجربها في نفسك ، تجد نفسك قد منعت من الضحك ، وهذا من عمل الإله .

أو أن السنار الذي كان يوارى السوءة هو النور الإلهي الذي كان يلفهما ، والنور الساطع جداً حين يلف لا يبين ، صحيح أنك بالنور ترى الأشياء ، لكنه إن اشتد عُمى على الأشياء فأخفاها فلا تراها ؛ لأن أى أمر إذا زاد على حذّه انقلب إلى ضده ، فإما أن يكون الثوب الأظافر ، وإما أن يكون النور الإلهي الذي كان يفضاهما ويوارى السوءة ، وقد سميت «سوءة» و«عورة» ، لأنها تسوء ، فلماذا تسوء ؟ وما الفرق بين فتحتين : فتحة في الفم ، وفتحة في العورة ؟ .

إن فتحة العورة سوءة باعتبار ما يخرج منها . وحينما كانا يأكلان من إعداد ربنا لم يكونا - كما قلنا - في حاجة إلى إخراج فضلات ؛ لأن إعداد الله يعطى كلاً منهما على القدر الكافي للحركة والفعل ، وكانت المسألة مجرد فتحات مثل بعضها . لكن حينما يخرجان عن مرادات الله في الطعام ، وبأكلان غير ما أمر الله به ، ويمارسان اختيار الطعام بدأت الفضلات في الخروج بما لها من راحة غير مقبولة ، فهل ظهور السوءة لهما هو رمز إلى أن هناك مخالفة لمنهج الله سواء أكان ذلك في القيم والمعنويات أم في الأمور المادية ؟ .

نعم ؛ لأن كل شيء يُخَالَف فيه منهج الله لا بد أن تبدو فيه العورة ، وإن رأيت أى عورة في المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عطل . وينقل القرآن ما قاله لهما الشيطان من وسوسة :

﴿ وَقَالَ مَآ تَهَيَّجُوا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

لقد همس الشيطان وأوحى لهما بأن الحق : أراد الا تقربا هذه الشجرة لأن من يأكل منها يصير ملكاً ، أو خالداً . ولم يحص أي منهما كلمات الشيطان ليعرف أن كيدَه كان ضعيفاً واهياً وغيباً ؛ لأنه مادام قد عرف أن من يأكل من هذه الشجرة يصير ملكاً أو يبقى من الخالدين فلماذا لم يخطف منها ما يجعله ملكاً أو خالداً ؟ وفي هذا درس بين لنا أن مَنْ يُزَيِّنْ له ويتصدى له أحد بالإغواء يجب عليه أن يحص إلى أي غواية يسير ، وأن يدقق في نتائج ما سوف يفعل .

وإذا كان الشيطان قد قال :

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ ﴾ (١١)

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

فلماذا لم ينقذ نفسه بالأكل من هذه الشجرة وتنتهي المسألة ؟ . إذن كان ما يقوله الشيطان كذباً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (١٢)

« قاسم » مادة فاعل ، ثاني للمشاركة ، أي أن هناك طرفين اثنين ، كل منهما فاعل في ناحية ومفعول في ناحية أخرى ، مثل شارك زيد عمراً ، وهي تعنى أيضاً أن عمراً شارك زيداً ، وهكذا تكون مادة فاعل وتفاعل ، فكل منهما فاعل من جهة ومفعول من جهة . وفي المعنى نجد الاثنين فاعلاً ومفعولاً ، إذن « قاسم » تحتاج إلى عمليتين اثنتين . . فهل جلس إبليس يقسم لآدم ولزوجته ، وهما يقسمان ؟ . ونقول : لا ؛ لأنها تأتي مرة لغير المفاعلة ، أو للمفاعلة اللزومية ، والمفاعلة اللزومية تنضح في قوله الحق :

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وواعدنا ، مثلها مثل فاعل ، من الذى واعد ؟ . إنه الله الذى وعد موسى عليه السلام ، ودخل موسى فى الوعد بقبوله الوعد وتوفيته به .
إذن « قاسمهما » أى قبل القسم ودخلا فيه .

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصِحٌ ۖ﴾

(سورة الأعراف)

و « قاسم » ، أى أقسم ، ولذلك حينما عاتب ربنا سيدنا آدم أوضح منبجانه :
أنا قلت إنه عدوك ولزوجك ، ولسوف يخرجكما من الجنة لتتعب وتشقى ، فقال
آدم : يا ربى ما كنت أعتقد أن خلقاً من خلقك يقسم بك على الباطل . ولم يأت
على البال أن خلقاً يقسم بالله على الباطل . وكانت هذه أول خديمة فى الخلق .
ولذلك نجد قتادة - رضى الله عنه - يقول : « المؤمن بالله يُخدع » .

والنبي عليه الصلاة والسلام عقد على امرأة ودخلت به ، ومن كيد النساء ومن
زوجات للنبي صلى الله عليه وسلم وقد خفن أن يشغف بها حباً ، فقلن لها : إن
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحب هذه الكلمة ، فإذا دخل عليك فتوليها ،
قولى : « أعوذ بالله منك » ، ولحظة أن دخل عليها سيدنا رسول الله ، قالت له :
« أعوذ بالله منك » . فقال لها : استعذت بمعاذ . ولم يقربها الرسول ، وهذا
ما يشرح لنا كيف يُخدع المؤمن بالله . وها هو ذا سيدنا عبدالله بن عمر كان يعتق
من العبيد من يحسن الصلاة ويتقنها ويؤديها فى مواعيدها ، ويقف فيها خاشعاً ،
وحين عرف العبيد ذلك احترقوا إقامة الصلاة أمام المكان الذى يجلس فيه وكانوا
يؤدونها بخشوع ، وكان رضى الله عنه يعتقهم ، وذهب له من يقول : إن العبيد
يخدعونك ، فيقول : من خدعنا بالله ، انخدعنا له .

والنصح هنا : إغراء بمخالفة أمر الله ، وكان يجب ألا تكون هناك غفلة من
آدم ، وكان لابد أن يقارن بين الأمرين ، بين غواية الشيطان له بالأكل ، وبين أمر
الحق سبحانه الذى قال له ولزوجته : لا تقربا . لكنه لم يفعل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَذَلَّلْنَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا
سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ
وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ
وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢٢)

﴿ فذللاهما بغرور ﴾ أى فأنزلهما من رتبة الطاعة إلى درك المعصية والذنب مما غرهما به وخدعهما من القسم و « ذللاً » مأخوذة من دلى رجله فى البئر كى يرى إن كان فيه ماء أم لا ، أو دلى جبل الدلو ليتزله فى البئر ، ومعناها : أنه يفعل الشيء مرة فمرة ، و « بغرور » أى بإغراء لكى يوقعهما فى المخالفة ، فأظهر لهما النصيح وأبطن لهما الغش .

وهنا وقفة تدل على الاصطراع بين الحق والباطل فى النفس ، ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴾ هذا يدل على أنهما بمجرد المذاق تذكر أن التزغ من إبليس جعلهما يذهبان إلى الشجرة . وأن ما أخذهما فقط كان مجرد المذاق ، فتنبه كلاهما إلى جسامة الأمر .

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الاعراف)

و « الخصف » أى تانى بشيء وتلزقه على شيء لتدارى شيئاً . وقديماً حينما كان يبلى نعل الحذاء ، ويظهر به خرق فالإسكانى يضع عليه رقعة من الجلد تكون أوسع من الخرق حتى تتمكن منه .

وهكذا فعل آدم وحواء « أخذا من ورق الجنة ووضعا ورقة على ورقة ليداريا السوء . وقوله الحق : ﴿ وطفقا ﴾ يعنى وجعلا من ورق الشجر غطاء للسوءات .

وهنا يقول الحق :

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ
عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

لقد كان التكليف هنا في أمر واحد ، والإباحة في أمور متعددة ، وسبحانه لم يكلفهما إلا بأمر واحد هو عدم الاقتراب من الشجرة ، والمباح كان كثيراً ، لذلك لم يكن من اللائق أن يتوها عن التكليف . ولم يكن هذا التكليف بالواسطة ولكن كان بالمباشرة ، ولذلك سيقعنا هذا الموقف في الفهم في لقطة للقصة في سورة غير هذه وهو قوله الحق :

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

ولم يأت الحق هنا بسيرة المعصية ، وقال لهما :

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

وسبحانه لا يجرم إلا ينص ، وسبق أن قال سبحانه : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وأوضح : أن هناك عنصراً إغوائياً هو إبليس وعداوته مسبقة في أنه امتنع عن السجود ، وقد طرده الحق لهذا السبب . إذن إن أخذهما وعاقبهما الله بهذا الذنب فهو العادل ، وهما اللذان ظلما أنفسهما . وكان لا بد أن يكون الجواب : نعم يارب نهيتنا ، وقلت لنا ذلك . وهذا إيراد للحكم بأقوى الأدلة عليه ؛ لأن الحكم قد يأتي بالإخبار ، وقد يأتي بالاستفهام بالإيجاب ، ويكون أقوى لوجاء بالاستفهام بالنفي .

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

ونحن نعلم أن العدو هو الخصم الذي يريد إلحاق الضرر والإيذاء بك، و«مين» أى محيط، وهذا دليل يظهر عدواة الشيطان وإحاطتها؛ لأنه قد سبق أن أوضح أنه سيأتى من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيماهم وعن شمائلهم. أو بين العداوة وشديد الخصومة .

ويأتى الإقرار بالذنب من آدم وحواء :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢٣)

وتلك هى الكلمات التى قال الله عنها فى سياق آخر:

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢٧) [سورة البقرة]

فكان الحق سبحانه وتعالى قدّر غفلة خلقه عن المنهج؛ فشرع لهم وسائل التوبة إليه، ووسائل التوبة ثلاث مراحل: تشريعها رحمة، ثم الإقبال عليها من المذنب اعترافاً وإنابة، وقبولها منه سبحانه رحمة، فالتشريع يطلب منك أن تفعل، وحين تتوب يتوب الله عليك .

تشريع التوبة - إذن - رحمة، لا بالمذنب فقط، بل وبغيره أيضاً؛ لأن الله لو لم يشرع التوبة، كان الذى يعمل معصية، ولا يجد مغفرة، يستشترى فى المعاصى، وإذا استشترى فى المعاصى تعب المجتمع كله .

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢٣)

[سورة الأعراف]

وهذا هو الموقف بعد الذنب من آدم وزوجته، وهو يختلف عن موقف إبليس بعد الذنب؛ فإبليس أراد أن يبرر المخالفة:

﴿ قَالَ أَتَجِدُ لِمَنْ خَلَقْتُ حِيتًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

فماذا قال آدم وحواء ؟ :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأعراف)

ولذلك كان جزاء إبليس - وهو المتأبى على أوامر الله وحكمه - أن يطرد من رحمته . وجزاء المعترف بأنه أذنب ، وأنه ظلم نفسه أن تُقبل توبته . إذن لا يصح للناس الذين يقيمون على معصية أن يقول الواحد منهم : « هذه هي ظروفى » ، ويبرر ويحلل ما يفعله من المعاصى ، بل على الواحد منهم ألا يطرد نفسه بنفسه من منطقة الرحمة ، وعليه أن يقول : « ما أفعله حرام ، لكن لا أقدر على نفسى » وبذلك لا يكون ردّ الحكم ، بل انهم أنفسهم بالتقصير واعترف بالذنب ، فصار أهلاً للمغفرة وأهلاً للتوبة .

وهنا نسال : ما الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم ؟ . ونقول : إبليس عصى وجاء بحشية رفض الأمر ، لكن آدم عصى وأقر بالذنب وطلب المغفرة .

وحين قال آدم وزوجته حواء : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ معاً وفى نفس واحد ، ونغمة حزينة نادرة ، ألا يدل ذلك على أنهما قد تعلماها ؟ . إن كلا منهما لو اعتذر لله بمفرده لاختلغا فى أسلوب الاعتذار .

وهذا دليل على أنها ملقنة ، ولهذا قال ربنا .

﴿ فَتَلَوْنِي أَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ قَتَابَ عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة البقرة)

وهما قد قالوا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ ، وأنفسنا جمع نفس ، ولم يقلوا « نفسينا » ، بل قالوا ﴿ أَنْفُسَنَا ﴾ أى أن قلوبهما أيضاً قد صفيا وخلصا من أثر تلك المعصية ، وأن ذلك مطمور وداخل فى نفوس فريتهما .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢٤)

ونلتفت لنجد أن هناك أمراً قد سبق لإبليس بالهبوط ، وهنا أمر آخر بالهبوط ،
وبالله لو كانت جنة الخلود هي محل إقامتهما ، وآدم مخلوق لها ثم عصى ثم تاب
لما خرجا منها أبداً . لكنه سبحانه أمر آدم بأن يهبط إلى الأرض التي جعله خليفة
فيها ، ليباشر مهمة الخلافة في إطار التجربة التي وقعت له ، وعليه أن يحترم أمر
الله في كل تكليف ، وأن يحترم نهى الله في كل تكليف ، وليحذر عداوة الشيطان
فإنه سيوسوس له . وقد جرب ذلك بنفسه ، فليترنل مزوداً بالتجربة ، وليس له عذر
من بعد ذلك . ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ .

والأمر هنا للجماعة ، ولم يقل لهما اهبطا . وفي آية ثانية قال :

﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة طه)

وذلك لتعرف أن ورود القصة في أماكن متعددة جاء لتعطي لفطات كثيرة .
والأمر هنا جاء بقوله : ﴿ اهْبِطُوا ﴾ لأن الهبوط اشترك فيه الثلاثة : آدم وحواء ،
وإبليس . . والعداوة مسبقة ولا ندعيها . العداوة بين طرفين : اثنان في طرف هما
آدم وحواء ، وواحد في طرف هو إبليس . ويريد الحق لنا بيان الحقائق وأن
المتكلم إليه ، إن كل حرف عنده بميزان ، ولذلك نجده سبحانه يقول لنا :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَنْفَرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النساء)

أي إياك أن تأخذ واجهة النص ، ولكن ابحث في خلفيات النص ، ولا تأخذ
واجهة اللفظ ، بل انظر إلى ما وراء الالفاظ .

﴿ قُلْ أَقْبِلُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢٥)

(سورة الأعراف)

وكلمة «عدو» تعني وجود صراع ، ومعارك سوف تقوم بين أولاد آدم بعضهم مع بعض ، أو تقع العداوة بينهم وبين أعدائهم من سكان الأرض من جن وغيرهم ، لكنها لمدة محدودة ، ولذلك قال : ﴿ ولکم فی الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ .

أى أن لكم استقراراً في الأرض ومتاعاً إلى حين . وصراع صاحب الحق في الحق يجب أن يأخذه على أنه متاع في الدنيا ولا يأخذه على أنه معركة بلا جزاء ، لا ، فأنت تجاهد وتأخذ جزاء كبيراً على الجهاد وهذا متاع .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (٢٥)

كأنه قال: ﴿ ولکم فی الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ فأحب أن يعطينا الصور لرحلة الحياة ، ويرسم لنا علاقتنا بالأرض التي قال فيها :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

فقد ربطنا بالأرض . إيجاداً من طينها ، ومتعة بما فيها من ميزات ، وخيرات وثمرات ، ثم نموت لنعود لها ونبعث من بعد ذلك . فالإنسان منا من الأرض ، منها يحيا وفيها يموت ، ويذهب إلى أصله ومرجعه ، إني الأم الأرض ، فهي تكفنه وتنضجه وتأخذه في حضنها فهي الحانية عليه وبخاصة في وقت ضعفه . وساعة ما يكون الإنسان في حالته الطيبة ، وله أخ حالته عكس ذلك فإن قلب الأم إنما يكون مع الضعيف ، ومع المريض ، ومع الصغير .

والأرض هي التي تأخذ كل البشر ، تأخذ الإنسان وتمص منه الأذى ، وتداري

رائحته ، أما أحبابه في الدنيا وإخوانه ، فقد سارعوا بمواراته التراب تفادياً لرحلة التحلل . وبمجرد أن يموت الإنسان ، أول ما يُنسى هو اسمه ؛ فيقولون : «أين الجثة» ، ولا يقولون : «أين فلان» . وبعد الكفن يوضع الجثمان في النعش ، ليوارى في التراب ويدمدم اللحد عليه برجليه .

ويتقل الحق بعد ذلك بالخطاب إلى أبناء آدم فيقول :

﴿يَبْنَىءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ
وَرِيشًا وَلِبَاسُ النُّفُوسِ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
لَعَلَّكُمْ يَذْكُرُونَ﴾

وكلمة ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ لفت إلى أن تتذكروا ماضى أبيكم مع عدوكم المبين ، إبليس ، أنتم أولاد آدم ، والشيطان موجود ، فانتبهوا . لقد أنزل الحق عليكم لباساً يوارى سوءاتكم ؛ لأن أول مخالفة حدثت كشفت السوءة ، والإنزال يقتضى جهة علو لنفهم أن كل خير في الأرض يهبط مدده من السماء ، وسبحانه هو من أنزل اللباس لأنه هو الذى أنزل المطر ، والمطر روى بذور النبات فخرجت النباتات التى غزلناها فصارت ملابس ، وكأنك لو نسبت كل خير لوجدته هابطاً من السماء . ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على عباده فيقول :

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَنْزَلَ خِمْصَةَ ثَمَرِ الدَّائِيَّةِ﴾ [سورة الزمر]

نعم هو الذى أنزل من الأنعام أيضاً لأن السببية في النبات من مرحلة أولى ، والسببية في الحيوان من مرحلة ثانية ، فهو الذى جعل النبات يخرج من الأرض ليتغذى عليه الحيوان ، ويقول سبحانه أيضاً :

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿ ٤٠٩٢ ﴾

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ
وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ .. ﴾ (٢٥)

[سورة الحديد]

نعم فسبحانه هو من أنزل الحديد أيضاً ؛ لأننا نأخذه من الأرض التي خلقها الله ،
وهذا دليل على أن التنزيلات إنما أراد الله أن يحمي بها كل منهج .

﴿ يَسْنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَءَ تِكْمٌ .. ﴾ (٢٦)

[سورة الاعراف]

فإذا كنا قد أنزلنا اللباس الذى يوارى سوءات الحسن وسوءات العادة ، كذلك
أنزلنا اللباس الذى يوارى سوءات القيم . فكلما أنكم تحسّون وتتركّون أن اللباس
المادى يدارى ويوارى السوءة المادية الحسية فيجب أن تعلموا أيضاً أن اللباس
الذى ينزله الله من القيم إنما يوارى ويستويه سوءاتكم المعنوية ، ولباس الحياة
المادية لم يقف عند مواراة السوءات فقط ، بل تعدى ذلك إلى ترف الحياة أيضاً .
لذلك قال الحق :

﴿ .. قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَءَ تِكْمٌ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ
مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ (٢٦)

[سورة الاعراف]

والريش كساء الطير ، وقد يدّ كانوا يأخذون ريش الطير ليسزّيتوا به الملابس .
وكانوا يضعون الريش على التيجان ، وأخذ العوام هذه الكلمة وقالوا : فلان
مريش أى لا يملك مقومات الحياة فقط ، بل عنده ترف الحياة أيضاً ، فكان هذا
القول الكريم قد جاء بمشروعية الترف شريطة أن يكون ذلك فى حل . وقيل أن بلغت
الحق سبحانه وتعالى إلى مقومات الحياة لفتنا إلى الجمال فى الحياة ، فقال سبحانه :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً .. ﴾ (٨)

[سورة النحل]

والركوب لتجنب المشقة ، والزينة من أجل الجمال .

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الاعراف)

بل سبحانه طلب زينتنا في اللقاء له في بيته فيقول :

﴿ يٰٓبَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الاعراف)

إذن فهذا أمر بالزينة ، وهنا في الآية التي نحن بصدد خراطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿ وَرِيًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الاعراف)

نعم إن لباس التقوى خير من ذلك كله ؛ لأن اللباس المادي يستر العورة المادية ، وقصاره أن يكون فيه مواراة وستر لفضوح الدنيا ، لكن لباس التقوى يوارى عنا فضوح الآخرة .

أو لباس التقوى هو الذي تتقون به أهوال الحروب ؛ إنه خير من لباس الزينة والرياش لأنكم تحمون به أنفسكم من القتل ، أو ذلك اللباس - لباس التقوى - خير من اللباس المادي وهو من آيات الله ، أي من عجائبه ، وهو من الأشياء اللافتة ؛ فالإنسان منكم مكون من مادة لها احتياجات مادية وعورات مادية ؛ وهناك أمور قيمة لا تنتظم الحياة إلا بها ، وقد أعطاك الحق مقومات الحياة المادية ، وزينة الحياة المادية ، وأعطاك ما تحيا به في السلم والحرب ، ومنهج التقوى يحقق لك كل هذه المزايا . فخذ الآيات مما تعلم ومما تحس لتستبسط منها ما يغيب عنك مما لا تحس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿يَبْقَىٰ آدَمَ لَا يَفْنَىٰ ۖ كَمَا أَخْرَجَ
أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا
سَوْءَٰتِهِمَا ۖ إِنَّهُ يُبْرِكُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوَنَّهُمْ
إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ﴾

قبل أن يطلب منا سبحانه ألا نفتتن بالشيطان ، أوضح أنه قد رتب لنا كل مقومات الحياة ، وعلينا أن نتذكر موقف الشيطان ، من أبينا آدم وإغواءه له .

والفتنة في الأصل هي الاختبار ، وتطلق - أحياناً - على الأثر السيئ حيث تكون أشد من القتل ، لكن هل يسقط الإنسان في كل فتنة ؟ لا ؛ لأن الفتنة هي الاختبار ، وفي الاختبار إما أن ينجح الإنسان ، وإما أن يرسب ، فإن نجح أعطته الفتنة خيراً وإن رسب تعطه شراً .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى قصة خلق آدم ، وأعلمنا أنه خلقه للخلافة في الأرض ، وأن موضوع الجنة هو حلقة مقدمة لتلقى الخلافة ؛ لأنه إذا ما أصبح خليفة في الأرض ؛ فله منهج يحكمه في كل حركاته ، ومادام له منهج يحكمه في كل حركاته فرحمة به لم ينزله الله للأرض ابتداءً ليتلقى المنهج بدون تدريب واقعي على المنهج ، فجعل الجنة مرحلة من مراحل ما قبل الاستخلاف في الأرض ، وحذره من الشيطان الذي أبى أن يسجد له ، وأراد منه أن يأخذ التجربة في التكليف . وكل تكليف محصور في « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » ؛ لذلك شاء الله أن يجعل له في الجنة فترة تدريب على المهمة ؛ لينزل إلى الأرض مباشرة مهمة الخلافة بعد أن زود بالتجربة الفعلية الواقعية ، وأوضح له : « أَنْ كُلَّ مِنْ كُلِّ مَا فِي الْجَنَّةِ ، وَلَكِنْ لَا تَقْرُبْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ . » و « كُلُّ » أمر ، و « لَا تَقْرُبْ » نهى . وكل تكليف شرعي هو بين « لا تفعل » وبين « افعل » .

وبعد ذلك حذره من الشيطان الذى يضع ويجعل له العقبات فى تنفيذ منهج الله ، فلما قرب آدم وحواء الشجرة وأكلا منها ، خالفا أمر الله فى ﴿ولا تقربا﴾ ، وأراد الله أن يبين لهما بالتجربة الواقعية أن مخالفة أمر الله لا بد أن ينشأ عنها عورة تظهر فى الحياة ، فبدت له ولزوجته سوءاتهما ، فلما بدت لهما سوءاتهما علم كل منهما أن مخالفة أمر الله تظهر عورات الأرض وعورات المجتمع ، فأمره الله : أن اهبط إلى الأرض مزدوا بهذه التجربة .

ولما هبط آدم وزوجه إلى الأرض أرسل إليه منهج السماء بعد التجربة ، وأراد أن يبين لنا أنه عصى أمر ربه فى قوله : ﴿ولا تقربا﴾ ، وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه ، وأراد سبحانه أن يبين لنا أن آدم يتمثل فيه أنه بشر يصيب ويخطئ ، وتذكره الغفلة ، وقد يخالف منهج الله فى شيء ، ثم يستيقظ من غفلة فيتوب ، وبعد أن كلفه أن يبلغ رسالة الله وصار نبيا ، جاءت له العصمة فلا يغفل ولا ينسى فى تبليغ الرسالة .

ولذلك يجب أن نقطن إلى النص القرآنى :

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

إن هذه طبيعة البشر أن يعصى ثم يتوب إن أراد التوبة ، ولا بد أن نقطن أيضاً إلى قوله الحق : ﴿ثم اجتبه ربه﴾ .

إذن فالاصطفاء جاء بعد المعصية ، لأن عصيانه كان أمراً طبيعياً لأنه بشر ، يخطئ ويصيب ، ويسهو ويغفل . ولكن بعد أن خرج من الجنة اجتبه الله ليكون نبياً ورسولاً ، ومادام قد صار نبياً ورسولاً فالعصمة تأتى له :

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (١٣١)

(سورة طه)

إذن لا يصح لنا أن نقول : كيف يعصى آدم وهو نبى ١٩ نقول : تنبه إلى أن

النبوة لم تأت إلا بعد أن عصى وتاب ؛ فهو يمثل مرحلة البشرية لأنه أبو البشرية كلها ، والبشرية منقسمة إلى قسمين : بشر يبلغون عن الله ، وأنبياء يبلغون عن الله ، فله في البشرية أنه عصى ، وله في النبوة أن ربه قد اجتباها فتاب عليه وهداه . والذين يقولون : إن آدم كان مخلوقاً للجنة ، نقول لهم : لا . افهموا عن الله ، لأنه يقول : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ .

إن أمر الجنة كان مرحلة من المراحل التي سبقت الخلافة في الأرض . أنها كانت تدريباً على المهمة التي سيقوم بها في الأرض ، والافلو أن آدم قد خلقه الله للجنة وأن المعصية أخرجته ، إلا أن الله قد قبل منه توبته ، ومادام قبل توبته فكان يجب أن يبقى في الجنة ، ومن هنا نقول ونؤكد أن الجنة كانت مرحلة من المراحل التي سبقت الخلافة في الأرض . وبعد ذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يخلق علينا التجربة لأدم حتى نتعظ بها ، وأن نعرف عداوة الشيطان لنا ، وألا نقع في الفتنة كما وقع آدم .

﴿ يَسْبِي آدَمَ لَا يَفْتِنُكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا . . (٢٧) ﴾

[سورة الأعراف]

وهذا نهى لبني آدم وليس نهياً للشيطان ، وهذا في مُكنة الإنسان أن يفعل أو لا يفعل ، فسبحانه لا ينهى الإنسان عن شيء ليس في مكنته ، بل ينهاء عما في مكنته ، والشيطان قد أقسم أن يفتنه وسيفعل ذلك لأنه أقسم وقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ . فإياكم أن تتخذوا بفتنة الشيطان ؛ لأن أمره مع أبيكم واضح ، ويجب أن تنسحب تجربته مع أيكم عليكم فلا يفتنكم كما أخرج أبويكم من الجنة ، ويتساءل البعض : لماذا لم يقل الله : لا يفتنكم الشيطان كما فتن أبويكم ، وقال : ﴿ لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ ؟ . ونقول : هذا هو السمو والافتتان الراقى في الأداء البياني للقرآن .

وإن هذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يخرجنا من جنة التكليف . كما فتن أبونا فأخرجهما من جنة التجربة . ويقال عن هذا الأسلوب إنه أسلوب احتباك ،

وهو أن تجعل الكلام شطرين وتحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر قصد الاختصار . وهذا هو الأسلوب الذي يؤدي المعنى بمتهى الإيجاز ؛ لينبه ذهن السامع لكلام الله . فيلتقط من الأداء حكمة الأداء وإيجاز الأداء ، وعدم الفضول في الأساليب .

﴿ لَا يَفْتِنُكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ۖ ۝ (٢٧) ﴾ [سورة الاعراف]

والفتنة - كما علمنا - هي في الأصل الاختبار حتى تنقى الشيء من الشوائب التي تختلط به ، فإذا كانت الشوائب في ذهب فتحن نعلم أن الذهب مخلوط بنحاس أو بمعدن آخر ، وحين تريد أن تأخذ الذهب خالصاً نفتنه على النار حتى ينفض ويزيل عنه ما علق به . كذلك الفتنة بالنسبة للناس ، إنها تأتي اختباراً للإنسان لينقى نفسه من شوائب هذه المسألة ، وليتذكر ما صنع إبليس بآدم وحواء . فإذا ما جاء ليفتنك فإياك أن تفتن ؛ لأن الفتنة ستضررك كما سبق أن الحققت الضرر بأبيك آدم وأمك حواء . والشيطان هو المتمرد على منهج الله من الجن ، والجن جنس منه المؤمن ومنه الكافر . فقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَا دُونُ ذَلِكَ ۖ ۝ (١١) ﴾ [سورة الجن]

والشيطان المتمرد من هذا الجنس على منهج الله ليس واحداً ، وقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ أَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۖ ۝ (٥١) ﴾ [سورة الكهف]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۖ ۝ (٢٧) ﴾ [سورة الاعراف]

و"قبيله" هم جنوده وذريته الذين ينشرهم في الكون ليحقق قسمة :

﴿ قَالَ فَبِمَا زَوَّجْنَاكَ لَاغْوِيَّتَهُمْ أَتَبْتِ ﴾

(سورة ص)

إذن ففتنة الشيطان إنما جاءت لتخرج خلق الله عن منهج الله ، وحينما عصى إبليس ربه عزّ عليه ذلك ، فبعد أن كان في قمة الطاعة صار عاصياً لأمر الله معصية أذته وأوصلته إلى الكفر ، لأنه ردّ الحكم على الله . إن ذلك قد أوغر صدره وأحنقه ، وجعله يوغل ويسرف في عداوة الإنسان لأنه عرف أن طرده ولعنه كان بسبب آدم وذريته .

﴿ إِنَّهُ يَرْتِكُزُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الاعراف)

وهذا يدل على أن المراد ذرية الشيطان ، فلو كان المراد شياطين الإنس معهم لما قال : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُم هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ .

وعلى ذلك فهذه الآية خاصة بالذرية ، ويعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى أن الشيطان لن يكتفى بنفسه ولن يكتفى بالذرية بل سيزين لقوم من البشر أن يكونوا شياطين الإنس كما وجد شياطين الجن ، وهم من قال فيهم سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَبَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ

زُفُوفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الانعام)

وكلمة « زُفُوفَ الْقَوْلِ » تعني الاستمالة التي تجعل الإنسان يرتكب المعصية ويتفعل لها ، ويتأثر بزخارف القول . وكل معصية في الكون هكذا تبدأ من زخرف القول ، فللباطل دعائه ، ومروجوه ، ومعلنوه ، إنهم يزبنون للإنسان بعض شهواته التي تصرفه عن منهج الله ، ونلاحظ أن أعداء الله ، وأعداء منهج الله يترصدون مواسم الإيمان في البشر ، فإذا ما جاء موسم الإيمان خاف أعداء الله أن يمر الموسم تاركاً هبة إيمان في نفوس الناس ، فيحاولوا أن يكتلوا جهودهم حتى يحرموا الناس نفحة الموسم ، فإذا ما حرموا الناس من نفحة الموسم فقد حققوا

غرضهم في العداوة للإسلام . ﴿ إنه يراكم هو وقبيله ﴾ .

إن الشيطان يراكم أيها المكلفون هو وقبيله . والقبيل تدل على جماعة أقلها ثلاثة من أجناس مختلفة أو جماعة يتسبون إلى أب وأم واحدة . واختلف العلماء حول المراد من هذا القول الكريم ؛ فقال قوم : ﴿ إنهم جنوده وذريته ﴾ . ويقصدون جنوده من البشر ، ولم يلتفتوا إلى قول الحق ﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ فلا بد أن يكون المراد بالقبيل هنا الذرية ؛ لأننا نرى البشر ، وفي قوله الحق تغليظ لشدة الحذر والتنبيه ؛ لأن العدو الذي تراه تستطيع أن تدفع ضرره ، ولكن العدو الذي يراك ولا تراه عداوته شديدة وكبده أشد ، والجن يرانا ولا نراه ، وبعض من العلماء علل ذلك لأننا مخلوقون من طين وهو كثيف ، وهم مخلوقون من نار وهي شفيفة .

فالشفيف يستطيع أن يؤثر في الكثيف ، بدليل أننا نحس حرارة النار وبيننا وبينها جدار ، ولكن الكثيف لا يستطيع أن يؤثر في الشفيف ولا ينفذ منه . إذن فنفوذ الجن وشفافيته أكثر من شفافية الإنسان ، ولذلك أخذ خفة حركته . ونحن لا نراه .

إذن معنى ذلك أن الشيطان لا يرى ، ولكن إذا كان ثبت في الآثار الصحيحة أن الشيطان قد رُئي وهو من نار ، والملائكة من نور ، والاثنان كل منهما جنس خفي مستور ، وقد تشكل الملك بهيئة إنسان ، وجاء لرسول الله وقال لنا صلى الله عليه وسلم : « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم »^(١) .

وعلى ذلك رأى السابقون المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل لا على صورة ملائكته ، ولكن على صورة تتسق مع جنس البشر ، فيمثل لهم مادة .

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الشيطان وقال : « إن عفريتاً من الجن جعل يفتك على البارحة ليقطع على الصلاة ، وإن الله أمكنني منه فذعته فلفقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سوازي المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون »^(٢) .

(١) رواه مسلم في الإيمان .

(٢) رواه مسلم في المساجد ، والبخاري في الصلاة ، وأحمد ، ومعنى : « فذعته » : أي غنقته .

وذلك من أدب النبوة. إذن فالشيطان يتمثل وأنت لا تراه على حقيقته ، فإذا ما أرادك أن تراه . . فهو يظهر على صورة مادية . وقد ناقش العلماء هذا الأمر نقاشاً يدل على حرصهم على فهم كتاب الله ، ويدل على حرصهم على تجلية مراداته وأسراره ، فقال بعضهم : حين يقول الله إن الشيطان يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، لابد أن نقول : إننا لن نراه .

وأقول : إن الإنسان إن رأى الجنى فلن يراه على صورته ، بل على صورة مادية يتشكل بها ، وهذه الصورة تتسق وتتفق مع بشرية الإنسان ؛ لأن الجنى لو تصور بصورة مادية كإنسان أو حيوان أو شيء آخر يمكن أن يراه الإنسان ، وحينئذ لفقدنا الوثوق بشخص من نراه ، هل هو الشيء الذي نعرفه أو هو شيطان قد تمثل به ؟

إن الوثوق من معرفة الأشخاص أمر ضرورى لحركة الحياة ، وحركة المجتمع ؛ لأنك لا تعطف على ابنك الا لأنك تعلم أنه ابنك ومحسوب عليك ، ولا تثق فى صديقك الا إذا عرفت أنه صديقك . ولا تأخذ علماً إلا من عالم تثق به . وهب أن الشيطان يتمثل بصورة شخص تعرفه ، وهنا سيشتكك هذا الشيطان ويمنع عنك الوثوق بالشخص الذى يتمثل فى صورته . وأيضاً أعدى أعداء الشيطان هم الذين يبصرون بمنهج الله وهم العلماء ، فما الذى يمنع أن يتشكل الشيطان بصورة عالم موثوق فى علمه ، ثم يقول كلاماً مناقضاً لمنهج الله ؟

إذن فالشيطان لا يتمثل ، هكذا قال بعض العلماء ، ونقول لهم : أنتم فهمتم أن الشيطان حين يتمثل ، يتمثل تمثلاً استمرارياً ، لا . هو يتمثل تمثل الومضة ؛ لأن الشيطان يعلم أنه لو تشكل بصورة إنسان أو بصورة مادية لحكمت الصورة التى انتقل اليها ، وإذا حكمت الصورة التى انتقل اليها فقد يقتله من يملك سلاحاً ، انه يخاف منا أكثر مما نخاف منه ، ويخاف أن يظهر ظهوراً استمرارياً ؛ لذلك يختار التمثل كرمضة ، ثم يختفى ، والإنسان إذا تأمل الجنى المشكل . سيجد فيه شيئاً مخالفاً ، كأن يتمثل - مثلاً - فى هيئة رجل له ساق عترة لتلتفت إليه كورمضة ويختفى ؛ لأنه يخاف أن تكون قد عرفت أن الصورة التى يتشكل بها تحكمه . وإذا عرفت ذلك أمكنك أن تصرعه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٧) [سورة الأعراف]

والشياطين من جعل الله ، وسبحانه خلقى بينهم وبين الذين يريدون أن يفتنهم
والألو أراد الله منعهم من أن يفتنهم - لفعل . . إذن فكل شيء فى الوجود ،
أو كل حدث فى الوجود يحتاج إلى أمرين : طاقة تفعل الفعل ، وداع لفعل الفعل .
فإذا ما كانت عند الإنسان الطاقة للفعل ، والداعى إلى الفعل ، فإبراز
الفعل فى الصورة النهائية تستمدّها من عطاء الله من الطاقة التى منحها الله للإنسان .
فأنت تقول : العامل النساج نسج قطعة من القماش فى غاية الدقة ، ونقول : إن
العامل لم ينسج ، وإنما نسجت الآلة ، والآلة لم تنسج ، لكن الصانع الذى صنعها
أرادها كذلك ، والصانع لم يصممها إلا بالعالم الذى ابتكر قانون الحركة بها .

إذن فالعامل قد وجّه الطاقة المخلوقة للمهندس فى أن تعمل ، واعتمد على طاقة
المهندس الذى صنعها فى المصنع ، والمهندس اعتمد على طاقة الابتكار وعلى العالم
الذى ابتكر قانون الحركة ، والعالم قد ابتكرها بعقل خلقه الله ، وفى مادة خلقها الله .

إذن فكل شيء يعود إلى الله فعلاً ؛ لأنه خالق الطاقة ، وخالق من يستعمل
الطاقة ، والإنسان يوجه الطاقة فقط ، فإذا قلت : العامل نسج يصح قولك ، وإذا
قلت : الآلة نسجت ، صح قولك ، وإذا قلت : إن المصنع هو الذى نسج صح
قولك . إذن فالمسألة كلها مردّها فى الفعل إلى الله . وأنت وجهت الطاقة المخلوقة
لله بالقدرة المخلوقة لله فى فعل أمر من الأمور . فإذا قال الله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ ﴾
أى خلقنا بينهم وبينهم المفتونين بهم ، غير أننا لو أردنا ألا يفتنوا أحداً لما فتنوه .
وهذا ما فهمه إبليس .

﴿ .. لأَعْوِبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٧) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٨٨) [سورة ص]

إذن من يريد الله معصوماً لا يستطيع الشيطان أن يغويه ، وتعلم الشياطين أن الله خلى بينهم في الاختيار ، وهذه اسمها تخلية ؛ ولذلك لا معركة بين العلماء . فمنهجهم أن الطاقة مخلوقة لله ، ونسب كل فعل إلى الله ، ومنهم من رأى أن موجة الطاقة من البشر فينسب الفعل للبشر ، ومنهم من رأى طلاقة قدرة الله في أنه الفاعل لكل شيء ، ومنهم من قال : إن الإنسان هو الذي فعل المعصية . . أى أنه وجه الطاقة إلى عمل والطاقة صالحة له ، فربما يعذبه على توجيه الطاقة للفعل الضار ولا خلاف بينهم جميعاً .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (من الآية ٢٧ سورة الاعراف

إذن جعل الله الشياطين أولياء لمن لم يؤمن ، ولكن الذي آمن لا يتخذ الشيطان ولياً .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا
وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ
حَلَّ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

والفاحشة مأخوذة من التفحش أى التزديد فى القبح ، ولذلك صرفها بعض العلماء إلى لون خاص من الذنوب ، وهو الزنا ، لأن هذا تزديد فى القبح ، فكل معصية يرتكبها الإنسان تنتهى بأثرها ، لكن الزنا يخلّف آثاراً . . فإما أن يولد المولود ، وإما أن تجهض المرأة ، وإما أن تلد طفلها وتلقيه بعيداً ، ويعيش طريداً فى المجتمع لا يجد مسئولاً عنه ، وهكذا تصبح المسألة ممتدة امتداداً أكثر من أى معصية أخرى . وتصنع هذه المعصية الشك فى المجتمع . ولنا أن نتصور أن إنساناً يشك فى أن من يتسبون إليه ويحملون اسمه ليسوا من صلبه ، وهذه يلوى

كبيرة للغاية . والذين قالوا : إن الفاحشة المقصود بها الزنا نظروا إلى قول الله سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝٣٢ ﴾ [سورة الإسراء]

أو الفاحشة هي ما فيه حد ، أو الفاحشة هي الكبائر ، ونحن نأخذها على أنها التزبد في القبح على أى لون من الألوان .

فما هي الفاحشة المقصودة هنا ؟ . إنها الفواحش التى تقدمت فى قوله :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَعِيرَةٍ وَلَا سَاءِيَةٍ .. ۝١٠٣ ﴾ [سورة المائدة]

وكذلك ما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ .. ۝١٣٧ ﴾

[سورة الأنعام]

وكذلك فى قوله الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا .. ۝١٣٦ ﴾ [سورة الأنعام]

أو أن المقصود أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، فيطوف الرجال نهاراً ، والنساء يطفن ليلاً ، لماذا ؟ . لأنهم ادَّعَوْا الورع . وقالوا : نريد أن نطوف إلى بيت ربنا كما ولدتنا أمهاتنا ، وأن نتجرد من متاع الدنيا ، ولا نطوف ببيت الله فى ثياب عصينا الله فيها .

وقولهم : «وجدنا عليها آباءنا» تقليد ، والتقليد لا يعطى حكماً تكليفاً ، وإن

أعطى علماً تدريجياً ، بأن ندرب الأولاد على مطلوب الله من المكلف ليستطيعوا ويألفوا ما يكلفون به عندما يصلون إلى سن التكليف . وما يدل على أن التقليد لا يعطى حقيقة ؛ أنك تجد المذهبين المتناقضين - الشيوعية والرأسمالية مثلاً - مقلدين ؛ لهذا المذهب مقلدون ، ولهذا المذهب مقلدون . فلو أن التقليد معترف به حقيقة لكان التقليدان المتضادان حقيقة ، والمتضادان لا يصبحان حقيقة ؛ لأنهم - كما يقولون - الضدان لا يجمعان ، هذا هو الدليل العقل في إبطال التقليد . ولذلك نلاحظ في أسلوب الأداء القرآني أنه أداء دقيق جداً ؛ فالذي يتكلم إليه .

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الاعراف)

والرد من الله عليهم أنه سبحانه لم يأت في مسألة التقليد برّد لأنه بداهة لا يؤدي إلى حقيقة ، بل قال :

﴿ قُلْ إِنْ أَلَّهِ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الاعراف)

وهذا رد على قولهم : والله أمرنا بها . وأين الرد على قولهم : ﴿ وجدنا عليها آباءنا ؟ ﴾ .

نقول إنه أمر لا يحتاج إلى رد ؛ لأنه أمر يرفضه العقل الفطري ، ولذلك ترك الله الرد عليه ؛ لموضح بطلانه عند العقل الفطري ، وجاء بالرد على ادعائهم أن الله يأمر بالفحشاء ، فالله لا يأمر بالفحشاء . ثم كيف كان أمر الله لكم ؟ . أمر أمر مباشر ؛ . بمعنى أنه قد أمر كل واحد منكم أن يرتكب فاحشة ؟ ألم تشبهوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيَ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

أم بلغكم الأمر بالفاحشة عن طريق نبي فكيف ذلك وأنتم تكذبون مجيء الرسول ؟ . وهكذا يكون قولكم مردوداً من جهتين : الجهة الأولى : إنه لا طريق

إلى معرفة أمر الله إلا بأن يخاطبكم مباشرة أو يخاطبكم بواسطة رسل ؛ لأنكم لستم أهلاً للخطاب المباشر ، والجهة الثانية : أنكم تنكرون مسألة الأنبياء والرسل . فأنتم لم يخاطبكم الله بالمباشرة أو بواسطة الرسل فلم يبق إلا أن يقال لكم :

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الاعراف)

ولا جواب على السؤال إلا بأمرين : إما أن يقولوا : لا ؛ فقد كذبوا أنفسهم ، وإما أن يقولوا : نعم ؛ فإذا قالوا : نعم نقول على الله ما لا نعلم ؛ فقد فضحوا أنفسهم وأقروا بأن الله لم يأمر بالفاحشة ، بل أمر الله بالقسط ، لذلك يقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (٢٩)

والقسط هو العدل من قسط قسماً ، وأما قاسط فهو اسم فاعل من قسط قسماً وقسوطاً أى جار وعدل عن الحق ، والقاسطون هم المنحرفون والمائلون عن الحق والظالمون ، وكلمة العدل هي التسمية ، فإن ملت إلى الحق ، فذلك العدل المحبوب . وإن ملت إلى الباطل ، فذلك أمر مكروه ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ . وهذه جملة خبرية .

﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الاعراف)

وهذا فعل أمر ، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا من عطف الأمر على الخير ، ولكن لتنتفت أن الحق يعطفها على « قل » ، فكان المقصود هو أن يقول : « قل أمر ربى بالقسط ، وقل أقيموا وجوهكم عند كل مسجد » .

والوجه هو السمة المعينة للشخص ؛ لأن الإنسان إن أخفى وجهه لن تعرفه إلا إن كان له لباس مميز لا يرتديه الا هو . والوجه أشرف شيء في التكوين الجسمي ، ولذلك كان السجود هو وضع الوجه في الأرض ، وهذا منتهى الخضوع لأمر الله بالسجود ؛ لأن السجود من الفاعل المختار وهو الإنسان يكون بوضع الجبهة على الأرض . وكل شيء خاضع لحكم الله نقول عنه : إنه ساجد .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ .. (١٨) ﴾ [سورة الحج]

والشجر يسجد وهو نبات ، والدواب تسجد وهي من جنس الحيوان ، والشمس والقمر والنجوم والجبال من الجماد وهي أيضا ساجدة ، لكن حين جاء الحديث عن الإنسان قسمها سبحانه وقال :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [سورة الحج]

لأن الإنسان له خاصية الاختيار ، وبقية الكائنات ليس له اختيار . إذن فالسجود قد يكون لغير ذي وجه ، والمراد منه مجرد الخضوع ، أما الإنسان فالسجود يكون بالوجه ليعرف أنه مستخلف وكل الكائنات مسخرة لخدمته وطائفة وكلها تسبح ربنا ، فإذا كان السيد الذي تخدمه كل هذه الأجناس حيواناً ، ونباتاً ، وجماداً قد وضع وجهه على الأرض فهو خاضع من أول الأمر حين نقول عنه إنه ساجد .

﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ .. (٢٩) ﴾ [سورة الأعراف]

والإقامة أن تضع الشيء فيما هيىء له وتخلق وتطلب منه ، وإن وجهته لناحية ثانية تكون قد ثبتت وأملت وحنيت ، وعوّجت . إذن فإقامة الوجه تكون بالسجود ؛ لأن الذي سخر لك هذا الوجود وحكمك بمنهج التكليف هو من جعلت وجهك في الأرض من أجله ، وإن لم تفعل ذلك فأنت تختار الاعوجاج لوجهك ، واعلم أن

هذا الخضوع والخشوع والسجود لله لن يعطيك فقط السيادة على الأجناس الأخرى التي تعطيك خير الدنيا ، ولكن وضع جبهتك ووجهك على الأرض يعطيك البركة في العمل ويعطيك خير الآخرة أيضاً . والعاقِل هو من يعرف أنه أخذ السيادة على الأجناس فيتقن العبودية لله ، فيأخذ خيري الدنيا والآخرة حيث لا يفوته فيها النعيم ولا يفوت هو النعيم ، أما في الدنيا فأنت تقبل عليها باستخلاف وتعلم أنك قد يفوتك النعيم ، أو تفوت أنت النعيم ، وحين تتذكر الله وتكون خاضعاً لله فأنت تنال البركة في حركة الاستخلاف .

﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ۖ ﴾ [سورة الأعراف]

والمسجد مكان السجود ، وقال الرسول ﷺ : «فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونُصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون»^(١) .

إذن فكل موضع في الأرض مسجد ، فإن دخلت معبداً لتصلي فهذا مسجد . والأرض كلها مسجد لك . يصح أن تسجد وتصلي فيها . وتزاول فيها عملك أيضاً ، ففي المصنع تزاول صنعتك فيه ، وحين يأتي وقت الصلاة تصلي ، وكذلك الحقل تصلي فيه ، لكن المسجد الاصطلاحي هو المكان الذي حُبس على المسجدية وقصر عليها ، ولا يزاول فيه شيء آخر . فإن أخذت المسجد على أن الأرض مسجد كلها تكن ﴿ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ في جميع أنحاء الأرض . وإن أخذتها على المسجد ، فالمقصود إقامة الصلاة في المكان المخصوص ، وله متجه وهو الكعبة . وكذلك يكون اتجاهك وأنت تصلي في أي مكان . والمساجد تسميها بيوت الله ولكن باختيار خلق الله ، فبعضنا يبنى مسجداً هنا أو هناك . ويتجهون إلى بيت باختيار الله وهو الكعبة . ولذلك كانت كعبة ومشجهاً لجميع بيوت الله .

(١) رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة .

وقصارى الأمر أن نجعل قبلة المسجد متجهة إلى الكعبة وأن نقيم الوجه عليها ،
أى على الوجه الذى تستقيم فيه العبادة . وهو أن تتجهوا وأنتم فى صلاتكم إلى
الكعبة فهى بيت الله باختيار الله .

وساعة ما تصادفك الصلاة صل فى أى مسجد ، أو ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل
مسجد ﴾ يقصد بها التوجه للصلاة فى المسجد ، وهنا اختلف العلماء ، هل أداء
الصلاة وإقامتها فى المسجد ندباً أو حتماً ؟ . والأكثرية منهم قالوا ندباً ، والأقلية
قالوا حتماً . ونقول : المحتمية لا دليل عليها .

من قال بحتمية الصلاة فى المسجد استدل بقوله صلى الله عليه وسلم :

والذى نفرس بيده لقد هممت أن أمر بحطب فيحطب ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها ثم
أمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخلف إلى رجل فاحرق عليهم بيوتهم^(١) .

ونقول : هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أو لم يفعل ؟ لم يفعل
رسول الله ذلك ، إنما أراد بالأمر التغليظ ليشجعنا على الصلاة فى المساجد عند
أى أذان للصلاة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والدعاء : طلب من عاجز يتجه به لقادر فى فعل يحبه الداعى . وحين تدعو
ربك ادعه مخلصاً له الدين بحيث لا يكون فى بالك الأسباب ، لأن الأسباب إن
كانت فى بالك فأنت لم تخلص الدين ، لأن معنى الإخلاص هو تصفية أى شئ
من الشوائب التى فيه ، والشوائب فى العقائد وفى الأعمال تفسد الإتيان
والإخلاص ، وإياكم أن تفهموا أن أحداً لا تأتى له هذه المسألة ، فرسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول :

﴿ إِنِّي لَبِئْسَ عَلَىٰ قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ يَوْمٍ مِّائَةَ مَرَّةٍ ﴾ (١)

إذن فالإخلاص عملية قلبية ، وأنت حين تدعو الله ادعه دائماً عن اضطرار ، ومعنى اضطرار . أن ينقطع رجاؤك وأملك بالأسباب كلها . فذهبت للمسبب ، ومادمت مضطراً مسجيب وينا دعوتك ؛ لأنك استغفدت الأسباب ، وبعض الناس يدعون الله عن ترف ، فالإنسان قد يملك طعام يومه ويقول : ارزقني ، ويكون له سكن طيب ويقول : أريد بيتاً أملكه . إذن فبعضنا يدعو بأشياء الله فيها أسباب ، فيجب أن نأخذ بها ، وغالبية دعائنا عن غير اضطرار . وأنا أتحدى أن يكون إنسان قد انتهى به أمر إلى الاضطرار ولا ينجيه الله .

وبدليل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ كَمَا بَدَأُنَاكَ تَمُودُونَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والله سبحانه يخاطب الإنسان ، ويحننه ، مذكراً إياه بـ « افعل كذا » و « افعل كذا » . وسبحانه قادر أن يخلقه مرغماً على أن يفعل ، لكنه - جل وعلا - شاء أن يجعل الإنسان سيداً وجعله مختاراً ، وقهر الأجناس كلها أن تكون مسخرة وفاعلة لما يريد ، وأثبت لنفسه - سبحانه - صفة القدرة ، ولا شيء يخرج عن قدرته ؛ فأنت أيها العبد تكون قادراً على أن تعصى ولكنك تطيع ، وهذه هي عظمة الإيمان إنها تثبت صفة المحبوبة لله ، فإذا ما غر الإنسان بالأسباب ويخضع الكون كله ، وبما فيه من عافية ، وبما فيه من قوة ، وبما فيه من مال ، تجد الحق يلفتك : لاحظ أنك لن تتغلب مني : أنا أعطيت لك الاختيار في الدنيا ، لكنك ترجع لي في الآخرة ولن تكون هناك أسباب ، ولن تجد إلا المسبب ، ولذلك اقرا :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة هافر)

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار ، وأبو داود في الصلاة ، والنسائي في عمل اليوم ، والإمام أحمد ٢١١/٤ . ومعنى (لَبِئْسَ) : ما يتغشى القلب ، وقيل الفترات والغفلات عن الذكر ، أو همه بسبب أمته فيستغفر لها ، وقال المناوي : هو غيب أنوار لاغين أغيار ولا حجاب ولا غفلة .

راجع أصله وشرح أحاديث الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

كَانَ الْمُلْكُ قَبْلَ ذَلِكَ - أَى فِي الدُّنْيَا - كَانَ لِلْبَشَرِ فِيهِ شَيْءٌ لِمَبَاشَرَتِهِمُ الْأَسْبَابَ
هَذَا يَمْلِكُ ، وَذَلِكَ يَمْلِكُ ، وَآخِرُ يَرْوُفُ ، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ لَا مَالِكَ ، وَلَا مَلِكٌ إِلَّا
اللَّهُ ، فَرِيَاكُمْ أَنْ تَغْتَرُوا بِالْأَسْبَابِ ، وَأَنَّهَا دَانَتْ لَكُمْ ، وَأَنْكُمْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَتَحَكَّمُوا
فِيهَا ؛ لِأَن مَرْجِعَكُمْ إِلَى اللَّهِ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ
اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

اذكروا أننا قلنا من قبل : إن الله هدى الكل . . بمعنى أنه قد بلغهم بمنهجهم عبر
مركب الرسل ، وحين يقول سبحانه : ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾
فالمقصود هنا ليس هداية الدلالة ، لكن دلالة المعونة . وقد فرقنا بين هداية الدلالة
وهداية المعونة .

وقوله الحق ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾ أى هداية المعونة ؛ لأن هذا الفريق أقبل على الله
بإيمان فخفف الله عليه مؤونة الطاعة ، وبغضه في المعصية ، وأعان على مهمته .
أما الذى تأبى على الله ، ولم يستجب لهداية الدلالة أبعثه الله ؟ لا . إنه يتركه فى
غِيٍّ ويخلى بينه وبين الضلالة ، ولو أراد مهادياً لما استطاع أحد أن يغير من ذلك .
وسبحانه منزّه عن التجنى على أحد من خلقه ، ولكن الذين حق عليهم الضلالة
حصل لهم ذلك بسبب ما فعلوا .

﴿ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأعراف)

إن من يرتكب المعصية ويعترف بمعصيته فهذه تكون معصية ، أما من يقول إنها

هداية فهذا نبجح وكفر ؛ لأنه يرد الحكم على الله . وخير للذين يرتكبون المعاصي أن يقولوا : حكم الله صحيح ولكننا لم نقدر على أنفسنا ، أما أن يرد العاصي حكم الله ويقول : إنه الهداية ، فهذا أمره عسير ؛ لأنه يتفلسف من مرتبة عاصي إلى مرتبة كافر والعباد بالله .

﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأعراف)

لأنهم يفعلون ما حرم الله ، وليتهم فعلوه على أنه محرم ، وأنهم لم يقدرُوا على أنفسهم ، ولكنهم فعلوه وظنوا أن الهداية في الفعل . وهذا الأمر يشيع في معاصي كثيرة مثل الربا ، فتجد من يقول : إنه حلال ، ونقول : قل هو حرام ولكن لم أقدر على نفسي ، فتدخل في زمرة المعصية ، ولا تدخل في زمرة الكفر والعباد بالله ، ويمكنك أن تستغفر فيغفر لك ربنا ، ويتوب عليك ، ولكن أن ترد الحكم على الله وتقول إنه حلال !! فهذا هو الخطر ؛ لأنك تبعد وتخرج عن دائرة المعصية وتردى ونقع في الكفر ، أربأ بنفسك عن أن تكون كذلك وأعلم أن كل ابن آدم خطاء ، وما شرع الله التوبة لعباده إلا لأنه قدّر أن عبده يخطئون ويصيئون ، ومن رحمته أنه شرع التوبة ، ومن رحمته كذلك أنه يقبل هذه التوبة ، فلماذا تخرج من حيز يمكن أن تخرج منه إلى حيز يضيق عليك لا نستطيع أن تخرج منه ؟ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١)

والزينة إذا سمعتها تنصرف إلى تجميل فوق قوام الشيء ، وقوله سبحانه وتعالى :

﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

هذا يعنى أن يذهب المسلم إلى المسجد بأفخر ما عنده من ملابس ، وكذلك يمكن أن يكون المقصود بـ ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ هو رد على حالة خاصة وهو أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، وأن المراد بالزينة هنا هو ستر العورة . أو المراد بالزينة ما فوق ضروريات الستر ، أو إذا كان المراد بها اللباس الطيب الجميل النظيف ، فتحسن نعلم أن المسجد هو مكان اجتماع عباد الله ، وهم متنوعون فى مهمات حياتهم ، وكل مهمة فى الحياة لها زيتها ولها هندامها ، فالذى يجلس على مكتب لمقابلة الناس له ملابس ، ومن يعمل فى « الجَدَاة » له زي خاص مناسب للعمل ، ولكن إذا ذهبتم إلى المسجد لتجتمعوا جميعاً فى لقاء الله ، أيا تى كل واحد بلباس مهته ليدخل المسجد ؟ لا ، فليجعل للمسجد لباساً لا يضابق غيره ، فإن كانت ملابس العمل فى مصنع أو غير ذلك لا تليق ، فاجعل للمسجد ملابس نظيفة حتى لا يؤذى أحد بالوجود بجانبك ، لأننا نذهب إلى المسجد لعمل مشترك يحكم الجميع وهو لقاء الله فى بيت الله ، فلا بد أن تحتفى بهذا اللقاء .

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

والمأكول والمشرب من الأمور المباحة لأن فيها مقومات الحياة ، وكل واشرب على قدر مقومات الحياة ولا تسرف ، فقد أحل الله لك الأكثر وحرم عليك الأقل ، فلا تتجاوز الأكثر الذى أحل لك إلى ما حرم الله ؛ لأن هذا إسراف على النفس ، بدليل أنه لو لم تجدد إلا المينة ، فهي حلال لك بشرط ألا تسرف . ولا يصح أن تنقل الأشياء من تحليل إلى تحریم ؛ لأن الله جعل لك فى الحلال ما يغنيك عن المحرام ، فإذا لم يوجد ما يغنيك ، فالحق يحل لك أن تأخذ على قدر ما يحفظ عليك حياتك ، والمُسرفون هم المتجاوزون الحدود . ولا سرف فى حل ، إنما السرف يكون فى الشيء المحرم ، ولذلك جاء فى الأثر :

« لو أنفقت مثل أحد ذهباً فى حلٍّ ما اعتبرت مسرفاً ، ولو أنفقت درهماً واحداً فى محرم لا اعتبرت مسرفاً » .

ولذلك يطلب منك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعطى كل نعمة حقها

بشرط ألا يؤذى بك ذلك إلى البطر، وحينما ذهب إليه سيدنا عثمان بن مظعون، وقد أراد أن يترهب، ويتنك، ويسبح في الكون، وقال لرسول الله: يا رسول الله، إنني أردت أن اختصي؛ أي يقطع خصيتيه؛ كي لا تبقى له غريزة جنسية، فقال ﷺ: يا عثمان خصاء أمتي الصوم. لذلك قال ﷺ في شأن من لم يستطع الزواج: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(١).

وقد روى أن رسول الله ﷺ ذكر الناس وخوفهم فاجتمع عشرة من الصحابة وهم: أبو بكر وعمر وعلي وابن مسعود وأبو ذر وسالم مولى أبي حذيفة والمقداد وسليمان وعبد الله بن عمرو بن العاص ومعقل بن مقرن في بيت عثمان بن مظعون فانفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء ويجبوا مذاكيرهم^(٢). فكان التوجيه النبوي أن حمد الرسول ﷺ ربه وأثنى عليه وقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ولكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٣).

ويتابع الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣١)

وما دام أخرجها لعباده فهو قد أرادها لهم، وما ينفع منها للإناث جعلتها السنة

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) فتح الباري.

(٣) رواه مسلم.

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿ ٤١١٥ ﴾

للإناث ، وما يصلح منها للذكور أحلتها السنة لهم ، وكذلك الطيب من الرزق حلال للمؤمنين والمؤمنات . ولننحظ دقة الأسلوب هنا في قوله تعالى :

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ثم يتابع سبحانه .

﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

فكأننا أمام حائشين اثنتين : حالة في الدنيا ، وأخرى في يوم القيامة ، معنى ذلك أن الزينة في الحياة الدنيا غير خالصة ؛ لأن الكفار يشاركونهم فيها ، فهي من عطاء الربوبية ، وعطاء الربوبية للمؤمن والمكافر ، وربما كان الكافر أكثر حظاً في الدنيا من المؤمن ، ولكن في الآخرة تكون الزينة خالصة للمؤمنين لا يشاركونهم فيها الكافرون .

وكذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعطي البقعة الإيمانية في المؤمن بوجود الأغيار فيه ، ومعنى وجود الأغيار أنه قد يتعرض الإنسان لتقلبات بين الصحة والمرض والغنى والفقر والقوة والضعف . وهكذا يكون الإنسان في الدنيا ؛ فهي دار الأغيار ، ويصيب الإنسان فيها أشياء قد يكرهها ؛ لذلك فالدنيا ليست خالصة النعيم لها فيها من أغيار تأتيك فتسوءك . إنها تسوءك عند غيبة شحنة الإيمان منك ؛ لأنك إن استصحبته شحنة الإيمان عند كل حدث أجراه الله عليك لفلتلك الله إني حكمته .

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ويمكن أن نقرأ كلمة « خالصة » منصوبة على أنها حال ، ويمكن أن نقرأها في قراءة أخرى مرفوعة على أنها خبر بعد خبر ، والمعنى : أنها غير خالصة للمؤمنين في الدنيا لمشاركة الكفار لهم فيها ، وغير خالصة أيضاً من شوائب الأغيار ولكنها

فى الآخرة خالصة للمؤمنين فلا يشاركهم الكفار ولا تأنى لهم فيها الأغيار .
ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْنُونَ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

معنى « نفصل الآيات » أى لانأتى بالآيات جملة بل نفصل الآيات لكل
مؤمن ، فلا تترك خللاً ، وتأتى فيها بكل ما تتطلبه أفضية الحياة ، بتفصيل يفهمنا
قضاياها فهماً لا لبس فيه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ
وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ،
سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾

والحق سبحانه - قد بدأ الآية بـ « إنما » التى هى للحصر : أى ما حرم ربهى إلا
هذه الأشياء ، الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم ، والبغى بغير الحق ،
والشرك بالله ، والقول على الله ما لا نعلم ، فلا تدخلوا أشياء أخرى وتجعلوها
حراماً ، لأنها لا تدخل فى هذه ، وقول الله فى الآية السابقة : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ
اللَّهِ ﴾ هو على صيغة استفهام لكى يجبروا هم . ولن يجدوا سبباً لتحريم زينة الله .
لأن الحق قد وضح وبين ما حرم فقال :

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ
تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ، سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾

(سورة الأعراف)

ونتأمل الخمسة المحرمات التي جاءت بالآية ، فحين ننظر إلى مقومات حياة الخلافة في الأرض ليبقى الإنسان خليفة فيها نرى أنه لابد من صيانة أشياء ضرورية لسلامة هذه الخلافة وأداء مهمتها ، وأول شيء أن يسلم للمجتمع طهر أنسابه . وسلامة طهر الأنساب أى الإنجاب والأنسال ضرورية للمجتمع ؛ لأن الإنسان حين يثق أن ابنه هذا منه فهو يحرص عليه لأنه منسوب إليه ، ويرعاه ويربيه . أما إذا تشكك في هذه المسألة فإنه يهمله ويلفظه ، كذلك يهمله المجتمع ، ولا أحد يريه ولا يلتفت إليه ولا يعنى به .

إذن فسلامة الأنساب أمر مهم ليكون المجتمع مجتمعاً سليماً ، بحيث لا يوجد فرد من الأفراد إلا وهو محسوب على أبيه ، بحيث يقوم له بكل تبعات حياته ، ولذلك يجب أن تعلموا أن الأطفال المشردين مع وجود آبائهم حدث من أن شكاً طراً على الأب في أن هذا ليس ابنه . ولذلك ماتت فيه غريزة الحنان عليه ، فلا يبالي إن رآه أم لم يره ، ولا يبالي أهو فى البيت أم شرد ، لا يبالي أكل أم جاع ، لا يبالي تعرى أم لا .

إذن فظاهرة الأنساب ضمان لسلامة المجتمع ؛ لأن المجتمع سيكون بين مرب يقوم على شأن وصغير مربى ، المربى قادر على أن يعمل ، والمربى صغير يحتاج إلى التربية . ولذلك حرم الله الفواحش والفحش . كما قلنا - ما زاد قبحه ، وانتهوا على أنه هو الزنا ؛ لأن أثره لا يتوقف فقط عند الذنب والاستمتاع . بل يتعدى إلى الأنسال . وما يتعدى إلى الأنسال فهو تعدى إلى المجتمع ، وبصير مجتمعاً مهملاً لا راعى له .

والإثم : أهو كل كبيرة أو ما يقام على فاعله حد ؟ . لقد انتهى العلماء على أن الإثم هو الخمر والميسر ؛ لأن الله قال بالنص :

﴿ وَإِنَّهُمَا كَبِيرٌ مِنَ تَفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وأراد الحق بذلك أن يضمن مقوم تنظيم حركة الحياة فى الإنسان وهو العقل وأن

الخمر تغيب العقل، والإنسان مطالب بأن يحفظ عقله ليواجه به أمور الحياة لمواجهة تبقى الصالح على صلاحه أو تزيده صلاحاً ولا تتعدى على الإنسان، فإذا ما ستر العقل بالخمر فسد واختل، ويختل بذلك التخطيط لحركة الحياة. والذين يأتون ويشربون ويقولون: نريد أن ننسى همومنا نقول لهم: ليس مراد الشارع أن ينسى كل واحد ما أهم؛ لأنه إن نسي كل واحد ما أهمه فلن يحتاط أحد ولن يقوم على تقدير الأمور التي تسمن السلامة.

إن الشارع يطلب منك أن تواجه الهموم التي تعاني منها مضاعف لتزيلها. أما أن تستر العقل فأنت قد هربت من المشكلة، إذن يجب عليك أن تواجه مشكلات الحياة بعقلك وبتفكيرك. فإن كانت المشكلة، قد نشأت من أنك أهملت في واجب سبب أي له أسباب وقد قصرت في الأخذ بها فأنت الملولم. وإن كانت المشكلة جاءتك من أمر ليس في قدرتك، أي هبطت عليك قضاء وقدر؛ فاعلم أن مجريها عليك له فيها حكمة.

وقد يكون البلاء ليحميك الله من عيون الناس فيحسدوك عليها، لأن كل ذي نعمة محسود، وحتى لا تتم النعمة عليك، لأن تمام النعمة على الإنسان يؤذن بزوالها، وأنت ابن الأغيار وفي دنيا الأغيار، وإن تمت لك فقد تتغير النعمة بالنقصان.

إذن فالتفكير في ملافاة الأسباب الضارة وتجنبها يأتي بالعقل الكامل، والتفكير في الأشياء التي ليس لها سبب يأتي من الإيمان، والإيمان يطلب منك أن ترد كل شيء إلى حكمة الحكيم. إذن فأنت تحتاج إلى العقل فلا تسره بشرب الخمر؛ لأن العقل يدير حركة الحياة.

البيغي يعرف أنه مجاوزة الحد ظلماً أو أكبر، أو بخلًا. والظلم أن تأخذ حق غيرك وتحرمه من ثمرة عمله فيزهد في العمل؛ لذلك يحرم الحق أن يبغي أحد على أحد. لا في عرضه، ولا في نفسه، ولا في ماله. ويجب أن تصون العرض من الفواحش؛ لأن كل فاحشة قد تأتي بأولاد من حرام. وإن لم تأت فهي تهدر العرض، والمطلوب صيافته، كذلك لا يبغي أحد على محارم أحد، وكذلك لا يبغي أحد على حياة إنسان بأن يهدمها بالقتل.

ويصمون الحق المال فيمنع عنه البغى فلا يأخذ أحد ثمرة عمل آخر وكفاحه عدواناً وظلماً، ومظاهر البغى كثيرة . ومن البغى أن تأخذ سلطة قسراً بغير حق ولكن هناك من يأخذ سلطة قسراً وقهراً بحق ، فإن كنت . على سبيل المثال . تركب سفينة ، ثم قامت الرياح والزواجع ، وأنت أمهر في قيادتها أتترك الریان يقودها وربما غرقت بين فيها أم تضرب على يده وتمسك بالدفة وتديرها لتقذها ومن فيها ، إنك في هذه الحالة تكون قد أخذت القيادة بحق صيانة أرواح الناس ، وهذا بغى بحق ، وهو يختلف عن البغى بغير الحق . وحتى تفرق بين البغى البغى بحق والبغى بغير الحق نقول . إن هذا يظهر ويتضح عندما نأخذ مال السفينة منه للحفاظ عليه وصيانتها وتسميره له ، فنكون قد أخذنا من صاحبه رعاية لهذا الحق ، فهو وإن كان في ظاهره بغياً على صاحب الحق إلا أنه كان لمصالحه وللصالح العام فهذا بغى بحق أو أنه سمي بغياً ؛ لأنه جاء على صورة استلاب الحق من صاحبه ظلماً ، ويسمى هذا في علم البلاغة مشاكلة وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صفة ذلك الغير ، ونقرأ أيضاً قول الله :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (١٠) ﴾ [سورة الشورى]

فهل جزاء السيئة يكون سيئة؟ لا . وإنما هي سيئة بالنسبة لمن وقعت عليه ؛ لأنه لما عمل سيئة واختلس مالا - مثلاً - وضربت على يده وأخذت منه المال فقد أتعبتة ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾

[سورة النحل]

ومن بغى بغير حق علينا أن نذكره بأن هناك من هو أقوى منه ، أن يتوقع أن يناله بغى عن هو أكثر قدرة منه .

وينبهنا الحق إلى العمل الذي لاغفران له : ﴿ وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ .

ومحال أن ينزل الحق الذي تعبد شريكاً له ويؤيده بالبرهان والسلطان والحجة

على أنه شريك له - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، لأن من خصائص الإيمان أنه سبحانه ينفي هذا الشرك بأدلة العقلية وأدلة النقلية .

وإذا كان الحق قد قال لنا في هذه الآية :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

فبعض من الآيات الأخرى جمعت هذه الأشياء ، في إطار إيجازي ومع المقابل أيضاً ، يقول الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة النحل)

لقد جاء بالفحشاء في هذه الآية ليؤكد طهارة الأسال ، وجاء أيضاً بتحريم المنكر والبغى ، وزاد في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها الإثم فقط . وكان الإثم في آية الأمر بالعدل والإحسان والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى ، مطمور في « المنكر » ، والمنكر ليس محرماً بالشرع فقط ، بل هو ما ينكره الطبع السليم ؛ وأيضاً فصاحب الطبع غير السليم يحكم أنه منكر إذا كانت المعاصي تعود عليه بالضرر ، هنا يقول : أعوذ بالله منها ، وإن كان هو يوقعها على الغير فهو يعتقد أنها غير منكر ، وعلى سبيل المثال نجد رجلاً يبيع نفسه أن يفتح أعينه على عورات الناس ويتلذذ بهذه المسألة . لكنه ساعة يرى إنساناً آخر يفتح عينيه على عورته أو على ابنته مثلاً إنه يرى في ذلك أبشع المنكرات ؛ لذلك لابد أن تجعل للمنكر حدّاً يشملك ويشمل غيرك ولا تنظر إلى الأمر الذي تكلف به أنت وحدك ، وإنما انظر إلى الأمر المكلف به الآخرون . . وإياك أن تقول : إنه حدد بصري من أن يتمتع بجسيم يسير أمامي ، إنه - سبحانه - كما حرم نظرك إلى ذلك ، حرم أنظار الناس جميعاً أن ينظروا إلى معارمك ؛ وفي هذا صيانة لك .

وبعد أن حلل هذه الطيات والزينة ، وحرم الفواحش والمنكر والبغى والإثم يقول سبحانه :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٢٤)

نحن هنا أمام نص قرآني تثبت قضايا الوجود الواقعي ؛ فالذين سفكوا ، وظلموا ، وانتهكوا الأعراض ، وأخذوا الأموال . لم يدم لهم ذلك ، بل أمد الله لهم في طغيانهم ، وأخذهم به أخذ عزيز مقتدر . ولو أراد خصومهم الانتقام منهم لما وصلوا إلى أدنى درجات انتقام السماء . ويجري الحق هذا الانتقام من الطغاة لصيانة سلامة المجتمع . فإن رأيت فساداً أو طغياناً إليك أن تياس ؛ لأن الحق سبحانه قد أوضح أن لكل أمة أجلاً ، بداية ونهاية ، ففي أعمارنا القصيرة رأينا أكثر من أمة جاء أجلها . إذن فكل طاغية يجب أن يتحمل هذه الآية :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٢٤)

(سورة الأعراف)

والأجل لكل أمة معروف عند الله ؛ لأن الباطل والظلم إن لم يعض الناس عضه تجعلهم يصرخون فهم لا يستشفون إلى الحق ولا يتطلعون إليه ، والألم وسيلة العاقبة لأنه يؤكد لك أن وضعك غير طبيعي ، وعلى ذلك فالمسائل التي تحدث في الكون وهذه الأمم التي تظلم . وتضطهد . ولها جبروت وطيغان إنما تفعل ذلك إلى أجل معلوم . فإياك أن تياس ، ولكن عليك أن تستشف إلى الحق . وإلى جناب الله فتلوذ به وحده ، ولذلك نجد أكثر الناس الذين حدثت لهم هذه الأحداث لم يجدوا إلا واحة الإيمان بالله ؛ ففروا إلى بيته حجاجاً وإلى مساجده عماراً وإلى قراءة قرآنه ذكراً . وننظر إلى هذه الأمور ونقول : إن الطاغية الفاجر مهما فعل فلا بد أن يسخره الله لخدمة دينه ، وهناك أناس لولا أن الدهر عضهم وأخنى عليهم كان سلبط عليهم ظالماً لما فروا إلى الله بحثاً عن نجاة ، ولما التفتوا لربنا عبادة .

إن في واقع حياتنا يعرف كل منا أناساً ، كان الواحد منهم لا يعبد ربه فلا يصلي ولا يصوم ولا يذكر ربه ، ثم جاءت له عضة من ظالم فيلجأ الإنسان المعضوض إلى الله عائداً به ملتجئاً إليه ، ولذلك نقول للظالم : والله لو عرفت ماذا قدمت أنت لدين الله ، ولم تأخذ عليه ثواباً لندمت ، فأنت قد قدمت لدين الله عصية ممن كانوا من غير المتدينين به . ولو أنك تعلم ما يأتي به طغيانك وظلمك وجبروتك من نصر لدين الله لما صنعتته أنت ، إن لكل أمة أجلاً ، فإن كنت ظالماً وعلى رأس جماعة ظالمة فلذلك نهاية .

وانظر إلى التاريخ تجد بعض الدول أخذت في عنفوانها وشدها سيادة على الشعوب ، ثم بعد فترة من الزمن تحل بها الخيبة وتأتي السيطرة عليها من الضعاف ؛ لأن هذا هو الأجل . إن الحق يعنى بصائرهم في تصرف ، يظنون أنه يضمن لهم التفوق فإذا به يجعل الضعيف يغلبهم ويسطر عليهم . وإذا جاء الأجل فلا أحد يستطيع تأخيرها ؛ لأن التوقيت في يد قيوم الكون ، وهم أيضاً لا يستقدمون هذا الأجل ، ونلاحظ هنا وجود كلمة « ساعة » ، والساعة لها اصطلاح عصرى الآن من حيث إنها معيار زمنى لضبط المواقيت ، ونعلم أن اليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة ، والأقل من الساعة الدقيقة ، والأقل من الدقيقة الثانية ، والأكبر من الساعة هو اليوم . ومن يدري فقد يخترع البشر آلات لضبط الجزء من الثانية .

وكذلك تطلق الساعة على نيام القيامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ
عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾

هنا ينادى الحق أبناء آدم ، بعد أن ذكرهم أنه أحل لهم الطيبات والزينة وحرم

عليهم المسائل الخمسة من الفاحشة والمنكر والبغى والإثم والشرك، ووضع لهم نظاماً يضمن سلامة المجتمع، وضمانهم بأنه متقن من أى أمة ظالمة بأن جعل للظلم نهاية وأجلاً. فعليكم يا بني آدم أن تأخذوا أمور حياتكم فى إطار هذه المقدمات .

﴿ يَسْبِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ۖ . . (٣٥) ﴾ [سورة الأعراف]

عليكم أن تستقبلوا رسل الله استقبال الملهوف المستشرف المتطلع إلى ما يحميه وإلى ما ينفعه ؛ لأن الرسول هو من يعلن لكل واحد منكم ما أحله الله من طيبات الحياة وملازمها، ويبين لكم ما حرم الله ليحيا المجتمع سليماً .

كان المظنون أن ساعة يأتى الرسول نجد المجتمع يحرض على ملازمته وعلى تلقى البلاغ منه ، لا أن يظل الرسول يدعو باللين بينما المجتمع يتأبى عليه . لكن من رحمة الله أن يتأبى المجتمع ويلج الرسول مبيناً آيات الله وبيناته كي يأخذ كل إنسان ما يساعده على أمر حياته ويهتدى إلى الصراط المستقيم ، وأنت إذا ما أصبت فى عافيتك تلج على الطيب وتبحث عنه ، فكان مقتضى العقل أنه إذا جاء رسول ليلقنا منهج الله فى إدارة حركة الحياة أن نتشوق إليه ونتطلع ، لا أن نعاده ، وعادة ما يسعد بالرسول أهل الفطرة السليمة بمجرد أن يقول الرسول : أنه رسول ومعه آية صدقه . ويقس أهل الفطرة السليمة قول الرسول بماضيه معهم ، فيعلمون أنه مخلص لم يرتكب الإثم . وهذه فائدة قوله الحق :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [سورة التوبة]

فسلم يأت لكم إنسان لا تعرفونه بل لكم معه تاريخ واضح وجلى ، لذلك نجد الذين آمنوا برسول الله أول الأمر لم ينتظروا إلى أن يتلو عليهم القرآن ، لكنهم آمنوا به بسوابق معرفتهم له ؛ لأنهم عايشوه ، وعرفوا كل تفاصيل أخلاقه . ومثال ذلك : عندما أخبر محمد ﷺ سيدتنا خديجة . رضوان الله عليها . نبأ

رسالته وأسرّها يخوفه من أن يكون ما نزل إليه هو من أمور الجن أو مسها ،
أسرعت إلى ورقة بن نوفل ؛ لأنه عنده علم بكتاب ، وقبل ذلك قالت لرسول الله
صلى الله عليه وسلم : « إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتعين على نوائب الحق
وتكسب المعدوم » .

وكل هذه المقدمات تدل على أنك - يا رسول الله - في حفظ الله ورعايته ؛ لأنك
كنت مستقيم السلوك قبل أن تُنبأ ، وقبل أن توجد كرسول من الله . وهل معقول أن
من يترك الكذب على الناس يكذب على الله ؟ وكذلك نجد سيدنا أبا بكر الصديق
بمجرد ما أن قال رسول الله : أنا رسول ، قال له : صدقت .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على صدق الفطرة ، وهذه هي فائدة ﴿ رسول
من أنفسكم ﴾ أو من جنسكم البشري حتى نجد فيه لأسوة الحسنة . ولوجاء لنا
رسول من الملائكة وقال لنا : هذا هو المنهج ولكم أسوة بي ، كنا سنرد عليه الرد
المقنع السهل اليسير : وهل نقدر أن نفعل مثلك وأنت مثلك مفطور على الخير ؟ .
لكن حين يأتينا رسول من جنسنا البشري ، وهو صالح أن يصدر منه الخير ،
وصالح أن يصدر منه الشر فهو الأسوة الموجودة ، ولذلك كان من غباء الكافرين أن
قالوا ما جاء به القرآن على ألسنتهم :

﴿ وَمَا مَنَعَ أَناسٍ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۝٩٤ ﴾

(سورة الإسراء)

إنه الغباء وقصر النظر والغضب ؛ لأن الله بعث محمداً وهو من البشر ، فهل
كانوا يريدون ملكاً ؟ ولو كان ملكاً فكيف تكون به الأسوة وطبعه مختلف عن طبائع
البشر ؟ . ولذلك يرد الحق الرد المنطقي :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَتَّبِعُونَ مُطِيعِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا
رَّسُولًا ۝٩٥ ﴾

(سورة الإسراء)

وذلك حتى نتحقق لنا الأسوة فيه ؛ فسبحانه لم يقتحم وجودكم التكليف ، ولم يدخلكم في أمر يشدد ويشق عليكم لكنه جاء لكم بواحد منكم تعرفون تاريخه . ولم يأت به من جنس آخر .

﴿ اَيُّبٰى اَدَمَ اِمَّا يٰٓاَيُّبٰىكَ رُسُلٌ مِّنْكَ يَقْصُوْنَ عَلَيْكَ اٰیٰتِیْ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

وانظر قوله : ﴿ يَقْصُوْنَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ ، لقد جاء بكلمة « يَقْصُونَ » لأن القصص مأخوذة من مادة « القاف » و « الصاد المضعفة » ؛ وهذا مأخوذ من « قص الأثر » ، وكان الرجل إذا ما سرقت جماله أو أغنامه يسير ليرى أثر الأقدام . إذن ﴿ يَقْصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ أى أنهم ملتزمون بما جاء لهم ، لا ينحرفون عنه كما لا تنحرفون أنتم عن قص الأثر حين تريدون المؤثر فى الأثر .

﴿ فَمِنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الأعراف)

و « اتقوى » هو أن تجعل بينك وبين شئ يضرك وقاية . ولذلك يقول الحق : ﴿ اتَّقُوا النَّارَ ﴾ ، لنرد عن أنفسنا بالعمل الصالح لهيب النار . وإذا قيل : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى اتقوا متعلقات صفات الجبروت من الله ؛ لأنكم لن تستطيعوا تحمل جبروت ربنا ، وعليكم أن تلتزموا بفعل الأوامر وتلتزموا أيضاً بترك النواهي . والأمر بالتقوى هنا يعنى ألا تنكر ونجحد رسالات الرسل ؛ لأنهم إنما جاءوا لإنقاذ البشر ، فالمجتمع حين يمرض ، عليه أن يسرع ويبادر إلى الطبيب القادم بمنهج الله ليرعاه ، وهو الرسول ؛ لذلك لا يصح الجحود برسالة عليها دليل ومعجزة . ﴿ فَمِنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

و « أصلح » تدل على أن هناك شيئاً غير صالح فجعله صالحاً ، أو حافظ على صلاح الصالح ورفق صلاحه إلى أعلى ، مثل وجود بشر نشرب منه ، فإن كانت البئر تؤدى مهمتها لا نردمها ، ولا تلقى فيها قاذورات ، وبذلك نبقي الصالح على صلاحه ، ويمكن أن نزيد من صلاح البئر بأن نبني حول فوهتها سوراً ، أو أن نقوم بتركيب مضخة تمتص الماء من البئر لضخه إلى البيوت . وبذلك نزيد الصالح

صلاحاً ، والآفة في الدنيا هم الذين يدعون الإصلاح بينما هم مفسدون ، يقول الله فيهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۖ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُقِيمُونَ كَسَبًا ۚ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فحين تقدم على أى عمل لابد أن تعرف مقدمات هذا العمل ، وماذا ستعطيه تلك المقدمات ، وماذا سوف تأخذ منه . وأبقى الصالح في الكون على صلاحه أوزده إصلاحاً ، وهنا لا خوف عليك ولن تحزن على شيء ، فانتك لينحقق قول الحق :

﴿ تَجَلَّأْتُمْ سَوَاعِلَ مَا مَكَرْتُمْ وَلَا تَفْرَحُونَ بِآءِ أَنْتُمْ ۚ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الحديد)

وما المقابل لمن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أى هؤلاء الذين أصلحوا واتقوا ؟ المقابل هو ما يأتى في قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۖ ﴾

ولماذا يكون مصير المكذبين بالآيات والمستكبرين عنها أن يكونوا أصحاب النار ويكونوا فيها خالدين ؟ لأنهم وإن تيسرت لهم أسباب الحياة لم يضعوا في حسابهم أن يكون لهم نصيب في الآخرة ولم يلتفتوا إلى الغاية ، وغاب عنهم الإيمان بقول الحق :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۚ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِهٗ ۖ

مِنْ مَالِهِ فِي الْأَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٥١﴾

(سورة الثوري)

وهب أن الواحد منهم قد أخذ ما أخذ في الدنيا ، فلماذا نسي أنها موقوفة العمر ؟ ولماذا لم يلتفت إلى الزمن في الآخرة ؟ . عليك أن تعلم أنك في هذه الدنيا ، خليفة في الأرض ، ومادما جميعاً أبناء جنس واحد ومخلوقين فيها والسيادة لنا على الأجناس فلا بد أن تكون لنا غاية متحدة ؛ لأن كل شيء اختلفنا فيه لا يعتبر غاية ، فالغاية الأخيرة هي لقاء الله ؛ لأن النهاية المتساوية في الكون هي الموت ليسلمنا لحياة ثانية ، فالذي يستكبر عن آيات الله هو من دخل في صفة خاسرة ؛ لأن من يقارن هذه الدنيا بالحياة الأخرى سيجد أن زمن الإنسان في الدنيا قليل ، وزمن الآخرة لا نهاية له . وعمر الإنسان في الدنـيـا مـظنـون غير متيقن ، والمتعة فيها على قدر أسباب الفرد وإمكاناته ، لكن الآخرة متيقنة ، ونعيم المؤمن فيها على قدر طلاقة قدرة الله .

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الاعراف)

وأصحاب النار . يعنى أن يصاحب ويلزم المذنب النار كما يصاحب ويلزم الإنسان منا صاحبه ؛ لأن النار على ألف بالعاصين ، وهي التي تتساءل: ﴿هل من مزيد﴾ ؟ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ
أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكَفْلِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَأَتَيْنَا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ

اَللّٰهُ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلٰى اَنفُسِهِمْ اَنَّهُمْ كَانُوا
كَافِرِيْنَ ﴿٣٧﴾

﴿ فمن اظلم ﴾ تاتى على صيغة السؤال الذى لن تكون اجابته إلا الإقرار .
ولا أحد اظلم ممن افترى على الله الكذب ؛ لأنه أولا ظلم نفسه ، وظلم أمته ،
وأول ظلم النفس أن يرتضى حياة زائلة وأن يترك حياة أبدية ، وأما ظلمه للناس
فلأنه سيأخذ أوزار ما يفعلون ؛ لأنه قد افترى على الله كذباً . ﴿ أو كذب بآياته ﴾ .

أى قول الله ما لم يفعله ، أو كذب ما قاله الله ، وكلا الأمرين مآل للآخر .
والآية - كما نعلم - هى الأمر العجيب ، والآيات أطلقت فى القرآن على معانٍ
متعددة ؛ فالحق يقول :

﴿ كَتَبْتُ فَصَلْتُ ءَايَتُهُ ﴾

(من الآية ٣ سورة فصلت)

وكذلك أطلقت على المعجزات التى يرسلها الله تأييداً لرسله .

﴿ وَمَا مَعَنَا اَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ اِلَّا اَنْ كَذَّبَ بِهَا الْاَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

فالآيات هنا هى المعجزات أى الأمور العجيبة .

وحدثنا القرآن عن الآيات الكونية فقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَتِهِ اَلْبَلُّ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

فالآية إذن هى الشيء العجيب وهو تشمل آيات القرآن ؛ لأنك حين تنظر إلى
نظم آيات القرآن ، وإلى استبعادها إلى حقائق الوجود وإلى استيفائها لقضايا الكون

كله تقول لنفسك : هذا شيء عجيب ؛ لأن الذي جاء على لسانه هذه الآيات نبي أمي ، ما عرف عنه أنه زاول تعلماً ، وما جربوا عليه أنه قال شعراً ، أو نثراً أوله رياضة في كلام ، وبعد ذلك ما جرب حكم أمم ، وما درس تاريخ الأمم حتى يستبسط القرائين التي أعجزت الحضارات المعاصرة عن مجاراتها .

إن الأمة البدوية حينما ذهب بمنهجها إلى الفرس ، وكاثت الفرس لها حضارة الشرق كلها ، وعلى الرغم من ذلك أخذت الفرس قوانينها من هذه الأمة البدوية ، وكان كل نظام هذه الأمة المتبدية قبل مجيء الرسالة مع سيدنا رسول الله ﷺ يتخلص في نظام القبيلة وكل قبيلة لها رئيس ، وبعد أن جاءت رسالته ﷺ جاء بنظام يجمع أمم العالم كلها ، ثم ينجح في إدارة الدنيا كلها ، وهذه مسألة عجيبة ، وكل آية من هذه الآيات كانت معجزة وعجيبة .

وكذلك الآيات الكونية التي نجدها تتميز بالدقة الهائلة ؛ فالشمس والقمر بحسبان ، وكل في فلك يسبحون ، إنه نظام عجيب .

إذن فالعجائب في الآيات هي آيات القرآن ، والمعجزات والآيات الكونية . وكيف يكذبون إذن بالآيات ؟ ألا ينظرون إلى الكون . وما فيه من دقة صنع وهندسة بناء تكويني لا تضارب فيه ؟ وهي آيات تنطق بدقة الخالق ؛ فهو العالم ، الشادر ، الحكيم ، الحسيب . وكذلك كيف يكذبون الرسول القادم بالمعجزات ، ويقولون : إنه ساحر ، وحين تتلى عليهم آيات القرآن يكذبونها . إذن هم لم ينظروا في آيات الكون ليستبسطوا منها عظمة الصانع وحكمته ودقته ، ولم يلتفتوا إلى الإيمان به قمة عقيدية ، وكذلك كذبوا بالآيات المعجزات التي جاء بها الرسل فلم يصدقوا الرسل وآخرها وقمتها آيات القرآن العظيم .

وحيثما عرض الحق سبحانه وتعالى هذه القضية ، تساءل : كيف تقولون . إنه سحر الناس فآمنوا به ، فلماذا لم يسحروكم أنث ؟ . وحيثما قالوا :

﴿ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ ۖ ۝ (١٠٣) ﴾

قال الحق :

﴿.. لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٢﴾﴾

[سورة النحل]

وقالوا :

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾

[سورة الفرقان]

فيعلم الحق رسله أن يقول :

﴿.. فَقَدْ نَبَّيْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

[سورة يونس]

وهنا يأمر الحق رسله أن يذكرهم بأنه عاش بينهم أربعين عاماً فهل عرف عنه أنه يقول أو يتكلم بشيء من هذا ؟

فهل يترك الحق من كذبوا بالآيات ؟ أنهم خلق الله ، والله استندعاهم إلى الرجود ، لذلك يضمن لهم مقومات الحياة ، وأمر أسباب الكون أن تكون خدمة هؤلاء المكذبين الكافرين كما هي في خدمة الطائعين المؤمنين . ومن يحسن منهم الأسباب يأخذ نتائجها ، وإن أهمل المؤمنون الأخذ بالأسباب فلن يأخذوا نتائجها ، وكل هذا لأنه عطاء ربوية ولأنه خلق فلا بد أن يرزق ، والشواميس الكونية تخدم الطائع وتخدم العاصي ؛ لأن ذلك من سنة الله ولن يجد أحد لسنة الله تبديلاً .

إذن فكفرهم لن يمنع عنهم نصيبهم من الكتاب الذي قَدَّرَ لهم ، من الرزق والحياة ، ما هو مسطر في الكتاب الذي أنزل عليهم ؛ لذلك يقول الحق :

﴿أَوَلَيْكَ يٰٓأَلْهَمُ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ .. ﴿٣٧﴾﴾

[سورة الأعراف]

أَوْ يَنَالُهُمْ ، أَيْ يَصِيبُهُمْ عَذَابٌ مِمَّا هُوَ مُبِينٌ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ لِيُوضِحَ أَنَّ
الطَّائِعَ لَهُ الثَّوَابُ ، وَالْعَاصِيَ لَهُ الْعِقَابُ ، فَيَقُولُ الْحَقُّ هُنَا :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتُوفُونَهُمْ قُلُوبُهُمْ قُلُوبًا يَشْعُرُونَ ، كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا
ضُؤًا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

وساعة تسمع ﴿ يتوفونهم ﴾ نفهم أن الحياة تنتهى ، وتنفصل الروح عن الجسد
فهذا هو « لتوفى » ، فمرة ينسب إلى الحق الأعلى سبحانه وتعالى ، ومرة يسب
إلى الملك ، ومرة يراد منه أنواع الملوك أى جنوده يقول - سبحانه - : ﴿ حتى إذا
جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ ، والأساليب الثلاثة ملتقية ، لأن
ملك الموت لم يأت بالموت من عنده ، بل أخذ التلقى من الله ، فالأمر الأعلى من
الله ، وأمر التوسط للملك ، وأمر التنفيذ للرسول .

و « التوفى » على إطلاقه هو استيفاء الأجل ، فإن كان أجل الحياة فهو توفية
بالموت ، وإن كان الأجل البرزخ وهو المدة التى بين القبر والحساب - إلى أن
يجئ ميعاد دخولهم النار فهذا هو توفى أجلهم الثانى ، لأن كل إنسان له أجلان :
أجل ينهى هذه الحياة ، والأجل الذى يأخذه فى البرزخ إلى أن يجيء الحساب
وهذا لا يمنع أن يقال : إن قيامة كل إنسان تأتى بموته ، لأن للقيامة مراحل بدءاً من
القبر ونهاية بالخلود فى الجنة أو فى النار .

وحين تسألهم الملائكة :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ كَانُوا يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا
كَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

هم إذن يعترفون أن من كانوا يدعونهم من دون الله قد غابوا واختصوا ولا يظهر
لهم أثر .

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَأُنَا لَمْ يَخْلُقْ جَدِيدًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة السجدة)

وهم - إذن - يقرون غيباب من كانوا يدعونهم من دون الله ، والمراد أنه لا وجود لهم ، وهم بذلك قد شهدوا على أنفسهم بكفرهم . ولكن هذه الشهادة لا تجدى لأن زمن التكليف قد انتهى ، وهم الآن في دار قهر لكل ما يريد الله ، ففي دار التكليف كان الإنسان حراً أن يفعل أو ألا يفعل ، ولكن في الدار الآخرة لا تنفع هذه الشهادة . وذلك لتبين عدالة الجزاء الذي يصيبهم ، ولن يتأبوا على الجزاء ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَبْنَاهُمْ لِأَوْلَسْنَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

ويوضح لنا الحق أنه بأوامر ﴿ كن ﴾ سيدخلون النار كما دخلتها أمم قد خلت من قبلهم فليسوا بدعاً ، وليدخلوا معهم إلى المصير الذي يذهبون إليه ، وهم أمم خليط ؛ لأن الكفر سوف يلتقي كله في الجزاء .

إن الاقتداء بالأمم التي سبقت هو الذي قادهم إلى الكفر ؛ فالأمم التي سبقت كانت أسوة في الضلال للامة التي لحقت ، فإذا ما دخلوا لعنهم .

وهب أن إنساناً دخل مرة السجن لجرم ارتكبه ، وبعد ذلك دخل عليه من كان

يغريه بالجرم . ومن كان يزين له ، ومن اقتدى به . بالله ساعة يلتقيان في السجن
ألا يلعن الأول الثاني ؟

﴿ كَلَّمَا دَخَلْتَ أُمَّةً لَعَنْتُ أَخْنَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجُهُمْ
لأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا
تَعْلَمُونَ (٣٨) ﴾

[سورة الاعراف]

وبعد أن يلحق بعضهم بعضاً ويجمعوا ، يحدث بينهم هذا الحوار العجيب :

﴿ قَالَتْ أَخْرِجُهُمْ لَأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ .. (٣٨) ﴾

[سورة الاعراف]

فإن قلت الأخرى أى التى دخلت النار متأخرة كانت الأولى هى القدوة فى
الضلال وقد سبقتهم إلى النار ، ﴿ قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ ﴾ ، أى أن الأولى هم القادة
الذين أضلوا ، والطائفة الأخرى هم الأتباع الذين قلدوا . ﴿ قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ رَبَّنَا
هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ ، وهم يتوجهون بالكلام إلى ربنا : ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ .

كيف يتأتى هذا ؟ . وكان المقياس أن يقول : قالت أخراهم لأولاهم أنتم
أضللتمونا لكن جاء هذا القول ، لأن الذين أضلوا غيرهم أهون من أن يخاطبوا ؛
لأن الموقف كله فى يد الله ، وإذا ما قالوا لله المواجه للجميع : ﴿ هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾
فهؤلاء ، هذه إشارة إليهم ، فكان القول موجه لله شهادة منهم إلى من كان وسيلة
لإضلالهم وهم يقولون لربنا هذا حتى يأخذوا عذاب الضعف من النار مصداقاً لقوله
الحق :

[سورة الاعراف]

﴿ فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ .. (٣٨) ﴾

فقال الله لهم جميعاً : ﴿ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ .. (٣٨) ﴾ .

فلكل أمة منهم ضعف العذاب بما ضلّت وأضلت ، ونفهم أن الضّعف معناه «شيء مساوٍ لمثله» ، فأنتم أيها المقلدون غيركم قد أضللتكم سواكم بالأسوة أيضاً ؛ لأنكم كثرت عددهم وقويت شوكتهم وأغريت الناس باتباعهم .

ويكون لكم ضعف العذاب بحكم أنكم أضللتهم أيضاً ، وأنتم لا تعلمون أن من يحاسبكم دقيق في الحساب ، ويعطى كل إنسان حقه تماماً .

وماذا تقول أولاهم لأخريهم ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ أُولَئِهْمَ لَأُجْزَيْنَهُمَ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا
مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (٣٦)

أي مادمتُمْ ستأخذون ضعف العذاب مثلنا فقد تساوت الرءوس «فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون» كأن المجرم نفسه ساعة يلتقى ويستقبل مجرماً مثله ، يقول له : اشرب من العذاب نفسه ، وليس ذلك تجنياً من الله ، ولا بسلطة القهر لعباده ، ولكن بعدالة الحكم ؛ لأن ذلك إنما حدث بسبب ما كنسبتم .

ومعلوم أن التذوق في الطعوم ، فهل هم يأكلون العذاب ؟ لا ، إن الحق قد جعل كل جراحة فيهم تذوق العذاب ، والحق حين يريد شمول العذاب للجسم يجعل لكل عضو في الجسم حساسية الذوق كالتي في اللسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ
بِأَنْعَمَ اللَّهُ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١١٢) [سورة النحل]

وهذه هي الإذاقة ، كأنها صارت لباساً من الجوع يشمل الجسد كله ، والإذاقة أشد الإدراكات تأثيراً ، واللباس أشمل للجسد ، (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) .

ولم يقل الحق : بما كنتم تكسبون ؛ لأن اكتسابهم للسيئات لم يعد فيه افتعال ، بل صار أمراً طبيعياً بالنسبة لهم ، وعلى الرغم من أن الأمر الطبيعي في التكوين أن يصنع الإنسان الحسنة دون تكلف ولا تصنع ، وفي السيئات يجاهد نفسه ؛ لأن ذلك يحدث على غير ما طبع عليه ، ولكن هؤلاء من فرط إدمانهم للسيئات فسدت فطرتهم ولم تعد ملكاتهم تتضارب عند فعل السيئات ، بل صاروا يرتكبون الإثم كأمر طبيعي ، وهذا هو الخطر الذي يحقق بالمسرفين على أنفسهم ؛ لأن الواحد منهم يفرح بعمل السيئات .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾

والحق يريد أن يعطي حكماً جديداً ويحدد من هو المحكوم عليه ليعرف بجريمته ، وهي جريمة غير معطوفة على سابقة لها ، ويعرف كل إنسان أن هذه جريمة ، وأن من يرتكبها يلقي حكماً وعقاباً . (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) .

وقد عرفنا من قبل معنى الآيات ، وأنها آيات القرآن المعجزة أو الآيات الكونية ، وأي إنسان يظن نفسه أكبر من أن يكون تابعاً لمنهج جاء به رسول عرف بين قومه بأمانته ، وهذا الإنسان يستحق العقاب الشديد . فصحيح أن محمداً ﷺ لم يكن له من الجاه ولا سلطان ما ينافس به سادة وكبراء قريش ، ولذلك وجدنا من يقول :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [سورة الزخرف]

إنهم يعترفون بعلو القرآن ، لكنهم تمنوا لو أن القرآن قد نزل على إنسان غيره بشرط أن يكون من العظماء بمعاييرهم وموازينهم المادية .

ومن يكذب الايات ويستكبر عن اتباع الرسول لا تفتح له الأبواب السماء .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاحَظَ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ [سورة الاعراف]

وبذلك نعرف من هم الذين لا تفتح لهم أبواب السماء ، وبطبيعة الحال نعرف أن المقابلين لهم هم الذين تفتح لهم أبواب السماء . . . إنهم المؤمنون ، وحين تصعد أرواحهم إلى الملائكة على عمد أعمالهم الصالحة تصعد وترتفع بهم إلى أعلى . أما المكذبون فهم لا يترقون بل يهبطون ولا يدخلون الجنة ، وقد علق سبحانه دخول الجنة بمستحيل عقلاً وعادة وطبعاً : (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) .

و«سم الخياط» هو ثقب الإبرة ، أى الذى تدخل فيه فتلة الخيط ، ولا تدخل فتلة الخيط فى الثقب إلا أن يكون قطر الفتلة أقل من قطر الثقب ، وأن تكون الفتلة من الصلابة بحيث تنفذ ، وأن تكون الفتلة غير مستوية الطرف ؛ لأنها إن كانت مقصوفة وأطرافها مستوية فهي لا تدخل فى الثقب ؛ لذلك نجد الخياط يجعل للفتلة سناً ليُدخلها فى ثقب الإبرة .

وحين نأتى بالجمل ونقول له : ادخل فى سم الخياط ، فهل يستطيع ؟ طبعاً لا ؛ لذلك نجد الحق سبحانه قد علق دخول هؤلاء الجنة على مستحيل .

بعض الناس قالوا : وما علاقة الجمل سم الخياط ؟

نقول : إن الجمل يطلق أيضاً على الحبل الغليظ المقطول من حبال ، مثل حبال المركب إننا نجده سميكاً مجدولاً .

وأخذ الشعراء هذه المسألة ؛ ونجد واحداً منهم يصف انشغاله بالحبيب وشوقه إليه وصيافته به حتى يهزل ويستبد به الضعف فيقول :

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿ ٤١٣٧ ﴾

ولو أن ما بى من جوى وصبابة
على جمل لم يدخل النار كافر

لأن الجوى والصبابة التى يعانى منها هذا الشاعر ، لو أصيب بهما الجمل فليسوف
ينحف وينحف ويهزل ، إلى أن يدخل فى سم الخياط ، وهنا يوضح ربنا : إن دخل
الجمل فى سم الخياط فسوف أدخلهم الجنة .

﴿ حَتَّى يَلْعَجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الاعراف)

وهم يستحقون هذا الجزاء بما أجزوا .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

المهاد هو الفراش ، ومنه مهد الطفل ، والغاشية هى الغطاء ، أى أن فرش هذا المهاد
وغطاءه جهنم . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الزمر)

إذن الظلل والغواشى تغطى جهتين فى التكوين البعدى للإنسان ، والأبعاد ستة وهى :
الأمم والخلف ، واليمين والشمال ، والفوق والنحت ، والمهاد يشير إلى التحتية ،
والغواشى تشير إلى الفوقية ، وكذلك الظلل من النار ، ولكن الحق شاء أن يجعل جهنم
تحيط بأبعاد الكافر الستة فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذا يعنى شمول العذاب لجميع اتجاهات الظالمين .
وجهنم مأخوذة من الجهرمة وهى الشئ المخوف العابس الكريه الوجه ، ثم يأتى
بالمقابل ليشرح النفس بكراهية ذلك الموقف ، ويحبب إلى النفس المقابل لمثل هذا
الموقف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وبهذا يخبرنا الحق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم أصحاب الجنة وهم فيها
خالدون ، ويضع لنا الحق تنبيهاً بين مقدمة الآية وتذييلها « لا نكلف نفساً إلا وسعها » ،
لنفهم أن المسرفين على أنفسهم بالكفر وتكذيب الآيات لم يفهموا حقيقة الإيمان ، وأن
حبس النفس عن كثير من شهواتها هو فى مقدور النفس وليس فوق طاقتها ؛ لذلك أوضع
لنا سبحانه أنه كلف به « افعل ولا تفعل » وذلك فى حدود وسع المكلف .

وحين نستعرض الصورة إجمالاً للمقارنة والموازنة بين أهل النار وأهل الجنة نجد
الحق قد قال فى أهل النار :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
حَتَّى يُلَاحَظَ فِي سَمِّ الْأَحْيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نُجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فهم لن يدخلوا الجنة ، وعلى ذلك فقد سلب منهم نقعاً ، ولا يتوقف الأمر على
ذلك ، ولكنهم يدخلون النار ، إذن فهنا أمران : سلب النافع وهو دخولهم الجنة ، إنه
سبحانه حرهم ومنعهم ذلك النعيم ، وذلك جزاء إجرامهم . وبعد ذلك كان إدخالهم
النار ، وهذا جزاء آخر ، فقال الحق :

سورة الأعراف

﴿٤١٣٩﴾

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأعراف]

فى الأولى قال :- سبحانه - (وكذلك نجزي المجرمين) .

وفى الثانية قال : (وكذلك نجزي الظالمين) .

فكان الإجرام كان سبباً فى ألا يدخلوا الجنة ، والظلم كان سبباً فى أن يكون من فوقهم غواش ، لهم من جهنم مهاد ، وهم فى النار يحيطهم سرادقها .

ومن المناسب بعد تلك الشحنة التى تكررها فى أصحاب النار وفى سوء تصرفهم فيما كلفوا به أولاً ، وسبب بشاعة جزائهم ثانياً ؛ أن نثقف على المقابل . فقال سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة الأعراف]

وقول الحق سبحانه وتعالى : «لأنكلف نفساً إلا وسعها» جـ بين المبتدأ والخبر ، ككلام اعتراضى ؛ لأن أسلوب يقتضى إبلاغنا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الخلود فى الجنة ، وجاءت «لأنكلف نفساً إلا وسعها» بين العمدتين وهما المبتدأ والخبر ؛ لأننا حينما نسمع «والذين آمنوا» فهذا عمل قلبى ، ونسمع بعده «وعملوا الصالحات» وهذا عمل الجوارح ، وبذلك أى يعمل القلب مع عمل الجوارح يتحقق من السلوك ما يتفق مع العقيدة . والاعتقاد هو يسهل دائماً السلوك الإيماني ويجعل مشاق التكليف فى الأعمال الصالحة مقبولة وهينة ، ولذلك أوضح سبحانه : «إياكم أن تظنوا أنى قد كلفتكم فوق طاقتكم ، لا ؛ فأنا لا أكلف إلا ما فى الوسع ، وإياكم أن تفهموا قولى : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات» هو رغبة فى إرهاب نفوسكم ، ولكن ذلك فى قدرتكم لأننى المشرع ، والمشرع إنما يضع التكليف فى وسع المكلف .

ونحن فى حياتنا العملية نصنع ذلك ؛ فتجد المهندس الذى يصمم آلة يخبرنا عن مدى قدراتها ، فلا يحملها فوق طاقتها ولا تفسد . وإذا كان الصانع من البشر لا يكلف الآلة الصماء فوق ما تطيق ، أيكلف الذى خلق البشر فوق ما يطيقون ؟ محال أن يكون ذلك .

إذن فيجب أن نوصد الباب أمام الذين يحاولون أن يتحللوا من التزامات التكليف عليهم ، فلا تعلق بالحكم على وسعك الخائر الجائر ، ولكن غلق الوسع على تكليف الله ، فإن كان قد كلف فأحكم بأن ذلك في الوسع ؛ والدليل على كذب من يريد الإفلات من الحكم هو محاولته إخضاع الحكم لوسعه هو ؛ أن غيره يفعل ما لا يريد أن يفعله . فحين ينهى الحق عن شرب الخمر تجدد غيرك لا يشرب الخمر أمثالا لأمر الله ، وكذلك تجد من يمتنع عن الزنا أو أكل الربا ؛ فإذا كان مثيلك وهو فرد من نوعك قادراً على هذا العمل فمن لا يمتنع عن مثل هذه المحرمات هو المذنب لالصعوبة التكليف .

فالتكليف هو أمر الشارع الحكيم بـ «فعل» و «لاتفعل» وسبحانه لا يكلف الإنسان إلا إذا كان قادراً على أن يؤدي مطلوبات الشرع ؛ لأن الله لا يكلف إلا على قدر الطاقة ، واستبقاء الطاقة يحتاج إلى قوت ، طعام ، شراب ، لباس ، وغير ذلك مما تحتاج إليه الحياة ، لذلك أوضح سبحانه أنه يوفر للإنسان كل ماديات الحياة الأساسية ، وإياكم أن تغفوا أن الله حين يكلف الإنسان يكلفه شططاً ، ولكن الإنسان هو الذي يضع في موضع الشطط . فقال :

﴿وَمَنْ قَدَرِ عَلَيْهِ رِزْقَهُ .. (٧)﴾

[سورة الطلاق]

«قدر على رزقه» أى ضيق عليه قليلاً .

ويقول سبحانه :

﴿فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا .. (٧)﴾ [سورة الطلاق]

إذن لا تفترض وتقدر أنت تكاليف المعيشة ثم تحاول إحصاء وإردائك إلى هذا التصور ، بل انظر إلى الوارد إليك وعش في حيز وإطار هذا الوارد ، فإن كان دخلك مائة جنيه فرتب حياتك على أن يكون مصروفك يساوى دخلك ؛ لأن الله لا يكلفك إلا ما آتاك .

ولنتظر إلى ما آتانا الله ؛ لذلك لا تدخل في حساب الرزق إلا ما شرع الله ، فلا تشرق .

ولا تنهب ولا تخلص ولا تترش ثم تقول : هذا ما آتاني الله ، لا ، عليك ألا تأخذ ولا تنتفع إلا بما أحل الله لك ، فإن عشت في نطاق ما أحل الله بعينك الله على كل أمرك وكل حاجاتك ، لأنك تحيا بمنهج الله ، فيصرف عنك الحق مهمات الحياة التي تتطلب أن تزيد على ما آتاك الله ، فلا تخطر على بالك أو على بالك أولادك . وتجند نفسك - على سبيل المثال - وأنت تدخل السوق وآتاك الله قدراً محدوداً من المال ، وترى الكثير من الخيرات ، لكن الحق يجعلك لا تنظر إلا في حدود ما في طاقتك ، وكذلك يُحسن لك الله ما في طاقتك ويعد عنك ما فوق طاقتك ، لأن الله لا يكلف نفساً إلا ما آتاها ، ولا يحرك شهوات النفس إلا في حدود ذلك .
ولذلك قال الحق :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٥١ ﴾

(سورة الأعراف)

وأصحاب الجنة هم الذين لا يفارقونها مثلما يحب الصاحب صاحبه ، فالجنة تتطلبهم ، وهم يتطلبون الجنة ، والحياة فيها بخلود وما فاتك من متع الدنيا لم يكن له خلود ، وأنت في الدنيا تخاف أن تموت وتنفوت النعمة ، وإن لم تمت تخاف أن تترك النعمة ، لأن الدنيا أغيار ، وفي ذلك لغت لقضايا الله في كونه ، نجد الصحيح قد صار مريضاً ، والغنى قد صار فقيراً ، فلا شيء لذاتية الإنسان . وبهذا يعدل الله ميزان الناس فيأتي إلى الحالة الاقتصادية ويوزعها على الخلق ، ونجد الذي لا يتأبى على قدر الله في رزقه وفي عمله يجعل الله له بعد العسر يسراً . وفي الجنة يُخلى الله أهلها من الأغيار .
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ يُبْجَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ ٥٢ ﴾

وَتُودُّوْا أَنْ تَلَکُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِثْتُمْوهَا بِمَا کُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

وقوله الحق: « ونزعنا ما في صدورهم من غل » ينطبق - أيضاً - على أهل الاجتهاد الذين اجتهد كل منهم في الدنيا ، واختلفوا ، هؤلاء يعيشون يوم القيامة وليس في صدور أحدهم غل ولا حقد . ولذلك تجد سيدنا الإمام علياً - كرم الله وجهه - حين يقرأ هذه الآية يقول : « اللهم اجعلني أنا وعثمان وطلحة والزبير من هؤلاء » . لأن هؤلاء هم الذين وقع بينهم الخلاف في مسألة الخلافة ، وكل منهم صحابي وبشر بالجنة ، فإن كانت النفوس قد دخلت فيها أغيار ، فإياكم أن تظنوا أن هذه الأغيار سوف تصحبكم في دار الجزاء في الآخرة ؛ لأن الله يقول : (ونزعنا ما في صدورهم من غل) .

إن الخلاف كان خلافاً اجتهادياً بين المؤمنين وهم قد عملوا الصالحات وكل منهم أراد الحسن من الأعمال ، ونشأ عن ذلك في أغيار الدنيا شيء من عمل القلب ، وأوضح سبحانه : إياكم أن تفهموا أن ذلك سوف يستمر معهم في الآخرة ؛ لأنهم جميعاً حينما اختلفوا كانوا يعيشون باجتهادات الله ، وفي الآخرة لا اجتهد لأحد . ويريد الحق أن يجعل هذا الأمر قضية كونية ، ومثال ذلك تجد رجلاً قد تزوج امرأة بمقاييس غير مقاييس الله في الزواج ؛ تزوجها لأنها جميلة مثلاً ، أو لأن والدها له جاه أو غنى ، وبعد الزواج لم يعطه والدها الغنى شيئاً من ماله فيقول : غشني وزوجني ابنته ، أو كانت جميلة ، ثم لقي فيها خصالاً قبيحة كثيرة فكرهها ، ونقول لمثل هذا الرجل : مادمت لم تأخذها بمقاييس الله فعليك أن تنال جزاء الاختيار .

ولكن من تزوج امرأة على دين الله ، ووجد منها قبحاً ، فلن يصحبه هذا القبح في الآخرة ، ولذلك نجد الحق قد جاء بهذه القضية بالذات ، ولم يأت بها في الأبناء أو في البنات ، بل في الزوج والزوجة لأنهما عماد الأسرة . فبين للرجل : إياك أن تتخيل أن المرأة التي غاظتك أو أتعبتك أو كدرت عليك بخصلة سيئة فيها ، إياك أن تظن أن هذه الخصلة السيئة متصاحبها في الآخرة ، ولذلك قال سبحانه :

﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾

(من الآية ١٥ سورة آل عمران)

وأزواج مطهرة من الأشياء التي كنت تغضب منها وستكون مطهرة بتطهير الله لها .

﴿وَرَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

ونجد الحق يقول مرة : « تجري تحتها الأنهار » ومرة يقول : « تجري من تحتهم الأنهار » ، ونجد « من » فارقاً بين القولين . إنا نرى من يستقر في قصر ونجد الماء مناسباً حوله ونحته يسر الميول ، وماء الآخرة هو ماء غير آسن ، وليس فيه أكلدار الدنيا ، وكما أننا نسر بالماء في الدنيا منسرباً به أضعاف ذلك في الآخرة . وقد تجري المياه تحت القصر ولكن نبعها من مكان بعيد فيخاف صاحب القصر أن يقطعها آخر عنه ، ويطمئن الحق عباده الصالحين : ستجري من تحت جنانكم الأنهار وكل المياه ستكون ذاتيتها من موقع كل مكان أنت فيه ولن يتحكم فيك أحد ، ولن يسد أحد عنك منبع المياه وسترى أنهار الآخرة بلا شيطان ، لأن كل شيء ممسوك لا بأسباب كما في الدنيا ، ولكن بـ « كن » التي هي الله . ولذلك يقول العباد في جنة الآخرة :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

إنهم يقولون الحمد لله لأنه جل وعلا قد جمعهم ودلهم وأرشدهم إلى الثواب والتعظيم دون منغصات ، والحمد لله هي عبادة يقولها المؤمنون في الآخرة ، لأنهم أدوا حق الله في تكاليفه في الدنيا ويعطيهم الله فوق ما يتوقعون في الآخرة . ونعيم الآخرة لا يقدر عليه ، ولن يستطيع بشر مهما ارتقى بالابتكار أن يصل إلى ما في الجنة ، لأن الشيء يتحقق لك من فور أن يخطر ببالك . (وقالوا الحمد لله) .

وهذا الحمد لله كان في الدنيا عبادة تكليف ، أما في الآخرة فهو عبادة غبطة وسرور وتلذذ . (وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) .

يقولها المؤمن ، لأن الله لو لم ينزل منهاجاً سماوياً يحدد له حركة حياته استقامة وينذره

ويخوفه من المعاصي لما وصل إلى الجنة . والهداية . كما قلنا . هي الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، إذن لابد أن تعرف الغاية أولاً ثم تضع الطريق الموصل لها ، بحيث لا يكون معوجاً ولا يعترضك فيه ما يطيل عليك المسافة ، وقوله الحق : « وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » يمنع أن يضع البشر للبشر قوانين تهديهم إلى الغاية ، لأن البشر أنفسهم لا يعرفون الغاية ، لذلك يوضحها لهم خالقهم بمنهج المنزل على رسوله .

ومادامت الهداية من الله فسيحانه لن يخاطب كل إنسان مباشرة ، لكنه سبحانه ينزل الرسل بتلون علينا آيات الله ويوضحون لنا المنهج ، لذلك يأتي الحق في الآية نفسها بقوله الحكيم :

﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَّبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تَتَلَكَوا الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

أنت في الحياة الدنيا حين تجد من يقول لك : إن أردت أن ترتاح فانا أنصحك أن تمشي إلى المكان الفلاني واذهب إليه عن الطريق الفلاني ، وستجدك سعيداً مرتاح البال ، ثم صدقته ونفذت ما قال ، ووجدت الرجل صادقاً . ألا تشعر بالسعادة ؟ . وإذا كان الحق قد أرسل الرسل بالبينات والآيات والمنهج الصحيح ، وسار عليه المؤمنون ثم وجدوا الجنة والنعيم ، لذلك كان لابد أن يشكروا الله وأن يقولوا : (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) . ولأن الرسل لم يكذبوهم بل جاءوا بالخير لهم . (ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) .

وكان الحق يوضح لنا ونحن في دار التكليف أن نستقبل المنهج على هذا الأساس ، وعلى كل واحد أن يحدد مكانه من الجنة ، بقربه من منهج الله أو بعده عنه ، لأن دخول الجنة هو جزاء العمل طبقاً لمنهج الحق . ووقف العلماء هنا . جزاهم الله خيراً . وقالوا : كيف نوفق بين هذه الآية :

﴿ وَنُودُوا أَنْ تَتَلَكَوا الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

وبين قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(لن يُدخل أحداً عمله الجنة)

تالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟

قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة^(١).

وأقول: ليس هناك تناقض بين قول الله سبحانه وتعالى وقول الصادق المصدوق عليه السلام الذي بلغ عن الله سبحانه، بل بينهما تأكيد؛ فالحق ساعة ما شرع أوضح أن من يعمل العمل الصالح سيدخل الجنة، وهذا التشريع لم يجبر أحد الله عليه، بل هو الذي يعطيه لنا فضلا منه؛ فليس لأحد حق على الله؛ لأنه لا يوجد عمل يعود بفائدة على الله، واتباع المنهج إنما يعود على العبد بالمنفعة والخير، فإن دخلت الجنة فهذا أيضاً بفضل من الله. وبينهما القرآن إلى الجمع بين هذه الآيات وأنه لا تعارض بين نص حديثي ونص قرآني. يقول:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾

[سورة يونس]

فجزاء كل عمل عائد على الإنسان لأنه يأخذ مكافأته على فعله، فإن كانت المكافأة أكبر من جزاء الفعل فهي من الفضل؛ لأن الحق هو القائل:

[سورة الطور]

﴿ .. كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ وَهِيْنٌ (٢١) ﴾

وسبحانه أيضاً هو القائل:

[سورة النجم]

﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٢٩) ﴾

إن فهمت اللغة وكنت صاحب ملكة فاضحة تقول: هذه «اللام» للملك. وتفيد أنه لا حق لك على الله إلا بسعيك على وفق منهج الله، وأن هذه الآية قد حددت العدل ولم تحدد الفضل.

(١) رواه البخاري في الرقاق والمرضي ومسلم في صفات المنافقين والترمذي في الجنائز وأبو داود في الجنائز، والنسائي في الجنائز، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في مسنده ١٢٥/٦.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ لَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا...﴾ (٥٨) [سورة يونس]

والمثال على ذلك أننا كمسلمين نصلى على الميت المسلم ، وقد أمرنا التشريع بذلك ، وأن ندعو الله أن يتجاوز عن سيئاته . فهل تضيف هذه الصلاة إلى الميت شيئاً زائداً عن عمله ؟ لو لم تكن صلاة تضيف شيئاً لما أمر التشريع بها . فهي صلاة على ميت مسلم ، وأسلامه من عمله ، ونجد الحق يقول :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ...﴾ (٢١) [سورة الطور]

أى أن الآباء والأبناء يشتركون معاً فى الإيمان وفى العمل ، قوله تعالى :

﴿الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ (٢١) [سورة الطور]

هذا الإلحاق يفيد أن منزلة الذرية كانت أقل من منزلة الآباء ، لكن الحق يرفع من منزلتهم إكراماً للآباء . وهذا الإلحاق جزاء للذرية ، وقد يكون أيضاً جزاء للآباء ، فيحضر لهم أولادهم معهم مادام الكل قد اشتركوا فى الإيمان ، وكان الآباء يتحرون الحلال فى إطعام الأبناء ولا يربونهم إلا على منهج الله . وقد يرى الأب أبناء جاره يلبسون الملابس الفاخرة ويأكلون الأكل الطيب ، ويتحمل الأبناء ويعشبون عيش الكفاف مع هذا الأب الملتزم بالعمل الصالح والأجر الحلال ، وينال الأبناء الجنة مع الأب لأنهم تحملوا معه مشاق الالتزام بالحلال .

وهكذا نجد كل إنسان مؤمن قد أخذ نتيجة عمله وزيادة .

﴿... وَفُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٣)﴾ [سورة الاعراف]

و«أورثتموها» من «الإرث» وتدل على أن هناك شيئاً آلاً إلى الغير . ونعلم أن الله ، علم ألا كيف سيسلك كل مخلوق وما سيفعله من كفر وإيمان وطاعة ومعصية ، وعلى رغم ذلك أعد سبحانه لكل واحد من خلقه مكانه فى الجنة على أنه مؤمن ، وأعد لكل

واحد من خلقه مكاناً في النار على أساس أنه سيكفر .
 إذن فقد أعد سبحانه جناتاً بعدد خلقه ، وأعد أماكن في الجحيم بعددهم ، فليست هناك أزمة أماكن عند إله قادر مقتدر . فإن آما كلنا فلن يضيق بنا واسع الجنة ، و- والعباد بالله - إن كفر الخلق جميعاً فلن تضيق بهم النار . فإذا كانوا جماعة من خلق سيدخلون الجنة بالعمل ، فأين تذهب أماكن أهل النار ؟ إن الحق يفضل منه بمتعتها المؤمنين ، إذن فقد ورثوا الذين لم يستحقوا الجنة بسبب الكفر .

وبعد الكلام في الجنة والجزاء وفي حمد التلذذ والسرور والغيطة وفي عهد الجنة ، بعد ذلك كان من المناسب أن يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن موقف أهل الجنة من أهل النار ، فيقول سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ يَبِينُ لَكُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ١١ ﴾

وهكذا نرى التبكيت ، ونصور لنا الآية كيف يرى أهل الجنة أهل النار ، وهذا الترائى من ضمن التعميم ومن ضمن العذاب الأليم ، فعين يرى المؤمن بمنهج الله من عذابه وقهره وآذاه وهو في النار فهذا من تمام اللذة ، والآخر حين يرى مخالفه في الجنة فهذا أيضاً من تمام العذاب . إذن لابد أن يتراءوا ، ولذلك يحدث الحوار ، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار معترفين بأنهم وجدوا ما وعدهم به الله حقاً وصدقاً ، وأن الحق قد وهبهم هذه الجنة . فهل - يا أهل النار - وجدتم ما وعدهم ربكم حقاً ؟

ونلاحظ أن هناك خلافاً بين الأسلوبين مع أن السياق المنطقي واحد ، فأهل الجنة يقولون : « قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » ، ولم يأت بالكاف في كلمة ما وعد (الثانية) بل قال : « فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً » ؟

إنه قال سبحانه : « ما وعد » فقط ، ولم يقل ما وعدكم كما قال : (ما وعدنا) لأن المراد أن يلفتهم إلى مطلق الوعد ، وليس الخاص بهم فقط ، بل وأيضا الخاص بالمقابل ، وهكذا يتحقق الوعد المطلق لله . فأهل الجنة بإيمانهم وأعمالهم في الجنة فضلاً من الله ، وأهل النار في النار بكفرهم وعصيانهم عقاباً من الله . وهنا يجيب أهل النار : (قالوا نعم) .

وهذا إقرار منهم بالواقع المشهدي الذي عاشوه واقعاً بعد أن كان وعيداً . وهم لم يكابروا لأن المكابرة إنما تحدث بين الخصمين في غير مشهود ، وهم في الدنيا قبل أن يوجد المشهود كانوا يكذبون البلاغ عن الله ، وصارت الدار الآخرة واقعاً ، وتحقق وجودهم في النار .

﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الاعراف)

أي فينادى مناد من الملائكة يُسمع أهل الجنة وأهل النار بأن الطرد من رحمة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم ، بعدم الإيمان وبالكذب باليوم الآخر . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْتَوُهَا عَوَجًا وَهُمْ

بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾

والذي يصد عن سبيل الله هو من امتنع عن سبيل الله ، وصد غيره ، أي ضلّ في ذاته ثم أضل غيره ، وهؤلاء هم الذين يطلبون منهج الله معوجاً ، ويلمونه ولا يؤمنون به فيعترضون على إقامة الحدود والقصاص ، وينفرون الناس عن منهج الله ، لينصرف الناس عن الدين . هم إذن قد صدوا عن سبيل الله وطلبوا العوج فيما شرع الله لينفروا الناس عما شرع الله ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل هم بالآخرة كافرون ، ولو كان الواحد منهم مؤمناً بالآخرة ويعلم أن له مرجعاً ومرداً إلى الله لما فعل ذلك .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَيَبْنِيهِمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا
بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ
لَمَّا دَخَلُوا هُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحجاب موجود بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وهم يترادون من خلاله ، وبينه
الحق سبحانه فقال :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ
ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ
وَنُظِيرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الحديد)

باطن هذا الحجاب الرحمة من ناحية أهل الجنة ، وظاهره المواجه لأهل النار فيه
العذاب ، والحق هو القادر على كل شيء ، لذلك لا ينال أهل الجنة شيء من شقاء أهل
النار ، ولا ينال أهل النار شيء من نعيم أهل الجنة ، ويسمع أهل النار رداً على طمعهم
في أن ينالهم بعض من نور أهل الجنة ، إنكم تلتسمون لهدى في غير موطن الهدى ،
فزمن التكليف قد انتهى ، ومن كان يرغب في نور الآخرة كان عليه أن يعمل من أجله في
الدنيا ، فهذا التور ليس هبة من خلق لخلق ، وإنما هبة من خالق لمخلوق آمن به .
وانتم تقولون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وليس في مقدور أهل الجنة أن يعطوا شيئاً من
نور أهل الجنة فالمعطاء حيثل الله .

﴿ وَيَبْنِيهِمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

وكُلًّا المعنى بها أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقد تقدم عندنا فريقان :

أصحاب الجنة ، وأصحاب النار وهناك فريق ثالث هم الذين على الأعراف ، و«الأعراف» جمع «عُرف» مأخوذ من عرف الذيك وهو أعلى شيء فيه ، وكذلك عرف الفرس . كأن بين الجنة مكانا مرتفعاً كالعرف يقف عليه أناس يعرفون أصحاب النار بسيماهم ، ويعرفون أصحاب الجنة بسيماهم فكأن من ضمن السمات والعلامات ما يميز أهل النار عن أهل الجنة .

وكيف توجد هذه السمات ؟ يقال إن الإنسان ساعة يؤمن يصير أهلاً لاستقبال سمات الإيمان ، وكلما دخل في منهج الله طاعة واستجابة أعطاه الله سمة جمالية تصير أصيلة فيه تلازمه ولا تفارقه ، وبالعكس من ذلك أصحاب النار فتبتعد عنهم سمات الجلال والجمال وتحل محلها سمات القبح والشناعة والبشاعة .

وإذا ما رأى أهل الأعراف أصحاب الجنة يقولون : سلام عليكم ؛ لأن الأدنى منزلة - أصحاب الأعراف - يقول للأعلى - أصحاب الجنة - سلام عليكم .

وجماعة الأعراف هم من تساوت سيئاتهم مع حسناتهم في ميزان العدل الإلهي الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَأَنَّهُ هَآوِيَةٌ ۖ (٨) ﴾ [سورة الفارقة]

ويارب لقد ذكرت الميزان ، وحين قدرت الموزون لهم لم تذكر لنا إلا فريقين اثنين . . فريق ثقلت موازينه ، وفريقا خفت موازينه ، ومتهى المنطق في القياس الموازيني أن يوجد فريق ثالث هم الذين تتساوى سيئاتهم مع حسناتهم ، فلم تثقل موازينهم فیدخلوا الجنة ، ولم تخف موازينهم فیدخلوا النار ، وهؤلاء هم من تعرض أعمالهم على « لجنة الرحمة » فيجلسون على الأعراف . ومن العجيب أنهم حين يشاهدون أهل الجنة يقولون لهم سلام عليكم على الرغم من أنهم لم يدخلوا ، لكنهم يطعمون في أن يدخلوا ، لأن رحمة الله سبقت غضبه .

﴿ .. وَنَادَىٰ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيَّكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ (٤١)

[سورة الأعراف]

وبطبيعة الحال ليس في هذا المكان غش ولا خداع .

وماذا حين ينظرون إلى أهل النار ؟

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا

لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤٧)

انظر إلى التعبير القرآني « صرفت أبصارهم » أي لم يصرفوا أبصارهم لأن المسألة ليست اختيارية ، لأنهم يكرهون أن ينظروا لهم لأنهم ملعونون ، وكان في « صرفت أبصارهم » لنا من التوبيخ لأهل النار .

وقوله الحق : « وإذا صرفت أبصارهم تلقاء » أي جهة أصحاب النار يقولون : (ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) .

هنا يدعو أهل الأعراف : يا رب جنبنا أن نكون معهم ، إنهم حين يرون بشاعة العذاب يسألون الله ويستعينون به ألا يدخلهم معهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ

قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

وكان أصحاب الأعراف قد صرفت أنظارهم لأصحاب النار ويرون فيهم طبقات من المعذبين ، فهذا أبو جهل ، وذاك الوليد ، ومعه أمية بن خلف وغيرهم ممن كانوا يظنون أن قيادتهم لمجتمعهم وسيادتهم على غيرهم تعطيههم كل سلطان وكيان ، وكانوا يسخرون من السابقين إلى الإسلام كعمار وبلال وصهيب وخباب ، وغيرهم ممن عاشوا للحق ومع الحق ، فيقول أهل الأعراف لهؤلاء : (ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) .

وكانهم يقولون لهم : إن اجتماعكم على الضلال في الدنيا لم ينفعكم بشيء .. شياطينكم ، والأوثان ، والأصنام والسلطان لم ينفعوكم وكذلك استكباركم على الدعوة إلى الإيمان هل أغنى ذلك عنكم شيئا ؟ لا . لم يغن عنكم شيئا . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَهْوََاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۖ

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾

ويشير أهل الأعراف إلى المؤمنين الصادقين من أمثال بلال وخباب ويقولون لأهل النار من أمثال أبي جهل والوليد بن المغيرة : أهؤلاء الأبرار من أهل الجنة الذين تقولون إنهم لن ينالوا رحمة الله ؟ هم إذن - أهل الأعراف - قد عقدوا المقارنة والموازنة بين أهل الجنة وأهل النار ، وكانهم نسوا حالهم أن يقفوا في انتظار الفرج وفرحوا بأصحاب الجنة ووبخوا أهل النار ، ولم يشغلهم حالهم أن يقفوا موقوف الفصل في هذه المسألة ، وهنا يدخل الحق سبحانه أصحاب الأعراف بجنته لفرحهم بأصحاب الجنة ، وتوبيخهم أهل النار ويقول لهم :

﴿ .. ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وهؤلاء - كما قلنا - هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ؛ هي الطائفة التي جلست على الأعراف ، فلم تثقل حسناتهم لتدخلهم الجنة ، لم تثقل سيئاتهم ليدخلوا النار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة مستغيثين طالين أن يعطوهم ويفضوا عليهم من الماء أو من رزق الله لهم في الجنة ، فيقول أهل الجنة : نحن مربوطون الآن بـ « كن » ، ولم يعد لنا الاختيار ، وقد حرم الله عليكم أى شيء من الجنة ومنعه عنكم ، فأنتم يا أهل النار ممنوعون أو هذه المتع ممنوعة عنكم . ونحن يطلب أهل النار الماء ، فهم يطلبون أوليات الوجود ، في نار أحاطت بهم مرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه .

ولذلك يقول الحق بعد ذلك عن الكافرين الذين حرم عليهم خير الجنة :

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنفُسُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

وهكذا يبين لنا الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية من هم الكافرون الذين حرم عليهم الجنة ؛ إنهم من اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وأول مرحلة تمر على الإنسان هي اللعب ثم تأتي له مرحلة اللهو . وتعلم أن كل فعل توجّه إليه طاقة فاعلة ، وقبل أن توجّه إليه الطاقة الفاعلة يمر هذا الفعل على الذهن كي يحدد الغاية من الجهد . وهذا المقصود له حدود ؛ إما أن يجلب له نفعاً ، وإما أن يدفع عنه ضرراً . وكل مقصد لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرراً ، فهو لعب .

إذن فتعريف اللعب : هو فعل لم يقصد صاحبه به قصداً صحيحاً لدفع ضرر أو جلب نفع . كما يلعب الأطفال بلعبهم ، فالطفل ساعه يمسك بالمدفع اللعبة أو السيارة اللعبة ، هل له مقصد صحيح ليوجه طاقته له ؟ لا ، لأنه لو كان المقصد صحيحاً لما حطم الطفل لعبه . والطفل غالباً ما يكسر لعبته بعد قليل ، وهذا دليل على أنه يوجه الطاقة إلى غير قصد صحيح ولا يجلب لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها مضرة . ولكن حين توجّه الطاقة إلى ما هو أدنى من المهم فهذا هو اللهو ، كأن يكون المطلوب منك شيئاً وأنت توجه الطاقة إلى شيء آخر . والذي يعاقب عليه الله هو اللهو . أما اللعب فلا .

ولذلك نجد النبي ﷺ يطلب من الأهل أن يدرّبوا الأبناء على شيء قد يفيد الأمة كالمسابقة والرماية وركوب الخيل ، ولكن خيبة البشر في زماننا أنهم جعلوا اللعب غاية لذاته . ومن العجيب أن اللعب صار له قانون الجدد ولا يمكن أن يخرقه أحد دون أن يُعاقب ؛ لأن الحكم يرقب المباراة ، وإذا ما تناسى الحكم أمراً أو أخطأ هاج الجمهور . وأنساءل : لقد نقلتم قانون الجدد إلى اللعب ، فلماذا تركتم الجدد بلا قانون ؟

وكذلك نجد أن خيبة اللهو ثقيلة ؛ لأن الإنسان اللاهي يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم . فيجلس إلى لعبة النرد وهي الطاولة ويترك الشغل الذي يتح له الرزق ، ولبت هذا اللهو مقصور على اللاهي ، ولكنه يجذب أنظار غير اللاهي ويأخذ وقته ، هذا الوقت الذي كان يجب أن يُستغل في طاقة نافعة . وفساد المجتمعات كلها إنما يأتي من أن بعضاً من أفرادها يستغلون طاقاتهم فيما لا يعود على ذواتهم ولا على أمتهم بالخير . إذن فاللهو طاقة معطلة . (اتخذوا دينهم للهواً ولعباً وغرثهم الحياة الدنيا) .

وغرورهم بالحياة الدنيا إنما يأتي من الأسباب التي خلقها الله مستجابة لهم فظن كل منهم أنه السيد المسيطر . وحين غرثهم الحياة الدنيا نسوا الجدد الذي يوصلهم إلى الغاية النافعة الخالدة ، ويكون عقابهم هو قول الله سبحانه :

﴿ قَالِيزِمَ نَسَلُهُمْ كَمَا نُسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِفَاعِلِينَ بِمَجْدُونٍ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الاعراف)

فهل يعنى قوله عز وجل : « نساهم » أنه يتركهم لما يفعلون ؟ لا ، بل تأخذهم

هم إذن جعلوا الآيات كلها ، وكان أول جحود هو جحود يالآيات الكونية التي

شاهدوها قبل أن يأتى التكليف ، فهم عاشوا الليل والنهار ، وتنفسوا الهواء ، واستمتعوا
بدفء الشمس ، وروى المطر أراضيهم ووجدوا الكون مرتباً منظماً يعطى الإنسان قبل
أن يكون للإنسان إدراك أو طاقة ، وكان يجب أن تلفتهم هذه الآيات إلى أن لهم خالقاً
هو الحق الأعلى . وحين جاء لهم الموكب الرسالى جحدوا آيات المعجزات التى تدل
على صدق الرسل . وحين جاء القرآن معجزاً جحدوا الآيات التفصيلية التى تحمل
المنهج . إذن فلا عذر لهم فى شيء من ذلك لأن الحق يقول :

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى
وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

أى لا عذر لهم فى شيء من هذا الجحود ؛ لأن الكتاب مفصل ، وقد يقولون : إن
الكتاب طارىء علينا ، وكذلك الرسول الذى جاء به . إذن فما موقفهم من الآيات
الكونية الثابتة ؟ لقد جحدوها أيضاً . (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم).

و«فصلناه» أى أنه سبحانه لم ينزل كلاماً مجملاً أو مبهماً ، لا ، بل فيه تفصيل
العليم الحكيم ، أنه فصل أحكامه ومعانيه ومواظمه وقصصه حتى جاء قيما غير ذى
عوج ، وسبحانه هو القادر أن ينزل المنهج المناسب لقياس ومقام كل إنسان .

إنه حينما يأتى إلينا من يستفتينا فى أى أمر ويحاول أن يلوى فى الكلام لنائى له
يفترى تبرر له مايفعله ، فنحن نقول له : ليس لدينا فتوى مفصلة ؛ لأن الفشاوى التى
عندنا كلها جاهزة ، ولك أن تدخل بمسألتك فى أى فتوى .

﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف]

وهناك أناس سمعوا القرآن ورأوا الآيات واهتدوا ، فلماذا اهتدى هؤلاء وضل
هؤلاء ؟ لقد آمن من صدق بالوجود الأعلى كما قلنا فى سورة البقرة :

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾ [سورة البقرة]

إذن فقد آمن بالقرآن من اعتدى إلى الحق ، ومنهم من أوضح الحق عنهم : أنهم حين يستمعون القرآن تفيض أعينهم من الدمع . وأيضاً هناك من لا يلمس الإيمان قلوبهم حين يستمعون إلى القرآن .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا .. (١٦) ﴾ [سورة محمد]

وهؤلاء هم الذين غلظت قلوبهم فلم يتخللها أو يدخلها ويخالطها نور القرآن ، لذلك تجمد الحق يرد عليهم بقوله سبحانه :

﴿ .. أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (٢٦) ﴾ [سورة محمد] ويقول سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [سورة فصلت]

سبق أن ضربنا المثل بأن الفعل في بعض الحالات واحد ، لكن القابل للفعل مختلف ، لذلك تكون النتيجة مختلفة . وعلى سبيل المثال : إذا كنت في الشتاء ، وخرجت ووجدت الجو بارداً ، وشعرت أن أطراف أصابعك تكاد تتجمد من البرد ، فتضم قبضتيك معاً وتنفع فيهما ، وقد تفعل ذلك بلا إرادة من كل تدفئ يديك . وكذلك حين يأتي لك كوب من الشاي الساخن جداً ، وتحب أن تشرب منه ، فأنت تنفع فيه لشأني له بالبرودة . والنفخة من فمك واحدة ، تأتي بحرارة ليديك ، وتأتي بالبرودة لكوب الشاي ، وهكذا فالفعل واحد لكن القابل مختلف . وكذلك القرآن فمن كان عنده استعداد للإيمان فهو يهتدى به ، ومن لا يملك الاستعداد فقلبه غلف عن الإيمان .

وموقف هؤلاء العاجزين عن استقبال الرحمة مرفف غير طيبى ، وماذا ينتظرون بعد هذا الكفر ، وبعد الافتئات وبعد الاستكبار وبعد التأبى وبعد اتخاذ الدين لهواً ولعباً ، ماذا ينتظرون ؟

ها هو ذا الحق سبحانه يوضح لهم العاقبة :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ
الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلٌ مِنْ رَبِّنَا بِالْحَقِّ
فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ
الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ٥٣

وما معنى التأويل ؟ .. التأويل هو ما يؤول إليه الشيء ، هو العاقبة التى بعدها الحق ، فالرحمة والجنة لمن آمن ، والنار لمن كفر ، والحق هو من يقول ويمثلك قوله لأن الكون كله بيده .
وهنا يقول سبحانه وتعالى : (هل ينتظرون إلا تأويله) .

أى هل ينتظرون إلا المرجع الذى يؤول إليه عملهم ؟ إن مرجعهم الأخير هو العذاب بعد الحساب يوم يأتى تأويل وغاية وعاقبة ما عملوا .

وحين يأتى يوم القيامة ويتضح الحق ويظهر صدق ما جاء به الرسول من الوعد والوعيد ماذا سيكون قولهم ؟ .. يقولون ما أورده سبحانه على أنفسهم : (يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) .

أى أنهم سيعلمون التصديق حين لا ينفع هذا التصديق ؛ لأنهم لن يكونوا فى دار التكليف ، سيقرون بالإيمان لحظة لا ينفعهم ذلك .

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ أُسْرُوا مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَةٍ
فَيُشَفِّعُوا لَنَا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

هم إذن يقرون بأن الرسل حملت المنهج الحق وتساءلون عن الشفيع . ونعلم أن الشفيع لابد أن يكون محبوباً عند من يشفع عنده ، ونحن في الدنيا نجد من يبحث لنفسه عن من يشفع له عند صاحب جاه يكون أثيراً وعزيزاً لديه ، أو يكون له كلمة وفضل عليه فلا يرد عليه كلمته . فمن يأتي يوم القيامة بالشفاعة لهؤلاء ؟ . لا أحد ، وسنجدهم يتخذون الشفعاء من الذين اتخذوهم أئاداً لله . وسيعلم هؤلاء أيضاً الكراهية لهم ، ولو ممكنهم الله من الشفاعة ما أعطوها للكافرين المشركين ، ففي الدنيا كان هؤلاء مؤتمرين بأمر البشر وضلالاً عنهم . أما يوم الحساب فلا أحد خاضع لإرادة أحد ، حتى الجوارح لا تخضع لإرادة صاحبها ، بل هي خاضعة للحق الأعلى . وفي الآخرة لا مرادات لأحد .

وقد ضربنا من قبل المثل وقلنا : هب أن سرية في جيش ما وعليها قائد صغير برتبة ضابط ، ومفروض في جنود السرية أن ينفذوا كلامه ، ثم راحوا لموقعة وأعطاهم الضابط الصغير أوامر خاطئة بما له من فرض إرادة عليهم فنفذوا ما أمروا به . ولحظة أن يعودوا ويحاسبهم القائد الأعلى فيقولون : لقد فعلنا ما أمرنا به الضابط المكلف بقيادتنا ، وكذلك ستأني الجوارح في الآخرة : تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وألستهم وجلودهم .

إذن فلألباعض سترفع شكراها إلى الله يوم ألا يكون لأحد من ملك سواء ، ويومئذ سيقول المكذبون الصدق الذي لن ينتفع بهم .

﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

وسوف يحشون عن شفاعة ، لكنهم لن يجدوا ، بل إن أول من يسخر من الذين عبدوا غير الله هم المعبودون أنفسهم .

ولذلك نجد قوله الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَكُرُّ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ (١١)

(سورة انبياء)

وما ذنب المعبود ؟ . . إن الأصنام لا ذنب لها ، بل كل منها يريد أن يشفى نفسه بأن يكون أداة تعذيب لمن أعطوه غير حقه . ولذلك نجد أن الأحجار التي عُذت تقول : عبدونا ونحن أعند الله من القائمين بالأسحار ، لأن القائم في الأسحار من الأعبار قد يختار أمراً غير هذا ، ولكنا كنا مقهورين على الطاعة ، وقد اتخذوا صمتنا علياً دليلاً .
إن الأحجار تعلن أنها لم تكن تملك قدرة رفض أن يعبدوا أحد أو أن تبعده عنها وتعلن له غيابه .

والشاعر يقول :

قد نجنوا جهلاً كما قد تجنوا على ابن مريم والحواري
للمغالي جزاؤه والمغالي فيه تنجيه رحمة الغفار
وهكذا يأتيهم الحق واضحاً يوم القيامة .

إنهم سيطلبون العودة إلى الدنيا ، وهذا من الخيبة ؛ لأن مثل هذا الإقرار ليس من الإيمان ، فالإيمان يكون بالغيب لا في المشهد وحتى ولو عادوا ، فلن يؤمنوا ! .
والحق هو الغافل :

﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأنعام)

وكانهم نسوا لحظة إقرارهم أنهم من الأغيار ، وأتى فيهم القول الفصل من الله .

﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الاعراف)

لقد جاء لهم الخسران بعد أن غاب عنهم ما كانوا يفترون على الله في الدنيا ، إنهم

رفضوا عبادته - سبحانه - وعبدوا غيره أصناماً صارت وقوداً للنار التي سيصلونها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ
يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ
بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ



هنا ربوبية ، وهنا ألوهية : «ربكم الله» ولا أحد يختلف في مسألة الربوبية لأن الحق يقول على ألسنة الكافرين والمشركين :

﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ ۝٣٨﴾ [سورة الزمر]

وكذلك إن سألتهم من خلقهم ؟ سيقولون : الله ، ولم يدع أحد نفسه مسألة الربوبية ، لأن الربوبية جاءت بنفع لهم ، لكن الألوهية دخلت بمتعج هو : «أفعل ولا تفعل» ، لأن التكليف من الإله الرب ، والتكليف نعمة منه وهو لمصلحةكم أنتم ، فلا شيء في التكليف يعود على الله . وفعلكم الحسن أو السيئ لن يعطى له صفة لم تكن له ، لأن صفات الكمال أوجدكم ، وإن كنتم أنتم في شك في هذه الربوبية فربكم هو الله - ولله المثل الأعلى - منزّه عن التشبيه ، كأن تقول الأم للولد : قال لك أبوك لانسهر خارج المنزل ليلاً ، فيتأبى الولد . وتنبه الأم ولدها : إن أباك هو الذي يأتي لك بالأكل والشرب ، والملابس ويعطيك مصروف اليد . . إلخ .

وقد ضربت هذا المثل لأشرح كيف أن المكلف هو الرزاق ولا أحد سواه يرزق ، لذلك كان يجب أن تقبل تكاليفه لأنه سبق لك بالفضل بأن أعطى لك وسخر لك الدنيا .

ومن قبل فصل الحق سبحانه لنا خلق الإنسان ، ويفصل لنا هنا خلق السماء والأرض لأن ظرف وجود الإنسان هو السماء والأرض ، وكل الخيرات تأتي له من السماء ومن الأرض ، وإذا كان الله قد علمنا كيف خلقنا ، فهو هنا يعلمنا كيف خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان وخلق السموات والأرض مسألان يتشغل بهما العلم الحديث ، فمن العلماء من قال : إن الأرض انفصلت عن الشمس ، ومنهم من افترض نظرياً أن الإنسان أصله قرد ، ولهؤلاء نقول : هذا حكم منكم لا يقبل ، لأنكم لم تشهدوا الخلق ، ولذلك فعليكم أن تسمعوا ممن خلق الخلق ليقول لكم كيف خلق الخلق .

هو سبحانه يقول :

﴿إِنْ رَأَيْتُمْ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾﴾
[سورة الأعراف]

والآية تتعرض للخلق الأول وهو السموات والأرض - كما أوضحت - وهو الظرف الوجودي للإنسان الخليفة وطراً الإنسان على هذا الكون بكل ما فيه من قوى ونواميس ، فكان الله أعد الكون للخليفة قبل أن يُخلق الخليفة ليجي الخليفة فيجد كوناً مسخراً له ، ولا يستطيع أي كائن منه أن يخرج عن مراد الله في شيء (إن ربيكم الله الذي خلق).

ومعنى «خلق» أي أوجد شيئاً كان معدوماً ويراه على غير مثال سبقه . فربنا سبحانه قدر كل شيء بنظام دقيق غير مسبوق ، هذا هو معنى الخلق ، وكلمة «الخلق» مادتها الفاعلة هي : خالق ، وسبحانه وتعالى يجمعها مع أنه الخالق الوحيد فيقول :

﴿... فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾
[سورة المؤمنون]

إذن فهناك الخالق الأعلى وهو الله ، ولكنه سبحانه أيضاً أشرك خالقاً غيره معه فقال

جل وعلا : (فتبارك الله أحسن الخالقين) . كيف ؟ ، لأن الخلق إيجاد شيء معدوم ، والذي صنع الميكرون يقال خلقه ، والذي صنع الكوب يقال خلقه ، والذي صنع المصباح يقال خلقه ، لأنه كان شيئاً معدوماً بذاته ، فأرجده . لكن الفارق أن الخالق من البشر يوجد معدوماً من موجود ولا يأتي بمادة جديدة ، فمن أخذ المواد الموجودة في الكون وصمم منها المصباح وصهر الرمل وفرغ الهواء داخل الزجاج يقال له : خلق المصباح وأوجد معدوماً من موجود .

لكن الخالق هو خير الخالقين لأنه يخلق من عدم ولم يحرم خلقه حين يوجدون شيئاً معدوماً من أن يوصف الواحد منهم بأنه خالق ، وسبحانه حين خلق خلق من لا شيء ، وأيضاً فإنكم حين تخلقون أي صفة تظل جامدة على هيئة صانعها ، فمن صنع الكوب من الرمل المصهور يظل الكوب هكذا ، ولا نستطيع - كما سبق أن قلت قديماً - أن نأتي بكوب ذكر ، وكوب أنثى ، ونضعهما معاً في مكان ونقول لهما : أنجبا لنا أكواباً صغيرة .

لكن ما يخلق ربنا يعطى له سر الحياة ويحمله بالقانون يتج غيره وينمو ويكبر . إذن فهو أحسن الخالقين .

والله سبحانه وتعالى يعطينا خبر خلقه السموات والأرض . وأوضح سبحانه أن السموات سبع وقد جاءت مجموعة . أما الأرض فجاء بها مفردة . لكنه جل وعلا قال في آية أخرى :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾

(من الآية ١٢ سورة الطلاق)

فكما خلق سبع سموات خلق سبع أراضين ، ولماذا جاء بالسماء بالجمع وترك لفظ الأرض مفرداً ؟ .. لماذا لم يقل : سبع أراضين ؟ ، لأن كلمة «أراضين» ثقيلة على اللسان فتركها لثقلها وأتى بالسموات مجموعة لخفتها ويسر نطقها .

والسماء هي كل ما علاك فأظلك ، هذا معنى السماء في اللغة . لكن هل السماء التي يريدنا الله هي كل ما علاك ؟ .. إن النجم هو ما علاك ، وقد يقال : إن الشمس علاك ، والقمر علانا جميعاً . ونلفت الانتباه هنا ونقول للناس الذين أحبوا أن يجعلوا

السموات هي الكواكب إنها ليست دائماً ما علانا ؛ فالشمس تعلو وقتاً وتنخفض وقتاً آخر . وكذلك القمر .

إذن فالوصف منحسر عن الشمس أو القمر بعض الوقت ، ولا يصح أن يوصف أى منهما بأنه سماء دائماً . وشئ آخر وهو أنهم حينما قالوا على الكواكب التي كانت معروفة بأنها كواكب سبعة وقالوا : إن هذه هي السماء ، إنهم يقولهم هذا قد وقعوا في خطأ . وأوضح الحق لنا بالعلم أن للشمس توابع أخرى . فمرة رأى العلماء ثمانية توابع ، ومرة تسعة ، وأخرى عشرة توابع ، وهكذا انتهت فكرة أن التوابع هي السماء ، وبقيت السماء هي ما فوق هذا كله ، والحق هو القائل :

﴿ إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۖ ﴾

(سورة الأنعام)

هذه - إذن - زينة للسماء الدنيا ، والسماء التي يقصدها ربنا ليست هي التي يقولون عليها ، بل السماء خلق آخر لا يمكن لأحد أن يصل إليه ، وكان الجن قديماً يقعدون منها مقاعد للسمع « فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً » . وحدث هذا بعد بعثته ﷺ والحق هو من قال لنا ذلك . ولم يوضح الحق لنا حقيقة هذه السماء ونظامها ، أى أن ربنا يريد لعقولنا أن تفهم هذا القدر فحسب ، وسبحانه خالق السماء التي فوقنا ، وهو جل وعلا خالق أراضين . وأين هي هذه الأراضين ؟ .. أمي أراضين مبشرة ؟

ولقد أثبت العلم أن كل مجرة من المجرات فيها مليون مجموعة شمسية ، وكل مجموعة شمسية فيها أرض ، إذن فهناك أراضٍ عديدة ، ونلاحظ أن الحق سبحانه حين يتكلم عن الأرض فكل مخاطب بالأرض التي هو فيها ، ولذلك قال بعض العلماء : إن في هذا العالم العالى توجد أراضٍ ، وكل أرض أرسل لهم الحق رسولا . والحق هو القائل :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا

يَشَاءُ قَدِيرٌ ۝ ﴾

(سورة الشورى)

ويعطينا العلم كل يوم مزيداً من الاكتشافات . وهكذا تكون السماء هي كل ما علاك والأرض كل ما أفلك . وما دامت سبع سموات والسماء الأولى فراغ كبير ونضاء ، وتأتي بعدها السماء الثانية تظل السماء الأولى ، وكل سماء فيها أرض وفيها سماء أخرى . ونحن غير مكلفين بهذا ، نحن مكلفون بأن نعلم أن الأرض التي نحن عليها مخلوقة لله .

والحق يقول :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ۚ ۝٥٤ ﴾ [سورة الأعراف]

وقوله : « في ستة أيام » هو ظرف للخلق . واليوم نعرف أنه المدة من طلوع الشمس إلى الغروب ثم إلى الشروق ومدته أربع وعشرون ساعة . لكن لا بد لنا أن نعرف بعضاً من اصطلاحات الحق القرآنية .

فهو يقول سبحانه وتعالى :

﴿ .. سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِينَ ۝١٨ ﴾ [سورة نبا]

أي هناك ليل وهناك يوم ، إذن فالיום عند الحق غير اليوم عندنا ، لأننا نطلق على المدة الزمنية من طلوع الشمس إلى غروبها وشروقها من جديد . هكذا يكون اليوم في العرف الفلكي : من شروق إلى شروق ، أو من غروب إلى غروب ، وقول الحق : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِينَ ﴾ .

يعنى أنه سبحانه قد جعل الليل قسماً والنهار قسماً ، وهل كان هناك من عرف اليوم إلا بعد أن وجدت الشمس ؟ . . وإذا كانت الشمس هي التي تحدد اليوم فكيف عرف اليوم قبلها وخصوصاً أن السماء والأرض حينما خلقنا لم تكن هناك شمس أو كواكب ؟ . . وعلينا هنا أن نعرف أن هذا هو تقديره سبحانه وقد خاطبنا به بعد أن عرفنا مدة اليوم . ألم تقرأ قول الله سبحانه :

﴿ .. وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١٦ ﴾ [سورة مريم]

وليس في الآخرة بكرة ولا عشي ، إذن سبحانه قد قدر البكرة وقدر

العشى ، وكذلك «فى ستة أيام» وتلك هى الآيات المحكمات فى القرآن بالنسبة لزمن الخلق ؛ ستة أيام ، ولكن آية التفصيل للخلق ، جاءت فى ظاهر الأمر أنها ثمانية أيام . اقرأ معي :

﴿ قُلْ أَنْتُمْ تُكْفِرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُسًا مِنْ فَرْقِهَا وَبَرَكَةً فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ ثَلَاثِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَطَّعَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ .. (١٢) ﴾ [سورة فصلت]

والظاهر من آية التفصيل أنها ثمانية أيام ، أما آيات الإجمال فكلها تقول : إنها أيام ، ومن النقطة دخل المستشرقون ، وادعوا زوراً أن القرآن فيه اختلاف ، وحاولوا أن يجعلوها ضجة عالية . ونقول : إنه - سبحانه - خلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام كاملة بلا زيادة ولا نقصان ، فالمراد أن ذلك حصل وتم فى تمة أربعة أيام ويضم إليها خلق السموات فى يومين فيكون عدد الأيام التى تم فيها خلق السموات والأرض ستة أيام أو نحمل المفصل على المجرى ، فحين يقول الحق :

﴿ إِنَّ رُبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٥٤) ﴾

[سورة الأعراف]

فهل خلق الله يحتاج إلى علاج حتى يتطلب الزمن الممتد ؟ . إن ربنا يخلق بـ«كن» ، ونحن البشر نعالج على حسب قدرتنا لنخلق شيئاً ، وكل عملية نقوم بها تأخذ زمناً ، لكن من يخلق بكلمة «كن» فالأمر بالنسبة له هين جداً - سبحانه وتعالى - لكن لماذا جاء بخبر الخلق فى ستة أيام ؟

نعلم أن هناك فرقاً بين ميلاد الشئ وبين تهيئته للميلاد . وكنا قد حضرنا المثل سابقاً - ولله المثل الأعلى - بصانع الزبادى ، الذى يأتى بأكواب اللبن الدافئ ، ثم يضع

فى كل منها جزءا من خميرة الزبادى ، ويضع تلك الأكواب فى الجو المناسب . فهل يؤدى هذا الرجل عملاً لمدة اثنتى عشرة ساعة فى كل كوب ، وهى المدة اللازمة لتخمر الكوب ؟ ، طبعاً لا ، فقد اكتفى بأن فى كل كوب عناصر التخمر لتتفاعل بذاتها إلى أن تنضج .

ولننظر إلى خلق الجنين من تزاوج بويضة وحيوان منوى ، ويأخذ الأمر تسعة شهور وسبحانه جل جلاله لا يعمل فى خلق الجنين تسعة شهور ، لكنه يترك الأمر ليأخذ مراحل تفاعلاته .

إذن فخلق الله السموات والأرض فى ستة أيام لا يعنى أن الستة أيام كلها كانت مشغولة بالخلق ، بل قال سبحانه : «كن» وبعد ذلك ترك مكونات السموات والأرض لتأخذ قدرها ومراحلها ؛ لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام . وفى القرآن آية من الآيات أعطينا لمحة عن هذه المسألة ، فقال سبحانه :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٢٨)﴾ [ق]

أى خلق سبحانه السموات والأرض دون تعب ؛ لأنه لا يعالج مسألة الخلق ، بل إنما يحدث ذلك بأمر «كن» فكانت السموات والأرض . والآية التى بعدها فوراً تقول : (فاصبر على ما يقولون) .

وكان قوله سبحانه هنا جاء لتسلية الرسول ﷺ موضحاً له : إنهم يكذبونك وقد ترغب فى أن تأخذهم أخذ عزيز مقتدر . لكن الحق جعل لكل مسألة كتاباً ، فهو قد خلق السماء والأرض فى ستة أيام . ونحن فى حياتنا نقول لمن يتعجل أمراً : يا سيدى إن ربنا خلق السماء والأرض فى ستة أيام . فلا تتعجل الأمور .

إذن كان ربنا هو القادر على أن يشجز خلق السماء والأرض فى لحظة ، لكنه أمر «بكن» وترك المواد تتفاعل لستة أيام . ولماذا لا نقول : جاء بكل ذلك ليملأنا التانى ، ولأنتم تجعل الأشياء ؟ لأنه وهو القادر على إبراز السموات والأرض فى لحظة ، خلقها فى ستة أيام ، لذلك قال سبحانه :

[سورة ق]

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ .. (٣٩)﴾

أى لا تهرق نفسك لأنه سبحانه خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وسيأتى لهؤلاء الجاحدين يومهم الذى يراخضون فيه بسوء أعمالهم وسوف يأتى حتماً .

وهناك من يتساءل : كيف خلق الكون بما فيه من الرواسى والكائنات ؟ . . ونقول : إنه الإنجاز الذى أخبر به سبحانه مرة واحدة ، وانفعلت الكائنات للمقدرة مرة واحدة ، وتعددت استدامة انفعالات السامع لقدرة الله ، فى كل جزئية من جزئيات الفعل ، وأخذ الأمر ستة أيام . واستقر الأمر بعد ذلك واستتب ، وسبحانه يقول :

[سورة الأعراف]

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٢٤)﴾

ولا بد أن نعرف العرش ماهو . وسبحانه يقول فى ملكة سبأ :

[سورة النمل]

﴿.. وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾

فالعرش إذن هو سرير الملك ؛ لأن الملك لا يجلس على العرش إلا بعد أن تستقر الأمور .

فكان قوله : «استوى على العرش» كناية عن تمام الأمور ؛ وخلقها وانتهت المسألة . لكن العلماء حين جاءوا فى «استوى» ، اختلفوا فى فهمها ؛ لأن العرش لو كان كرسيّاً يجلس عليه الله ، لكان فى ذلك تمييز لله ووضع وضمه فى جرم ما . وسبحانه منزّه عن أن يحيزه شىء . ولذلك أخذ العلماء يتلمسون معانى لكلمة «استوى» منهم من قال : إن معناها هو قصد إليها بخلقه واختراعه ، ومنهم من قال : المقصود بها أنه استعلى وارتفع أمره ، ومنهم من قال : «صعد» أمره إلى السماء واستند إلى قوله الحق :

[انصت]

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ .. (١١)﴾

وكلها معاني متقاربة . وجماعة من العلماء أرادوا أن يخرجوا من التشبيهات ، فقالوا : المقصود بـ « استوى » أنه استولى على الوجود ، ولذلك رأوا أن وجود العرش والجلوس عليه هو سمة لاستقرار الملك . وحتى لا ندخل في متاهات التشبيهات ، لومتاهات التعطيل نقول : علينا أن نأخذ كل شيء منسوب إلى الله في إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الشورى)

فحين يقول سبحانه :

﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة النجم)

ونحن نفهم أن لليد مدلولاً ، والقرآن لغة عربية يخاطبنا بها سبحانه ، فالقول أن لله يداً فهذا دليل على قدرته . واستخدام الحق كلمة اليد هنا كناية عن القدرة . والإنسان عليه أن يأخذ كل شيء منسوب إلى الله مما يوجد مثله في البشر ، في إطار « ليس كمثله شيء » ، فنقول : سبحانه له يد ليست كيد البشر ، وله وجود لكنه ليس كوجود البشر ، وله عين ليست كعيون البشر . وله وجه ليس كوجه أحد من البشر . ولذلك حينما سئل سيدنا الإمام مالك عن هذه المسألة قال لمن سأل : « الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة » وأراك رجل سرء ! أخرجوه . نعم السؤال عنه بدعة لأنه يدخل بنا في متاهة التشبيه ومتاهة التعطيل ، وهل سأل أحد من صحابة رسول الله ﷺ عن معنى الاستواء ؟ . لا ، لأنهم فهموا المعنى ، ولم يعلق شيء من معناها في أذهانهم حتى يسألوا عنها رسول الله ﷺ . إنهم فهموها بفطرتهم التي فطرهم الله عليها في إطار ما يليق بجلال الله وكماله .

وإن قال قائل : أرسول الله كان يعلم المعنى أم لا يعلم ؟ . . إن كان يعلم لأنبرنا بها ، وإن لم يخبرنا فقد أراد أن يكتفينا . وإن لم يكن قد علم الأمر . . فهل تطلب لنفسك أن تعلم ما لم يعلمه ﷺ ؟

أو أنه ﷺ ترك لكل واحد أن يفهم ما يريد ولكن في إطار « ليس كمثله شيء » ، والذين

يمنعون التأويل يقولون : إياك أن تؤول اليد بالقدره ؛ لأنه إن قال : إن له يداً ، فقل ليست كأيدينا في إطار « ليس كمثله شيء » ؛ لأنه سبحانه له حياة ، وأنت لك حياة ، أحياته كحياتك ؟ لا ، فلماذا إذن تجعل يده مثل يدك ؟ . . إذن لابد أن ندخل على كل صفة لله فتفى عنها التعطيل ونفى عنها التشبيه . ثم إن من يمنعون التأويل نقول لكل منهم : أنت ستضطر أخيراً إلى أن تؤول ؛ لأن الحق يقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ مَّأَلِكُ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

ومادام « كل شيء مآلك إلا وجهه » فكل ما يطلق عليه شيء يهلك ، ويبقى وجهه سبحانه فقط ، فلو أنك قلت الوجه هو هذا الوجه ، فكأن يده تهلك ورجله تهلك وصدرة يهلك ، وحاشا لله أن يحدث ذلك ، وتكون قد دخلت في متاعه ماله من آخر . لذلك نقول : لناخذ النص وندخله في إطار « ليس كمثله شيء » . وآية الاستواء على العرش هذه ، مذكورة في سور كثيرة ، وهي تحديداً في « سبعة مواضع » ؛ في سورة الأعراف التي نحن بصددتها ، وسورة يونس ، وسورة الرعد ، وسورة طه ، وسورة الفرقان ، وسورة السجدة ، وسورة الحديد .

وهنا يقول الحق بعد الحديث عن الاستواء على العرش : (يغشى الليل النهار) .

الله - سبحانه - قد خلق السماء والأرض للخلقة في الأرض وهياً له فيها أصول الحياة الضرورية ودلّه على ما يحتاج إليه ، فماذا سيفعل هذا الخليفة ؟ . . لابد أن يقوم بكل مقومات الحياة ، وإذا ما عمل فسيبذل جهداً ، والجهد يقتضى راحة . ومن يشتغل ساعة لابد أن يرتاح ساعة ، وإن اشتغل ساعتين ولم يسترح ساعة غلب على نفسه .

ونحن نرى في الآلة التي تعمل ثلاث ورديات يومياً أى التي تعمل لمدة الأربع والعشرين ساعة دون توقف أنها تستهلك أكثر من آلة التي تعمل ورديتين ، والآلة التي تعمل وردية واحدة أى لمدة ثماني ساعات يطول عمرها أكثر . وكل إنسان يحتاج إلى الراحة . فشاء الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن الليل والنهار متعاقبان من أجل هذا الهدف :

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾

[سورة القصص]

أى لتسكنوا فى الليل ، وتبتغوا الفضل فى النهار ، فإن كنت لم تسترح بالليل فلن تقدر أن تعمل بالنهار ، فمن ضروريات حركة الخلافة فى الأرض أن يوجد وقت للراحة ووقت للعمل . لذلك أوضح سبحانه لنا : أنا خلقت الليل والنهار ، وجعلت الليل سكناً أى للراحة والبعد عن الحركة ، والحق يقول هنا :

﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ .. (٥٤)﴾ [سورة الأعراف]

ويكون المعنى هنا أن النهار يغشى الليل ، ولذلك تحدثنا من قبل عن تتابع الليل والنهار لتستبسط منها الدليل على أن الأرض كرة .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٥٦)﴾

[سورة الفرقان]

والليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، وفى مصر تكون فى نهار مثلاً ، ويكون هذا الوقت فى بلد آخر ليلاً ، وإذا سلسلتها إلى أول ليل وإلى أول نهار ، وأيهما الذى كان خلفه للثانى ؟ فلن نجد ؛ لأن كلا الاثنين خلقا معاً . ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة التسطیح وكانت الشمس قد خلقت مواجهة لسطح الأرض لكان النهار قد خلق أولاً ثم يعقبه الليل ، ولو كانت الشمس قد خلقت غير مواجهة للسطح كان الليل سبأى أولاً ثم تطلع الشمس على السطح ليوجد النهار . والحق سبحانه أراد من الليل والنهار أن يكون كلاهما خلفة للآخر ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا كان الله سبحانه خلق الليل والنهار دفعة واحدة . كان لابد أن تكون الأرض كرة ؛ ليغشى النهار الجزء المواجه للشمس ، وليغشى الليل الجزء غير المواجه للشمس ، وحين تدور الأرض يأتى النهار خلفه الليل ، ويكون الليل خلفه للنهار .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٥٦)﴾

[سورة الفرقان]

(يغشى الليل النهار) ويغشى النهار الليل وحذفت للاعتماد على الآيات السابقة
التي منها قول الحق سبحانه :

﴿وَاللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ .. (١٠)﴾ [سورة يس]

أى أن الليل لا يسبق النهار وكذلك النهار لا يسبق الليل ، وهذا دليل على أنهما
خُلِقَا دفعة واحدة .

والحق يقول هنا : (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر)
فلا أحد من هذه الكائنات له اختيار أن يعمل أو لا يعمل ، بل كلها مسخرة ،
ولذلك تجدد النواميس الكونية التي لا تدخل للإنسان فيها ولا لاختياراته دخل في
أمودها تسير بنظام دقيق ، ففى الوقت الفلانى ستأتى الأرض بين الشمس والقمر ،
وفى الوقت الفلانى سيقع القمر بين الأرض والشمس ، وسيحدث للشمس
خسوف ، وكل أمر من هذا له حساب دقيق .

﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ
الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ .. (٥٤)﴾ [سورة الأعراف]

والخلق إيجاد الأشياء من عدم ، فبعد أن خلق الله الكون لم يترك شؤون الكون
لأحد ، بل - سبحانه - له الأمر بعد ذلك . وقيوميته ؛ لأنه لم يزل سلطانه فى ملكه
ساعة الخلق ثم ترك النواميس تعمل ، لا ، فبأمره يُعطل النواميس أحياناً ، ولذلك
شاء الحق أن تكون معجزات الأنبياء لتعطيل النواميس ؛ لنفهم أن الكون لا يسير
بالتطبع أو بالعادة . لذلك يقول : (ألا له الخلق والأمر) .

وإذا نظرت إلى كلمة «الأمر» تجد الحق يقول :

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ .. (١٥٤)﴾ [سورة آل عمران]

والمقصود هو الأمر الكونى ، أما الأمور الاختيارية فله فيها أمر يتمثل فى المنهج ،

وانت لك فيها امر إما أن تطيع وإما أن تعصى ، وانت حر .

﴿الْأَلَهُ أَنْخَلَقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

وحين يقول سبحانه : « تبارك الله » وقال من قبل : « أحسن الخالقين » ، فكل لفظ له معنى ، ففى خلقه من البشر مواهب تَخْلُق ولكن من موجود وأوضحنا ذلك .
ولى قول آخر يصف الحق نفسه :

﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأنعام)

والناس تتعلم الحساب وخلقوا آلات حاسبة ، وهى آلات تتم « برمجتها » وإعدادها وتجهيزها للجمع والطرح والضرب والقسمة ، وكل حدث من الحساب يأخذ مدة . لكن الحق يحسب لكل البشر دفعة واحدة . لذلك فهو أسرع الحاسبين ، لأنه ليس هناك حساب واحد ، فأنت لك حساب مع الله ، والآخر له حساب مع الله ، والحساب مع الله متعدد بتعدد أفراد المحاسبين ، وحساب الحق للمخلق لا يحتاج إلى علاج ، بل ينطبق عليها ما ينطبق على الرزق ، ولذلك حينما سئل على كرم الله وجهه :
— أيحاسب الله خلقه فى وقت واحد؟

قال : وما العجب فى ذلك ألم يرزقهم فى وقت واحد؟

وانظر إلى القرآن تجد الحق « أسرع الحاسبين » و« أحسن الخالقين » ، و« أرحم الراحمين » و« خير الوارثين » . وهذه هى الألفاظ التى وردت ، والله فيها مع خلقه صفة ، لكن صفة الله دائماً فى إطار « ليس كمثله شئ » . (تبارك الله رب العالمين) .

و« تبارك الله » أى أنه - تعالى - تنزه ، لأن هناك فرقاً بين القدرة المطلقة - وهى قدرة الله - والانفعال للقدرة المطلقة بالإرادة وبـ « كن » وهذا هو لانفعال والانقياد وللإرادة والأمر .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ﴾

والدعاء إنما يكون من عاجز يدعو قادراً على إنجاز وتحقيق ما عجز عنه أو يعينه عليه .
وعندما تشعر أنك عاجز فانت ترتكن إلى من له مطلق القدرة ؛ لأن قدرتك محدودة . إذن
فإن كنت تطغى أو تتكبر فاعرف مكانتك ومنزلتك جيداً وتراجع عن ذلك لأنك عرض
زائل ، والدعاء هو تضرع ، وذلة ، وخشوع ، وإقرار منك بأنك عاجز ، وتطلب من ربك
المعونة والعون . واستحضار عجزك وقدرته وبك تمثل لك استدامة اليقين الإيماني .
وما جعل ربنا للناس حاجات إلا من أجل ذلك ؛ لأن الإنسان إذا ما رأى الأشياء تتفعل
له ، وينكر ويخترع فقد يأخذ الغرور ، فيأتي له بحاجة تعجز فيها الأسباب ، فيقف
ليدعو . ومن كان متكبراً وعنده صلف وغطرسة يذهب إلى رجل « غلبان » زاهد تجرد من
الجاه والسلطان منقطع لعبادة الله ويقول له : أستحلفك برسول الله أن تدعولي لأني في
أزمة والذي يسأل الغلبان الزاهد هو رجل عزيز في قومه لكنه يظن أن الغلبان الزاهد أقرب
إلى الله منه .

إذن الدعاء هو الضراعة وإظهار الذلة والخشوع لله ؛ لكي يستندم اليقين الإيماني .

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

وإياك أن تدعوني بالك أن تقضى حاجتك بالدعاء ، عليك بالدعاء فقط لقصد إظهار
الضراعة والذلة والخشوع ، ولأنك لو لم تدع فستسير أمورك كما قدر لها ، والدعاء هو
إظهار للخشوع ، وإياك أن تفهم أنك تدعو الله ليحقق لك مطالبك ؛ لأنه سبحانه متزه أن
يكون موظفاً عندك ، وهناك نظام وضعه سبحانه لتحقيق مطالب العباد . ومن الناس من
يطلب بالدعاء أشياء ضارة .

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾

(سورة الإسراء)

والإنسان قد يتعلق قلبه بأمانى قد تضره ؛ لذلك نقول : لا تتعجل بالدعاء طلباً

لامنيات قد تكون شراً عليك ، والحق العليم ينظم لنا أمورنا ، وإياك أيضاً أن تياس حين لا تجاب دعوتك التي في بالك ، لأن الله يحقق الخير لعباده . ولو حقق لك بعضاً مما تدعو فقد يأتي منها الشر ، ويترك الله لأفئيتك أموراً تبين لك هذا ، وتقول : إن الشيء الفلاني الذي كنت أتمناه تحقق وجاء شراً علي . مثال ذلك قد تحجز لطائرة لكنك لا تلحق بها فقد أفلتت قبل أن تصل إليها وحزنت لأن بعضاً من مصالحك قد فانتك ولم يتحقق وثفاجاً بأن هذه الطائرة سقطت في البحر .

إذن ، اجعل حفظك من الدعاء هو الخشوع والتذلل والضراعة له سبحانه لا إجابتك إلى ما تدعو إليه ، إليك دعوت لتطلب الخير ، فدع الحق بقيومته وعلمه يحقق لك الخير . واسمع قول الله :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ٥١ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فحين يقول الحق : « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية » سبحانه يطلب منا أن تدعوه لأننا سنواجه لحظات متعددة نعجز فيها عن أشياء ، فبدلاً من أن نظل مقهوراً بصفة العجز عن الشيء اذكر أن لك رياً قوياً مقتدراً ، وساعة تذكر ذلك لن تأخذك الأسباب من حظيرة الإيمان . وقلنا من قبل : من له أب لا يحمل همّاً للحياة ، فإذا كان الذي له أب لا يحمل همّاً لمطلوبات الحياة فمن له رب عليه أن يستحي ويعرف أن ربه سيوفر له الخير ؛ لذلك يوضع سبحانه : إذا أعجزتكم الأسباب فافكروا أن لكم رياً . وقد طلب منكم أن تدعوه ، ولا تظن أن حفظك من الدعاء أن تجاب إلى ما طلبت ، بل ليكن حفظك من الدعاء إظهار التذلل والخشوع لله ؛ فقد يكون ما حدث لك نتيجة أنك قد اغتررت بنفسك . وقد سبق : قارون « إلى الغرور » ، فماذا حدث له ؟ . . لقد هزمه الحق وأنزل به شر العقاب . وقد يجعل الحق من تأتي لأسباب وامتناعها عليك مغزى لتلتفت إلى الله ، لكن لفتك الله لا يصح أن تكون بغرض أن يقضى حاجتك ، بل اجعل أساس لفتك الله أن تظهر العجز أمامه والخضوع والخشوع ؛ ليعطيك ما لم يكن في بالك حين تدعو .

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

خُفْيَةً لَهَا مَعْنَى وَهِيَ أَنْ يَكُونَ الدَّعَاءُ دَعَاءً مُسْتَوْرًا مُخْتَبَأً ، وَلَهَا مَعْنَى آخَرٌ وَهِيَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخَوْفِ أَيْ أَدْعُوا رَبَّكُمْ خَوْفًا مِنْ مَتَعَلِّقَاتِ صِفَاتِ الْجَلَالِ كَالْجِبَارِ وَالْقَهَّارِ أَوْ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَرُدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ فَلَا يَقْبَلُهَا مِنْكَ .

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا بَذَلَةً وَانْكَسَارًا وَخُضُوعًا خُفْيَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَبِّكَ ، فَلَا تَجْهَرُ بِالدَّعَاءِ وَتَجْعَلْهُ عَمَلَكِ الرَّحِيدِ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِمْنَا حِينَئِذَا كَانَ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَتَزَلَّ أَصْحَابُهُ وَادِيًا ، فَلَمَّا تَزَلُّوا الْوَادِيَّ صَاحَرُوا بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ ، فَقَالَ :

(أَيُّهَا النَّاسُ ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا ، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ) (١) .

وَالدَّعَاءُ إِلَى اللَّهِ خُفْيَةً يَتِمُّدُ بِكَ عَنِ الرِّيَاءِ وَهُوَ أَسْتَرُ لَكَ فِي مَطْلُوبَاتِكَ مِنْ رَبِّكَ لِأَنَّهُ حِينَ يُوَضِّحُ لَكَ : ادْعُنِي فِي سِرِّكَ لِأَنِّي سَمِيعٌ عَلِيمٌ ؛ أَعْلَمُ كُلَّ مَا ظَهَرَ مِنْكَ وَمَا بَطَنَ ، ادْعُ بِالْخُضُوعِ وَالْخُشُوعِ وَالتَّذَلُّلِ لَتَنْكَسَرَ فِيكَ شَهْوَةُ الْكِبَرِيَاءِ ، وَشَهْوَةُ الْغَطْرَسَةِ ، وَشَهْوَةُ الْعَجْرَوَاتِ .

وَإِذَا مَا نَظَرْتَ إِلَى هَذَا تَجِدُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ : — نَعْرِفُ قَوْمًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ فِي مُحَضَّرِنَا وَمَا عَرَفْنَا لَشَقَاهِهِمْ حَرَكَةً ، وَعَرَفْنَا قَوْمًا يَسْتَبْطِنُونَ الْأَحْكَامَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ وَمَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ انْفِعَالًا يَصْرِفُهُمْ عَنَّا . إِذَنْ فَالْمَسْأَلَةُ تُعْبِرُ عَنْ شُغْلٍ بَاطِنٍ دَاخِلٍ .

وَيُرِيدُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَبْعِدَنَا عَنِ الرِّيَاءِ وَيُرِيدُ أَنْ يَسْتَرَّ عَلَيْنَا مَطْلُوبَاتِنَا ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا يَسْتَحْيِ أَنْ يَسْمَعَهُ آخَرُ .

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(مِنَ الْآيَةِ ٥٥ • سُورَةُ الْأَعْرَافِ)

وَلَوْ نَظَرْتَ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ لَوَجَدْتَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِخَالِفُونَهَا مَخَالَفَاتٍ جَمَاعِيَّةٍ ؛ فِي

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِهَذَا اللَّفْظِ وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ ، وَمَعْنَى : (ارْبِعُوا) ارْتَفِقُوا بِأَنْفُسِكُمْ وَاخْفَضُوا أَصْوَاتَكُمْ .

الليل مثلاً تجدد من يصعدون على المآذن أو يصيحون في مكبرات الصوت التي أغلقتهم عن صعود المآذن، ويكون الواحد من هؤلاء نائماً طول النهار لأن وقع الأذان هو عمله ليس غير، وبعد ذلك يظل يصرخ ويستغيث ويقول: «أن هذه ابتهالات». بينما من الناس من هو نائم ليأخذ قسطه من الراحة ليؤدي عمله نهاراً، ولا أحد يطلب من هذا النائم إلا أنه وإذا جاء الفجر يستيقظ ويؤدي الصلاة. فلماذا تقلق الناس بهذا؟ إننا لا بد أن ننبه هؤلاء الذين يظنون أنهم يذكرون الناس بدين الله، إنهم بعملهم هذا لا يسلكون الطريق الصحيح؛ لأننا لا يمكن أن نذكر الناس بالله ونصنع مخالفة أو نؤدي أحداً فسبحانه يقول: (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية).

والتضرع والخفية تقتضي ألا تقلق الناس، أو أن أعلن الأمور التي أريدها لنفسى خاصة بصوت عالٍ مثل من يأتي في ختام الصلاة ويقول دعاء بصوت عالٍ وهو رافع يديه، ولمثل هذا أقول: إن الله سبحانه وتعالى جعل لنا القنوات لندعو فيه، وترك كل مسلم أن يدعو بما ينفع له. وأنت حين تدعو في ختام الصلاة قد يوجد مُصل مسبق لحق الصلاة بعد أن سبقه الإمام بركعة أو باثنين أو بثلاث ويريد أن يكمل صلاته، وأنت حين ترفع صوتك بالدعاء حين تختتم صلاتك إنما تفسد عليه إتمام صلاته. وتشغله بمنطوق من عندك وبكلام من عندك عن شيء واجب عليه. ومن يفعل ذلك إنما يفعله عن حسن نية، لكنه يسيء إلى عبادة آخر.

إذن فلا بد أن ننبه إلى أن الله سبحانه وتعالى له مطلوبات، هذه المطلوبات قد تخالفها النفس لغرض ترى أنه حسن، لكن خلها في إطار:

﴿قُلْ هَلْ تُبْهِنُكُمْ بِالْأَحْسَرِينَ أَعْمَلًا ۖ﴾ الَّذِينَ مَلَ سَعَهُمْ فِي الْحَبْزَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٨﴾ [سورة الكهف]

فلا بد أن ننبه إلى مثل هذه المسائل، وعلينا أن نوفر الراحة لمن ينام ليقوم ويصلي الصبح ويذهب إلى عمله؛ لذلك لا داعي أن يفتح إنسان المبكر وفون ويعلم صوته بالدعاء، ومن يفعل ذلك يظن أنه يحرص على أمر مطلوب فيزعج النائم، بل ويزعج من يصلي بالليل أو يشوش على من يقرأ القرآن أو يستذكر بعضاً من العلم. إن على من

يفعل ذلك أن يترك كل إنسان لانفعالاته ، وأن يكون ملك نفسه وملك اختياره .
ويعطينا الحق سبحانه وتعالى صوراً كهذه فيقول :

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۖ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ۖ ﴾

(الآية ٣ ومن الآية ٤ سورة مريم)

إذن كلمة «خفى» موجودة في القرآن ، ولابد أن نتنبه إلى الدعاء الخفى .

﴿ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

إذن إن لم يكن تضرعاً وخفية فهو اعتداء في الدعاء ، لأنك مكلف والله هو المكلف ، وهو يقول لك : ادعوني تضرعاً وخفية . فإن فعلت غير هذا تكن معتدياً ، وعلى كل هؤلاء أن يفهموا أنهم معتدون فيما أن يكون الاعتداء في أسلوب الطلب وإما أن يكون الاعتداء في المطلوب .

لأن الحق حدد أسلوب الطلب فأوضح : ادعوني بخفاء ، فإن دعوت في غير الخفاء تكن معتدياً على منهج الله . وكذلك قد يكون الاعتداء في المطلوب فلا يصح مثلاً أن تقول : إني ادعوك يا رب أن تحملني نبياً . إن ذلك لا يصح وربنا سبحانه وتعالى علمنا فيما سرده عن نوح . فقال .

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنِيَ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۖ ۝ قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ ﴾

(سورة هود)

وهنا نبه الحق نوحاً إلى الاعتداء في المطلوب فقال الحق :

﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿ ٤١٧٩ ﴾

ولذلك نجد نوحاً يستغفر لأنه سأل ودعا الله هذا الدعاء عن غير علم ، فلما عرف ذنبه استغفر الله وقال :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة هود)

وقال له الحق سبحانه :

﴿ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

إذن فالذي لا يسمع منهج الله أو لا يطبقه في الدعاء يكون معندياً على الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه لا يحب المعتدين .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ
الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٥٦

الأرض هي مكان الخليفة وهو الإنسان ، وفيها الأسباب الأصلية لاستبقاء الحياة والسماء والأرض والشمس والهواء كل مسخر لك . ولا تحتاج إلى تكليف فيه ، فلا أنت تقول : « يا شمس أشرقي » أو « يا هواء هب » فكل ذلك مسخر لك . وأنت مطالب ألا تفسد فيما لك فيه اختيار ، لأنك لا تستطيع أن تفسد قوانين الكون العليا ، لا تستطيع أن تغير مسار الشمس ولا مسار القمر ولا مسار الرياح ، وأنت لن تستطيع إصلاح ما لا يمكن أن تقترب من إفساده ، لأن أمره ليس بيدك لأنه لا اختيار لك فيه . وإنما يأتي الإفساد من ملكات الاختيار الموجودة فيك ، ولم يتركنا الله أحراراً فيها ، بل حددنا بمنهج يحمي حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل » ، فإذا كان سبحانه قد أنزل قرآنًا ،

والقرآن فيه منهج يحمي اختيارك إذن فقد أعطاك عناصر الإصلاح ولذلك يقول لك :

﴿وَلَا تُفِيدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

وهنا يعود الحق مرة أخرى للحديث عن الدعاء ، فأولاً جاء بالأمر أن يكون الدعاء نضرعاً وخفية ، وهنا يوضح الحق سبيلًا ثانيًا للدعاء : (وادعوه خَوْفًا وَطَمَعًا) .
خوفاً من صفات جبروته وقهره ، وطمعاً في صفات غفرانه ورحمته ، لأن لله صفات جمال وصفات جلال ، وادعوه خَوْفًا من متعلقات صفات الجلال ، وطمعاً في متعلقات صفات الجمال . أو خَوْفًا من أن تُرد وطمعاً فيما أنت ترجو .

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

إذن من الذي يحدد قرب الرحمة منه ؟ إنه الإنسان فإذا أحسن قربت منه الرحمة والزمّام في يد الإنسان ؛ لأن الله لا يقتل ولا يستبد بأحد فإن كنت تريد أن تقرب منك رحمة الله فعليك بالإحسان . (إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

(لا أمل حتى تملوا) .

(من حديث قدسي)

وأنت تدخل بيوت الله تصلي في أي وقت ، وتقف في أي مكان لتؤدي الصلاة ، إذن فاستحضارك أمام ربك في يدك أنت ، وسبحانه حدد لك خمسة أوقات ، ولكن بقية الأوقات كلها في يدك ، وتستطيع أن تقف بين يدي الله في أي لحظة . وسبحانه يقول :
(ومن جاءني يمضي أثبته هرولة) .

(من حديث قدسي)

وهو جل وعلا يوضح لك : استرح أنت وسأتي لك أنا ، لأن الجري قد يتعبك لكني لا يعتريني تعب ولا عجز . وكان الحق لا يطلب من العبد إلا أن يملك شعوراً بأنه يريد لقاء ربه . إذن فالمسألة كلها في يدك ، ويقول سبحانه :

(من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ خير منه) .

(من حديث قدسي)

وهكذا يؤكد لك سبحانه أن رحمته في يدك أنت وقد أعطاها لك ، وعندما تسلسلها تجدها تفضلاً من الله ، ولكن في يدك أنت . (إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

ونعلم أن فيه صفات لله وفيه ذات ، فالذات (الله) وهو واهب الوجود ، وله كل صفات الكمال وكل صفة لها متعلق ، الرحمة لها متعلق ، والبعث له متعلق فمن أسمائه سبحانه « الباعث » ؛ وإياك أن تغيب عن الذات ، اجعل نفسك مسبباً لذاته العلية دائماً . وقد تقول : يارب أريد أن ترحمني في كذا ، وقد لا ينفذ لك ما طلبت ، لكن ذلك لا يجعلك تبعد عن التسييح للذات ، لأن عدم تحقيق ما طلبت هو في مصلحتك وغير لك .

وقد وقف العلماء عند كلمة « قريب » هذه ، وتساءل بعضهم عن سر عدم مجيء تاء التانيث بعد لفظ الجلالة ؟ ونعلم أن القرآن قد نزل بلغة العرب ، وعند العرب ألفاظ يستوى فيها التذكير والتانيث ، وما يقال للمذكر مثلما يقال للمؤنث ، فنقول : « رجل صبور » ، و « امرأة صبور » ، ولا نقول : صبرة ونقول : « رجل معطر » ، أي يكثر استخدام العطر ، و « امرأة معطر » أي تكثر استخدام العطر . ونقول : قريب مثلما نقول : قتل بمعنى مقتول . فيقال : « رجل قتل » و « امرأة قتل » ، ولا يقال : « قتيلة » إلا إذا لم يذكر معها كلمة امرأة أو ما يدل على التانيث ، لأن القتل للمذكر وللأنثى .

هذه هي ألفاظ صحيح اللغة . وقد صنعت اللغة ذلك بأسانيد ، فأنت حين تقول : « رجل صبور » أو « امرأة صبور » فالصبر يقتضي الجلد والعزم والشدة ؛ لذلك لا نقول : « امرأة صبرة » بل تأتي بالوصف المناسب للجلد والشدة . وإياك أن تضعفها بحكاية التانيث ، وكذلك « رجل معطر » و « امرأة معطر » ، والرجل المعطر هو من تعرفه الناس من نفاذ رائحة عطره ، والمرأة مبنية على السر . فإن تعطرت فهي قد تشبه بالرجل ويقال لها : « امرأة معطر » ، وحين ننظر إلى كلمة « قريب » فهي من صيغة « قميل » التي يستوى فيها المذكر والمؤنث ؛ بدليل أن الله قال :

﴿ وَإِنْ تَطَهَّرَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ

ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

والملائكة لفظها لفظ مؤنث، ولم يقل الحق «ظهيرة»، لأن «ظهير» يعنى مُعين، والمعونة تتطلب القوة والعزم والمدد؛ لذلك جاء لها باللفظ المناسب الذى يدل على القوة وهو «ظهير». وكذلك قوله الحق:

﴿... إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦) [سورة الأعراف]

و«قريب» وزن «فعليل» يعنى مفعول، ولعل بعض الناس يفهم أن «قريب» بمعنى فاعل أى قارب. مثل رحيم وراحم. أى أن رحمة الله هى التى تقرب من المحسنين، والأمر ليس كذلك، فإن الرحمة هى المقروبة، والإحسان هو الذى يقرب إليها فيكون فعيل هنا بمعنى مفعول الذى يستوى فيه المذكر والمؤنث، أن يكون جاءت كذلك على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة لموصوف محذوف أى شئ «قريب»، أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقى، أو أن الرحمة مصدر، وحق المصدر التذكير.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيِّنَ يَدَىٰ
رَحْمَتِهِ حَقَّ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا نِّقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ
مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَاهُ أَمَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾



وتصريف الرياح إهاجة للهواء فى الكون، والإهاجة للهواء فى الكون تأتى منها فوائد كثيرة للغاية، ونحن حين نجلس فى مكان مكثظ ومغلق، بالأنفاس نقول لمن يجلس بجوار النافذة: «لنهورى الغرفة قليلاً». وإن لم يكف هواء النافذة تأت بمروحة

لتأخذ من طبقات الجو طبقة هواء جديدة فيها أوكسجين كثير . إذن فأرسل الرياح ضرورة حتى لا يظل الهواء راكداً . وتلوث الجو بهذا الركود ، ولو أن كل إنسان سيستقر في مكان مكتوم الهواء لامتلاً المكان بشأني أكسيد الكربون الخارج من تنفسه ، ثم لا يلبث أن يختنق ، ولذلك أراد الله حركة الرياح رحمة عامة مستمرة في كل شيء ، وهي أيضاً رحمة تتعلق بالقوت كما تعلقت بمفومات الحياة من نفس وماء وطعام ، وتصريف الرياح من أجل تجديد الهواء الذي نتنفسه ، وكذلك تكوين الماء .
لأنه سبحانه القائل عن الرياح .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سُحَابًا ثِقَالًا سُقِّتُهُ لَيْلَةً مَّيَّتٌ ۖ ۝٧٧ ﴾ [سورة الأعراف]

والرياح هي التي تساعد في تكوين الأمطار التي تنزل على الأرض فتروى التربة التي نحرثها ، هكذا تكون الرياح بشرى في ثلاثة أشياء : الشيء الأول نحرثك طبقات الهواء وإلا ففسد الجو في الماء ، لأن الرياح هي التي تحمل السحاب وتحركه وتنزل به هناك فرقاً بين بشرى ، وبشرأ ؛ فالبشرى مفرد ، وقد وردت في قوله الحق :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى ۖ ۝٩٩ ﴾ [سورة هود]

أى التبشير . لكن بشرأ جمع بشير وهي كلمة مخففة ، والأصل فيها بشر .

والحق يقول : ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ .

وجمع البشير «بُشْر» مثل : « نَذِير » و« نَذْر » ، يضم الشين فسكنت تخفيفاً ، فتنتطق بُشْرًا وِبُشْرًا . (بشرأ بين يدي رحمته) .

هي بين يدي رحمته لأنها ستأتى لنا بالماء ، وهو الرحمة في ذاته ، وبواسطته يعطينا رى الأرض ، ونحن نرتوى منه مباشرة أيضاً . وتلاحظ كلمة الرياح إذا أطلقت بالجمع فهي تأتي للخبر ، أما حين يكون فيها شرفأتى بكلمة « ربيع » مفردة ، مثل قوله :

﴿ ۝١٠٠ يَرْيَحُ صَرْصَرٌ عَاتِيَةٌ ۖ ﴾ [سورة اسفا]

فإذن عندما ترى كلمة « رياح » فاعلم أنها خير ، أما كلمة « ريح » فاعلم أنها شر لماذا ؟ أنت إذا كنت قاعداً في حجرة فيها فتحة نافذة يأتي منها الهواء ، ويسلط التيار على إنسان ، فالإنسان يصاب بالتعب ؛ لأن الهواء يأتي من مكان واحد ، لكن حين تجلس في الخلاء ويهب الهواء فأنت لا تتعب ؛ لأن الرياح متعددة . ولكن الريح تأتي كالصاروخ .

الرياح إذن يرسلها الحق بين يدي رحمته ؛ حتى إذا أقلت أي حملت يقال : « أقل فلان الحمل » أي رفعه من على الأرض وحمله لأنه أقل من طاقته ، لأنه لو كان أكثر من طاقته لما استطاع أن يرفعه عن الأرض ، وما دام قد أقله فالحمل أقل بالنسبة لطاقته وبالنسبة لجهدك ، أقلت أي حملت ، وما دامت قد حملت فجهدك فوق ما حملته ، وإذا كان الجهد أقل من الذي حملته لا بد أن ينزل إلى الأرض . وأقلت سحاباً أي حملت سحاباً . نعرف أن السحاب هو الأبخرة الطالعة والصاعدة من الأرض ثم تتجمع وتصلب إلى طبقات الجو العليا ، وتضربها الرياح إلى أن تصادف منطقة باردة فيحدث تكثيف للسحاب فينزل المطر ؛ ونرى ذلك في الماء المقطر الذي يصنمونه في الصيدلية ؛ فيأتي الصيدلي بموقد وفوقه إناء فيه ماء ويغلي الماء فيخرج البخار ليسير في الأنابيب التي تمر في تيار بارد فيتكثف البخار ليصير ماء . (حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت) .

وقال الحق : « سقناه » بضمير المذكر ؛ لأنه نظر إلى السحاب في اسم جنسه ، أو نظر إلى لفظه ، وجاء بالوصف مجموعاً فقال : « ثقالاً » نظراً إلى أن السحاب جمع سحابة فرق بينه وبين واحدة بالهاء ، وما دامت السحب كلها داخلية في السوق فليس لها تعددات فكانها شيء واحد .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

السحاب لا يتجه إلى مكان واحد ، بل يتجه لأماكن متعددة ، إذن فالحق يوجه السحاب الثقال لأكثر من مكان . لكن الحق سبحانه وتعالى يقول : (سقناه لبلد ميت) .

والميت هو الذي لا حراك فيه وانتهى اختياره في الحركة ، كذلك الأرض ، فالعالم

ينزل من السماء دلى الأرض وهي هامة ليس بها حركة حياة أى أن الله يرسل السحاب ويزجيه إلى البلد الميت فى أى مكان من الأرض .

﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَاهَا عَلَى الْوَادِي الْأَخْضَرِ أَهْضَرَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَبْعَثُ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

إذن فالأرض التى لا يأتيتها الماء تظل هامة أى ليس بها حركة حياة مثل الميت .

﴿ سَفَنَهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَاهُ الْوَادِي الْأَخْضَرِ فَأَخْرَجْنَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

واراد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا وينبها إلى القضية اليومية التى نراها دائما فى صور شتى ، وهى أن الأرض تكون فى بعض الأحيان جدياً ، ثم يهبط عليها بعض المطر ، وبمجرد أن ينزل المطر على الجبل ، وبعد يومين من نزول المطر نجد الجبل فى اليوم الثالث وهو مخضر ، فمن الذى يذر البذرة للنبات هذا اليوم ؟ إذن فالنبات كان ينتظر هذه المياه . وبمجرد أن تنزل المياه يخرج النبات دون أن يذر أحد بذوراً ، وهذا دليل على أن كل منطقة فى الأرض فيها مقومات الحياة .

﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

فالماء الذى ينزل على الأرض الميتة يحيى الأرض ، لأنه سبحانه يخرج الحياة كل يوم ، ونحن نوضح لنا سبحانه أنه سبحانه من جديد فليس فى هذا أمر عجيب ، وهكذا جعل الله القضية الكونية مربية وواضحة لكل واحد ولا يستطيع أحد أن يكابر ويعاند فيها ، لأنها أمر حسي مشاهد ، ومنها نستنبط صدق القضية وصدق الرب . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي

خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ

لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

إذن الآية السابقة عالجت قضية البعث بضرب المثل بالآية الكونية الموجودة ؛ فالرياح التي تحمل السحاب ، والسحاب يساق إلى بلد ميت وينزل منه الماء فيخرج به الزرع . والأرض كانت ميتة ويحييها الله بالمطر وهكذا الإخراج بالبعث وهذه قضية دينية ، ويأتي في هذه الآية بقضية دينية أيضاً : (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً) .

والبلد الطيب هو البلد المخصب الذي لا يحتاج إلا إلى المياه فيخرج منه الزرع ، أما الذي خبث ، فمهما نزل عليه الماء فلن يخرج نباته إلا بعد عناء ومشقة وهو مع ذلك قليل وعديم النفع . وهنا يخدم الحق قضية دينية مثلما نخدم القضية الدينية في البعث أولاً . وقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« مثل ما يعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة ؛ قبلت الماء وأنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ، ونفعه ما يعثني الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ،^(١) »

إذن فالمنهج ينزل إلى الناس وهم ثلاثة أقسام ؛ قسم يسمع فينفع نفسه وينقل ما عنده إلى الغير فينفع غيره مثل الأرض الخصبة شربت الماء وقبلته ، وأنبتت الزرع ، وقسم يحملون المنهج ويبلغونه للناس ولا يعملون به وينطبق عليهم قوله الحق :

﴿ لَوْ تَقَوَّلُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الصف)

صحيح يستفح الناس من المنهج ، ولذلك قال الشاعر :
خذ بعلمي ولا تركز إلى عملي واجن الثمار وخل العود للنار

ويزول صلى الله عليه وسلم : (من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة)^(١) .

فستر المؤمن على المؤمن مطلوب وستر المؤمن على العالم أكد وأشد طلباً ؛ لأن العالم غير معصوم وله فئات ، وساعة ترى زكته وسقطته لا تلذعها لأن الناس يستفحون بعلمه . فلا تشككهم فيه ، والقسم الثالث هو من لا يشرب الماء ولا يسقيه لغيره أى الذى لا يتفح هو ، ولا يتفح غيره .

﴿ زَالِزِلَّةُ الطَّيِّبِ يَخْرُجُ نَبَاهُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۚ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝٥٨﴾

(الآية ٥٨ سورة الأعراف)

إذن منهج الله مثله مثل المطر تماماً ؛ فالمطر ينزل على الأرض ليرويها وتخرج النبات وهناك أرض أخرى لا تتفح منه ولكنها تمسكه فيتفح غيره ، وهناك من لا يتفح ولا يتفح ، فكذلك العلم الذى ينزله الله على ناس رسوله . (والذى خبت لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات) .

فلذا من قبل : إن الآيات تطلق على معاني ثلاثة : الآيات الكونية التى نراها وأفعى فى الكون مثل قوله الحق :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وآيات هى آيات القرآن ، والآيات التى تكون هى المعجزات للأنبياء .

﴿ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ۚ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأعراف)

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والساتى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرطهما .

الآيات هنا في الكونية كالماء الذي ينزل ، إنه مثل المنهج - من أخذه فاز ونجا ، ومن تركه وغوى وكل آيات الله تقتضى أن نشكر الله عليها ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الطائعين وعن العصيين في الدنيا ، وتكلم عن مواقف الآخرة الجزائية في أصحاب الجنة ، وأصحاب النار والاعراف أراد أن يبين بعد ذلك أن كل دعوة من دعوات الله سبحانه أهل الأرض لابد أن تلقى عتاً وتضييقاً ، وتلقى إغراضاً ، وتلقى إيذاءً ، إنه - سبحانه - يريد أن يعطى المناعة لرسوله ﷺ ، فيوضح له : لست أنت بدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول جاء إلى قومه قوبل بالاضطهاد ، وقوبل بالكذب ، وقوبل بالنكرات ، وقوبل بالإيذاء ، وإذا كان كل رسول قد أخذ من هذا على قدر مهمته الرسالية زماناً محدداً ، ومكاناً محصوراً فأنت يا رسول الله أخذت الدنيا كلها زماناً ومكاناً ، فلا بد أن تكون مواجهاً لمصاعب تناسب مهمتك ورسالتك ؛ فأنت في قمة الرسل ، وستكون الإيذات التي تنالك وتصيبك قمة في الإيذاء ، فلست بدعاً من الرسل ، فوطن نفسك على ذلك ، وحين توطن نفسك على ذلك ستلقى كل إيذاء وكل اضطهاد بصبر واحتمال في الله ، وقص الحق قصص الرسل على رسول الله ، وعبر الله بالهدف من نص القصص بقول :

﴿ وَكَأَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَقَّبْتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ - (١٢٠) ﴾ [سورة هود]

فكانا القصص تثبيتاً لفؤاده ﷺ ، فكلما أمواجه نكران ، أو كلما أمواجه جحود ، قص عليه الحق - سبحانه - قصة رسول قوبل بالنكران وقوبل بالجحود ليثبت به فؤاده ﷺ وفؤاد أتباعه لعلهم يعرفون كل شيء ويوطنون أنفسهم

على هذا العنت ، فلم يقل الحق لأتباع محمد : إنكم مقبلون على أمر والأرض بمروشة لكم بالورود ، لا . إنما هي مناع لتجابهوا شر الشيطان في الأرض . والقصاص له أكثر من هدى ثبت به فزاد الرسول صلى الله عليه وسلم وبين له أنه ليس بدعاً من الرسل ، ويقوى نفوس أتباعه ، لأنهم حينما يرون أن أهل الحق مع الأنبياء انتصروا ، وهزم الجمع وولى الدبر ، وأنهم منصورون دائماً فهذا يقوى يقين المؤمنين ، ويكسر من جهة أخرى نفوس الكافرين مثلما قال الحق عن واحد من أكابر قريش . (سنسمة على الخرطوم) .

قال الحق لهم ذلك عن واحد من أكابر قريش وهم لا يفدرون حينئذ أن يدافعوا أو يندودوا عن أنفسهم ، وذهبوا وهاجروا إلى الحبشة حماية لأنفسهم من بطش هؤلاء الأكابر ، وكل مؤمن يبحث له عمن يحميه ، ويزل قوله الحق بعد ذلك في الوليد بن المغيرة « سنسمة على الخرطوم » ، والوليد بن المغيرة سيد في قومه ، ويأتى يوم بدر فيوجد أنه وقد ضرب وخطم ويتحقق قول الله :

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ۝١٦ ﴾

(سورة الفلم)

فمن - إذن - يحدد ضربة قتال بسيف في يد مقاتل قبل أن يبدأ القتال ؟ لقد حددها الاعلم بما يكون عليه الأمر .

وأيضاً فقصص الرسل إنما جرى بها ليثبت للمعاصرين له أنه تلقى القرآن من الله ؛ لأنه رسول أمي ؛ والأمة أمية ، ولم يدع أحد من خصومه أنه جلس إلى معلم ، أو قرأ كتاباً ، فمن أين جاءت هذه الأخبار إذن ؟

واسمع قول الحق سبحانه وتعالى في الآيات التي يأتي فيها : « ما كنت » مثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِ إِذْ قَضَيْنَا إِنْ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ومثل قوله الحق :

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ رِيسَمًا إِذَا لَا تَذَكَّرُ أَنْ تَنْبِذَ الْأَمْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

(سورة النكبات)

ومثل قوله :

﴿وَمَا كُنْتَ لَتَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرَمٌ﴾

(من الآية ٤٤ سورة آل عمران)

فمن أين جاءت هذه الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه لم يجلس إلى معلم ولم يقرأ كتاباً ؟ لقد جاءت كلها من الحق سبحانه وتعالى ، وهذا دليل آخر على صدق رسالته .

وقصة سيدنا نوح من القصص التي وردت كثيراً في القرآن الكريم مثل قصة موسى عليه السلام ، ومن العجيب أن لقطات القصة تنتشر في بعض السور ، لكن السورة التي سميت بسورة نوح ليس فيها من المواقف التي تعتبر من عيون القصة ، إنها تعالج لقطات أخرى : تعالج إلحاحه في دعوة قومه ، وأنه ما قصر في دعوتهم ليلاً ونهاراً ، وسراً وعلانية ، كلما دعاهم ابتعدوا ، ولم تأت قصة المركب في سورة نوح ، ولا قصة الطوفان ، وهذه لقطات من عيون القصة ، وكذلك لم تأت فيها قصته مع ابنه ، بل جاء بها في سورة هود .

إذن كل لقطة جاءت لوضع مقصود ، ولهذا رأينا قصة نوح في سورة « نوح » وقد خلت من عناصر مهمة في القصة ، وجاءت هذه العناصر في سورة « هود » أو في سورة « الأعراف » التي نتناولها الآن بالخواطر الإيمانية .

إذن ، كل قصة من القصص القرآني تجدها قد جاءت تخدم فكرة ، ومجموعها يعطي كل القصة ؛ لأن الحق حين يورد القصص فكرياً يلفظ في سورة لتخدم موقفاً ، ولقطة أخرى تخدم موقفاً آخر وهكذا . ونحن نرى أن يرسل لنا قصة محبوبة تماماً ، جاء بقصة « يوسف » في سورة يوسف ولم يكررها في القرآن ، لأنها مستوفية في سورة يوسف ، اللهم إلا في آية واحدة :

﴿وَلَقَدْ جَاءَ ذُو يُوسُفَ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَا زَلَّ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ

قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾

(من الآية ٣٤ سورة غافر)

راجع أصله وخرج أحاديث الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لقد وردت في سورة يوسف حياة يوسف منذ أن كان طفلاً حتى أصبح عزيز مصر ، وهكذا ترى أن الحق حين يشاء أن يأتي بالقصة كتاريخ يأتي بها مجبوكة ، وحين يريد أن يلتفتنا إلى أمور فيها مواقف وعظائم ، يزرع لقطات القصة على مواقع متعددة تتناسب وتتوافق مع تلك المواقع لتأكيد وخدمة هدف .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا اللَّهَ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وساعة ترى « اللام » و « قد » فاعرف أن هذا قسم ، وكأن الحق يقول : وعزتي وجلالي لقد أرسلت نوحاً . وهو بهذا يؤكد المقسم عليه .

والقوم بهم الرجال خاصة من المعشر ؛ لأن القوم عادة هم المواجهون للرسالة ، والمرأة محتجبة ، تسمع من أبيها أو من أخيها أو من زوجها ، ولذلك قالت النساء للنبي : غلبنا عليك الرجال .

أى أننا لا نجد وسيلة لنفقد معك ونسألك ، فاجعل لنا يوماً من أيامك تعظنا فيه ، فاجعل لهم يوماً ؛ لأن المفروض أن تكون المرأة في ستر ، وبعد ذلك ينفل لها الزوج المنهج . إن سمع من الرسول شيئاً ، وكذلك الأب يقول لابته ، والأخ يقول لأخته .

فإذا تكلم الرسول يقال : إن الرسول واجه القوم ، من قولهم هو قائم على كذا . وقيم على كذا . ولذلك الشاعر العربي يقول :

وما أدري ولست أخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

وجاء هنا بالقوم ، والمراد بهم الرجال ، والقرآن يقول :

﴿لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِّسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾

يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

إذن فالنساء لا تدخل في القوم ، فالقوم هم المواجهون للرسول ومنهم ثلث المتأصبات والتصلب في الرأي ، ويكون الإنكار والجحود والحرب منهم .

وسيدنا نوح عليه السلام دعا قومه ونبيههم إلى ثلاثة أشياء : عبادة الله ، فقال : « يا قوم اعبدوا الله » ، وبين لهم أنه ليس هناك إله سواه فقال : « مالكم من إله غيره » ، وأظهر لهم حرصه وإشفاقه عليهم إذا خالفوا وعصوا فقال : « إن أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » .

وهكذا تكلم عن العقيدة في الإله الواحد المستحق للعبادة ، وليس آلهة متعددة ، وتعبده أى نطيع أمره ونهيه ، ولأنهم إن لم يفعلوا ذلك فهو يخاف عليهم من عذاب يوم عظيم ، وهو عذاب يوم القيامة . أو أن الله كان قد أوحى له بأنه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وعذاب يوم عظيم أى يوم الإغراق ، و « الخوف » مسألة تتعب تفكير من يستقبلها وتخاف أن يلقاها . فمن الذى يفرع بهذا ؟

إن الذى يفرع هم الطغاة والجبابرة والسادة والأعيان ووجوه القوم ، وكانوا قد جعلوا من أنفسهم سادة ، أما سائر الناس وعامتهم فهم العبيد والمستضعفون . والذى يهاج بهذه الدعوة هم السادة لأنه ليس هناك إلا إله واحد ، والأمر لواحد والنهى لواحد والعبادة والخضوع لواحد ، ومن هنا فسوف تذهب عنهم سلطتهم الزمنية ، لذلك يوضح الحق لنا موقف هؤلاء من الدعوة حين يقول :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

مُبِينٌ ﴿٦٠﴾

والملا هم سادة القوم وأعيانهم وأشرافهم ، أو الذين « يملأون » العين هيئة و يملأون القلوب هيئة ، و يملأون صدور المجالس بنية .

إنهم يخائفون أن تكون دعوة نوح هى الدعوة إلى الطريق المستقيم وكلامه هو الهداية ، فليمتنوا أنفسهم بأن هذا ضلال وخروج عن المنهج الحق : (إنا لنراك فى ضلال مبين) .

أى غيبة عن الحق ، أو فى تيه عن الحق ، و«مبين» أى محيط بصورة لا يمكن النفاذ منها .

ويرد نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ

مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

هم قالوا له : «إنا لنراك فى ضلال مبين» ، المتبادر أن يكون الرد : ليس فى أمرى ضلال ، لكنه قال هنا : « ليس بى ضلالة» ، أقول ذلك لنعرف أن كل حرف فى القرآن موزون لموضعه . هم قالوا له : إنا لنراك فى « ضلال » فبرد عليهم : ليس بى ضلالة ؛ لأن الضلال جنس يشمل الضلالات الكثيرة ، وقوله يؤكد أنه ليس عنده ضلالة واحدة . وعادة نفى الأقل يلزم منه نفى الأكثر ، مثلاً عندما يقول لك صديق : عندك ثمر من المدينة المنورة ؟ تقول له : ليس عندى ولا ثمرة واحدة . أنت بذلك نفيت الأقل ، وهذا أيضاً نفى للأكثر . (قال يا قوم ليس بى ضلالة) .

وحين ينفى نوح عن نفسه وجود أدنى ضلالة فذلك لأنه يعرف أنه لم يأت من عنده بذلك ، ولو كان الأمر كذلك لأتهم نفسه بأن هواه قد غلبه ، لكنه مرسل من عند إله حق .

﴿ .. وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وقوله : «ولكنى» استدراك فلا تقولوا : أنا فى ضلال ، فليس فى ضلالة واحدة ، لكن أنا رسول يبلغ عن الله ، والله لا يعطى غير الهدى .

(رسول من رب العالمين) أى من سيد العالمين ومن متولى تربية العالمين ، ومن يتولى التربية لا يُنزل منهجاً يضل به من يريهم ، بل ينزل منهجاً ليصلح من يريهم ، وسبحانه قبل أن يأتى بهم إلى الوجود سخر لهم كل هذا الكون ، وأمدهم بالأرزاق حتى الكافرين منهم ، ومن يعمل كل ذلك لن يرسل لهم من يضلهم .

ويستمر البلاغ من نوح عليه السلام لقومه فيقول :

﴿ أَبْلَغَكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ
مَنْ أَلَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٦٢

والبلاغ هو إنهاء الأمر إلى صاحبه ، فيقال : بلغت المكان الفلاني . . أى انتهيت إليه .
والبلاغة ، هى النهاية فى أداء العبارة الجميلة ، وهـ أبلفكم ، أى أنهى إليكم ما حملنيه
الحق من منهج هداية لحركة حياتكم . (أبلفكم رسالات ربى) .

وكان يكفى أن يقول : « رسالة ربى » إلا أنه قال : (رسالات ربى) لأن أى رسول يأتى
بالمنهج الثابت كما جاءت به الرسالات السابقة حتى لا يقول أحد : إنه جاء ليناقض ما جاء
به الرسل السابقون ، فيما قاله وجاء به أى رسول سابق يقوله ، وتعلم أنه كانت هناك
صحف لشيت ولإدريس . فقال : إنه يبلغ رسالته المتضمنة للرسالات السابقة سواء رسالة
إدريس وهو اخنوخ ، وكذلك شيت وغيره من الرسل .

أى أبلفكم كل ما جعله الله منهجاً لأهل الأرض من الأمور المستقيمة الثابتة ، مثلما قال
سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

وهو الأمور المستقرة الثابتة المعقّدية ، والأحكام التى لا تتغير . أو رسالات ربى ، لأنه
كرسول يتلقى كل يوم قسطاً من الرسالة ، فالיום جاءت له رسالة يبلغها ، وغداً تأتى له
رسالة يبلغها ، ولو قال : « الرسالة » لكان عليه أن ينتظر حتى تكتمل البلاغات من الله له
ثم يقولها ، ولكن نوح كان يبلغ كل رسالة تأتية فى وقت إبلاغه بها ، لذلك فهى
« رسالات » . أولان موضوع الرسالات أمر متشعب تشعباً يماثل ما تحتاج إليه الحياة من
مصالح ؛ فهناك رسالة للأوامر ، ورسالة للنواهي ، ورسالة للوعظ ، ورسالة للزجر ،

ورسالة للتبشير ، ورسالة للإنذار ، ورسالة للقصص ، وهكذا تكون رسالات .

أو أن كل نجم - أى جزء من القرآن وقسط منه - يعتبر رسالة ، فيما يرسله الله فى يوم هو رسالة للنبي ، وغداً له رسالة أخرى وهكذا .

وقوله : « أنصح لكم » لأن البلاغ يقتضى أن يقول لهم منهج الله ، ثم يدعو القوم لاتباع هذا المنهج بأن يرقن قلوبهم ويخاطبهم بالأسلوب الهادى وينصحهم ، والنصح أمر خارج عن بلاغ الرسالة .

ولكننت إلى فهم العبارة القرآنية . (وأنصح لكم) .
والنصح أن توضح للإنسان المصلحة فى العمل ، وتجرد نيتك عما يشوهه . وهل أنت تنصح آخر بأمر يعود نفعه عليك ؟ إنك إن فعلت ذلك تكون النصيحة منهية ، وإن نصحت بأمر يعود عليه وعليك فهذه نصيحة لك وله ، ولكن حينما تقول : « نصحت لك » أى أن النصيحة ليس فيها مسألة خاصة بك ، بل كل ما فيها لصالح من تبلغه فقط ، وبذلك يتضح الفارق بين « نصحته » و « نصحت لك » .

﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأعراف)

وكان سيدنا نوحاً يخاطب قومه : إياكم أن تظنوا أن ما أقوله لكم الآن هو كل العلم من الله ، ولا كل علم الله ، ولا كل ما علمنى الله ، بل أنا عندى مسائل أخرى سوف أقولها لكم إن اتقيتم الله وامتلكتم الاستعداد الإيماني ، وهنا سأعطيكم منها جرعات . أو قوله : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » يعنى أنه سيحدث لكم أمر فى الدنيا لم يحصل للأمم السابقة عليكم وهو أن من يكذب الرسول يأخذه الله بذنبيه . وتلك التجربة لم تحدث مع قوم شيت أو إدريس .

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَنُفِثْنَا مِنْ أَرْضِنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنِ اخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن

خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

ولم يحدث مثل هذا العقاب قبل نوح ، وقد بين لهم نوح : أنا أعلم أن ربنا قد دبر لكم أن من يكذب سيأخذه أخذ عزيز مقتدر .

أو « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، أى أن الله أعلمنى لا على قدر ما قلت لكم من الخير ، لكنه سبحانه قد علمنى أن لكل إختيار بالخير ميلاداً وميماًداً .
ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَ كُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ
مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ٦٢

« أوعجبتُمْ » وكان من الممكن أن يقول : « أعجبتم » ، لكن ساعه أن يجرى بهمة الاستفهام ويأتى بعدها بحرف عطف . فاعرف أن هناك عطفاً على جملة : أى أنه يقول : أكلبتم بى ، وعجبت من أن الله أرسل على لسانى « ذكر من ربكم » . والذكر ضد الشيان ، وأن الشىء يكون على البال ، ومرة يتجاوز البال ويمر على اللسان .

وقد وردت معانٍ كثيرة للذكر فى القرآن ، وأول هذه المعان وقمتها أن الذكر حين يطلق يراد به القرآن :

﴿ ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْهِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ ٥٨

(سورة آل عمران)

وكذلك فى قوله الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفِظُونَهُ ﴾ ٩

(سورة الحجر)

إذن يطلق الذكر ويراد به القرآن ، ومرة يطلق الذكر ويراد به الصيت أى الشهرة الإعلامية الواسعة . وقد قال الحق لرسوله عن القرآن :

﴿وَأَنَّهُ لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الزخرف)

أى أن القرآن شرف كبير لك ولأمتك وسيجعل لكم به صيتاً إلى يوم القيامة ، لأن الناس سترى في القرآن على تعاقب العصور كل عجيبة من العجائب ، وسيعلمون كيف أن الكون يصدق القرآن ، إذن بفضل القرآن « العربى » ، سيظل اسم العرب ملتصقا ومرتبطا بالقرآن ، وكل شرف للقرآن ينال معه العرب شرفاً جديداً .
أى إن القرآن شرف لكم . ويقول سبحانه :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾

(من الآية ١٠ سورة الأنبياء)

أى فيه شرفكم ، وفيه صيتكم ، وفيه تاريخكم ، ويأتى الإسلام الذى يتسخ القوميات والأجناس ، ويجعل الناس كلهم سواسية كألسان المشط .

﴿يَنبَأُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾

(من الآية ١٣ سورة الحجرات)

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى) .

وسيط القرآن عربياً ، وهو معجزة في لغة العرب ، وبه ستظل كلمة العرب موجودة في هذه الدنيا . إذن فشرف القوم يحىء من شرف القرآن ، ومن صيت القرآن . والحق يقول :

﴿إِنَّمَا هُوَ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ وَالْقُرْآنُ فِي ذِكْرِكَ ۝﴾

(سورة ص)

أى أن شرفه دائم أبداً . حين يأتى إلى الدنيا سبق علمى ، نجد من يذهب إلى البحث عن أصول السبق العلمى في القرآن ، ونجد غير المسلمين يعتنون بالقرآن ويطبعون في صفحة واحدة ، وعلى ورق فاخر قد لا يستعملونه في كتبهم . هذا هو القرآن ذو الذكر على الرغم من أن بعض المسلمين ينحرفون قليلاً عن المنهج ، وقد يتناساه بعضهم ، لكن في

مسألة القرآن نجد الكل يتنبه . وكما قلت من قبل : قد تجد امرأة كاشفة للوجه وتضع مصحفاً كبيراً على صدرها ، وقد تجد من لا يصلى ويركب سيارة يضع فيها المصحف ، وكل هذا ذكر . وتجد القرآن يُقرأ مرتلاً ، ويُقرأ مجوداً ، ومجوداً بالعشرة ثم يسجل بمسجلات يصنعها من لا يؤمنون بالقرآن . وكل هذا ذكر وشرف كبير .

عرفنا أن «الذكر» قد ورد أولاً بمعنى القرآن ، وورد باسم الصيت والشرف : ويطلق الذكر ويراد به ما نزل على جميع الرسل ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُعَدَّتٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٢) [سورة الأنبياء]

أى أن كل ما نزل على الرسل ذكر .

ويقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْقُرْآنَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٨) [سورة الأنبياء]

إذن فالمراد بالذكر - أيضاً - كل ما نزل على الرسل من منهج الله .

ومرة يطلق الذكر ويراد به معنى الاعتبار . والتذكير ، والتذكر فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٩) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُرْقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ .. ﴾ (١١) [سورة المائدة]

والمراد هنا بالذكر : الاعتبار والتذكر وأن تعيش كمسلم فى منهج الله . ومرة يراد بالذكر : التسبيح ، والتحميد . انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٣٦)

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿٤١٩٩﴾

رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ . . ﴿٢٧﴾ ﴿

[سورة النور]

وهو ذكر لأن هناك من يسبح له فيها بالغدو والأصال وهم رجال موصوفون بأنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد يطلق الذكر ويراد منه خير الله على عبادة ويرد به كذلك ذكر عبادتهم له بالطاعة ؛ فسبحانه يذكرهم بالخير وهم يذكرونه بالطاعة . اقرأ إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ . . وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٩٠﴾ [سورة النحل]

وفي آية أخرى :

﴿ . . إِنْ الصَّلَاةُ تَنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ [سورة العنكبوت]

وما دام قد قال جل وعلا : « ولذكر الله أكبر » أى ذكر الله لهم بالنعم والخيرات ، فذكره فضل وإحسان وهو الكبير المتعال . فهناك إذن ذكر ثان ، ذكر أقل منه ، وهو العبادة لربهم بالطاعة ، هنا يقول الحق :

﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ [سورة الأعراف]

ما وجه العجب هنا ؟ نعلم أن العجب هو إظهار الدهشة وانفعال النفس من حصول شيء علي غير ما تقتضيه مواقع الأمور ومقدماتها ، إذن تظهر الدهشة ونساءل كيف حدث هذا ؟ ولو كان الأمر طبيعياً ورتيباً لما حدثت تلك الدهشة وذلك العجب .

وعجبتُم لماذا ؟ اقرأ - إذن - قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ . . ﴾ ﴿٢﴾ [سورة ق]

موضع العجب هنا أن جاء لهم منذر ورسول من جنسهم ؛ فمن أي جنس كانوا يريدون الرسول ؟ كان من غيبتهم أنهم أودوا الرسول مَلَكاً .

﴿بَلَىٰ نَعْبُوهُ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝۱﴾

(سورة ق)

وجاء العجب أيضاً في البعث . فتساءل الكافرون هل بعد أن ذهبنا وغبنا في الأرض وصرنا تراباً بعد الموت يجمعنا البعث مرة ثانية ١٢

إذن فالعجب معناه إظهار الدهشة من أمر لا تدعو إليه المقدمات أو من أمر يخالف المقدمات .

العجب عندهم في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها لأن نوحاً عليه السلام يريد منهم أن يبحثوا في الإيمان بوجود إله . وكان المنطق يقتضي أنه إذا رأوا شيئاً هندسته بديعة ، وحكيمة ، وطرأ عليها هذا المخلوق وهو الإنسان ليحد الكون منقلاً موجوداً من قبله ، كان المنطق أن يبحث هذا الإنسان عن خلق هذا الكون وأن يلح في أن يعرف من صنع الكون ، وحين يأتي الرسول ليقول لكم من صنع هذا الكون ، تتعجبون ١٢

كان القياس أن تتلهفوا على من يجبركم بهذه الحقيقة ؛ لأن الكون وأجناسه من النبات والجماد والحيوان في خدمتك أيها الإنسان . لا بقوتك خلقت هذا الكون ولا تلك الأجناس ، بل أنت طارئ على الكون والأجناس ، ألم يدر بخلدك أن تتساءل من صنع لك ذلك ؟

إذن فالكلام عن الإيمان كان يجب أن يكون عمل العقل ، وقلت قديماً : هب أن إنساناً وقعت به طائفة في مكان ، وهذا المكان ليس به من وسائل الحياة شيء أبداً ، ثم جاع ، ولم يجد طعاماً ، وظهر التعب ، فنام ، ثم أفاق من هذه الإغفاءة ؛ وفوجئ بمائدة أمامه عليها أطيب الطعام والشراب وهو لا يعرف أحداً في المكان ، بالله قبل أن يأكل إلا يتساءل عن أحضرها ١١؟ كان الواجب يقتضي ذلك .

إذن أنتم تتعجبون من شيء تقتضي لفطرة أن تبحث عنه ، وأن تؤمن به وهو الإله

الذى لا يتنفع بطاعتنا أو بعبادتنا ، ولا تعود عليه العبادة بشيء ، بل تعود علينا ، والعبادة فيها مشقات لأنها تلجم الشهوات وتمقل وتمنع من المعاصي والمحرمات ، ولكن يُقابل ذلك الثواب في الآخرة .

وهناك من قال : ولماذا لا يعطينا الثواب بدون متاعب التكليف ؟ مادام لا يستفيد . إنَّ العقل كاف ليدلنا - دون منهج - إلى ما هو حسن نفعله ، وما نراه سيئاً فلا نفعله ، والذى لا نعرفه أهو حسن أم سيء . ونضطر له نفعله ، وإن لم تكن في حاجة له لا نفعله .

ونقول لهذا القائل : لكن من الذى أخبرك أن العقل كاف ليدلنا إلى الأمر الحسن ، هل حسن لك وحدك أم لك وللآخرين ؟ فقد يكون الحسن بالنسبة لك هو السوء بالنسبة لغيرك لأنك لست وحدك في الكون . ولنفترض أن هناك قطعة قمماش واحدة ، الحسن عندك أن تأخذها ، والحسن عند غيرك أن يأخذها . لكن الحُسن الحقيقي أن يفصل في مسألة ملكية هذه القطعة من القماش من يعدل بينك وبين غيرك دون هوى . وألا يكون واحد أولى عنده من الآخر . إذن لابد أن يوجد إله يعصمنا من أهوائنا بمنهج ينزله يبين لنا الحسن من السيئ ، لأن الحسن بالمطلق البشرى مستصطدم فيها أهواؤنا .

ومثال آخر : افرض أننا دخلنا مدينة ما ، ورأينا مسكنا جميلا فاخرا وكل منا يريد أن يسكن فيه وكل واحد يريد أن يأخذه ، لأن ذلك هو الحسن بالنسبة له ، لكن ليس كذلك بالنسبة لغيره ، إذن فالحسن عندك قد يكون قبيحاً عند الغير . فالحسن عند بعض الرجال إذا ما رأى امرأة أن ينظر إليها ويتكلم معها ، لكن هل هذا حسن عند أهلها أو أبيها أو زوجها ؟ لا .

إنَّ الذى تعجبتم منه كان يجب أن تأخذوه على أنه هو الأمر الطبيعى الفطرى الذى تستلزمه المقدمات . فقد جاءكم البلاغ على لسان رجل منكم . ولماذا لم يقل الحق : لسان رجل ؟ إننا نعلم أن هناك آية ثانية يقول فيها الحق :

﴿ رَبَّنَا وَاعْتَدْنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة آل عمران)

كأنه يقول لهم : إن الوعد الذي وعده الحق لكم قد جاء لكم بالنبي الذي نزل على الرسل . ومهمة الرسل صعبة ، فليست مقصورة على التبليغ باللسان لأن مشقاتها كلها على كاهل كل رسول ، ولا تظنوا أن ربنا حين اختار رسولاً قد اختاره ليدلله على رقاب الناس ، لا . لقد اختاره وهو يعلم أن المهمة صعبة ، والرسول صلى الله عليه وسلم - كما تعلمون - لم يشج من خبز شعير قط ، وأولاده وأهله - على سبيل المثال - لا يأخذون من الزكاة ، والرسل لا تورث فجميع ما تركوه صدقة ، وكل تبعات الدعوة على الرسول ، وهذه هي الفائدة في أنه لم يقل على لسان رسول ، لأن الأمر لو كان على لسان الرسول فقط لأعطى البلاغ فقط ، إنما د على رجل منكم . تعطى البلاغ ومسئولية البلاغ على هذا الرجل .

﴿ أَوْعِجَّتُمْ أَنْ جَاءَ كُرْدٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأعراف)

ماهو العجب ؟ لقد كان العجب أن تردوا الألوهية والنبوة . وبعضهم لم يرد الألوهية ورد فكرة النبوة على الإنسان . وطالب أن يكون الرسول من الملائكة ؛ لأن الملائكة لم تعص ولها هبة ولا يعرف عنها الكذب . لكن كيف يصح الرسول ملكاً ؟ وهل أنت ترى الملك ؟ إن البلاغ عن الله يقتضى المراجعة ، ولا بد أن يراه تقوم ويكلموه ، والملك أنت لن تراه . إذن فلسوف يتشكل على هيئة رجل كما تشكل جبريل بهيئة رجل . إذن أنتم تستعجبون من شيء كان المنطق يقتضى ألا يكون .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ أَهْدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴾

(سورة الإسراء)

وقولهم هذا في قمة الغباء . فقد كان عليهم أن يتهاوتوا وقبلوا على الإيمان ؛ لأن الرسول منهم . وقد عرفوا ماضيهم من قبل ، وكذلك أنسوا به ، ولو كانت له انحرافات قبل أن يكون رسولاً لحزى واستحيا أن يقول لهم : استقيموا . ومادام هو منكم وتعرفون تاريخه وسلوكه حين دعاكم للاستقامة كان من الواجب أن تقولوا لأنفسكم : إنه لم يكذب في أمور الدنيا فكيف يكذب في أمور الآخرة ، ولم يسبق له أن كذب على خلق الله فكيف يكذب على الله ؟ ولأنه منكم فلا بد أن يكون إنساناً ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَوْ جَعَلْتُمْ مَلَكَكُمْ جَعَلْتُمْ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ۖ ﴾

(سورة الأنعام)

وهنا في الآية التي نحن بصددھا يقول الحق: (على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون).

إذن فمهمته أن ينذر ، والأنذار لقصد التقوى ، والتقوى غايتها الرحمة ، وبذلك لجهدنا مراحل: الإنذار وهو إخبار بما يسوءك ولم يأت زمنه بعد وذلك لتستعد له ، وتكف لأنه سيبعك ويضايقك. والبيشارة ضد الإنذار ، لأنها تخبر بشيء سار زمنه لم يأت ، وفائدة ذلك أن يجند الإنسان كل قوته ليستقبل الخير القادم. وأن يتعد عن الشيء المخيف.

وهكذا يكون التبشير والإنذار لتتقى الشرور وتأخذ الخير ، وبذلك يحيا الإنسان في التقوى التي تؤدي إلى الرحمة.

إذن فمواطن تعجبهم من أن يجيئهم رسول مردودة ؛ لأن مواطن التعجب هذه كان يجب أن يلح عليها فطرياً ، وأن تنعطف النفس إليها لا أن يتعجب أحد لأنها جاءت ، فقد جاءت الرسالة موافقة للمقدمات ، وقد جاء الرسول ولم يأت ملكاً ليكون قدوة.

وكذلك لم يرسله الله من أهل الجاه ومن الأعيان ومن صاحب الأتباع ؛ حتى لا يقال إن الرسالة قد انتشرت بغير العزوة ، إن الأتباع كانوا موافقين على الباطل بتسلط الكبراء والسادة ، لمخافة أن يقال: إن كل تشريع من الله أزره المبطلون بأتباعهم جاءت الدعوة على أيدي الذين ليس لهم أتباع ولا هم من أصحاب الجاه والسلطان. ولقد تمى أهل الشرك ذلك ويقول القرآن على لسانهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [سورة الزخرف]

ولقد كان تمنيههم أن ينزل القرآن على رجل عظيم بمعاييرهم ، وهذه شهادة منهم بأن القرآن في ذاته منهج ومعجزة. ولم يتساءلوا: وهل القرآن يشرف بمحمد أو محمد هو الذي يشرف بالقرآن ؟ إن محمداً يشرف بالقرآن ؛ لذلك يقول الحق:

﴿مَّا نُرَاكَ الْبَاشِرَ أَفْئَلًا وَمَا نُرَاكَ اتِّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ..﴾ [سورة موه]

وهذه هي العظمة ؛ لأن أتباع محمد ﷺ لم يكونوا من الذين يفرض عليهم الواقع أن يحافظوا على جاههم ويعملوا بسطوتهم وبطشهم ويقتوتهم ، ويفرضوا الدين بقوة سلطانهم ، لا ، بل يمر على أتباع رسول الله فترة ضعاف مضطهدون ، يؤذون ويهاجرون ، فالمهمة في البلاغ عن الله تأتي لينذر الرسول ، ويتقى الأتباع لتألهم الرحمة نتيجة التقوى ، والتقوى جاءت نتيجة الإنذار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ
وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا
قَوْمًا عَمِينَ ﴾

وهنا يتكلم الحق عن حكاية الإنجاء ، ونعلم المقدمة الطويلة التي سبقت إعداد سيدنا نوح ﷺ للرسالة ، فقد أراد له الله أن يعلم النجاة ، وأن يصنع السفينة .

﴿ وَكَلَّمَا مَرْءَ عَلِيٍّ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. ﴾ (٣٨)

[سورة هود]

ولم يجرء الحق هنا بسيرة الطوفان التي قال فيها في موضع آخر من القرآن :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ (١١)

[سورة القمر]

وجاء الحق هنا بالنتيجة وهي أنهم كذبوه .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. ﴾ (١٤)

[سورة الأعراف]

وكانت هذه أول حدث عقابي في تاريخ الديانات ؛ لأن رسالة نوح ﷺ هي أول رسالة تعرضت إلى مثل هذا التكذيب ومثل هذا العناد ، وكان الرسل السابقون لنوح عليهم البلاغ فقط ، ولم يكن عليهم أن يدخلوا في حرب أو صراع ، والسماة هي التي

تؤدب ، فحينما علم الحق سبحانه وتعالى أنه بإرسال رسوله صلى الله عليه وسلم ستبلغ الإنسانية رشدها صار أتباع محمد مأمورين على أن يؤدبوا الكافرين .
وفي تكذيب نوح عليه السلام يأتينا الحق هنا بالنتيجة .

(فأنجيناه والذين معه) ولم يقل الحق : كيف أنجاه ولم يأت بسيرة الفلك ، بل أخبر بمصير من كذبه ، ويأتى بالعقاب من جنس الطوفان .

﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأعراف)

هناك « أعمى » لمن ذهب بصره كله من عينيه كليهما ، وهناك أيضا عمية وأعمى ، والعمى فى البصيرة كالعمى فى البصر . . أى ذهبت بصيرته ولم يهتد إلى خير .

ثم انتقل الحق إلى رسول آخر . ليعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة فيه أيضاً . فبعد أن جاء بنوح يأتى يهود .

﴿وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

وساعة ما تسمع : (والى عاد أخاهم هوداً) أى أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، و « أخاهم » موقعها الإعراب « مفعول به » ويدلنا على ذلك قوله فى الآية السابقة : (أرسلنا نوحاً) ، وكذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً . وكلمة « أخاهم » تُشعرُ بأشياء كثيرة : إنه من جنسهم ، ولقته لغتهم ، وأنسهم به ، ويعرفون كل شيء وكل تاريخ عنه ، وكل ذلك إشارات تعطى الأنس بالرسول ، فلم يأت لهم برسول أجنى عاش بعيداً عنهم حتى لا يقولوا : لقد جاء ليصنع لنفسه سيادة علينا . بل جاء لهم بواحد منهم وأرسل إليهم « أخاهم » وهذا الكلام عن « هود » .

إذن كان هود من قوم عاد ، ولكن هناك رأى يقول : إن هوداً لم يكن من قوم عاد ، ولأن

الأخوة نوحان : أخوة في الأب القريب ، أو أخوة في الأب البعيد ، أى من جنسكم ، من آدم ؛ فهو إما أخ من الأب القريب ، وإما أخ من الأب البعيد . وقد قلنا من قبل : إن سيدنا معاوية كان يجلس ثم دخل عليه الحاجب فقال يا أمير المؤمنين ، رجل بالباب يقول إنه أخوك ، فتساءلت ملامح معاوية وتعجب وكأنه يقول لحاجبه : ألا تعرف إخوة أمير المؤمنين ؟ وقال له : أدخله ، فادخله . قال معاوية للرجل : أى إخوان أنت ؟!

قال له : أخوك من آدم .

فقال معاوية : رحم مقطوعة - أى أن الناس لا تنبئ إلى هذه الأخوة - والله لأكون أول من وصلها .

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومَ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

ونلاحظ أن الحق قال على لسان سيدنا نوح لقومه :

﴿ فَقَالَ يَنْقُومَ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وأرسل الحق هوداً إلى عاد ، لكن قول هود لقوم عاد يأتى : (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرِه أَفَلَا تَتَّقُونَ) .

وهنا قال : فقط من غير الفاء ؛ وجاء في قول نوح : لا فقال . وهذه دقة الأداء لنتبه ؛ لأن الذى يتكلم إله ورب ، فتأتى مرة بـ « فاء » وتأتى مرة بغير « فاء » رغم أن السياق واحد ، والمعنى واحد والرسول رسول ، والجماعة هم قوم الرسول . ونعلم أن « الفاء » تفتضى لتعقيب ، وتقيد الإلحاق عليهم ، وهذا توضحه سورة نوح ؛ لأن الحق يقول فيها :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبِلاً وَنَهَارًا ۖ قَلِمَ يَرُدُّهُمْ دُعَاوَىٰ إِلَّا قَرَارًا ۖ وَإِنِّي

كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أصْبَعَهُمْ فِي أَذَانِهِمْ ۖ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا

وَأَسْكَبُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴿

(سورة نوح)

إذن فالفاء مناسبة هنا ، لكن في مسألة قوم هود نجد أن سيدنا هوداً قال لهم مرة لو اثنتين أو ثلاث مرات ، لكن بلا استمرار وإلحاح ، وهذا يوضح لنا أن إلحاح نوح على قومه يقتضى أن يأتى في سياق الحديث عنه بـ : « فقال » وألا تأتى في الحديث عن دعوة سيدنا هود . وقد يتعجب الإنسان لأن مدة هود مع عاد لا تساوى مدة نوح مع قومه ، وقد جاء الإيضاح بضمن رسالة سيدنا نوح في قوله الحق :

﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا نَحْسِبْنَهَا نَحْوًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة النعكوت)

ظل سيدنا نوح قرابة ألف سنة يدعو قومه ليلاً ونهاراً سرّاً وعلانية ، لكنهم كانوا يفرون من الإيمان ، لذلك يأتى الحق في أمر دعوة نوح بالفاء التى تدل على المتابعة . أما قوم عاد فلم يأت لهم « بالفاء » . بل جاء بـ « قال » :

﴿ وَإِنِّي عَادُ أَهْلَهُمْ هُودًا قَالَ يَنْتَظِرُونَ أَغْبُدُوا إِلَهَ غَيْرِهِمْ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأعراف)

وقال نوح من قبل :

﴿ يَنْتَظِرُونَ أَغْبُدُوا إِلَهَ مَالِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وفي مسألة قوم عاد قال : (يا قوم اعبدوا الله مالمكم من إله غيره أفلا تتقون) .

ومع أن الأسلوب واحد والمعانى واحدة ، وكان ذلك يقتضى الإنذار ، لكن لم يقل الحق ذلك ؛ لأن نوحاً كان عنده علم بالعذاب الذى سوف ينزل ؛ لأنها كانت أول تجربة ، لكن سيدنا هود لم يكن عنده علم بالعذاب .

العملية التي حدثت لنوح مع قومه وإهلاكهم بالغرق كانت أولية بالنسبة له ؛ فإله سبق أن أعلمه بها ، وحين ذهب هود إلى قوم عاد كانت هناك سابقة أمامه ، وأخذ ربنا المكذبين لنوح بالعذاب ، لذلك ألمح سيدنا هود فقط إلى احتمال العذاب حين قال : ﴿ أَتِلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

أى أن العذاب قد ينتظركم وينالكم مثل قوم نوح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّكَ لَنَرْنَا فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴾

فى هذه الآية جاء قوله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، وفى قصة نوح قال سبحانه : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ ولم يأت فيها بالذين كفروا ، لأن قوم نوح لم يكن فيهم من آمن وكنتم إيمانه وأخفاه ، بخلاف عاد قوم هود فإنه كان فيهم رجل اسمه مرثد بن سعد آمن وكنتم وستر إيمانه ، فيكون قوله تعالى فى شأنهم : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قد جاء مناسبا للمقام ، لأن فيهم مؤمنا لم يقل ما قالوا من رميهم لسيدنا هود بالسفاهة حيث قالوا ما حكاه الله عنهم بقوله :

﴿ إِنَّا لَنَرْنَا فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأعراف)

أما قوم نوح فقد قالوا :

﴿ إِنَّا لَنَرْنَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأعراف)

فقال لهم نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ يَنْقُومَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأعراف)

ما الفرق بين الضلال والسفاهة ؟

الضلال هو مجانبة حق ، والسفاهة طيش وخفة وسخافة عقل ، وأضافت عاد اتهاماً آخر لسيدنا هود : ﴿ وَإِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

والظن رجحان الأمر بدون يقين ، فهناك راجح ، ومرجوح ، أو أن الظن هنا هو التيقن . على حد قوله سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ١٦ سورة البقرة)

أى يتقنون ، وجاء بالرد من سيدنا هود :

﴿ قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

وفى هذا القول نفي للاتهام بالسفاهة ، وإبلاغ لهم بأنه مبلغ عن الله بمنهج تؤديه الآية التالية وهي قوله الحق :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُم مَّا صِخْرٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾

ومضى أن قال سبحانه على لسان نوح :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأعراف)

فلماذا قال في قوم نوح : ﴿ أنصح لكم ﴾ ، وقال هنا في عاد : ﴿ وأنا لكم ناصح أمين ﴾ ؟

لقد قال الحق : ﴿ أنصح لكم ﴾ في قوم نوح لأن الفعل دائماً يدل على التجدد ، بينما يدل الاسم على الثبوت . ونظراً إلى أن نوحاً عليه السلام كان يلح على قومه ليلاً ونهاراً ، وإعلاناً وسراً ، لذلك جاء الحق بالفعل : ﴿ أنصح لكم ﴾ ليفيد التجدد ، ولكن في حالة قوم هود جاء سبحانه بما يفيد الثبوت وهو قوله : ﴿ ناصح أمين ﴾ ؛ لأن هوداً عليه السلام لم يلح ويكرر على قومه في دعوتهم إلى الإيمان كما كان يفعل نوح عليه السلام .

ويقول سبحانه على لسان سيدنا هود :

﴿ أَوْعِظْهُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصَاطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

جاء الحق هنا بالذكر للإنذار فقال : ﴿ لينذركم ﴾ فقط ، وليس كما قال في قوم نوح : ﴿ ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ لأن الإنذار لم يأت لمجرد الإنذار ، بل لترتدع وتنتفي ، لكني أرحم ، إذن فحين يأتي بأول الحلقة وأول الخيط وهو الإنذار فنحن نستتج الباقي وهو التقوى لنصل إلى الرحمة : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ .

وهذا كلام جديد ؛ لأن قوم نوح هم أول قوم عذبوا حين لم يؤمنوا ، وجاء سيدنا هود إلى عاد بعد ذلك ، يبلغهم وينذرهم ليأخذوا العبرة من نوح وقومه :

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْعَةً تَأْذْكُرُوا
ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأنعام)

ويذكرهم سيدنا هود أن الحق قد أعطى لهم أجساماً فارعة فيها بسطة وطول ،
ويقال : إن الطويل منهم كان يبلغ طوله مائة ذراع ، والقصير منهم كان يبلغ طوله
ستين ذراعاً ، ويأمرهم سيدنا هود أن يذكروا آلاء الله ، أى نعمه عليهم ، وأول
النعم أن أرسل إليهم رسولا يأخذ بأيديهم إلى مناطق الخير .

فماذا كان ردهم ؟

بقول الحق :

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ
مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا إِيمَانَعُدْنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

كان المنطق أن يعبدوا الله وحده لا أن يعبدوا الشركاء الذين لا ينفعونهم
ولا يضرّونهم ، ولا يسمعونهم . بل إن الواحد منهم كان يرى الهواء يهب على
الصنم ، فيميل الصنم ويقع على الأرض وتنكسر رقبته ، فيذهب إلى الحداد ليعيد
تركيب رأس جديد للصنم ، فكيف يعبد مثل هذا الصنم ؟ لكنهم قالوا لهود :
نحن نفلد آباءنا ولا يمكن أن نترك ما كان يعبد آباؤنا لأننا على آثارهم نسير . وإن
كان إلهك ينذرنا بعذاب فأتنا به إن كنت من الصادقين . وهكذا وضح أنه لا أمل
فى اقتناعهم بالدعوة إلى الإيمان .

فماذا يقول الحق بعد ذلك ؟

يجيء القول الفصل على لسان سيدنا هود :

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ
وَعَصَبٌ أَتَجِدِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا
أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ
فَانْظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ ﴾ ٧١

لقد كان يكلمهم ويكلمونه ، قالوا له : اثبتنا بالمذاب ، فقال لهم : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ ، فكيف يقول وقع ؟ لقد قال ذلك لأنه يخبر عن الله . و « وقع » فعل ماض ، لكننا نعلم أن كلام الله مجرد عن الزمان ماضياً كان أو حاضراً ، أو مستقبلاً ، لقد قال سيدنا هود : ﴿ وقع » والمذاب لم يقع بعد ، لكن لما كان قوله بلاغاً عن الله فإنه يؤكد وقوع العذاب حتماً ، لأن الذي أخبر به قادر على إنفاذه في أي وقت ، ولا إله آخر ولا قوة أخرى قادرة على أن تمنع ذلك . والذي وقع عليهم هو الرجس ، والرجس أي التقدير ، ضد التزكية والتطهير . وغضب الله الواقع لم تحدده هذه الآية . لكن لا بد أن له شكلاً سيقع به .

ويسألهم هو ساخراً : ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ﴾ ، وكل اسم يكون له مسمى ، وهذه الأسماء أنتم أطلقتموها على هذه الآلهة ، وهل لها سميات حقيقية لتعبد ؟ . لا ، بل أنتم خلعتم على ما ليس بإله أنه إله ، وهذه أسماء بلا سميات ، وأنتم في حقيقة الأمر مقلدون لأبائكم . وما تعبدونه أسماء بلا سلطان من الإله الحق .

﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأعراف)

أي ليس لهذه الأسماء من حجة على ما تقولون ، بدليل أنهم كانوا يسمون في الجاهلية إلهاً باسم « العزى » وعندما يكسرونه لا يجدون عزاً ولا شيئاً ، لأن هذا الإله المزعوم لم يدفع عن نفسه ، فكيف يكون إلهاً وثيماً على غيره ؟ وكذلك سموا « اللات » أي الله ومضاف له الثاء ، وعندما يكسرونه لا يجدون له قوة أو جبروتاً أو طغياناً .

ويقول هود لقومه ما يؤكد وقوع العذاب :

﴿ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ ، جعلنا نفهم قوله السابق : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ بأن الرجس والغضب قادمان لا محالة . صحيح أنه عبر عن ذلك بالفعل الماضي ، ولكن لنقرأ قوله الحق :

﴿ إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

وأتى : فعل ماضٍ ، وفي الظاهر أنه يناقض قوله : ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ لأن الاستعجال يدل على أن الحدث لم يأت زمنه بعد . ولكن لنا أن نعلم أن الذي أخبر هو الله ، ولا توجد قوة ثانية تغير مرادات الله أن تكون أو لا تكون .

يقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا

وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾

ونلاحظ أن الحق قد بين وسيلة نجاة سيدنا نوح : ﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ .

أما هنا في مسألة عاد فلم يوضح لنا وسيلة النجاة ، بل قال سبحانه :

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ فأنجيناه ﴾ تدل على أن عذاباً عاماً وقع ، إلا أن ربنا أوحى لسيدنا هود أن يذهب بعيداً عن المكان هو والذين معه قبل أن يقع هذا العذاب . وكان العرب قديماً إذا حزنهم أمر ، أودعتهم ضرورة إلى شيء خرج عن أسبابهم يذهبون إلى بيت الله ، ليضرعوا إلى الله أن يخلصهم منه ، حتى الكفرة منهم كانوا يفعلون ذلك . كما حدث من عاد حين أرسل الله إليهم سيدنا هوداً نبياً فكذبوه وازدادوا عتواً وتجيراً فأصابهم جدد وظل ثلاث سنوات فما كان منهم ألا أن فرغوا إلى الكعبة لكي يدعوا ربهم أن يخفف عنهم العذاب ، وذهب واحد منهم اسمه « قيل بن عثر » ، وآخر اسمه « مرثد بن سعد » الذي كان يكتنم إسلامه على رأس جماعة منهم إلى مكة ، وكان لهم بها أخوال من العماليق ، من أولاد عمليق بن لاوثة بن سام بن نوح ، وكانوا هم الذين يحكمون مكة في هذا الوقت ، وعلى رأسهم واحد اسمه « معاوية بن بكر » ، فتزلوا عنده ، وأكرم وفادتهم على طريقة العرب ، واستضافهم ضيافة ملوك وأمراء ، وجاء لهم بالقيان والأكل والشراب ، فاستمروا الأمر ، وظلوا شهراً ، فقال معاوية بن بكر : لقد جاءوا لينقذوا قومهم من الجدد ومافكروا أن يذهبوا إلى الكعبة ، ولافكروا في أن يدعوا ربنا وأخاف أن أقول لهم ذلك فيقولوا إنه ضاق بنا . وتكون سبة في . وأخذ يفكر في الأمر . وكان عنده مغنيتان اسمهما « الجرادتان » . فقالت المغنيتان : قل في ذلك شعراً ، ونحن نغنيه لهم ، فقال معاوية :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعل الله يمطرنا غماماً
فيسقى أرض عاد إن عاداً قد أمسوا لا يبينون الكلاما

فلما غتا ، والغناء فيه ترديد وخصوصاً إذا كان غناء موجهاً « ألا يا قيل ويحك قم فهينم » وهينم : أي ادعوا الله ، ألم تحضر من أجل الدعاء لعل الله يمطرنا الغمام على أرض عاد ، وينتهي الجدد ، وقد بلغ منهم الجهد أنهم لا يبينون الكلام ، فتنبه القيل ، ونسب مرثد بن سعد ، وكان قد نعى إلى علم « القيل » أن مرثد بن سعد مؤمن بهود عليه السلام ، فرفض أن يصحبه معه ، وبالفعل ذهب قبل وأخذ يدعوا الله ، فسمع هاتفاً يقول له : « اختر لقومك » وقد رأى سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء ، ونبهه الهاتف أن يختار سحابة تذهب لقومه من بين الثلاثة ، فاختار السحابة السوداء ، لأنها أكثر السحاب ماء ، وهو على قدر اجتهاده

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿ ٤٢١٥ ﴾

اختار السحابة السوداء ، وعادوا لبلادهم ليجدوا السحابة السوداء فقال لهم : أنا اخترت السحابة السوداء لأنها توحى بقاء كثير منهم ، وقال الحق في هذا الأمر :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُتَقَبِّلًا أَوْْدَيْتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأحقاف)

أى أن هذه هي السحابة التى قال عليها : قتل ، سوف نعطينا المطر .

فيرد الحق عليهم ويقول لهم :

﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ ومن الآية ٢٥ سورة الأحقاف)

إذن فقولهم السابق لسيدنا هود الذى أورده الحق هنا فى سورة الأعراف :

﴿ قَاتِلْنَا إِنَّا تَعِدُّنَا أَنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأعراف)

أى أن عذابهم يتأكد بالمطر والريح الذى جاء به قول سيدنا هود هنا فى سورة الأعراف : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ .

ولم يفلت من العذاب إلا من آمن مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

لقد يسر الحق الانتفاذ لسيدنا هود ومن آمن معه ليهجروا المكان لحظة ظهور السحاب ، فقد سمع هود هاتفاً يؤكد له أن فى هذا السحاب العذاب الشديد ، فأخذ الجماعة الذين آمنوا معه وهرب إلى مكة ، وتم إهلاك الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسولهم ورفضهم الإيمان بربهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُّوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَةٍ ﴾

لقد قال سيدنا صالح لثمود مثلما قال سيدنا هود لعاد ، وحمل لهم الإنذار ليتقوا فيرحموا ، قال سيدنا صالح : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

إذن فالإنذار للتقوى وللوصول إلى الرحمة والفلاح ، ولذلك أقول دائماً : إن القرآن حينما يتعرض لأمر قد لا يأتي به مفصلاً ولكن سياقه يوحى بالمراد منه ، ولا يكرر وذلك ليرى فينا ملكة الاستيفاظ إلى استقبال المعاني . والمثال على ذلك في قصة الهدد مع سيدنا سليمان ، يقول القرآن على لسان سيدنا سليمان :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنْ الْفَاسِقِينَ ﴾

(سورة النمل)

ويهدد سيدنا سليمان الهدد قائلاً :

﴿ لَا عَذِيبَةَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذِيعَنَّ ﴾

(من الآية ٢١ سورة النمل)

ثم جاء الهدد ليقول :

﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ يَنْبَغِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة النمل)

ثم أرسل سيدنا سليمان الهدد إلى قوم سبا قائلاً :

﴿ أَذْهَبَ بِكُنُوتِي هَذَا فَآفَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ نَوَّلَ عَنْهُمْ قَانِظَرُ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٥٨)

(سورة النمل)

وبعد هذه الآية مباشرة قال القرآن :

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِي بِكِتَابٍ كَرِيمٍ ﴾ (٥٩)

(سورة النمل)

وكان الهدهد قد ذهب بالكتاب ، ورماه إلى ملكة سبأ ، وقالت هي الرد مباشرة . إذن لم يكرر القرآن ما حدث ، بل جعل بعضاً من الأحداث متروكاً للفهم من السياق .

وكذلك هنا في قوله الحق :

﴿ وَإِنِّي مُؤَدِّ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وكلمة « أخاهم » هنا تؤكد أن سيدنا صالحاً كان مانوساً به عند ثمود ، ومعروف التاريخ لديهم ، وسوابقه في القيم والأخلاق معروفة لهم تماماً وأضيفت ثمود له لأنه أخوهم . وقد جاءت دعوته مطابقة لدعوة نوح وهود .

﴿ قَالَ يَتَقَوِّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرِهِ قَدْ جَاءَ تَكْمِ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ

نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ

عَذَابُ آيَمٍ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

والبينة هي الدليل على الصديق في البلاغ عن الله ، وهي الناقة . فما قصة الناقة ؟ هل خرج لهم بناقة ونسب ملكيتها لله ؟ بطبيعة الحال ، لا ، بل لا بد أن تكون لها قصة بحيث يعلمون أن هذه الناقة ليست لأحد من البشر . وحين قام سيدنا صالح بدعوته ، تحداه السادة من قومه ، وقالوا : نقف نحن وأنت ، نستنجد نحن بالهتنا ، وأنت تستنجد بالهتك ، وإن غلبت الهتنا تبعنا ، وإن غلب إلهك

نتبعك ، وجلسوا يدعون آلهم ، فلم يحدث شيء من تلك الآلهة ، وهنا قالوا لسيدنا صالح : إن كنت صادقاً في دعوتك ، هذه صخرة منفردة أمامك في الجبل اسمها « الكائبة » فليخرج ربك لنا من هذه الصخرة ناقة هي عشراء كالبعث - أحسن أنواع الإبل - ، فدعا الله سبحانه وتعالى ، وانشقت الصخرة عن الناقة ، وخروج الناقة من الصخرة لا يدع مجالاً من الشك في أنها آية من الله ظهرت أمامهم . إنها البيئة الواضحة . لقد انشقت الصخرة عن الناقة ووجدوها ناقة عشراء ، وبراء - أي كثيرة الوتر - يتحرك جنبها بين جنبها ثم أخذها المخاض فولدت فصيلاً ، وهكذا تؤكد الآية الإلهية دون أن يجزو أحد على التشكيك فيها ، وهي ناقة من الله وهو القائل :

﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَهَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة الشمس)

وأوضح لهم سيدنا صالح أنها ناقة الله ، وترونها رؤية مشهدية وهذه الناقة لها يوم في الماء لتشرب منه ، ويوم تشربون أنتم فيه . وكان الماء قليلاً عندهم في الآبار .

﴿ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الشعراء)

أي لا بد من تخصيص يوم لتشرب فيه هذه الناقة ، ولكم أنتم وإبلكم وحيواناتكم يوم آخر ، وكان من عجائب هذه الناقة أن تنف على العين وتشرب فلا تدع فيها ماء ، وهي كمية من المياه كانت تكفي كل الإبل . وبعد ذلك تتحول كل المياه التي شربتها في ضرعها لبناً ، فيأخذون هذا اللبن .

صحيح أن الناقة منعتهم المياه لكنهم أخذوا منها اللبن الذي يطعمونه ، ولأنها ناقة الله كان لا بد أن تأخذ هيكلًا وحجماً يناسبها وكمية من الطعام والشراب مناسبة لتقيم بها حياتها ، وكمية إدرار اللبن مناسبة لشربها وطعامها وحجمها ، فمادامت منسوبة لله فلا بد أن فيها مواصفات إعجازية ، وكان الفصيل الذي ولدته معها ، وكان إذا ما جاء الحر في الصيف تسكن الناقة في المشارف العالية ، وبقيّة النوق تنزل في الأرض الوطيئة ، وحين يأتي الشتاء تنزل إلى المناطق المنخفضة .

والمعروف أن مذائن صالح كانت منطقة شديدة الحرارة ، ويمكن لمن يزور المدينة أن « يبول » أن يمر عليها .

كانت الناقة حرة في اختيار المكان الذي تعيش فيه صيفاً أو شتاءً فلا أحد يقادر أن يسها بسوء . وكانت هناك امرأتان لها نياق ، وناقة الله تغلب نياق المرأتين في المراعى والماء . فأحضرت المرأتان رجلاً يطلق عليه : « أَحْيَمِر ثَمُود : واسمه قدار بن سالف » ليقتلها ، فقتل الناقة ، فلما قتلت الناقة ، طلع ابنها الفصيل على جبل يسمى « قارة » وخار ثلاثة أصوات ، فنادى سيدنا صالح : يا قوم أدركوا هذا الفصيل ، لعل الله بسبب إدراككم له يرفع عنكم العذاب ، فراحوا يتلمسونه فلم يجدوه وأعلم الله صالحاً النبي أن العذاب قادم ، وفى اليوم الأول تكون وجوههم مصفرة ، وفى اليوم الثانى تكون محمرة ، وفى اليوم الثالث تكون مسودة ، فقد كانت الناقة هى ناقة الله المنسوبة له سبحانه ، وقد تأكدوا بالأمر المشهدى من ذلك ، وكان من الواجب عليهم ساعة أن وجدوا الآية الكونية المشهودة أن يأخذوا منها العبرة ، وأنها مقدمة للشىء الموعود به . لكن الغباء أنساهم أنها ناقة الله .

﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وبالفعل حدث العذاب بعد أن قتل أحيمر ثمود الناقة .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ شُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ يُؤْتُونَهَا ذِكْرًا وَاللَّهُ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴾

اللَّهُ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

ومن قبل قال الحق لقبيلة عاد :

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأعراف)

وهنا قال الحق : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ .

لأن عاداً هم الخلفاء الأقرباء منهم ، وقصبتهم مازالت معروفة ومعالمها واضحة ، أما قصة نوح فهي بالتأكيد أقدم قليلاً من قصة عاد .

ويذكرهم الحق أيضاً أنه جعل لهم في الأرض منازل يسكنونها ، فانتخبوا من سهولها قصوراً ، والسهل هو المكان المنبسط الذي لا توجد به تلال أو صخور أو جبال ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ، وكان عمر الإنسان منهم يطول لدرجة أن البيت ينهدم مرتين في العمر الواحد للإنسان . ولذلك قرروا أن ينتخبوا من الجبال بيوتاً لتظل آمنة ، وحين يرى الإنسان مدائن صالح منحوتة في الجبل فهي فرصة لأن يتأمل عظمة الحق في تنبيه الخلق إلى ما يفيدهم وهم بالفعل من نعم الله ، ويقول سبحانه :

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأعراف)

وآلاء الله - كما عرفنا - هي نعمه التي لا تحصى ، وينبههم إلى عدم نشر الفساد في الأرض .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾

لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنْ صَلَحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا
أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾

ونعرف أن هناك سادة ، وهناك أتباعاً . ومن قبل قال الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾

(من الآية ١٦٦ سورة البقرة)

وهنا في الآية التي نحن بصدد خوارطها عنها حوار بين السادة وبين المستضعفين الذين لا جاء لهم ولا جبروت يُحافظ عليه ، ورأوا دعوة الإيمان ووجدوا فيها النفع لهم فاقبلوا عليها ، أما الملا وهم السادة الأشراف الأعيان الذين يملأون العين هبة ، والقلوب مهابة فقد قالوا لمن آمن من المستضعفين : « لأن هناك مستضعفين ظلوا على ولائهم للكفر . قال هؤلاء الملا من المستكبرين لمن آمن من المستضعفين :

﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنْ صَلَحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأعراف)

وعندما سمع المستكبرون قول المؤمنين من المستضعفين . لماذا قال الملا المستكبرون ؟
يقول الحق :

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ﴿٧٦﴾

إذن فقد أعلنوا الكفر بالقول وضمروا إليه بالعمل وهو قتل الناقة ،
ويقول الحق :

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
وَقَالُوا لَا يَصْلِحُ إِلَيْنَا إِيمَانُكُمْ أَنْ كُنْتُمْ
مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

والعقر : هو الذبح بالنسبة للنوق .

وهم هنا يقولون أيضاً مثلما قال السابقون لهم :

﴿ .. ائْتِنَا بِمَا نَعِدُّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٧٧)

[سورة الأعراف]

والصادقين « تقول أيضاً إلى المرسلين ، لقد اتهموا صالحاً عليه السلام بالكذب كنبى
مرسل لهم برغم حدوث الآية الواضحة وهى خروج الناقة من الجبل ، لذلك يحل
عليهم غضب الله المتمثل فى قوله الحق :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
جِثِيمِينَ ﴾

والرجفة هى الهزة التى تحدث رجة فى المهزوز . ويسمىها القرآن مرة بالطاغية .
فى قوله الحق :

[سورة الخاتمة]

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِطَاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾

والتي أصبحوا من بعدها «جائمين» ، وهو التعبير الدقيق الذي يدل على أن الواحد منهم إن كان واقفاً ظل على وقوفه ، وإن كان قاعداً ظل على قعوده ، وإن كان نائماً ظل على نومه ، أو كما نقول : «انسخطوا على هياتهم» .

«الجائم» هو من لزم مكانه فلم يرح أو لصق بالأرض .

وبعد أن أخذهم بالرجفة يقول الحق :

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَكْفُورٍ لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ

رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ

النَّصِيحَاتِ ﴿٧٦﴾

فهل كان سيدنا صالح يخاطبهم وهم موتى ؟ . نعم يخاطبهم إنصافاً لنفسه وإبراء لذمته ، مثلما يقع واحد في ورطة فيقول له صديقه : لا أملك لك شيئاً الآن : فقد نصحتك من قبل . أو أن شريراً قد قتل ، فتقول له : «ياما نصحتك» . وأنت تتكلم لكي تعطى لنفسك براءة العذر ، أو كما فعل ﷺ مع قتلى بدر وناداهم واحداً واحداً بعد أن ألقوا جثثهم في قليب بدر ، وقال ﷺ : يا أهل القليب ، يا فلان ، يا فلان ، يا فلان ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، فقال الصحابة :

- أو تكلمهم يا رسول الله وقد جيئوا . قال : والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني .

وكان سيدنا صالح قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله و منهجه ونصح لهم وتحسن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله ، لكنهم لم يستمعوا للنصح . ولم يحبرا الناصحين ؛ لأن الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما ألفه من الشر ، وعندما ينصحه أحد بغضب عليه .

وبعد أن انتهى من قصة ثمود مع نبيهم يقول سبحانه :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ
مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ٨٠

وكما قال الحق : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً ﴾ وقال : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ ، ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ فهو هنا يأتى باسم « لوط » منصوباً لأنه معطوف على من سبقه من أصحاب الرسالات .

وما هو زمان الإرسال ؟ إن قوله الحق : ﴿ إذ قال لقومه ﴾ يفيد أن زمن القول كان وقت الإرسال . وهى الإشارة القرآنية ذات الدلالة الواضحة على أن الرسول حين يبعث ويرسل إليه ويبلغ الرسالة لا يتوانى لحظة فى أداء المهمة ، فكان تبليغ الرسالة تزامن مع قوله : ﴿ يا قوم ﴾ . والأسلوب يريد أن يبين لك أنه بمجرد أن يقال له : « بلغ » فهو يبلغ الرسالة على الفور ، وكان الرسالة جاءت ساعة التبليغ فلا فاصل بينهما .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ .

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف) -

وكلمة « قومه » تعنى أنه منهم ، ولماذا لم يقل : « أخاهم لوطاً » ؟ وهذه لها معنى يفيد أن السابقين من الرسل كانوا من بيئة الأقوام الذين أرسلوا إليهم ، فعاد كان « هود » من بيتهم ، و « ثمود » كان صالح من بيتهم . وإذا كان الحق لم يقل « أخاهم لوطاً » فلنلاحظ أنه أوضح أنه قد أرسله إلى قومه ، وهذه تنبهنا إلى أن لوطاً

لم يكن من هذا المكان ، لأن لوطاً وإبراهيم عليهما السلام كانا من مدينة بعيدة ، وجاء إلى هذا المكان فراراً من الاضطهاد هو وإبراهيم عليهما السلام ، وهذا يبين لنا أن لوطاً طارىء على هذا المكان ، ولم يكن أخاهم المقيم معهم في البيعة نفسها . ولكنهم « قومه » لأنه عاش معهم فترة فعرف بعضهم بعضاً ، وعرفوا بعضاً من صفاته ، وأنسوا به .

أقول ذلك لنسب إلى دقة أداء القرآن ، فمع أن القصص واحد فسيحانه يضع لنا التمييز الدقيق ، ولم يقل لهم لوط : إن ربى نهاكم عن هذه العملية القذرة وهي إتيان الرجال . بل أراد أن يستفهم منهم استفهاماً قد يردعهم عن العملية ويقيحها .

وكان استفهام سيدنا لوط هو استفهام تقريع ، واستفهام إنكار ، فلم يقل لهم : إن ربنا يقول لكم امتنعوا عن هذا الفعل ، بل يستكر الفعل كعمل مضاد للفطرة ، وامتنكار فطري .

﴿ أَنَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الاعراف)

وهذا يدل على أنه يريد أن يسألهم سؤالاً إنكارياً ليخرجهم ، لأن العقل الفطري يأبى هذه العملية : ﴿ أَنَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أي أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستقذرة ، لأن الرجل إنما يأتي الرجل في محل القذارة ، لكنهم فعلوها ، وهذا الفعل يدل على أنها مسألة قد تشبهها النفس غير السوية . ولكنها عملية قذرة تأياها الفطرة السليمة .

وكلمة « فاحشة » تعطينا معنى التزبد في القبح ؛ فهي ليست قبحاً فقط ، بل تَزِيدُ وإيغال وتعمق في القبح ومبالغة فيه ؛ لأن الفاحشة تكون أيضاً إذا ما أتى الرجل أنثى معدة لهذه العملية لأنه لم يعقد عليها ، ولم يتخذها زوجاً ، وعندما يتزوجها تصير حلالاً له ، لكن إتيان الذكر للذكر هو تزبد في القبح . وإذا كان هذا الأمر محرماً في الأنثى التي ليست حلالاً له وبعد فاحشة ، فالرجل غير مخلوق

لمثل هذا الفعل ولا يمكن أن يصبر حلالاً ، يكون إثباته فاحشة بمعنى مركب .

﴿ .. أَنَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨٠) [سورة الاعراف]

وقلنا من قبل : إن «من» قد تأتي مرة زائدة ، ويمكنك أن تقول إنها زائدة في كلام الإنسان ، لكن من العيب أن تقول ذلك في كلام ربنا . وقوله : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أى ما سبقكم أحد من العالمين ، و«أحد» هى الفاعل ، وجاءت «من» لتوضح لنا أنه لم يأت بها أحد ابتداءً ، مثلما قلنا قديماً ، حين تأتى لواحد لتقول له : «ما عندى مال» . فأتت قد نفيت أن يكون عندك مال يعتد به . وقد يكون معك من بداية ما يقال له أنه مال ، وقوله الحق :

﴿ .. مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨١) [سورة الاعراف]

يعنى أنه لم يسبقكم أى أحد من بداية ما يقال له أحد ، ومبحانه يريد بذلك أن ينفىها أكثر ، و«من» التى فى قوله : ﴿ مِنْ الْعَالَمِينَ ﴾ هى تبعيضية أى ما سبقكم بها أحد من بعض العالمين . فما هذا الأمر ؟ لقد سمعنا فاحشة ، وهى تزيد فى القبح ووصفة لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فطرية للغاية

لأننا حين نبحث هذه المسألة بحثاً عقلياً نجد أن الإنسان مخلوق كخليفة فى الأرض وعليه استبقاء نوعه ؛ لأن كل فرد له عمر محدود ، ويخلف الناس بعضهم بعضاً ، ولا بد من بقاء النوع ، وقد ضمن الله للإنسان الأقواب التى تبقى ، وحلل له الزواج وسيلة لإبقاء النوع ، ومهمة الخليفة تفرض أن يخلف بعضنا بعضاً .

وكل خليفة يحتاج إلى اقتنيات وإلى إنجاب . و«الاقتنيات» خلقه الله فى الأرض التى قدر فيها أقواتها .

والنوع البشرى جعل منه سبحانه الذكر والأنثى ومنهما يأتى الإنجاب الخلاقى ؛ فهو محمول أولاً فى ظهر أبيه نطفة ، ثم فى أمه جنيناً ثم تضعه لترعاه مع والده ويربيه الاثنان حتى يبلغ رشده . وهذه خمس مراحل ، وكل مرحلة منها شاقة ،

فحمل الأم في الطفل تسعة شهور هو أمر شاق ؛ لأن الإنسان منا إن حمل شيئاً طوال النهار سيصاب بانزعج ، لكن الأم تحمل الجنين تسعة أشهر ، وأراد الله أن يكون الحمل انسياباً بمعنى أن الجنين في نشأته الأولى لا يبلغ وزنه إلا أقل القليل ، ثم يكبر بهدوء وببطء لمدة تسعة شهور حتى يكتمل نموه .

وهذا الجنين كان صغيراً في بدء تكوينه ، ثم صار وزنه غالباً ثلاثة كيلو جرام في يوم ولادته ، وبين بدء تكوينه إلى لحظة ميلاده هناك فترة زمنية ينمو فيها هذا الجنين تدريجياً ، وبشكل انسيابي ، فهو لا يزيد في الوزن كل ساعة ، بل ينمو في كل جزء من المليون من الثانية بمقدار يناسب هذا الجزء من الثانية ، وهذا يعني أن الجنين ينمو انسيابياً بما يناسب الزمن .

نلاحظ ذلك أيضاً في أثناء التدريب على رياضة حمل الأثقال أنهم لا يدرّبون اللاعب الناشئ على حمل مائة كيلو جرام من أول مرة بل يدرّبونه على حمل عشرين كيلو جراماً في البداية ، ثم يزداد الحمل تباعاً بما لا يجعل حامل الأثقال في عنت ، ويسمون ذلك : انسياب التدريب ؛ لأن حمل هذه الأثقال يحتاج إلى تعود ، ولهذا لا يتم تدريبه على حمل الأثقال فجأة ، بل بانسياب بحيث لا يدرك الزمن مع الحركة ، كذلك النمو ، فأنت إذا نظرت إلى طفلك الوليد ساعة تلده أمه ، وسأفقد جداً أنك ظلمت تنظر إليه دائماً ، فهو لا يكبر في نظرك أبداً ؛ لأنه ينمو بطريقة غير محسوسة لديك ، لكنك لو غبت شهراً عنه وتعود لرؤيته ستدرك نموه ، وهذا النمو الزائد قد تجمع في الزمن الفاصل بين آخر مرة رأيته فيها قبل غيابك وأول مرة تراه بعد عودتك .

ومن لطف الله -إذن- في الحمل أن الجنين ينمو انسيابياً ، ولذلك يزداد الرحم كل يوم من بدء الحمل إلى آخر يوم فيه ، وترى الأم الحامل ، وهي تسير بوهن وتبطن في حركتها ، ثم يأتي الميلاد مصحوباً بمتعاب الولادة وآلامها ، وبعد أن يولد المولود تستقبله رعاية أمه وأبيه ، ويأخذ سنوات إلى أن يبلغ الرشد . ونعلم أن أصول الأجناس طفولة هو الإنسان ، ولذلك نجد الأب الذي يريد الإنجاب ينحمل

مع الأم متاعب التربية ، وقد قرن الله هذا الأمر بشهوة ، وهي أعنف شهوة تأتي من الإنسان ، وبعد ميلاد الطفل نجد المرأة تقول : لن أحمل مرة أخرى ، ولكنها تحمل بعد ذلك .

إذن كان الشهوة هي الطعم الموضوع في المصيدة ليأتي بالصيد وهو الإنجاب ؛ لذلك قرن الحق الإنجاب بالشهوة لتقبل عليها ، وبعد أن تقبل عليها ، وتنوط فيها تنوفر وبذل الجهد لتربي الأولاد . فإذا أنت عزلت هذه الشهوة عن الإنجاب والامتداد تكون قد أخللت وملت عن سنة الكون ، لأنك ستأخذ اللذة بدون الإنجاب ، وإذا تعطل الإنجاب تعطلت خلافة الأرض ، والشئ الآخر أن الرجل في الجماع يلعب دور الفاعل ، وفي الشلوذ وهو العملية المضادة التي فعلها قوم لوط ينقلب الرجل إلى منفعل بعد أن كان فاعلاً .

﴿ وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨٠)

(سورة الاعراف)

والفاحشة هي العملية الجنسية الشاذة ، ولم يحددها سبحانه من البداية كدليل على أنها أمر معلوم بالفطرة ، فساعة يقول : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يعرفون ما فعلوا . وإن افترضنا أن هناك أغبياء أو من يدعون القبياء ويرفضون الفهم ، فقد جاء بعدها بالقول الراضح :

﴿ إِنَّا نَكُفِّرُ عَنْكُمْ لَنَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ
النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِقُونَ ﴾ (٨١)

والإسراف هو تجاوز الحد ، والله قد جعل للشهوة لديك مصرفاً طبيعياً متجياً ، وحيث تأخذ أكثر من ذلك تكون قد تجاوزت الحد ، ولقد جعل الله للرجل امرأة من جنس البشر وجعلها وعاء للإنجاب ، وتعطيك الشهوة وتعطيها أنت الشهوة ، وتعطيك الإنجاب ، وتشتركان من بعد ذلك في رعاية الأولاد . وأي خروج

عما حدده الله يكون الدافع إليه هو الشهوة فحسب لكى ينبغي أن يكون الدافع إلى هذه العملية مع الأنثى هو الشهوة والإنجاب معا ؛ لبقاء النوع ، ولذلك وصف الحق فعل قوم لوط : ﴿ .. بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (٨١) . ويأتى الحق سبحانه بما أجابوا به عن سؤال سيدنا لوط :

﴿ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ
مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴾ (٨٢)

وبذلك تمادى هؤلاء القوم رافضين أن يقبح أحد لهم الشذو ؛ لذلك قالوا :
﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ .. ﴾ (٨٢) .

وما هى الحجة التى من أجلها إخراج لوط والذين آمنوا معه من القرية ؟

﴿ .. أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴾ (٨٢) [سورة الاحزاب]

فهل التطهر عيب الا ، لكنهم عاشوا فى النجاسة وألفوها ، ويرفضون الخروج منها ، لذلك كرهوا التطهر . والمثال على ذلك حين لجأ شاباً يريد أن ينضم إلى صداقة جماعة فى مثل عمره ، لكنه وجدهم يشربون الخمر ، فنصحهم بالابتعاد عنه ، ووجدهم يغازلون النساء فحذرهم من مغبة الخوض فى أعراض الناس ، لكن جماعة الأصدقاء كرهت وجوده بينهم لأنه لم يألف الفساد فيقولون : لنبتعد عن هذا المستقيم المتزهة المتشقق ، وكأن هذه الصفات صارت سبة فى نظر أصحاب المزاج المنحرف ، مثلهم مثل الحيوان الذى يحيا فى القذارة ، وإن خرج إلى النظافة يموت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ ﴾

وهم حين أرادو طرد لوط وأهله ، إنما كانوا يجازفون .

إنهم بذلك قد تعجلوا العقاب ، وجاءهم العقاب وأنجى الحق سبحانه لوطاً وأهله بتدبير حكيم لا يحتاج فيه سبحانه إلى حد ، وإذا تساءل أحد : ومن هم أهل لوط الذين أنجاهم الله معه ؟ أهم أهل النسب أم أهل القدين والتبعية ؟ . إن كان أهله بالنسب فالحق يستثنى منهم * إمرأته * ، وهذا دليل على أن أهل البيت آمنوا بما قاله لوط وكذلك الأتباع أيضاً : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ ﴾ .

إذن كان مع لوط أيضاً بعض من أهله وبعض من الأتباع ، وكانوا من المتطهرين ، والتطهر هو أن يترفع الإنسان عن الرجس والسوء . ولذلك نجد سيدنا شعيباً حين ينصح قومه :

﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. ﴾ (٨٥) [سورة الاعراف]

ويتعجب القوم سائلين شعيباً :

﴿ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. ﴾ (٨٧) [سورة هود]

إنهم يتعجبون من أن الصلاة تنهى عن ذلك ، لقد أعمى ضلالهم بصيرتهم ، فلم يعرفوا أن الصلاة تنهى عن كل شيء . وكذلك فعل بعض من الكافرين حين اتهموا سيدنا رسول الله بأنه مجنون :

﴿ وَقَالُوا يَأْسِئُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٦) [سورة الحجر]

ومن قولهم يتأكد غياب تفكيرهم ، فماداموا قد قالوا: ﴿ نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ فمن الذى نزل هذا الذكر؟ ، والذكر هو القرآن ، والذى نزله هو الله - سبحانه وتعالى - فكيف يعترفون بالقرآن كذكر ، ثم يتهمون الرسول بأنه «مجنون»؟ ، لأنهم ماداموا قد قالوا عن القرآن إنه ذكر ، وإنه قد نزل عليه ، ولم يأت به من عنده ، فكيف يكون مجنوناً؟ إنهم هم الكاذبون ، وقولهم يؤكد أن فكرهم نازل هابط .

وفى الآية التى نحن بصدد خوارطنا عنها نجد الحق يقول سبحانه :

﴿ فَالْجِنَّةُ وَأَهْلُهُ إِلَّا امْرَأَتُهَا كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (٨٣) [سورة الأعراف]

إن امرأة سيدنا لوط لم تدخل فى الإجماع لأنها من الغابرين ، و«غبر» تأتى لمعان متعددة ، فهى تعنى إقامة ومكانا بالمكان ، أو تعنى أى شيء مضى ، كما يقال : هذا الشيء غبرت أيامه ؛ أى مضت أيامه ، ولسائل أن يقول : كيف تأتى الكلمة الواحدة للمعنى ونقيضه ؟ فغبر تعنى بقى ، وغبر أيضاً تعنى مضى وانتهى . نقول : إن المعنى ملتبس هنا فى هذه الآية ، فمادام الحق ينجيه من العذاب الذى نزل على قوم لوط فى القرية فنجد زوجته لم تخرج معه ، بل بقيت فى المكان الذى نزل فيه العذاب ، وبقيت فى الماضى ، وهكذا يكون المعنى ملتقياً . فإن قلت مع الباقين الذين آتاهم العذاب فهذا صحيح . وإن قلت إنها صارت تاريخاً مضى فهذا صحيح أيضاً : ﴿ إِلَّا امْرَأَتُهَا كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ .

ونحن لاندخل فى تفاصيل لماذا كانت امراته من الغابرين ؛ لأن البعض تكلم فى حقها بما لا يقال ، وكأن الله يدلس على نبي من أنبيائه ، لا ، نحن لاناخذ إلا ما قاله الحق بأنها كانت مخالفة لمنهجهم وغير مؤمنة به .

ونلاحظ أيضاً أن الحق تحدث عن امرأة نوح وامرأة لوط فى مسألة الكفر ؛ فقال :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا . . . ﴾ (١١) [سورة التحريم]

ودقق النظر في كلمة ﴿ تحت عبيدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ﴾ وتساءل البعض عن معنى الخيانة وهل المقصود بها الزنا ؟ . ونقول : ربنا لا يدلس على نبي له ، لكن أن تؤمن الزوجة أو تكفر ، فهذه مسألة اختيارية . وكان الله سبحانه يوضح لنا أن الرسول مع أنه رسول من الله إلا أنه لا يستطيع أن يفرض إيماناً على امرأته ، فالمسألة هي حرية الاعتقاد . وانظر إلى التعبير القرآني : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ﴾ .

إياك أن تظن أن أيًا منهما كانت متكبرة على زوجها ، لأن الحق يقول : ﴿ كانتا تحت عبيدين من عبادنا ﴾ أي أن إمرة وقوامة الرجل مؤكدة عليها ، يشير إلى ذلك قوله : ﴿ كانتا تحت عبيدين ﴾ لكن الإيمان هو مسألة اختيار ، وهذا الاختيار متروك لكل إنسان ، وأكد الحق ذلك في مسألة ابن سيدنا نوح :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

وحاول البعض أن يلصق تهمة الزنا بامرأة نوح وامرأة لوط ، وهم في ذلك بجائبون الصديق ، إنه محض افتراء ، وقد نبهنا الحق إلى ذلك فقال عن امرأة نوح وامرأة لوط :

﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا ﴾

(من الآية ١٠ سورة التحريم)

ولنفهم أن الاختيار في العقيدة هو الذي جعلهما من الكافرين ، وأن الرسلين نوحاً ولوطاً لم يستطيعا إدخال الإيمان في قلوب الزوجتين ، حتى يتأكد لدينا أن العقيدة لا يقدر عليها إلا الإنسان نفسه ، ولذلك ضرب سبحانه لنا مثلاً آخر :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ

وَلِخَیْتِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَوَعْدِیْهِ وَخَیْتِیْ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِیْنَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

فهذه زوجة فرعون المتجبر ، الذي « ادعى الألوهية » ، لكنه لا يقدر أن يمنع

امراته من أن تؤمن بالله ، وهكذا نجد نبياً لا يقدر أن يقنع امرأته بالإيمان ، ونجد مدعى الألوهية عاجزاً عن أن يجعل امرأته كافرة مثله ، وهذا يدل على أن العقيدة أمر اختياري محمي بكل أنواع الحماية ؛ حتى لا يختار الإنسان دينه إلا على أساس من اقتناعه لا على أساس قهره .

وضرب الله مثلاً آخر :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة التحريم)

ونلاحظ أن الحق لم يأت بأسماء زوجتي نوح ولوط ، وكذلك لم يأت باسم امرأة فرعون ، لكنه أورد لنا اسم مريم واسم والدها ، فلماذا كان الإبهام أولاً ؟ لنعلم أنه من الجائز جداً أن يحصل مثل هذا الأمر لاي امرأة ، فقد تكون تحت جبار وكافر ، وتكون هي مؤمنة ، وقد تكون تحت عبد مؤمن ولا يلمس الإيمان قلبها .

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾

(سورة الأعراف)

فكلمة « أنجينا » تشير إلى أن عذاباً سيقع في المكان الذي فيه قوم لوط ، ولأنه سبحانه شاء أن يعذب جماعة ولا يعذب جماعة أخرى ، فلا بد أن يدفع الجماعة التي كتب لها النجاة إلى الخروج . وهذا الخروج أراد له لهم من يكرهونهم ، فقد قالوا :

﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الأعراف)

لكن ربنا هو الذي أخرجهم ، والإخراج كان من العذاب الذي نزل بهؤلاء المجرمين ؛ إنه كان لإنقاذ لوط وأهله مما نزل بهؤلاء الفجرة .

ويأتي العذاب من الحق :

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤)

فهل كان ذلك المطر مثل المطر الذي ينزل عادة ؟ لا ، بل هو مطر من نوع آخر . فسبحانه يقول :

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن طِينٍ (٢٣) مُّسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٢٤)﴾

[سورة النازعات]

يقول الحق : إنه سيعذبهم بالمطر ، فلننتبه أنه ليس المطر التقليدي ، بل إنه يعذبهم ويستأصلهم بنوع آخر من المطر .

وقوله : «فانظر» أي فاعتبر يا من تسمع هذا النص ، وهذه القصة تبين وتوضح أن الله لا يدع المجرمين يصادمون دعوة الله على لسان رسوله دون عقاب .

ويقول سبحانه :

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ
مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَعَكُّمَ بِكِنَّةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَ هُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ فِي الْأَرْضِ بِقَدَرٍ
إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾

و«مدين» هو ابن من أبناء سيدنا إبراهيم جاء واستقر في هذا المكان ، فهو علم على شخصه ، وعلم على المكان الذي أقام فيه وسمى المكان باسمه ، فلما تكاثروا بنواؤه وصاروا قبيلة أخذت القبيلة اسمه . إذن «مدين» اسم علم على ابن إبراهيم ، وأطلق على المكان الذي استقر فيه من طور سيناء إلى الفرات ، وأطلق على القبيلة : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ .

الحق سبحانه وتعالى هنا يكرر «أخ» ليبين لك ، أنه إن قسا عليهم مرة فسيحتر عليهم مرة أخرى ؛ لأنهم إخوة له ومأنوس بهم ، وفيهم عاش ويعرفون عنه كل شيء ، وكان مدين قد تزوج من رقية ابنة سيدنا لوط ، وحين تكاثروا صاروا قبيلة ، وبلغهم سيدنا شعيب بالقضية المعقدة التي يبلغها كل رسول : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

والعبادة هي الطاعة للأمر والطاعة للنهي ، وأنت لا تطيع أمر أمر ولا نهى ناه إلا إذا كان أعلى منك ، لأنه إن كان مساوياً لك ، فبعد أن يقول لك : «افعل كذا» ستسأله أنت : لماذا ؟ ، وبعد أن ينهاك عن شيء ستسأله أيضاً : لماذا ؟ . لكن الأب حينما يقول لطفله : لا تفعل الشيء الفلاني ، فالابن لا يناقش ؛ لأنه يعرف أن أباه هو من يطعمه ويشربه ويكسوه ، وحين يكبر الطفل فهو يناقش ؛ لأن ذاته تتكون ، ويريد أن يعرف الأمر الذي سيقدم عليه .

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ .. ﴾ (٨٥) ﴿

[سورة الأعراف]

ومادام قد قال لهم : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ فهو رسول قادم ومرسل من الله ، ولا بد أن تكون معجزة يشبها ، إلا أن شعيباً لم يأت لنا بالمعجزة ، إنما جاء بالبيينة .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ .. ﴾ (٨٥) ﴿ [سورة الأعراف]

لأن كل المعاصي والكفر تدفع إلى الإخلال في الكيل والميزان ، وإذا كان شعيب قد قال ذلك لقومه فلا بد أن الإخلال في الكيل والميزان كان هو الأمر الشائع فيهم . فيأتى ليعالج الأمر الشائع . وهم كانوا يبخسون الكيل والميزان .

ويظن الناس في ظاهر الأمر أنها عملية سهلة ، وأن القبح فيها قليل ، والاختلاس فيها هين يسير ، فحين يبخس في الميزان ولو بجزء قليل ، إنما يأخذ لنفسه في آخر الأمر جزءاً كبيراً . وأنت ساعة تكيل وتزن وتطفف فأنت تفعل ذلك في من يشتري . وستذهب أنت بعد ذلك لتشتري من أناس كثيرين سيفعلون مثلما فعلت ، فإذا ما وفيت الكيل والميزان ، فأنت تفعل ما هو في مصلحتك ، لأنك تنشر العدل السلوكي بين الناس بادئاً بنفسك ، ومصالحك كلها مع الآخرين .

إنك حين تباع أى سلعة ولو كانت بلحاً وتنقص في الميزان ، ستحقق لنفسك ربحاً ليس لك فيه حق ، وإن كنت تكيل قمحاً لتبيعه وأنقصت الكيل ، فأنت تأخذ ما ليس لك ، والقمح والبلح هما بعض من مقومات حياتك ، لأنك تحتاج إلى سلع كثيرة عند من يزن ، وعند من يكيل ، فإن أنقصت الميزان أو الكيل فلسوف يفعلون مثلما فعلت فيما يملكون لك ، وبذلك تخسر أنت ويصبح الخسران عاماً .

﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. ﴾ (٨٥) [سورة الاعراف]

وإذا كانت الخسارة في الكيل والميزان طفيفة ومحتملة ، فمن باب أولى ألا نبخس الناس أشياءهم فلا نظلمهم بأخذ أموالهم والاستيلاء على حقوقهم ، فلا نسرف لأن السارق يأخذ ما اتصل إليه يده ، ولا نغضب ، ولا نختلس ، ولا نرتشى ، لأنه إذا كان وفاء الكيل هو أول مطلوب الله منكم مع أن الخسارة فيه طفيفة ، إذن فبخس الناس أشياءهم يكون من باب أولى .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .. ﴾ (٨٥) [سورة الاعراف]

وبذلك نكون أمام أكثر من أمر جاء بها نبي الله شعيب : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ وهذه العبادة تربي فيهم مهابة وتزيدهم حباً واحتراماً للأمر الأعلى ،

وكذلك ليخافوا من جبروته سبحانه . وبعد ذلك ضرورة يكون الأمر بالوفاء بالكيل والميزان ، والزجر عن أن يبغسوا الناس أشياءهم ، ثم النهي والتحذير من الإفساد في الأرض ﴿ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ ، والإصلاح الذي يطلبه الله منا أن نستديمه أو نرقيه إنما يتأتى بإيجاد مقومات الحياة على وجه جميل .

مثال ذلك الهواء وهو العنصر الأول في الحياة المسخرة لك ؛ يصرفه سبحانه حتى لا يفسد . والتعظيم الثاني في الحياة وهو الشراب ؛ إنه سبحانه ينزل لك الماء من السماء ، ثم القوت الذي يخرجك لك من الأرض . والمواشى التي تأخذ منها اللبن ، والأوبار ، والأصواف ، والجلود ، كل ذلك سخره الله لك ، وهذا إصلاح في الأرض ، لكن هل هذه كل المقومات الأساسية ؟ لا ؛ لأنه إن وجدت كل هذه المقومات الأساسية ثم وجد الفصص ، والسرقة ، والرشوة ، والاختلاس ، فسيفسد كل شيء ، ولا يعدل كل ذلك ويقيم ويجعله سوياً إلا الدين ؛ لأنه كمنهج يمنع الإفساد في الأرض .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَادْعُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا أَنْفُسَ أَشْيَاءِهِمْ

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

إذن فهذه الأشياء التي هي إيفاء الكيل والميزان يأتى الأمر بها ، ثم يتبعها بما ينهى عنه وهو ألا نبغس الناس أشياءهم وألا نفسد في الأرض بعد إصلاحها ، كل ذلك يجمع المنهج . أوامر ونواهي ، وقد يبدو في ظاهر الأمر أنها مسائل تقيد حرية الإنسان ، فنقول : لا تنظر إلى نفسك أيها الإنسان وأنت بمعزل عن المجتمع الواسع ، فأنت لا تملك من مصالحك إلا أمراً واحداً ، وهذا الأمر الذي تملكه أنت من مصالحك يكون أقل الأشياء عندك ، ولكن الأمور الأخرى التي تحتاج إليها هي بيد غيرك ، فإن أنت وفيت الكيل والميزان . فذلك خير لك ؛ فالذي يقيس لك القماش لا يغشك ، والذي يزن لك ما ليس عندك لا يغشك ، والذي يكيل لك الذي ليس عندك لا يغشك ، إذن فأنت واحد منهمى عن أن تفعل ذلك ، وجميع الناس منهيون أن يفعلوا ذلك معك ، وبذلك تكون أنت الكاسب .

وإذا جئت إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ، فانت مأمور ألا تبخس الناس أشياءهم ، وكل الناس مأمورون ألا يبخسوك شيئاً ، وإذا أفسدت في الأرض بعد إصلاحها فالناس مأمورون أيضاً ألا يفسدوا هذه الأرض وبذلك تكون احظ منهم في كل شيء . ولذلك يجب على كل مكلف حين يستقبل تكليفاً قد يكون شاقاً على نفسه أن يتأمل هذا التكليف وأن يقول لنفسه : إياك أن تنظر إلى مشقة التكليف على نفسك ، ولكن انظر إلى ما يؤديه لنفسه : إياك أن تنظر إلى التكليف لك : لا تنظر إلى محارم غيرك ، فقد أمر غيرك ألا ينظر محارمك ، وفي هذا عزة لك . وإذا أمرك التكليف ألا تضع يدك في جيب غيرك وتسرق ، فقد أمر كل الناس ألا يضعوا أيديهم في جيوبك ليسرقوك ، وبهذا تعيش في أمان .

وإذا طلب التكليف منك وأنت غني أن تخرج زكاة مالك إياك أن تقول : مالي وتعبى وعرقى ؛ لأن المال مال الله ، وأنت كإنسان مخلوق ليس لك إلا ترجيه الحركة ، والحركة تكون بطاقة مخلوقة لله ، والعقل الذي خطط مخلوق لله ، والانفعال الذي انفعلك في الأرض من خلق الله ، ولكن الحق احترم عملك وناتجه وفرض عليك أن تخرج منه زكاة مقدرة . فإياك أن تقول : إنه يأخذ مني . لماذا ؟ لأن عالم الأغيار ياد وظاهر أمامك ، وكم رأيت من قوى ضعف ، ومن غنى افتقر ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تعطى الفقير وتقويه ، فإن افتقرت فسيقل لك ذلك ، وفي ذلك تأمين حياتك ؛ لأنك تعيش في مجتمع فلا تأس على نفسك إن مرت بك الأغيار لأن مجتمعك الإيمانى لن يتركك ، أنت أو أولادك ، ويقول الحق :

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً﴾ (٩)

[سورة النساء]

فإن أردت أن تطمئن على أولادك الصغار بعد موتك فانظر للأيتام في مجتمعك وكن أبا لهم ، وحين تصير أنت أبا لهم ، وهذا أب لهم ، وذلك أب لهم ، سيشعر اليتيم أنه فقد أباً واحداً ، لكنه يحيا في مجتمع إيمانى أوجد له من كل المؤمنين

آباء ، فلا يحزن ، وكذلك لن نخاف أنت على أولادك إن صاروا أيتاماً بعد أن غادرتهم إلى لقاء ربك ؛ لأنك رعت أيتامى وعشت في مجتمع يرعاهم . ولكنك تحزن عندما ترى يتيماً مضيقاً في مجتمع لا يقوم على شأنه وتقول لنفسك : أنا إن مت سيضيع أبنائي هكذا .

وهكذا تكون تكاليف الإيمان هي تأمياً للحياة . ومثال ذلك حين نقول للمرأة : تحجى ، ولا تبدى زينتك لغير محارمك ، قد تظن المرأة في ظاهر الأمر أننا ضيقنا على حريتها ، لأنها تنسى أن المنهج يؤمن لها قبح الشيوخة ، لأنها حين تتزوج صغيرة ، ثم يصل عمرها فوق الأربعين ويتغير شكلها من متاعب الحمل وتربية الأبناء ، ثم يرى زوجها فناء في العشرين وغير محتشمة قد تفتنه وتصرفه عن زوجته ، وينظر إلى زوجته نظر غير المكثرت بها ، وغير الراغب فيها . فالشرع قد أمر بالحجاب للمرأة وهي صغيرة ؛ ليصون لها زوجها إن صارت كبيرة غير مرغوب فيها . فإن منعها وهي صغيرة فقد منع عنها وهي كبيرة ؛ كل ذلك إذن من تأمينات المنهج للحياة .

إذن فإيذاء الكيل ، وعدم يخاس الناس أشياءهم وعدم الإفساد في الأرض بعد إصلاحها خير للجميع في الدنيا ، بالإضافة إلى خير الآخرة ، ولذلك يذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٨٥)

[سورة الاعراف]

وهذا «ذلكم» إشارة إلى مسبق من الأمر بعبادة الله فلا إله غيره وإلى الأمر باستيفاء الكيل والميزان ، وألا نبخس الناس أشياءهم ، وألا نفسد في الأرض بعد إصلاحها ، ووضع الحق ذلك في إطار ﴿ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ على الرغم من أن الخير سيأتى أيضاً لغير المؤمن ، وهكذا تكون كلمة «خير» تشمل خيراً في الدنيا ، وخيراً في الآخرة للمؤمن فقط . أما الكافر فسيأخذ الخير في الدنيا فقط ، ولا خير له في الآخرة ، فإن كنتم مؤمنين فسيضاعف الخير لكم ليصير خيراً دائماً في الدنيا والآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَمْنٍ بَدِءَ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قِلَالًا فَكُنْزَكُمْ وَأَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَقِبُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦)

وقوله : ﴿ولا تقعدوا بكل صراط﴾ أى لا تقعدوا على كل طريق ، لأن من يقعد
على الطريق قد يمنع من يحاول الذهاب ناحية الرسول . والشيطان قد قال :
﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

فحين تقعدون على كل صراط يصير كل منكم شيطاناً والعياذ بالله ، لأن
الشيطان قال لربنا : ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ ، وهنا ينهى الحق عن
القمود بكل صراط ، لأن الصراط سبيل ، وحين يجمع الحق السبل لينهى عنها ،
إنما ليذكرنا أن له صراطاً مستقيماً واحداً ، وسبيلاً واحداً يجب علينا أن نتبعه .
ولذلك يقول :

﴿فَأْتِئِمُّوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

إذن فللشيطان سبل متعددة وسبيل الاستقامة واحد ، لأن للطرق المتعددة
غوايات متنوعة ، فهذا طريق يغوى بالمال ، وذلك يغوى بالمرأة ، وذلك يغوى
بالجاه . إذن فالغوايات متعددة .

أو أن الهداية التى يدعو إليها كل رسول شائعة فى كل ما حوله ، فمن يأتى ناحية
أى هداية يجد من يصدّه . ومن يطلب هداية الرسول يلقى التهديد والوعيد ،
والمنع عن سبيل الحق . ولماذا يفعلون ذلك ؟ تأتى إجابة الحق : ﴿وتبغونها
عوجاً﴾ .

إنهم ييغون ويودون شريعة الله معوجة ومائلة وزائغة عن الاستقامة ، أو تصفونها بأنها غير مستقيمة لتصدوا الناس عن الدخول فيها ، ولاتفروا منها ، مثال ذلك السخرية من تحريم الخمر والادعاء بأنها تعطى النفس السرور والانسجام . إن الواحد من هؤلاء إنما ينفر من شريعة الله ، ويدعى أنها شريعة معوجة ، فنجد من يحلل الربا ؛ لأن تحريم الربا في رأيهم السقيم المنحرف يضيق على الناس فرصهم . إنهم ييغون شريعة الله معوجة ليستقبلوا هم من اعوجاجها ، وينفروا الناس منها .

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ^ط وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

(من الآية ٨٦ سورة الأعراف)

نعلم أن كل ردع ، وكل توجيه يهدف إلى أمرين اثنين : ترغيب وترهيب ، وعلى سبيل المثال نجد المدرس يقول للتلاميذ : من يجتهد فسنعطيه جائزة ، وهذا ترغيب ، ويضيف الأستاذ قائلاً للتلاميذ : ومن يقصر في دروسه فسنفصله من المدرسة ، وهذا ترهيب . وما دام الناس صالحين لمعمل الخير ولعمل الشر بحكم الاختيار المخلوق فيهم الله فلا بد من مواجهتهم بالأمرين بالترغيب في الخير والترهيب من الشر .

والحق هنا يقول في الترغيب : ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ .

وكأنه يطلبهم بأن يكونوا أصحاب ذوق وأدب ، فنحن نعلم أن مدين تزوج وأنجب عدداً من الذرية وكانوا قلة في العدد فكثروهم حتى صاروا قبيلة ، وكانوا ضعافاً فقواهم ، وكانوا فقراء فأغناهم ، فمن صنع فيكم ولكم كل هذه المسائل ألا يصح أن تطيعوا أوامره . كان عليكم أن تطيعوا أوامره . وهذا ترغيب وتحسين .

ونعلم أن شعباً هو خامس نبي جاء بعد نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط . لذلك يذكرهم الحق بما حدث لمن كذبوا الأنبياء الأربعة السابقين . وقد يكون قوم نوح معذورين لأنهم كانوا البداية ، فلم يسبقهم من أخذ بالعذاب لتكذيب رسلهم ، ثم صارت من بعد ذلك قاعدة هي أن من يكذب الرسل يلقي العذاب ، مصداقاً لقوله الحق :

[سورة العنكبوت]

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ...﴾ (٤٠)

فإذا كان شعيب يندبهم بأن ينظروا كيف كان عاقبة المفسدين ممن سبقوهم فهذا تذكير بمن أغرقهم ومن أخذتهم الصيحة ، ومن كفأ وقلب ودمر ديارهم ، ومن جاء لهم بمطر من سجيل ، فإن لم يعرفوا واجبهـم نحو الله الذى أنعم عليهم بأن كانوا قليلاً فكثرهم ، فعليهم أن يخافوا عاقبة المفسدين . إذن فقد جمع لهم بين الترغيب والترهيب .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَّذِى
أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ
اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧)

وهذا القول يوضح لنا أن طائفة آمنت ، وطائفة لم تؤمن ، ثم جاء الأمر للطائفتين ، فأمر المؤمنين بالصبر تأنيس لهم ، وأمر الكافرين بالصبر تهديد لهم .

ومذه دقة القرآن فى الأداء وعظمة البيان والبلاغة . إذن ، فكلمة : اصبروا نفعت فى التعبير عن الأمر بالصبر للذين آمنوا ، ونفعت فى كشف المصير الذى ينتظر الذين لم يؤمنوا ، فصبر الكافرين ماله وعاقبه ، إما أن يخجلوا من أنفسهم فيؤمنوا ، وإما أن يجدوا العذاب ، وصبر المؤمنين يفودهم إلى الجنة ، وأن الذى يحكم هو الله وهو خير الحاكمين ؛ لأن المحكوم عليهم بالنسبة له سواء ، فلا أحد منهم له أفضلية على أحد . ولا أحد منهم قريبه ، وإلا قرابة القربى والزلفى إليه ، وسبحانه هو العادل بمطلق العدل ، ولا يظلم أحداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَرِهِينَ﴾ ٨٨ ﴿

علمنا من قبل أن الملأ هم السادة، والأعيان الذين يملأون العيون هبة، ويملأون
القلوب هبة، ويملأون الأماكن تحيزاً. وقد استكبر الملأ من قوم شعيب عن الإيمان
به، وطفخوا وهددوه بأن يخرجوه من أرضهم. وقالوا مثلما قال من سبقوهم. فقد
نادى بعض من قوم لوط بأن يخرجوا لوطاً ومن آمن معه من قريتهم. قال تعالى:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ
بَظَهْرُونَ﴾ (٥٦) ﴿ [سورة النمل]

وكلمة «قرية» تأخذ في حياتنا وضعاً غير وضعها الحقيقي، فالقرية الآن هي المرقع
الأقل من المدينة الصغيرة. لكنها كانت قديماً البلد الذي توجد فيه كل متطلبات
الحياة، بدليل أنهم كانوا يقولوا عن مكة «أم القرى». وقد وضع الملأ شعيباً ومن آمن
معه بين أمرين: إما أن يخرجوهم حتى لا يفسدوا من لم يؤمن فيؤمن، وإما أن يعودوا
إلى الملة.

وهنا لفظة لفظية أحب أن تنتبهوا إليها في قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ لأن العود
يقتضى وجوداً سابقاً خرج عنه، ونريد أن نعود إلى الأصل، فهل كان شعيب والذين
آمنوا معه على ملتهم ثم آمنوا والمطلوب منه الآن أنهم يعودون؟

علينا أن نتنبه إلى أن الخطاب هنا يضم شعيباً والذين معه. وقد يصدق أمر
العودة إلى الملة القديمة على الذين مع شعيب، ولكنها لا تصدق على شعيب
لأن نبي مرسل، وهنا نتنبه أيضاً إلى أن الذي يتكلم هنا هم الملأ من قوم مدبرين،

ووضعوا شعبياً والذين آمنوا معه أمام اختيارين : إما العودة إلى الملة ، وإما الخروج ، ونسوا أن الحق قد يشاء تقسيماً آخر غير هذين القسمين . فقد يوجد ويريد سبحانه أمراً ثالثاً لا يخرج فيه شعيب والذين آمنوا معه ، وأيضاً لا يعودون إلى ملة الكفر ، كان ثأني كارثة تمنع ذلك .

لقد عزل الملا من قوم شعيب أنفسهم عن المقادير العليا ، لأن الله قد يشاء غير هذين الأمرين ، فقد يمنعكم أمر فوق طاقتكم أن تخرجوا ؛ شعبياً ومن آمن معه ؛ بأن يصيبكم ضعف لا تستطيعون معه أن تخرجوهم ، أو أن يسلط الله عليكم أمراً يفنيكم وينجي شعبياً والذين آمنوا معه . إذن أنت أيها الإنسان الحادث ، العاجز لا تفتنت ولا تفتري وتختلق على القوة العليا في أنك تخير بين أمرين قد يكون لله أمر ثالث لا تعلمه ، ويأتى الرد على لسان من آمنوا مع شعيب :

﴿ قَالَ أُولَٰئِكَ كَثِيرٌ مِّنْكُمْ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة الأعراف)

لقد سأل شعيب والذين معه : أيمن أن يتم قهر أحد على أن يترك الإيمان إلى الكفر ، كان الكافرين قد تناسوا أن التكليف مطمور في الاختيار ، فالإنسان يختار بين سبيل الإيمان وسبيل الكفر .

ويتتابع القول من شعيب والذين آمنوا معه :

﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّا عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَعَثْنَا
اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ
رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ ﴾

وقولهم : ﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّا عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴾ أى أنهم يعلمون أن

العودة إلى مثل هذه الملة لون من الكذب المتعمد على الله . لأن الكذب أن تقول كلاماً غير واقع ، وتعلن قضية غير حقيقية إن أنت قلتها على مقتضى علمك فهذا مطلق كذب . لكن إن كنت عارفاً بالحقيقة ثم قلت غيرها فهذا افتراء واختلاق وكذب . والذين آمنوا مع شعيب عليه السلام يعلمون أن الملة القديمة ملة باطلة ، وهم قد شهدوا مع شعيب حلاوة الإيمان بالله ، لذلك رفضوا الكذب المتعمد على الله . ويقولون بعد ذلك :

﴿بَعْدَ إِذْ أَخْبَأْنَا اللَّهُ مِيثَاقَهُ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الاعراف)

قد عرفوا أن التكليف اختيار وهم قد اختاروا الإيمان ، وأقروا وأكدوا إيمانهم بأنه سبحانه له طلاقة القدرة ، فقالوا : ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ . فمشيئته سبحانه فوق كل مشيئة . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء »^(١) .

والم يقل سيدنا إبراهيم وهو أبر الأنبياء والرسل :

﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾

(من الآية ٣٥ سورة إبراهيم)

لم يقل : واجتنبنا . بل قالها واضحة ودعا ربّه أن يعبدّه ويتأى به ويبنه أن يعبدوا الأصنام ، لأنه يعلم طلاقة قدرته سبحانه . إذن فمن آمنوا مع شعيب احترموا طلاقة القدرة في الحق ، لذلك قالوا :

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾

(من الآية ٨٩ سورة الاعراف)

ولكن الله لا يشاء لمعصوم أن يعود ، وسبحانه يهدي من آمن بهداية الدلالة ويمده بالمزيد من هداية المعونة إلى الطريق المستقيم .

(١) رواه أحمد ، ورواه مسلم عن ابن عمر .

ويتابع أهل الإيمان مع شعيب .

﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (٨٩)

[سورة الأعراف]

جاء قولهم : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ لأن خصومهم من الملائقة يفتقرونهم ويجبرونهم قالوا لهم : أنتم بين أمرين اثنين : إما أن تخرجوا من القرية ، وإما أن تعودوا في ملتنا . وأعلن المؤمنون برسولهم شعيب : أن العود في الملة لا يكون إلا بالاختيار وقد اخترنا ألا نعود . إذن فليس أمامهم إلا الإخراج بالإجبار ؛ لذلك توكل المؤمنون على الله ليتولاهم ، ويمنع عنهم تسلط هؤلاء الكافرين .

﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (٨٩)

[سورة الأعراف]

وساعة نسمع كلمة «افتح» أو «فتح» أو «فتح» نفهم أن هناك شيئاً مغلقاً أو مشكلاً ، فإن كان من المحسّسات يكون الشيء مغلقاً والفتح يكون بإزالة الأغلاق وهي الأقفال ، وإن كان في المعنويات فيكون الفتح هو إزالة الإشكالات ، والفتح الحسى له نظير في القرآن ، وحين نقرأ سورة يوسف نجد قوله الحق :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا بِنَايَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا .. ﴾ (٦٥)

[سورة يوسف]

وكلمة ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ ﴾ تعنى أن المتاع الذى معهم كان مغلقاً واحتاج إلى فتح حسى ليجدوا بضاعتهم كماهى . وأيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ زَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. ﴾ (٧٧)

[سورة الزمر]

ومادام هناك أبواب تفتح فهذا فتح حسي . وقد يكون الفتح فتح علم مثلما نقول : ربنا فتح علينا بالإيمان والعلم ، ويقول الحق :

﴿ أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ۖ ﴾ [سورة البقرة]

فما دام ربنا قد علمهم من الكتاب الكثير فهذا فتح علمي . ويكون الفتح بسوق الخير والإمداد به . والمثال على ذلك قوله الحق :

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ ﴾ [سورة ناطر]

وكذلك قوله سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ ﴾

[سورة الأعراف]

والبركات من السماء كال مطر وهو يأتي من أعلى ، وهو سبب فيما يأتي من الأسفل أي من الأرض .

والفتح أيضاً بمعنى إزالة إشكال في قضية بين خصمين ، ففي اليمن حتى الآن ، يسمون القاضي الذي يحكم في قضايا الناس «الفتاح» لأنه يزيل الإشكالات بين الناس . وقد يكون «الفتح» بمعنى «النصر» ، مثل قوله الحق :

﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْحِقُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ ﴾ [سورة البقرة]

لقد كانوا ينتظرون النبي ﷺ ليتصروا به على الذين كفروا ، ومن الفتح أيضاً الفصل في الأمر من قوله الحق هنا في الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها :

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ۖ ﴾ [سورة الأعراف]

وهذا القول هو دعاء للحق : احكم يا رب بينا وبين قومنا بالحق ننصر الإيمان وهزيمة الكفر ، وأنت خير الفاتحين فليس لك هوى ضد أحد أو مع أحد من مخلوقاتك .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا

إِن كُنتُمْ إِذًا الْخَاسِرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وهنا يقول الملأ من قوم مدين لمن آمنوا ولمن كان لديهم الاستعداد والتهيؤ للإيمان محذرين لهم من اتباع شعيب حتى لا يظل الملأ والكبراء وحدهم في الضلال :

وساعة نرى « اللام » في « لئن » نعلم أن هنا قسماً دلّت عليه هذه « اللام » . وهنا أيضاً « إن » الشرطية ، والقسم يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج كذلك إلى جواب ، فإذا اجتمع شرط وقسم اكتفينا بالإتيان بجواب المتقدم والسابق منهما ، مثل قولنا : « والله إن فعلت كذا ل يكونن كذا » : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون ﴾ .

وماذا سيخسرون ؟ سيخسرون لأنهم كانوا سيأخذون أكثر من حقهم حين يطففون الكيل ويخسرون الميزان ، والقوى يأخذ من الضعيف ، فإذا ما ارتبطوا بالمنهج واتبعوه خسروا ما كانوا يأخذونه من تطفيف الكيل ويخسرون الميزان بمنهج . وهذه هي الخسارة في نظر المنحرف .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

جَنَّتِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾

والرجفة هي الهزة العنيفة التي ترج الإنسان رجاً غير اختياري ، وصاروا بها جاثمين أي قاعدين على ركبهم ؛ ولا حراك بهم ؛ عيتين ، وفي هيئة الذلة . وهذا يدل على أن كلا منهم ساعة أخذ تذكر كل ما فعله من كفر وعصيان ، وأراد استدراك ما فاتته من مخالفاته للرسول ، وأخذ يوبخ نفسه ويندم على ما فعل ، ولم تأخذه الأبهة والاستكبار ، لأن هناك لحظة تمر على الإنسان لا يقدر فيها أن يكذب على نفسه ، ولذلك نجد أن من ظلم وطمى وأخذ حقوق الغير ثم يأتيه الموت يحاول أن يتأدى على كل من بنى عليه أو ظلمه ليعطيه حقه لكنه لا يجده . ولذلك يسمون تلك اللحظة أنها التي يؤمن فيها الفاجر ، لكن هل ينفع إيمانه ؟ طبعاً لا . في هذه الحالة لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل .

ويتابع سبحانه وصف ما حدث لهم إثر الرجفة :

﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شَعْبًا كَانُوا يَفْنَوْنَ فِيهَا الَّذِينَ

كَذَبُوا شَعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ ٩٢

وغنى بالمكان : أقام به ؛ فحين صاروا جاثمين وخلت منهم الديار ، كأنهم لم تكن لهم إقامة إذ استوصلوا وأهلكوا إهلاكاً كاملاً ، وإذا كان هؤلاء المكذبون قد قالوا : ﴿ لئن اتبعتم شعباً إنكم إذا لخاسرون ﴾ فيكون مآلهم هو ما ذكره ربنا بقوله : ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شَعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

ويتابع قوله الحق عن سيدنا شعيب :

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَتَلَعْتُمْ

كِتَابِي وَتَصَدَّقْتُمْ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى

قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ ٩٣

و«تولى عنهم» أى تركهم وسار يعيداً عنهم، وحدثهم متخيلاً إياهم ﴿لَقَدْ أَلَيْنَاكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، فكان المنظر العاطفى الإنسانى حين رأى كيف أصبحوا، وتعطف عليهم وأسى من أجلهم، لكن يرد هذا التعاطف متسانلاً متعجباً ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؟ إنهم نوع من الناس لا يحزن عليهم المؤمن، فما بالنا بنبى ورسول؟ إنه يحدث نفسه وكأنه يقول: ما قصرت فى مهمتى، بل أبلغتكم رسالاتى التى تلقيتها من الله، والرسالات إذا جمعت فالمقصود منها رسالته ورسالة الرسل السابقين فى الأمور التى لم يحدث فيها نسخ ولا تغيير، أو رسالاته أى فى كل أمر بلغ به؛ لأنه كان كلما نزل عليه حكم يبلغه لهم. أو أن لكل خير رسالة، ولكل شر رسالة، وقد أبلغهم كل ما وصله من الله، ولم يقتصر على البلاغ بل أضاف عليه النصح، والنصح غير البلاغ، فالبلاغ أن تقول ما وصلك وينتهى الأمر، و«النصح» هو الإلحاح عليهم فى أن يتوبوا إلى رشدهم وأن يتبعوا نهج الله.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ٩٤

وعرفنا من قبل أن القرية هى البلد الجامع لكل مصالح سكانها فى دنياهم.

والمقصود هنا أن القرية التى يرسل إليها الحق رسولا ثم تُكذَّب فسبحانه يأخذ أهلها بالبأساء والضراء. والبأساء هى المصيبة تصيب الإنسان فى أمر خارج عن ذاته؛ من مال يضيع، أو تجارة تبور وتهلك، أو بيت يهدم، والضراء هى المصيبة التى تصيب الإنسان فى ذاته ونفسه كالمرض، ويصيبهم الحق بالبأساء والضراء لأنهم نسوا الله فى الرخاء فأصابهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون إلى ربهم ويتعرفون إليه، ليكون معهم فى السراء والضراء. والحق يقول:

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٤٢٥١﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِيْدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسٍّ ۖ ۝ (٤٢)﴾

[سورة يونس]

ونان من الواجب على الإنسان أنه ساعة ما تمسه الضراء أن يتجه إلى خالقه ، ولقد جعل الله الضراء وسيلة تنبيه يذكّر بها الإنسان أن له ربا ، وفي هذه اللحظة يجيب الحق الإنسان المضطر ، ويقبّله مصداقاً لقوله الحق :

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَائِلًا مَا تَذْكُرُونَ ۝ (٤٢)﴾

[سورة النمل]

وإذا صنع الله مع المضطر هذا فقد يشوب إلى رشده ويقول : إن الإله الذي لم أجد لى مفزعاً إلا هو ، لا يصح أن أنساه .

وكان الحق سبحانه وتعالى يذكرنا بطلاقة قدرته حين يقول :

﴿قُلُوبًا إِذَا جَاءَهُمْ بِأَسَاءٍ تَضَرَّعُوا ۖ ۝ (٤٣)﴾

[سورة الأنعام]

وكانه سبحانه يطلب منا حين تجيء البأساء أن نفرّع إليه ولا نعتقد أننا نعيش فى الحياة وحدنا ، بل نعيش فى الحياة بالأسباب المخلوقة لله وبالمسبب وهو الله ، فالذى عزت عليه الأسباب وأتعبته بروح للمسبب ، ولذلك يأخذ سبحانه أية قرية لا تصدق الرسل بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون وذلك رحمة بهم .

ويقول :

﴿وَلَسَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ ۝ (٤٣)﴾

[سورة الأنعام]

فهل يتركهم الله فى السراء والضراء دائماً؟ لا ، فهو سبحانه يجيئهم ويبتليهم بالبأساء والضراء ليلفتهم إليه ، فإذا لم يلتفتوا إلى الله ، فسبحانه يبدل مكان السيئة الحسنة ، لذلك يقول :

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا
وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءُنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

ويعطى سبحانه بعد ذلك لهم الرزق ، والعافية ، والغنى ، لأن الحق إذا أراد أن يأخذ جباراً أخذ عزيز مقتدر فهو يمهله ، ويرضى له العنان ليتجبر - كفرعون - من أجل أن يأخذه بنته ، وكأنه يسقط من أعلى ، فيعليه ويعليه من أجل أن ينزل به - كما يقولون - على جذور رقبته : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا ﴾ .

(عَفَوْا) أى كثروا عدداً ومالاً وقوة أى أنه ما أخذهم سبحانه بالبأساء والضراء إلا وكان القصد منها أن يلفتهم إليه ، فلم يلتفتوا ، فبمدهم ويعطى لهم العافية وما يسرهم ، ثم يصيبهم بالعذاب بغتة .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءُنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَّاءُ
فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن تكلم على خلافة الإنسان في الأرض ، وأنه أمده بكل ما تقوم به حياته ، وأمده بالقيم بواسطة مناهج السماء ، وأنزل المنهج مبينا ما أحل ، وما حرم بعد أن كانوا يحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله ، فبين لهم الحق أن الذى خلق الخلق عالم بما يصلحهم فأحله ، وعالم بما يفسدهم فحرمه ، فليس لكم أن تفتروا على الله حلالاً ، ولا حراماً ، ولكن بعض المشككين فى منهج الله قالوا - وما زالوا يقولون - : إذا كان الله قد أحل شيئاً وحرم شيئاً فلماذا خلق ما حرم ؟ ونقول : لقد خلق سبحانه كل شيء لحكمة قد تكون لغير الطعام والشراب والكسوة ، فبعض الأشياء يكون مخلوقاً لمهمة وإن لم تكن مباشرة لك ، فالبترول مثلاً مخلوق لمهمة أن يوجد طاقة ، لذلك لا نشربه .

والخنزير مخلوق لحكمة لا نعلمها نحن ، وإنما يعلمها من خلق ، لأنه من

الجائز أن يكون أداة لالتقاط الميكروبات التي تنشأ من عفن الأشياء التي يستعملها الناس في حياتهم ، إذن فكل شيء مخلوق لحكمة ، فلا تخرج أنت حكمة الأشياء من غير مراد خالقها ؛ لأن صانع الصنعة هو الذي يحدد الشيء الذي يوجد وينشئ القوة لها . ونحن نعلم - مثلاً - أن أنواع الوقود كثيرة ، فهناك « البنزين » المتقى جداً ويرقمونه برقم (١) وهو مخصص للطائرة ، ووقود السيارة وهو « البنزين » رقم (٢) . فإذا استخدمنا وقود ماكينة وآلة بدل ماكينة أخرى أفسدناها . كذلك خلق الله الإنسان وسخر له كل المخلوقات وأوضح : هذا يصلح لك مباشرة ، وهذا مخلوق ليعخدمك خدمة غير مباشرة فدعه في مكانه .

وبعد أن عرض الحق سبحانه وتعالى مواقف الجنة ، ومواقف النار ، ومواقف أصحاب الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ؛ وبعد أن بين المنهج كله أراد أن يبين أن ذلك ليس نظرياً ، وإنما هو واقع كوني أيضاً . ففرق بين الشيء يقال نظراً ، والشيء يقع واقعاً ، فقص علينا قصص الأنبياء حين أرسلهم إلى أقوامهم ، فمن كذب بالرسول أخذ الله أخذ عزيز مقتدر بواقع يشهده الجميع ؛ فذكر نوحاً مع قومه ، وذكر عاداً وأخاهم هوداً ، وذكر ثمود وأخاهم صالحاً ، ومدين وأخاهم شعيباً ، وقوم لوط وميدنا لوطاً . وبين ما حدث للمؤمنين بالنجاة ، وما حدث للكافرين بالعطب والإذلال ، ويوضح الحق سبحانه وتعالى : أنني أخذ الناس بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، لأن الإنسان مخلوق أفاض الله عليه من صفات جلاله ، ومن صفات جماله الشيء الكثير ، فإله قوي . وأعطى الإنسان من قوته . والله غني وأعطى الإنسان من غناه ، والله حكيم وأعطى الإنسان من حكمته ، والله عليم وأعطى الإنسان من علمه .

وإذا أردت أن تستوعب ما يقربك إلى كمال العلم في الله ، فانظر ما علمه لكل خلق الله . ومع ذلك فعلمهم ناقص . ويردون إلى العلم الذاتي في الحق سبحانه وتعالى ، وربما غر الإنسان بالأسباب وهي تستجيب له ، فهو يحرق ويبذر ويروي ، وإذا بالارض تعطيه أكلها . وهو يصنع الشيء فيستجيب له . كل ذلك قد يغريه بأن الأشياء استجابت لذاتيته فيذكره الله : أن اذكر من ذلك لك .

وساعة ما يجد الإنسان أن كل الأسباب مواتية له فعليه أن يذكر الله . إن الإنسان بمجرد إرادة أن يقوم من مكانه فهو يقوم . وبمجرد إرادة أن يصفع أحداً فهو يصفعه ؛ لأن الأبعاد التي في الإنسان خاضعة لمراده ، فإذا كانت أبعاضك خاضعة لمراداتك أنت ، وأنت مخلوق ، فكيف لا يكون الكون كله مراداً للحق بالإرادة ؟ فإذا استغنى الإنسان بالأسباب ، فالحق يلفته إليه . فالفادر الذي كان بفتوته يفعل . يسلب الله منه القدرة بالمرض ؛ فيمد يده لمساعدته إنسان على القيام والذي اعتز بشيء يذله الله بأشياء . لماذا ؟ حتى يلفته إلى المسبب ، فلا يفتن بالأسباب .

ويدع لنا الحق سبحانه وتعالى في كونه عجائب ، ونجد العالم وقد تقدم الآن تقدماً فضائياً واسعاً ، واستطاع الإنسان أن يكتشف من أسرار كون الله ما شاء ، ولكن الحق يصنع لهم أحياناً أشياء تدلهم على أنهم لا يزالون عاجزين . فبعد أن تكتمل لهم صناعة الآلات المتقدمة يكتشفون خطأ واحداً يفسد الآلة ويحطمها ، وتهب زوبعة أو إعصار يدمر كل شيء ، أو يشتعل حريق هائل . فهل يريد الله بكونه فساداً وقد خلقه بالصلاح ؟ لا ، إنه يريد أن يلفتنا إلى ألا نفتر بما أوتينا من أسباب . فالذين عملوا « الرادار » لكي يبين لهم الحدث قبل أن يقع ، يفاجئهم ربنا - أحياناً - بأشياء تعطل عمل « الرادار » ، فيعرفون أنهم مازالوا ناقصي علم .

إذن فالأخذ بالبأساء ، والأخذ بالضراء ، سنة كونية ليظل الإنسان فاعلاً وعالمياً أنه خليفة في الأرض لله . وفساد الإنسان أن يعلم أنه أصيل في الكون ، فلو كنت أصيلاً في الكون فحافظ على نفسك في الكون ولا تفارقه بالموت . وإن كنت أصيلاً في الكون فذل الكون لمراداتك . ولن تستطيع ؛ لأن هناك طبائع في الكون تتمرّد عليك ، ولا تقدر عليها أبداً .

وترى أكثر من مفاعل ذري ينفجر بعد إحكامه وضبطه لماذا ؟ ! ليدل على طلاقة القدرة وأن يد الله فوق أيديهم ، إذن فأخذ الناس بالبأساء والضراء ، وبالشيء الذي نقول إنه شر إنما هو طلب اعتدال للإنسان الخليفة ، حتى إذا اغتر برده الله سبحانه وتعالى من الأسباب إلى المسبب . وحين يأخذ الله قوماً بالبأساء التي تصيب الإنسان في غير ذاته ؛ مال يضيع ، ولد يفقد ، بيت يهدم ، أو يأخذهم بالضراء

وهي الأشياء التي تصيب الإنسان في ذاته ، فذلك ليسلب منهم أبهة الكبرياء ، فلا يجدون ملجأ إلا أن يخضعوا لرب الأرض والسماء ، ولكي يتضرعوا إلى الله ، ومعنى التضرع : كما عرفناه - إظهار الذلة لله . وإذا لم يُجِدْ وينفع فيهم هذا ، وقالوا : لا ، إن البأساء والضراء مجرد سنن كونية ، وقد تأتي للناس في أى زمان أو مكان . نقول لهم : صحيح البأساء والضراء سنن كونية من مكوّن أعلى من الكون ، فإذا لم يرتدعوا بالبأساء والضراء ويرجعوا إلى ربهم ويتوبوا إليه يبتليهم الله بالنساء ، فهو القاتل :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ

بَغْتَةً فَيَاذًا هُمْ مُبْلُونَ ﴿٢٥٥﴾

(سورة الأنعام)

فالمجتمعات حين تبتعد عن منهج السماء نجد الحق يتقم منهم انتقاماً يناسب جرمهم ، ولو أنه أخذهم على حالهم المتواضع فلن تكون الضربة قوية ؛ لذلك يوسع عليهم في كل شيء حتى إذا ما سلب منهم وأخذهم بغتة وفجأة تكون الضربة قوية قاصمة ويصيبهم اليأس والحسرة .

وقديماً قلنا تعبيراً ريفياً هو : إن الإنسان إن أراد أن يوقع بآخر لا يوقعه من على حصيرة ، إنما يوقعه من مكان عال . وربنا يعطى للمنكرين الكثير ويمدهم في طغيانهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وقد دلت وقائع الحياة على هذا ، ورأينا أكثر من ظالم وجبار في الأرض والحق يملأ له في العلو ويمد له في هذه الأسباب ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، ولو بواسطة حارسه .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ

فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥٦﴾

(سورة الأعراف)

وقد يضبط الإنسان أشياء تعلمه بواقع الشر في مستقبله . مثلها مثل « الرادار » الذي يكشف لنا أى خطر في الأفق قبل أن يأتى ، وحين يقول سبحانه : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى ليس عندهم حساب ولا مقاييس تدلهم على أن شراً يحق بهم .

وأنت لو نظرت إلى هذه المسألة لوجدت الإنسان بعقله وفكره الذي لم يسلك فيه طريق الله بل سلك فيه السبيل غير الممنهج بمنهج الله ، وبينما لا يلتفت الإنسان إلى مجيء الكارثة ، ويتساءل : لماذا تجرى هذه الحيوانات ؟ ! إنه في هذه الحالة يكون أقل من الحيوانات ؛ لأن الحيوان من واقع الأحداث في بلد تحدث فيه الزلازل يكون أول خارج من منطقة الزلزال ، إن الله قد سلبه هذه المعرفة حتى تتمكن منه الضربة ، إننا نجد الحمار يجرى ليفادر مكان الزلزال ، بينما يظل الإنسان واقفاً حتى يحيق ويحيط به الخطر ، فأى إحساس وأى استشعار عند الحيوان ؟ إنه استشعار غريزي خلقه ربه فيه ؛ لأنه سلب منه التعمق فأعطاه حكمة الغرائز .

ومادام الحق قد نبه الإنسان بالبأساء فلم يلتفت ، وبالضراء فلم يتنبه إلى المنهج ؛ لذلك يأتي له الحق ويمد له بالطغيان .
لكن أهل الإيمان أمرهم يختلف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٦ ﴾

أى أنهم لو آمنوا بالموجود الأعلى ، واتقوا باتباع منهجه أمراً ونهياً تسلم آلائهم ، لأن الصانع من البشر حين يصنع آلة من الآلات ، يحدد ويبين الغاية من الآلة قبل أن يشكرها ، ويصمم لها أسلوب استخدام معين ، وقانون صيانة خاصا لتؤدي مهمتها ، فمابالنا بمن خلق الإنسان ، إذن فالإنسان إذا تركوا رب الإنسان يضع منهج صيانة الإنسان لعاش هذا الإنسان في كل خير ، وسبحانه وتعالى أوضح أنهم إن اتقوا ، ثأت لهم بركات من السماء والأرض ، فإن أردتها بركات مادية تجدها في المطر الذي ينزل من أعلى ، وبركات من الأرض مثل النبات ، وكذلك كنوزها التي تستنبط منها الكماليات المرادة في الحياة .

وما معنى البركة ؟ . البركة هي أن يعطى الموجود فوق ما يتطلبه حجمه ، كواحد مرتبه خمسون جنيتها وتجدد يعيش هو وأولاده في رضا وسعادة ، ودون ضيق ، فتساءل : كيف يعيش ؟ وبجيبك : إنها البركة . وللبركة تفسير كونى لأن الناس دائماً .. كما قلنا سابقاً - ينظرون في وارداتهم إلى رزق الإيجاب ، ويففلون رزق السلب . رزق الإيجاب أن يجعل سبحانه دخلك آلاف الجنيات ولكنك قد تحتاج إلى أضعافهم ، ورزق السلب يجعل دخلك مائة جنيه وسلب عنك مصارف كثيرة ، كان يمنحك العافية فلا تحتاج إلى أجر طبيب أو نفقة علاج .

إذن فقول : ﴿ بركات من السماء والأرض ﴾ أى أن يعطى الحق سبحانه وتعالى من القليل الكثير في الرزق الحلال ، ويمحق الكثير الذى جاء من الحرام كالربا ، ولذلك سمى المال الذى نخرجه عن المال الزائد عن الحاجة سماء زكاة مع أن الزكاة في ظاهرها نقص ، فحين تملك مائة جنيه وتخرج منها جنيهين ونصف الجنيه يكون قد نقص مالك في الظاهر . وإن أقرضت أحدا بالربا مائة جنيه فأنت تأخذها منه مائة وعشرة ، لكن الحق سمى النقص في الأولى نماء وزكاة ، وسمى الزيادة في الثانية محققاً وسحتاً ، وسبحانه قابض باسط .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

إذن فلو أخذ الإنسان قانون صيائه من خالفه لاستقامت له كل الأمور ، لكن الإنسان قد لا يفعل ذلك . ويقول الحق : ﴿ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

وهكذا نعلم أن الأخذ ليس عملية جيروت من الخالق ، وإنما هي عدالة منه سبحانه ، لأن الحق لو لم يؤاخذ المفسدين ، لماذا يقول غير المفسدين ؟ . يقول الواحد منهم : مادماً قد استوتينا والمفسدين ، وحالة المفسدين تسير على مايرام ، إذن فلأفسد أنا أيضاً . وذلك يغرى غير المفسد بأن يفسد ، ويعطى لنفسه راحتها وشهواتها ، لكن حين يأخذ الله المفسدين بما كانوا يكسبون ، يعلم غير المفسد أن سوء المصير للمفسد واضح ، فيحفظ نفسه من الزلل .

كان القياس أنه يقول سبحانه : بما كانوا يكتسبون ، لأن مسألة الحرام تتطلب انفعالات شتى ، وضربنا المثل من قبل بأن إنساناً يجلس مع زوجته ، وينظر إلى جمالها ويملاً عينيه منها ، لكن إن جلس مع أجنبية وأراد أن يغازلها ليتمتع بحسنها ، فهو ينافور ويتحایل ، وتنضارب ملكاته بين انفعالات شتى ، وهو يختلف في ذلك عن صاحب الحلال الذي تتناسق ملكاته وهو يستمتع بما أحل له الله ، ولكن هؤلاء المفسدون تدربوا على الفساد فصار دربة تقرب من الملكة فقال فيهم الحق : إنهم يكسبون الفساد ، ولا يجدون في ارتكابه عتاً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ
نَائِمُونَ ﴾ ٩٧ ﴿ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا
ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ٩٨ ﴿

ونلاحظ وجود « همزة استفهام » و « فاء تعقيب » في قوله الحق : ﴿ أفأمن ﴾ وهذا يعنى أن هناك معطوفاً ومعطوفاً عليه ، ثم دخل عليهما الاستفهام ، أى أنهم فعلوا وصنعوا من الكفر والعصيان فأخذناهم بغتة ، أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا وعذابنا بيانا أو ضحى كما صنع بمن كان قبلهم من الأمم السابقة ؟ هم إذن لم يتذكروا ما حدث للأمم السابقة من العذاب والدمار .

ويوضح الحق أن الذين كذبوا من أهل القرى ، هل استطاعوا تأمين أنفسهم فلا يأتيهم العذاب بغتة كما أتى قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ؟ والبأس هو الشدة التى يؤاخذ بها الحق سبحانه الأمم حين يعرفون عن منهجه . وما الذى جعلهم يأمنون على أنفسهم أن تنزل بهم أهوال كالتى نزلت بمن سبقهم من الأمم .

وحين يتكلم الحق عن الأحداث فهو يتكلم عما تتطلبه الأحداث من زمان

ومكان ، لأن كل حدث لابد له من زمن ولابد له من مكان ، ولا يوجد حدث بلا زمان ولا مكان ، والمكان هنا هو القرى التي يعيش فيها أهلها ، والزمان هو ما سوف يأتي فيه البأس ، وهو قد يأتي لهم بيّناً وهم نائمون ، أو يأتي لهم ضحى وهم يلعبون ، وهذه تعابير إلهية ، والإنسان إذا ما كان في مواجهة الشمس فالدنيا تكون بالنسبة له نهاراً . والمقابل له يكون الليل . وقد يجيء البأس على أهل قرية نهاراً ، أو ليلاً في أى وقت من دورة الزمن ، ونعلم أن كل لحظة من اللحظات للشمس تكون لمكان ما في الأرض شروقاً ، وتكون لمكان آخر غروباً ، وفي كل لحظة من اللحظات يبدأ يوم ويبدأ ليل ، إذن أنت لا تأمن يا صاحب النهار أن يأتي البأس ليلاً أو نهاراً ، وأنت يا صاحب الليل لا تأمن أن يكون البأس نهاراً أو ليلاً .

وأهل القرى هم الذين قال الله فيهم :

﴿ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأعراف)

وماداموا قد كذبوا فمعنى ذلك أنهم لم يؤمنوا برسول مبلغ عن الله ، وتبعاً لذلك لم يؤمنوا بمنهج يحدد قانون حركتهم بـ « افعل » و « لا تفعل » .

إذن فنهارهم هو حركة غير مجدبة ، وغير نافعة ، بل هي لعب في الحياة الدنيا ، وليلهم نوم وفقد للحركة ، أو عبث ومجون وانحراف ، وكل من يسير على غير منهج الله يقضى ليله نائماً أو لاهياً عاصياً ، ونهاره لاعباً ، لأن عمله مهما عظم ، ليس له مقابل في الآخرة من الجزاء الحسن .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ ﴾

إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٧﴾

و « الأمن » هو الاطمئنان إلى قضيه لا تثير مخاوف ولا متاعب ، ويقال: فلان

« آمَنَ » : أى لا يوجد ما يكدر حياته . والحق يقول : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ ونحن نسمع بعض الكلمات حين ينسبها الله لنفسه نستعظمها ، ونقول : وهل يمكن ربنا ؟ لأننا ننظر إلى المكر كعملية لا تليق . . وهنا نقول : انتبه إلى أن القرآن قد قال :

﴿ وَلَا يَحِثُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة طه)

إذن ففيه مكر خير ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة آل عمران)

والمكر أصله الالتفاف . وحين نذهب إلى حديقة أو غابة نجد الشجر ملفف الأغصان وكأنه مجدول بحيث لا تستطيع أن تنسب ورقة لى أعلى إلى غصن معين ، لأن الأغصان ملفوفة بعضها على بعض ، وكذلك نرى هذا الالتفاف لى النباتات المتسلقة ونجد أغصانها مجدولة كالجبل .

إذن فالمكر مؤداه أن تلف المسائل ، فلا تجعلها واضحة . ولكى تتمكن من خصمك فأنت تبني له أمراً لا يفطن إليه ، وإذا كان الإنسان من البشر حين يبني لأخيه شراً ، ويفتنه فتناً يعمى عليه وجه الحق وليس عند الإنسان العلم الواسع القوى الذى يمكر به على كل من أمامه من خصوم لأنهم سيمكرون له أيضاً .

وإذا كان هناك مكر وتبني لا يكتشفه أحد فهو مكر وتبني الله لأهل الشر ، وهذا هو مكر الخير ، لأن الله يحمي الوجود من الشر وأهله بإهلاكهم .

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

وهناك من يسأل : هل آمن الأنبياء مكر الله ؟ نقول نعم . لقد آمنوا مكر الله باصطفائهم للرسالة ، وهناك من يسأل : كيف إذن لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ؟

نقول : لقد جاء في منهج الرسل جميعاً أن الذي يأمن مكر الله هو الخاسر ؛ لأن الله هو القادر ، وهو الذي أنزل المنهج ليختار الإنسان به كسب الدنيا والآخرة إن عمل به ، وإن لم يعمل به يخسر طمأنينة الإيمان في الدنيا وإن كسب فيها مالا أوجاها أو علماً ، ويخسر الآخرة أيضاً .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ
أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

و « يهد » أى يبين للذين يرثون الأرض طريق الخير ، ومعنى « يرثون الأرض من بعد أهلها » أن الأرض كانت مملوكة لسواهم ، وهم جاءوا عقبهم . وحين يستقرىء الإنسان الوجود الحضارى فى الكون يجد أن كل حضارة جاءت على أنقاض حضارة ، وما فى يدك وملكت جاء على أنقاض ملك غيرك ، والذي يأتى على أنقاض الغير يسمى إرثاً ، وما دمتم قد رأيتم أنكم ورثتم عن غيركم كان يجب أن يظل فى بالكم أن غيركم سيرثكم .

إذن فالمسألة دؤلة ، ويجب ألا يغتر الإنسان بموقع أو منصب ، ونحن نرى فى حياتنا من يحتل منصباً كبيراً ، ثم يُقال ويعزل عن منصبه ، أو يحال إلى التقاعد ويأتى آخر من بعده . ولذلك يقال : لودامت لغيرك ما وصلت إليك . فإن كنت صاحب مكانة وقد أحسنت الدخول إلى وضعك وإلى جاهك ، وإلى منصبك ، فيجب أن تظن وتذكر الخروج قبل الدخول إلى هذا المنصب حتى لا يعز عليك فراقه يوماً .

واحذر أن تحسن الدخول فى أمر قبل أن تحاول أن تحسن الخروج

واستمع إلى قول الشاعر في هذا المعنى :

إن الأمير هو الذى يُسمى أميراً يوم عزله
إن زال سلطان الإمارة لم يزل سلطاناً فضله
وحين يقول الحق : ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض ﴾ .

نلاحظ أنه سبحانه لم يجعل المهديين هنا على وضع المفعول ، فلم يقل : أو لم يهد للذين ، بل قال : ﴿ يَهْدِ للذين ﴾ ، فما الحكمة فى ذلك ؟ . نعرف أن « الهداية » هى الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، وقد تعود فائدته عليك ، أى أنك قد هُديتَ غيرك لصالحك . وقد تكون الهداية وهى الدلالة على فعل الخير لأمر يعود على الذى هُدى وعلى المهْدَى معاً ، لكن إذا كانت الهداية لا تعود إلا لك أنت ، ولا تعود على من هداك ، أنك فى هدايته لك ؟ لا ، إن من حَقَّ أن تشك فى الهداية إذا كان هذا الأمر يعود على من هُدى ، أو يعود أمرها على الاثنين ، ففى ذلك شبهة لمصلحة ، لكن إذا كان الأمر لا يعود على من يَهْدَى ويعود كله لمن يَهْدَى فليس فى ذلك أدنى شك .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى حديثه القدسى :

« . . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسأله ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر » (١) .

إذن فحين يهديكم الحق إلى الصراط المستقيم فما الذى يعود عليه سبحانه من صفات الكمال بهذا العمل ؟ لقد خلقكم بصفات الكمال فيه ، فلن ينشئ خلقه

(١) رواه مسلم - واللفظ له - ورواه الترمذى .

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿٢٦٢﴾

لكم صفة من صفات الكمال زائدة على ما هو له ، وهكذا ترى أن كل هداية راجعة إلى المَهْدِيِّ . وبذلك يتأكد قوله : ﴿ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ ﴾ ما هو مصلحتهم .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَعْلَاهَا أَنْ لَوِ شَاءَ أُصْبِتَنَّهُمْ يَذُنُّوهُمْ وَيَنْطَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن المشيئة يقول : ﴿ لَوْ شَاءَ ﴾ ويحدد أسباب المشيئة وهو قوله : ﴿ أَصْبَاغُهُمْ يَذُنُّوهُمْ ﴾ ، وهكذا نعلم أن المشيئة ليست مشيئة ربنا فقط لا ، بل هي أيضاً مشيئة العباد الذين ميزهم بالاختيار ، وسبحانه يقول :

﴿ أَنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الرعد)

وما الذي يمنعه سبحانه أن يشاء هداية الناس جميعاً ؟ لا أحد يمنع الخالق ، ولكنه سبحانه خلق خلقاً مهديين بطبيعتهم ، لا قدرة لهم على المعصية وهم الملائكة ، وجعل سائر أجناس الأرض مسخرة مسبحة ، وذلك يثبت صفة القدرة ، فلا يستطيع أحد أن يخرج عن مراد الله ، ولكن هذا لا يعطى صفة المحبوبة للمشروع الأعلى ، ثم إنه - سبحانه - خلق خلقاً لهم اختيار في أن يطيعوا وأن يعصوا .

فالمخلوق الذي اختصه سبحانه بقدرة الاختيار في أن يؤمن وأن يكفر ، وأن يطيع وأن يعصى ، ثم آمن يكون إيمانه دليلاً على إثبات صفات المحبوبة للإله .

إذن المقهورون على الفعل أثبتوا القدرة ، والمختارون الفعل أثبتوا المحبوبة للمشروع الأعلى ، ويتابع سبحانه في الآية نفسها :

﴿ أَنْ لَوْ شَاءَ أُصْبِتَنَّهُمْ يَذُنُّوهُمْ وَيَنْطَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة الأعراف)

ونلاحظ أن الحق لم يقل أن لو نشاء أصبناهم لذنوبهم وذلك رحمة منه ، بل جعل العقاب بالذنوب التي يختارونها هم ، وكذلك جعل الطبع على القلوب نتيجة للاختيار . وسبق أن تكلمنا في أول سورة البقرة . عن كلمة « الطبع » وهو الختم :

﴿ نَخَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة البقرة)

لأن القلوب وعاء اليقين الإيماني ، فحين يملأ إنسان وعاء اليقين بالكفر ، فهذا يعني أنه عشق الكفر وجعله عقيدة عنده ؛ لذلك يساعده الله على مراده ، وكأنه يقول له : أنا سأكون على مرادك ، ولذلك أطبع على قلبك فلا يخرج ما فيه من الكفر ، ولا يدخل فيه ما خرج منه من الإيمان الفطري الذي خلق الله الناس عليه . لأنك أنت قد سبقت ووضعت في قلبك قضية يقينية على غير إيمان ؛ لأن أصول الإيمان أن تُخرج ما في قلبك من أي اعتقاد ، ثم تستقبل الإيمان بالله ، ولكنك تستقبل الكفر وترجحه على الإيمان .

إن الله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه : قلب يؤمن ، وقلب لا يؤمن ، بل جعل للإنسان قلباً واحداً ، والقلب الواحد حيز ، والحيز - كما قلنا - لا تداخل للمحيز فيه ؛ فحين تأتي بزجاجة فارغة ونقول: إنها « فارغة » فالذي يدل على كذب هذه الكلمة أننا حين نضع فيها المياه تخرج منها فقائيع الهواء ، وخروج فقائيع الهواء هو الذي يسمح بدخول المياه فيها ؛ لأن الزجاجة ليست فارغة ، بل يخيل لنا ذلك ؛ لأن الهواء غير مرئي لنا . ولو كانت الزجاجة مفرغة من الهواء دون إعداد دقيق في صناعتها لتلك المهمة لكان من الحتمي أن تنكسر . والقلب كذلك له حيز إن دخل فيه الإيمان بالله لا يسع الكفر ، وإن دخل فيه الكفر - والعباد بالله لا يسع الإيمان ، والعاقِل هو من يطرح القضيتين خارج القلب ، ثم يدرس هذه ويدرس تلك ، وما يراه مقبداً لحياته ولآخرته يسمع له بالدخول . أما أن تناقش قضية الإيمان بيقين قلبي بالكفر فهذه عملية لا تؤدي إلى نتيجة .

﴿ أُولَٰئِكَ يَهْدِي اللَّهُ لَلَّذِينَ يَرْثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَّعُ

عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٩﴾

(سورة الأعراف)

أى أو لم يتبين للذين يُستخلفون فى الأرض من بعد إهلاك الذين سبقوهم بما فعلوا من المعاصى والكفر فسار هؤلاء القوم سيرة من سبقهم وعملوا أعمالهم وعصوا ربهم أن لو نشاء فعلنا بهم من العذاب كما فعلنا بمن قبلهم وقوله : ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ أى السماع المؤدى إلى الاعتبار والاتعاظ فكأنهم لم يسمعوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

هذا هو المراد فى سرد القصص بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أوضحه الحق فى موضع آخر من القرآن فقال :

﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة مود)

فإذا ما حدث لك من أمتك وقومك شيء من العناد والإصرار والمكابرة فاعلم أنك لست بدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول قد قابلته هذه الموجة الإلحادية من القوم الذين خاطبهم . وإذا كان كل رسول يأخذ حظه من البلاء بقدر ما فى رسالته من العلو فلا بد أن تأخذ أنت ابتلاءات تساوى ابتلاءات الرسل جميعاً .

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَبْلُ كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾

بِمَا كَذَبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١١١﴾

(سورة الأعراف)

والطبع - كما قلنا - هو الختم ، لأن قلوبهم ممتلئة بالضلال ، لذلك يعلنون التكذيب للرسول . وقد طبع الله على قلوبهم لا فهراً منه ، ولكن لاستيطان الكفر وإخفائه في قلوبهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِن عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ ﴿١١٢﴾

وهؤلاء الذين كذبوا الرسل ، ورددوا منهج الله الذي أرسله على ألسنة رسله . كانت لهم عهود كثيرة . فما وفوا بعهد منها ، مثال ذلك : العهد الجامع لكل الخلق ، وهو العهد الذي أخذه الله على ذرية آدم من صلبه حين مسح الله على ظهر آدم ، وأخرج ذريته وقال :

﴿ أَأَنْتُمْ يَرِيبُكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وقد يقف العقل في أخذ مثل هذا العهد على الذرية الموجودة في آدم ، لذلك نقول : إذا قال الله فقد صدق عقلاً ذلك أو لم نعقله ، إنك لو نظرت إلى « آحاد البشر » ، أي إلى الأفراد الموجودين ، تجد نفسك وغيرك يجد نفسه نسلاً لأبائكم ، وهذا يدل على أن الإنسان وجد من حيوان منوى حتى انتقل إلى بويضة حيّة من أمه فنشأ هذا الإنسان . ولو طرأ على الحيوان المنوى موت ، أو طرأ على البويضة موت امتنع الإنسال .

إذن فكل إنسان منا جزء من حياة أبيه ، وأبوه جزء من حياة والده ، ووالده جزء

من حياة أبيه ، وإن سلسلت ذلك فسنصل لآدم ، فكل واحد من ذرية آدم إلى أن تقوم الساعة فيه جزىء حتى من آدم . ومادام فيه جزىء حتى من آدم فقد شهد الخلق الأول ، ولذلك حين يسألهم الله سؤال التقرير ويقول : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ؟ فيقولون : ﴿ بلى ﴾ .

وضربنا المثل لتقريب وقلنا إن الذرة الشائعة في شيء ، تشيع في أضعاف الشيء ، وسبق أن قلنا : إننا إذا جثنا بمادة ملونة حمراء - مثلاً - في حجم ستمتر مكعب ، ثم أذبناها في فارورة ، وبذلك يصبح كل جزء في الفارورة فيه جزء من المادة الملونة ، وإن أخذت الفارورة وألقيتها في برميل واسع ، هنا تصير كل قطرة من البرميل فيها جزىء من المادة الحمراء ، وإن أخذت ماء البرميل وألقيت في البحر فكل ذرة في البحر الواسع يصير فيها جزىء من المادة الملونة ، وهكذا يقرب من ذهن كل منا أن في كل إنسان جزئاً من آدم ، وقد شهد هذا الجزىء العهد الأول . ولفائل أن يسأل : كيف يخاطب الله الذر الذي كان موجوداً في ظهر آدم ؟ . نقول : كما يخاطب الأرض ويخاطب السماء ، فها الفائل :

﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا

أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾

(سورة فصلت)

إذن فعدم إدراكنا لكيفية الخطاب بين رب ومربوب ، لا يقدر في أن هذه المسألة لها أصل ولها وجود .

وهذا بالنسبة للعهد الأول ، ويعدّه العهد الثاني الذي أخذه الله على رسله ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي

قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَوَاشَهُدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٢﴾

(سورة آل عمران)

ثم هناك عهود خاصة أنشأتها الأحداث الخاصة ، مثلما يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَخَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾
(سورة يونس)

إنهم لا يسلمون أنفسهم للعطب ، ولا يفترون بجاههم وبالأسباب التي عندهم لأنها قد امتنعت ، ولذلك لا يغشون أنفسهم بل يلجأون صاغرين إلى الله قائلين :

﴿لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

هكذا نرى أنهم أعطوا العهد في حادثة ، فلما أنجاهم الله أعرضوا ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسٍّ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فالعهد إما أن يكون عهداً عاماً وإما أن يكون عهداً خاصاً .

والحق يقول : ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ .

أى أن حال وشأن أكثرهم ظل على الفسق ونقض العهد والخروج عنه ؛ لأن العهد إطار يحكم حركة المختار فيما أعطاه على نفسه من المواثيق ، وهو حر فى أن يفعل أو لا يفعل ، لكنه إذا عاهد أن يفعل أصبح ملزماً ووجب عليه أن ينفذ العهد باختياره ، لأنه إذا قطع العهد على نفسه فعليه أن يحكم حركته فى إطار هذا العهد ، فإن خرج بحركته عن إطار هذا العهد فهذا هو الفسق ، والأصل فى الفسق

أنه خروج الرطبة من القشرة لأن القشرة تصنع سياجاً على الثمرة بحيث لا تدخل إلى الثمرة شيئاً مفسداً من الخارج ، ويقال: فسقت الرطبة أي خرجت عن قشرتها .
كان ربنا جعل التكليف تغليفاً لحماية للإنسان من العطب ، فإذا ما خرج عن الدين مثل خروج الرطبة عن الغطاء والقشرة صار عرضة للتلوث والميكروبات ، فسمى الله الخارج على منهجه بالفاسق ، لأنه خرج عن الإطار الذي جعله الله له ليحميه من المفسد ، ومن العطب الذي يقع عليه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِكَةٍ قَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ
الْمُفْسِدِينَ ﴿١٢٣﴾

وبعد أن تكلم الحق عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما دار بينهم وبين أقوامهم ، وكيف أهلك سبحانه المكذبين وأنجى المؤمنين ، أراد أن يأتي بتاريخ رسول من أولى العزم من الرسل ، أي من الذين تعرضوا في رسالاتهم لأشياء لا يتحملها إلا جلد قوي . واطن أنكم تعلمون أن علاج موسى لليهود أخذ قسطاً وافراً في القرآن ، بل إن قصة موسى مع قومه هي أطول قصص القرآن ، لأن انحرافاتهم ونزواتهم وتمردهم على أنبيائهم كانت كثيرة ، وكان أنبيائهم كثيرين ، ولذلك فهم يفتخرون بأنهم كثيرو الأنبياء ، وقالوا : نحن أكثر الأمم أنبياء . وقلنا لهم : إن كثرة أنبيائكم تدل على تآصل دائعكم ، لأن الأطباء لا يكثررون إلا حين يصبح علاج المريض أمراً شاقاً . إذن فكثرة أنبيائكم ، دليل على أن رسولا واحداً لا يكفيكم ، بل لابد من أنبياء كثيرين .

وقوله الحق : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾ .

وكلمة «بعث» - كما نفهمها - توحى وتشير إلى أنه سبحانه قد أرسل موسى رسولاً إلى فرعون ، واختيرت كلمة «بعث» للرسالات لأن البعث يقتضى أن شيئاً

كان موجوداً ثم انظمر ثم بعث الحق من جديد ، والإيمان يتمثل في عهد لفطرة الأول الذي كان من آدم ؛ لأن الله خلقه بيديه خلقاً مباشراً وكلفه تكليفاً مباشراً ، فنقل آدم الصورة للذرية ، وهذه الصورة الأصلية هي التي تضم حقائق الإيمان التي كانت لآدم ، وحين يبعث الله رسولاً جديداً ، فهو لا ينشئ عقيدة جديدة ، بل يحيي ما كان موجوداً وانظمر ، وحين يطعم الفساد يبعث الله الرسول ، فكان الحق سبحانه وتعالى حينما كلف آدم التكليف الأول طلب منه أن ينقل هذا التكليف إلى ذريته ، ولو أن الإنسان أخذ تكاليف الدين كما أخذ مقومات الحياة ممن سبقه لظل الإيمان مسألة رتيبة في البشر .

إننا نأخذ الأشياء التي أورثها لنا أجدادنا وتنفعنا في أمور الدنيا نحفظ بها ونحرص عليها ، فلماذا لم نأخذ الدين منهم ؟ لأن الدين يحجر على حرية الحركة ويضعها في إطارها الصحيح . والإنسان يريد أن ينفلت من قييد حرية الحركة ، وحين يقول ربنا مرة إنه : « أرسل » الرسل ، ومرة أخرى إنه قد بعثهم ، فهذا يدل على أنه لم يحيي بشيء جديد ، ولكنه جاء بشيء كان المفروض أن يظل فيكم كما ظلت فيكم الأشياء التي ورثها لكم أسلافكم وتتفعون بها ، مثال ذلك : نحن نتفع برغيف الخبز ونتفع بخياطة الإبرة فلماذا انتفعنا بهذه الأشياء المادية ونسينا الأشياء المنهجية ؟ لأن الأشياء المادية قد تعين الإنسان على شهواته ، أما قيم الدين فهي تحارب الشهوات .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأنعام)

والآيات - كما نعلم - جمع آية ، وهي الأمر العجيب الذي يقف العقل عنده مشدوهاً . وتطلق الآيات ثلاث إطلاقات ، فهي تطلق على الآيات القرآنية لأنها عجيبة أسلوبياً معبرة عن كل كمال يوجد في الوجود إلى أن تقوم الساعة ، وكل قارئ لها يأخذ منها على قدر ذهنه وقدر فهمه . والآيات الكونية موجودة في خلق الأرض والسماء وغير ذلك ، وكذلك تطلق الآيات على المعجزات الدالة على صدق الأنبياء . والبعث يقتضي مبعوثاً وهو موسى ، ويقتضي باعثاً وهو الله ، ومبعوثاً إليهم . وهم قوم فرعون ، ومبعوثاً به وهو المنهج .

راجع أصله وخرج أحاديث الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والآيات التي بعث الله بها موسى هي أدلة صدق النبوة ، وهي أيضاً الكلمات المعبرة عن المنهج ليُشاهدوا ويسمع لها فرعون وملؤه ، والعلل - كما عرفنا من قبل - هم القوم الذين يملأون العيون هيبة ، فلا يقال للناس الذين لا يلتفت إليهم أحد إنهم ملأ ، أو هم الأناس الذين يملأون صدور المجالس ، أي الأشراف والسادة . ولماذا حدد الحق هنا أن موسى قد بعث لفرعون وملئه فقط ؟ لأن الباقين من أتباعهم تكون هدايتهم سهلة إن اهتدى الكبار ، والغالب والمعدة أن الذي يقف أمام منهج الخير هم المتفعمون بالشر ، وهم القادة أو من حولهم ، ولا يرغبون في منهج الخير لأنه يصادم أغراضهم ، وأهواءهم ، ولذلك يحاربونه ، أما بقية العامة فهم المغلوبون على أمرهم ، وساعة يرون أن واحداً قد جاء ووقف في وجه الذين عضوهم بمظالمهم وعضوهم بظفائهم ، تصبح قلوبهم مع هذا المنقذ !

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأعراف)

وإن كانت الآيات هي الكلمات المؤدية للمنهج الموجودة في التوراة ، أو كانت الآيات هي المعجزات التي تدل على صدق موسى فقد كان ذلك يقتضى إيمانهم . ونعلم أن القرآن قد عدد الآيات المعجزات التي أرسلها الحق مع موسى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ نَجْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة الإسراء)

ومن هذه الآيات العصا ، واليد يدخلها في الجيب أو تحت جناحه وإبطه وتخرج بيضاء من غير سوء أو علة ، وأخذ آل فرعون بالسنين ، وكلمة « سنين » تأتي للجذب الشديد الذي يستمر لفترة من الزمن بحيث يلتفت الناس إلى حديث في زمان ، ولذلك نقول : كانت سنة عصيبة ؛ لأن السنة عضة من الأحداث ، تهدم ترف الحياة ، ثم تأتي لهم بما يهدم مقومات الحياة ، وأولها الطعام والشراب فيبصيههم بنقص الثمرات ، وهو الجذب والقحط ، وسمى الجذب سنة ، وجمعه سنين ، لأنه شيء يؤرخ به ، فماذا كان استقبال فرعون وملئه للآيات التي مع موسى عليه السلام ؟ يقول الحق : ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ .

وهل كانت الآيات أداة للظلم أو ظلموا بسببها لأنهم رفضوها كمنهج حياتي ؟ .

نقد ظلموا بها لأنهم رفضوا اتباع المنهج الحق ، وظلوا على فسادهم ، والمفسدون - كما تعلم - هم الذين يعمدون إلى الصالح في ذاته فيفسدونه ، برغم أن المطلوب من الإنسان أن يستقبل الوجود استقبال من يرى أن هناك أشياء فوق اختياراته ومراداته ، وأشياء باختياره ومراداته ، فإذا نظر الإنسان في الأشياء التي بها مقومات الحياة ، مما لا يدخل في اختياره يجدها على منتهى الاستقامة .

إننا نجد الإنسان لا يتحكم في حركة الشمس أو حركة القمر ، أو النجوم أو الريح أو المطر ، فهذه الكائنات مستقيمة كما يريد الله ، ولا يأتي الفساد إلا في الأمر الذي للإنسان مدخل فيه ، والناس لا تشكو من أزمة هواء - على سبيل المثال - لأنه لا دخل في حركة الهواء لأحد ، لكنهم شكوا من أزمة طعام لأن للبشر فيه دخلاً ، ونجد شكواهم من أزمة المياه أقل ، لأن مدخل الإنسان على الماء قليل .

إنه سبحانه وتعالى يجعل الأمر الذي يدير حركتك الوقودية لك فيه بعض من الدخل ، فيجمل من جسمك - على سبيل المثال - مخزناً للدهون ليعطيك لحظة الجوع ما كثرته فيه من طاقة . ومن العجيب أن الدهون هذه هي مادة واحدة وساعة نحتاج إلى التغذية منها تتحول المادة الواحدة إلى المواد الأخرى التي نحتاج إليها .

نحتاج مثلاً إلى زلال ، فيتحول الدهن إلى زلال ، نحتاج إلى كربون ، يعطى لك الدهن الكربون ، نحتاج إلى فوسفور يعطيك فوسفوراً ، نحتاج إلى مغنسيوم يعطيك الدهن المغنسيوم ، وهكذا فإذا كنا نصبر على الطعام بقدر المخزون في أجسامنا ، ونصبر على الماء أيضاً بقدر السخزون في هذه الأجساد ، فنحن لا نصبر على الهواء لأن التنفس شبيهق وزفير ، ولو أن إنساناً ملك الهواء يعطيك إياه لحظة الرضا ، ويمنعه عنك لحظة الغضب ، لمت قبل أن يرضى عنك ، لكن إن منع عنك الماء فترة فقد يحن قلب عدوك أو يأتي لك أحد بالماء أو قد تسمى أنت بحيلة ما لتصل إليه .

إذن فالأمر الذي لا دخل للإنسان فيه نجده على منتهى الاستقامة ، ولا يأتي

الفساد إلا من الأمر الذي للإنسان فيه دخل .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى بِآيَاتِنَا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

(سورة الأعراف)

أى أن آخر الأمر ميعاقب الله المفسدين .
وأراد سبحانه أن يذكّر سلسلة القصة لا من بدء سلسلتها ، بل يبدأ من نهايتها ، فسبحانه لا يدرس لنا التاريخ ، ولكن يضع أمامنا العظة ، واللحظة التى يريدنا فى هذا السياق ، ولذلك لم يتكلم سبحانه فى هذه السورة عن ميلاد موسى وكيف أوحى لأمه أن تلقى فى البحر ، ولم ترد حادثة ذهابه إلى مدين ومقابلته لسيدنا شعيب ، لكنه هنا يتكلم سبحانه عن مهمة سيدنا موسى مع فرعون .

ويقول سبحانه :

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُكْفِّرُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

ويشرح لنا القرآن أمر بلاغ موسى لفرعون وقومه بأن الله واحد أحد وهو رب العالمين ، وكان قوم فرعون يعتقدون بوجود إله للسماء وآخر للأرض ، لذلك يبلغهم موسى بأن الإله واحد :

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

(سورة الشعراء)

ونجد موسى يعدد كلمة الربوبية فى آيات أخرى ؛ ليأتى بالمظهر الذى دُسّت فيه دسيسة الربوبية لفرعون ، وكانوا يعتقدون أن للسماء إلهاً ، وللأرض إلهاً آخر ، فقال موسى : إننى أتكلم عن الإله الواحد الذى هو رب السماء والأرض معاً فلا إله إلا الله وحده . وكانوا يعتقدون أن للشرق إلهاً ، وللغرب إلهاً ، فأبلغهم موسى بأنه

إله واحد ، وكانوا يعتقدون أن للأحياء إلهاً ورباً ، وللأموات إلهاً ورباً ، فقال لهم موسى :

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾

(سورة الشعراء)

ويبلغ هنا موسى فرعون وقومه :

﴿ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأعراف)

وما دام موسى رسولا من رب العالمين ، فهو لا يقول إلا الحق ، لذلك يتابع الحق على لسان موسى :

﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ

جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَقِيَّةَ

إِسْرَائِيلَ ﴿ ١٠٥ ﴾

فأى هذه الأمور هو الذى يحتاج إلى بينة ، هل البلاغ بأنه رسول من رب العالمين ؟ إن هذا القول يدلنا على أن موسى اختلف مع فرعون أولاً فى أن موسى رسول ، وأن للعالمين رباً واحداً ، وأنه لا يبلغ إلا بالحق ، هذه - إذن - ثلاث قضايا خلافة بين موسى وفرعون . ولكن فرعون لم يختلف مع موسى إلا فى قضية واحدة هى : هل هو رسول مبلغ عن الله بالقول الحق ؟ لماذا طلب منه ؟ طلب الدليل على أنه رسول من رب العالمين . وهذا يوضح أن فرعون يعلم أن العالم له رب أعلى .

كذلك فإن فرعون لم يقف مع موسى فى مسألة أن للعالمين رباً ، وأن هذا الرب

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿ ٤٢٧٥ ﴾

لا يستطيع كل إنسان أن يفهم مراده منه فلا بد أن يرسل رسولاً ، بل وقف فرعون في مسألة : هل موسى رسول مبلّغ عن الله أو لا ؟

ولذلك يقول موسى :

﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعِيَ

بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

كان مهمة موسى عند فرعون أن يخلص بني إسرائيل . ونعرف أن قصة بني إسرائيل ناشئة من أيام نبي الله يعقوب وابنه يوسف حين كاد الإخوة لأخيهم يوسف ، وتشاوروا في أمر قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه في غيابة لجب ، لقد جاء الحق بقصة بني إسرائيل على مراحل لتتدرج بالانفعال معها . لمرحلة الانفعال النفسي أمام من تكره تأخذ صورتين اثنتين : صورة تدل على تصعيد الرحمة في قلبك ، وصورة تدل على تصعيد الشر في قلبك ، مثال ذلك : لنفترض أن لك خصماً وصنع فيك مكيذة ، وتحكى أنت لإخوانك ما فعله هذا الخصم ، وكيف أنك تريد الانتقام منه فنقول : أريد أن انتقم منه بضربه صفعتين ، ثم تصعد الشر فنقول : أنا أريد أن أقتله بالرصاص ، هذا شأن الشرير ، أما الخير فيقول : أنا لا أريد أن أقتله أو أصفعه أو أشتبه وأسبه فهذا تصعيد في الخير . إذن . يختلف تصعيد الانتقام أو السماح حسب طاقة الخير أو الشر التي في النفس . وهكذا نجد إخوة يوسف وهم يكيّدون له ، فقالوا :

﴿ لِيُؤْسَفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْكَ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

هم يعترفون أنهم قوة وعصبة ، ويحسدون يوسف وأخاه على محبة الأب لهما ، ويعترضون على ذلك ، ويظهرون البينة على أن يوسف وأخاه أحب إلى الأب منهم ، وذكر القرآن هذه البينة لنعرف أهميتها ، حتى لا يغفل أحد عنها . لقد كان قلب تبي الله يعقوب مع يوسف وأخيه لصغرهما وضعفهما ، بينما بقية أبنائه كبار أقرباء أشداء ؛ لأن الله سبحانه وتعالى وضع في قلب الأبوة والأمومة من الرحمة على قدر ضعف الوليد الصغير . فالصغير هو من يحتاج إلى رعاية وعناية ، ويكون

قلب الأم والأب مع الابن المريض أو الغائب . ولذلك حينما سئلت امرأة حكيمة : من أحب بشيك إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى .

إذن فقول إخوة يوسف : ﴿ ونحن عصابة ﴾ . هو بيئة ضدهم . وكان المنطق يقتضى أن يعرفوا أنهم ماداموا عصابة فلا بد أن يكون قلب أبيهم مع يوسف وأخيه فكلاهما كان صغيراً ويحتاج إلى رعاية ، وبطبيعة تكوين أبناء يعقوب كأسياس وذريرة أنبياء ، نجدهم يصعدون الخير لا الشر ، فقد بدأوا بإعلان رغبة القتل ، ثم استبدلوا بها الطرح أرضاً بأن يلقوه فى أرض بعيدة نائية ليستريحوا منه ويخلو لهم وجه أبيهم ، ثم استبدلوا بها إلقاءه فى غياهب الجب ؛ بدأوا بالقتل فى لحظة عنفوان الغضب ثم تنازلوا عن القتل بالطرح أرضاً ، أى أن يتركوه فى مكان يكون فيه عرضة لأن يضل ، ثم تنازلوا عن ذلك واكتفوا بإلقاءه فى غياهب الجب يلتقطه بعض السيارة ، فهل كانوا يريدون أن يضرروه ، أو كانوا يفكرون فى نجاته ؟ . إذن فهذا تصعيد للخير .

وتوالى الأحداث مع سيدنا يوسف واستقر معه بنو إسرائيل فى مصر وكثرت أعدادهم . وعندما نستقرىء التاريخ ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن ملوك مصر ، خص بعضهم باسم فرعون ، وخص بعضهم باسم ملك ، فهناك فرعون وهناك ملك .

فإذا ما نظرت إلى القديم نجد أن الحق يقول :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾

(سورة الفجر)

هكذا نجد الحق يسمى حاكم مصر « فرعون » وفى أيام سيدنا موسى أيضاً يسميه الحق فرعون . لكن فى أيام يوسف عليه السلام لم يسمه فرعون ، بل سماه ملكاً :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهَ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة يوسف)

وبعد أن اكتشف العالم الفرنسى شامليون - حبر وشيد - عرفنا أن الفترة التى دخل فيها سيدنا يوسف مصر ، لم يكن الفراعنة هم الذين يحكمون مصر ، بل كان الحكام هم ملوك الهكسوس الرعاة ، وطمر القرآن هذه الحقيقة التاريخية حين سمى حكام مصر قبل يوسف فراعين ، وفى الفترة التى جاء فيها سيدنا يوسف سماهم « الملوك » ، وهؤلاء هم من أغاروا على مصر وحكموها وساعدتهم بنو إسرائيل وخدموهم ، وقاموا على مصالحهم ، وبعد أن طرد المصريون الهكسوس التفت الفراعنة بالشر إلى من أعان الهكسوس ، فبدأوا فى استدلال بنى إسرائيل لمساعدتهم الهكسوس إبان حكمهم مصر . وأراد الله أن يخلصهم بواسطة موسى عليه السلام ، ولذلك يقول الحق على لسان موسى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤١﴾ حَقِّقْ عَلَيَّ أَن لَّا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

كأن موسى يريد أن يخلص بنى إسرائيل ، أما مسألة الألوهية وريوية فرعون فقد جاءت عرضاً .

ويقول فرعون :

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

وهكذا يواجه فرعون موسى سائلاً إياه أن يُظهر الآية إن كان من الصادقين ، إذن فرعون يعتقد أن لله آيات تثبت صلق الرسول بدليل أنه قال له : هاتها إن كنت من الصادقين .

ويكشف موسى عليه السلام الآية :

﴿ قَالَتْ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ (١٠٧)

وهذا الإلقاء كان له سابق تجربة أخرى حينما خرج مع أهله من مدين ورأى ناراً
وبعد ذلك قال لأهله :

﴿ ائْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة طه)

ثم سمع خطاباً :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْبُتُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي
وَلِي فِيهَا مَقَارِبُ أُخْرَى ﴾ (١٨)

(سورة طه)

وحين يقال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ ، كان يكفي أن يقول في
الجواب : عصاي ، ولا داعي أن يقول : « هي » ولا داعي أن يشرح ويقول : إنه
يتوكأ عليها وأن له فيها مآرب أخرى ؛ لأن الحق لم يسأله ماذا تفعل بعصاك ، إذن
فجواب موسى قد جاوز في الخطاب قدر المطلوب ، ويظن البعض أنه كان من
الواجب أن يعطى الجواب على قدر السؤال . لكن من يقول ذلك ينسى أنه
لا يوجد من يزهد في الانس بخطاب الله . وحين قال موسى عليه السلام :

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْبُتُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

ولقد شعر موسى عليه السلام واستدرك هيئة المخاطب فكان نهافته على
الخطاب حباً لأنسه في الله ، لكنه حين شعر أنه قارب أن يتجاوز قال : ﴿ وَلِي فِيهَا
مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ كان من الممكن أن يقول استعمالات كثيرة للعصا . إذن فللعصا
أكثر من إلقاء ، إلقاء الدربة والتمرير على لقاء فرعون حين أمره الحق :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ (٢٠)

(سورة طه)

فماذا حدث ؟ قال له الله :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْزَنْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ۝١٦ ﴾

(سورة طه)

فساعة خاف ، دل على أن ما حدث للعصا ليس من قبيل السحر ؛ لأن الساحر حين يلقي عصاه أو حبله يرى ذلك عصا أو حبلًا ، بينما يرى ذلك غيره حية ، ولذلك يقول الحق عن السحرة :

﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أن حقيقة الشيء في السحر تظل كما هي في نظر الساحر ، لكن موسى أوجس في نفسه خيفة ، فهذا يدل على أن العصا انتقلت من طبيعتها الخشبية وصارت حية .

وكان من الممكن أن تورق العصا وتخضر على الرغم من أنها كانت غصناً بابساً . ولو حدث ذلك فسيكون معجزة أيضاً ، ولكن نقلها الله نقلتين : نقلها من الجمادية ، وتعدى بها مرحلة النباتية إلى مرحلة الحيوانية .

وكان الحق العليم أزلاً يرد على من أراد النخط في مسألة إلقاء العصا ، وقد ظن بعض الجاهلين أن ذلك تكرار في الكلام في قصة واحدة . ولم يلحظوا أن جهة الإلقاء للعصا كانت منفكة ، ففي القرآن ثلاثة إلقاءات للعصا : إلقاء التدريب حينما اصطفى الله موسى رسولاً وأعلمه بذلك في طور سيناء :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

وبعد ذلك قال له :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِرِمْسِكَ بِمُوسَى ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾

(سورة طه)

والقاء التدريب على المهمة هدفه طمأنة موسى ، حتى إذا ما باشرها أمام فرعون باشرها وهو علي يقين أن العصا ستسجيب له فتقلب حية بمجرد إلفائها ، ولو أن الله قال له خبراً : إذا ذهبت إلى فرعون فالتق العصا فتقلب حية ، فقد لا يطمئن قلبه إلى هذا الأمر . فأراد الله أن يدرجه عليها تدريباً واقعياً ، ليعلم أن العصا ستسجيب له حين يلقيها فتقلب حية ، وكان ذلك أول إلقاء لها ، أما الإلقاء الثاني فكان ساعة أن جاء لفرعون للإعلام بمهمته أنه رسول رب العالمين ، وإعلامه بالبيئة ، وهو ما نحن بصدد الآن في هذه الآية التي نتكلم بعنواطينا الإيمانية فيها .

ثم هناك إلقاء ثالث وهو إلقاء التحدى للسحرة ، ولأن لكل إلقاء موقعاً فلا تقل أبداً أن ذلك تكرار . وإنما هو تأسيس لتعدد المواقف والملابسات ، فلكل موقف ما يتطلبه ، فلا تغنى لفظة هنا عن لفظة هناك .

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (١٧)

(سورة الأعراف)

ومرة يقول عن العصا : ﴿ كَانَهَا جَانٌ ﴾ .

ويقول المشككون في كلام الله من المستشرقين : كيف يقول مرة إنها ثعبان مبين . ثم مرة أخرى يقول : ﴿ فَإِذَا هِيَ حِيَّةٌ تَسْعَى ﴾ ، ومرة ثالثة يقول : ﴿ كَانَهَا جَانٌ ﴾ . ونقول : إن هناك فارقاً بين مختلفات تتناقض ، ومختلفات تتكامل ، فهي ثعبان مرة ، وهي حية مرة ثانية ، وهي جان ، لأن الثعبان هو الطويل الخفيف الحركة ، والحية هي الكتلة المخيفة بشكلها وهي متجمعة ، والجان هو الحية المرعبة الشكل . فكانها تمثلت في كل مرة بمثال يرعب من يراه ، وكل مرة لها شكل : فهي مرة ثعبان ، ومرة حية ، وثالثة جان ، أو تكون ثعباناً عند من يخيفه الثعبان ، وتكون حية عند من تخيفه الحية ، وتكون جاناً عند من يخيفه الجان ، ولذلك تجد أن إشاعة الإبهام هو عين البيان للمبهم .

ومثال ذلك إبهام الحق لأمر الموت ، فلا يحكمه سن ، ولا يحكمه سبب ، ولا يحكمه زمان ، وفي هذا إبهام لزمانه وإبهام لسببه مما يجعله بياناً شائعاً تستقبله

بأى سبب فى أى زمان أو فى أى مكان، وهكذا باتى الإبهام هنا لكى يعطينا الصور المتكاملة ، وقال بعض المستشرقين : إن المسلمين يستقبلون القرآن بالرهبة وبالانبهار . ولا يحركون عقولهم لكى يروا المتناقضات فيه ، لكن غير المسلم إن قرأ القرآن يتبين فيه أشياء مختلفة كثيرة ، قالوا بالنص : « أنتم تعلمون بقضايا اللغة أن التشبيه إنما يأتى لتلحق مجهولاً بمعلوم » ، فيقال : أنت تعرف فلاناً ، فنقول : لا والله لا أعرفه . فيقول لك : هو شكل فلان ، فى الطول ، وفى العرض ، وفى الشكل ، إذن فقد ألحق مجهولاً بمعلوم ليوضحه . فكيف يلحق القرآن مجهولاً بمجهول ، إن هذا لا يعطى صورة مثلما تكلم القرآن عن شجرة الزقوم فقال :

﴿ إِنَّمَا شَجَرَةُ زُقْرٍ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ طَلْمَهَا كَأَنَّ رُءُوسَ الشَّيَاطِينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فكيف توجد شجرة فى الجحيم ، إنها أشياء متناقضة ؛ لأن الشجرة فيها خضرة ، وتحتاج إلى رى ، ومائية ، والجحيم نار وجفاف ، ثم إن الشيطان غير معلوم الصورة للبشر ، وشجرة الزقوم غير معلومة لأنها ستأتى فى الآخرة ، فكيف يُشَبَّه الله مجهولاً بمجهول . واستخدم المستشرقون ذلك كدليل على أن المسلمين يأخذون القرآن بانبهار ولا يحضون فيه ، ونرد عليهم : أنتم لا تعلمون لغة العرب كملكة ، بل عرفتموها صناعة ، ولم تفهموا حقيقة أن القرآن جاء على لغة العرب . وقد تخيلت لغة العرب أشياء رأت فيها البشاعة والقيح ، كان قالوا : « ومنونة زرق كانياب أغوال » ، والغول كائن غير موجود ، لكنهم تخيلوا الغول المخيف وأن له أنياباً . . . إلخ .

إذن التشبيه قد يكون للأمر المُتَخَيَّل فى أذهان الناس ، والأصل فى التشبيه أن يلحق مجهولاً ليُعلم ، وشجرة الزقوم لا نعرفها ، ورءوس الشياطين لم ترها ، وهكذا ألحق الله مجهولاً بمجهول ، ولماذا لم يأت بها فى صورة معلومة ؟ . لأنه - سبحانه - يريد أن يشيع البيان ، ويعمم الفائدة ويربها ؛ لأن الإخافة تتطلب مخيفاً ، وإلّا خيف يختلف باختلاف الرائي ، فقد يوجد شيء يخيفك ، ولكنه لا يخيف غيرك ، وقد تستفح أنت شيئاً ، ولكن غيرك لا يستفحه ، ولذلك ضربنا - سابقاً - مثلاً . رقلنا : لو أننا أحضرنا مجموعة من كبار رسامى الكاريكاتور فى

العالم ، وقلنا لهم : ارسموا لنا صورة الشيطان تخيلوا الشيطان وارسموه ، أيتفقون على شكل واحد فيه ؟ لا ؛ لأن كل رسام سيرسم الشيطان من وحي ما يخيفه هو . ولقد قال الله في صورة : شجرة الزقوم ﴿ طلعها كأنه رموس الشياطين ﴾ ؛ لبتخيل كل سامع ما يخيفه من صورة الشيطان ، فتكون الفائدة عامة من التخويف من تلك الشجرة . لكنه لو قالها بصورة واحدة لأخاف قوماً ولم يخف الآخرين . ومثال ذلك أمر عصا موسى ، فهي مرة ثعبان ، ومرة جان ، ومرة حبة ، وكلها صور لشيء واحد مخيف ، ويقول الحق هنا في سورة الاعراف : ﴿ فالتقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ .

وقوله : ﴿ فإذا هي ﴾ يوضح النجائية التي أذهلت فرعون ، فقد تحولت العصا إلى ثعبان ضخم في لمح البصر بمجرد إلقائها ، ومن فوائد تدريب سيدنا موسى على إلقاء العصا في طور سيناء أن موسى لن تأخذه المفاجأة حين يلقبها أمام فرعون ، بل ستأخذ المفاجأة فرعون . كأن التدريب أولاً لإقناع موسى وضمان عدم خوفه في لحظة التنفيذ ، وقد خاف منها موسى لحظة التدريب ؛ لأن العصا صارت ثعباناً وحيّة حقيقية ، ولو كانت من نوع السحر لظلت عصا في عين الساحر ولا يخاف منها ، إذن خوفه منها إثبات التدريب دليل على أنها انقلبت حقيقة ، لا تخيلاً ، وتلك هي مخالفة المعجزة للسحر ، فالمعجزة حقيقة والسحر تخييل ، وهذا هو الذي سيجعل السحرة بخرون ساجدين لأنهم قد ذهّلوا مما حدث .

﴿ فالتقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ (٧٧)

(سورة الاعراف)

و « مبين » أى بين ، وواضحة ملامحه المخيفة التي لا تخفى على أحد ، ويقدم موسى عليه السلام الآية الثانية ، فيقول الحق :

﴿ ونزع يده فإذا هي بيضاء للّٰنظرين ﴾ (٧٨)

وهذه آية معجزة أخرى . وقوله : « ونزع » تعنى إخراج اليد بعسر ، كان هناك

شيئاً يقاوم إخراج اليد ؛ لأنه لو كان إخراج اليد سهلاً ، لما قال الحق : « ونزع يده » لأن النزع يدل على أن شيئاً يقاوم ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ قُلْ أَللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤَيِّدُ الْمَلِكَ مِنْ نِسَاءٍ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ نِسَاءٍ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة آل عمران)

لأن نزع الملك ليس مسألة سهلة ؛ ففي الغالب يحاول صاحب الملك التشبث بملكه ، لكن الحق ينزعه من هذا الملك . كذلك قوله : « ونزع يده » ، وهذا يدل على أن يده لها وضع ، ونزع يده وإخراجها بشدة له وضع آخر ، كأنها كانت في مكان حريص عليها . إذن ففیه لفظة بينت الإدخال ، ولفظة بينت النزع ، وهما عمليتان اثنتان . وقال سبحانه في آية ثانية :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة النمل)

و « الجيب » هو مكان دخول الرأس من الثوب ، وإن كنا نسمى « الجيب » في أيامنا « طلق شئ » نجعله وعاء لما نحب ، وكان الأصل أن الإنسان حين يريد أن يحتفظ بشئ ، يضعه في مكان أمامه وتحت يده ، ثم صنع الناس الجيوب في الملابس ، فسميت الجيوب جيوباً لهذا .

والحق قال في موضع آخر :

﴿ وَأَخْضَمَّ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة طه)

إذن ففيه إدخال وإخراج ، وكل آية جاءت بلفظة من اللفظات ؛ فأية أوضحت دخول اليد في الجيب ، وأخرى أوضحت ضم اليد إلى الجناح ، وثالثة أوضحت نزع اليد ، وهذه لفظات متعددة ، تكون كلها الصورة الكاملة ؛ لنفهم أن القصص في القرآن غير مكرر ، فالتكرير قد يكون في الجملة . لكن كل تكرير له لفظة تأسيسية ، ونحن نستعرضه نتبين أركان القصة كاملة . فكل هذه اللفظات تجتمع لنا القصة . وقلنا قبل ذلك : إن الصراع بين فرعون وموسى لا ينشأ إلا عن عداوة ، وحتى يحتدم الصراع لابد أن تكون العداوة متبادلة ، فلو كان واحد عدواً

والثاني لا يشعر بالعداوة فلن يكون لديه لدد خصومة ، وقد يتسامح مع خصمه
ويأخذ أمر الخلاف أخذاً هيناً ويسامحه وتنفض المسألة . لكن الذي يجعل العداوة
تستمر ، ويشدد ويعلو لهيبها أن تكون متبادلة . وثأتى لنا لقطة في القرآن تثبت لنا
العداوة من فرعون لموسى ، ولقطة أخرى تثبت العداوة من موسى لفرعون ،
فالحق يقول :

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلَهُ﴾

(من الآية ٢٩ سورة طه)

هذه تثبت العداوة من فرعون لموسى .

ويقول الحق :

﴿قَالَتْقَطْعُـهُـاءُ لَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرًّا﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

وهذه تثبت أن موسى عدو لهم . وكلتا اللفظتين يكمل بعضها بعضاً لتعطينا
الصورة الكاملة .

والحق هنا يقول :

﴿وَرَزَّحْ يَدَهُ فَمِإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١١٨﴾﴾

(سورة الأعراف)

ونعرف أن موسى كان أسمر اللون ، لذلك يكون البياض في يده مخالفاً لبقية
لون بشرته ، ويده صارت بيضاء بحيث ساعه يراها الناس يلتفتهم ضوءها ويجذب
أنظارهم ، وهي ليست بيضاء ذلك البياض الذي يأتي في سُمرة نتيجة البرص ،
لا ؛ لأن الحق قال في آية أخرى :

﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾

(من الآية ٢٢ سورة طه)

وكل لقطة كما ترى تأتي لتؤكد وتكمل الصورة . إذن فقوله : ﴿بيضاء
لِلنَّاظِرِينَ﴾ يدل على أن ضوءها لامع وضئء ، بلفت نظر الناس جميعاً إليها ،

ولا يكون ذلك إلا إذا كان لها بريق ولسمان وسطوع ، وقوله : ﴿ بيضاء من غير سوء ﴾ يؤكد أن هذا البياض ليس مرضاً .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ

عَلِيمٌ ۝١٩﴾

عرفنا أن الملاء هم القوم الذين يتصدرون المجالس ، ويملاونها أو الذين يملأون العيون هبة ، والقلوب مهابة وهم هنا المقربون من فرعون . وكأنهم يملكون فكرة وعلماً عن السحر . وفي سورة الشعراء جاء القول الحق :

﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَّحَرٌ عَلِيمٌ ۝٢١﴾

(سورة الشعراء)

إذن فهذه رواية جاءت بالقول من الملاء ، والآية الأخرى جاءت بالقول على لسان فرعون ، وليس في هذا أدنى تناقض ، ومن الجائز أن يقول فرعون : إنه ساحر ، وأيضاً أن يقول الملاء : إنه ساحر . وتتوارد الخواطر في أمر معلوم متفق عليه . وقد حدث مثل هذا في القرآن حينما نزلت آيات في خلق الإنسان وتطوره بأن كان علقه فمضغة إلخ فقال كاتب الوحي بصوت مسروع :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٥﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

عن أنس رضي الله عنه قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وافقت ربي في أربع : نزلت هذه الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ الآية قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (١) .

وعن زيد بن ثابت الأنصاري قال : أُملي على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ ... خَلَقْنَا آخِر ﴾ فقال معاذ : ﴿ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له معاذ : مِمَّ تضحك يا رسول الله ؟ فقال : « بها ختمت فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ » (١) .

لقد جاءت الخواطر في الحالة المهيبة لأحاسيس الإيمان لحظة نزول الوحي بمراحل خلق الإنسان .

فما الذي يمنع من توارد الخواطر فيجيء الخاطر عند فرعون وعند الملأ فيقول ويقولون ؟ أو يكون فرعون قد قالها وعلى عادة الأتباع والأذنان إذا قال سيدهم شيئاً كرروه .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١١٩)

(سورة الأعراف)

ولم يصفوا فعل سيدنا موسى بأنه ساحر فقط بل بالغوا في ذلك وقالوا : إنه ساحر عليم . وأضافوا ما جاء على ألسنتهم بالقرآن في هذه السورة .

﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (١٢٠)

إنها نكبة جاءت لفرعون الذي يدعى الألوهية ، ونكبة لمن حوله من هؤلاء الذين يوافقونه ، فكيف يواجهها حتى يظل في هيئته وهيئته ؛ قال عن موسى : إنه ساحر ، لكي يصرف الناس الذين رأوا معجزات موسى عن الإيمان والافتناع به ، وأنه رسول رب العالمين ، وبعد ذلك يهيج فرعون وطنبتهم ويهيج ويشير غيرتهم ويحرك انتماءهم إلى مكانهم فقال : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾ .

(١) رواه ابن أبي حاتم وأورده ابن كثير في تفسيره وقال : وفي إسناده جابر بن زيد الجعفي ضعيف جداً ، ونرى أن خبر سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصح .

اتهموا موسى عليه السلام بأنه يريد أن يخرج الناس بسحره من أرضهم ، وهذا القول من فرعون ومن معه له هدف هو تهيج الناس وإثارتهم ؛ لأن فرعون أفع الناس أنه إله . وهامى ذى الألوهية تكاد تنهدم فى لحظة ، فقال عن موسى إنه ساحر ، وبين قوم لهم إلف بالسحر ، وقوله : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ على لسان الملا من قوم فرعون تدل على أن الفائل للعبارة أدنى من المقول لهم ، فالمفروض أن فرعون هو صاحب الأمر على الجميع ، ومجىء القول : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ يدل على أن الذى يأمر فى مسائل مثل هذه هو فرعون ، وهذا يشعر بأن فرعون قد أدرك أن مكانته قد انحطت وأنه نزل عن كبريائه وخطرسته . أو أن يكون ذلك من فرعون تطيياً لقلوب من حوله ، وأنه لا يقطع أمراً إلا بالمشورة ، فكيف تشاور الناس يا فرعون وأنت قد غرست فى الناس أنك إله ؟ وهل يشاور الإله مألوهاً ؟ . إن قولك هذا يحمل الخيبة فىك لأنك تدعى الألوهية ثم تريد أن تستعين بأمر المألوه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾

و أَرْجِهْ أى أخره مثل قوله الحق :

﴿ وَآخِرُونَ مُرْجَوْنَ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة التوبة)

أى أنهم مؤخرون للحكم عليهم وهم الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو فخلفوا وأرجىء أمرهم حتى نزل فيهم قوله سبحانه : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ إلخ الآية .

وقولهم :

﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾

(من الآية ١١١ سورة الأعراف)

وهكذا كان طلب الإرجاء لأن المسألة أخطر من أن يتصرف فيها تصرفاً سريعاً

بل نحتاج إلى أن يؤخّر الرأى فيها حتى يجتمع الملا ، ويرى الجميع كيفية مواجهتها ، فهي مسألة ليست هينة لأن فيها نقض ألوهية فرعون ، وفي هذا ذلك لسلطان الفرعون وإنهاء لانتفاعهم هم من هذا السلطان . فإذا كان قد قال لهم : ﴿ فَمَاذَا نَأْمُرُونَ ﴾ .

فكانه كان يطلب منهم الرأى فوراً ، لكنهم قالوا إن المسألة تحتاج إلى تمهل وبطء ، وأول درجات البطء والتمهل أن يُستدعى القوم الذين يفهمون فى السحر . فمادمنا نقول عن موسى: إنه ساحر ، فلنواجهه بما عندنا من سحر : وقبول فرعون لهذه المشورة هدم لألوهيته ، لأنه يدعى أنه إله ويستعين بمألوهم هم السحرة ، والسحرة أتباع له . وقوله الحق على ألسنتهم :

﴿ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة الأعراف)

يدل على أن السحر كان منتشرأ ، ومنبثأ فى المدائن وقد أتبع سبحانه هذا القول على لسان الملا بقوله :

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴾

ولأن المستشرقين يريدون أن يشككونا فى القرآن قالوا : ولماذا قال فى سورة الشعراء : ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴾ . وكأن هؤلاء المستشرقين يريدون أن يفرقوا بين ﴿ ساحر عليم ﴾ و ﴿ سَحَارٍ عَلِيمٍ ﴾ ، ولأنهم لا يعرفون اللغة لم يلتفتوا إلى أن « سَحَارٍ » تفيد المبالغة من جهتين . فكلمة « ساحر » تعنى أنه يعمل بالسحر ، و « سَحَارٍ » تعنى أنه يبالغ فى إتقان السحر ، والمبالغات دائماً تأتى لضخامة الحدث ، أو تأتى لتكرار الحدث . فـ « سَحَارٍ » تعنى أن سحره قوى جداً ، أو يسحر فى كل حالة ، فمن ناحية التكرار هو قادر على السحر ، ومن ناحية الضخامة هو قادر أيضاً . ومادام القائلون متعددين . فواحد يقول : ساحر ، وآخر يقول : سَحَارٍ وهكذا . والقرآن يغطى كل اللفظات .

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « حاشرين » تعنى من يحشر لك السحرة ويجمعهم لا يبرادتهم ولكن بقوة فرعون ويطش جنده .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴿١١٨﴾ إِن كُنَّا نَمُوتُ أَوْ نَكُونُ مِنَ الْخَالِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

وقوله : ﴿ وجاء السحرة فرعون ﴾ يدل على بطش الأمر ، أى أنه ساعة قال الكلمة هُزِعَ الجند بسرعة ليجمعوا السحرة . وقد ولغ بعض المستشرقين فى هذه اللفظة أيضاً فتنساءلوا : ولماذا جاء بقول مختلف فى سورة أخرى حين قال :

﴿ إِن لَّنَا لَأَجْرًا ﴾

(من الآية ٤١ سورة الشعراء)

لقد جاء بها بهمزة الاستفهام ، وفى سورة الأعراف جاء بها من غير همزة الاستفهام ، وهذه آية قرآنية ، وتلك آية قرآنية . وأصحاب هذا القول يتناشون أن كل ساحر من سحرة فرعون قد انفعّل انفعالاً أدى به مطلوبه ، فالذى يستفهم من فرعون قال : « إن » ، والشجاع قال لفرعون : ﴿ إن لنا لأجراً ﴾ . وفى القضية الاستفهامية لا يتحتم الأجر لأنه من الجائز أن يرد الفرعون قائلاً : أن لا أجر لكم ، ولكن فى القضية الخبرية « إن لنا لأجراً » أى أن بعض السحرة قد حكموا بضرورة وجود الأجر ، وقد غطى القرآن هذا الاستفهام ، وهذا الخبر .

وتأتى إجابة فرعون على طلب السحرة للأجر :

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ١١٤

و « نعم » حرف جواب قائمة مقام جملة هي : لكم أجر ، وأضاف أيضاً : ﴿ وإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

وهذا دليل على أنه يتأفقتهم أو يبالغ في مجاملتهم ؛ لأنه يحتاج إليهم أشد الحاجة . وهكذا نجد ألوهية فرعون قد غارت أمام المألوهين السحرة . وقوله : ﴿ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ هذه تدل على فساد الحكم ؛ لأنه مادام حاكماً فعليه أن يكون كل المحكومين بالنسبة إليه سواء . لكن إذا ما كان هناك مقربون فالدائرة الأولى منهم تنهب على قدر قربها ، والدائرة الثانية تنهب أيضاً ، وكذلك الثالثة والرابعة ، فتجد كل الدوائر تمارس فسادها مادام الناس مصنفين عند الحاكم .

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ما جلس الصحابة يستمعون إليه كان يسوي بين الناس جميعاً في نظره حتى يظن كل إنسان أنه أولى بنظر رسول الله ، ولا يذني أحداً ويقربه من مجلسه إلا من شهد له الجميع بأنه مقرب . . . ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ
نَحْنُ الْمُثْلِقِينَ ﴾ ١١٥

ونلاحظ أنهم لم يؤكدوا لموسى رغبتهم في أن يلقي هو أولاً عصاه . ولكنهم أكدوا رغبتهم في أن يكونوا هم أول الملقين . فجاءوا بضمير الفصل وهو (نحن) الذي يفيد التأكيد .

ونعلم أن مَنْ يعقُب ويكون عمله تالياً لمن سبقه ، فإن فعله هو الذي سترتب

عليه الحكم ، ولا بد أن يكون قوى الحجة . هم يريدون أن يكونوا هم المعقبين ، وأن موسى الذي يبدأ ، لكن عزتهم تفرض عليهم أن يبدأوا هم أولاً ؛ لذلك جاءوا بالعبارة التي تحمل المعنيين :

﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾

(من الآية ١١٥ سورة الأعراف)

فعلم موسى أنهم حريصون ، على أن يبدأوا هم بالإلقاء فأتوا بكلمة (نحن) . وفكر موسى أن من صالحه أن يلقوا هم أولاً ؛ لأن عصاه ستلقف وتبتلع ما يلقون ؛ لذلك يأتي قوله سبحانه :

﴿ قَالِ الْقَوَّامُ الْقَوَّاسِحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ
وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءَ وَبِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾

هم - إذن - سحروا أعين الناس ، والسحر - كما نعلم - لطف حيلة يأتي بأعجوبة تشبه المعجزة . وكأنها تخرق القانون ، وهو غير الحيلة التي يقوم بها الحواة ؛ لأن الحواة يقومون بخفة حركة ، وخفة يد ، ليعموا الأمر على الناس . لكن « السحر » شيء آخر ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى خلق كل جنس بقانون ؛ خلق الإنس بقانون ، وخلق الجن بقانون ، وخلق الملائكة بقانونها :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

وكل قانون له خصائصه ومميزاته التي تناسب عنصر تكوينه ؛ فالإنسان - مثلاً - لأنه مخلوق من الطين له من الكثافة ما يمنعه من التسلسل من خلال جدار ؛ لأنك لو كنت تجلس وهناك تفتحة وراء الجدار الذي تجلس بجواره فلن يتعدى ريحها ولا طعمها إلى فمك ؛ لأن الجدار يحول بينك وبين ذلك ، لكن لو كانت هناك جذوة من نار بجانب الجدار الذي تستند عليه لكان من الممكن أن يتعدى أثرها

لك ؛ لأن النار إشعاعات تنفذ من الأشياء ، ولأن الجن مخلوق من نار ، لذلك نجد له هذه الخاصية .

﴿ إِنَّهُ يَرْنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

فإذا كان الجن له قانون والإنس له قانون ، فهل القانون هو الذى يسيطر ؟ لا ، بل رب القانون هو الذى يسيطر لأنه جل وعلا فوق القانون . فيأنى الله للإنس ويُعلم واحداً منهم بعضاً من أسرار كونه ليستذل الجن لخدمته ، برغم ما للجن من خفة حركة ، فسبحانه يوضح : لا تظن أيها الجن أنك قد أخذت خصوصيتك من العنصر الذى يكونك لأن هناك القادر الأعلى وهو المعنصر لك ولغيرك ، بدليل أن الإنسان وهو من عنصر آخر يتحكم فيك بعد أن علمه الله بعضاً من أسرار كونه . ولنتنبه دائماً أن العلم بأسرار تسخير الجن هو من ابتلاءات الحق للخلق ، لأنه سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

فكان هاروت وماروت وهما يعلمان الإنسان كيف يمارس السحر ، ينصحان الإنسان الذى يرغب فى أن يتعلم السحر أولاً ، ويوضحان له أنهما فتنة أى ابتلاء واختبار ويقولان له : ﴿ فلا تكفر ﴾ ، مما يدل على أن كل من يتعلم السحر ؛ إن قال لك : إنى سأستعمله فى الخير فهو كاذب ؛ لأنه يقول ذلك ساعة صفاء نفسه تجاه الخلق ، لكن ماذا إن غافله إنسان من أى ناحية وغلبه على بعض أمره وهو يملك بعضاً من أسرار السحر ؟ هل يقدر على نفسه ؟ لقد قال إنه أمين وقت التحمل ، لكن هل يظل أميناً وقت الأداء ؟ إن من يتعلم السحر قد يستخدمه فى الانتقام من غيره ، وبذلك يضيع تكافؤ الفرص ، ونعلم أن تكافؤ الفرص هو الذى يحمى الناس ، ويعطى بعضهم الأمن من بعض ، ويلزم كل إنسان حذره .

فإذا أخذ إنسان سلاحاً ليس عند غيره فقد يستخدمه ضد من لا يملك مثله ، والإنسى الذى يأخذ سلاح استخدام الجن إنما يأخذ سلاحاً لا يملكه أخوه

الإنسى ، وبذلك يكون قد أخذ فرصة أقوى من غيره وفى هذا ابتلاء ؛ لأن الإنسان قد ينجح فيه وقد يخفق فلا يظفر بما يطلبه ، وقوله سبحانه : ﴿ فلا تكفر ﴾ يدل على أنهما علما طبائع البشر فى أنهم حين يأخذون فرصة أعلى قد يُضْمَنُونَ وقت صفاء نفوسهم ، ولكنهم لا يُضْمَنُونَ يوم تعكير نفوسهم .

﴿ فَيَعْلَمُونَ مِنْهَا مَا يَصِفُونَ بِهِ بَيْنَ الْأَمْرِ وَذَوِجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا

بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

مادام الحق هو الذى أعطاهم هذه القدرة فهو سبحانه القادر على أن يسلبها منهم ، مثلما يمنح الله سبحانه وتعالى القدرة لإنسان ليكون غنياً وقادراً على شراء سلاح نارى ، وأن يتدرب على إطلاق النار ، فهذا الرجل ساعة يغضب قد يتصور أن يحل خلافه مع غيره أو ينهى غضبه مع أى إنسان آخر بإطلاق الرصاص عليه . لكن لو لم يكن معه « مسدس » فقد ينتهى غضبه بكلمة طيبة يسمعها ، إذن فساعة ما يمنح الله أمراً فهو يريد أن يرحم ؛ لذلك يقول : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر ﴾ .

وفى هذا تحذير لمن يتعلم مثل هذا الأمر ، ويريد سبحانه أن يحمى خلقه من هذه المسألة ، ويكفى أن نعلم أنه سبحانه قد قال : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ .

قلو أنك تسعت هؤلاء لاستذلوك ، واستترفوك ، ويتركك الله لهم لأنك اعتقدت فيهم ، أما إن قلت : « اللهم إنك قد أقدرت بعض خلقك على السحر والشر ، ولكنك احتفظت لنفسك بإذن الضر ، فإنى أعوذ بما احتفظت به مما أقدرت عليه ، بحق قولك : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ . هنا لن يمكنهم الله منك ، إنما إن استجبت وسرت معهم ، فهم يستترفونك ، وأراد الله أن يفضح مثل هذه العملية فقال على السنة السحرة الذين استدعاهم فرعون :

﴿ إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الشعراء)

وكانهم يعترفون بالنقص فيهم ، فعلى الرغم من ادعائهم القدرة على فعل المعجزات إلا أنهم عاجزون عن الكسب الذى يوفى حاجاتهم ؛ لذلك طلبوا الأجر من فرعون ، وهذا حال الذين يشتغلون بالسحر والشعوذة . هم يدعون القدرة ويعانون الفاقة والعوز . هكذا حكم الحق بضيق رزق من يعمل بالسحر ، ويفضحهم الحق دائماً ، وللعاقل أن يقول : ماداموا يدعون الفلاح فليفلحوا فى إصلاح أحوالهم . ومادام الساحر يدعى أنه يعرف أماكن الكنوز المخبوءة فلماذا لا يعرف كنوزاً فى الأرض التى ليست مملوكة لأحد ويأخذها لنفسه ؟ هذا إن افترضنا أن الساحر أمين للغاية ولا يريد أن يأخذ من خزائن الناس .

ولذلك تجد كل العاملين بالسحر والشعوذة يموتون فقراء ، بشىء الهيئة ؛ مصابين فى الذرية ؛ لأن الكائن منهم استغل فرصة لا توجد لكل واحد من جنسه البشرى ، وذلك للإضرار بالناس . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝١﴾

(سورة الجن)

وهنا يقرر الحق أنهم سيعيشون فى إرهاب وتعب . ولذلك يتحدد مرقفنا من السحر بأننا لا ننكره مثلما ينكره آخرون . فقد قال بعض من العلماء : إن السحرة جاءوا بعصى وضعوا فيها زئبقاً ، وعند وجود الزئبق تحت أشعة الشمس تعطى له حرارة فتتولى العصى ، لكن نحن لا ننكر السحر ، كما لا ننكر الجن لأنه لا يفوتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة ليقطع على الصلاة فأمكنى الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخى سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينفى لأحد من بعدى ﴾ » (١) .

فمادام الحق قد قال : إنه خلق خلقاً لا تدركهم بإحساسك ، فنحن نقر

بما أبلغنا به الحق ؛ لأن وجود الشيء أمر وإدراك وجوده أمر آخر ، وكل مخلوق له قانونه ، فالعقريت من الجن قال لسيدنا سليمان عن عرش بلقيس :

﴿ أَنَا أَنِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة النمل)

وكان الجن يطلب زمناً ما ، فقد يجلس سليمان في مقامه معهم ساعة أو ساعتين أو ثلاثاً ، لكن الذي عنده علم من الكتاب يقول :

﴿ أَنَا أَنِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

ولا بد أن يكون طرفه قد ارتد في أقل من ثانية بعد أن قال ذلك ، ولهذا نجد القرآن يورد ما حدث على الفور فيقول : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ ﴾ .

مما يدل على أن الله قد خلق الأجناس ، وخلق لكل جنس قانوناً ، وقد يكون هناك قانون أقوى من قانون آخر ، لكن صاحب القانون مخلوق لذلك لا يحتفظ به ؛ لأن خالق القانون يطله ، ويسلط أدنى على من هو أعلى منه . ولندقق في التعبير القرآني : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ .

ونحن أمام أشياء هي العصي والجبال . وجمع من البشر ينظر . ونفهم من قوله الحق : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ أن السحر ينصب على الرائي له ، لكن المرش يظل على حالته ، فالعصى هي هي ، والجبال هي هي ، والذي يتغير هو رؤية الرائي . ولذلك قال سبحانه في آية ثانية :

﴿ يُحِيلُ إِلَيْهِمْ يَسْحَرُهُمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾

(من الآية ٩٦ سورة طه)

إذن فالسحر لا يقلب الحقيقة ، بل تظل الحقيقة هي هي ويراها الساحر على طبيعتها . لكن الناس هي التي ترى الحقيقة مختلفة . إذن فالسحرة قد قاموا بعملهم وهو : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ .

واسترهبوهم أى أدخلوا الرهبة فى نفوس الناس من هذه العملية ، وظن السحرة أن موسى سيخاف مثل بقية الناس المسحورين ، ونسوا أن موسى لن يتخدع بسحرهم ؛ لأنه باصطفاء الله له وتأييده بالمعجزة صار منفذاً لقانون الذى أرسله فجعل عصاه حية ، وصاحب القانون هو الذى يتحكم . وهم قد جاءوا بسحر عظيم ، وهو أمر منطقى ؛ لأن العملية هى مباراة كبرى يترتب عليها هدم ألوهية فرعون أو بقاء ألوهيته ، لذلك لا بد أن يأتوا بأخبر وأعظم ما عندهم من السحر .

ويقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ١١٧ ﴾

ولماذا احتاجت هذه المسألة إلى وحي جديد خصوصاً أنه قد سبق أن تم تدريب موسى على إلقاء العصا ؟ . ونقول : فيه فرق بين التعليم للإعداد لما يكون ، والتنفيذ ساعة يكون ، فساعة يأتى أمر التنفيذ بجىء الحق بأمر جديد ، فربما يكون قد دخل على بشرية موسى شيء من السحر العظيم ، والاسترهاب ، هذا ونعلم أن قصة موسى عليه السلام فيها عجائب كثيرة . فقد كان فرعون يقتل الذكور ، ويستحي النساء ، وأراد ربنا ألا يقتل موسى فقبال سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وقوله سبحانه : ﴿ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ ﴾ يدل على أن العملية المخوفة لم تأت بعد ، بل ستأتى لاحقاً . وهات آية امرأة وقل لها : إن كنت خائفة على ابنك من أمر ما فارميه فى البحر . من المؤكد أنها لن تصدقك ، بل ستسخر منك ؛ لأنها مستسلمة : كيف أنجيه من موت مظلون إلى موت محقق ؟ . وهذا هو الأمر الطبيعى ، لكن نحن هنا أمام وارد من الله إلى خلق الله ، ووارد الله لا يصادمه شك . إذن فالخاطر والإلهام إذا جاء من الله لا يزاحمهما شيء قط . ولا يطلب

الإنسان عليه دليلًا لأن نفسه قد اطمأنت إليه ؛ لذلك أُلقت أمام موسى برضيعها في البحر .

ويقدر الله أنها أم فيقول :

﴿وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

ولن يرده إليها فقط ، بل سيوكل إليه أمراً جديلاً :

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وكان الحق سبحانه يوضح لام موسى أن ابنها لن يعيش من أجلها فقط ، بل إن له مهمة أخرى في الحياة فسيكون رسولاً من الله . فإذا لم تكن السماء متحافظ عليه لأجل خاطر الأم وعواطفها ، فإن السماء ستحفظه لأن له مهمة أساسية ﴿وجاعلوه من المرسلين﴾ . ونلاحظ أن الحق هنا لم يأت بسيرة الثابت لكنه في آية ثانية يقول :

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَكَ مَا يُوْحَىٰ ۖ ۝٢٨ إِنِ اقْدِفِي فِي الثَّابُوتِ فَأَقْدِفِي فِي الْبَيِّ

فَلْيَلْفِي الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾

(سورة طه)

ولم يقل في هذه الآية : ﴿ولا تخافي ولا تحزني﴾ ؛ لأنه أوضح لها ما سوف يحدث من إلقاء اليم له بالساحل . وقوله في الأولى : ﴿فإذا خفت عليه﴾ . هو إعداد للحدث قبل أن يجيء ، وفي هذه الآية ﴿إذ أوحينا إلى أمك ما يوحي . .﴾ الخ تجد اللقطات سريعة متتابعة لتعبر عن التصرف لحظة الخطر . لكن في الآية الأولى : ﴿ولا تخافي ولا تحزني إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ نجد البطء والهلولة والترتابة ؛ لأنها تحكى عن الإعداد . لما يكون .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يعطى كل جنس قانوناً ، وكل قانون يجب أن يُحترم

فى نطاقه ، لأن تكافؤ الفرص بين الأجناس هو الذى يريده الله . وحينما أراد سبحانه وتعالى أن يبين لنا هذه المسألة أوضح أن على المؤمن أن ينظر إلى المعطيات من وراء التكاليف ، وفى آية الدُّيْن - على سبيل المثال - نجد الحق يوصي المقرض « المدين » - وهو الضعيف - أن يكتب الدُّيْن ، ويعطى بذلك إقراراً للدائن وهو القوى القادر فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَسْخُمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

والمسألة هنا فى ظاهر الأمر أنه يحمى الدائن ونقوده ، لكن علينا أن ننتبه إلى أنه يحمى المدين من نفسه ؛ لأن الدُّيْن إن لم يكن موثقاً فالمدين لن يبذل الجهد الكافى للسداد ، وباجتهاد المدين نفيد الرجود بطاقة فاعلة . ولكن إن لم نوثق الدُّيْن ، وتكاسل المدين عن العمل والسداد فقد تشيع الفوضى فى المجتمع ويرفض كل إنسان أن يقرض أحداً ما يحتاج إليه . وبذلك تفسد الأمور الاقتصادية .

إذن فسبحانه حين يأمر بتوثيق الدُّيْن ، وإن كان فى ظاهر الأمر حماية للدائن . لكنه فى باطن الأمر يحمى سبحانه المدين ، لأن هناك فرقاً بين ساعة التحمل للحكم ، وساعة أداء الحكم .

مثال ذلك حين يأتيك إنسان قائلاً : أنا عندى ألف جنيه وخائف أن يضيع منى فخذ أمانة عندك إلى أن أحتاج إليه ، وبذلك يكون هذا الإنسان قد استودعك أمانة ولا يوجد إيصال أو شهود ، والأمر مردود إلى أمانة المودع عنده إن شاء أنكر ، وإن شاء أقر . ونجد من يقول لهذا الإنسان : هات ما عندك . يقول ذلك وفى ذمته ونيته أن صاحب الألف جنيه حين يأتى ليطلبه يعطيه له ، إنه يعد ذلك ساعة التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه ساعة الأداء ، فقد تأتى له ظروف صعبة ساعة الأداء فيتملل بالحجج ليمد صاحب المال عنه .

إذن هناك فرق بين حالة واستعداد حامل الأمانة ساعة التحمل وساعة الأداء لهذه

الأمانة . والمؤمن الحق هو من يتذكر ساعة التحمل والأداء معاً ، إن بعض الناس يرفض تحمل الأمانة ليُزيل عن نفسه عبء الأداء .

والذى يتعلم شيئاً يناقض ناموس وجوده كتعلم السحر نقول له : احذر أن تُبتلى وتُفتن ، بل ابتعد واحفظ نفسك ولا تستعمل ذلك ، واحذر أن تقول أنا سأستعمل ما تعلمته من سحر فى الخير ، ومن يأتى لى وهو فى أزمة سوف أحلها له بالسحر . ونقول : لهذا الإنسان : أنت تتكلم عن وقت التحمل ، ولكنك لا تتكلم عن وقت الأداء .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (١٧)

(سورة الاعراف)

والإفك هو قلب الشيء على وجهه ، ومنه الكذب . وعلمنا من قبل أن كل شيء له نسبة كلامية وله نسبة واقعية ، فإذا قلت مثلاً « محمد مجتهد » فهذه نسبة كلامية ، لكن أوجد واحد فى الواقع اسمه محمد وموثوق فى اجتهاده ؟ . إن كان الأمر كذلك فقد وافقت النسبة الكلامية النسبة الواقعية ، ويكون الكلام هو الصديق ، أما الكذب فهو أن تقول « محمد مجتهد » ولا يوجد إنسان اسمه محمد ، وإن كان موجوداً فهو غير مجتهد ، ويكون الكلام كذباً لأن النسبة الكلامية خالفت النسبة الواقعية ، وحين يكذب أحد فهو يقلب المسألة ونسبى ذلك كذباً ، وشدة الكذب تسمى إفكاً . أو الكذب ألا يكون هناك تطابق ، وإن لم تكن تعلم ، والإفك أن تتعمد الكذب ، وهذا أيضاً افتراء . ﴿ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : « فإذا » وهى تعبر عن الفجائية حيث ابتلعت عصا موسى - بعد أن صارت حية - ما أتى السحرة وجاءوا به من الكذب والإفك وسحروا به أعين الناس .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٣٨

وقوله : ﴿ فوقع الحق ﴾ أى صار الحق النظرى واقعاً ملموساً ؛ لأن هناك فارقاً بين كلام يلقي نظرياً وكلام يؤيده الواقع ، والوقوع عادة يكون من أعلى بحيث يراه ويعرفه كل من يراه .

وقوله سبحانه : ﴿ فوقع الحق ﴾ أى ثبت الحق ، فبعد أن كان كلاماً خبرياً يصح أن يصدق ويصح أن يكذب ، صار بصدقه واقعاً . ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ .

والذى بطل هو ما كانوا يعملون من السحر . إن الحق جعل صدق موسى واقعاً مشهوداً . وبذلك غلب السحرة .

ويقول الحق :

﴿ فَعْلَبُوا هَٰذَا لَكُمْ وَأَنْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ ﴾ ١٣٩

ولم يغلب السحرة فقط ، بل غلب أيضاً فرعون وجماعته ، وعاش كل من هو ضد موسى فى صغار ، صغار للمستدعى وصغار للمستدعى . لذلك ذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ أى أذلاء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالْقَى السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ ١٤٠

ولم يقل الحق : وسجد السحرة ، ولكنه قال : « والقى » مما يدل على أن

خروهم للسجود ليس برأيهم ، ولكنه عملية انبهارية مما حصل أمامهم ، كأن شيئاً آخر ألغاهم ساجدين ، وهو الانبهار بالحق . فلساحر منهم كان يعتقد أنه هو الذى يسحر ، ثم يفاجأ بمجموع السحرة أن موسى حين أنقى عصاه رأوها حية بالفعل فعرفوا أن المسألة ليست سحراً ، وحينما ألقوا عصيهم وحيالهم التى جاءوا بها من كل المذائن ، قبل إنها حُمِلت على سبعين بعيراً وشاهدوا كيف أن العصا التى صارت حية أو ثعباناً لفقت كل هذا وابتلعتة ! وحجم العصا هو حجم العصا مهما طالّت ، وهكذا تيقن السحرة أن هذا لا يمكن أن يكون من فعل ساحر ، وانظر إلى الاستجابة منهم لما رأوا :

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وهل هم سجدوا بعد الإيمان ؟ أم آمنوا بعد السجود ؟ النص هنا يظهر منه أنهم آمنوا بعد السجود ، ولكن كان الأمر يقتضى ألا يسجد أحد إلا لأنه آمن ، لكن نحن نعرف أن الإيمان عمل قلبي ، والسجود عمل عضلي وسلوك عملي ، فكل منهم آمن بقلبه فسجد .

وهناك فرق بين أن يؤمنوا فيسجدوا ثم يعلنوا إيمانهم ؛ فيقولوا : آمنا برب العالمين ؛ لذلك نحن لا نرتب السجود على إيمان ، بل نرتب السجود مع القول بالإيمان و بإعلان الإيمان ؛ لأن إعلان الإيمان شيء ، والإيمان شيء آخر ، فكأنهم آمنوا فخروا ساجدين وبعد هذا قاموا بإعلان الإيمان ، وكان الناس سألوهم : ما الذى جرى لكم ؟ فقالوا : ﴿ آمنا برب العالمين ﴾ .

إذن فمن يحاول أن يستدرك على النص فعليه أن يتبّه إلى أن إخبارهم عن الإيمان يعنى وجود الإيمان أولاً ، والسحرة قد آمنوا فسجدوا ، فاستغرب منهم الناس هذا السجود ، وهنا قال السحرة : لا تستغربوا ولا تتعجبوا فنحن قد آمنا برب العالمين .

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وقبل في بعض التفاسير : إن فرعون قال : أنا رب العالمين . لكن السحرة لم يتركوا قوله هذا فأعلنوا أن رب العالمين هو : ﴿ رب موسى وهارون ﴾ . وقال فرعون : لقد ربيت أنا موسى ، فقالوا : لكنك لم ترب هارون .

ولذلك أوضح الحق هنا أن رب العالمين هو :

﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ١٢٢

ولأن السحرة أعلنوها واضحة بالإيمان برب العالمين رب موسى وهارون ، وكان لابد أن يقضب فرعون ، فيأتى القرآن بما جاء على لسانه :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاْمَنْتُمْ بِى قَبْلَ اَنْ ءَاْذَنَ لَكُمْ اِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمْوْهُ فِى الْمَدِيْنَةِ لِيُخْرِجُوْا مِنْهَا اَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ۝١٢٣﴾

وكان فرعون مازال يحاول تأكيد سلطانه ، ونعلم أن بنى إسرائيل اشتغلوا بالناس فى مصر ، ومنهم من تعلم السحر . ولذلك اتهم فرعون السحرة بأنهم قد اتفقوا مع موسى على هذه المسألة .

لقد كان فرعون فى مأزق ويريد أن يخرج منه ، لأن الناس جميعاً قد شاهدوا المسألة ، وهو لا يريدهم أن يتشكروا فى ألوهيته ، فيهدم الصرح الذى أقامه على الأكاذيب ؛ لذلك قال للسحرة : إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة . . أى أنكم اتفقتم مع موسى ، وسيأتى ويقول : اتهاماً لموسى :

﴿ اِنَّهٗ لَكَبِيْرٌ كُرْ اَلَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾

ونتيجة لهذا المكر المتوهم بين بني إسرائيل وموسى يتوعدهم فرعون :

لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ
ثُمَّ لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾

والوعيد - كما نراه - قاس وفظيع ، فتنقطع الأيدي والأرجل ثم الصلب كلها
أمور تخيف ، لماذا يكون الرد ممن يتلقون هذا الوعيد ، وقد خالطت بشاشة
الإيمان قلوبهم ؟ إنهم يقولون :

قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾

إنك قد عجلت لنا الخير لأننا سنكون في جوار ربنا ، فانت بطيشك وحماتك
قد أسديت لنا معروفًا وخيرًا من حيث لا تدري . ويزيدون في تقريع فرعون بما
يجيء في القرآن على ألسنتهم :

وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا
رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

ما الذي تكرهه منا لأن « تنقم » تعني تكره ، وقولهم لفرعون : أليس الذي تكرهه
منا أننا آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا ؟ وهل الإيمان بآيات الإله حين نحى عما يُكره ١١٩
ويسمون ذلك في اللغة تأكيد المدح بما يشبه الذم ؛ كأن يقول إنسان : ماذا تكره في ؟
أصدني ؟ أمانتي ؟ أجودي ؟ أعلمي ؟

كانه يعدد أشياء يعرف كل الناس واقعاً أنها لا تُكره ، لكن الخطأ في مقاييس من يكره الصواب ، فهي أمور لا تستحق أن تُكره أو تعاب أو تُذم . لقد ثبقتوا أن لقاء الله على الإيمان هو الخير وكلهم يفضل جوار الله على جوار فرعون . وهذا الذي يعتبره فرعون عقاباً إنما يثبت خبيثته حتى فر توقع العقوبة ؛ لأنه لو لم يهددهم بهذه الميته فهم سيموتون ليرجعوا إلى الله ، وهذا أمر مقطوع به ، وكل مخلوق مصيره أن ينقلب إلى الله ، وكانهم أبطلوا وعيد فرعون حين قال لهم :

﴿ لَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِمَّنْ خَلَفَ ثُمَّ لَا صَلْبَيْنَكُمَا أُجْعِنَ ۝١١١ ﴾

(سورة الأعراف)

ثم يتجهون إلى ربهم ويخالفهم فيقولون : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ .

وهذا الإفراغ : أن ينصب شيء على شيء ليغمره ، وكانهم يقولون : أعطنا يا رب كل الصبر ، وهم يحتاجون إلى الصبر لأن فرعون قد توعدهم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم . ولذلك قال بعض العارفين بالله : عجبي لسحرة فرعون كانوا أول النهار كفرة سحرة وكانوا آخر النهار شهداء برة .

ويقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقِيلُ آيَاتَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ۝١٢٧ ﴾

وهكذا نعرف أن المقربين من فرعون هم أول من خافوا على سلطانهم ، ويدل

هذا القول أيضاً على أن فرعون لم يتعرض لموسى بى أذى ؛ لأنه مازال يعيش فى رهبة اليقين وصوله الحق مما جعله متوجساً وخائفاً من موسى ؛ لأن فرعون أول من يعلم أن مسألة ألوهيته كذب كلها ، ويعلم جيداً أن موسى على حق ، لكن إعلان انهزامه أمام الجمع ليس أمراً سهلاً على النفس البشرية ، وسأل الملا من قوم فرعون الذين اهتز أمامهم سبطانه ومكانته ، قالوا لفرعون : أتترك موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ؟ . أو فيما يبدو أن موسى وهارون تركا المكان بعد أن انتهيا من أمر السحرة ، ولم يقبض عليهما فرعون ؛ لذلك تساءل الملا من قوم فرعون :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُمُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ

وَأَهْلَكَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأعراف)

و « يذرك » أى يدعك ويتركك ، وكان فرعون يعتقد أن هناك الهة علويين وآلهة سفليين ، وهروب العالم السفلى كله . لذلك قالوا : « ويذرك وأهلك » . وهناك قراءة أخرى « ويذرك إلهتك أى عبادتك » . أى يتركك أنت ويترك عبادتك . ويقول فرعون : ﴿ قَالَ سَتَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ .

وحتى تلك اللحظة لم يتعرض فرعون لموسى ، ولا يزال خوفه من موسى يبعده من الاقتراب أو الدنو منه أو الاتصال به ولو بكلمة ، إنه يأخذ الحذر من أن يقدم على شيء ضد موسى ، فيفاجئه موسى مفاجأة ثانية . ويقال إن الشعبان الذى ظهر ساعة ألقى موسى عصاه فتح شدقيه واتجه إلى فرعون ، فقال : كف عني وأومن بما جئت به . وهو أمر محتمل ؛ لأن فرعون حتى هذه اللحظة لم يجرؤ على الاقتراب من موسى ، وجاء بخبر قتل الأبناء وسبي النساء ولم يأت بسيرة موسى .

﴿ سَتَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأعراف)

والقوى حين يملك القدرة على الضعيف لا يشد الخناق عليه شداً ليفتك به ؛ لأنه يعرف ضعفه ، ويستطيع أن يناله فى أى وقت ، لكن لو كان الخصم أمامك قوياً فانت ترهبه بالقوة حتى يخضع لك . وهنا يقول فرعون : ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ .

إن فرعون يؤكد لقومه أنهم سيظرون وغالبون ، ولن يستطيع قوم موسى أن يفلتوا منهم . ويؤكد فرعون : سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم ؛ لأن الأبناء هم العدة ، والنساء عادة شأنهن مبنى على الحجاب ، وعلى الستر ، وفي إبقاء المرأة وقتل الرجل إذلال للرجال ؛ لأن التعب سيكون من نصيب النساء . ولذلك كان العرب حين يغربون على عدو ، يصحبون نساءهم لتزيد الحمية ولا يخور ولا يجبن واحد وتراه زوجه أو أخته أو ابنته وهو على هذا الحال ، وكذلك كان العرب يخافون الانهزام حتى لا يمسك العدو نساءهم ويأخذهن سبايا .

وهنا يؤكد فرعون إصراره على إذلال قوم موسى بأن يعيد قتل الأبناء ، وأن يستحي النساء ، وكان الفرعون يفعل مثل ذلك الأمر من قبل ، والسبب في ذلك أن بنى إسرائيل كانوا يساعدون ملوك الهكسوس ، وبعد أن طرد الفراعنة الهكسوس ، اتجهوا إلى إيذاء بنى إسرائيل الذين كانوا في صف الهكسوس ، ومن بقى من بنى إسرائيل تعرض لتقتيل الأبناء ، لكن الحق أنقذ موسى حين أوحى لأمه أن تلقبه في اليم ليربيه فرعون . وهاهو ذا فرعون يعيد الكرة مرة أخرى بالأمر بتقتيل الأبناء ومبى النساء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا
إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

ويقرر موسى الحقيقة الواضحة وهي أن الأرض ليست لفرعون ، والعاقبة لا تكون إلا للمتقين . وكأنه بهذا القول يريد أن يردهم إلى حكم التاريخ حيث تكون العاقبة دائماً للمتقين ، فإن قال فرعون : وإنا فوقهم قاهرون ، مستعلون غالبون مسيطرون ، فإن موسى يرد على ذلك : أنا أستعين بمن هو أقوى

منك . إن موسى عليه السلام يأمر قومه بأن يستعينوا بالله ، ويصبروا على ما ينالهم من بطش فرعون وظلمه .

ولأن قوم موسى كانوا من المستضعفين ، فإن الله وعدهم أن يؤمنهم في الأرض ويمكن لهم فيها وهذا إخبار من الله وإخبار الله حقائق . ولكن ماذا كان موقف قوم موسى منه بعد هذا النصر العظيم لموسى ، والنصر لهم ؟ . نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا
جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ
وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴾

لقد قالوا لموسى : من قبل أن تأتينا أؤذينا بأن قتلوا الأبناء واستحيوا النساء ، وبعد أن جئت هاتحن أولاء نلتقى الإيذاء . كان مجيئك لم يصنع لنا شيئاً . إذن هم نظروا للابتلاءات التي يجربها الله على خلقه ، ولم ينظروا إلى المنة والمنحة والعطاء وإلى آلاء الانتصار ، وإلى أن فرعون قد حشد كل السحرة ، وبعد ذلك هزمهم موسى ، وكان يجب أن يكون ذلك تنبيهاً لهم لقدرة عطاءات الله ، هم يحسبون أيام البلاء ، ولم يحسبوا أيام الرخاء .

وقوله : ﴿ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ يدل على أنهم سوف يخونون العهود ، ويفعلون الأشياء التي لا تتناسب مع هذه المقدمات . وفي الإسلام نجد عمرو بن عبيد وقد دخل على المنصور قبل أن يكون أميراً للمؤمنين ، وكان أمامه رغيث أو رغيثان ، فقال : التمسوا رغيثاً لابن عبيد . فرد عليه العامل : لا نجد . فلما ولى الخلافة وعاش في ثراء الملك ونعمته دخل عليه ابن عبيد وقال : لقد صدق معكم

الحق يا أمير المؤمنين في قوله :

﴿ عَسَىٰ وَبُكَرَ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكَ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وقد قال موسى لقومه هذا القول بعد أن عابروه بعدم قدرته على رد العذاب عنهم . وهكذا استقبل قوم موسى أول هزيمة لفرعون أمام موسى ، وقالوا له : أودبنا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئنا ، أي بالتذبيح ، واستحياء النساء ، وقتل الأبناء ، فكان مجيئك لم يفدنا شيئا لأننا مقيمون على العذاب الذي كنا نسامه . فلا حاجة لنا بك ، ولا ضرورة في أن تكون موجوداً ؛ بدليل أن الذي حدث بعدك هو الذي حدث قبلك .

ولم يلتفتوا إلى أن الإيذاء من قبل ومن بعد لا ينشأ إلا من عدو ، فكان موسى يرد عليهم بأن أسباب الإيذاء ستنتهي ، وأن الله سيهلك عدوكم الذي آذاكم من قبل ويؤذيكم من بعد . ولن يقتصر الأمر على هذه النعمة ؛ بل يزيدكم بأن يستخلفكم في الأرض ، ويعطيكم ملكهم ويعطيكم أرضهم . وكان هنا أمرين : الأمر الأول سلبى : وهو إهلاك العدو ، والأمر الثانى إيجابى : وهو استخلافكم في الأرض وهذا أمر لكم ، ووعد من الله بأن تكون لكم السيادة والملك وعليكم أن تنبها إلى أن نعمة الله عليكم بإهلاك عدوكم ، وباستخلافكم في الأرض لن تترك هكذا ، بل أنا رقيب عليكم أنظر ماذا تفعلون ، هل تستقبلون هذه النعم بالشكر وزيادة الإيمان واليقين والارتباط بالله ، أو تكفرون بهذه النعمة ؟

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى ﴿ عسى ﴾ فهي كلمة - كما يقول علماء اللغة - تدل على الرجاء ، ومعنى الرجاء أن ما بعدها يكون مرجو الحصول . وهناك فرق بين التمنى وبين الرجاء . فالتمنى أن تتطلب أمراً مستحيلاً أو يكون في الحصول عليه عسر ، ولكنك تريد - فقط - بالتمنى إشعار حبك له ، فأنت إذا قلت : ليت الشباب يعود ، فهذا أمر لا يكون ، ولكنك تعلن حبك لمرحلة الشباب . وقصارى ما يعطيه أن يعلمنا أنك تحب هذا التمنى . لكن هل يتحقق أولاً يتحقق . . فهذه ليست واردة .

لكن «الرجاء» شيء محبوب يوشك أن يقع ، وهكذا نعرف أن الرجاء أقوى من التمني . وأداة التمني «ليت» ، وأداة الرجاء «عسى» . وحين يكون بعد «عسى» ما يُرجى فلذلك مراحل متفاوت بقوة أسباب الرجاء في الوقوع . فأنما مثلاً إذا قلت : عسى أن أكرمك فهذا أمر يعود إليّ أنا ، لأن إكرامي لك يقتضي بقائي ، وعدم تغير نفسي من ناحيتك ، فمن الجائز أن تتغير نفسي قبل أن أكرمك ولا يقع إكرامي لك . هذا هو الرجاء من صاحب الأغيار ، ومادمت صاحب أغيار فقد لا أقدر على الإكرام ، أو أقدر ولكني لم أعد أحب هذا الأمر فقد انصرفت نفسي عنه ، وهذا يفسد الرجاء ويقلل الأمل في حصوله . فإذا قلت لإنسان : عسى أن يكرمك فلان وهو مساويه ، فهذا أمر مستبعد قليلاً ، لأن من يقول ذلك لا يملك أن يقوم فلان بإكرام المساوي له ، لأنه صاحب أغيار .

لكن إذا قلت : عسى الله أن يكرمك فهذه أقوى ، لأن ربنا لا يعجزه شيء عن إكرام إنسان . وهل يقبل الله أن يجيب رجاءك ؟ هذه مسألة تحتاج إلى وقفة ، فسبحانه من ناحية القوة له مطلق القدرة فلا شيء يعطله أو يستعصى أو يتأبى عليه . فإذا ما قال الحق عن نفسه : ﴿عسى وبكم﴾ فقد انتهت المسألة وتقرر الوعد وتحقق ، وهذا ما يقال عنه رجاء محقق . إذن مراحل الرجاء هي : عسى أن أكرمك ، وعسى أن يكرمك زيد ، وعسى الله أن يكرمك ، وأقوى ألوان الرجاء أن يعد الحق بالإكرام أو بالرحمة .

﴿صَبَّحَ رَبُّكَ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكَ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)
والكلام كما نراه هو من موسى ، ولا يقدر على هذه المسألة إلا الله ، فما موقع هذا من تحقيق الرجاء ؟ . نعلم أن موسى رسول أرسله الله لهداية الخلق ، وأرسله مؤيداً بالمعجزة ، فإذا كان الرسول المؤيد بالمعجزة قد أمره الله أن يبلغهم ذلك ، فيكون الرجاء منه مقبولاً : ﴿عسى وبكم أن يهلك عدوكم﴾ .

ومرة تكون إزالة الشيء الضار نعمة بمقردها ، أما أن يهلك الله عدوي ويعطيني الحق مكانة عدوي العالية فهذه نعمة إيجاب ، تكون بعد نعمة سلب . ومثل هذا ما سوف يحدث يوم القيامة ، لأن الحق يقول :

﴿مَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ومجرد الزحزحة عن النار فضل ونعمة ، فمابالك بمن زُحِرَ عن النار وأُدْخِلَ الجنة ؟ . لقد قال نعمتين . وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ . وتلك وحدها نعمة تليها نعمة أخرى هي : ﴿ويستخلفكم في الأرض﴾ . لكن ثمن هذه النعم هو أن ينظر ماذا تعملون ؟ . هل ستشكرون هذه النعم وتكونون عباداً صالحين ، أو تجحدونها وتكفرونها ؟ فالإنسان ظلوم كفار .

وكلمة « ينظر » إذا جاءت على الإنسان فهم المراد منها أى يراك بناظره . وإذا أسندت لله فالأمر مختلف ، فتعالى الله أن تكون له حدة عين مثل عيوننا . لكنه سبحانه لا يجهل شيئاً لينظره ؛ لأنه هو - سبحانه - عالمه قبل أن يقع . ونعلم أن هناك فارقاً بين الحكم على المخلوق بعلم الخالق ، وبين الحكم على المخلوق بعمل المخلوق .

مثال ذلك تجد الأستاذ في مادة ما يعرف مستويات الطلاب الذين يدرسون على يديه . وعميد الكلية يقول له : ما رأيك ؟ فيقول فلان تلميذ يستحق النجاح بتقدير مرتفع والثاني لا بد أن يرسب . الأستاذ يقول هذا الحكم بناء عن علمه بحال كل طالب . لكن إذا أرسب الأستاذ طالباً بناء على تقديره دون امتحان فالطالب الذى رسب قد يقول لأستاذه : أنت شططت في الحكم ؛ ولو مكنتني من الامتحان لنجحت . وحين يقرر العميد امتحان الطالب ، ويؤدى الامتحان بالفعل ، ولكنه يرسب . هنا يتأكد للعميد أن الحكم برسوب طالب قد عرفه الأستاذ أولاً ثم تلا ذلك إخفاق الطالب في الامتحان .

إن الله سبحانه حين يقول : ﴿فينظر كيف تعملون﴾ . هو سبحانه لا ينظرها ليعلمها - حاشا لله - فهو عالمها ، ولكنه لا يريد أن يحكم بعلمه على خلقه . ولكنه يريد أن يحكم على خلقه بفعل خلقه ، وسبحانه عالم أزلاً بكل من يهدي ومن يضل ، ولذلك خلق الجنة وخلق النار لتسع كل منهما كل الخلق ، ولم يخلق أماكن في الجنة على قدر من سوف يدخلونها فقط ، وكذلك لم يخلق أماكن في

النار لا تسمع فقط أهل النار ، بل يمكنها أن تسمع كل الخلق ، ولم يحكم بعلمه في هذه المسألة ، بل يترك الحكم الأخير لواقع الأشياء مادام هناك اختيار للإنسان ، فعلى فرض أنكم جميعاً أمتتم فلکم کلکم أماكن في الجنة . وعلى فرض أنكم - والعياذ بالله - كفرتم فلکم أماكن في النار ، وسبحانه لن ينشئ شيئاً جديداً ، بل أعد كل شيء وانتهى الأمر .

وحين يأتي أهل الجنة ليدخلوا الجنة ، وأهل النار ليدخلوا النار سوف يكون لأهل الجنة مقاعد أخرى كانت مخصصة لمن دخلوا النار . ويعلن لأهل الجنة : أورثتموها وخلوها أنتم :

﴿ وَرُودُوا أَنْ تُلَكُّوا الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

وهي ميراث من الذين كانت معدة لهم ولم يقوموا بالعمل المؤهل لامتلاكها . فإياك أن تفهم أن نظر الله إلى خلقه ليعلم منه شيئاً لا . إنه العليم أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

وسبحانه يعلم أزلاً ويتحقق بسلوك الناس علمهم بأفعالهم واقعاً ، وعلم الواقع هو الذي يكون حجة على الخلق . وهنا في الآية التي نحن بصدد ثلاثه أشياء : أن يهلك سبحانه عدوكم ، وأن يستخلفكم في الأرض ، فينظر كيف تعملون . ونحقق فيما تحقق منهما .

وجاء سبحانه في مقدمة الإهلاك ، فقال :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُ الْفِرْعَوْنَ بِالْيَمِينِ وَنَقَصْنَا مِنْ

الشَّعَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَدْكَرُونَ ﴿١٣﴾

وهكذا نرى أن الإهلاك لم يحدث دفعة واحدة ، بل على مراحل لعلهم إذا أصابتهم شدة يضرعون إلى الله .

نحن نعلم أن السنة هي العام . . أى من مدة إلى نهاية مدة مثلها ، لكنها تطلق - أيضاً - على الجذب والقحط . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعائه على قومه :

« اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »^(١)

أى أن يتزل بهم سبحانه بعضاً من الجذب ليتأدبوا قليلاً .

ويقال : « أسنت القوم » أى أصابهم قحط وجذب . إذن فالسنة المراد منها هنا القحط والجذب .

ولماذا سماها سنة ؟ لأن نعم الله متوالية كثيرة ، وابتلاءاته لخلقها بالشر قليلة فى الكون ، وسبحانه ينعم عليهم مدة طويلة ثم يبتليهم فى لحظة ، فإذا ما ابتلاهم فى وقت يؤرخ به ، ويقال حدث الابتلاء سنة كذا . فيقال : سنة الجراد ، سنة حريق القاهرة ، وهكذا نجد الناس تؤرخ بالأحداث المنجعة ، لأن الأحداث السارة عادة تكون أكثر من الأحداث السيئة . ولذلك قلنا إن الذى يعد أيام البلاء عليه أن يقارنها بأيام الرخاء ، وعلى الواحد منا أن ينظر إلى أيام السنة التى عاشها ، إن جاء له يوم بلاء حزن نقل له : وكم مرة عشت ونعمت بالرخاء ؟ ونجد أن أيام الرخاء هى أكثر من أيام البلاء : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ﴾ .

وعرفنا أن السنين - كما قلنا - تعنى الجذب والقحط ، أما قوله سبحانه : « ونقص من الثمرات » فهو يدل على أن بعضاً من الثمار كان موجوداً ، أو كان الجذب

(١) رواه البخارى فى التفسير ، ومسلم فى المنافقين ، وأحمد ١ - ٢٨٠ ، ٤٤١

والقحط في البادية ، أما « نقص الثمرات » فكان في الحضر ، ويقال : إن النخلة الواحدة في الحضر كانت لا تطرح في السنة إلا بلحة واحدة . ولماذا هذه البلحة ؟ لأن أسباب رحمته سبحانه يجب أن تبقى في خلقه ، ولو أن النخل كله لم يطرح ولا بلحة واحدة لا تقطع نسل النخيل ؛ لذلك يُبقى الله أسباب رحمته لنا .

إننا نرى في واقعنا أنهم مهما حاولوا أن يستزرعوا فواكه بدون بذور بواسطة التقدم العلمي المعاصر ، نجد ثمرة وقد شذت وفيها بذرة ، لماذا ؟ يقال لنا لاستبقاء النوع ، فلو خرجت كل الثمار بلا بذور ثم أكلناها جميعها فكيف نزرع محصولاً جديداً ؟ ولذلك قلنا من قبل إن الحق سبحانه وتعالى من رحمته بالخلق في استبقائه للنعم ومقومات الحياة لم يجعل الثمار حلوة تستساغ إلا بعد أن تنضج بذرتها ، فأنت حين تفتح البطيخة إن كان بذرها أبيض تجد طعمها لا يستساغ وترميها . لكن حين يسود بذرها ويكون صالحاً لأن تعيد زراعته ، هنا تكون ثمرة البطيخة ناضجة وحلوة الطعم . وبذلك يوضح لك الحق أن الثمار لن تصبح مقبولة ومستساغة إلا بعد أن تنضج بذرتها لتكون صالحة لاستنباتها من جديد ، وفي هذا استبقاء للرحمة ، وحتى مع العصاة نجد سبحانه يستبقى الرحمة معهم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ (١٣١)

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ يعني أن على الإنسان أن يذكر أنه الخليفة في الأرض وأنه غير أصيل في الكون حتى يظل العالم مستقيماً . لكن الذي يفسد العالم أن الإنسان حينما تستجيب له أسباب الحياة ، وسنتها الكونية ويحترث ويبدع ويطلع الزرع ، ويشعل النار ويخرج المياه من الآبار يشي أن كل ذلك « أسباب » ولا يذكر المُسَبَّب إلا حينما تمتنع عليه الأسباب .

والمثال في حياتنا اليومية أن الإنسان منا إذا جاء ليفتح صنبور المياه في البيت فلم يجد ماءً فيتجه أول ما يتجه إلى محبس المياه الذي يتحكم في مياه المنزل ويرى هل به خلل أو سدد ، وإن وجده سليماً ، يبحث هل أنبوية وماسورة المياه الرئيسية مكسورة أو لا ؟ وإن كانت ماسورة المياه سليمة فهو يبحث عن الخلل في

آلة رفع المياه ، ويفضل يبحث في الأسباب الكثيرة ، وقديماً لم تكن المياه تأتي إلا من الآبار وعندما لا يوجد في الشراء يقول العبد : يارب اسمنى . والحضارة الآن أبعدتنا بالأسباب عن المسبب .

والحق قد أخذ قوم فرعون بالسن ونقص الثمرات ليقض أيديهم من أسبابها ، فإذا نفضت اليد من الأسباب لم يبق إلا أن يلتفتوا إلى المسبب ويقولون : « يارب » ويقول القرآن عن الإنسان :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحَبِيْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾

(من الآية ٩٢ سورة يونس)

إذن فالإنسان يذكر المسبب حين تمنع عنه الأسباب ، لأنها مقومات لحياة ، فإذا امتنعت مقومات الحياة يقول الإنسان : يارب ، وهكذا كان ابتلاء الله لقوم فرعون بأخذهم بالسنين ونقص الثمرات ليذكروا خالقهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣٦)

والحسنة إذا أطلقت فهي الأمر الذي يأتي من ورائه الخير . ولكن الحسنة مرة تكون لك ، ومرة تطلب منك ، فالحسنة التي لك في ذاتك أولاً أن تكون في عافية وسلام ، ثم الحسنة في مقومات الذات ومقومات الحياة ، وهي في النبات والحيوان ، والخصب والثروة . والحسنة المطلوبة منك هي أيضاً لك . سبحانه يطلب منك عمل شيء بورثك في الآخرة حسنة ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ هَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

وهذه هي الحسنة التي تعطى الإنسان خيراً فيما بعد . إذن فالحسنة التي في ذاك من عافية وسلامة أوفى مقومات الذات من ثمرات وحيوانات وخصب وأعشب وبراء فكلها موقوفة بزمان موقوت هو الدنيا . والحسنة الثانية غير محدودة لأن زمنها غير محدود . فأى الحسنات أرجح وأفضل بالنسبة للإنسان ؟ . إنها حسنة الآخرة .

وقوله الحق : ﴿ فِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ ﴾ أى جاء لهم قدر من الخصب والثمار وغير ذلك من الرزق يقولون : « لنا هذه » أى أننا نستحقها ؛ فواحد يقول : أنا أستحقها لأنى رتب لها وأنفقت الزراعة والحصاد مثلما قال قارون :

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

وأجرى عليه الحق التجربة ، فمادام يدعى أنه جاء بالمال على علم من عنده فليجعل العلم الذى عنده يحافظ له على المال أو يحافظ له على ذاته . وهم قالوا عن الحسنات التى يهبها الله لهم : « قالوا لنا هذه » أى نستحقها ، لأننا قدمنا مقدمات تعطينا هذه النتائج . وجرت العادة قديماً بأن يفيض النبل كل سنة يغمر الأرض ، ثم يذرون الحب وينتظرون لثمار . فلان جاءت لهم سيئة مثل أخذهم الله لهم بالسنين ينسبون ذلك لموسى .

﴿ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأعراف)

فلذا ما جاءتهم سيئة يطَّيرون أى يتشاءمون لأن الطيرة هي التشاؤم ، وضده التفاؤل ، ويقال : « فلان طائرته نحس » ، و « فلان طائرته يمن وسعد » . وقديماً حينما كانوا يريدون طلب مسألة ما ، يأتون بطير ويضعه صاحب المسألة على يده ويذره ويشيره ، فإن طار يميناً فهذا فال حسن ، وإن طار يساراً فهذا فال سيء ،

والحق هنا يوضح : لا تظنموا موسى ، لأن شؤمكم أوحضكم السيء ليس من موسى ، لأن موسى لا يملك في كون الله شيئاً ، وإنما المالك للكون هو رب موسى . وكأن الحق يريد لهم أيضاً ألا يفتنوا في موسى إن صنع شيئاً يأتي لهم بخير ، وهنا يقول لهم لا تتطبروا بموسى ، لأن طائركم من عند الله .

ولأن أحداث الحياة صنفان : حدث لك فيه مدخل ، مثل التلميذ الذي لم يذكر ويرسب ، أو إنسان لا يحسن قيادة سيارته فقادها فعطبت به أو أصاب أحداً إصابة خطيرة . وهنا لا غريم لهذا الإنسان ، بل هو غريم نفسه . وهناك شيء يقع عليك ، واسمه حدث قهرى ، فالإنسان في الأحداث بين أمرين اثنين : إما مصيبة دخلت عليه من ذات نفسه لتقصيره في شيء . وإما أحداث قدرية تنزل بالإنسان ونقول إنها من عند الله لحكمة لا يعرفها الإنسان ، لأن الإنسان ينظر إلى سطحيات الأشياء ، وإلى عاجل الأمر فيها ، ولكنه لا ينظر إلى عاقبة الأمر . ولهذا تحدث له بعض من الأحداث ليس له فيها مدخل .

مثال ذلك : أن يكون للإنسان ابن نجيب وذكى وترتيبه دائماً من العشرة الأوائل ، ثم جاء في ليلة الامتحان أو في يوم الامتحان وأصابه صداع جعله لا يعرف كيف يجيب عن أسئلة الامتحان ورسب ، وهذه مصيبة ليس له مدخل فيها .

وعادة ما يحزن الناس من مثل هذه المصائب لكن المؤمن يقول : إن الولد لم يقصر ، وهذا أمر جاء من الله ، ومبحانه منزه عن العبث ، بل حكيم ولا بد أن له حكمة في مثل هذه الأمور . وبعد مدة تبين الحكمة ، فلو كان الولد قد نجح لأصابته عين الحسد . وحدث له ما يكره ، فكأن الله يصنع له تيممة بحميه بها من الحسد . وقديماً حين كانوا يصنعون للطفل الجميل « قاسوخة » ، ولا يهتمون بنظافته ولا بملابسه ، لماذا ؟ يقال حتى لا تتجه إليه عين العائن الحاسد .

وأقول : وما الذى يدريك أن الله سبحانه وتعالى صنع الحادث الطارىء ليرد عنه العين ، ويسكت الناس عنه ؟ وما الذى يدريك أن الله أراد له أن يرسب هذا العام لأنه لم يكن يستطيع الحصول على المجموع الذى يدخله الكلية التى يريد بها ، ثم يستذكر في العام التالى وتكون المذاكرة سهلة بالنسبة له ، ونقول له : احمد ربك

على أنك لم تنجح في العام السابق وأن الله أراد بك خيراً . لتبذل جهداً وتنجح وتنال المجموع الذي أردته لنفسك .

إذن فالمقادير التي تجري على الناس يدون دخل لهم فيها ، فله فيها حكمة ، وهنا يقال : ﴿ طائركم عند الله ﴾ ، أما إن كان للإنسان دخل فيما يجري له فيقال : طائرک من عندك أنت وشؤمك من نفسك وعصيانك .

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرُوهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٣١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ألم يتطير اليهود في المدينة برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قالوا : قلت الأمطار وارتفعت الأسعار من شؤم مجيء هذا الرجل ، ولم يتفهموا حكم الله . لقد كانوا سادة في الجزيرة ، لأنهم أهل علم بالكتاب وسيطروا على حركة السوق التجارية ، وتعاملوا في الربا وتجارة السلاح وكان عندهم الحصون ، والأسلحة ، وأراد الله أن يشغلهم بأخذ شيء من أسبابهم ويهد كيانهم ليلفتهم إلى أنهم خرجوا عن المنهج إلى أن هناك رسولا قد جاء بعودة إلى المنهج .

وقوله الحق : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ يفيد أن هناك قلة تعلم . فما موقف هذه القلة ، ولماذا لم يرفضوا موقف الكثرة ؟ . كان موقفهم هو الصمت خوفاً من الطغيان ، لأن الطاغية أجبرهم وقهرهم وجعلهم يسكتون ولا يعترضون على باطل ، ونرى في حياتنا كثيراً من الناس يعلمون الزور ويعلمون الطغيان ولكنهم لا يتكلمون .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِيَنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا

فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣٢﴾ ﴾

أى وقال قوم فرعون لموسى عليه السلام : أى شىء تأتينا به من المعجزات لتصرفنا عما نحن عليه فلن نؤمن لك ، وسموا ما جاء به موسى « آية » استهزاء منهم وسخرية . وكل هذه مقدمات تبرر الإهلاك الذى قال الله فيه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَهْلِكَ عِدُّكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وأعلنوا أن ما جاء به موسى هو سحر على الرغم من أنهم رأوا السحرة الذين برعوا فى السحر وعرفوا طرائفه وبدّوا فيه سواهم قد خروا ساجدين وآمنوا ، كيف يحدث هذا والسحرة كلهم جُتمعوا إلى وقت معلوم ؟ وشهد كل الناس التجربة الواقعية التى ابتليت فيها عصا موسى كل سحر السحرة فأمنوا وسجدوا ، فكيف يتأتى لمن لا يعرفون السحر أن يتهموا موسى بالسحر ؟ وكيف يظنون أن ما يأتى به من آيات الله هو لون من السحر ؟ . إنهم يقولون كلمة « مهما » وهى تدل على استمرارية العناد فى نفوسهم مثلما يقول واحد لآخر : لقد صمت على ألا أقبل كلامك ، فيكرر الرجل : انتظر لنسمع حجتي الثانية فقد تفتعتك ، فيقول : مهما تأتى من حجج فلن أسمع لك ، وهذا يعنى استمرارية العناد والجحود والتمرد ويقدمون حيثيات هذا الجحود فيقولون :

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّنَسْحَرَنَّ بِهَا فَإِنَّا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة الأعراف)

وإذا كانوا يظنون أن آيات الله التى مع موسى من السحر ، فهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ . ولو كانت المسألة سحراً لسحركم وانتهى الأمر . وقلنا قديماً فى الرد على الذين قالوا : إن محمداً يسحر الناس ليؤمنوا به ، قلنا إذا كان هو قد سحر الناس ليؤمنوا به ، فلماذا لم يسحركم لتؤمنوا وتنفض المسألة ؟ إن بقاءكم على العناد دليل على أنه لا يملك شيئاً من أمر السحر .

وأنت ساعة تسمع كلمة « مهما » تعرف أن هناك شرطاً ، وله جواب ، ويقول العلماء : إن أصلها « مه » أى كُفَّ عن أن تأتينا بآية فلن نصدقك . وهذا يعنى أن هناك إصراراً وعناداً على عدم الإيمان .
ويبين الحق عقابه لهم على ذلك :

﴿ فَآرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ
وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

وكلمة « الطوفان » يراد بها طغيان ماء ، والماء - كما نعلم - هو سبب الحياة ، وقد يجعله الله سبباً للدمار حتى لا تفهم أن المسائل بذاتها ، بل بتوجيهات القادر عليها ، وعندما ننظر إلى الطوفان الذي أغرق من قبل قوم نوح ، ولم ينج أحد إلا من ركب مع نوح في السفينة ، وهنا مع قوم موسى لا توجد سفينة ، لأن الله يريد أن يؤكد لهم العقاب على ضغيانهم - وإذا كان الطوفان قد أصاب آل فرعون ومعهم بنو إسرائيل لدرجة أن الواحد منهم كنت المياه تبغ التراقي فيبقى واقفاً لأنه لو جلس يموت ، ويظل هكذا ، وأمطرت عليهم السماء سبعة أيام ، لا يعرفون فيها الليل من النهار ويرون أمامهم بيوت بنى إسرائيل لا تلمسها المياه ، وهذه معجزة واضحة ، لقد عمّ الطوفان وأراد الحق أن ينجي بنى إسرائيل منه دون حيلة منهم حتى لا يقال آية كونية جاءت على هيئة طوفان وانتهت المسألة ، لكن الطوفان جاء لبيوتهم ولم يلمس بنى إسرائيل .

وقال الرواة : إن الطوفان دخل على فرعون حتى صرخ واستنجد بموسى ، وقد له : كف عنا هذا ونؤمن بما جئت به ، ودعا موسى ربه فكف عنهم الطوفان . لكنهم عادوا إلى الكفر .

وجعل الله من آياته لمحات ، وإشارات ، بدأت بالطوفان ، وحين يوضح ربنا - أنا عذبت بالطوفان قوم نوح ، وقوم فرعون ، فهو يعطينا ملامح تشعرنا بصدق القضية ، فيهبط السيل في أى بلد ويهدم الديار ويفرق الزرع والحيوانات ، لنرى صورة كونية ، وكذلك الجراد يرسله الله على فرات فيهبط في أى وقت من الأوقات ، ونقيم الحملات لمكافحته ، وهذا دليل على صدق الأشياء التي حكى الله عنها ، فلو لم يوجد جراد ولا طوفان لكنا عرضة ألا نصدق . وإبتلاهم الله بالقمل كذلك .

« والقُمَّل » هو غير القُمَّل . فالقُمَّل هو الآفة التي تصيب الإنسان في بدنه وثيابه وتنشأ من قذارة الثياب ، أما القُمَّل فقيل هو السوس الذي يصيب الحبوب ، ومفردتها قُمَّلة ، وقيل هو ما نسميه بالقراد ، وقيل هو الحشرات التي تهلك النبات والحريث ، وحين نراه نفرع ونبحث عن تخليص الزرع منه باليد والمبيدات ، وكل ذلك من تنبيهات الحق للخلق ، وهي مجرد تنبيه وإرشاد ولقمت للالتفات إلى الحق .

وكذلك يرسل الله عليهم « الضفادع » ، وعندما يضع أى إنسان متهم يده في شيء يجد فيها الضفادع ؛ فإناء الطعام يرفع عنه الغطاء فتري فيه الضفادع ، والمياه التي يشربها يجد فيها الضفادع !! وإن فتح فمه تدخل ضفدعة في الفم !! فهي آية ومعجزة ، وكذلك « الدم » ، فكان كل شيء ينقلب لهم دماً .

ويقال: إن امرأة من قوم فرعون أرادت أن تشرب ماء ، فذهبت إلى امرأة من بنى إسرائيل وقالت لها : تحذى الماء في فمك ومُجِبه في قمى ، كأنها تريد أن تحنال على ربنا وتأخذ مياهها من غير دم ، فينتقل من فم الإسرائيلية وهو ماء ، فإذا ما دخل فم المرأة التي هي من قوم فرعون صار دماً .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَءَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ مفصلات ﴾ أى لم يأت بها جل وعلا كلها مجتمعة مع بعضها البعض لتفزعهم دفعة واحدة وتختبرهم أيعلمون الإيمان أم لا ؟ بل جاء سبحانه بكل آية مفصلة عن الأخرى ؛ فلا توجد آية مع آية أخرى في وقت واحد ، أوجاء بها علامات وأصحات فيها مواعظ وعبر ، مما يدل على موالات الإنذارات للرجبة في أن يذكروا ، وأن يرتدعوا ، فلو اذكروا وارتدعوا من آية واحدة يكف عنهم سبحانه البأس .

وأرسل سبحانه الآيات وهي : طوفان ، جراد ، قمل ، ضفادع ، دم ، هذه آيات خمس في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرننا عنها ، ومن قبل قال الحق إنه

أخذهم بالسنين ، وكذلك نقص الثمرات ، فأصبحت الآيات سبعا ، ومن قبل كانت عصا موسى التي تلفف ما صنعه السحرة فصارت ثمانى آيات ، وكذلك « اليد البيضاء » التي أراها موسى لفرعون وملئه فيصبح العدد تسع آيات ، إذن فالآيات بترتيبها هي : العصا ، واليد ، والأخذ بالسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والآيات المفصلات . . هي عجائب ؛ كل منها عجيبة يسلمها الله على من يريد إزالته ، ويتلى الله بها نوعا من الناس ولا يتلى بها قوماً آخرين . فماذا كان موقفهم من الآيات العجائب ؟ نجد الحق يذيل الآية : ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ . إنهم لم يؤمنوا ، بل تكبروا وأجرموا في حق أنفسهم وقطعوا ما بينهم وبين الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ
بِمَا عَاهَدْتَ عِنْدَ لَيْسَ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ
وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۚ ﴾

هم إذن بعد أن استكبروا وكانوا قوماً مجرمين ، وتوالت عليهم الأحداث ، والرجز هو الأمور المقزعة وما نزل بهم من العذاب ، وهنا ذهبوا إلى موسى ليسألوه أن يدعو الله ليكشف ويرفع عنهم ما نزل بهم من العقاب . إذن فهم آمنوا بأن موسى مرسل من رب ، وهم قد فهموا أن الرجز الذي عاشوا فيه لن يرتفع إلا من ذلك الرب . وهذا ينقض ربوبية إلههم فرعون ، لأنه لو كانت ربوبية فرعون في عقيدتهم لذهبوا إليه ولم يذهبوا إلى عبدوهم موسى ليسألوه أن يدعو لهم الله . ومن هنا نأخذ أكثر من قضية عقدية هي أولاً : أن ألوهية فرعون باطلة ، وثانياً : أن موسى مقبول الدعاء عند ربه ، وثالثاً : أنه إن لم يكشف ربه هذا العذاب فسيستمر هذا العذاب ، وكل هذه مقدمات تعطى الإيمان بالله .

﴿ قَالُوا يَمُرُّبَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كُنُفْتْنَا عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ
مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأعراف)

أى ادع ربك بما أعطاك الله من العهد أن ينصرك لأنك رسولك المؤيد بمعجزاته وهو لن يتخلى عنك . ادع الله أن يرفع عنا العذاب والله لئن رفعت وكشفت عنا ما نحن فيه من العذاب لنؤمنن بك ولنصدقن ما جئت به ولنرسلن ونطلقن معك بنى إسرائيل ، وقد كانوا يستخدمونهم فى أحط وأرذل الأعمال ، ولكنهم فى كل مرة بعد أن يكشف الحق عنهم العذاب يعودون إلى نقض العهد بدليل قوله سبحانه عنهم :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ
هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ ١٢٥

فكان لهم مع كل آية نقضاً للعهد ، وانظر الفرق بين العبارتين : بين قوله الحق : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ وبين قوله السابق : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كُنُفْتْنَا عَنَّا الرَّجْزَ ﴾ ، فمن إذن يكشف الرجز ؟ إن الكشف هنا منسوب إلى الله ، وكل كشف للرجز له مدة يعرفها الحق ، فهو القائل : ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ .

والنكث هو نقض العهد .

ويتابع سبحانه :

﴿ فَأَنقَضْنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ ١٢٦

ويوضح هنا سبحانه أنه مادام قد أخذهم بالعقاب في ذواتهم ، وفي مقومات حياتهم ، وفي معكرات صفوهم لم يبق إلا أن يهلكوا ، لأنه لا فائدة منهم ، لذلك جاء الأمر بإغراقهم ، لا عن جبروت قدرة ، بل عن عدالة تقدير ، لأنهم كذبوا بالآيات وأقاموا على كفرهم . ويلاحظ هنا أن أهم ما في القضية وهو الإغراق قد ذكر على هيئة الإيجاز ، وهو الحادث الذي جاء في سورة أخرى بالتفصيل ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴾ (٥٢)

(سورة الشعراء)

ولم يأت الحق هنا بتفاصيل قصة الإغراق ، لأن كل آية في القرآن تعالج موقفاً ، وتعالج لفظة من اللفظات ، لأن القصة تأتي بإجمال في موضع وبإطناب في موضع آخر ، وهنا يأتي موقف الإغراق بإجمال : ﴿ فَاَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ .

وكلمة « فأغرقناهم » لها قصة طويلة معروفة ومعروضة عرضاً آخر في سورة أخرى ، فحين خرج موسى وبنو إسرائيل من مصر خرج وراءهم فرعون ، وحين رأى بنو إسرائيل ذلك قالوا بمنطق الأحداث : ﴿ إِنَّا لَمَذْرُوكُونَ ﴾ . مذكرون من فرعون وقومه لأن أمامهم البحر وليس عندهم وسيلة لركوب البحر . لكن موسى المرسل من الله علم أن الله لن يخذله ، لأنه يريد أن يتم نعمة الهداية على يديه ، كان موسى عليه السلام ممتكناً باليقين والثقة لذلك قال بملء فيه :

﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

هو يقول : « كلا ، أي لن يدركوكم لا بأسبابه ، بل بأسباب من أرسله بدليل أنه جاء بحجيتها معها وقال : ﴿ إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ . لقد تكلم بمنطق المؤمن الذي أوى إلى ركن شديد ، وأن المسائل لا يمكن أن تنتهي عند هذا الوضع ، لأنه لم يؤد المهمة بكاملها ، لذلك قال : « كلا » بملء فيه ، مع أن الأسباب مقطوع بها . فالبحر أمامهم والعدو من خلفهم ، وأتبع ذلك بقوله : ﴿ إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ .

سيهدين ، بالحفظ والنصرة .. أى أن الأسباب التى سبق أن أرسلها معى الله فوق نطاق أسباب البشر ، فإلغى سبق أن نصره الله بها على السحرة ، وهى العصا نفسها التى أوحى له سبحانه باستعمالها فى هذه الحالة العصية قائلاً له :

﴿ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

ونعرف أن البحر وعاء للماء ، وأول قانون للماء هو السيولة التى تعينه على الاستطراق ، ولولم يكن الماء سائلاً ، وبه جمود وغلظة لصار قطعاً غير متساوية ، ولكن الذى يعينه على الاستطراق هو حالة السيولة ، ولذلك حين نريد أن نضبط دقة استواء أى سطح نلجأ إلى ميزان الماء .

وقال الحق سبحانه لموسى عليه السلام :

﴿ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

وحين ضرب موسى بعصاه البحر امتنع عن الماء قانون السيولة وفقد قانون الاستطراق ، وبصور الله هذا الأمر لنا تصويراً دقيقاً فيقول : ﴿ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ﴾ . أى صار كل جزء منه كالطود وهو الجبل ، ونجد فى الجبل الصلابة ، وهكذا فقد الماء السيولة وصار كل فرق كالجبل الواقف ، ولا يقدر على ذلك إلا الخالق ، لأن السيولة والاستطراق سنة كونية ، والذى خلقت هذه السنة الكونية هو الذى يستطيع أن يطلها . وحين سار موسى وقومه فى اليابس ، وقطع الجميع الطريق الموجود فى البحر سار خلفهم فرعون وجنوده وأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليعود إلى السيولة وإلى الاستطراق حتى لا يتبعه فرعون وجنوده ، وهذا تفكير بشرى أيضاً ، ويأتى لموسى أمر من الله :

﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الدخان)

أى أترك البحر ساكناً على هيئته التى هو عليها ليدخله فرعون وقومه ، إنه سبحانه لا يريد للماء أن يعود إلى السيولة والاستطراق حتى يُغرى الطريق اليابس

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿٤٣٢٥﴾

فرعون وقومه فيأتوا وراءكم ليلحقوا بكم ، فإذا ما دخلوا واستوعبهم اليايس ، أعدنا سيولة الماء واستطرقه فيغرقون ؛ ليثبت الحق أنه ينجي ويهلك بالشئ الواحد ، وكل ذلك يجمله الحق هنا في قوله : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم ﴾ . و « اليم » هو المكان الذي يوجد به مياه عميقة ، ويطلق مرة على المالح ، ومرة على العذب ، فمثلاً في قصة أم موسى ، يقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيْهِ فَإِذَا اخْتَفَتْ عَلَيْهِ قَالَتْ قَدْ وَضَعْنَاهُ فِي الْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وكان المقصود باليم هناك النيل ، لكن المقصود به هنا في سورة الأعراف هو البحر . ويأتى سبب الإغراق في قوله : ﴿ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ .

كيف إذن يعذبهم ويفرقهم نتيجة الغفلة ، ونعلم أن الغفلة ليس عليها حساب ؟ بدليل أن الصائم قد يغفل ويأكل ويصح صيامه . ويقال إن ربنا أعطى له وجبة تغذيه بالطعام وحسب له الصيام لأنه غافل . لكن هنا يختلف أمر الغفلة ؛ فالمراد بـ « غافلين » هنا أنهم كانوا قد كذبوا بآيات الله ثم أعرضوا إعراضاً لا يكون إلا عن غافل عن الله وعن منهجه ، ولو أنهم كانوا عباداً مستحضرين لمنهج الله لما صح أن يغفلوا ، وهذا القول يحقق ما سبق أن قاله سبحانه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكَ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

ثم يأتى بعد ذلك القول الذى يحقق ما سبق أن قاله سبحانه :

﴿ وَبَسَّخْنَا فِي الْأَرْضِ قَبَظًا كَبِيفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

ويقول الحق تأكيداً لذلك :

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ ﴾

مَشْرِقِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ
بِمَا صَبَرُوا وَادَّعَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ
وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

أي صارت مصر والشام تحت إمرة بنى إسرائيل ، وهى الأرض التى باركها الله ، بالخصب ، وبالنماء ، بالزروع ، بالثمار ، بالحيوانات ، وبكل شىء من مقومات الحياة ، وتوف الحياة : ﴿ وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ .

﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ أى استمرت عليهم الكلمة وتم وعد الله الصادق بالتمكين لبنى إسرائيل فى الأرض ونصره إياهم على عدوهم ، واكتملت النعمة ؛ لأن الله أهلك عدوهم وأورثهم الأرض ، وتحققت كلمته سبحانه التى جاءت على لسان موسى :

﴿ وَيَسْتَخْلِفُ فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

هكذا تمت كلمة الله بقوله سبحانه :

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأعراف)

ونعلم أن كلمة « مشرق ومغرب » تقال بالنسبات ، فليس هناك مكان اسمه مشرق وآخر اسمه مغرب ، لكن هذه اتجاهات نسبية ؛ فيقال هذا مشرق بالنسبة لمكان ما ، وكذلك يقال له « مغرب » بالنسبة لمكان آخر . وحين يستقل الإنسان إلى مكان آخر يوجد مشرق آخر ومغرب آخر . وعلى سبيل المثال نجد من يسكن فى الهند واليابان يعلمون أن منطقة الشرق الأوسط بالنسبة لهم مغرب ، ومن

يسكنون أوربا يعرفون أن الشرق الأوسط بالنسبة لهم مشرق .

وقلنا من قبل : إن الحق حين جاء « بالشرق والمغرب » بصيغة الجمع كما هنا فذلك إنما يدل على أن لكل مكان مشرقاً ، ولكل مكان مغرباً ، فإذا غربت الشمس في مكان فهي تشرق في مكان آخر . وفي رمضان نجد الشمس تغرب في القاهرة قبل الإسكندرية بدقائق .

وتعلم أن سبب هذه الدورة إنما هو ليبقى ذكر الله بكل مطلوبات الله في كل أوقات الله ، مثال ذلك حين نصلي نحن صلاة الفجر نجد أناساً يصلون في اللحظة نفسها صلاة الظهر ، ونجد آخرين يصلون صلاة العصر ، وقوماً غيرهم يصلون صلاة المغرب ، وغيرهم يصلون صلاة العشاء . وبذلك تحقق إرادة الله في أن هناك عبادة في كل وقت وفي كل لحظة ، فحين يؤذن مسلم قائلاً « الله أكبر » لينادي لصلاة الفجر ، هناك مسلم آخر يقول : « الله أكبر » منادياً لصلاة الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء ، وهذا هو الاختلاف في المطالع أراد به سبحانه أن يقلل اسمه المذكوراً على كل لسان في كل مكان لتعلموا « الله أكبر ، الله أكبر » في كل مكان .

وأنت إذا حسبت الزمن بأقل من الثانية تجد أن كون الله لا يخلو من « لا إله إلا الله » أبداً : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى ﴾ . ونعلم أن كلمة « الحسنى » وصف للمؤث ، و « كلمة » مؤنثة ، والكلمة هي قول الحق :

﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

الْوَارِثِينَ ۝١٠﴾

(سورة القصص)

لقد قال الحق القصة بإيجاز ، وهذه هي التي قالها ربنا وهي كلمة « الحسنى » لأنه سبحانه لم يعط لهم نعمة معاصرة لنعمة العدو ، بل نعمة على أنقاض العدو ، فهي نعمة تضم إهلاك عدوهم ، ثم أعطاهم بعد ذلك أن يجعلهم أئمة وهداة وورثهم الأرض : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ . وهم بالفعل قد صبروا على الإيذاء الذي نالوه وذكره سبحانه من قبل حين قال :

﴿بَسْمُونُكُرْ سُرَّةَ الْعَلَابِ يَذِيعُونَ أَبْنَاءَ كُرْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُرْ﴾

(من الآية ٤٩ سورة البقرة)

وجاء عقاب الله لقوم فرعون :

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الاعراف)

والتدمير هو أن تدك شيئاً وتخربه ، وقد ظل ما فعله الله بقوم فرعون باقياً في الآثار التي تدلك على عظمة ما فعلوا ، وتجد العلماء في كل يوم يكتشفون تحت الأرض آثاراً كثيرة . ومن العجيب أن كل كشوف الآثار تكون تحت الأرض ، ولا يوجد كشف أثرى جاء من فوق الأرض أبداً .

وكلمة « دمرنا » تدل على أن الأشياء المدمرة كانت عالية الارتفاع ثم جاءت عوامل التعمرية لتغطيها ، ويبقى الله شواهد منها لتعطينا نوع ما عَمَرُوا ، كالأهرام مثلاً . وكل يوم نكتشف آثاراً جديدة موجودة تحت الأرض مثلما اكتشفنا مدينة طيبة في وادي الملوك ، وكانت مغطاة بالتراب بفعل عوامل التعمرية التي تنقل الرمال من مكان إلى مكان . وأنت إن غبت عن بيتك شهراً ومع أنك تغلق الأبواب والشبابيك قبل السفر ؛ ثم تعود فتجد التراب يغطي جميع المنزل والأثاث ؛ كل ذلك بفعل عوامل التعمرية التي تنفذ من أدق الفتحات ، ولذلك لو نظرت إلى القرى القديمة قبل أن تنشأ عمليات الرصف التي تثبت الأرض نجد طرقات القرية التي تقود إلى البيوت ترتفع مع الزمن شيئاً فشيئاً وكل بيت تنزل له قليلاً ، وكل فترة يردمون أرضية البيوت لتعلو ، وكل ذلك من عوامل التعمرية التي تزيد من ارتفاع أرضية الشوارع . وكل آثار الدنيا لا تكتشف إلا بالتنقيب ، إذن فكلمة « دمرنا » لها سند . والحق يقول عن أبنية فرعون :

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾

(سورة الفجر)

ونجد الهرم مثلاً كشاهد على قوة البناء ، وإلى الآن لم يكتشف أحد كيف تم بناء الهرم . وكيف تنماسك صخوره دون مادة كالأسمنت مثلاً ، بل يقال : إن بناء

الهرم قد تم بأسلوب تفريغ الهواء ، ولا أحد يعرف كيف نقل المصريون الصخرة التي على قمة الهرم . إذن فقد كانوا على علم واسع . وإذا ما نظرنا إلى هذا العلم عمارة وآثاراً وتحنيطاً لجثث القدماء ، إذا نظرت إلى كل هذا وعلمت أن القائمين به كانوا من الكهنة المنسوبين للدين ، لناكدنا أن أسرار هذه المسائل كلها كانت عند رجال الدين ، وأصل الدين من السماء ، وإن كان قد حُرّف . وهذا يؤكد لنا أن الحق هو الذي هدى الناس من أول الخلق إلى واسع العلم .

﴿ وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَظَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَشَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (١٧٧)

(سورة الاعراف)

و « يعرشون » أى يقيمون جنات معروشات ، وقلنا من قبل : إن الزروع مرة تكون على سطح الأرض وليس لها ساق ، ومرة يكون لها ساق ، وثالثة يكون لها ساق لينة فيصنعون له عريشة أو كما نسميه نحن التكمية لتحمله وتحمل ثمره .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَجَنَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴾ (١٧٨)

لقد قالوا ذلك وهم مازالوا مغموين في نعم الله إنجاء من عدو ، واستخلافاً في الأرض ، ومع ذلك بمجرد أن طلعموا إلى البر ورأوا جماعة يعبدون صنماً طالبوا موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه . لقد حسدوا من يجهلون قيمة الإيمان ويمكفون على عبادة الأصنام ، ويمكف تعنى أن يقيم إقامة لازمة ، ومنه الاعتكاف

فى المسجد ، أى الانقطاع عن حركة الحياة خارج المسجد إلى عبادة الله فى بيته .

﴿ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأعراف)

وهذا القول من قوم موسى هو قمة الغباء ، كان الإله بالنسبة لهم مجهول على رغم أنه قد أسبغ عليهم من النعم الكثير ، وهذه أول خيبة ، وهم يريدون أن يكون الإله مجعولاً برغم أن الإله بكماله وطلاقة قدرته جاعل ، ولكن عقليتهم لم تستوعب النعم الغامرة وقلوبهم مغلقة لم يعمها الإيمان . وقالوا : اجعل لنا إلهاً ! وأرادوا أن ينحت لهم الأصنام ، وقد يقول واحد منهم : رأس الإله كبيرة قليلاً صغرها بعض الشيء ، وأنفه غير مستقيمة فلنعديلها بالإزميل ، وقولهم : ﴿ اجعل لنا إلهاً ﴾ . وهذا ما يجعلنا نفهم أن عقولهم لم تستوعب حقيقة الإيمان ؛ لذلك يقول لهم موسى : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ .

ولم يقل لهم : « لا تعلمون » بل قال : « تجهلون » لأن هناك فرقاً بين عدم العلم بالشئ ، وبين الجهل بالشئ ، فعدم العلم يعنى أن الذهن قد يكون خالياً من أى قضية ، أما « الجهل » فهو يعنى أن تعلم مناقضاً للقضية ، إذن فهناك قضية يعتقد بها الجاهل ولكنها غير واقعية . أما الذى لا يعلم فليس فى باله قضية ، وحين تأتى له القضية يقتنع بها ، ولا يحتاج ذلك إلى عملية عقلية واحدة مثل الأمل مثلاً الذى لا يعلم ، لأن ذهنه خال من قضية ، أما الذى يعلم قضية مخالفة فهو يحتاج من الرسول إلى عمليتين عقليتين : الأولى أن يخرج ما فى نفسه من قضية الجهل ، والثانية أن يعطى له القضية الجديدة ، إن الذى يرهق العالم هم الجهلاء لا الأميون ، لأن الأمي حين تعطى له المعلومة فليس عنده ما يناقضها . لكن الجاهل عنده ما يناقضها ويخالف الواقع .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعَاتٌ لَّذِينَ ظَلَمُوا فَسَوْفَ يَكُونُ لَكُمُ الْآيَةُ الْكُبْرَىٰ فِي أَنْفُسِكُمْ أَن تَأْمَنُوا بَمَا خَلَقْتُمُوهُمْ فَتَرَاهُمُ يَكُونُونَ سَمَكًا يَسبحان الله الذى لا يعلم ما كنا نعمل ﴾

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٦﴾

و «مُتَبِّرٌ» أى هالك ودمر ، وهنا يوضح لهم موسى أن هؤلاء الجماعة التى تعبد الأصنام ، وهم وأصنامهم هالكون ، وما يعملون هو باطل لأن قضايا الكون إن أردتم أن تعرفوا حقيقتها فلا بد لها من ثبوت ، والحق ثابت لا يتغير أبداً لأن له واقعاً يُستقر ، ومثال ذلك إذا حصلت حادثة بالفعل أمامنا جميعاً ، ثم طلب من كل واحد على انفراد أن يقول ما رآه فلن نختلف فى الوصف لأننا نستوحى واقعاً ، لكن إن كانت القضية غير واقعة فكل واحد سيقولها بشكل مختلف ، ولذلك نجد من لباقة القضاء أن القاضى يحاور الشهود محاورات ليتبين ما يشئون عليه وما يتضاربون فيه . وإن كان الشهود يستوحون حقيقة واقعة ، فلن يختلفوا فى روايتهم ، ولكنهم يختلفون حين لا يتأكد أحدهم من الواقعة أو أن تكون غير حقيقية .

والمثل العربى يقول : « إن كنت كذوباً فكن ذكوراً » أى إن كذبت - والعباذ بالله - وقلت قولاً غير صادق فعليك أن تتذكر كذبتك ، وأنت لن تتذكرها لأنها أمر متخيل وليس أمراً ثابتاً . وقد يجوز أن يأخذ غير الواقع زهوة ولمعاناً فنقول : إياك أن تغتر بهذه الزهوة لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّبِيلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ

الْأَمْثَالَ ﴿١٣٧﴾

(سورة الرعد)

لقد شبه سبحانه الباطل بالزبد وهو ما يعلو السائل أو الماء من الرغوة والقش والمخلفات التى تعوم على سطح المياه إنه يتلاشى ويذهب ، أما ما ينفع الناس فيبقى . ونحن نختبر المعادن لنعرف هل هى مغشوشة أولاً . ونعرضها على النار ، فيطفو ما فيها من مادة غير أصيلة وما فيها من شوائب ، ويبقى فى القاع المعدن الأصيل .

وهنا يقول الحق على لسان موسى :

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَبِطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٢٩)

(سورة الاعراف)

والأحداث إما فعل أو قول ، والقول : عملية اللسان ، والفعل : ليقية الجوارح ، وكل الأحداث ناشئة عن قول أو عن فعل ، والقول والفعل معاً هما « عمل » . ولذلك يقول الحق :

﴿ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٢ سورة المائدة)

إذن فالعمل يشمل القول ، ويشمل الفعل .

وقوله الحق : ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ إن الأصنام التي كانوا يصنعونها ويعبدونها ، كانت تقوم على أقوال وأفعال ، كأن يقولوا : يا هبل ، يا لات ، يا عزى ، ويناجون هذه الأصنام ويطلبون منها أن تحقق لهم بعضاً من الأعمال وكانوا يقفون أمامها صاغرين أذلاء ، إذن فقد صدر منهم قول وفعل يضمهما معاً العمل .

ويتابع الحق على لسان موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ

فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١٣٠)

هم حينما قالوا لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال لهم أولاً : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ ، ثم قال : ﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ ، وبعد ذلك رجع إلى الدليل على أن هذا طلب جهل ، وأن الذين يعبدون الأصنام

من دون الله إنما يفعلون باطلاً ، فقال : ﴿ قال أغير الله أبغىكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾ .

وقوله : ﴿ أغير الله ﴾ أى أن الإله الذى عرفتم بالتجربة العملية أنه فضلكم على العالمين ورأيتم ما صنع بعبادكم الذى استذلكم وسامكم سوء العذاب ، إنه قد أهلكه ودمره ، هل يمكن أن تطلبوا رباً غيره ؟

وقوله : ﴿ قال أغير الله أبغىكم ﴾ أى أطلب لكم إلهاً غيره ؟ وفى سؤاله هذا استنكار لأنه يتبعه بتفضيل الله لهم على العالم ، ثم أراد أن يذكرهم بقمة التفضيل لهم فيقول سبحانه على لسان موسى :

وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ
سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ
وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

وإذا سمعت « إذ » فافهم أن معناها ظرف زمان يريد الحق أن نتذكر ما حدث فيه ، و « إذ » بمعنى اذكروا جيداً ولا يغيب عن بالكم حين أنجاكم الله من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب وأفظعه وأشدّه .
ويقول بعدها مبيناً ومفسراً ذلك العذاب : ﴿ يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ .

ونلاحظ أنه لم يأت بالعطف هنا ، فلم يقل : يسومونكم سوء العذاب ويقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم . مما يدل على أنه جاء بقمة سوء العذاب ؛ لأن الاحتقار ، والتسخير هما جزء من العذاب . لكن قمة العذاب هى ثقيل الأبناء ، واستحياء النساء .

وفى آية ثانية يقول سبحانه :

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ بِسُوءِ مُؤَمِّرِكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَيِّعُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾

(من الآية ٤٩ سورة البقرة)

أى أنهم تعرضوا للتقتيل ، وتعرضوا للتذبيح ، وفى آية ثالثة يقول :

﴿إِذْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ بِسُوءِ مُؤَمِّرِكَ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَيِّعُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾

(من الآية ٩ سورة إبراهيم)

لقد جاء به الواء هنا للعطف . لأن المتكلم هنا مختلف ، فقد يكون المتكلم الله ، وسبحانه يمتن بقيمة النعم . لكن : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا﴾ ، فموسى يمتن بكل النعم التى ساقها الله إلى بنى إسرائيل صغيرة وكبيرة .

ويذيل الحق الآية الكريمة : ﴿وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ .

هو بلاء شديد الإيلام والوقع لفراق من يقتل أو يذبح ، وبلاء آخر فى الهم والحزن على من يستبقى من النساء لاستباحة أعراضهن وامتهانهن فى الخدمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ

فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ

هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ

الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٩﴾

وعلمنا من قبل فى مسألة الأعداد أن هناك أسلوبين : الأسلوب الأول إجمالى ،

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿ ٤٢٣٥ ﴾

والثاني تفصيلي ؛ فمرة يتفق التفصيل مع الإجمال ، وبذلك لا توجد شبهة أو إشكال ، وسبحانه في سورة البقرة يقول :

﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

(من الآية ٥١ سورة البقرة)

جاء بها هناك بالإجمال . ولكنه شاء هنا في سورة الأعراف ألا يأتي بها مرة واحدة مجملة . بل فصلها بثلاثين ليلة ثم أتمها الحق بعشر آخر لمهمة سنعرفها فيما بعد ، ليكون الميقات قد تم أربعين ليلة ، وإذا جاء العدد مجملاً مرة ، ومفصلاً مرة ، واتفق الإجمال مع التفصيل فلا إشكال . لكن إذا اختلف الإجمال عن التفصيل فعادة يُحْمَلُ التفصيل على الإجمال ، لأن المفصل يمكن أن يتداخل ليصير إلى الإجمال .

وضربنا من قبل المثل في خلق السماء والأرض في ستة أيام ، وكل آيات الخلق تأتي بخبر الستة الأيام وهي مجملة . لكنه شاء سبحانه في موضع آخر بالقرآن أن يقول :

﴿ قُلْ أَنتُمْ لَا تَسْكَفُورُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ إِعْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٥١ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَاتٍ ٥٢ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلْسَائِلِينَ ٥٣ ﴾

(سورة فصلت)

وظاهر الأمر هنا أن المهمة قد اكتمل أمرها وخلقها في ستة أيام ، لكنه قال جل وعلا بعدها :

﴿ ثُمَّ أَسْرَوْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ٥٤ فَفَضَّلْنَاهُنَّ مَسِجَعًا مَّشْرُوعًا فِي يَوْمَيْنِ ﴾

(الآية ١١ وجزء من الآية ١٢ سورة فصلت) .

وهنا في موقف أيام خلق الدنيا نجد إجمالاً وتفصيلاً ، والتفصيل يصل في ظاهر

الامر بأيام الخلق إلى ثمانية ، والإجمال يحكى أنها ستة أيام فقط .

فهل هي ستة أيام أو ثمانية أيام ؟ نقول : إنها ستة أيام لأننا نستطيع أن ندخل المفصل بعضه في بعضه ، فإذا قلت : سافرت من مصر إلى طنطا في ساعتين ، وإلى الإسكندرية في ثلاث ساعات ، فمعنى هذا القول أن الساعتين دخلتا في الثلاث الساعات : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾ .

والوعد هو أن الله وعد موسى بعد أن تحدث عملية إتجاه بنى إسرائيل أنه - سبحانه - سيتزل عليه كتاباً يجمع فيه كل المنهج المراد من خلق الله لتسير حركة حياتهم عليه ، لكن ما إن ذهب موسى لميقات ربه حتى عبدوا العجل ، في مدة الثلاثين يوماً ولم يشأ الله أن يرسل موسى بعد الثلاثين يوماً بل أتمها بعشر أخرى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ، لأنه بعد أن عاد أمسك برأس أخيه يعنقه ويشند عليه ويأخذ بلحيته يجره إليه إذ كيف سمح لبنى إسرائيل أن يعبدوا العجل . وفي ذلك يقول الحق على لسان هارون :

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا يَرَأَيْتُ إِلَى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۝٩١﴾

(سورة طه)

فكان العشرة أيام زادوا عن الثلاثين يوماً ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة في سورة البقرة .

وهنا يقول الحق في سورة الاعراف :

﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَقْنِي فِي قَوْمٍ وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ۝٩٢﴾

(من الآية ٩٢ سورة الاعراف)

و « اخلفني » أي كن خليفة لي فيهم إلى أن أرجع وذلك فيما هو مختص بموسى من الرسالة فاستخلاف موسى لهارون ليس تكليفاً لهارون بامتداد لإرسال الله لموسى وهارون ، فأسلوب تقديم موسى وهارون أنفسهما لفرعون جاء بضمير التثنية التي تجمع بين موسى وهارون :

﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾

(من الآية ٤٧ سورة طه)

لأن كلا منهما رسول ، وقول الحق : ﴿ وقال موسى لأخيه هارون ﴾ فيه التعنن ، أى أنتى لى بك صلة قبل أن تكون شريكاً لى فى الرسالة فأنأ أخ لك وأنت أخ لى ، ومن حقى عليك أن تسمع كلامى وتخلقنى . فالأخوة مقرونة بأنك شريك معى فى الرسالة ، إذن نجد أن موسى قد قدم حيثية الأخوة ، والمشاركة فى الرسالة . وأكد موسى عليه السلام بكلمة « قومى » أنهم أعزاء عليه ، ولا يريد بهم إلا الخير الذى يريده لنفسه ، فإذا جاءكم بأمر فاعلموا أنه لصالحكم ، وإذا نهاكم نهياً فاعلموا أن موسى هو أول من يطبقه على نفسه .

وقيل كان موسى عليه السلام قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه ، ولابد أن يكون الإعداد بطهر وبتطهير وبتزكية النفس بصيام ، فصام ثلاثين يوماً ، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه ، فأخذ سواكاً وتسوك به ليذهب رائحة فمه ، فأوضح الحق سبحانه له : أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك . وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أن تقبل على بريح المسك فرد عشرة أيام ؛ حتى تاتى كذلك . وقال بعض العلماء : إن تفصيل الأربعين إلى ثلاثين وإلى عشرة ، لأن الثلاثين يوماً هى الأيام التى عبد فيها القوم بعد موسى العجل ، فكان ولابد أن تكون هناك فترة من الفترات ؛ حتى يميز الله الخبيث من الطيب .

﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وهنا أمر ونهى « أصلح » هى أمر ، و« لا تتبع » هى نهى ، ونعرف أن كل تكاليف الحق سبحانه وتعالى محصورة فى « افعل كذا » ، و« لا تفعل كذا » ، ولا يقول الحق للمكلفين : « افعلوا كذا » إلا إذا كانوا صالحين للفعل ولعدم الفعل ، وإن قال لهم : « لا تفعلوا » فلا بد أن يكونوا صالحين أيضاً للفعل ولعدم الفعل ، ولذلك أوضحنا من قبل أن الله ركز كل التكليف فى مسألة آدم وحواء فى الجنة فقال : ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ ، وكان هذا هو الأمر . وقال : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ ، وهذا نهى : ﴿ وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ .

وكلمة « أصلح » تستلزم أن يبقى الصالح على صلاحه فلا يفسده ، وإن شاء أن يزيد فيه صلاحاً فليفعل . وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ لأنه قول موجه لنبي وهو هارون ، لا يتأتى منه الإفساد ، ولكن موسى أعلمه أنه ستقوم فتنة بعد قليل ، فكان موسى قد ألهم أنه سيحدث إفساد ، فقصارى ما يطلبه من أخيه هارون ألا يتبع سبيل المفسدين ، ولذلك يقول هارون بعد ذلك مبرراً تركه بنى إسرائيل على عبادة العجل بعد أن بذل غاية جهده في منعهم وإلذارهم حتى فُهِرُوا واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه .

﴿ إِنِّي نَحِشِبْتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْتُبْ قَوْلِي ﴾

(من الآية ٩٤ سورة طه)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ ارْجِعْ
أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ
اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَبَيَّنَ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ
جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ
سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

والمِيقَاتُ هو الوقت الذي يعد لعمل من الأعمال ، ونسبه وقت العمل . وغلب على أشياء في الإسلام ، كمواقيت الحج . ونحن نعلم أن كل عمل يحدث يتطلب أمرين يُظَرَفُ فيهما ، أى يكونان ظرفاً له ؛ فلا بد له من مكان يحدث فيه ، ومن زمان يحدث فيه كذلك ، واسمهما ظرف الزمان ، وظرف المكان . إلا أن ظرف الزمان غير قار أى غير ثابت ؛ فقد يأتى الصبح ويذهب ويأتى بعده ، الظهر ، والمصر والمغرب والعشاء . لكن ظرف المكان قار وثابت .

والمواقيت - إذن - إما أن يتحكم فيها الزمان ، وإما أن يتحكم فيها المكان ، وإما أن يتحكم فيها المكان والزمان معاً . فإذا أخذنا المواقيت على أنها زمن كل فعل نجد فريضة « الصوم » لها زمن محدد وهو رمضان . فالتى يتحكم فى الصوم هو الزمن ، فيكون ويحدث فى أى مكان . وكذلك صيام عرفة يتحكم فيه أيضا الزمان لأنه صيام يوم عرفة ، ومن يجلس فى أى مكان يصوم يوم عرفة ولكنه غير مطلوب من الحاج . ولكن الوقوف بعرفة يتحكم فيه المكان والزمان معاً . والإحرام بالحج أو العمرة يتحكم فيه المكان وهو ما يسمى بالميقات المكانى ولكل أهل جهة ميقاتهم المكانى الذى يطلب منهم ألا يمروا عليه إلا وهم محرمون . فمرة يتحكم الزمان ، ومرة يتحكم المكان ، وثالثة يتحكمان معاً .

وجاء موسى لميقاتنا المضروب له بعد أربعين ليلة .

وهل جاء موسى للميقات أو جاء فى الميقات ؟ لقد جاء فى الميقات ، واللام تأتى بمعنى « عند » . ونعلم أن « اللام » تأتى بمعنى « عند » كثيراً فى القرآن ، مثل قوله :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

أى أقم الصلاة عند دلولك الشمس أى عند زوالها عن وسط وكبد السماء إلى غسق الليل . ومن الدلولك إلى الغسق نجد صلاة الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء ، وهذه أربعة فروض ، وبقي الفرض الخامس وهو الفجر ، وقال فيه الحق :

﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

ولماذا بدأ بدلولك الشمس ؟ وهل النهار يبدأ بالظهر أو يبدأ بالصبح ؟ . إن الإسراء والمعراج كانا ليلاً ، ورسول الله جاء صباحاً إلى مكة ، وقد فرضت الصلاة فى المعراج ، فكانت أول فريضة هى الظهر ، وكأن الحق يعنى نخذ الغاية ونخذ البداية ، وكانت البداية هى صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبقي الفجر ،

وجاء فيه : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ .

ثم يخص الله رسوله بالتهجد وهو قيام الليل إنه فرض على رسول الله دون غيره ، فإنه بالنسبة لسائر الأمة تطوع .

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَنِّي أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (٥١)

(سورة الإسراء)

ومن يتشبه برسول الله فله الثواب الجزيل والأجر العظيم ولكن هذا الأمر مرجعه إلى اختيار المسلم : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ .

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث ، وقوله سبحانه : ﴿ وكلمه ربه ﴾ هو قول يدل على أن كلاماً حصل من الله لموسى فكيف يحدث ذلك وسبحانه قد قال في مسألة الكلام بالنسبة للبشر كلاماً عاماً :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ

بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

وفي هذا نفى أن يكلم الله البشر . إلا بالوسائل الثلاث : الوحي أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ، والوحي بالنسبة للأنبياء يكون بإلقاء المعنى في قلب النبي دفعة ، مع العلم اليقيني بأن ذلك من الله عز وجل ، وقد يراد بالوحي الإلهامات ؛ مثل الوحي إلى أم موسى ، والوحي إلى الحواريين ، وكذلك إلى الملائكة ، وقد يراد بالوحي : التسخير ؛ كالوحي للأرض ، والنحل .

وبعد ذلك . . « أو من وراء حجاب » أي أن يسمع كلاماً ولا يرى متكلماً ، « أو يرسل رسولاً » هو جبريل عليه السلام . والقرآن لم ينزل إلا بطريقة واحدة ، بواسطة نزول جبريل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فما نزل القرآن بالإلهام ، وما نزل القرآن من وراء حجاب بل نزل بواسطة رسول من الله وهو جبريل وله علامات .

وهنا في كلام موسى نقول إن الكلام وقع فيه من وراء حجاب وهنا نمسك عن الخوض فيما وراء ذلك لأنه غيب لم يكشف لنا عنه ونترك الأمر فيه لله .

وقد سبق أن قلنا : إن صفات الله لا يوجد مثلها في البشر . فليس وجود الإنسان كوجود الله ، وليس غنى الإنسان كغنى الله ، وكذلك لن يكون أبداً كلامك ككلام الله ، لأن كل شيء يخص الله إنما نأخذه في إطار « ليس كمثله شيء » . وقد بين الحق سبحانه وتعالى أن كلامه لموسى تميز لموسى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة الأعراف)

ويجب أن نأخذ كل وصف يوجد في البشر ، ويوجد مثله . في وصف الله مثل « استوى » ، « جلس » ، « وجه » ، « يد » نأخذ كل ذلك في إطار « ليس كمثله شيء » .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَبْصُرَ إِلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وحينما خص الله موسى بميزة أن تكلم إليه ، حصل من موسى استشراف اصطفاي ، وكأنه قال لنفسه : مادام قد كلمني فقد أقدر أن أراه ؛ لأن استطابة الأنس تمتد للنفس سبل الأمل في الامتداد في الأشياء مثلما قال موسى من قبل رداً على سؤال الله :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّى ﴾ (١٧)

(سورة طه)

كان الجواب يكفى أن يقول : « عصا » لكنه قال :

﴿ قَالَ مِى عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسِبَا عَلَىَّ عُقُبَى ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

قال ذلك على الرغم من أن الحق لم يسأله : ماذا تفعل بها ؟ وأراد بالكلام أن

بطيل الأنس بربه ، وكأنه عرف أنه من غير اللائق أن يكون الجواب مجرد كلمة رداً على سؤال . والله المثل الأعلى - نجد الإنسان منا حين يرى طفلاً صغيراً فهو يداعبه ويطيل الكلام معه إيناساً له . وحين وجد موسى أن الله يكلمه استشرت نفسه أن يراه : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك ﴾ .

لم يقل موسى : أرني ذاتك . بل قال : ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله ، لكن إن أراه الله ، فهذا أمر بمشيئة الحق . وقدم موسى الطلب معلقاً بمشيئة الله وإرادته ؛ لأنه يعلم أنه غير معد لاستقبال رؤية الله ؛ لأن تكوينه لا يقوى على ذلك ، وحتى في الوحي والكلام لم يكلم ربنا الناس مباشرة ، بل لابد أن يصطفى من الملائكة رسلاً ، ثم تكون مرحلة ثانية أن يصطفى من البشر رسلاً ، ويبلغ الرسل الناس كلام الله ؛ لأن الصفات الكمالية العليا المخالفة لا يمكن أن يستوعبها المخلوق .

ضربنا المثل من قبل - والله المثل الأعلى - بصناعات البشر ، وأن الإنسان حين ينام ليلاً ، قد يستيقظ لأي شيء ، فإذا كانت الدنيا ظلاماً قد يحطم الأشياء التي هي أقل منه أو تحطمه الأشياء التي هي أكثر صلابة منه ؛ وإن اصطدم بشيء صغير فقد يكسره ، وإن اصطدم بدولاب أو حائط فقد يتكسر الإنسان . ولذلك ترك الإنسان في البيت شيئاً من النور الضئيل ؛ ليستفيد من سكون الليل وظلمته ، فيضع ما تسميه « الوتاسة » قوة شمعتين أو خمس شمعات ، ولا يقدر أن يركبها على قوة التيار الموجود في المنزل ؛ لأنها تفسد فوراً ، لذلك يأتي لها بمحول يأخذ من القوى ويعطى الضعيف .

إذن إذا كانت صناعة البشر نجد فيها الضعيف الذي لا يأخذ من القوى إلا بواسطة ، فمن باب أولى أنه لا يمكن أن ينلقى خلق الله عن الله إلا بواسطة . وكانت الوساطة من البشر اصطفاً ومن الملائكة اصطفاً ، فليس كل ذلك صالحاً لهذه المسألة ، فمصطفى من الملائكة يعطى مصطفى من البشر .

وبعد ذلك يعطى المصطفى من البشر للبشر . كذلك الرؤية وسيظهر ذلك لنا حينما يعطى الله الدليل على أنه خلقكم لا على هيئة أن تروه الآن ، ولكن حين

تبرزون في الآخرة وتعدون إعداداً آخر ، فمن الممكن أن تنالوا شرف رؤيته : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ .

ولا يستوى الناس في ذلك ؛ لأن المؤمن هو من ينال شرف النظر إلى الله ، أما الكافر فهو محجوب عن رؤية الحق . يقول تعالى في شأن الكفار : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ فلا يستوى المؤمن والكافر في هذه الحالة ، فمادام الكافر محجوباً فالمؤمن غير محجوب ويرى ربه . وقال موسى : ﴿ رب أرني أنظر إليك ﴾ . قال الحق : ﴿ قال لن تراني ﴾ .

وفي اللغة نجد أن « لن » تأتي تأييدية ، أي تؤيد المستقبل أي لا يحدث ولا يتحقق ما بعدها . فهل معنى ذلك أن قول الحق : ﴿ لن تراني ﴾ أن موسى لن يرى الله في الدنيا ولا في الآخرة ؟ . ونقول : ومن قال إن زمن الآخرة هو زمن الدنيا ؟ إن هذه لها زمن وتلك لها زمن آخر :

﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءُ بِطَرَاةٍ ۚ وَرَبُّوهُ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝١٨﴾

(سورة إبراهيم)

إذن فزمن الآخرة وإعادة الخلق فيها سيكون أمراً آخر ، يكفي أن أهل الجنة سيأكلون ولن تكون لهم فضلات ، إنه خلق جديد . إن مجيء « لن » في قوله الحق : ﴿ لن تراني ﴾ تأييدها إضافي ، أي بالنسبة للدنيا ، وفيها تعليل لعدم قدرة موسى على الرؤية ، وأضاف سبحانه :

﴿ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقْرَمَكَهُ قَوَّفَ رَبِّي فَلَا تَجِدُ رَيْبَهُ الْجَبَلِ ۚ جَعَلَهُ دَكًّا وَرَمَؤُمْنِي صَعِقًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وسبحانه هنا يعلل لموسى بعملية واقعية فأوضح : لن تراني ولكن حتى أطمئنت أنك مخلوق بصورة لا تمكثك من رؤيتي أنظر إلى الجبل ، والجبل مفروض فيه الصلابة ، والقوة ، والثبات ، والتماسك ؛ فإن استقر مكانه ، يمكنك أن تراني . إن الجبل يحكم الواقع ، ويحكم العقل ، ويحكم المنطق أقوى من

الإنسان ، وأصلب منه وأشد ، ولما تجلّى ربه للجبل اندك . والدك هو الضغط على شيء من أعلى ليسوى بشيء أسفل منه . والحق هو القائل :

﴿ كَلَّا إِذَا دُثَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا ﴾ (٢١)

(سورة الفجر)

وهنا في موقف موسى وحواره مع الله يتأكد لنا أن الله تجلّى على خلق من خلقه ، ولكن أيقدر المتجلّى عليه على هذا التجلّى أم لا يقدر ؟ . إن أقدره الله فهو يقدر ، أما إن لم يقدره الله فلن يقدر . والجبل هو الأصلب ، فلما تجلّى له ربه اندك ، إذن فمن الممكن أن يتجلّى الله على بعض خلقه ، ولكن المهم أيقوى المستقبل للمتجلّى أو لا يقوى ؟ ولم تقو طبيعة موسى على التجلّى لله بدليل أن الأقرى منه لم يقو . وبعد ذلك أراد الله أن يلفتنا لفنة تصاعدية . ويبين لنا أن موسى قد صعد لرؤية المتجلّى عليه فكيف لو رأى المتجلّى ؟ !! ﴿ فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقا ﴾ . ويقال : خر الشيء إذا سقط من أعلى إلى أسفل ، ويقول الحق في آية قرآنية :

﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة ص)

والحق يخبرنا هنا : ﴿ وخر موسى صعقا ﴾ ، وصعقه تطلق ويراد بها الوفاة ، ولكن هنا صعقة أخرى تعبر عن الإخماء الطويلة . وصعقة الوفاة يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الزمر)

إذن النفخة الأولى لصعق وموت الجميع ، ثم تأتي النفخة الثانية للبعث . وهنا يقول الحق : ﴿ فلما أفاق قال سبحانه تبت إليك ﴾ . وهذا يدل على أن الصعقة ليست هي الصعقة المميتة ، وأفاق سيدنا موسى من الصعقة ، واتبه إلى أنه لم يكن من اللاتق أن يطلب الرؤية المباشرة لله . وكما نقول : « فلان فاق

لنفسه ، وهنا : أفاق ، موسى على حاجتين اثنتين ، أفاق من الغشية التي حصلت له من الصعقة ، وكأنه تساءل : لماذا انصعقت ؟ لقد انصعق لأنه سأل ربنا ما ليس له به علم : ﴿ فلما أفاق قال سبحانك ﴾ ، وساعة تسمع كلمة « سبحانك » اعرف أنه يراد بها التنزيه لله من الحدث الذي نحن بصدده وهو رؤيته - تعالى - أي تنزيها لك يارب أن يراك مخلوقك ؛ لأن الرؤية قدرة بصر على مرئي ، ومعنى : « رأيت الشيء » أي أن عين البشر قد قدرت على الشيء ، ولو أننا نحن المخلوقين رأينا الله بقانون الضوء ، فهذا يعني أن أبصارنا تقدر على ربنا وهذا لا يمكن أبداً ؛ لأن المقدور لا ينقلب قاهراً ، والقادر لا ينقلب مقدوراً .

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وتوبة موسى هنا من أنه سأل الله ما ليس له به علم ، ولأنه لم يقف عند التجليات المخالفة لنواميس الكون ، وأن ربنا قد أعطاه بدون أن يسأل ، لقد كلمه الله ، فلماذا يصعد المسألة ويطلب الرؤية ؟ ولماذا لم يترك الأمور للقبوضات التي يعطيها الله له ويتعمق بفيض جود لا يبذل مجهوداً ؟ .

ويقرر موسى ويقول : ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ ، أي بأن ذاك - سبحانك - لا يقدر مخلوق أن يراها ويدركها . لقد شعر موسى ببعض من انكسار الخاطر لأنه طمح إلى ما يفوق استطاعته وقال : ﴿ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ وكأنه قد فهم ما أوضحه الحق له : لا تلتفت إلى ما منعك ، ولكن انظر إلى ما أعطيتك :

﴿ قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي

وَبِكَلِمَتِي فَاخْذْ مَاءً أَتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

والاصطفاء هو استخلاص الصفوة ، وقوله : ﴿ اصطفتك على الناس ﴾ تعبير

ليه دقة الأداء لانه لو قال اصطفيتك فقط ، ولم يقل على الناس ، فقد يُفهم الاصطفاء على الملائكة أيضاً . ولكن الاصطفاء هنا محدد في دائرة الاصطفاء البشري : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ . ولقائل أن يقول : إن الحق اصطفى غيره أيضاً من الرسل ، والحق هو القائل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا ﴾

(من الآية ٣٣ سورة آل عمران)

ونقول : هناك فرق بين اصطفاء رسالة متفردة ، وبين اصطفاء في رسالة ومعها شيء زائد ، وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - فإذا جئت كمدرس لتلاميذ وأعطيت واحداً منهم هدية عبارة عن قلم كمكافأة ، ثم أعطيت الثاني قلماً وزجاجة حبر ، أنت بذلك اصطفيت التلميذ الأول بهدية القلم ، واصطفيت الآخر باجتماع قلم وزجاجة حبر في هدية واحدة . والاصطفاء هنا لموسى بالرسالة كما اصطفى غيره من الرسل بالإضافة إلى شرف الكلام : ﴿ اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ .

وعرفنا من قبل أن « رسالاتي » هي في مجموعها رسالة واحدة ، ولكن الرسالة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم استمرت جزئياتها ثلاثاً وعشرين سنة في التزول ، فكان كل نجم رسالة ، أو كل باب من أبواب الخبر رسالة ، فهي رسالات متعددة ، أو أن رسالته جمعت رسالات السابقين :

﴿ قَالَ يَسُومَنِي إِلَهِي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي نَحْنُ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنْ

الشَّاكِرِينَ ﴿١١﴾﴾

(سورة الأعراف)

أي لا تنظر إلى ما منعتك ، بل اذكر أني اصطفيتك وكلمتك وعليك أن تشكر لي هذا . ولذلك يجب على الإنسان المؤمن حين يتلقى قضاء الله فيه أن ينظر دائماً إلى ما بقي له من النعم . لا إلى ما سلب عنه من النعم . ولذلك نجد المؤمن المتفائل ينظر إلى الكوب الذي نصفه مملوء بالماء فيقول : الحمد لله نصف الكوب مملآن . أما المتشائم فيقول : إن نصف الكوب فارغ ، وبرغم أن كلا منهما

يقرر الحقيقة إلا أن المؤمن المتفائل نظر إلى ما بقى من نعم الله .
إننا نجد ابن جعفر حين ذهب للخليفة الأموي في دمشق وجرح رجله في أثناء
السير من المدينة إلى دمشق ، ولم تكن هناك عناية طبية فتقيحت ، وحين أحضروا
له الأطباء وقرروا قطع رجله ، قال بعض الحاضرين : التمسوا له مرقداً أى دواء
تخدير يجعله لا يحس بالألم ، فقال : لا ، فإنى لا أريد أن أغفل عن ربي لحظة
عين ، فلما قطعوها أخذوها ليدفنوها ، فقال هاتوها . فأحضرها له وأمسك بها
وقال : اللهم إن كنت قد ابتليت في عضو فقد عاقبت في أعضاء .
هذه نظرة المؤمن الذى لا ينظر إلى ما أخذ منه ، بل ينظر إلى ما بقى له .
وكذلك كان توجيه الحق لموسى عليه السلام ، فقد أوضح له : لا تنظر إلى أنى
منعتك الرؤية ، لا ، بل انظر الاصطفاء وشرف الكلمة إلى الخالق واشكر ذلك .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ
قَوْمَكَ يَا خُذْ وَأَيَّا حَسَنَهَا سَآوِرِكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١١٥)

والكتب هو الرقم بقلم على ما يكتب عليه من ورق أو جلد أو عظم أو أى
شئ ، وعندما يقول ربنا : ﴿ وَكَتَبْنَا ﴾ فالله لم يزاوِل الكتابة بنفسه ، ولكن رسله
من الملائكة يكتبون بأمر من الحق وهو القائل :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدُمُوا ﴾

(من الآية ١٢ سورة يس)

وكتابة الرسل من الملائكة لأعمالنا هى بالأمر من الله ، ومرة ينسب الأمر إلى
الأعلى ، أو ينسب إلى المباشر أو إلى الواسطة : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا ﴾ .

ونحن نعرف الألواح ، وكنا نكتب عليها قديماً . وللكتابة على الألواح سبب ، فقديمًا كانوا يكتبون على أي شيء مبسوط ، وتبين لنا الآثار أن هناك كتباً مكتوبة على جلود الحيوانات ، مثلاً نجد قدماء المصريين قد كتبوا على الأحجار ، مثل حجر رشيد الذي أتاح لنا معرفة تاريخهم . وكان العرب يكتبون على القحف المأخوذ من النخل ، وكذلك كتبوا على عظام الذبائح ، أخذوا منها قطعة العظم المبسوطة مثل عظم اللوح وكتبوا عليها ، وكانت هذه الوسيلة مشهورة جدًا لديهم ، وصار كل مكتوب عليه يسمونه لوحاً .

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ من كل شيء ﴾ يعني : من كل شيء تتطلبه خلافة الإنسان في الأرض في الوقت المناسب له ؛ فالرسل تأتي بعقيدة ، لكن قد يأتي تشريع مناسب للفترة الزمنية التي جاء فيها الرسول ، ويضيف الله لرسول آخر يأتي من بعده ، إلى أن جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج المكتمل إلى قيام الساعة .

لقد أوضح سبحانه أنه كتب في الألواح الموعظة والتفصيل لمنهج الحياة ، والموعظة تعني ألا تنشئ حكماً للسامع ، بل تعظه بتنفيذ ما أعلم له من قبل ، ولذلك يقال : واعظ وهو الذي لا يُنشئ مسائل جديدة . بل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويعظه بما يعلم .

وقوله الحق سبحانه : ﴿ وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة ﴾ أي أن الكلام لم يأت مجملًا ، بل يأتي بالتفصيل ، ويأمر الحق موسى أن يقبل على الموعظة والتفصيلات التي في الألواح بقوة . ولماذا جاء الأمر هنا بأن يأخذها بقوة ؟ لأن الإنسان حين يؤمر أمراً قد يكون الأمر مخالفاً لرتابة ما ألف ، وحين يُنهى نهياً قد يكون هذا النهي مخالفاً لرتابة ما ألف . وبذلك ينزع هذا النهي أو ذلك الأمر الإنسان مما ألف ، ويأخذه ويخرجه عما اعتاد .

إن الإنسان في هذه الحالة يحتاج إلى قوة نفس تغلب على الشهوة الرتيبة التي

تخلقها العادة ، ولذلك فمن يريد أن يقبل على منهج الله فعليه أن يعرف أن المنهج سوف يخرجهم مما ألف ، ولا بد له أن يقبل على المنهج بقوة وعزم لمواجهة إلف النفس ، لأن إلف النفس قد يقول للإنسان : لا تفعل ، والمنهج يقول له : « افعل » وعلى المؤمن - إذن - أن يأخذ التكليف بقوة ، لأن شهوات النفس تحقق متع الدنيا الزائلة ، والمنهج يعطي متعة طويلة الأجل .

إن الشهوة قد تحقق للإنسان لذة على مقدار قدرته واستعداده ، لكن التكليف يعطي للمؤمن نفعاً يتناسب مع طلاقة قدرة الله في النفع . إذن لا بد أن تشحن نفسك بما يعطيه الله لك من المنهج ، وإياك ساعة أن ترى المنهج مطالباً لك ببعض من الجهد أن تقول : إن تلك أمور صعبة لأنك لست وحدك في المنهج ، بل معك غيرك . فإذا قال لك : لا تسرق ، إياك أن تقول : أبحده المنهج حررتي ؟ لا ، لا تنظر إلى أن حظر وتحريم السرقة هو تحديد لحريتك بل هو صيانة لك من أن يعتدى عليك آخرون ، فقد قال المنهج للناس كلهم لا تسرقوا منه وأنت الكاسب في هذه الحالة . ويتابع الحق بيان ما في الألواح من قيم فيقول سبحانه : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ .

« أحسن » تفيد أن هناك مرتبة أقل منها وهي « حسن » ؛ فأمرهم الحق أن يتركوا الحسن ويأخذوا بالأحسن ، ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، إذا ما أصابه مصيبة من أحد يعتبره غريباً له ، فإذا ما كان للإنسان غريم تحركت نوازع نفسه إلى عقابه بمثل ما أصابه به . وهذا ما يبيحه الله في القصاص ، ولكن الله يطلب من المؤمن إن قدر على نفسه أن يغفر ، إذن فالعقوبة بالقصاص أو بغيره مادامت مشروعة من الله بمثل ما عوقبت فهذه مرتبة الحسن ، لكن إذا تركت نوازع نفسك وعفوت فهذه مرتبة « الأحسن » ، وجاءت هذه الترتيبات لأن الحق سبحانه وتعالى خلق في الإنسان عواطف وغرائز ، وللعواطف والغرائز مهمة في حركة الحياة ، ولكن العواطف لا يمكن أن يسيطر عليها الإنسان ، ولذلك لا يقنن الله للعاطفة ولكنه سبحانه يقنن للغرائز . كيف ؟ .

نحن نعلم أن « حب الطعام » غريزة ، ولكن يجب ألا يصل حب الطعام إلى مرتبة النهم والشره . وأيضاً « بقاء النوع » أو المتعة الجنسية أوجدها الحق من أجل

بقاء النوع . لكن لا يصح أن تتحول إلى درجة الشرود والوقوع في أعراض الناس وانتهاك حرمتهم ، وحب الاستطلاع عزيزة ، ولذين كشفوا الكشوف العلمية جاءت أعمالهم من حب استطلاعهم على أسرار الوجود . لكن لا يصح ولا ينبغي أن يصل حب الاستطلاع إلى التجسس الاستدلالي .
إن للإنسان غرائز يعليها الشرع ؛ أما الحب فهو مسألة عاطفية . فالمشرع ، يقول لك : أحب من شئت وأبغض من شئت ، ولكن لا تظلم من أبغضته ولا تظلم الناس لحساب من أحببت .

ولنا في رسول الله أسوة حسنة حين قال :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين »^(١) .

فقال عمر : كيف ؟

وكررها رسول الله فعلم عمر - رضى الله عنه - بفطرته أن ذلك أمر تكيفي . وعرف أن الحب المراد هو الحب العقلي . فيقول المؤمن لنفسه : من أنا لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . وكل مؤمن يحب رسول الله حباً عقلياً . وقد يتسامى إلى أن يصير حباً عاطفياً . والإنسان منا - كما قلنا سابقاً - يحب الدواء بعقله لا بعاطفته لأنه مُرٌّ ، ولكنه يغضب إن اختفى الدواء من الأسواق ويفرح بمن يأتي له به .

إذن التكليف يتطلب الحب العقلي . ومن أخبار سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عندما مرَّ أمامه قاتل أخيه زيد بن الخطاب فقال له عمر : ازو نفسك عني فانا لا أحبك ، فرد الرجل بكل جرأة يمانية : أو عدم حرك لي يمنعني حقاً من حقوقي ؟ . قال عمر : لا ، قال الرجل : إنما يبكي على الحب النساء .

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿ ٤٢٥١ ﴾

والحق يقول هنا : ﴿ يَاخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ ، فمثلاً ، حين يُقْتَلُ إنسان فلولى الدم أن يقتص ، لكن الحق يحزن قلب ولى الدم على القاتل فيقول :
﴿ فَمَنْ عَنَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتَيْتَ بَايَعًا مَّعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

وحين يسمى الحق القاتل أخاً فهو يهدىء من صراع العواطف ويخفف من رغبة الانتقام . ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١٢)

(سورة الشورى)

ونجده سبحانه يؤكد أن مثل هذا الأمر من « عزم الأمور » لأنه أمر يتطلب الصبر والمغفرة . ومادام المؤمن قد استطاع أن يصبر وأن يغفر لغريم له ، أفلا يصبر إذا نزلت مصيبة عليه بدون غريم كمرض مفاجئ أو افتقاد حبيب ؟ . من إذن غريمك فى المرض ؟ ومن تغضب ، وعلى من تهيج وإلى أين انتعالك ؟ ولذلك يقول لك الحق سبحانه : ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ أى مما لا غريم لك فيه ، ويوضح لك سبحانه : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ . ونلاحظ أن الحق هنا لم يؤكد « باللام » لكنه أكد الأخرى « باللام » ، لأن لك غريماً يهيجك ساعة أن تراه ، وفى الآية التى نحن بصدد خراطنا عنها يقول الحق لسيدنا موسى : ﴿ وأمر قومك ياخذوا بأحسنها ﴾ .

يعنى إذا وجدت لهم ذريعة ووسيلة وسبباً إلى شيء ويوجد ما هو أحسن فامرهم أن يأخذوا بالأحسن ، لماذا ؟ ؛ لأن الإنسان إذا روض نفسه وذللها وعودها على الأحسن يكون قد فهم عن الله . ونفرض أن واحداً أساء إليك ويمكنك أن تسيء إليه ، فعليك أن تراعى فى ردك للإساءة أن تكون بقدرها مصداقاً لقوله الحق سبحانه :

﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُرِفْتُمْ بِهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

ولكن مَنْ منا يتصف بالدقة فى الموازين النفسية حتى يستطيع أن يعرف المشلية بالهوى ؟ فإن كان هناك من صفعك وتريد أن ترد الصفحة ، فمن أين لك أن تقدر حجم الألم الذى لى صفعتك له ؟ . لا يمكن لك أن تحدد هذا القدر من الألم ؛ لأن هذه مسألة تتناسب مع القوة . إذن لماذا تدخل نفسك لى مشاهات ، ولماذا لا تعفو ويتهى الأمر ؟

وحين يدلك الحق على أن العفو أحسن ، إنما يريد بذلك أن ينهى شراسة النفوس وضغن الصدور . فحين يقتل إنسان إنساناً آخر ؛ سيكون هناك قصاص ودم ، ولكن إذا عفا ولىّ الدم تكون حياة المعفو عنه هبة من ولىّ الدم فيستحي القتال - بعد ذلك - أن يجعل أية حركة من حركات هذه الحياة ضد ولىّ الدم أو من ينسب إلى ولىّ الدم ، وحينذاك تنتهى أى ضغينة أو رغبة فى الثأر ، ولذلك نجد البلاد التى تحدث فيها الثارات وتستشرى فيها عادة الأخذ بالثأر - مثل صعيد مصر - نجد القتال إذا ما أخذ كفته على يده ودخل على ولىّ الدم وقال له : أنا نجحت إليك . . يعفو عنه ولىّ الدم وتفهم العائلة كلها أن حياة المطلوب للثأر صارت هبة من ولىّ الدم ، ونصف الثارات وتنتهى . ولذلك جاء الأمر من الحق بالأخذ بالاحسن : ﴿ وأمر قومك ياخذوا بأحسنها ﴾ . ومثال آخر على الأخذ بالاحسن ، قد نجد مديناً غير قادر أن يوفى الدين ، هنا نجد الحق يقول :

﴿ فَظَرُّهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

اقترض الرجل لأنه محتاج ؛ لأن القرض لا يكون إلا عن حاجة ، وهو عكس السؤال الذى قد يكون عن حاجة أو عن غير حاجة ، ولهذا نجد ثواب القرض أكثر من ثواب الصدقة ؛ لأن المقرض لا يقترض إلا عن حاجة ، ولأن المتصدق حين يتصدق بشيء من ماله يكون قد أخرج هذا المال من نفسه ولم يعد يتعلق به . لكن القرض يتعلق به النفس ، فكلما صبر المقرض مع تعلق نفسه بماله أخذ أجراً ، وهكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

إذن فهناك حَسَن وهناك أَحْسَن ، الحَسَن هو أن تأخذ حَقَّك المشروع ، والأحسن أن تتنازل عنه ، ومن يتنازلون هم الفاهمون عن الله فهماً واسعاً ، ولنا

المثل والأسوة في سيدنا الحسن البصري - رضي الله عنه - الذي أحسن لمن أساء إليه فقال كلمته : « ألا نحسن إلى من جعل الله في جاني » . ودائماً أضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - هب أن إنساناً عنده أولاد وأساء واحد منهم للآخر . نجد قلب الأب يكون مع من أسىء إليه ، وكذلك الأمر فينا نحن خلق الله . إن أساء واحد من خلق الله إلى واحد آخر من خلق الله ؟ نجد رب المخلوق مع من أسىء إليه ، وعلى من أسىء إليه أن يقول : هذا الإنسان الذي أساء إلى قد جعل ربنا في جاني ولذلك فهو يستحق أن أحسن إليه . ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الزمر)

وفي آية ثانية يقول الحق :

﴿ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الزمر)

ويذيل الحق الآية التي نحن بصددها بقوله : ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

ودار الفاسقين هي النار ، وكان الحق هنا يقول : سأريكم النار ، ونعلم أن كل البشر سيعبرون عليها ويرونها ، ولكن المؤمنين سيعبرونها ويردون عليها ويدخلون الجنة . ولقائل أن يقول : ولماذا تأتي سيرة النار هنا ؟ ونقول : جاءت سيرة النار ليرهب ويخيف النفس ويحملها على أن تباعد عن كل أمر يقرب إلى النار . والقول هنا أيضاً ليني إسرائيل الذين نصرهم الحق على قوم فرعون وأخذوا منهم الكنوز والمقام الكريم . وكان الحق يقول لهم : إن كنتم تحبون أن يكون مآلكم مثل مآل قوم فرعون فافعلوا مثلهم ، وإن كنتم لا تريدون هذا المآل فالتزموا منهج الحق .

إذن فقوله الحق : ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ معناه حملهم على ما في الألواح من عظة ، وعلى أن يأخذوه بقوة ، وعلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل الله . أو ﴿ دار

الفاسقين ﴿ هِيَ الْعِدَائُنَ الَّتِي دَمَرْتُ وَخَرِبَتْ بِتَمَرْدٍ وَكُفْرٍ وَعَصْيَانٍ أَهْلَهَا وَفَسَقَهُمْ لَتَتَّبِعُوا فَلَ تَفْسُقُوا مِثْلَ فُسُقِهِمْ فَيَنْكُلُ اللَّهُ بِكُمْ مِثْلَ نِكَالِهِ بِهِمْ ، وَأَنْتُمْ تَمُرُّونَ عَلَيْهَا فِي الْغَدْرِ وَالرَّوَاغِ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

والآيات جمع آية وهي الأمر العجيب ، وتطلق ثلاث إطلاقات ، فإما أن تكون آية كونية مثل قوله تعالى : ﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، وإما أن تكون آية دلالة على صدق الرسول في البلاغ ، وإما أن تكون آية قرآنية فيها حكم من أحكام الله ، وهنا يقول الحق :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

إذن يوضح سبحانه هنا أنه سيصرف الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق عن أن ينظروا نظراً اعتباراً في آيات الكون ، أو أن الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق سيضل كبدهم في أن يتجهوا للحق بالهدم ؛ لأن الواحد من هؤلاء ساعة يرى آية من آيات الله سينظر إليها على أنها سحر ، أو شعوذة ، أو أن يقول عنها إنها ضمن أساطير الأولين .

إذن وجه الصرف أن يسلط الحق عليه من الكبر ما يجعله غير قادر على وزن الآية بالميزان الصحيح لها ، والمتكبر هو من ظن أن غيره أدنى منه وأقل منزلة ، ومقومات الكبر قد تكون قوة ، لكن ألم ير المتكبر قوياً قد ضعف ؟ وقد يكون الشراء من مقومات التكبر ، لكن ألم ير المتكبر غنياً قد افتقر ؟ أو يكون المتكبر صاحب جاه ، ألم ير المتكبر ذا جاه صار ذليلاً ؟ .

إذن فمن يتكبر ، عليه أن يتكبر بشيء ذاتي لا يُسلب منه أبداً . فإذا ما أردت أن تطبق هذا على البشر فلن تجد واحداً يستحق أن يكون متكبراً أبداً ؛ لأنه لا يوجد في الإنسان خاصية ذاتية فيه تلازمه ولا تفارقه أبداً ، بل كلها موهوبة ، ومن الأغيار التي تحدث وقد تزول . فكلها من الله وليست أموراً ذاتية ؛ لأن القوة فيك إن كانت ذاتية فحافظ عليها ، ولن تستطيع . وإن كان الشراء ذاتياً فحافظ على غناك أبداً ، ولن تستطيع . وإن كانت العزة ذاتية فحافظ على عزتك أبداً ولن تستطيع . إذن فمقومات الكبرياء في البشر غير ذاتية .

وقوله سبحانه : ﴿ يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ يفيد أن هناك كبرياء بحق لمن يملك في ذاته كل عناصر القوة والثراء والجاه والعزة ، ولذلك فالكبرياء لله وحده . واعلموا أن كل متكبر في الأرض لا يخطر الله بباله ؛ لأنه لو خطر الله بكماله وجلاله في بباله لتضاءل ؛ لأن الله يخطر فقط ببال المتواضعين من الناس ، ولذلك نضرب هذا المثل : إتنا نجد من حولنا إنساناً هو الرئيس الأعلى ، وهناك رئيس لطائفة ومروؤوس آخر ، وهناك مروؤوس فقط . والرئيس المروؤوس لا يستطيع أن يجلس مع المروؤوسين له بتكبر ويضع ساقاً على ساق ويعطى أوامر ؛ لأنه قد يلتفت فيجد رئيسه وقد دخل عليه . فلو فعل الرئيس المروؤوس ذلك لضحك منه المروؤوسون له . فكذلك الناس الذين لا يستحضرون الله في باهم نجدهم مثار سخرية ، لكن الذين يستحضرون الله الذي له الكبرياء في السموات والأرض لا يتكبرون أبداً .

إنه سبحانه يصرف عن المتكبرين النظر في الآيات الكونية فلا يعتبرون ، ويصرف عنهم تصديق الآيات الدالة على نبوة الأنبياء ، ويصرف عنهم القدرة على تصديق أحكام القرآن ، ويطيح على قلوبهم ، فما بداخل هذه القلوب من الكفر

لا يخرج ، وما فى خارج هذه القلوب من الإيمان لا يدخل . وهم برغم حركتهم فى الحياة إلا أن الحق يعجزهم عن رؤية آياته فى الكون .

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة الأعراف)

وحين يرى أهل الكبر الآية الكونية أو الآية الإعجازية أو آيات الأحكام فهم لا يؤمنون بها ، حين يرون سبيل الرشد لا يتخذونه سبيلاً ، لأن سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها ، فينبى عن السيئات وهم لا يقدرّون على كبح جماح شهواتهم لأنها تمكنت منهم ، ولكن سبيل الغى يطلق العنان لشهوات النفس ، ولا يكون كذلك إلا إذا غفل عن معطيات الإيمان الذى يحرمه من شىء ليعطيه أشياء أتمن ، وهكذا تكون نظرة أهل الكبر سطحية . ونلاحظ أن كلمة السبيل تأتى مرة كملّكر كقوله : ﴿ لا يتخذوه سبيلاً ﴾ ، ومرة تأتى مؤنثة ، فالحق يقول : ﴿ قل هذه سبيل ﴾ .

وهنا يقول الحق عن الذين يتبعون سبيل الغى من أهل الكبر : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ . وقد بما قلنا إن الغفلة لا توجب الجزاء عليها ، لأن الغافل ساهى وناس ، ولكن هؤلاء صدقوا عن الأمر صدوقاً عقلياً مقصوداً ، لدرجة أنهم لا يعيرون الإيمان أى التفات .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴾

وقد جاء لفظ الآيات هنا أكثر من مرة ، فقد قال الحق : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ . ويقول أيضاً : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ . ويقول سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ .

إذن فالمسألة كلها مناطها في الآيات الكونية للاستدلال على من أوجدها ، والإعجازية للاستدلال على صدق مَنْ أُرسل من الرسل ، والقرآنية لأخذ منهج الله لتقويم واستواء حركة الإنسان .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾

(من الآية ١٤٧ سورة الأعراف)

ويقال: حبط الشيء أى انتفخ وورم من علة أو مرض . أى أنهم في ظاهر الأمر يبدو لهم أنهم عملوا أعمالاً حسنة ولكنها في الواقع أعمال باطلة وفاسدة ، وقد يوجد من عمل عملاً حسناً نافعاً للناس ، ولكن ليس في بآله أنه يفعل ذلك إرضاء لله ، بل للشهرة ليتشهر ذكره ويذيع صيته ويشي الناس عليه ، أو للجاء والمركز والنفوذ . ولذلك حين مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الشهيد ؟ قال :

« من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »^(١) .

لأن الرجل قد يقاتل حمية ، أو ليعرف الناس مثلاً أنه شجاع . إذن فهناك من يعمل عملاً ليفتنخر به . ويقال مثلاً : إن الكفار هم من اكتشفوا الميكروب وصعدوا إلى الفضاء . ونقول : نعم لقد أخذوا التقدير من الناس لأن الناس كانت في بالهم ، ولن يأخذوا التقدير من الله لأنهم عملوا أعمالهم وليس في بالهم الله . والإنسان يأخذ أجره ممن عمل له ، والله سبحانه وتعالى لن يضيع أجر أعمالهم الحسنة ، بل أعطى لهم أجورهم في الدنيا ، لكن حرث الآخرة ليس لهم .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الشورى)

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه .

فمن زرع وأحسن اختيار البذور ، واختيار التربة وروى بنظام يأتي له الزرع بالثمر لأنه أخذ بالأسباب ، وهذا اسمه عطاء الربوبية وهو عطاء عام لكل من خلق الله ، مؤمناً كان أو كافراً ، عاصياً أو طائعاً ، لكن عطاء الألوهية يكون في اتباع المنهج به « افعل ولا تفعل » وهذا خاص بالمؤمنين ، فإذا ما أحسنوا استعمال أسباب الحياة في السنن الكونية . يأخذون حظهم منها ، والكافرون أيضاً يأخذون حظهم منها إذا أحسنوا الأخذ بالأسباب ؛ ويكون ذلك بتخليد الذكرى وإقامة التماثيل لهم . وأخذ المكافآت والجوائز وحفلات التكريم . أما جزاء الآخرة فيأخذها من عمل لرب الآخرة ، أما من لم يفعلوا من أجل لقاء الله فهو سبحانه يقول في حقهم :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءً مُّثَرًّا ۖ ﴾ (١٣)

(سورة الفرقان)

وكذلك يقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَّخْتَبُ الظُّلُمَاتُ مَاءً ۖ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

فالكافرون مثلهم مثل الظلمات الذي يسير في صحراء ويخيل له أن أمامه ماء ، ويمشي ويمشي فلا يجد ماء . أما غير الظلمات فلا يهمل إن كان هناك ماء أو لا يوجد ماء ، فالظلمات ساعة يرى السراب يمتن نفسه بأن المياه قادمة وأنه سيحصل عليها .

﴿ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَّخْتَبُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ۖ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

وليس المهم أنه لم يجده شيئاً . بل يفاجأ : ﴿ ووجد الله عنده ﴾ . إنه يفاجأ بأن الإله الذي كان لا يصدق بأنه موجود يجده أمامه يوم القيامة فيوقه حسابه ويجزيه على عمله القبيح . إذن فإن عمل الإنسان عملاً فليستظر الأجر ممن عمل له ، وإن عمل الإنسان عملاً وليس في باله الله فعليه ألا يتوقع الأجر منه ، وعلى الرغم من ذلك يعطى الله لهؤلاء الأجر في قانون نوايس الحياة الكونية ؛ لأن من يحسن عملاً يأخذ جزاءه عنه .

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٧)

(سورة الاعراف)

هم إذن كذبوا بآيات الله ، وكذبوا باليوم الآخر ، ولم يعملوا وفق منهج الإيمان ، فلهم جزاء وعقاب من الحق الذي أنزل هذا المنهج ، ولكنهم أعرضوا عنه وكذبوه .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿قُلْ هَلْ تُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١١٨) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١١٩)

(سورة الكهف)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (١٢٨)

وقوله : ﴿من بعده﴾ أي من بعد ذهابه لبقات ربه بعد أن قال هارون : ﴿اخلفني في قومي﴾ .

بعد ذلك اتخذ قوم موسى من حلّيتهم عجلًا جسدًا له خوار ، ونعرف أن الحلّى هو ما يُترّين به من الذهب ، والجواهر والأشياء الثمينة ، وسيد هذه الحلّى هو الذهب دائماً ، ونعلم أن الصائغ الماهر يشكل الذهب كما يريد ، وإن انكسر يسهل إصلاحه ، كما أن كسر الذهب بطلّ ، ولذلك يقال : إن الذهب كالإنسان

الطيب ، كسره بطيء ، وانجباره سهل .

وساعة نسمع كلمة « زينة » قد يدخل فيها الماس والزمرد ، والياقوت ، لكن الذهب سيد هذه الحلى . ونعلم أن العالم مهما ارتقى ، فلن يكون هناك رصيد لأمواله إلا الذهب ، ولذلك لم يأت سبحانه بالياقوت ، أو بالجواهر ، أو بالماس . ولذلك إذا أطلقت كلمة « الحلى » فالمراد بها الذهب .

وهذه الزينة هى التى صنع منها موسى السامرى تمثال العجل ، وبطبيعة الحال أخذ الحلى الذهبية لأن الماس والجواهر لا يمكن صهرها . لكن من أين جاء قوم موسى بالحلى وقد كانوا مستضعفين ، ومستذلين ؟ لقد احتالوا على أهل مصر وأخذوا منهم الحلى كسلفة سيرونها من بعد ذلك . ثم جاء رجليهم فأخذوا الحلى معهم !

وغرق قوم فرعون وبقيت الحلى مع قوم موسى ، وصنع موسى السامرى من ذهب هذه الحلى عجلاً ، والعجل هو الذكر من ولد البقر ، وساعة تسمع قوله : ﴿ عَجَلاً جَسَداً ﴾ أى أنه مُخَجِّم ، أى له حجم واضح . وأخذ أهل التفسير من كلمة « جسد » أن ذلك العجل هو بدن لا روح له ، مثلما نقول : « فلان هذا مجرد جثة » . أى كأنه جثة بلا روح .

وقوله الحق : ﴿ عَجَلاً جَسَداً له خوار ﴾ ، هذا القول يدل على أن جسدية العجل لم تكن لها حياة ، لأنه لو كان جسداً فيه روح لما احتاج إلى أن يقول عَجَلاً جَسَداً له خوار ، ولا كفى بالقول بأنه عجل . لكن قوله سبحانه : ﴿ له خوار ﴾ دليل على أن الجسدية فى العجل لا تعطى له الحياة . وجاء بالوصف فى قوله : ﴿ له خوار ﴾ والخوار هو صوت البقر . وقد صنعه من الذهب وكأنه يريد أن يتميز عن الآلهة التى كانت من الأحجار ، وحاول أن يجعله إلهاً نفساً ، فصنعه - كما نعرف - من الحلى المسروقة ، وصنعه بطريقة أن هذا العجل الجسد إذا ما استقبل من دبره هبة الهواء ، صنعت وأحدثت فى جوفه صوتاً يشبه صوت وخوار البقر الذى يخرج من فمه ، وهذه مسألة نراها فى الناي وهو أنبوبة من القصب مما يسمى الغاب البلدى وتصنع به ثقوب ، ويعزف عليه العازف ليخرج منه النغمة التى يريد .

وحين صنع موسى السامري العجل بهذه الحيلة ، حدث هذا الصوت مشابها
لخوار البقر . ونصه هذا العجل ثانی فی سورة طه بوضوح وستعرض لها حين
نتعرض بخواطرنا الإيمانية لسورة طه بإذن الله :

﴿عَجَلًا جَعَلْنَا لَهُ خُورًا أَلَمَ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا

ظَالِمِينَ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأعراف)

ولماذا اختار السامري العجل ؟ لأنهم حين خروجهم من مصر ، رأوا قدماء
المصريين وهم يعبدون العجل لمزية فيه ، فقد كانوا يرون فيه مظهر قوة ، كما عبد
الآخرون الشمس حين رأوا فيها مظهر قوة ، وكذلك من عبدوا القمر ، والنجوم .
وقدماء المصريين عبدوا العجل لأن فيضان النيل كان يغمر الأرض بالمياه ، وكانوا
يستخدمون العجل . حين يريدون حرث الأرض . وكان أبداً ، أى قوياً وشديداً
فى حرث الأرض وهذا مظهر من مظاهر القوة ، ولكن كيف اتخذ قوم موسى من
بعده عجلاً يعبدونه بعد أن أتم عليهم الله المنة العظيمة حين أنجاهم وأغرق فرعون
وآله ؟ . وهنا أوضح لنا الله أنه جاوز بينى إسرائيل البحر ومروا على قوم يعبدون
الأصنام ، فقالوا لموسى عليه السلام : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

ويأتى القول من الحق :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأعراف)

وهذه قضية تهدم كل عبادة دون عبادة الله ؛ لأن العبد لابد أن يتلقى من المعبود
أوامر ، وأن يكون عند المعبود منهج يريد من العبد أن ينفذه ، وأن يأتى المنهج
بواسطة رسل يبلغون رسالات الله وكلام الله للبشر . أما الذين يعبدون الشمس
- مثلاً - فنسألهم : لماذا تعبدونها ؟ وما المنهج الذى أرسلته الشمس لكم ؟ . إن
العبادة هى طاعة العابد للمعبود فى « افعل » و « لا تفعل » فهل قالت لكم الشمس
« افعلوا » و « لا تفعلوا » ؟ لا ؛ لأنه لا توجد واسطة كلامية تقول لكم المنهج ،
وكيف يوجد - إذن - معبود بدون منهج للمعبد ؟ وهل قالت : إن من يعبدنى سأشرق

عليه ، وأعطيه الضوء والحرارة ، ومن لا يعبدني قلن أعطيه شيئاً من ذلك ؟ لم تقل الشمس ذلك فهي تعطى من آمن بها ومن كفر ، ولم ترسل خبراً عن الآخرة وقيام القيامة .

وهكذا يبطل أمامنا كل عبادة لغير الله من ناحية أن العبادة تقتضى أمراً ونهيًا ، فى « افعل » و « لا تفعل » ولم يقل معبود من هؤلاء ما الذى نطيعه وما الذى نعصاه . والأصل فى المعبود أنه يهدى العابد السبيل الموصول إلى خيره فى الدنيا وفى الآخرة . لذلك يقول الحق : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ . و ﴿ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ لأنهم أعطوا حقاً لمن ليس له الحق ، والحق سبحانه أعلى قمة فى الحق ، ولذلك قال عن الشرك به : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

هذا يوضح لنا أن عبادة العجل بين قوم موسى صار لها جمهور لكن الناس الذين امتلكوا قدراً من البصيرة ، أوبقية إيمان قالوا : هذه الحكاية سخيفة ، وما كان لنا أن نفعلها ونندموا على ما كان ، ويقال : سَقَطَ فى يده ، وهذه من الدلالات الطبيعية الفطرية التى لا تختلف فيها أمة عن أمة ، بل هى فى كل الأجناس ، وفى كل لغة تشير إلى أن الإنسان إذا ما فعل فعلاً وحدث له عكس ما يفعل بعض على الأنامل ندماً وغمماً ، وهذه من الدلالات الفطرية الباقية لنا من الالتقاء الطبيعى فى المخاطبات ، فى كل الأجناس . وبعض الإنسان الأنامل لأنه عمل شيئاً ما كان يصح أن عمله ، فإذا كان الشيء عظيماً فهو لا يكتفى بالأناملة بل يمسك يده كلها وبعضها . والحق يقول : ﴿ وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾

« وسُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ » أى جاءت أنبيائهم على أيديهم ، كأن الندم بلغ أشده ، إن ذلك حدث من النائيين الذين أبصروا بعيونهم ورأوا أن ذلك باطل وخسران . أى قالوا : لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكونن من الهالكين ، وهذا اعتراف منهم بذنبيهم والتجاء إلى الله عز وجل .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ إِتْسَمَا خَلْفَتُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۚ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

وكون موسى يعود إلى قومه حالة كونه غضبان أيضاً ، يدلنا على أنه علم الخبر بحكاية العجل . والغضب والأسف عملية نفسية فيها حزن وسموها : « المواجيد النفسية » ، أى الشئ الذى يجده الإنسان فى نفسه ، وقد يعبر عن هذه المواجيد بانفعالات نزوعية ، ولذلك تجد فارقاً بين من يحزن ويكبت فى نفسه ، وبين من يغضب ، فمن يغضب تنتفخ أوداجه ويحمر وجهه ويستمر هياجه ، وتبرق عيناه بالشر وتندفع يده ، وهذا اسمه : غضبان . وصار موسى إلى الحاليتين الاثنتين ، وقدم الغضب لأنه رسول له منهجه . ولا يكفى فى مثل هذا الأمر الحزن فقط ، بل لابد أن يكون هناك الغضب نتيجة هياج الجوارح .

وقديماً قلنا : إن كل تصور شعورى له ثلاث مراحل : المرحلة الأولى . مرحلة إدراكية ، ثم مرحلة وجدانية فى النفس ، ثم مرحلة نزوعية بالحركة ، وضرينا المثل لذلك بالوردة . فمن يرى الوردة فهذا إدراك ، وله أن يعجب بها ويسر من شكلها ويطمئن لها ويرتاح ، وهذا وجدان . لكن من يمد يده ليقطفها فهذا نزوع

حركى . والتشريع لم يقنن للإدراك أو للوجدان لكنه قنن للسلوك . إلا فى غض البصر عما حرم الله وذلك رعاية لحرمة الأعراض .

والأسف عند موسى لن يظهر للمخالفين للمنهج . بل يظهر الغضب وهو عملية نزوعية ، ونلاحظ أنه يأتى بكلمة أسف . وهى مبالغة . فهناك فرق بين أسف وآسف ، آسف خفيفة قليلاً ، لكن أسف صيغة مبالغة ، مما يدل على أن الحزن قد اشتد عليه وتمكن منه .

﴿ قَالَ يَسْمَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ أى استبطنوا ، وهذا نتيجة لذهاب موسى لثلاثين ليلة وأتممها بعشر ، فتساءل موسى : هل ظننتم أننى لن آتى ؟ أو أننى أبطأت عليكم ؟ وهل كنتم تعتقدون وتؤمنون من أجل أو من أجل إله قادر ؟ . ولذلك قال سيدنا أبوبكر رضى الله عنه : عندما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى :

« من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » . وهنا يقول سيدنا موسى : افترضوا أنكم عجلتم الأمر واستبطنتمونى أو خفتم أن أكون قد مت . فهل كنتم تعبدوننى أو تعبدون ربنا .

﴿ أعجلتم أمر ربكم والذى الألواح ﴾ ، ونعلم أن الألواح فيها المنهج ، وقدر موسى على أخيه : ﴿ وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ وهذا « النزوع الغضبي » الذى جعله يأخذ برأس أخيه ، كأن الأخوة هنا لا تفع لها ، فماذا كان رد الأخ هارون : ؟

﴿ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشِيتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

نلاحظ أنه قال : « ابن أم » ولم يقل : « ابن أب » لأن أيا موسى وهارون طوى

اسمه في تاريخ النبوت ولم يظهر عنه أى خبر ، والعلم جاءنا عن أمه لأنها هي التي قابلت المشقات في أمر حياته ، لذلك جاء هنا بالقدر المشترك البارز في حياتها ، ولأن الأمومة مستقر الأرحام ، لذلك أنت تجد أخوة من الأم ، وأخوة من الأب فقط ، وأخوة من الأب والأم ، والأخوة من الأب والأم أمرهم معروف . لكن نجد في أخوة الأم حناناً ظاهراً ، وبقل الحنان بين الأخوة من الأب . وجاء الحق هنا بالقدر المشترك بينهما - موسى وهارون - وهو أخوة الأم ، وله وجود مستحضر في تاريخهم . أما الأب عمران فنحن لا نعرف عنه شيئاً ، وكل الآيات التي جاءت عن موسى متعلقة بأمه ، لذلك نجد أخاه هارون يكلمه بالأسلوب الذي يحسنه : ﴿ قَالَ ابْنِ أُمَّ إِنْ الْقَوْمُ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾ .

ومادام قد قال : ﴿ وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾ فهذا دليل على أنه وقف منهم موقف المعارض والمقاوم الذي أدى ما عليه إلى درجة أنهم فكروا في قتله ، ويتابع الحق بلسان هارون : ﴿ فَلَا تَشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

والشماتة هي إظهار الفرح بمصيبة تقع بخصم ، والأعداء هم القوم الذين اتخذوا العجل ، وقد وصفهم بالأعداء كدليل على أنه وقف منهم موقف العداوة ، وأن موقف الخلاف بين موسى وهارون سيفرحهم . وقوله : ﴿ وَأَخْذُ بِرَاسِ أَخِيهِ ﴾ . . إجمال للرأس في عمومها ، وفي آية أخرى يقول : ﴿ لَا نَأْخُذُ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ .

ولقد صنع موسى ذلك لسمع العذر من هارون ، لأنه يعلم أن هارون رسول مثله ، وأراد أن يسمعنا ويسمع الدنيا حجة أخيه حين أوضح أنه لم يقصر . قال : إن القوم استضعفوني لأنى وحدى وكادوا يقتلوننى ، مما يدل على أنه قاومهم مقاومة وصلت وانتهت إلى آخر مجهودات الطاقة في الحياة ، حتى أنهم كادوا يقتلونه ، إذن فهو لم يوافقهم على شيء ، ولكنه قاوم على قدر الطاقة البشرية ، لذلك يذيل الحق الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وكانه يقول : لموسى إنك أن آخذتني هذه المزاخنة في حالة غضبك ، ربما ظن بي أنني كنت معهم ، أو سلكت مسلكهم في اتخاذ العجل وعبادته . وأراد الحق سبحانه

أن يبين لنا موقف موسى وموقف أخيه ، فموقف موسى ظهر حين غضب على أخيه وابن أمه ، وموقف هارون الذي بين العلة في أن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه ، ولا يمكن أن يطلب منه فوق هذا ، وحينما قال هارون ذلك تنبه موسى إلى أمرين :

الأمر الأول : أنه كيف يلقى الألواح وفيها المنهج ؟ والأمر الثاني : أنه كيف يأخذ أخاه هذه الأخذة قبل أن يتبين وجه الحق منه ؟

ويقول الحق على لسانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

قال يا رب اغفر لي إن كان قد بدر مني شيء يخالف منطق الصواب والحق . واغفر لأخي هارون ما صنع ، فقد كان يجب عليه أن يأخذ لمي قتال من عبدوا المجل حتى يمنعهم أو ينالوا منه ولم يمدون القتلى جرحاً أو يخلدوا أو ... إلخ .

ويطلب موسى لنفسه ولأخيه الرحمة :

﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وحين تسمع ﴿ أرحم الراحمين ﴾ ، أو ﴿ خير الرازقين ﴾ ، أو ﴿ خير الوارثين ﴾ ، أو ﴿ أحسن الخالقين ﴾ ، وكل جمع هو وصف لله ، وإنه بهذا أيضاً يدعو خلقه إلى التخلق بهذا الخلق ، ويوصف به خلقه . فاعلم أن الله لم يحرمهم من وصفهم بهذه الصفات لأن لهم فيها عملاً وإن كان محدوداً يتناسب مع قدرتهم ومخلوقيتهم وعبوديتهم ، فضلاً على أنها عطاء ومشحة منه - سبحانه - أما صفات الله فهي صفات لا محدودة ولا متناهية جلالاتها وكمالاتها وجمالها فسبحانه ﴿ ليس كمثله

شيء ، فإذا كان الله هو ﴿ أرحم الراحمين ﴾ فهذا يعني أنه سبحانه لم يمنع الرحمة من خلقه على خلقه ؛ فمن رحم أخاه سُمي رحيماً ، وراحماً ، ولكن الله أرحم الراحمين ؛ لأن الرحمة من كل إنسان ضمان لمظهرية الغضب في هذا الأحد ، يقال : « رحمت فلاناً » أي من غضبك عليه وعقوبتك ، وإن عقوبتك على قدر قوتك ، لكن الله حين يريد أن يأخذ واحداً بذنب فقوته لا نهاية لها ، وكذلك رحمته أيضاً لا نهاية لها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ
مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُفْتَرِينَ ﴾

حين يقال : ﴿ اتخذوا العجل ﴾ قد نجد من يتساءل : هل اتخذوه مذبحاً يأكلونه ؟ أو يشرب الأرض أو يسقى الحرث ويدير السواقي ؟ لأن العجل موجود لهذه المهام ، لكنهم لم يأخذوا العجل لتلك المهام ، بل إنهم قد اتخذوا العجل إلهاً ومعبوداً ، أما اتخاذه فيما خلق له فلا غبار عليه ، وهو هنا محذوف ومثروك لفطنة السامع ؛ فإذا اتخذنا العجل فيما خلق له العجل لا يدلنا غضب من الله ، أما الذين سينالهم غضب الله فهم من اتخذوا العجل في غير ما خلق له ، إنهم اتخذوه إلهاً : ﴿ سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ﴾ .

وقوله : ﴿ سينالهم ﴾ يدل على أن أوان الغضب والذلة لم يأت بعد ، وسيحدث في المستقبل ، ومستقبل الدنيا هو الآخرة ، ولكن الحق هنا يقول : إن الذلة ستحدث في الدنيا ، فكيف يكون ﴿ سينالهم غضب ﴾ مع أنهم تابوا ؟ ويوضح سبحانه لنا ذلك في قوله : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم ﴾ .

فبعضهم تاب إلى بارئته وقتل نفسه فلماذا إذن الغضب ؟

ويوضح الحق لنا أن الذي نالهم من الغضب هو ما ألجأهم إلى أن يقال لهم : « اقتلوا أنفسكم » ، وهكذا نفهم أن قوله تعالى : « سبنا لهم غضب » أي قيل أن يتوبوا ، وقتل النفس هو منتهى الذلة ومنتهى الإهانة .

﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأعراف)

أي أن هذا الأمر ليس بخاصية لهم ، فكل مفتر يتجاوز حده فوق ما شرعه الله لا بد أن يناله هذا الجزاء ، لأن ربنا حين يقول لنا ما حدث في تاريخهم ، وحين يرد لنا هذه القصة فإنه يريد من وراء ذلك - سبحانه - أن يعتبر السامع للقصة في نفسه . واعتبار السامع للقصة في نفسه لا يتأتى إلا بأن يقول له الله تنبيها وتحذيراً : ﴿ وكذلك نجزي المفتريين ﴾ أي احذر أن تكون مثل هؤلاء فينالك ما نالهم ، وهو سبحانه ينبه كلا منا ليتنفع من هذه العبرة وهذه اللفتة فإن التاريخ مسرود لأخذ العبرة ، والعظة ليتعظ بها السامع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا

وَأَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

وهذا ما حدث ، فبعد أن اتخذوا المجل ، وقال لهم : اقتلوا أنفسكم توبة إلى بارئكم ، ثم تابوا ورجعوا إلى الله وآمنوا بما جاءهم ، غفر الله لهم . وإذا كان الحق قد قص علينا مظهرية جباريته فإنه أيضاً لم يشأ أن يدعنا في مظهرية الجبارية ، وأراد أن يدخلنا في حنان الرحمانية . لذلك يقول هنا :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا

لَقَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٢﴾

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ ثم تابوا ﴾ أى ندموا على ما فعلوا وأصروا وعزموا على ألا يعودوا ، ونعلم من قبل أن التوبة لها مظهريات ثلاثة ؛ أولاً : لها مظهرية التشريع ، ولها مظهرية الفعل من التائب ثانياً ، ولها قبولية الله للتوبة من التائب ثالثاً . ومشروعية التوبة نفسها فيها مطلق الرحمة ، ولو لم يكن ربنا قد شرع التوبة فى ذاتها لتعب الخلق جميعاً ؛ لأن كل من عمل سيئة ، ولم يشرع الله له التوبة سيستشري شره فى عمل السيئات . لكن حين يشرع ربنا للمسيء التوبة ، ويدعو العبد للكف عن السيئة فهذه رحمة بالمذنب ، وبالمجتمع الذى يعيش فيه المذنب . بعد ذلك يتوب العبد ، ثم يكون هنا مظهرية أخرى للحق ، وهو أن يقبل توبته .

التوبة - إذن - لها تشريع من الله ، وذلك رحمة ، وفعل من العبد بأن يتوب ، وذلك هو الاستجابة ، وقبول من الله ، وذلك هو قمة العطاء والرحمة منه سبحانه .

وقوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأعراف)

إن هذا القول يدل على أن عمل السيئة يחדش الإيمان ، فيأمر سبحانه عبده : جدد إيمانك ، واستحضر ربك استحضاراً استقبالياً ؛ لأن عملك السيئة يدل على أنك قد غفلت عن الحق فى أمره ونهيه ، وحين تتوب فأنت تعجدد إيمانك وتعجد ربك غفوراً رحيماً : ﴿ إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ .

إن ذنب العبد يكون فيما خالف منهج ربه فى « افعل » و « لا تفعل » ، وما دام العبد قد استغفر الله وتاب فسبحانه يقبل التوبة . ويوضح : إذا كنت أنا غفوراً رحيماً ، فإياكم يا خلقى أن تذكروا مذنباً بذنبه بعد أن يتوب ؛ لأن صاحب الشأن غفر ، وإياك أن تقول للمسارق التائب : « يا سارق » ، وإياك أن تقول للزاني غفر ، وإياك أن تقول للمرتشى التائب : « يا مرتشى » لأن المذنب

مادام قد جدد توبته وآمن ، وغفر الله له ، فلا تكن أنت طفيلياً وتبرز له الذنب من جديد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ
وَفِي نُسخِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (١٥١)

وهل للغضب سكوت ؟ هل للغضب مشاعر حتى يسكت ؟ نعم ؛ لأن الغضب هيجان النفس لتعمل عملاً نزوعياً أمام من أذنب ، فكان الغضب يلح عليه ، ويقول للغاضب ؛ اضرب ، اشم ، اقتل . كان الغضب قد مثل وصُور في صورة شخص له قدرة إصدار الأوامر ، فشيء الله الغضب بصورة إنسان يلح على موسى في أن يفعل كذا ، ويفعل كذا ، ويفعل كذا ، فلما قال الله ذلك كان الغضب قد سكته عنه .

أو هو كما قال إخواننا العلماء : من القلب في اللغة ، أي أنه يقلب المسألة ، اتكالا على أن فطنة السامع مترد كل شيء إلى أصله ؛ كما نسمع في اللغة : خرق الثوب المسمار ، نفهم من هذا القول أن المسمار هو الذي قام بخرق الثوب ؛ لأننا لن نتخيل أن الثوب يخرق مسماراً . ويسمى ذلك « القلب » أي أن يأتي بمسألة مقلوبة تفهمها فطنة السامع . أو أن المسمار مستقر في مكانه ، والثوب هو الذي طرأ عليه فانخرق ، فيكون سبب الخرق من الثوب ، فكان الفاعلية الحقيقية من الثوب ؛ ﴿ ولما سكته عن موسى الغضب ﴾ .

أو تكون كلمة (سكت) كناية عن أن الغضب زال وانتهى .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسخِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ

لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (١٥١)

(سورة الأعراف)

وأول عمل قام به موسى ساعة أن كان غضبان أسفاً أنه ألقى الألواح ، وأول ما ذهب الغضب عنه وزايله أخذ الألواح ، وهذا أمر منطقي ، فالغضب جعله يلقي الألواح ، ويأخذ برأس أخيه ، ثم فهم ما فعله أخوه واعتذر به فقبل عذره ، وطلب من الله أن يغفر له ، وأن يغفر لأخيه وانتهى الغضب وكانت الألواح ملقاة فأخذها ثانية .

﴿ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأعراف)

النسخة من الكتاب مأخوذة من الشيء المنسوخ أى المنقول من مكان إلى مكان ، ويقال : نسخت الكتاب الفلاني من الكتاب الفلاني . . أى أن هناك كتاباً مخطوطاً ثم نقلناه بالطباعة أو بالكتابة إلى نسخة أو عدد من النسخ ، أى أخذته من الأصل إلى الصورة ، واسمه منسوخ ، وكلمة نسخة على وزد « فُتِلَّة » وتأتى بمعنى مفعولة ، فنسخة تعنى منسوخة ، وفى القرآن مثل هذا كثير . والحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ إِنْ أَلَّهَ مُبْتَلِئُكُمْ يَنْهَرُ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ

اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

و « غُرْفَةً » أى مغروفة ، وهى القليل من المياه فى اليد لتبل الريق فقط ، والغرفة أيضاً تكون فى البيوت ؛ لأنها مكان مقتطع من مكان آخر ولها جدران تحدها ، واسمها غرفة لأنها مغروفة من المكان فى حيز مخصوص . وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وفى نسختها هدى ورحمة ﴾ .

و « هدى » المقصود بها المنهج الموصل لل غاية فى « افعل » و « لا تفعل » . إنه يوصل لل غاية وهى ثواب الآخرة . إذن فالهدى والرحمة شيء واحد له طرفان ، فالهدى هو المنهج الذى إن اتبعته تصل إلى الرحمة ، ولذلك يقول الحق : ﴿ هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهَبُونَ ﴾ .

وهكذا نجد المنهج هدى ورحمة ، فمن يسمع كلام الله ويتبعه بهتدى ويرحمه

ربنا ؛ لأنه جعل الله في بآله ، وخاف من صفات الجبارية في الحق ، ولهذا لابد أن يستحضر الإنسان أو المؤمن رهبة لربه وخوفه منه - سبحانه - ليكون المنهج هدى ورحمة له . ويكون من الذين يرهّبون ربهم .

وساعة ترى المفعول تقدم في مثل قوله سبحانه هنا :

﴿ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأعراف)

نفهم أن هذا هو ما يسمى في اللغة « اختصاص » وقصر مثلما قال الحق في فاتحة الكتاب : ﴿ إياك نعبد ﴾ .

وما الفرق بين « إياك نعبد » و « نعبدك » ؟ إن قلنا : « نعبدك » فهو قول لا يمنع من العطف عليه ، فقد تعبدك ونعبد الشركاء معك ؛ لكن قولنا : « إياك نعبد » أي خصصناك بالعبادة وقصرناها عليك سبحانه فلا تتعدى إلى غيرك .

إذن حين تقدم المفعول فهذا هو عمل الاختصاص . ومثال ذلك في حياتنا حين نقول : « أكرمتك » ، ولا مانع أن نقول بعدها « وأكرمت زيدا وأكرمت عمرا » . لكن إن قلت : إياك أكرمت ، فهذا يعني أنني لم أكرم إلا إياك . وهنا يقول الحق : ﴿ للَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ . ولقائل أن يقول : ألا يمكن أن يدعى أحد الرهبة ظاهراً وأنه ممثل لأمر الله رياء أو سمعة حتى يقول الناس : إن فلاناً حسن الإسلام ، ويأخذون في الثناء عليه ؟ ولكن هنا نجد التخصيص الذي يدل على أن العبد لا يرهّب أحداً غير الله ، وأن الرهبة خالصة لله ، وليست رياء ، ولا سمعة ، ولا لقصد الثناء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن

قَبْلُ وَلِيَنِّي أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا
فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا
فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

وكلمة «اختار» تدل على أن العمل الإختياري يرجع العقل فيه فعلاً على عدم فعل أو على فعل آخر ، وإلا فلا يكون في الأمر اختيار ؛ لأن «اختار» تعنى طلب الخير والخيار ، وكان في مكتك أن تأخذ غيره ، وهذا لا يثنى إلا في الأمور الاختيارية التي هي مناط التكليف ، مثال ذلك : اللسان خاضع لإرادة صاحبه فخضع للمؤمن حين قال : لا إله إلا الله ، وخضع للملحد حين قال - لعنه الله - : لا وجود لله ، ولم يعص اللسان في هذه ، ولا في تلك . والذي رجح أمراً على أمر هو ترجيح الإيمان عند المؤمن في أن يقول : لا إله إلا الله ، وترجيح الإلحاد عند الملحد في أن يقول ما يناقض ذلك . والحق هنا يقول : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً ﴾ .

والذين درسوا اللغة يقولون : إن هناك حدثاً . وأن هناك موجدًا للحدث نسميه فاعلاً مثل قولنا : « كتب زيد الدرس » أي أن زيدا هو الذي أدى الكتابة ، ونسمي « الدرس » الذي وقعت عليه الكتابة مفعولاً به ، ومرة يكون هناك ما نسميه « مفعولاً له » أو « مفعولاً لأجله » مثل قول الابن : قمت لوالدي إجلالاً ، فالذي قام هو الابن ، والإجلال كان سبباً في إيقاع الفعل فنسميه « مفعولاً لأجله » ونقول : « ضمنت يوم كذا » ونسميه « مفعولاً فيه » ، وهو أن الفعل ، وقع في هذا الزمن : فمرة يقع الحدث على شيء فيكون مفعولاً به ، ومرة يقع لأجل كذا فيكون مفعولاً لأجله ، ومرة يقع في يوم كذا : العصر أو الظهر فيكون مفعولاً فيه ، ومرة يكون مفعولاً معه « مثل قولنا : سرت والنيل : أي أن الإنسان سار بجانب النيل وكلما مشى وجد النيل في جانبه .

وهنا يقول الحق :

﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

ولأن اختيار موسى للسبعين كان وقع من القوم ، فيكون المفعول قد جاء من هؤلاء القوم ، ويسمى « مفعولا منه » ؛ لأنه لم يختارهم كلهم ، إنما اختار منهم سبعين رجلا لميقاته مع الله سبحانه .

وقالوا في علة السبعين إن من اتبعوا موسى كانوا أسباطاً ، فآخذ من كل سبط عدداً من الرجال ليكون كل الأسباط ممثلين في الميقات ، وكلمة « ميقات » مرت قبل ذلك حين قال الله :

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وهل الميقات هذا هو الميقات الأول ؟ لا ؛ لأن الميقات الأول كان لكلام موسى مع الله ، والميقات الثاني هو للاعتذار عن عبدة العجل .

﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ

لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمُ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

ولماذا أخذتهم الرجفة ؟

لأنهم لم يقاوموا الذين عبدوا العجل المقاومة الملائمة ، وأراد الله أن يعطى لهم لمحة من عذابه ، والرجفة هي الزلزلة الشديدة التي تهز المرجوف وتخيفه وترهبه من الراجف . وحين أخذتهم الرجفة قال موسى : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمُ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّيْ ﴾ .

أوضح موسى : لقد أحضرتهم من قومهم . وأهلوهم يعرفون أن السبعين رجلاً قد جاءوا معي ، فإن أهلكتهم يا رب فقد يظن أهلهم أنني أحضرتهم ليموتوا وأسلمتهم إلى الهلاك . ولو كنت ممينهم يا رب وشاءت مشيتك ذلك لأمتهم من

سورة الأعراف

○ ٤٣٧٥ ○

قبل هذه المسألة وأنا معهم أيضاً . ويضيف القرآن على لسان موسى والقوم معاً :

﴿ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تُشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

أنت أرحم يا رب من أن تهلكنا بما فعل السفهاء منا ، وهذا القول يدل على أن العملية عملية فعل ، والفعل هو عبادة العجل ؛ فلو أن هذا هو الميقات الأول لما احتاج إلى مثل هذا القول ؛ لأن قوم موسى لم يكونوا قد عبدوا العجل بعد . ولكنهم قالوا بعد الميقات الأول : مادام موسى قد كلم الله ، فلا بد لنا أن نرى الله ، وقالوا فعلاً لموسى :

﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة النساء)

إذن نجد أن ما حصل من قوم موسى بعد الميقات الأول هو قولهم : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ وليس الفعل ، أما هنا فالآية تتحدث عن الفعل : ﴿ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ .

وهكذا نعلم أن الآية تتحدث عن ميقات ثانٍ تحدد بعد أن عبد بعضهم العجل . والفتنة هي الاختبار ، والاختبار ليس مذموماً في ذاته ، ولا يقال في أي امتحان إنه مذموم . إنما المذموم هو النتيجة عند من يرمس ، والاختبار والامتحان غير مذموم عند من ينجح .

إذن فالفتنة هي الابتلاء والاختبار ، وهذا الاختبار يواجه الإنسان الجاهل الذي لا يعلم بما تصير إليه الأمور وتنتهي إليه ليختار الطريق ويصل إلى النتيجة . ولا يكون ذلك بالنسبة لله ؛ لأنه يعلم أولاً كل سلوك لعباده ، لكن هذا العلم لا يكون حجة على العباد ، ولا بد من الفعل من العباد ليبرز ويظهر ويكون له وجود في الواقع لتكون الحجة عليهم . والأخذ بالواقع هو الأعدل .
وقول موسى عليه السلام :

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تُشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

هذا القول يعنى : أنك يا رب قد جعلت الاختبار لأنك خلقتهم مختارين ؛ فيصح أن يطيعوا ويصح أن يعصوا . والله سبحانه هو من يُضل ويهدي ؛ لأنه مادام قد جعل الإنسان مختاراً فقد جعل فيه القدرة على الضلال ، والقدرة على الهدى . وقد بين سبحانه من يشاء هدايته ، ومن يشاء إضلاله فقال :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

(من الآية ٨٦ سورة آل عمران)

والسبب فى عدم هدايتهم هو ظلمهم ، وكذلك يقول الحق :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وهكذا ترى أن الكفر منهم هو الذى يمنعهم من الهداية . إذن فقد جعل الله للعبد أن يختار الهداية أو أن يختار الضلال ، وما يفعله العبد ويختاره لا يفعله قهراً عن الله ؛ لأنه سبحانه لو لم يخلق كلاً منا مختاراً لما استطاع الإنسان أن يفعل غير مراد الله ، ولكنه خلق الإنسان مختاراً ، وساعة ما تختار - أيها الإنسان - الهداية أو تختار الضلال فهذا ما منحه الله لك ، وسبحانه قد بين أن الذى يظلم ، والذى يفسق هو أهل لأن يعينه الله على ضلاله ، تماماً كما يعين من يختار الهداية ؛ لأنه أهل أن يعينه الله على الهداية .

ويقول الحق على لسان سيدنا موسى فى نهاية هذه الآية :

﴿أَنْتَ وَلِيْنَا قَاعِظِرُنَا وَارْحَمُنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

والولى هو الذى يليك ، ولا يليك إلا من قربته منك بوجدك له ، ولم تقربهُ إلا لحبيته فيه تعجبك وتنفعك وتساعدك إذا اعتدى عليك أحد أو تأخذ من عمله لأنه عليهم . إذن فالمعنى الأول لكلمة الولى أى القريب الذى قربته لأن فيه خصلة من الخصال التى قد تنفعك ، أو تنصرك ، أو تعلمك .

وقول موسى « أنت ولينا » أى ناصرنا ، والأقرب إلينا . فإن ارتكب الإنسان من ذنباً فأنت أولى به ، إنك وحدك القادر على أن تغفر ذنبه ؛ لذلك يقول موسى : « فاغفر لنا » ، ونعلم من هذا أنه يطلب درء المفسدة أولاً لأن درءها مقدم على جلب المصلحة ، فقدم موسى عليه السلام طلب غفر الذنب ، ثم طلب ودعا ربه أن يرحمهم ، وهذه جلب منفعة . وقد قال ربنا فى مجال درء المفسدة : ﴿ فَمَنْ زُحِزِحَ عَنِ النَّارِ ﴾ وهذا درء مفسدة وهو البعد عن النار : ﴿ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ ﴾ . وهذا جلب منفعة ومصلحة .

إذن فدرة المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، - وعلى سبيل المثال - إنك ترى تفاحة على الشجرة ، وتريد أن تمد يدك لتأخذها ، ثم التفت فوجدت شاباً يريد أن يقذفك بطوبة ، فماذا تصنع ؟ أنت فى مثل هذه الحالة الانفعالية تدفع الطوبة أولاً ثم تأخذ التفاحة من بعد ذلك . وهذا هو درء المفسدة المقدم على جلب المصلحة ، وهنا درء المفسدة متمثل فى قول موسى : ﴿ فاغفر لنا ﴾ ثم قال بعد ذلك : ﴿ وارحمنا ﴾ وهذا جلب مصلحة ، والقرآن يقول :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

لأن الداء يقع أولاً ، وحين تذهب لمنهج القرآن يشفيك من هذا الداء ، والرحمة ألا يجىء لك داء بالمرة . فإذا أخذت القرآن لك نصيراً فلن يأتى لك الداء أبداً .

﴿ فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

ومثلها مثل قول الحق سبحانه : ﴿ خير الرازقين ﴾ ، و ﴿ وخير الماكرين ﴾ ، و ﴿ خير الوارثين ﴾ و ﴿ خير الغافرين ﴾ هنا ؛ لأن المغفرة قد تكون من الإنسان للإنسان ، ولكننا نعرف أن مغفرة الرب فوق مغفرة الخلق ؛ لأن الغافر من البشر قد يغفر رياء ، وقد يغفر سمعة ، قد يغفر لأنه خاف بطش المقابل . لكنه سبحانه لا يخاف من أحد ، وهو خير الغافرين من غير مقابل . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَكَتُبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
 الْآخِرَةِ إِنَّا هُمْذُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَدَائِيَ أَصِيبُ بِهِ
 مِنْ أَشَاءٍ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ
 فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
 وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

ونلاحظ أن هذه الآية تضم طلبات جديدة لسيدنا موسى من ربه بعد قوله :
 ﴿فاغفر لنا وارحمنا﴾ . ونرى أن خير الغافرين تعود لقول موسى - عليه السلام - :
 ﴿فاغفر لنا﴾ أما الحسنة في قوله : ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾ فإنها تعود
 على طلب الرحمة : ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ .

هو إذن يطلب الحسنة في الدنيا وكذلك في الآخرة ، والحسنة لها معنى
 « لغوي » ، ومعنى « شرعي » . أما المعنى اللغوي فكل ما يستحسنه الإنسان
 يُسمى حسنة ، ولكن الحسنة الشرعية هي ما حسنه الشرع ، فالشرع رقيب على
 كل فعل من أفعالنا وتصرفاتنا ، فالحسنة ليست ما يستحسنه الإنسان ؛ لأن الإنسان
 قد يستحسن المعصية ، وهذا استحسان بشري بعيد عن المنهج ، أما الاستحسان
 الشرعي فهو في تنفيذ المنهج بـ « افعل » و « لا تفعل » .

والحسنة المعتبرة في عرف المكلفين من الله هي الحسنة الشرعية ، لأن الإنسان
 قد يستحسن شيئاً وهو غير شرعي لأنه ينظر إلى عاجلية النفع فيه ، ولا ينظر إلى
 آجلية النفع ، ولا ينظر إلى كمية النافع . والنفع - كما نعلم - في الدنيا على قدر
 تصورك في النفع ، أما النفع في الآخرة فلا يعلم قدره إلا علام الغيوب - سبحانه - .
 إذن فقوله : ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾ يكون المراد بها الحسنة الشرعية
 في الدنيا عملاً ، وفي الآخرة جزاءً .

ونلاحظ أن موسى أراد بالحسنة الأولى ما يعم الحسنة الشرعية والحسنة

اللغوذة ؛ فهو دعاء بالعافية والنعم الجبلية الطيبة ، وكل خير الدنيا في ضوء منهج الله . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الاعراف)

إذن ، فالחסنة الخالصة هي في يوم القيامة ، ولكن هناك من ينتفع بها في الدنيا ؛ فالجماد منتفع برحمة الله ، ولنبات منتفع برحمة الله ، والحيوان منتفع برحمة الله ، والكافر منتفع برحمة الله . كل ذلك في الدنيا ، وهي الرحمة التي وسعت كل شيء ، لكن مسألة الآخرة كجزاء على الإحسان فهو جزاء خاص بالمؤمنين .

ويتابع الحق على لسان موسى عليه السلام : ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ .

و : هاد أي رجع ، و : هدنا إليك أي رجعنا إليك ، وهذا كلام موسى عن نفسه وعن أخيه ، وعن القوم الذين عبدوا العجل ثم تابوا ، ومادما قد رجعنا إليك يا ربى فانت أكرم من أن تردنا خائبين . ويرد الحق سبحانه :

﴿ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَأَسْأَلُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الاعراف)

وقوله لحق : ﴿ عذابي أصيب به من أشاء ﴾ أي لا يوجد من يدفعني ويرشدني في توجيه العذاب لأحد ؛ فحين يذنب عبد ذنباً أنا أعذبه أو أغفر له ؛ لذلك لا يقولن عبد لمذنب إن الله لابد أن يعذبه ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الاعراف)

وما المقصود بالرحمة هنا ؟ أهى الرحمة في الدنيا أو الرحمة في الآخرة ؟ إنها الرحمة في الدنيا التي تشمل الطائع والعاصي ، والمؤمن والكافر ، ولكنها خالصة

فى اليوم الآخر - كما قلنا - للمؤمنين .

وقوله سبحانه : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ يدل على أن هذا سيكون فى الآخرة . أى أن رحمة الله وسعت كل شيء فى الدنيا ولكنها رحمة تنتهى بالنسبة للكافرين فى إطار الدنيا ، ولكن بالنسبة للمؤمنين فهى رحمة مستمرة قد كتبها الله أولاً وتعطى للمؤمنين فضلاً ومنة وعطاء منه - سبحانه - .

﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

وعندما سمع بعض اليهود ذلك قالوا : نحن متقون ، فقليل لهم : فى أى منهج أنتم متقون أفى منهج موسى ؟ لو كنتم متقين فى منهج موسى - كما تزعمون - لأمتمتم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - لأن من تعاليم موسى أن تؤمنوا برسول الله محمد - عليه الصلاة والسلام - ولذلك جاء قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي

يُحْدِثُ لَهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ

يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَيُحْدِثُ لَهُمُ الطَّبِيبَتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ

عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ

وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

فهذه تسع صفات لسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهي أن الله أوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن ، وأنه صاحب المعجزات ، وأنه بلغ نبأ بأفضل وأتم العقائد والعبادات والأخلاق - وهو - عليه الصلاة والسلام - الأُمى الذى لم يمارس القراءة والكتابة ولم يجلس إلى معلم ، فهو - عليه السلام - باقى على الحالة التى ولد عليها ، وقد ذكره ربّه - جل وعلا - باسمه وصفاته ونعوته عند اليهود والنصارى فى التوراة والإنجيل وقد كتبها الكافرون منهم أو أساءوا تأويلها ، كما وصفه ربّه بأنه يأمرهم بالمعروف ويكلفهم بفعل كل ما تدعو إليه الطباع المستقيمة والفطر السليمة ؛ لأن فى ذلك النجاح فى الدنيا والفلاح فى الآخرة ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - يجرهم وينهاهم عن كل منكر مستهجن تستبجحه الجيلة القويمة ، والخلفة السوية ، ويحل لهم ما حرم عليهم من الطيبات التى منعوا منها وحظرها الله عليهم جزاء عطياتهم وضلالهم ، ويحرم عليهم كل ضار وخبيث : كأكل الميتة والمال الحرام من الربا والرشوة والغش ، ويخفف عنهم ما شق عليهم وثقل من التكليف التى كانت فى شريعة موسى - عليه السلام - كقطع الأعضاء الخاطئة وتحريم الفنائم عليهم ووجوب إحراقها ، وكذلك يخفف الله ويحط عنهم المواقيق الشديدة التى فرضت عليهم عقاباً لهم على فسوقهم وظلمهم .

يقول - جل شأنه - :

﴿ فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَلَتِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْطِمْ الرَّبُّوْا وَقَدُّهُوْا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١﴾

(سورة النساء)

وهكذا أعلم الله الرسل السابقين على سيدنا رسول الله أن يبلغوا أقوامهم بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يؤمن الأقوام التى يشهدون ويعاصرون رسالته صلى الله عليه وسلم ، صحيح أن رسول الله لم يكن معاصراً لأحد من الرسل ، ولكن البشارة به قد جاءت بها أنبياءهم وسجلت فى الكتب المنزلة عليهم ، وكل رسول سبق سيدنا محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، قد أمره الله أن يبلغ الذين أرسل إليهم أن يتبعوا الرسول محمداً ويؤمنوا به ولا يتمسكوا بسلطة

زمنية ويخافوا أن تنزع منهم . وما دام لرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء معه معجزة وبينة فلا بد أن يؤمنوا به .

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

إذن فقد صنع الله سبحانه وتعالى خميرة إيمانية حتى لا يتعارض اتباع الأديان . ولا يفهم أصحاب دين موجود أن ديناً آخر جاء لينسخه ويأخذ منه السلطة الزمنية ؛ لأن رسالة الإيمان موصولة وتحدث الأفضية للناس بامتداد الزمان . فكل الرسل يحرسون على أن تكون الحياة آمنة سعيدة تتساند فيها المواهب ولا تتعاند فيها الحركات . وقد طلب الحق من الرسل ذلك وأخذ عليهم العهد وبعد ذلك أكدته فقال :

﴿أَقْرَرْتُمْ﴾ واستوحى منهم الكلام الذي يزيد هذا المنهج . ولذلك لا يصح اتباع نبي أن يصادم رسالة جديدة مؤيدة بمعجزة ومؤيدة بمنهج يضمن للإنسان الحياة وسلامتها وسعادتها .

ولم يكتفِ الحق بأن يجعل الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد خبر ، بل وضع لمحمد وحده سمة في الكتب التي سبقته ، ووصفه لهم مشخصاً ، وحين يصفه مشخصاً فهذا أوضح من الخبر عنه بكلام . ولذلك قال عبدالله بن سلام عندما سأله عمر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أعلم به منى يا بنى . قال : ولم ؟ قال : لأنى لست أشك فى محمد أنه نبي ، فأما ولدى فلعل والدته قد نحات ، فقبل عمر رأسه . ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ .

ولاشك أن الإنسان يعرف ابنه معرفة دقيقة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له سمات خاصة وهى التى تثبت شخصيته صلى الله عليه وسلم المادية ، وليس الأمر فى رحلة الإسراء والمعراج مجرد كلام ، بل إنه حينما سئل عن هذه

التي انجرفت إلى مادية صرفة وترك الروحانيات ، لذلك تأتي سيرة أتباع محمد في التوراة : ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ .

حين أسرف اليهود في المادية أراد الله أن يأتي برسول يجتنب ويميل إلى الروحانية وهو سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام . . ليحصل الاعتدال في تناول الحياة دون إفراط أو تفريط .

إذن فالحق سبحانه وتعالى مهد لكل رسول بأن يشير به الرسول السابق لأنه لا معاتذات في الرسالات . ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم الموكب الرسالي ، كان ولا بد أن يصفه الله - سبحانه - وصفاً ليس بالكلام ، بل يصفه كصورة ، بحيث إذا رآوه يعرفونه ، ولذلك نجد سيدنا سلمان الفارسي حين رأى رسول الله في المدينة ورأى منه علامات كثيرة أحب أن يرى فيه علامة مادية ، فرأى في كتف الرسول خاتم النبوة .

ولكن هل نفع ذلك ؟ نعم ، فكثير من الناس آمن به . وقد أقام رسول الله مناظرة بينه وبين اليهود بواسطة عبدالله بن سلام ، الذي قال بعد أن أسلم بين يدي رسول الله : « يا رسول الله إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني »^(١) عندك ، فجاءت اليهود ودخل عبدالله البيت ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أي رجل فيكم عبدالله بن سلام ؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا وأخيرنا وابن أخيرنا . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أفرايتم إن أسلم عبدالله ؟ قالوا : أعاذة الله من ذلك ؟ فخرج عبدالله إليهم ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . فقالوا : شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه^(٢) .

إذن فالأوصاف الكلامية والأوصاف الشخصية المشخصة جاءت حتى لا يقال : إن أديان السماء تتعاند ، إنها كلها متكاثفة في أن تصل الأرض بالسماء على ما تقتضيه حالة العصر زماناً ومكاناً . وقديماً كان العالم معزولاً عن بعضه ، وكل

(١) بهتوني : قالوا على ما لم أفعل ، من البهت والبهتان وهو الباطل والكذب والافتراء .

(٢) من حديث أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب بدء الخلق - عن أنس - رضي الله عنه -

بيئة لها أجواؤها وداءاتها ، فيأتى الرسول ليعالج فى مكان خاص داءات خاصة ، لكن الله جاء برسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن توحدت هذه الداءات فى الدنيا ، جاء رسولنا الكريم ليعالج هذه الداءات العالمية ، وجاء رسول الله مؤيداً بأوصافه ومؤيداً بتعاليمه التى تخفف عنهم إصرهم وأغلالهم ، والإصر هو الحمل الثقيل ، والأغلال جمع غُل وهو الحديد التى تجمع اليدين إلى العنق لتقييد الحركة .

وقد ذكر الحق الأوصاف ومهد الأذهان إلى مجيء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليضع عنهم الأغلال بالنور الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فالرسالة المحمدية هى الجامعة المانعة ، ولذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ
الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

هنا يأمر الحق رسوله بالآتى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ فى رسالة تعم الزمان ، وتعم المكان . وفى ذلك يقول رسول الله :

« أعطيت خمساً لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلى . . نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الفنائم وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة » (١) .

ثم بعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يثبت عمومية الرسالة وعمومية تسخير الكون للخلق ؛ لذلك كان الحديث موجهاً إلى كافة الناس : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ . وكل من يطلق عليهم ناس فالرسول مرسل إليهم : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ . وأراد سبحانه أن يعطينا الحثيات التي تجعل لله رسولا يبلغ قومه وكافة الأقوام منهج الله في حركة حياتهم ، فقال : ﴿ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

ومادام هو الذي يملك السموات والأرض ، ولم يدع أحد من خلقه أنه يملكها ، وفي السموات والأرض وما بينهما حياتنا ومقومات وجودنا فهو سبحانه أولى وأحق أن يعبد . ولو أن السماء لواحد ، والهواء لواحد ، والأرض لواحد ، وما بينهما لواحد لكان من الممكن أن يكون إله هنا ، وإله هناك وإله هنالك . وفي هذا يقول الحق :

﴿ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

إذن فمادام الوجود كله من السموات والأرض وما سواهما لله ، فهو الأولى أن يعبد ، وأول قمة العبادة أن تشهد بأنه لا إله إلا الله ، وحشية ألوهيته الأولى أن له ملك السموات والأرض . ومادام إلهاً فلا بد أن يطاع ، ولا يطاع إلا بمنهج ، ولا منهج إلا بفعل ولا تفعل . وأول المنهج القمة العقدية إنه هو التوحيد . وجعل الله للتوحيد حشية من واقع لحياة فقال : ﴿ يَحْيَى وَيَسْمِيتُ ﴾ . وهذا أمر لم يدعه أحد أبداً ؛ لأن الله هو الذي له ملك السموات والأرض ، ولأنه يحيى ويسميت . ولذلك نجد من حاج إبراهيم في ربه يقول الحق عنه :

﴿ أَنْ أُنْسَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وحاول هذا الملك أن يدير حواراً مفسطائياً مضللاً ليفهم ويسكت إبراهيم عليه السلام - فقال :

﴿ أَنَا أَخِي وَأُمِّيْتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وذلك بأن يأمر بقتل إنسان ثم يعفو عنه ، وهو بذلك لا يميت بل يحييه في منطق السفطانيين . لكن هل الأمر بالقتل هو الموت ؟ طبعاً لا ؛ لأن هناك غارقاً بين الموت والقتل ، فقد يقتل إنسان إنساناً آخر ، لكنه لا يمكن أن يميت ؛ لأن الموت يأتي بدون هدم بنيتة بشيء ؛ برصاصة أو بحجر أو بقتيلة . ولا أحد قادر على أن يميت أحداً إذا رغب في أن يميت ، فالموت هو الحادث بدون سبب . لكن أن يقتل إنسان إنساناً آخر فهذا ممكن ، ولذلك يقول الحق سبحانه عن نفسه :

﴿ يَحْيِي وَيُمِيتُ فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأعراف)

وانظروا إلى الدقة في الأداء ؛ فمادام قد أمر الحق رسوله أن يقول : إني رسول الله إليكم جميعاً ، وحيثية الإيمان هي الإقرار والاعتقاد بوحداية الإله الذي له ملك السموات والأرض ، وهو لا إله إلا هو ، وهو يحيى ويميت ؛ لذلك يدعوهم إلى الإيمان بالمخالق الأعلى : ﴿ فآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ .

لم يقل محمد وآمنوا بي ؛ لأنها ليست مسألة ذاتية في شخصك يا محمد ، إنما هو تكريم لرسالتك إلى الناس ، فالإيمان لا بذاتك وشخصك ، ولكن لأنك رسول الله ، فجاء بالحيثية الأصيلة ﴿ فآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، والرسول قد يكون محمداً أو غير محمد . وبعد ذلك قال في وصف النبي : ﴿ النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ . والامية - كما علمنا من قبل - شرف في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم يؤمن بكلمات الله ، وهي إما بما بلغنا عنه من أسلوب القرآن ، وإما بالذي قاله موسى لقومه : « واجعل كلامي في فيه » .

ويقول فيه عيسى - الذي لا يتكلم من قبل نفسه - ، وإنما تأتي له كلمات ربنا في فمه ، والقول الشامل في وصف كلمات محمد صلى الله عليه وسلم : ما بينه الحق في قوله :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ ﴾

(سورة النجم)

أو أن الإيمان بالكلمات هو أن يؤمن بأن كل كون الله مخلوق بكلمة منه :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٧)

(سورة يس)

ولفائل أن يقول : كيف يخاطب الله شيئاً وهو لم يكن بعد ؟ ونقول : إنه سبحانه قد علمه أولاً ، ووجوده ثابت وحاصل ، ولكن الله يريد أن يبرز هذا الموجود للناس ، فوجود أى شيء هو أزل في علم الله ، وكأنه يقول للشيء : اظهر يا كائن للوجود ليرك الناس بعد أن كنت مطموراً في طي قدرتي .

وسواء أكانت الكلمة بخلق الأسباب ، مثل خلق الشمس والقمر أم بخلق شيء بلا أسباب ، كعيسى - عليه السلام - فإنه « كلمة منه » أى كلمة تخطت نطاق الأسباب ، بأن ولدت سيدتنا مريم من غير رجل . وفي هذا تخطي للأسباب ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ بكلمة منه ﴾ . ونعلم أن كل شيء لا يكون إلا بكلمة منه سبحانه ، ولكن بكلمة لها أسباب ، أو بكلمة لا أسباب لها . والكلمات هي أيضاً الآيات التي فيها منهج الأحكام ، ولذلك يأتي قوله الحق :

﴿ قُلُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا نَمُنُّ إِلَّا بِمَا نُنَزِّلُ وَيَتَّبِعْ وَيَقُوبَ
وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَتَحْنُ لَهُمْ مَّسَلُونٌ ﴾ (١١٧)

(سورة البقرة)

ويروى لنا الأثر أن سيدنا موسى عليه السلام قال لربه :

« إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاثلون فصول الضلالة حتى يقاثلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتي قال : تلك أمة أحمد » (١) .

(١) ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولما سكنت عن موسى الغضب ... ﴾ الخ .

وقول موسى آمنوا بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، هو الذي يدل عليه قول الحق سبحانه :

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

وَالْأَسْبَاطَ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة البقرة)

ويذيل الحق الآية التي نحن بصدد خواطرتها عنها بقوله :

﴿ وَاتَّبِعُوا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ . و « لعل » رجاء وطلب . ونعلم أن كل طلب يتعلق بأحد أمرين : إما طلب لمحال لكنك تطلبه لتدل بذلك على أنك تحبه ، وهو لون من التمنى مثل قول من قال : ليت الشباب يعود يوماً ، إنه يعلم أن الشاب لا يعود لكنه يقول ذلك ليشعر بأنه يحب الشباب . أو كقول إنسان : ليت الكواكب تدنولى فأنظمها عقود مدح ، وهذا طلب لمحال ، إلا أنه يريد أن يشعر بأن هذا أمر يحبه ، وإما طلب ممكن التحقيق . وهو ما يسمى بالرجاء . وله مراحل : فأنت حين ترجو لإنسان كذا ، تقول : لعل فلاناً يعطيك كذا ، والإدخال في باب الرجاء أن تقول : لعل أعطيك ؛ لأن الرجاء منك أنت ، وأنت الذي تقوله ، ومع ذلك قد لا تستطيع تحقيقه ، والأقوى أن تقول : لعل الله يعطيك . ولكنها من كلامك أنت فقد يستجيب الله لك وقد لا يستجيب ، أما إذا قال الله : لعلكم ، فهذا أرجى الرجاءات ، ولا بد أن يتحقق .

وحينما يتكلم الحق عن قوم موسى ، يتكلم عنهم بعرض قصصهم ، وفضائلهم ونقصهم للمهد بعد نعم الله الواسعة الكثيرة عليهم ، وأوضح لنا : لياكم أن تأخذوا هذا الحكم عاماً ؛ لأن الحكم لو كان عاماً ، لما وجد من أمة موسى من يؤمن بمحمد . ولذلك قلنا قديماً إن هناك ما يسمى « صيانة الاحتمال » . ومثال على ذلك نجد من اليهود من آمنوا برسالة رسول الله مثل مخريق الذي قال فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مخريق خير يهود » . وعبد الله بن سلام إن بعض اليهود كانوا مشغولين بقضية الإيمان ، ولذلك لا تأخذ المسألة كحكم عام ؛ لأن من قوم موسى من يصفهم الحق بالقول الكريم :

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ
وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩)

وحين يسمع قوم موسى هذا القول يقولون في أنفسهم إنه يعلم ما في صدورنا من تفكير في الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن لو علم الحكم فمن يفكر في الإيمان بمحمد يقول : لماذا يصدر حكماً ضدي وأنا أفكر في الإيمان ؟ لكن الحق « صان الاحتمال » وأوضح لكل واحد من هؤلاء الذين يفكرون في الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يتجه إلى إعلان الإيمان فقال :

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩)

(سورة الأعراف)

أى يدلون الناس على الحق ويدعونهم إلى طريق الخير ، وبهذا الحق يعدلون في حكمهم بين الناس ولا يجورون .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا
إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَآءَ أَضْرِبَ
بِعَصَاكَ الْخَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ
عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ
الْفُجْمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا

مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢٩﴾

وحين يقول الحق « قطعناهم » فهذه عودة لقوم موسى ، ونعرف أن القرآن لا يخصص كأي كتاب فصلاً لموسى وآخر لعيسى وثالثاً لمحمد ، لا ، بل يجعل من المنهج الإيماني عجيبة واحدة في الدعوة ، فيأتي بقضية عيسى ، ثم يدخل في الدعوة قضية موسى وغيره وهكذا ، ثم يرجع إلى القضية الأصلية كي يستغل اتصالات النفس بعد أي قصة من القصص .

وهنا يعزّد الحق سبحانه لقوم موسى مرة أخرى . فبعد أن أنصفهم وبين أن فيهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . يقول : ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ﴾ . والمقصود هنا بنو إسرائيل ، ومعنى « قطعت الشيء » أن الشيء كان له تمام وجودي مع بعضه ، ثم قطعته وفصلت بعضه عن بعض ، وجعلته قطعاً وأجزاء . فهم كلهم بنو إسرائيل ، ولكن الحق يوضح أنه قطعهم وجعلهم « أسباطاً » ، و« السبط » هو ولد الولد ، وهم هنا أولاد سيدنا يعقوب وكانوا اثني عشر ولداً ، وحكت سورة يوسف وقالت :

﴿ يَنَابِتُ إِلَى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

(من الآية ٤ سورة يوسف)

وحين تعد وتحصى ستجد أحد عشر كوكباً مرئية ، وتضم إليها الشمس والقمر والرائي ، فيصير العدد أربعة عشر واطرك الشمس والقمر لأنهما يرمزان إلى يعقوب وزوجه ، وخذ الأحد عشر كوكباً ، وأضف الرائي وهو يوسف فيكون العدد اثني عشر . وهؤلاء هم الاثنا عشر سبطاً ، فقد أنجب سيدنا يعقوب اثني عشر ابناً من أمهات مختلفة ، وعرفنا من قبل أن الأمهات حين تتعدد فالميل الأهوائية بين الأبناء قد تتعاند . ولذلك تبا سيدنا يعقوب وقال لسيدنا يوسف :

﴿ لَا تَقْصُصْ رُءُوكَ عَلَيَّ إِخْوَتَكَ فَيَبْكَدُوا وَلَكَ كَبْدٌ ﴾

(من الآية ٥ سورة يوسف)

هذا أول دليل على أنهم مختلفون ، وهو سبب من أسباب وحشية التقطيع : ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً ﴾ .

وفي سورة يوسف نقراً :

﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة يوسف)

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

إنهم لا يريدون حتى مجرد الاشتراك في الماء تحسباً للاختلاف فيما بينهم ، فجعل الحق لكل سبط منهم عيناً يشرب منها ليعالج ما لديهم من داءات الغيرة والحقد على بعضهم البعض ، لأن الحق قال عنهم : ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ﴾ .

وهنا وقفة لغوية فقط ، والأسباط في أولاد يعقوب وإسحاق يقابلون القبائل في أولاد إسماعيل ، وأولاد إسماعيل « العرب » يسمونهم قبائل ، وهؤلاء يسمونهم « أسباطاً » ، ونعرف أن لفظ « اثنتي » يدل على أنهم إناث ، و « عشرة » أيضاً إناث ، لأننا نقول : « جاءني رجلان اثنتان » و « امرأتان اثنتان » ، أي اثنتان للذكور ، واثنتان للإناث ، وكلمة « اثنتي عشرة » عدد مركب وتمييزه يكون دائماً مفرداً ، ولذلك يقول الحق : ﴿ أحد عشر كوكباً ﴾ .

إذن « اثنتا عشرة » يدل على أنه مؤنث . لكن المذكور هنا « سبط » وسبط مذكر ، ولنا أن نعرف أنه إذا جمع صار مؤنثاً لأنهم يقولون : « كل جمع مؤنث » أيضاً فالمراد بالأسباط القبائل ، ومفردها قبيلة وهي مؤنثة ، وقطعهم أي كانت لهم - من قبل - وحدة تجمعهم ، فأراد الحق أن يلفتنا إلى أنهم من شيء واحد ، فجاء بكلمة « أسباط » مكان قبيلة ، وقبيلة مفردة مؤنثة ، ويقال : « اثنتا عشرة قبيلة » ،

ولا يقال اثنتا عشرة قبائل ، فوضع أسباطاً ، موضع قبيلة لأن كل قبيلة تضم أسباطاً
لذا جاء التمييز مذكراً ..

﴿ وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

أى جعلنا كل سبط أمة بخصوصها . والواقع الكونى أثبت أنهم كذلك ، لأنك
لا تجد لهم - فيما مضى - تجمعاً قومياً وهو ما يسمونه « الوطن القومى لليهود »
برغم أن الدول الظالمة القوية أعانوا لهم وأقاموا لهم وطناً على أرض فلسطين ، ومع
ذلك نجد في كل بلد طائفة منهم تعيش معزولة عن الشعوب التى تحيا فى
رحابها ، وكأنهم لا يريدون أن يذوبوا فى الشعوب ، ففى باريس - مثلاً - تجد
« حى اليهود » ، وفى لندن المسألة نفسها ، وفى كل مدينة كبيرة تتكرر هذه
الحكاية ، فهم يعيشون فيها بطقوسهم وبشكلهم وبأكلهم ، ويعاداتهم معزولين عن
الشعوب ، وكأنهم ينفذون قدر الله فيهم : ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا
أُمَمًا ﴾ .

وقطعهم ربنا فى الأرض أى أنه نشرهم فى البلاد ، ولم يجعل لهم وطناً
مستقلاً ، ولذلك ستقرأ فى سورة الإسراء إن شاء الله : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنَى
إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ .

أى أنه سبحانه قال لهم بعد سيدنا موسى : اسكنوا الأرض وحين تقول لنا
يارب : « اسكن » فأنت تحدد مكاناً من الأرض . كأن يسكن الإنسان فى
الإسكندرية أو القاهرة أو الأردن أو سوريا ، لكن أن يصدر الحكم بأن « اسكنوا
الأرض » فهذا يعنى أن انساحوا فيها فلا تجمع لكم .

ويقول الحق : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ .

أى أنه حين يجرى وعد الآخرة تكون ضربة قاضية عليكم - أيها اليهود - لأن
عدوكم لن يتبعكم فى كل أمة من الأمم ، ويبعث جيشاً يحاربكم فى كل مكان
تعيش فيه طائفة منكم ، لكن إذا جاء وعد الآخرة يأتى بهم الحق لفيفاً
ويتجمعون . فى هذا الوطن القومى الذين يفرحون به ، وتقول لهم : لا تفرحوا

فهذا هو التجمع الذي قال الله عنه : « جئنا بكم لفيفاً » لتكون الضربة موجهة لكم في مكان واحد تستاصلكم وتقضى عليكم .

ويأتي الحق بعد ذلك بخبر المعجزات :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

و « استسقى » المراد منه هو طلب السقيا ، والسقيا هي طلب الماء الذي يمنع عن الإنسان العطش ، وما دام قد طلبوا السقيا فلا بد أنهم يعانون من ظمأ ، كأنهم في التيه . وأراد الله سبحانه أن يبرز لهم نعمه وقت الحاجة ، فقد تركهم إلى أن عطشوا ليستسقوا وليشعروا بنعمة الرى .

والحق يقول : ﴿ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ ﴾ ، أى طلبوا من سيدنا موسى أن يسأل الله السقيا . فلماذا لجأوا إلى موسى وقت الظمأ ؟ وقال لهم موسى : ليس بذاتى أروىكم ، ولكن سأستسقى لكم ربي ، ونعلم أن مقومات الحياة بالترتيب الوجودى الاضطرابى : الهواء والماء والطعام . وساعة ترى « همزة » وسيناً « واء » واقعة على شيء من الأشياء فاعرف أنه أمر مطلوب ومرغوب فيه .

مثال ذلك : حين مار موسى والعبد الصالح ونزلا قرية استطعما أهلها ، أى طلبا طعاماً وهذا هو المقوم الثالث للحياة . وهنا « استسقى » أى طلب المقوم الثانى وهو الماء ، ونعلم أن المقوم الأول وهو الهواء لا نستغنى عنه . لذا لم يضعه الله فى يد أحد بل أعطاه ومنحه كل الخلق .

ولما كان الهواء غير مملوك وهو مشاع ، لذلك لم توجد فيه هذه العملية . إنما الطعام يُمكن أن يُملك ، والماء يُمكن أن يُملك ، فقال سبحانه مرة « استطعم » ، وقال هنا « استسقى » ، ولم يوجد « استهوى » لطلب الهواء ، لكن وجد فى القرآن « استهوى » بمعنى طلب أن تكون على هواه :

﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْ الشَّيَاطِينُ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأنعام)

أى طلبت الشياطين أن يكون هواه ومراده تبعاً لما يريدون لا لما يريد الله .

وقصة الاستسقاء وردت من قبل في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ . وفي سورة الأعراف التي نحن بصدد خواطرنّا عنها هم الذين طلبوا الاستسقاء . فهل هناك تعارض ؟ . طبعاً لا ؛ لأن قوم موسى طلبوا السقيا من موسى ، فطلب لهم السقيا من ربه . فهل هذا تكرار ؟ لا ؛ لأنه سبحانه تكلم عن الواسطة ، وبعد ذلك تكلم عن الأصل ، وهو سبحانه الواهب للماء ؛ فقال هنا : ﴿ إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ ﴾ ، وفي سورة البقرة قال : ﴿ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ .

وهذا ترتيب طبيعي . أقول ذلك لنعرف الفارق بين العبارتين حتى نؤكد أنه لا خلاف ولا تكرار ؛ لأن المستسقى هنا القوم ، والمستسقى لهم هنا هو موسى والمستسقى منه هو الله - جلّت قدرته - وهذا أمر طبيعي .

والحق سبحانه يقول في سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

ونجد الوحي نزل إلى موسى بقوله : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ ﴾ ؛ وهنا في سورة الأعراف نجد الحق يقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ولنا أن نعرف أن ﴿ قُلْنَا ﴾ تساوى ﴿ أَوْحَيْنَا ﴾ تماماً ، لأن المقصود بالقول هنا ليس من مناطات تكليم الله لموسى ، بل مناط هذه القضية غير المناط في قوله الحق : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ .

فليس كل وحي لموسى جاء بكلام مباشر من الله ، بل سبحانه كلمه مرة واحدة كتشريف له ، ثم أوحى له من بعد ذلك كغيره من الرسل .
وقوله الحق :

﴿ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

هذا القول يدلنا على الإعجاز المطلق ، فمرة أمر الحق موسى أن يضرب الماء بالعصا ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ ، ومرة يأمره هنا أن يضرب الحجر فينبجس منه الماء ، وهكذا نرى طلاقة قدرة الله في أن يعطي ويمنع بالشئ الواحد ، ولم يكن ذلك إلا بالأسباب التي في يد الله يحركها كيف يشاء . ولذلك رأينا أمر الله حين ضرب موسى البحر بعصاه ، فصار كل فرق كالطود ، أي كالجبل ، وامتنعت السيولة ، ولما خرج موسى وقومه إلى البر بعد أن عبر البحر أراد أن يضرب البحر ليعود ثانية إلى سيرته الأولى من السيولة ، فأوحى له الله : ﴿ اترك البحر رهوا ﴾ .

أي اتركه كما هو عليه ، لأن الله يريد أن يفتر فرعون وقومه بأن يروا اليأس طريقاً موجوداً بين الماء ، فيحاولوا النفاذ منه وراء موسى وقومه ، وما أن دخل فرعون وقومه خلف موسى حتى عاد الماء إلى سيولته ففرق فرعون وقومه . وهكذا أنجى الله وأغرق بالشئ الواحد ، وكذلك في أمر العصا ، إنها هي حين ضربت الماء فلقته فصار كل فرق كالطود والجبل الشامخ ، ثم ضرب موسى بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا من الماء ، وهكذا نرى قدرة من بيده القدرة والأسباب .

﴿ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

وهنا تعبير « انبجست » ، وهناك تعبير « انفجرت » ، وتعلم أن الانبجاس يحدث أولاً ثم يتبعه الانفجار ثانياً ، فالانبجاس أن يأتي الماء قطرة قطرة ، ثم يأتي الانفجار وتتدفق المياه الكثيرة ، فكان موسى عليه السلام أول ما يضرب الضربة تأتي وتجيء المياه قليلة ثم تنفجر بعد ذلك . إذن فقد تكلم الحق عن المراحل التي أعقبت الضربة في لقطات متعددة لمظهر واحد ، له أولية وله آخرية .

وحين تكلم أمير الشعراء عن عطاء الله وقدرته قال :

سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرشدا وابن البتول فعلم الإنجيلا
ثم جاء لسيدنا محمد وقال :
وفجرت ينبوع البيان محمداً فسقى الحديث وناول التنزيلا

وهنا توفيق رائع في العبارة حين قال : « فسقى الحديث » ، فالحديث سقيا أما القرآن فمناولة من الله لخلقه . والحق يقول : ﴿ فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ .

إن الضربة واحدة من عصا واحدة ، وكان المفترض أن تحدث هذه الضربة عينا واحدة تنبع منها المياه ، لكن الحق أرادها اثنتي عشرة عينا وعلم كل أناس مشربهم ، لذلك كان لابد أن يكون المكان متسعاً . وأن هذه الضربة كانت إيذاناً بالانفعال من الأرض .

﴿ فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ومن أين عرف كل قسم منهم الماء الذي يخصه ؟ إنها قسمة الله وصارت كل عين تجذب أصحابها ، فلم يتزاحموا ، وهذا يدل أيضاً على التساوي ، فلم تنفجر عين بماء أكثر من الأخرى فتشرب الطمع ، لا ، بل انتظم الجميع فيما أراد الحق : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ .

والحق هنا يتكلم عن رحلة بني إسرائيل في التيه ، وفي الصحراء والشمس محرقة ، ولا ماء ، فاستسقوا موسى ، فطلب لهم السقيا من الله ، وجاءت لهم اثنتا عشرة عينا حتى لا يتزاحموا ، وعرف كل منهم مشربه .

ويضيف الحق : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ ﴾ .

ولأن الشمس محرقة يرحمهم الله بمسيرة من الغمامات تظللهم ، ولكل سبط غمامة على قدره ، فإذا كان الواحد من البشر حين يوزع جماعة من كتل صغيرة ، لا يعجز أن يضعهم في عشرين خيمة مثلاً ، فهل يعجز ربنا عن ذلك ؟ طبعاً لا .

وإذا كان الحق قد ضمن لنا في الأرض الرزق حتى لا نجوع ، ولا نمرى ،
ولا تحرقنا الشمس ، ونجد ماء . إذن لقد بقي أمر الطعام لهؤلاء . فقال :

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ساعة تأتي كلمة « أنزلنا » نعرف أنها مسألة جاءت من علو ، ولا يفترض أن
يكون مكانها عالياً ، لكن هي مسألة جاءت من أعلى من قدرتك ، أي من فوق
أسبابك إنها بقدرة الأعلى .

و « المن » مادة بيضاء اللون حلوة الطعم مثل قطرات الزئبق . يجدونه على
الشجر . ولا يزال هذا الشجر موجوداً إلى الآن في العراق ، يهزونه صباحاً فيساقط
ما على الورق من قطرات متجمدة لونها أبيض ، فيأخذونه على ملاء بيضاء واسمه
عندهم المن - أيضاً - وهو في طعم القشدة وليونتها ، وحلاوة العسل .

و « السلوى » هو طير من رتبة الدجاجيات يستوطن أوروبا وحوض البحر المتوسط
واحدته « سلواة » وهو « السمانى » ويسميه أهل السواحل « السمان » وهو يأتي
مهاجراً ولم يره أحد ، وفي هذا إنزال من الله لأنه رزق من فوق قدرة العباد
وأسبابهم .

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

وهناك مصانع تصنع المن في أشكال مختلفة وأنواع من الحلوى جميلة ، ومن
زار العراق ذاقه أو أحضره لأهله . والسلوى - كما قلنا - هو طائر « السمان »
الموجود في بيئة أخرى يفره ربنا بالطقس الدافئ فيأتي إلينا لنأخذه ، وهذه الطيور
جاءت طالبة استمرار الحياة ، ويبحثها ربنا لتصير لنا طعاماً ليدل على أنه حين يريد
أن يأتي لهم برزق غيبى يمد لهم ويمنحهم المن والسلوى كما أخرج من الحجر
الماء ، وكما ظللهم بالقمم ، وبذلك صارت حاجاتهم قدرية ليس لهم فيها أسباب
وجاءت لهم بالهناء . فقالوا : ومن يدري أن الرزق الذي يأتينا من المن والسلوى
سيستمر ، ثم كيف لنا أن نصبر على طعام واحد ؟ إنهم قالوا لنبيهم سيدنا موسى

ما حكاه القرآن بقوله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَحْدًا دَعَّ لَنَا رَبُّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ
الْأَرْضُ مِنْ بَقَلِهَا وَفِثْلِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ .

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

وهنا قال الحق : اذهبوا إلى أي بصر من الأمصار والمدن تجدوا ما تريدون :
﴿ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾ . لقد أعطاهم الحق الرزق بدون السببية ،
إنه منه مباشرة ، فكان من الواجب أن تشكروا من أراحكم ، وجعل لكم الرزق
ميسرا . لكنهم لم يشكروا الله ، بل ثمدوا ، ولذلك ذيل الحق الآية بقوله :
﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . نعم فهم ظلموا بعدم شكر النعمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا
مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ
سُجَّدًا تَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ
الْمُحْسِنِينَ ﴾

وهذه القصة مذكورة أيضاً في سورة البقرة ، ونعرف أن قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ
قِيلَ لَهُمْ ﴾ ، ولم يذكر الحق من القائل ، لأن طبيعة الأمر في الأسباط أنه سبحانه
يجعل لكل سبط منهم عينا يشرب منها ، وكل سبط له نقيب ، وهذا دليل على أنهم
لا ياتلفون ، فلا يكون القول من واحد إلى الجميع ، بل يصدر القول من المشرع
الأعلى وهو الحق إلى الرسول ، والرسول يقول للنقباء ، والنقباء يقولون للناس .

ويعد أن تلقى موسى القول أبلغه للنقباء ، والنقباء قالوه للأسباط ، وفي آية
أخرى قال الحق : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ . وهذا القول الأول وضعنا أمام لقطة توضح أن

المصدر الأصيل في القول هو الله ، ولأنهم أسباط ولكل سبط مشرب ؛ لذلك يوضح الحق هنا أنه أوحى لموسى . وساعة ما تسمع « وإذ » فاعلم أن المراد اذكر حين قيل لهم اسكنوا هذه القرية ، لقد قيل إن هذه القرية هي بيت المقدس أو أريحا ، لكنهم قالوا : لن ندخلها أبداً لأن فيها قوماً جبارين وأضافوا :

﴿ فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

والحق لا يبين لنا القرية في هذه الآية ، لأن هذا أمر غير مهم ، بل جاء بالمسألة المهمة التي لها وزنها وخطرها وهي تنفيذ الأمر على أي مكان يكون : ﴿ اسكنوا هذه القرية وكلوا منها ﴾ .

ويوضح الحق : أنا تكفلت بكم فيها كما تكفلت بكم في التيه من تظليل غمام ، وتفجير ماء من صخر ، ومنّ وسلوى . وحين أقول لكم ادخلوا القرية واسكنوها فلن أتخلى عنكم : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ . وقديما كان لكل قرية باب ؛ لذلك يتابع سبحانه : ﴿ وتولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ .

والحطة تعني الدعاء بأن يقولوا : يا رب خط عنا ذنوبنا فنحن قد استجبنا لأمرك وجئنا إلى القرية التي أمرتنا أن نكنها ، وكان عليهم أن يدخلوها ساجدين ؛ لأن الله قد أنجاهم من التيه بعد أن أنعم عليهم ورفقهم فيه . وإذا ما فعلوا ذلك سيكون لهم الثواب وهو :

﴿ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَرِدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وسبحانه يغفر مرة ثم يكتب حسنة ، أي سلب مضرة ، وجلب منفعة ، لكن هناك في سورة البقرة قد جاء النص التالي :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَتَرِدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(سورة البقرة)

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

○ ٤٤.١ ○

فالكيان العام واحد ونجد خلافاً في الألفاظ والمقطعات عن الآية التي وردت في سورة الأعراف . أول خلاف ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ ، ﴿ وَإِذْ قِيلَ ﴾ ، وشاء الحق ذلك ليأتى لنا بلفظة مختلفة كما أوضحنا من قبل . ففي آية سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ ادْخُلُوا ﴾ وفي آية سورة الأعراف يقول : ﴿ اسْكُنُوا ﴾ ، ونعلم أن الدخول يكون لغاية وهي السكن أي ادخلوا لتسكنوا ، وأوضح ذلك بقوله في سورة الأعراف : ﴿ اسْكُنُوا ﴾ ليبين أن دخولهم ليس للمرور بل للإقامة . وأراد سبحانه أن يعطيهم الغاية النهائية ، لأنه لا يسكن أحد في القرية إلا إذا دخلها .

وهكذا نرى أن كلمات القرآن لا تأتي لتكرار ، بل للتأسيس ولإتيان بمعنى جديد بوضوح وبيان ويشرح . ويقول الحق هنا في سورة الأعراف : ﴿ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ . وفي آية سورة البقرة يقول : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغْداً ﴾ .

وحين أمرهم الله بالدخول وكانوا جوعى أمرهم الحق أن يأكلوا ، على الفور والثوبتوسع ، لذلك أتى بكلمة « رَغْداً » لأن حاجتهم إلى الطعام شديدة وملحة ، لكنه بعد أن أمرهم بالسكن أوضح لهم أن يأكلوا ، لأن السكن يحقق الاستقرار ويتيح للإنسان أن يأكل براحة وثأن . وقال الحق هنا في سورة الأعراف : ﴿ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً ﴾ . أي أنه قدم قولهم « حِطَّةً » على السجود ، وفي آية سورة البقرة قدم السجود فقال :

﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةً ﴾

(من الآية ٥٨ سورة البقرة)

جاء الحق بهذا الاختلاف لأنه علم أن اتفعالات السامعين تختلف ساعة الدخول ، فهناك من يتفعل للقول ، فيقول أول دخوله ما أمر به من طلب الحطة وغفران الذنب من الله ، وهناك آخر يتفعل للفعل فيسجد من فور الدخول تنقيداً لأمر الله . وأيضاً قال الحق هنا في سورة الأعراف :

﴿ تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وفي سورة البقرة يقول : ﴿ تَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ونعلم أن صيغة الجمع تختلف ؛ فهناك « جمع تكسير » وجمع تانيث ، ففي جمع التكسير نغير من ترتيب حروف الكلمة ، مثل قولنا « قفل » فنقول في جمعها « أقفال » . أما في جمع التانيث فنحن نزيد على الكلمة ألفاً وتاء بعد حذف ما قد يوجد في المفرد من علامة تانيث ، مثل قولنا « فاطمة » ، و « فاطمات » ، و « أكلة » ، و « أكالات » وهذا جمع مؤنث سالم ، أي أن ترتيب حروفه لم يتغير ، وجمع المؤنث السالم يدل على القلة . لكن جمع التكسير يدل على الكثرة فجاء - سبحانه - بجمع المؤنث السالم الذي يدل على القلة وجمع التكسير الذي يدل على الكثرة لاختلاف درجات ونسب الخطايا ؛ لأن المخاطبين غير متساوين في الخطايا ، فهناك من ارتكب أخطاء كثيرة ، وهناك من أخطأ قليلاً . والاختلاف حدث أيضاً في عجز الآيتين ، فقال في سورة البقرة : ﴿ وستزيد المحسنين ﴾ . وجاء عجز سورة الأعراف بدون « واو » فقال : ﴿ ستزيد المحسنين ﴾ .

وقد عودنا ودعانا الحق إلى أن نقول : اغفر لنا وأنت خير الغافرين ، وارحمنا وأنت خير الراحمين ، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة . وهنا يوضح سبحانه : أنا لن أكتفي بأن أغفر لكم وأن أرفع عنكم الخطايا . لكني سأزيدكم حسناً ، وفي هذا سلب للمضمر وجلب للنفع . كأن الله حينما قال : « خطاياكم » بجمع التكسير الذي ينبيء ويدل على كثرة الذنوب والخطايا و « خطياتكم » التي تدل على القلة انشغلوا وتساءلوا : وماذا بعد الغفران يا رب فقيل ؟ لهم : ﴿ ستزيد المحسنين ﴾ هل سيغفر لنا فقط ، أو أنه سيجازينا بالحسنات أيضاً ؟ وكانت إجابة الله أنه سيغفر لهم ويزيدهم ويمدهم بالحسنات . وقد عقدنا هذه المقارنة المفصلة بين آية سورة البقرة وآية سورة الأعراف لنعرف أن الآيات لا تتصادم مع بعضها البعض ، بل تتكامل مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَلَرَّكَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النساء)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي

قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

هذه الآية تدل على أنهم اختلفوا فرقتين ؛ لأن الحق سبحانه مادام قد قال : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ فهذا يعنى أن بعضهم قالوا وفعلوا المطلوب ، وبعضهم ظلموا وبدلوا القول ، فقد أمرهم الحق أن يقولوا : « حطة » وطلب منهم أن يدخلوا سجداً ، والتغيير منهم جاء فى القول ؛ لأن القول قد يكون بين الإنسان وبين نفسه بحيث لا يسمعه سواه . لكن الفعل مرئى مما يدل على أن بعضهم يرائى بعضاً ، ففى القول أرادوا أن يهذروا ويتكلموا بما لا يبنى ولا يليق ، فبدلاً من أن يقولوا : « حطة » قالوا : « حنطة » استهزاء بالكلمة .

وهكذا نرى أن التبديل جاء فى القول ، لكن الفعل لم يأت فيه كلام ، وإن قال بعضهم : إن التبديل أيضاً حدث من بعضهم فى الفعل . فبدلاً من أن يدخلوا ساجدين دخلوا زاحفين على مقعداتهم ، كنوع من التعالى ، لكن الحق لم يذكر شيئاً من ذلك ؛ لأن سلوكهم فى الفعل قد يكون السبب فيه أن بعضهم لا قدرة له على الفعل .

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٢ سورة الأعراف)

وكأن الحق يذكرنا بما فعله معهم من رعايتهم فى أثناء التيه وكيف ظلل عليهم القمام وأنزل عليهم المن والسلوى ، واستسقى لهم موسى فجاءت المياه . لكن غريزة التبديل والتمرد لم تغادرهم . وماداموا قد بدلوا فى كلمات الله ، فعليهم أن ينالوا العقاب : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ .

وهناك آية ثانية فى سورة البقرة يقول فيها الحق : ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ . والفارق بين « الإنزال » وبين « الإرسال » أن الإنزال يكون مرة واحدة . أما الإرسال فهو مستمر ومتواصل . ولذلك يقول الحق سبحانه فى

المطر : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ . لأن المطر لا ينزل طوال الوقت من السماء . لكن في الإرسال استمرار ، اللهم إلا بعضاً من تأثير الهواء . ولذلك يقول الحق : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ ﴾ . فالذي يحتاج إلى استمرارية في الفعل يقول فيه الحق : « أرسل » بدليل أن الله حينما أراد أن يجيء بالطوفان ليفرق المكذبين بموسى قال :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة الأعراف)

وعندما أراد أن يرغب عاداً قوم سيدنا هود في الاستغفار والتوبة والرجوع عما كانوا عليه من الكفر والأثام قال لهم :

﴿ وَيَنْقَرِعُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة هود)

إذن فالإرسال يعني التواصل ، أما الإنزال فهو لمرة واحدة ، وأراد الحق سبحانه من قصة بني إسرائيل أن يأتي لنا بلفظة فجاء بكلمة « أنزلنا » ، ولفظة أخرى جاء فيها بـ « أرسلنا » ، لأن العقوبة تختلف باختلاف المذنبين ، والمذنبون مقولون بالتشكيك ، فهذا له ذنب صغير ، وآخر ذنب أكبر ، وكل إنسان يأخذ العذاب على قدر ذنبه ، فمن أذنب ذنباً صغيراً أنزل الله عليه عقاباً على قدر ذنبه . ومن تمادى أرسل الله عليه عذاباً يستمر على قدر ذنبه الكبيرة .

وهنا يقول الحق :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

(من الآية ١٦٢ سورة الأعراف)

و « رجزاً » أي عذاباً ، وهناك رِجَزٌ ، وَرِجْزٌ ، وَالرُّجْزُ يُؤْلَدُ مِنَ الرُّجْزِ ، وينشأ مثل قوله الحق : ﴿ وَالرُّجْزَ قَاهِجِرَ ﴾ . أي اهجر الرُّجْزَ . أي المآثم والمعاصي والذنوب لتسلم من الرُّجْزِ . أي من العذاب . وهنا يبين الحق أنهم تلقوا العذاب بسبب ظلمهم ، وهناك في الآية الأخرى قال : ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

والفسق يسبق الظلم ، لأن الإنسان لا يمكن أن يظلم نفسه بمخالفة منهج إلا إذا

فسق أولاً ، ولذلك جاء الحق بالسبب وجاء بالسبب ، وهكذا نتأكد أن كل كلمة في القرآن جاءت لمعنى أساسي تؤديه ولا تكرر إلا لمجموع القصة في ذاتها ، أما لقطات القصة هنا ، ولقطات القصة هناك فأمور جاءت تأسيساً في كل شيء لتعطي معاني ولقطات جديدة .

ويقول الحق بعد ذلك :

وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً
الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِثَّانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعَاوِيَوْمَ لَا يُسَبِّحُونَ
لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ



هنا سؤال عن القرية التي كانت حاضرة البحر ، ونعلم أن القرية الأولى التي دخلوها هي « بيت المقدس » ولم تكن على البحر ، والقرية التي كانت على البحر هي « أيلة » أو « مدين » أو « طبرية » ، المهم أنها كانت « حاضرة البحر » أي قرية من البحر ومشرقة عليه ، لأننا نقول فلان حضر ، أي كان بعيداً فاقرب . فمثل الإسكندرية يمكن أن نسميها حاضرة البحر .

وقوله : « واسألهم » والسؤال هنا موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوجه السؤال إلى أهل الكتاب ، ويطلب منهم أن ينظروا في كتبهم ليعرفوا أن ما يقوله هو وحى من الله إليه ، لأنهم يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس إلى معلم ، ولم يقرأ في كتاب ، وإنما علمه من أرسله ، إنه صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يعلم منهم ، بل يريد أن يعلمهم أنه يعلم ، وهم يعلمون أنه لا مصدر له كعلم سائر البشر ، لا جلس على معلم ولا قرأ في كتاب ولذلك تجد « ماكنات »

القرآن أى قوله الحق : « ما كنت » و « ما كنت » و « ما كنت » و « ما كنت » مثل قوله :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ومثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتَ نَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة القصص)

ومثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَكُمُ أَهْيَمُ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة آل عمران)

إذن فانت يا رسول الله لم تكن معهم لقول لهم ما حدث وحصل لهم ، بل إن ذلك موجود عندهم فى كتبهم ، إذن فالذى علمك هو من أرسلك . كذلك هنا مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَّا رَتَابَ الْمُظِلُّونَ ۖ ﴾

(سورة العنكبوت)

وفى هذا القول أمر من الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم أنه سبحانه قد علمه وأعلمه بما لا يستطيعون إنكاره ليثبتوا أن الله يعلمه ليؤمنوا به .

﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الاعراف)

وكلمة « واسألهم » تحل لنا إشكالات كثيرة ، مثال ذلك حديث الإسراء ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بالأنبياء بصلاة إبراهيم .

فمن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيته فى الحجر وقريش تسألنى عن عسراى ، فسألونى عن أشياء من بيت

المقدس لم أثبتها فكربت كرياً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله إلى أنظر إليه ، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به ، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء ، وإذا موسى قائم يصلي وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به صاحبكم - يعني نفسه - فحانت الصلاة فأمرتهم فلما فرغت قل قائل : يا محمد هذا مالك خازن جهنم قالت فت إليه فبدأنى بالسلام (١) .

ونأتى آية في القرآن تقول :

﴿وَسَعَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾

(من الآية ٥٥ سورة الزخرف)

والامر لرسول الله عليه الصلاة والسلام أن يسأل رسول الله من قبله ، ومتى يسألهم ؟ لا بد أن توجد فرصة ليلتقوا فيسأل . إذن حين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه التقى بالأنبياء وكلمهم وصلى بهم فالخبر مصدق لأنه قد أدى أمر الله : ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ . والسؤال هنا سؤال للتفجير والتفريح والتوبيخ : وما قصة القرية التي كانت حاضرة البحر ؟

لقد قلنا إن حاضرة البحر أى القرية من البحر ، ونفهم أن ما تتعرض له الآية من سؤالهم يشير إلى أن للبحر فيه مدخلاً ، لأن المسألة متعلقة بالحيثان والسمك والصيد ، لذلك لا بد أن تكون بلدة ساحلية .

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّاءَ وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وحيثان جمع حوت ، مثلما يجمعون «تونا» - وهو الحوت أيضاً - على «نينان» ، وهو صنف من الأسماك . لقد حرم الله عليهم العمل في يوم معين لينقطعوا فيه للعبادة وهو يوم «السبت» ، وما زالت عندهم بعض هذه العادات ، حتى إن واحداً منهم زار أمريكا ورفض أن يركب سيارة يوم السبت لأنه يوم عطلة ،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه .

ورفض كذلك أن يعمل حتى جاء اليوم التالي . وشاء الحق سبحانه أن يؤدبهم حينما ارتكبوا أشياء مخالفة للمنهج ، وسلب منهم وقتاً للعمل وقال :

﴿ فَوَظَلِمَ مِمَّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

وفي هذه مثل وغير لاي منحرف ، ولكل منحرف نقول : إياك أن تغفل أنك بانحرافك عن منهج الله ستأخذ أشياء من وراء ربنا وتسرقها ، لا ؛ لأن ربنا قادر أن يتلبه بعقاب يفوق ما أخذ آلاف المرات ، فالمرتضى مثلاً يفتح له الله أبواباً من الأمراض ومن العلل ومن المصائب فيضيع عليه كل شيء أخذه .

إذن فقد استحل بنو إسرائيل أشياء محرمة ، فابتلاهم الله بأن يحرمهم من أشياء كانت حلالاً لهم . وهكذا نرى أن ما وقع عليهم من عقاب كان بظلمهم لأنفسهم ؛ لأنهم انشغلوا بالدنيا وبالمادة ، فحرم عليهم العمل في يوم السبت ، وهؤلاء الذين كانوا يقيمون قريباً من حاضرة البحر يبتليهم الله البلاء العظيم ، ويرون السمك في المياه وهو يرفع زعافه كشرع المركب ، وتطل عليهم أشعة الحيتان وهم في بيوتهم ، وهذا ابتلاء من ربهم لهم وعقاب ؛ لأنهم ممنوعون من صيده ، ويرون هذا السمك أمامهم في يوم السبت ، لكن في بقية الأيام التي يباح فيها العمل ، كيوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة لا تظهر لهم ولا سمكة واحدة ؛ ﴿ ويوم لا يستون لأتائهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ .

وهنا قالوا : مادام ربنا قد حرم علينا أن نصطاد يوم السبت فعلينا أن نحال . وصنعوا كيساً من السلك المضفر والذي نسميه « الجوية » وهم أول من صنعوا هذه الجوية بشكل خاص ، ويدخل السمك فيها ولا يستطيع الخروج منها ، فيأتي السمك يوم السبت ويدخل في الجوية ويستخرجونه يوم الأحد . وفي هذا اعتداء . أو يصنعون حوضاً له مدخل وليس له مخرج وفي هذا مكر . وتمكر لهم السماء بحيلة أشد . لقد أراد الله ابتلاءهم لأنهم فسقوا عن المنهج . وخرجوا عن الطاعة ، واستحلوا أشياء حرمها الله ؛ لذلك يحرم الله عليهم أشياء أحلها لغيرهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ
أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

وحينما تجد أن طائفة قالت قولاً ، فلا بد أن هناك أناساً قيل لهم هذا القول .
إذن ففيه « قوم واعظون » ، و« قوم موعظون » ، و« قوم مستنكرون وعظ
الواعظين » . وهكذا صاروا ثلاث فرق :

الذين قالوا وعظاً لهم : لماذا لا تلتزمون بمنهج الله ؟ هؤلاء هم المؤمنون حقاً .
وقالوا ذلك لأنهم رأوا من يخالف منهج الله . والذين لاموا الواعظين هم الصالحاء
من أهل القرية الذين يشوا من صلاح حال المخالفين للمنهج .
وحين ندقق في الآية :

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الاعراف)

نعلم أن القائلين هم من الذين لم يعتدوا ، ولم يعظوا وقالوا هذا التساؤل لمن
وعظوا ؟ لأنهم رأوا أن الوعظ مع الخارجيين على منهج الله لا ينفع . كما قال الله
لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ .

هنا يسأل الحق رسوله : ولماذا تحزن نفسك وتعمل على إزهاق روحك . وهنا
قال بعض بني إسرائيل : لم تعظون هؤلاء المغالين في الكفر ، لماذا ترمقون
أنفسكم معهم ، إنهم يعملون من أجل أن يعذبهم الله . وماذا قال الواعظون ؟ :
﴿قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم ينتقون﴾ .

وما هي المعذرة إلى الله ؟ . يقال : عذرك فلان إذا كنت قد فعلت فعلاً كان في

ظاهره أنه ذنب ثم بينت العذر في فعله ، كأن تقول : لقد جعلتني انتظرك طويلاً وتأخرت في ميعادك معي . أنت تقول ذلك لصديق لك لأنه أتى بعمل مخالف وهو التأخر في ميعاد ضربه لك . فيرد عليك : تعطلت مني السيارة ولم أجد وسيلة مواصلات ، وهذا عذر . إذن فمعنى « العذر » هو إبداء سبب لأمر يخالف مراد الغير . ولذلك يقال : أعذر من أئذر ، والحق يقول :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة التوبة)

ونعلم أيضاً أن هناك مُعْذِرًا ، وَمُعْذَرًا . وَالْمُعْذِرُ هو من يأتي بعذر كاذب ، وَالْمُعْذَرُ هو من يأتي بعذر صادق . وقال الواقفون : نحن نعظمهم ، وأنتم حكمتهم بأن العظة لا تنفع معهم لأنهم اختاروا أن يهلكهم الله ويعذبهم ولكننا لم نبالس ، وعلى فرض أننا نبالسنا من فعلهم ، فعلى الأقل نكون قد قدمنا لربنا المَعْدِرَةَ في أننا عملنا على قدر طاقتنا .

وكلمة « وَعَظَ » تقتضى أن تقول فيها : إن هناك فارقاً بين بلاغ الحكم ، والوعظ بالحكم ، فالوعظ أن تكرر للموعوظ ما يعلمه لكنه لا يفعله . كأن تقول لإنسان : قم إلى الصلاة ، هو يعلم أن الصلاة مطلوبة لكنه لا يقوم بأدائها .

إذن فالوعظ معناه تذكير الغافل عن حكم ، ومن كلمة الوعظ نشأت الوُعَاظ . وهم من يقولون للناس الأحكام التي يعرفونها ، ليعملوا بها ، فالوعاظ إذن لا يأتون بحكم جديد .

وبعض العلماء قال : إن قول الحق : ﴿ لَمْ نَعْظُوكُمْ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ ﴾ ليس مراداً به الفئة التي لم تفعل الذنب ولم تعظ ، إنما يراد به الفئة الموعوذة ، كأن الموعوظين قالوا : إن ربنا سيعذبنا فلماذا توعظوننا ؟ . ونقول : لا ، لأن عجز الآية ينافي هذا . فالحق يقول : ﴿ معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون ﴾ .

ومجىء « لعلهم » يؤكد أن هذا خبر عن الغير لأنه من الموعوظين . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ
عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

ويخبرنا الحق هنا أن الموعوظين حينما نسوا ما وعظهم به بعض المؤمنين
أهلكهم الله بالعذاب الشديد جزاء لخروجهم فسوقهم عن المنهج وأنجى الله
الفرقة الواعظة . وماذا عن الفرقة الثالثة التي لم تنضم إلى الواعظين أو
الموعوظين ؟ الذين قالوا : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ إن قولهم هذا لون من
الوعظ ؛ فساعة يخوفونهم بأن ربنا مهلك أو معذب من يخرج على منهجه ، فهو
وعظ من طرف آخر .

وقوله الحق : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ يدل على أنه قد وعظهم غيرهم
وذكروهم . ويعذب الحق هؤلاء الذين ضربوا عرض الحائط بمنهجه ولم يسمعوا
من وعظهم ، وخرجوا على تعاليمه فظلموا أنفسهم واستحقوا العذاب الشديد ؛
فالمسألة ليست نعتاً من الله ؛ لأنهم السبب في هذا ، إما بفسق ، وإما بظلم
للنفس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَآثِهِمْ غَنَوْا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً
خَاسِيَةً ﴾

وأخذهم بعذاب يدل على أنه لم يزهق حياتهم ويعينهم ؛ لأن العذاب هو إيلام
من يتألم ، والموت ليس عذاباً لأنه ينهى الإحساس بالألم ، ولنتعرف على الفارق
بين الموت والعذاب حين نقرأ قصة الهدد مع سيدنا سليمان ، يقول سيدنا
سليمان حين تبه لغياب الهدد عندما وجد مكانه خالياً :

﴿ مَا لِي لَا أَرَى الْمُذْمُومَ كَانَ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ٢٠ لَا عَذَابَ عَظِيمًا
أَوْ لَا أَذْبَحَتْ ٢١

(من الآيتين ٢٠ ، ٢١ سورة النمل)

هكذا نرى الفارق بين العذاب وبين الموت . وهنا يقول الحق : ﴿ فلما عتوا عن ما نهوا عنه ﴾ و « عتوا » تعنى أبوا وعصوا واستكبروا فحق عليهم عذاب الله الذي أوضحه قول الحق : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ .

لأن « العتو » كبرياء وإباء ، فيعاقبهم الله بأن جعلهم كأخس الحيوانات ، فصبرهم أشباه القردة ، كل منهم مفضوح السيوف ، يسخر الناس منهم ويستهزئون بهم . فهل انقلبوا قردة ؟ . نعم ، لأنك حين تأمر إنساناً بفعل . . . ألا تقدر قبل الأمر له بالفعل أنه صالح أن يفعل وألا يفعل ؟ . ونحن يقول الله : ﴿ كونوا قردة ﴾ فهل فى مكتهم أن يصنعوا من أنفسهم قردة ؟ . ونقول : إن هذا اسمه « أمر تسخيرى » أى اصبحوا وصيروا قردة . وقد رأوهم على هذه الهيئة من عظمهم ، وهى هنا مقولة « خبر » نصدقه بتوثيق من قاله ، وكان هذا الخبر واقعاً لمن شاهده .

ولذلك نجد المعجزات التى حدثت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير القرآن الذى وصلنا ككتاب منهج ومعجزة وسيظل كذلك إلى قيام الساعة ، لكن ألم ينبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ؟ لقد حدث ذلك وغيره من المعجزات وشاهده أصحابه صلى الله عليه وسلم ، وأخبرونا بالخبر ، وكان ذلك آية تُثبت يقينهم وإيمانهم . وثبت لنا خبراً ، فإن اتسع لها ذهنك فأهلاً وسهلاً ، وإن لم يتسع لها فلا توقف إيمانك ، لأنها آية لم تأت من أجلك أنت ، وكل معجزة كونية حدثت لرسول الله فالمراد بها من شاهدها ، ووصلتك أنت كخبر ، إن وثقت بالخبر صدقته ، وإن لم تثق به ووقفت عنده فلن ينقص إيمانك . غير أنه يجب على من وصل إليه الخبر بطريق مقطوع به ، أن يصدق ويدعن .

وقد أخبر الحق هنا بالأمر بقوله : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ بأنه أوقع عليهم عذاباً بأن جعلهم قردة خاسئين ، فهذا عقاب للذين عتوا عما نهوا عنه . والذين وعظوهم أو عاصروهم هم من شاهدوا وقوع العذاب .

وهل الممسوخ يظل ممسوخاً ؟ . إن الممسوخ قرداً أو خنزيراً ، يظل فترة كذلك ليراه من رآه ظالماً ، ثم بعد ذلك يموت ويتهى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ
مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ
الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧)

وتأذن نجد مادتها من الهمزة والذال والتون ، فمته أذن ، ومنها أذان ، وكلها يراد بها الإعلام ، والوسيلة للإعلام هي الأذن والسمع ، حتى الذي سئل به بواسطة الكتابة نقول له لسمع . ثم يكتب ويقرأ ، وما قرأ إلا بعد أن سمع ؛ لأنه لن يعرف القراءة إلا بعد أن يسمع أسماء الحروف « ألف » ، « باء » إلخ ، ثم تهجها . إذن فلا أحد يقرأ إلا بعد أن يسمع ، وهكذا يكون السمع هو الأصل في المعلومات ، ونقرأ في القرآن :

﴿إِذَا الْمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ﴾ (٢)

(سورة الانشقاق)

وأذنت لربها . . أى سمعت لربها ، فبمجرد أن قال لها : « انشقي » امتثلت وانشقت .

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ
رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧)

(سورة الأعراف)

والكلام هنا بالنسبة لبني إسرائيل ، وبين لنا سبحانه أنهم مع كونهم مختارين في أن يفعلوا ، « فإن موافقهم الإيمانية ستظل متقلبة مترددة ، ولن يهدأ لهم حال

في نشر الفساد وإشاعته ، ولذلك يسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، ولماذا ؟ .

لأنهم منسوبون لدين ، والله لا يسوم العذاب للكافر به وللملحد ، لأنه بكفره وإلحاده خرج عن هذه الدائرة ، إذ لم يبعث الله له رسولا ، ولكن المنسوب لله ديانة ، والمنسوب لله رسالة ، والمنسوب لله كتاباً ؛ إذا فسد مع كونه الناس ويعلمون عنه أنه تابع لنبي ، وأن له كتاباً ، حيثئذ يكون أسوة سيئة في الفساد للناس ، فإذا ما سلط الله عليهم العذاب فإنما يسلط عليهم لا لأجل الفساد فقط ، ولكن لأنه فساد منسوب لمن هو منسوب إلى الله . وعرفنا أن مادة أذن كلها مناط الإعلام ، وحينما تكلم الله عن خلقنا قال :

﴿وَاللَّهُ أَعْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونٍ أَمْهَكْتَ لَكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

وَالْأَفْئِدَةَ﴾

(من الآية ٧٨ سورة النحل)

إن الحق - سبحانه - يسمي العرب المعاصرين لرسول الله أميين ، أي ليس عندهم شيء من أسباب العلم ، وسبحانه خلق لنا وسائل العلم . بأن جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة ، وهي وسائل العلم التي تبدأ بالسمع ثم بالأبصار ثم الأفئدة . ومن العجيب أنه رتبها في أداء وظيفتها ؛ لأن الإنسان منا إذا كان له وليد - كما قلنا سابقاً - ثم جاء أحد بعد ميلاده ووضع أصبعه أمام عينه فإنه لا يطرف ؛ لأن عينه لم تؤد بعد مهمة الرؤية ، وعيون الوليد لا تؤدي مهمة الرؤية إلا بعد مدة من ثلاثة أيام إلى عشرة ، ولكنك إذا جئت في أذنه وصرخت انقل .

إن هذا دليل على أن أذنه أدت مهمتها من فور ولادته ، بينما عينه لا تؤدي مهمة الرؤية إلا بعد مدة ، فأولاً يأتي السمع ، ثم يأتي البصر ، ومن السمع والبصر تتكون المعلومات ، فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية ، ويقولون للطفل مثلاً : إياك أن تقبل على هذه النار حتى لا تحرقك ، فلا يصدق ، ومنظر النار يجذبه فيلمسها ، فيلمسه مرة واحدة ، وبعد أن لمسته النار مرة واحدة ، لم يعد في حاجة إلى أن يتكرر له القول : بأن النار محرقة . فقد تكونت عنده معلومة عقلية . فأولاً

يأتى السمع ، ثم الأبصار ، ثم تأتى الأفئدة . ولذلك قال سبحانه : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ . تشكرون له سبحانه أن أمدكم بوسائل العلم ليخرجكم من أميتكم .

وهناك لفظة إعجازية أخرى ؛ فحين تكلم الحق عن وسائل العلم ، تكلم عن السمع بالإفراد ، وعن الأبصار بالجمع . مع أن هذه آلة ، وهذه آلة ؛ فقال : (السمع والأبصار) ولم يقل السمع والبصر ، ولم يقل الأسماع والأبصار ؛ لأن السمع هى الآلة التى تلتقط الأصوات ، وليس لها سد من طبيعتها ، أما العين فليست كذلك ، ففى طبيعة تكوينها حجاب لتغمض . وإذا أنت أصدرت صوتاً من فمك يسمعه الكل ، وعلى هذا فمناط السمع واحد ، لكن فى أى منظر من المناظر قد تكون لديك رغبة فى أن تراه ، فتفتح عينيك ، وإن لم تكن بك رغبة للرؤية فانت تغمضهما .

إذن فالأبصار تتعدد مراتبها ، أما السمع فواحد ولا اختيار لك فى أن تسمع أو لا تسمع . أما البصر فلك اختيار فى أن ترى أو لا ترى ، وهذه أمور رتبها لنا الحق فى القرآن قبل أن يشأ علم وظائف الأعضاء ، ورتبها سبحانه فأفرد فى السمع ، وجمع فى البصر مع أنهما فى مهمة واحدة ، إلا آية واحدة جاءت فى القرآن :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الإسراء)

قال الحق ذلك لأن المسئولية هنا هى الفردية الذاتية ، وكل واحد مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده ، وليس مسئولاً عن أسماع وأبصار وأفئدة الناس . ونرى مادة السمع قد تقدمت ، وبعدها جاءت مادة البصر إلا فى آية واحدة أيضاً ، تتحدث عن يوم القيامة :

﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾

(من الآية ١٢ سورة السجدة)

هنا قدّم الحق مادة الإبصار على مادة السمع ؛ لأن هول القيامة ساعة يأتى سنرى تغيراً فى الكون قبل أن نسمع شيئاً .

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

(سورة الاعراف)

وتأذن أى أعلم الله إعلاماً مؤكداً بأنكم يا بنى إسرائيل ستظلون على انحراف دائم ، ولذلك سيبسلط الله عليكم من يسومكم سوء العذاب ، إما من جهة إيمانية ، مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع وخيبر ، وإما أن يسلط عليهم حاكماً ظالماً غير متدين ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأنعام)

وكذلك مثلما حدث من بختنصر ، وهنتر . إذن : « وإذ تأذن ربك » أى أعلم ربك إعلاماً مؤكداً : لأن البشر قد يعلمون بشىء ، ولكن قدرتهم ليست مضمونة لكى يعملوا ما أعلموا به ، فإذا أعلمت أنت بشىء فأنت قد لا تملك أدوات التنفيذ ، أما الله - سبحانه - فهو المالك لأدوات التنفيذ ، والإعلام منه مؤكد ، ولذلك يعلم بالشىء ، أما غيره فالظروف المحيطة به قد لا تساعد على أن ينفذ . مثال ذلك : صحابة رسول الله الأول وهم مستضعفون ولم يستطيعوا أن يحموا أنفسهم من اضطهاد المشركين والكافرين ، وصار كل واحد يبحث لنفسه عن مكان يأمن فيه ، منهم من يذهب إلى الحبشة أو يذهب إلى قوى يحتوى به ، فينزل الله فى هذه الظروف العصبية آية قرآنية لرسول الله يقول فيها :

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿١٦٨﴾﴾

(سورة القمر)

وتساءل البعض كيف يهزمون ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا . فعندما نزلت هذه الآية قال سيدنا عمر : أى جمع يهزم ، قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يشب فى الدروع وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ، فعرفت تأويلها يومئذ . إن الله سبحانه وتعالى أعلم بالنصر ، وهو قادر على إنفاذ ما أعلم به على وفق ما أعلم ، لأنه لا يوجد إله آخر

يصادمه . إذن « وإذ تأذن ربك » يعنى أعلم إعلاماً مؤكداً ، وحشية الإعلام المؤكد أنه لا توجد قوة أخرى تمنع قدرته ولا تنقض حكمه .

﴿ وَإِذْ تَأْذَنُ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

أى يبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب . وهناك ينص القرآن مبعوث ، والله يخلئ بينه وبينهم ، فلا يمنهم الله منه ، إنما يسلط الله عليهم العذاب باختيار الظالم . مثلما قال الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُمُهُمْ أَيَّامَ ﴾

(سورة مريم)

أى أنه - سبحانه - أرسلهم لهذه المهمة وخلق بينهم وبين الذين يستمعون إليهم : ﴿ وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة ﴾ .

وكلمة « إلى يوم القيامة » تفيد أن هذا العنصر ، المشاكس من اليهود سيبقى فى الكون كخميرة (عكنة) إلى أن تقوم الساعة ، لماذا ١٩

هم يقومون بمهمة الشر فى الوجود ، ولولا أن هذا الشر موجود فى الوجود ، وبعض الناس بمساوئه وإفساداته ، لم يكن من الناس من يتهافت على الحق وعلى الخير . فالشر - إذن - جاء لبعض الناس بالآله وإفساده ليتجه الناس إلى الخير ، ولذلك تجد أقوى انفعالات تعتل فى صدور المسلمين وأقوى نزوع حركى إلى الإسلام حين يجدون من يظلمهم قضية الإسلام .

إن مهمة الشر فى الوجود أنه يجمع عناصر الخير فى الوجود ، ومهمة الباطل فى الوجود أنه يحفز عناصر الحق ويحضمهم على محاربة الشر ومناهضته ؛ لأن الباطل حين يعم ، ويتضايق منه الناس ، ترفع يدها وتقول : يا ناس افعلوا الخير- ولو لم يحدث ذلك فلن تجد من يقبل على الخير بحمية وحرارة .

﴿ وَإِذْ تَأْذَنُ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

(ويسوم) من مادتها سام ، ونسمعها في البهائم ونسميها السائمة وهي التي تطلب مقومات حياتها ، وليس صاحبها هو الذي يجهز لها مقومات حياتها . أما البهائم التي تُربط وليست سائمة فهي التي تجد من يجهز لها طعامها ، إذن أصل « سام » أي طلب ، وبهيمة سائمة أي تطلب رزقها وأكلها بنفسها .

و « سام » أيضاً أي طلب العذاب . ولا يطلب أحد العذاب إلا أن يكون قد أفرغ قوته في التعذيب . فيطلب ممن يقدر على العذاب أن يعذب ، أي أن الله يسلط ويبعث عليهم من يقوم بتعذيبهم جهداً طاقته ، فإذا فترت طاقته أضعفت فإنه يستعين على تعذيبهم بغيره .

إذن فطلب العذاب معناه أنه : عَذَّبَ هو ، ولم يكنف بأنه عَذَّبَ بل طلب لهم عذاباً آخر ، و « يسومهم سوء العذاب » أي العذاب السيئ الشديد . ويذيل الحق الآية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

ومعنى سرعة الشيء أن تأخذ زمناً أقل مما يتوقع له ؛ لأن السرعة هي اختصار الزمن . « لسريع العقاب » هي للدنيا وللآخرة ، فساعة يقتربون ذنباً . يسلط عليهم من يعذبهم في الدنيا ، أما الآخرة ففيها سرعة عالية ؛ لأن مسافة كل إنسان إلى العذاب ليست هي عمر الدنيا ، فالإنسان بمجرد أن يموت تنتهي الدنيا بالنسبة له . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » (١) .

إن هناك سرعة لحساب الآخرة . وحتى لو افترضنا أننا سنبقى جميعاً دون حساب إلى أن تنتهي الدنيا ، فإن الحساب سيكون سريعاً لأن كل لحظة تمر على أي إنسان تقربه من العقاب ، وحتى لو كان عمر الدنيا مليون سنة ، فكل يوم يمر سينقص من عمر الدنيا .

(١) رواه الترمذي عن أنس مرفوعاً .

وحين يقول الحق سبحانه بعد سرعة العقاب « وإنه لغفور رحيم » قد نجد من يسأل كيف والحديث هنا عن العقاب ؟ ونقول : إنه سبحانه الذي يتكلم . وهو القادر ، فإذا قال : إنه لسريع العقاب ، فهذا يعني أنه يسرع بعقاب المفسدين والظالمين ؛ لأنه غفور رحيم بالمظلومين الذين يُظلمون ، إذن فسرعة عقاب الظلمة رحمة منه بالمظلومين ، أو أن الله كما قال « سريع العقاب » فإنه - سبحانه - يأتى بالمقابل لكي يشجع كل إنسان على الدخول في رحمته .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ
وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَيَلْوَنَهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٦٨ ﴾

وقد قال سبحانه قبل ذلك أيضاً :

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَى عَشْرَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ولكن القول هنا يجيء بمعنى آخر : ﴿ وقطعناهم في الأرض أُمَمًا مِنْهُمْ الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ .

وقد قطعهم الحق حتى لا يبقى لهم وطن ، ويعيشون في ذلة ، لأنهم مختلفون غير متفقين مع بعضهم بعضاً منذ البداية ، كانوا كذلك منذ أن كانوا أسباطاً وأولاد إخوة على خلاف دائم . وهنا يقول الحق : ﴿ وقطعناهم في الأرض أُمَمًا ﴾ .

ومعنى « قطعناهم » أي أن كل قطعة يكون لها تماسك ذاتي في نفسها ، وأيضاً لا تشيع في المكان الذي تحيا فيه ، ولذلك قلنا : إنهم لا يذوبون في المجتمعات أبداً ، - كما قلنا - فمتى ما تذهب إلى أسبانيا مثلاً تجد لهم حياً خاصاً ، كذلك في

فرنسا ، وألمانيا ، وكل مكان يكون لهم فيه تجمع خاص بهم ، لا يدخل فيه أحد ، ولا يأخذون أخلاقاً من أحد ، وشاء الحق ذلك بعد أن قال لهم :

﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

(من الآية ٢١ سورة المائدة)

فبعد أن من عليهم بأرض يقيمون فيها ، قالوا :

﴿إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا
نَعْدُونَ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

فحرم الله عليهم أن يستوطنوا وطناً واحداً يتجمعون فيه ، ونشرهم في الكون كله لأنهم لو كانوا متجمعين لعم فسادهم فقط في دائرتهم التي يعيشون فيها . ويريد الله أن يعلن للعالم أنها كلها أن فسادهم فساد عام . ولذلك فهم إن اجتمعوا في مكان فلا بد أن تنال عليهم القرى وتخرجهم مطرودين أو تمذبهم ، وأظن حوادث هتلر الأخيرة ليست بعيدة عن الذاكرة ، وقد أوضحنا ذلك من قبل في شرح قوله الحق :

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

لقد قلنا : إن السكن في الأرض هو أن يتبعثروا فيها ، لأنه - سبحانه - لم يحدد لهم مكاناً يقيمون فيه ، فإذا جاء وعد الآخرة ينتقم الله منهم بضرية واحدة ، ويأتي الحق بهم لفيماً تمهداً للضرية القاصمة : ﴿وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾ .

هناك فريق منهم جاء إلى المدينة المنورة ووسعتهم المدينة وصاروا أهل العلم وأهل الكتاب ، وأهل الثراء وأهل المال ، وأهل بنائية للحصون ، وحين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد معهم معاهدة . فالذي دخل منهم في الإيمان استحق معاملة المؤمنين ، فلهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، والحق قد قال :

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾

(سورة الأعراف)

وقلنا إن هذه تسمى صيانة الاحتمال لمن يفكرون في الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾ . و «دون» أى غير ، فالمقابل للصالحين هم المفسدون . أو منهم الصالحون في القمة ، ومنهم من هم أقل صلاحاً . فهناك أناس يأخذون الأحسن ، وأناس يأخذون الحسن فقط . ويتابع الحق سبحانه :

﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

كلمة «لعلهم يرجعون» هي التي جعلتنا نفهم أن قول الحق سبحانه وتعالى : إن منهم أناساً صالحين ، ومنهم دون ذلك ، أى كافرون ، لأنهم لو كانوا قد صنعوا الحسن والأحسن فقط ، لما جاء الحق بـ ﴿لعلهم يرجعون﴾ . أو هم يرجعون إلى الأحسن .

و «بلونا» أى اخترنا ، لأن الله في الاختبارات مطلق الحرية ، فهو يختبر بالنعمة ليعلم واقعاً منك لأنه - سبحانه - عالم به ، من قبل أن تعمل ، لكن علمه الأزلى لا يُعتبر شهادة منا . لذلك يضع أمامنا الاختبار لتكون نتيجة عملنا شهادة إقرار منا علينا : ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾ . وسبحانه وتعالى يختبر بالنعمة ليرى أتغرنا الأسباب في الدنيا عن المسبب الأعلى الذي وهبها :

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿١﴾ أَن رَّءَاهُ اسْتَفْتَحَ ﴿٢﴾﴾

(سورة العلق)

فالواجب أن نشكر النعمة ونؤديها في مظان الخير لها . فإن كان العبد سيؤديها بالشكر فقد نجح ، وإن أداها على عكس ذلك فهو يرمب في الاختبار . إذن فهناك الابتلاء بالنعم ، وهناك الابتلاء بالنقم . والابتلاء بالنقم ليرى الحق هل يصبر العبد أو لا يصبر ، أى ليراه ويعلمه واقعاً حاصلاً ، وإلا فقد علمه الله أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إننا نجد من يقول : « ربى أكرمن » . ومن يقول : « ربى أهانن » والحق بوضح : أنما كاذبان . فليست النعمة دليل الإكرام ، ولا سلب النعمة دليل الإهانة . ولكن الإكرام ينشأ حين تستقبل النعمة بشكر ، وتستقبل النعمة بصبر . إذن مجيء النعمة فى ذاتها ليس إلا اختباراً . وكذلك إن قُدر الله عليك رزقك وضيقه عليك ، فهذا ليس للإهانة ولكنه للاختبار أيضاً .

ويوضح الحق جل وعلا :

﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ أَمْوَالَ حُبَّاجِمًا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

أنتم لا تطعمون فى مالكم يتيماً ولا تحضون على طعام مسكين . فكيف يكون المال نعمة ؟ إنه نعمة عليكم . وهنا يقول الحق : ﴿ ويلونا هم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ . والله المثل الأعلى ، نقول : إن فلاناً أتعبنى ، لقد قلبته على الجنين ، لا الشدة نفعت فيه ، ولا اللين نفع فيه ، ولا سخائى عليه نفع فيه ، ولا ضنى عليه نفع فيه ، وقد اختبر الله بنى إسرائيل فلم يعودوا إلى الطاعة مما يدل على أن هذا طبع تاصل فيهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ

مِثْلَهُ، يَأْخُذُوهُ الَّذِينَ يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٩﴾

والخَلْفُ أو الخُلْفُ أو الخليفة هو من يأتي بعد ذلك ، ويقال : فلان خليفة
فلان ، ومن قبل قرأنا أن سيدنا موسى قال لسيدنا هارون :

﴿ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

أى كن خليفة لى ، إلا أنك حين تسمع « خَلْفٌ » بسكون اللام ، فاعلم أنه فى
الفساد ، وإن سمعتها « خَلْفٌ » بفتح اللام فاعلم أنه فى الخير ، ولذلك حين تدعو
لواحد تقول : اللهم اجعله خير خَلْفٍ لخير سلف . وهنا يقول الحق : ﴿ فخلف
من بعدهم خَلْفٌ ﴾ . والحديث هنا عن أنهم هم الفاسدون والمفسدون ، والشاعر
يقول :

ذهب الذين يعاش فى أكتافهم وبقيت فى خَلْفٍ كجلد الأجر

الشاعر هنا يبكى موت الكرماء وأهل السماحة ، فلم يعد أحد من الذين كان
يعيش فى رحاب كرمهم وسماحتهم ؛ فقد ذهب الذين يُعاش فى أكتافهم أى
جوارهم ؛ لأن هذا الجوار كان نعمة أيضاً . وحين يجاور رجل ضيق وقدر عليه
رزقه رجلاً طيباً عنده نعمة ، فتنضح عليه نعمة الرجل الطيب . والشاعر هنا قال :
« وبقيت فى خَلْفٍ كجلد الأجر » أى أن جلده قريب ولاصق لكنه جلد أجرب .

وعرّفنا قصة « أبودلف » وكان رجلاً كريماً فى بغداد . يعيش فى نعمته كل
الناس ومن يحتاج يعطيه . وطراً طارء على جار فقير له ، وأراد أن يبيع داره ،
فعرض الدار للبيع ، وسألوه عن الثمن الذى يرتضيه ، فقال : دارى بمائة دينار .

لكن جوارى لأبى دلف بألف دينار ، فبلغ هذا الكلام أبا دلف فقال : إن رجلاً قدر جوارنا بعشرة أمثال ما قدر به داره لتحقيق ألا يفترط فيه . قولوا له : فليق جاراً لنا وليأخذ ما يريد من مال :

﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ﴾ . والكتاب هو التوراة ، والخلف أخذوه ميراثاً ، والشيء لا يكون ميراثاً إلا إذا حملة السابق بأمانة وأداءه للآحق ، ولكن لأنهم أهل إفساد فلنر ماذا فعلوا في الكتاب ؟ لقد ورثوه . وبلغ إليهم وعرفوا ما فيه .

﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة الأعراف)

أى لا حجة لهم فى ألا يكونوا أصحاب منهج خير ، لكنهم لم يلتفتوا إلى ما فى الكتاب - التوراة - من المواقف ، والحلال ، والحرام ، وافعل كذا ولا تفعل كذا ، لم يلتفتوا لكل هذا ؛ لأنهم قالوا لأنفسهم : إن هذا الكتاب يعطى النعيم البعيد فى الآخرة ، وهم يريدون النعيم القريب ، فمنهم من قبل الرشوة واستغلال النفوذ . وبذلك أخذوا عَرَضَ الحياة الأدنى وهو عرض الدنيا . ولم يأخذوا إدارة الدنيا بمنهج الله ، والدنيا فيها جواهر وأعراض ، والجوهر هو الشيء الذاتى ، فالإنسان بشحمه ولحمه « جوهر » أما لونه إن كان أسمر أو أبيض فهذا عَرَضٌ ، قصيراً أو طويلاً ، صحيحاً أو مريضاً ، وغنياً أو فقيراً فهذا عرض . إذن فالأعراض هى ما توجد وتزول ، والجواهر هى التى تبقى ثابتة على قدر ما كتب لها من بقاء ، وكما يقول علماء المنطق : الجوهر ما قام بنفسه ، والعرض ما قام بغيره .

وهم قد أخذوا العرض من الحياة الدنيا ، وعرض الدنيا قد يتمثل فى المال الحرام ، وأن يفسدوا ويستحلوا الرشوة . ونعلم أن الإنسان - حتى المؤمن - قد تحدث منه معصية ولا يمنع ربنا هذا ؛ لأن المشرع الأعلى حين يشرع عقوبة لجريمة ، فهذا إذن بأنها قد تحدث ، وحين يقول الحق :

﴿ وَالسَّرِقُ وَالنَّاصِرَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

إن معنى هذا القول أن المؤمن قد تسول له نفسه أن يسرق مثلاً ، ولم يترك

الحق هذا الجرم بدون عقوبة . وإن رأينا مسلماً يسرق ، نقل له هذا فعل مُجْرَم من الإسلام ، وله عقوبة ، والمُجْرَم لا يمكن أن يرتكب الجُرم وهو ملتزم بالدين ، بل هو منسوب للدين فقط ، وعندما يرتكب مسلم ذنباً أو معصية ثم يندم ويتوب ويحزم على أنه لن يعود تصح توبته ، وكذلك لو أُلْحِت عليه معصيته فيعود إليها ، ثم تاب ، المهم أنه في كل مرة لا يصر على الفعل ، ثم يقول : سوف أتوب . وهم كانوا يصرون على المعصية ويقولون : سيغفر الله لنا ، بل إنهم لم يفكروا في التوبة ، ووجدنا منهم من يقول :

﴿ نَحْنُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَجِئْتُمُورٌ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

ويأتى الرد :

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

إذن هم يأخذون عرض هذا الأدنى . ويحكمون في أخذهم بهذا العرض أنه سبحانه سوف يغفر لهم . وبذلك استحلوا الحرام وانتقلوا من منطقة المعصية إلى منطقة الكفر ؛ لأن هناك فرقاً بين أن تفعل الشيء وتقول هو معصية . لكن أن يرتكب لإنسان المعصية ويقول : ليست بمعصية ، فهذا انتقال من العصيان إلى الكفر . ومثال ذلك الربا حين تجد من يحلله ، نقول له : أقل أن تكون عاصياً ولا تدخل نفسك في الكفر ؛ لأنك إن حللت ما حرم الله يقع عليك الكفر وتوصف به والعباد بالله ، أما إن قلت : هو حرام ولكن ظروفى صعبة ولا أقدر على نفسى فقد يغفر الله لك . لكن قوم موسى كانوا يصرون على المعصية ويقولون : سيغفر الله لنا :

ويقول الحق : ﴿ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرْضٌ مِثْلَهُ بِأَخْذِهِ ﴾ .

وهم بعد ذلك تركوا الأعلى وأخذوا عرض الحياة الأدنى ويتمادون في غيهم ويرتكبون المعاصى تلو المعاصى دون أن يدقوا باب التوبة . لذلك ينههم الحق سبحانه :

﴿الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ اللَّهِ عَهْدَ أَنَّ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة الأعراف)

لقد ورثوا الكتاب ، وفي الكتاب قد أخذ عليهم عهداً موثقاً ألا يقولوا على الله إلا الحق ، لكن هل يعدل الفاسق عن الباطل ويعود إلى الحق ؟ . طبعاً لا ، هم إذن تجاهلوا ما في هذا الكتاب ، رغم أنهم قد درسوا ما فيه مصداقاً لقوله الحق : ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾

وكلمة « دَرَسَ » تدل على تكرار العمل ، فيقال : « فلان درس الفقه » أى تعلمه تعلماً متواصلاً ليصير الفقه عنده ملكة . وهو مختلف عما قرأ الكتاب مرة واحدة ، هنا لا يصبح الفقه عنده ملكة . وحتى نفهم الفرق بين « العلم » و « الملكة » ، نقول : إن العلم هو تلقى المعلومات ، أما من درس المعلومات وطبقها وصارت عنده المسألة آلية ، فهذا هو من امتلك ناصية العلم حتى صار العلم عنده ملكة . إذا التقى صائم مثلاً - بفقيه وسأله عن فتوى فى أمر الصيام يجيبه فوراً ، لأنه علم كل صغيرة وكبيرة فى الفقه . لكن إن تسأل تلميذاً مبتدئاً فى الأزهر فقد يرتبك وقد يطلب أن يرجع إلى كتبه ليبحث على الإجابة ، لأن الفقه لم يصبح لديه ملكة . والملكة فى المعنويات هى مقابل الآلية فى الماديات التى تحتاج إلى دُرْبَة ، فمن يمسك النول لينسج النسيج ويتقن تمرير المكوك بين الفلتين لا يفعل ذلك إلا عن دُرْبَة . إنه قد تعلم ذلك بصعوبة وتكرار تدريب .

إذن نقوله : ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ أى تكررت دراسة الكتاب حتى عرفوا ما فيه من علم . ونحن أخذنا « درس العلم » من مسألة حسية هى « درس القمح » ، ويعلم من تربى فى الريف كيف تدرس القمح ، حين يدور التورج على سنابل القمح فيخرج لنا الحب من أكمامه ، ويقطع لنا العيدان ، وهذه العملية تسمى « درس القمح » .

إن ما فعلوه من عصيان ليس عن غفلة عن هذا الميثاق فى ألا يقولوا على الله إلا الحق ، لأنهم درسوا ما فى الكتاب المنزل عليهم وهو التوراة دراسة مستوعبة ، لكنهم أخذوا العرض الأدنى . وكان لابد أن يأتى لنا بمقابل العرض الأدنى فيوضح لنا أن مصير من يريد الدار الآخرة هو الثواب الدائم ولذلك يقول الحق :

﴿وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَشْقُونَ أَقْلًا يَعْمَلُونَ﴾

من الآية ١٦٩ سورة الأعراف

وهذا يعنى التنبيه بأنه من الواجب قبل أن تفعلوا الفعل أن تنظروا ما يعطيه من خير ، وأن تتركوه إن كان يعطى الكثير من الشر ، وزنوا المسألة بعقولكم ، وساعة أن تزنوا المسألة بعقولكم ستعرفون أن عمل الخير راجح .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

إِنَّا لَنُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾

إن الكثير من بنى إسرائيل ورثوا الكتاب ، وأخذوا العرض الأدنى ، ولم يزنوا الأمور بعقولهم ؛ لذلك لم يمسكوا بالكتاب ، وتركوه ، وساروا على هواهم ؛ كأنهم غير مقيدين بمنهج افعل كذا ولا تفعل كذا ، ويقابلهم بعض الذين يتمسكون بالكتاب الذى ورثوه ، ولا يقولوا على الله إلا الحق .

ومادة الميم والسين والكاف تدل على الارتباط الوثيق ؛ فالذى يجعل الانسان متصلاً بالشئ هو ماسكه ، ونقول : «مسك» ونقول : «مسك» ، و«أمسك» ، ونقول «استمسك» ، و«تماسك» ، وكلها مادة واحدة . وقوله الحق : «يمسكون» مبالغة فى المسك ، مثل فضع وقطع ، ولكن قطع أبلغ .

و«مسك» يعنى أن الماسك تمكن مما يمسك ، و«استمسك» أى طلب ، و«تماسك» أى أن هناك تفاعلاً بين الاثنين ؛ بين الماسك والممسوك . ومن رحمة ربنا أنه لا يطلب منا أن نمسك الكتاب . بل يطلب أن نستمسك بالكتاب ، ولذلك يوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن أنت ملت إلى القرب منى والزلفى إلى ، فاترك الباقي عنك فالمعونة منى أنا ، ولذلك يدلنا على أن من ينقذ منهج القرآن لا يلقى الهوان أبدا ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ وهنا يستخدم

الحق سبحانه كلمة (استمسك) لا كلمة مسك ، فمن وجه نيته في أن يفعل
يعطيه الله المعونة ، ولذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي :
« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسي ، ذكرته في
نفسى ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إلى بشير ،
تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً ، تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي ،
أتيته هرولة (١) » .

فأنت بإيمانك بالله تعزز نفسك وتقربها بمعونه الله لك . فإن أردت أن
يذكرك الله فاذكر الله ، فإن ذكرته في نفسك يذكرك في نفسه ، وإن ذكرته في ملأ
يذكرك في ملأ خير منه ، وإن تقربت إليه شبراً تقرب إليك ذراعاً ، فماداً تريد أكثر
من ذلك ، خاصة أنك لن تضيق إليه شيئاً ، إذن فالموقف في يدك ، فإذا أردت أن
يكون الله معك فسر في طريقه تأت لك المعونة فوراً . وهكذا يكون الموقف معك
ويستقل إليك ، وذلك بإيمانك بالله وإقبالك على حب الارتباط به .

ولذلك قلنا من قبل : إن الإنسان إذا أراد أن يلقي عظيمًا من عظماء الدنيا وفي
يده مصلحة من مصالح الإنسان فهو يكتب طلباً ، فإما أن يوافق هذا العظيم وإما
الآ يوافق ، وحين يوافق هذا العظيم يحدد الزمان ويحدد المكان ، ويسألك مدير
مكتبه عن الموضوعات التي ستتكلّم فيها ، وحين تقابله وينتهي الوقت ، فهو يقف
من كرسية لينهى المقابلة ، هذا هو العظيم من البشر ، لكن ماذا عن العظيم
الاعظم الأعلى الذي تلتقى به في الإيمان ؟ أنت تلقى الله في أي وقت ، وفي
أي مكان ، وتقول له ما تريد ، وأنت الذي تنهى المقابلة ، ألا يكفي كل ذلك
لنستمسك بالإيمان ؟ .

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكَنْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (١٧)

(سورة الأعراف)

والكتاب هنا هو الكتاب الموروث ، والمقصود به التوراة وهو الذي درسوا

(١) من صحيح البخاري في كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم في صحيحه بثلاث طرق عن أبي هريرة ،
كما أخرجه الترمذي وابن ماجه .

ما فيه ، وقد أخذ الله في هذا الكتاب العيثاق عليهم ألا يقولوا على الله إلا الحق ، والحق يقول هنا : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ فهل هذا الكتاب ليس فيه إلا الصلاة ؟ لا ، ولكنه خص الصلاة بالذكر . لأننا نعلم أن الصلاة عماد الدين ، وعرفنا في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن الصلاة قد فرضت بالمباشرة ، وكل فروض الإسلام - غير الصلاة - قد فرضت بالوحي .

لقد قلنا من قبل والله المثل الأعلى ، إن رئيس أى مصلحة حكومية حين يريد أمراً عادياً روتينياً ، فهو يوقع الورق الذى يحمل هذا الأمر ويكتب عليه : « يعرض على فلان » ويأخذ الورق مجراه ، وحين يهتم بأمر أكثر ، فهو يتحدث تليفونياً إلى الموظف المختص ، وحين يكون الأمر غاية فى الأهمية القصوى فهو يطلب من الموظف أن يحضر لديه ، وهكذا فرضت الصلاة بهذا الشكل لأنها الإعلان الدائم لله خمس مرات فى اليوم ، وإن شئت أن تزيد على ذلك تنقلاً وتهجداً فعلت .

إنك بالصلاة توالى الله بكل أحكامه ، إنك توالى الله بالزكاة كل سنة ، وبالصوم فى شهر واحد هو رمضان ، وبالحج مرة واحدة فى العمر إن استطعت . لكن الصلاة ولأدائها دائم متجدد ، ولأن الصلاة لها كل هذه الأهمية ، لذلك لا تسقط أبداً . وأركان الإسلام - كما نعلم - خمسة : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، إنها الإيمان بالله وبالرسول كوحدة واحدة لا تنفصل ، وبكفى أن ينطقها الإنسان مرة لتكتب له ، ثم تأتى أركان الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والحج ليس ركناً مفروضاً إلا على من يستطيعون . قد لا يكون للإنسان مال يخرج عنه الزكاة ، فلا يجب عليه إخراج شيء حينئذ ، وقد يكون الإنسان مريضاً أو مسافراً فلا يصوم .

إذن فبعض فروض الإسلام قد تسقط عن المسلم ، إلا الصلاة فهي لا تسقط أبداً ، لأن فى الصلاة فى ظاهر الأمر قطعاً لبعض الوقت عن حركة عملك ، وإن كان كل فرض يأخذ مثلاً نصف الساعة ، فالإنسان يقطع من وقته ساعتين ونصف الساعة كل يوم فى أداء الصلاة . والوقت عزيز عند الإنسان . ففى الصلاة بذل لبعض الوقت الذى يستطيع أن يكسب الإنسان فيه مالا ، وفيها أيضاً الصوم عن الأكل والشرب ومباشرة الزوجات ، ففيها كل مقومات أركان الإسلام ، لذا فهي لا تسقط أبداً .

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة الأنعام)

إذن الاستمسك وضح هنا جداً ، وأداء الصلاة تعبير عن الالتزام بالاستمسك بمنهج الإيمان . ولذلك نسمع من يقول : حين ذهبنا إلى مكة والمدينة عشنا الصفاء النفسى ولإشراق الروحى ، وعشنا مع التجلى والنور الذى يغمر الأعماق . وأقول لمن يقول ذلك : إن ربنا هنا هو ربنا هناك ، فقط أنت هناك التزمت ، وبساعة كنت تسمع الأذان كنت تجرى وتسمى إلى الصلاة ، وإذا صنعت هنا مثلما صنعت هناك فسترى التجليات نفسها . إذن إن صرت على ولاء دائم مع الحق سبحانه وتعالى فالحق لن يضيع أجرك كأحد المصلحين . لأنه القائل : ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ .

وهذه قضية عامة ، والحق سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المصلح . وتوله : ﴿لا نضيع أجر المصلحين﴾ بعد قوله : ﴿يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ دليل على أن أى إصلاح فى المجتمع يعتمد على من يمسكون بالكتاب وينعمون الصلاة ؛ لأن المجتمع لا يصلح إلا إذا استمدت أنت صلتك بمن خلقت وخلق المجتمع ، وأنزل لك المنهج القويم . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَإِذْ نُنَاقِشُ الْجِبِلَّ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ

بِهِمْ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

والجبل معروف أنه من الأحجار المتدمجة فى بعضها والمكونة لجرم عالٍ قد يصل إلى ألف متر أو أكثر ، والحق يقول عن الجبال : ﴿والجبال أرساما﴾ ولا يقال أرساما إلا إذا كان وجد شيء له ثقل ، فانت لا تقول : «أرسيت الورقة على المكتب» ، ولكنك تقول : «أرسيت لوح الزجاج على المكتب ليحميه» ، وانت بذلك ترمى شيئاً له وزن وثقل .

وقد أرسى ربنا الجبال وجعلها في الأرض أوتادا، والوتد - كما تعلم - ممسوك من الموتود والمثبت فيه، بدليل أنه لو تخلخل في مكانه نضع له ما نسميه «نخشينة» لتلصقه وتربطه بما يثبت فيه، وهنا يقول الحق : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ ﴾ «نتقنا» أي قلعنا، وهناك قول آخر :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَلْءٍ وَفَعَلْنَا لَكُمْ مِنْهَا نَعْمًا لَّئِي لَكُمْ تَذَكُّرٌ ﴾ فِي النَّبِيِّ

(من الآية ١٥٤ سورة النساء)

وقال الحق أيضا :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

وهنا اختلاف بين «نتق» و«رفع»؛ لأن الجبل راس في الأرض، وممسوك كالوتد؛ لذلك يحتاج قبل أن يرفع إلى عملية نزع واقتلاع من الأرض، ثم يأتي من بعد ذلك الرفع، و«نتقنا» تعني نزعنا الجبل من مكان إرسائه حتى نرفعه، وقد رفعه الله ليجعل منه ظلة عليهم، أي أن هناك ثلاث عمليات : نتق أي نزع وخلع، ثم رفع، ثم جعله سبحانه ظلة لهم، وهذا يحتاج إلى اتجاه في المرفوع إلى جهة ما. والحق يقول : ﴿ وَإِذْ ﴾ أي اذكر إذ نتقنا الجبل، أي نزعناه وخلعناه من الأرض، ولا ننزعه ونخلعه من الأرض إلا لمهمة أخرى أي لنجعل ظلة، وكان تظليل الغمام رحمة لهم من قبل، وصار الجبل ظلة «عذاب»؛ لأن الحق أنزل لهم التوراة على موسى ففسالوا له : إن أحكام هذه التوراة شديدة. وللإنسان أن يتساءل : لماذا كل هذا التلكؤ مع التشريعات التي جاءت لمصلحة البشر ؟. وجاء لهم العقاب من الحق بأن رفع فوقهم الجبل كظلة تحمل التهديد كأنه قد يقع فوقهم ﴿ كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴾.

لذلك نجد أن كل يهودي يسجد على حاجبه الأيسر، على الرغم من أن السجود

يقتضى تساوى وضع الجبهة على الأرض ، ولكنهم يسجدون بميل إلى الحاجب الأيسر لأن السابقين لهم رأوا الجبل فوقهم وعللهم الخوف من سقوط الجبل ، وكانوا يسجدون وفي الوقت نفسه يرقبون الجبل ، وبقيت هذه المسألة لازمة فيهم ، وصاروا لا يسجدون إلا على حاجبهم الأيسر ، بسبب حكاية الجبل الذى نتقه الله وقلعه ورفع فصار فوقهم . ﴿ وظنوا أنه واقع بهم ﴾ .

والظن هو رجحان قضية ، وقد يأتى ويراد به أنه رجحان قوى قد يصل إلى درجة اليقين ، مثل قوله الحق : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾

وحين بقيت الحالة هذه ، وخافوا من الجبل أن يقع عليهم ، ولأن هناك كتابا قد أنزل إليهم وهو التوراة وهم يعصون ويشردون على ما فيه ؛ لذلك قال لهم الحق :

﴿ خُذُوا مَاءَ آتِنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَشْقُونَ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

و « خذوا » فعل أمر ، والأمر يقتضى أمرا ، ولا بد له من شىء يأمر به . وكلمة « القوة » هذه هي الطاقة الفاعلة ، والأصل فى الكون كله أن تقبل على كل شىء بقوة ؛ لأن الكون الذى تراه مسخرا ليس له رأى فى أن يفعل أو لا يفعل ، بل هو فاعل دائما إذا أمر ، وكما قلنا من قبل : لم تغضب الشمس على الناس وقالت : لن أطلع هذا اليوم ، وكذلك لم يمتنع الهواء ، وأيضا لا يرفض الحمار مثلاً أن يحمل الروث ، أو أن ينظفه صاحبه ويأتى له به « البرذعة » ليجمعه ركوبة متميزة ، الحمار إذن لا يعصى هنا ولا يعصى هناك ، والكون كله مسخر بقوانين مادية ثابتة .

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْبَلُّ سَائِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ ﴿٥﴾﴾

(سورة يس)

وقد وضع الحق هذا النظام للكون نظراً لأنه مقهور وليس له تكليف ، والمحكوم بالغريزة الكونية صالح للحياة عن المحكوم بالاختيار الفعلى ، ومع هذا الاختيار

قالإنسان له أشياء تفعل فعلها فيه ولا يَدْرِ عنها شيئاً مع أن بها قوام حياته، فلا أحد يمسك قلبه ويضبطه ويقول له : كَدَقْ، والرئة كذلك وحركة التنفس، والحركة الدودية في الأمعاء، والحالب، ويرغب الإنسان في دخول دورة المياه عندما تمتلئ المثانة بالبول، كل هذه مسائل رتيبة لا اختيار للإنسان فيها أبداً، والأمور المحكومة بالغرائز ليس لنا فيها اختيار، كأن يأكل الإنسان ويتكلم في أثناء تناول الطعام فتتزل حبة أرز في القصبه الهوائية فيحاول الإنسان أن يطردها بالسعال، هذا اسمه « غريزة » أى أمر غير محكوم بالفعل الاختيارى.

وكذلك الحيوان إذا أحضرت له طعاماً فهو لا يأكل أكثر من طاقته حتى لو ضربه صاحبه. أما الإنسان فقد يأكل بعد أن يشبع، وحين يقول له مُضيقه - على سبيل المثال - : أنت لم تذوق هذا اللون من اللحم، فيأكل. ولهذا نجد أن الأمراض فى الانسان أكثر من الأمراض فى الحيوان؛ لأن اختيار الإنسان يمتد إلى مجالات متعددة متفرقة قد تضربه وتؤذيه.

ونعرف جميعاً هذا المثال للفارق بين الإنسان والحيوان، نجد الإنسان يغلى النعناع ويشربه، ويطبخ الملوخية ليأكلها، وقد فعل ذلك لأنه اختبر الاثنين، فلم يأكل النعناع وأكل الملوخية، رغم تشابه أوراقهما. لكن هات شجرة النعناع أمام الجاموسة أو الحمار، وهات النجيل الناشف وضع الاثنين أمام الجاموسة أو الحمار، ستجد الجاموسة والحمار يتجهان إلى النجيل الناشف ويتركان نبات النعناع الأخضر الرطب، وهما يفعلان ذلك بالغريزة، فلمحكوم بالغريزة له نظام، ولو كان الحيوان مخناراً لارتبكت حركة الحياة كلها واختلطت واشتد على الناس شأنها.

وهكذا نعرف أن مقومات الحياة تقوم على قوانين الغريزة، وهذه القوانين موجودة فى الكون لتخدمنا نحن بنى البشر، فالكهرباء مثلاً كانت موجودة قبل أن نتضع بها، لكن بعد ذلك انتفعنا بها، وكذلك الجاذبية، كانت موجودة فى الكون منذ الأزل، لكننا لم نتبه لها، وحين اكتشفناها زادت قدراتنا على الاستفادة منها، وهكذا نرى أن الإنسان واحد من هذا الكون، إلا أنه يتميز بأن له جهة اختيار فى

بعض الأمور، وله جهة قهر في البعض الآخر، فهو يشارك الكون في القهر، ويتميز عن بقية المخلوقات - هذا الجن - بالاختيار في أمور أخرى. وتجده على سبيل المثال أن الإنسان الذي يعاني قلبه من ضعف ما، عندما يصعد هذا الإنسان سلماً ينهج ويتابع نفسه من الإعياء وكثرة الحركة، لأن غريزته المحكوم بها تنبه الجسد إلى ضرورة أن تعمل الرئة أكثر لتعطي الأوكسجين الذي يساعد على الصعود.

ومثال آخر، نجد الذكر من الحيوانات يقترب من أنثاه ليشمها، فإن وجدها حاملاً لا يقربها، والحيوان في هذا الأمر مختلف عن الإنسان؛ لأن الحيوان تحركه الغريزة التي تبين له أن العملية الجنسية بين الذكر والأنثى لحفظ النوع، ومادامت الأنثى قد حملت، فالذكر لا يقربها، فاختلف الإنسان عن الحيوان في هذا الأمر؛ فلذة الإنسان في الجنس أعلى من لذة الحيوان؛ لأنها في الحيوان ترضخ للغريزة فحسب، أما في الإنسان فإنها مع الغريزة ترضخ أيضاً للاختيار الذي منحه الله للإنسان

ومن رحمة الله - إذن - أن يكون الإنسان مقهوراً في بعض الأشياء ومختاراً في أشياء أخرى، بـ «افعل» و «لا تفعل» حتى يختار بين البديلات.

وهنا يقول الحق: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾

أي خذوا ما آتاكم في الكتاب بجهد واجتهاد. وكان هذا القول مقدمة لما جاء به العلم في شرح معنى القوة. وقد وصل إلينا خبر العلم قبل أن يصل لنا واقع المادى، فصرنا نرى الطاقة التي تعطي القوة. وجاء نيوتن ليكشف لنا قانون الجاذبية، القانون الأول والثاني والثالث، واكتشف أن كل جسم يظل على ما هو عليه، فإن كان ساكناً يبق على سكونه إلى أن يأتي محرك يحركه. وإن كان الجسم متحركاً فهو لا يتوقف إلى أن يصدمه صادم أو يمسكه ماسك. وسمى العلماء هذا التأثير بالقصور الذاتى. أو التعطل، أى أن الساكن يُعْطَلُ عن الحركة إلا أن يحركه محرك، والمتحرك يُعْطَلُ عن السكون إلا أن يوقفه موقف، فأنت إذا ركبت سيارة وأنت قاعد وساكن والسيارة تسير، فإنك تظل ساكناً، إلى أن يوقفها السائق فجأة فتتحرك من مكانك ما لم تمسك بشيء.

وفى الأسواق نرى الحواة وهم يؤدون بعض الألعاب ليسحروا أعين الناس فيأتى بمنضدة وعليها مفرش لامع وأملس ، ثم يضع عليها أطباقاً وأكواباً ، ثم يحرك المفرش بخفة لينزعه بهدوء من تحت الأكواب حتى لا تتحرك بحركة المفرش .

وحين جاء نيوتن عقد مقارنة وموازنة بين القوة والحركة والعطالة ، وقلنا : إن العطالة تعنى أن الساكن يتعطل عن الحركة ، والمتحرك يتعطل عن السكون ، وهذه هى القضية المادية فى الكون التى خدمت العلم الفضائى الخاص بسفن الفضاء والصواريخ . ونحن نرى السفن الفضائية ونعتقد أنها تدور فى الفضاء بالوقود ، رغم أن حجمها لا يسع الوقود الذى يسيرها لسنوات ، والحقيقة أنها تسير بقانون القصور الذاتى أو العطالة إنها بدون وقود ، وهى تندفع إلى الفضاء بقوة الصاروخ إلى أن تخرج إلى الفضاء الكونى ، وتظل متحركة ما لم يوقفها موقف . ونرى ذلك فى التجربة اليسيرة حين يطلق إنسان رصاصة من مسدس فتتطلق الرصاصة بقوة الطلقة مسافة ثم تقع إن لم يوجد حاجز يصدها ، وهى تقع بعد مسافة معينة ؛ لأن الهواء يقابلها فيصادم الحركة إلى أن تتوقف ، أما فى الفضاء الخارجى فليس هناك هواء ؛ لذلك لا تتوقف سفينة الفضاء ، لأنها تسير بقانون القصور الذاتى أو العطالة .

وهذه السفن الفضائية تعتمد فى صعودها إلى الفضاء على الصواريخ لتصل إلى المدار الخارجى . والصواريخ تسير بالغاز المتفطت الذى أخذ القانون الثالث من قوانين نيوتن ، وهو القانون القائل : إن كل فعل له رد فعل يساويه ومضاده فى الاتجاه ، وحين يسخن هذا الغاز المتفطت يخرج من خلف الصاروخ بقوة فيندفع الصاروخ للأمام .

وهكذا نرى قول الحق : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ فى الواقع المادى والواقع القيمى . وانظر إلى غير المتدينين تجدهم ساكنين فى بعض الأمور ولا يتحركون عنها ولا يجاوزونها ، فالواحد منهم لا يصلى ، ولا يزكى ، ولا يقول كلمة معروف ، وهو فى ذلك يحتاج إلى قوة تحرك سكونه عن طاعة الله . ول نجد أيضاً من غير المتدينين من يشرب خمر . أو يزنئ أو يسرق أو يرتشى . وهو هنا يحتاج إلى قوة لتصدده

عن مثل هذه الحركة . ولذلك نقول : إن الإنسان في أفعاله الاختيارية يحتاج إلى أمرين : الأول إن كان ساكناً عن فعل الخير نأت له بقوة تحركه إلى هذا الخير ، وإن كان متحركاً إلى الشر نأت له بقوة توقفه عنه ، وهذا هو ما يقدمه المنهج الإيماني في « افعل » و « لا تفعل » . فمن يتراخى عن الصلاة وسكن عنها نقول له صل . ومن يذهب للقمار ويتحرك إليه لا يمكن أن يقف إلا إذا جاءت له قوة توقفه عن ذلك وتمنعه ، إذن فالقوة الشرعية تكون في المنهج بـ « افعل » لتحرك الساكن ، و « لا تفعل » ليقف المتحرك شريطة أن يكون كل من السكون والحركة في ضوء المنهج .

ولنعرف أن الله سبحانه وتعالى يسخر لنا الكافرين ليبينوا لنا المستخلق علينا في قوانين الكون ، فقد اكتشفوا قوانين القوة المادية وفهمنا نحن في إطار الماديات والمعنويات ، وليس اكتشاف الكافرين للقوانين في الكون مدعاة للكسل والاعتماد عليهم ، بل علينا أن نشحذ الهمم لتتقدم في العلم الذي يسير أمور الحياة ، ولنعلم أنه لا شيء ينشئ فينا فطرة جديدة ؛ لأن البشر من قديم مفلطرون على الفطرة السليمة التي تلفتهم إلى أن لهذا العالم صانعاً ، فكل ذراتنا وكل اتجاهاتنا تؤكد لنا وجود إله واحد . بل إن الفلاسفة حينما بحثوا وراء المادة تأكد لهم ذلك ، وأغلب الفلاسفة كانوا غير مؤمنين ، وهم يبحثهم وراء المادة إنما يبحثون عن الخالق الأعظم ؛ لأن الإنسان لا يبحث عن شيء لا يظن وجوده . ولأنهم جميعاً يعلمون أن الإنسان طراً على كون ، وهذا الكون مقام بهندسة حكيمة ، ومخلوق بقوة لا تستطيع قوى البشر جميعاً أن تأتي بمثلاً ، إذن لابد لهذا الكون من خالق .

لقد بينا أن القوانين التي تظهر لنا في المادة تتماثل مع قوانين القيم ، إلا أن الناس يتساهلون على قانون المادة لأنها تحقق لهم خيراً أو تدفع عنهم شراً ، فيأخذون ما ينفعهم ويدعون ويتركون ما يضرهم ، ولذلك احتاج الإنسان إلى منهج من السماء ليوضح ويبين له قوانين القيم التي تحقق له السعادة العاجلة في الدنيا والآجلة في الآخرة ، أما قوانين المادة في الأرض فتركها الله لنشاط العقل ، حتى الذين لا يؤمنون بالله يذهبون إلى قوانين المادة ويصنعونها ، ويتهربون من قوانين القيم لأنها تحدد من شهوات النفس ، وتعب بمشقة التكليف ، فشاء الحق

سبحانه وتعالى أن يقول فيها :

﴿ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطى من قانون المادة ما يقرب لنا قوانين القيم فى الفعل ورد الفعل ، لنفهم أن كل حركة للشر قد تحبها النفس لأنها تحقق لها شهوة من شهواتها ، لكن يجب ألا يغيب عن ذهنك أيها الإنسان أن لكل فعل رد فعل مساوياً له فى الحركة ومضاداً له فى الاتجاه ، فإذ كنت ترتاح فى هذا العمل وتحبه وتشتهيه فتذكر جيداً رد الفعل الذى يأتيك بالعقاب عليه ، وكذلك مشقات التكليف ، حين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ولكن يجب أن تذكر رد الفعل فيها وهو الراحة وحسن الثواب ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كُلُوا وَامْرَئُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝٤١ ﴾

(سورة الحاقة)

وفى هذا القول فعل ورد فعل ، الفعل هو العمل الصالح فى الأيام التى مضت ، ورد الفعل هو الطعام والشراب الهنىء فى الآخرة ، ولمن اغتر واعتز بنفسه وجبروته وقوته يقول له الحق :

﴿ قَلْبُضَحَكُوا قَلِيلًا وَلَيَسْكُرُوا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة التوبة)

وهكذا نجد البكاء الكثيف الشديد الكثير نتيجة للضحك القليل ، ويأتى الإنسان من هؤلاء يوم القيامة ليقال له :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝٤٢ ﴾

(سورة الدخان)

إن كنت قد لهمت أنك عزيز كريم فأسأت إلى الناس فليسوف تتلقى العقاب ،

ولذلك يقول لنا الحق عن المنهج : ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . وإياكم أن تطرأ عليكم الغفلة من هذه الناحية ، فالذي يتعب الناس في مناهج الله أنهم يغفلون عنها ؛ لأن الطاعة تكلفهم مشقة وبعض عناء ، والمعاصي تكسبهم لذة وشهوة ، فأوضح الحق : اذكروا جيدا الفعل ورد الفعل في هذه القيم .

ونعلم أن للتذكّر يحتاج إلى أشياء كثيرة جدا ، فالواعظ مثلاً يذكرهم دائماً ، وقلنا إن « الوعظ » هو نوع من إعادة التذكير بالإعلام بالحكم ، فأنا أعظ من علم الحكم ؛ لأنني أريد أن يفعله ، فبعد أن علمه الموعوظ علماً فقط يريد منه الواعظ أن ينفذه عملياً . فكلنا نعلم أن الصلاة ركن ، وأن الحج ركن ، والزكاة ركن من أركان الإسلام ، وكلنا جاعنا العلم بذلك ، لكن منا من يكسل في تطبيق هذا العلم . ونظّل ندق على دماغه بالتذكير والوعظ ، وهذا من خيرية أمته صلى الله عليه وسلم :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

ولماذا هذا التذكير ؟ . يجيب الحق :

﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

الأمر بالمعروف عظة قولية ، والنهي عن المنكر عظة قولية ، ويعددتها الرسول صلى الله عليه وسلم لبقاء التذكير ، وليأخذ كل مسلم منهج الله بقوة ، فيقول في الحديث :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان » (١) .

إذن فقد نقل الرسول المسألة من الأمر وهو القول والنهي وهو قول أيضاً إلى أن : أشرها فعلاً ، فإن لم يستطع الإنسان منا تغيير المنكر بلسانه أو بيده فلينكره بقلبه ، ولجند القرآن قد جاء بها أمراً ونهياً ، والرسول جاء بها فعلاً ، لأن هناك فرقاً بين

(١) رواه مسلم

المعلومة التي تدخل الذهن، وحمل النفس على مطلوب المعلومة. ولذلك نحن ندرس الدين في مدارسنا، وندرس فيها أيضاً الجبر والهندسة، والكيمياء، والطبيعة، والمتعب ليس تدريس الدين، بل الذي يتعب الناس هو حمل النفس على مطلوب الدين. لكن التلميذ حين يتعلم الجبر والهندسة أو الكيمياء، فهذه علوم تعطى الإنسان خبر الدنيا فيذهب لها، لكن مسألة الدين مسألة قيم؛ لذلك لا يكفي أن نعلم الدين بل لابد أن ننفذ ذلك العلم، وتنفيذ هذه المسألة يكون بالتطبيق في سلوك من أسوة حسنة وقدوة طيبة.

وهب أن الذي يُعلم الدين يدرسه معلومة ويدخلها في نفوس التلاميذ، ثم لا يجدون من أثر هذه المعلومة نصيحاً على سلوك من علمها، ماذا يكون الموقف؟ هنا تضعف ثقة التلميذ في أستاذه، وتضعف ثقته في الدين؛ لأنه لم ير من الدين إلا كلاماً يقال، بدليل أن من يقولونه لا ينفذونه، وفي هذا فشل في تعليم منهج الدين. والخطأ إذن في أن الناس يظنون أن منهج الدين يقف عند تعليم المعلومات الدينية، لا. إن تعليم الدين يقتضي تنفيذ ما فيه من معلومات، عكس العلوم الأخرى التي تعطى المعلومة فقط. وإن أراد الإنسان أن ينتفع بها في حياته انتفع، وإن لم يرد فهو حُر في ذلك.

إذن فالتذكير مرة يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومرة يكون بالفعل، « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه »، وماذا يعني التغيير باللسان؟. يعني أن الإنسان إن كان عنده حسن تأد واستعداد للعظة ومعرفة أدب النصيح فله أن يقبل على تناول العظة. وليس كل إنسان صالحاً لأن ينصح؛ لأن المنصوح يخالف المنهج، والناصح يقف أمامه حتى لا يخالف المنهج، إنه يخرجهم عما ألف وأحب، لذلك يجب أن يتلطف الناصح في النصيح.

ومثال ذلك نجد الطبيب حين يذهب إليه المريض يصف له الدواء، والدواء قديماً كان كله مرّاً. وكانت الناس تأخذ الدواء بصعوبة، ويمسك الكبار الأطفال ليعطوهم الدواء. وحين ارتقت صناعة الدواء، قام الصيادلة بتغليف جرعة الدواء بغلاف يحجب المرارة. ليلتطفوا مع مريض الجسم، فما يأتنا بمريض القيم؟. إنه يحتاج إلى المسألة نفسها. لذلك لابد أن نجعل النصيح خفيفاً، ولا نجتمع على المنصوح بين

أن نخرجه عما ألف وما يكره من الأساليب، ولذلك قلنا : إن النصيح ثقيل، لأنك حين تنصح إنساناً فمعنى ذلك أنك افترضت أنك أفضل سلوكاً منه، وهو أقل منك في ذلك، وهذا هو أول مطب، وينظر لك المنصوح على أنك تفهم أحسن منه. ولهذا قالوا في الأثر : النصيح ثقيل فلا ترسله جبلاً، ولا تجعله جدلاً. وقيل أيضاً : الحقائق مرة فاستعبروا لها خفة البيان. هكذا يكون التذكير، وإن لم تستطع أن تمنع بالفعل فامنع بالقول؛ لأن التغيير باليد يحتاج إلى سلطة المغير على المغير، وهذا لا يأتي إلا بأن يكون للمغير مقدمة وسابقة مع المغير يثبت فيها المغير أنه يحب مصلحة المغير. وقد يكون ذلك وارداً من غير أن تقول. كأن تكون أباه أو أمه، والأب والأم يقومان برعاية الابن، وتلبية احتياجاته طعاماً ومشرباً ومسكناً ومصروفاً. وكل منهما هو المتولى لمصالح الابن. وإذا كان الناصح ليس له هذه الصلة بالمنصوح، فعليه أن يتلطف له أولاً بما يحب. فحين يطلب منك أمراً تقوم بإجابته إلى طلبه، وتنبه بعد ذلك إلى ما تريد أن تنصحه إنك قد قدمت له شيئاً من المعروف فيتحمل منك النصيح.

ومثال آخر : افرض أن ابنك قد طلب منك أن تحضر له ساعة، وبعد ذلك قالت لك أمه : إنه لم يستذكر دروسه حتى الآن. ثم تأتي له بالساعة وتقول له : يا ولد أنت أردت مني ساعة وأحضرتها لك، وتناولها له وتقول : إن أمك قالت لي إنك غير مهتم بدروسك، ولو تذكرت قولها لما أحضرت لك الساعة. وقد توجه له توبيخاً فيضحك لأنك قد حنتت قلبه، وبينت له أنك تحبه فيقبل النصيح، حتى ولو صفعته قد يقبل لأنه يعلم أنك تحب مصلحته. إذن للتذكير ألوان متعددة : عظة بالقول، وتغيير بالفعل وإنكار بالقلب.

﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ والأصل في التقوى أن تتقى شيئاً بشيء ؛ تتقى مؤلماً بجعل وقاية بينك وبينه، وهي تأتي كما علمنا في المتقابلات ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَنْقُرُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٣١)

وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

(ومن الآية ١٣٠ سورة آل عمران)

ونجد من يتساءل : كيف يقول : « اتقوا الله » ، و« اتقوا النار » ؟

نقول : نعم ؛ لأن اتقوا الله تعنى اتقوا غضب الله عليكم ، واتقوا عذاب الله لكم بأن تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية ، ولا بد أن تجعل بينك وبين النار وقاية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى كما علمنا له صفات جلال وصفات جمال ، وصفات الجمال هي التي تسعد الإنسان ككونه - سبحانه - « غفوراً » ، و« رحيماً » ، « باسطاً » ، وكما أن لله صفات جمال تعطيك الرغبة والإقبال عليه - سبحانه - فله صفات جلال تعطيك الرهبة ، فهو - جل شأنه - جبار ومتقم . فاتق الله حتى تحجب عن نفسك متعلقات صفات الجلال التي منها جبار ومتقم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا
أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ



وإذ تنصرف إلى الزمن ، أي اذكر وقت أن أخذ الله من بني آدم ، والأخذ هو الله ، والمأخوذ منه بنو آدم ، والشئ المأخوذ هو ذريتهم ، هذه هي العناصر ، ولنتأمل

ذلك بدقة، إن الرب هنا هو الآخذ، وبتو آدم مأخوذ منهم، والمأخوذ هو الذرية. وبتو آدم هم أولاد آدم من لدنه إلى أن تقوم الساعة، وهنا اتحد المأخوذ والمأخوذ منه، ولا بد أن نرى تصريحاً في هذا النص؛ لأنه يشترط أن يكون المأخوذ منه كلاً، والمأخوذ بعضه.

والمثال : إن أنا أخذت منك شيئاً، فالمأخوذ منه هو الكل، والمأخوذ بنفسه هو البعض. لكننا هنا نجد المأخوذ هو عين المأخوذ منه، وأزال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الإشكال في هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه :

(لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وميضاً من نور ثم عرضهم على آدم، فقال : أي رب. من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم. فأعجبه وميض ما بين عيني. فقال : أي رب. من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له داود، فقال : رب كم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة. قال : أي رب زده من عمري أربعين سنة، فلما قضى عمر آدم جاءه ملك الموت. فقال : أولم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال : أولم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسى فنسيت ذريته، ونخطى آدم فخطت ذريته (١).

إذن ذرية آدم أخذت من ظهر آدم. وعرفنا من قبل أن كلاً منا قبل أن نحمل به أمه كان ذرة في ظهر أبيه، وأبوه كان ذرة في ظهر أبيه حتى آدم. وهكذا نجد أن كل واحد مأخوذ من ظهره ذرية، هناك أناس يؤخذون - كذرية - ولا يؤخذ منهم، مثل من فرض عليهم الله أن يكون الواحد منهم عقيماً، وكذلك آخر جيل تقوم عليه الساعة، ولن ينجوا. وآدم مأخوذ منه لأنه أول الخلق، وهو غير مأخوذ من أحد. وما بين الأب آدم وآخر ولد؛ مأخوذ ومأخوذ منه. وبذلك يكون كل واحد مأخوذ ومأخوذ منه، وهكذا يستقيم المعنى.

(١) رواه الترمذي في سننه وقال حديث حسن صحيح.

والمأخوذ منه آدم ثم كل ولد من أول أولاد آدم إلى الجيل الأخير الذي سينقطع عن النسل.

ووضح النبي صلى الله عليه وسلم : أن ربنا سبحانه وتعالى مسح بيده على ظهر آدم وأخرج منه الذرية، وقال لهم : أأست بربكم؟ قالوا : بلى. وبهذا علمنا أن كل ذرة من الذرات قد أخذت مما قبلها، وأخذ منها ما بعدها؛ وكلها مأخوذ ومأخوذ منه، اللهم إلا القوسين : القوس الأول : آدم لأنه مأخوذ منه وليس مأخوذاً من شيء، والقوس الثاني : آخر ولد من أولاده مأخوذ وليس مأخوذاً منه ؛ لأن الإنسان منا وجد من حيوان أبيه المنوى. ولو أن الحيوان المنوى أصابه موت لما أنجب الأب، ومن ولد من حيوان منوى لأب، هذا الأب مأخوذ من حيوان منوى حتى من الجد أيضاً، وسلسلها إلى آدم؛ ستجد أن كل واحد منا فيه جزئ من حتى من لدن آدم لن يدركه موت أبداً.

لذلك يقول ربنا :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ولا تقل إن الكل سيكون في ظهره؛ لأن المأخوذ منه هو الأساس الموجود في ظهره، ومادام كل شيء يتكاثر فهو قد وجد من أقل شيء ونعلم أن الأقل يوجد فيه الأكثر معطوياً. وقد أخذ ربنا من ظهور بني آدم الذرية وخاطب الذرية بقوله تعالى : ﴿أأست بربكم؟﴾.

وهنا قد يقول قائل : أكان لهذه الذرية القدرة على الخلق؛ إنها ذرية تنتظر التكوين الآخر؛ لتتحد مثلاً بـ "البويضة" في رحم الأم؟ فنرد عليه ونقول : لماذا تظن أن مخاطبة ربنا لهم أمر صعب؟ إن الواحد من البشر يستطيع أن يتعلم عشر لغات، ويتزوج من أربع سيدات، وكل سيدة ينجب منها ذرية، ويقعد يوماً عند سيّدة وذريتها ويعلمها اللغة الإنجليزية مثلاً، ويجلس مع الأخرى ويعلمها اللغة الألمانية، ويعلم الثالثة وأولادها اللغة العربية وهكذا، بل يستطيع أن يتفاهم حتى

بالإشارة مع من لا يعرف لغته. وإذا كان الإنسان يستطيع أن يعدد وسائل الأداء، ألا يقدر أن يعدد رينا وسائل الأداء لمخلوقاته؟ إنه قادر على أن يعدد ويخاطب، ألم يقل الحق تبارك وتعالى للجبال :

﴿ يا جبال أوبي معه ﴾

(من الآية ١٠ من سورة سبأ)

كيف إذن لا يتسع أفق الإنسان لأن يدرك أن الله قادر على أن يخاطب أيّاً من مخلوقاته؟ إنه قادر على أن يخاطب كل مخلوق له بلغة لا يفهمها الآخر. وهو القائل سبحانه :

﴿ وَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَّالِ يُسَبِّحُ ﴾

(من الآية ٧٩ من سورة الأنبياء)

ونعلم من القرآن الكريم كذلك أن الجبال تسبح أيضاً من غير داود، شأنها شأن المخلوقات جميعها مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة الإسراء)

وحتى ذرات يد الكافر تسبح، وإن كان تسبيحها لا يوافق إرادته.

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَّالِ يُسَبِّحُ ﴾

يبين لنا أن الجبال كانت تردد تسبيح داود وتلاوته للزبور ، ولا يقتصر أمر الحق إلى الجبال بل إلى كل مخلوق ، فتحن - على سبيل المثال - نقرأ في القرآن الكريم أن ربنا أوحى إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. إذن قلله مع خلقه أدوات خطاب ؛ لأنه هو الذى خلق الكون والمخلوقات ، وله سبحانه خطاب بالفاظ ، وخطاب إشارات ، وخطاب بالهام ، وخطاب بروحى ، فإذا قرأنا أن الحق تبارك وتعالى قال للذرية آدم : ألسنت بركم ؟ فهذا يعنى أنه قالها

لهم باللغة التي يفهمونها ، لأنه هو سبحانه الذي قال للسماء والأرض :

﴿ أَتَيَا عَرَفًا أَوْ كَرَّمًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾

(من الآية ١١ من سورة فصلت)

ولقد تكلمت النملة وفهم سليمان كلامها ، ولو لم يُعَلِّم الله سليمان كيف يفهم كلامها لما عرفنا أنها تكلمت :

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾

(من الآية ١٨ من سورة النمل)

إنها تفهم ما يفعله البشر حين يدوسون على كائنات صغيرة دون أن يروها ، ولكن سليمان نبي من أنبياء الله ، ولن يعتدى على خلق الله ، والنملة التي تكلمت كانت تحرس بقية النمل . وكذلك تكلم الهدهد ليخبر سيدنا سليمان عن مملكة سبأ وحالة بلقيس وقومها .

إذن فالله عز وجل يخاطب جميع خلقه ، ويجيبه جميع خلقه ، فلا تقل : كيف يخاطب المولى سبحانه الذر ، والذر لم يكن مكلفاً بعد؟ ولم يحاول العلماء أن يدخلوا في هذه المسألة ؛ لأنها في ظاهرها بعيدة عن العقل ، ويكفى أن ربنا الخالق القادر قد أبلغنا أنه قد يخاطب الذرات قائلا : ألسنت بربكم ؟ . قالوا : بلى . ويبدو من هذا القول أن المسألة تمثيل للقطرة المودعة في النفس البشرية . وكأنه سبحانه قد أودع في النفس البشرية والذات الإنسانية فطرة تؤكد له أن وراء هذا الكون إلهاً خالقاً قادراً مدبراً .

وقديماً قلنا : هب أن طائفة وقعت بك في صحراء ، وحين أفقت من إغماء الخوف ؛ فكّرت في حالك وكيف أنك لا تجد طعاماً أو شراباً أو أنيساً ، وأصابتك غمٌّ من هذه الحالة فنمت ، ثم استيقظت فوجدت مائدة عليها أطيب الطعام والشراب ، ألا تتلفت لتسأل من الذي أقام لك هذه المائدة قبل أن تمد يدك إلى أطيب الطعام ؟ . كذلك الإنسان الذي طرأ على هذا الكون الحكيم الصنع ؛ البديع

التكوين ؛ ألا يجدرُ به أن يسأل نفسه من خلق هذا الكون ؟ .

إننا نعلم أن المصباح الكهربى احتاج لصناعته إلى علماء وصناع مهرة كثيرين وإلى إمكانات لا حصر لها لينير هذا المصباح حجرة محدودة ، وحين نرى الشمس تنير الكون كله ، ولا يصيبها كللٌ أو تعبٌ ولا تحتاج منا إلى صيانة ، ألا نسأل من صنعها ؟ . وخصوصاً أن أحداً لم يدع أنه قد صنعها ، وقد أبلغنا المولى سبحانه وتعالى بأنه هو الذى خلق الأرض وخلق الشمس وخلق القمر ، فإما أن يكون هذا الكلام صحيحاً ؛ فنعبده ، وإما لا يكون الكلام صحيحاً فنبحث عن من صنع وخلق الكون لنعبده .

وبما أن أحداً لم يدع لنفسه صناعة هذه الكائنات ، فهى تسلم لصاحبها وأنه لا إله إلا الله . إذن فالقطرة تهدينا أن وراء هذا الكون العظيم قدرة تناسب هذه العظمة ؛ قدرة تناسب الدقة ؛ هذه الدقة التى أخذنا منها موازين لوقتنا ؛ فقد أخذنا من الأفلاك مقياساً للزمن ؛ ولولا حركة الأفلاك التى تنظم الليل والنهار ؛ لما قسمنا اليوم إلى ساعات ، ولولا أن حركة الأفلاك مصنوعة بدقة متناهية ؛ لما استطعنا أن نعدّها مقياساً للزمن . وحينما نستعرض قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥ ﴾

(سورة الرحمن)

نجد أن كلمة " بحسبان " وردت مرتين ، فقد أبلغنا الحق سبحانه وتعالى : أنه جعل الشمس والقمر بحسبان ، أو حساباً ، وهما من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ولم يخلقهما عبثاً بل لحكمة عظيمة .

﴿ نَعْلَمُ أَعْدَدَ السِّنِّ وَالْحَسَابِ ٥ ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

فقد أخذنا من دورة الشمس والقمر مقياساً ، ولم نكن لنفعل ذلك إلا إن كانت مخلوقة بحساب ؛ لأن الكون مصنوع ومخلوق على هذه الدرجة من الدقة

والإحكام، لهذا يجب أن تلتفت إلى أن هناك قدرة وراء هذا العالم تناسب عظمته. لكن أنعرف ماذا تريد هذه القوة بالعقل؟ إن أقصى ما يهدينا العقل هو أن نعرف أن هناك قوة ولا يعرف العقل اسم هذه القوة، وكذلك لم يعرف العقل مطلوبات هذه القوة، وكان لابد أن يأتي لنا رسول من طرف تلك القوة ليقول لنا مرادها، وجاء الموكب الرسالي فجاءت الرسل ليبليغ كل رسول مراد الحق من الخلق، فقال كل رسول: إن اسم القوة التي خلقتكم هو الله، وله مطلق التصرف في هذا الكون، ومراد الحق من الخلق تصيير هذا الكون في ضوء منهج عبادة الحق الذي خلق الإنسان والكون. وكل هذه أمور ما كانت لتدرك بالعقل.

وهكذا نعلم أن منتهى حدود العقل هو إيمان بقوة خالقة وراء هذا الكون، وتستوى العقول الفطرية في هذه المسألة. أما اسم القوة والمنهج المطلوب لهذا الاله فلا بد له من رسول.

وأرهب الفلاسفة أنفسهم في البحث عن هذه القوة ومرادها. وسموا مجال البحث "المتافيزيقا" أي "ما وراء الطبيعة" وعادة ما يقابل الفلاسفة من يسألهم من أهل الإيمان: ومن الذي قال لكم إن وراء المادة قوة يجب أن تبحثوا عنها؟.

وغالباً ما يقول الفيلسوف منهم: إنها الفطرة التي هدتني إلى ذلك. وتشعبت الفلسفة إلى مدارس كثيرة. وحاول أهل الفلسفة أن يتصوروا هذه القوة، وهذا هو الخلل؛ لأن الإنسان يمكنه أن يعقل وجود القوة الخالقة، ولا يمكن له أن يتصورها. وغرق الكثيرون من الفلاسفة في القلق النفسي المدمر. وأنقذ بعضهم نفسه بالإيمان. وكان يجب على كل فيلسوف أن يرهف أذنه ويسمع ما قاله الرسل ليحلوا لنا هذا اللغز، بدلاً من إرهاب النفس بالخلط بين تعقل وجود قوة وراء المادة، وبين تصور هذه القوة.

وإنني في هذا الصدد أضرب هذا المثل وأرجو ألا تنسوه أبداً: إننا إذا كنا قاعدين في حجرة، والحجرة مغلقة الأبواب. ودق الجرس وكلنا يجمع على أن طارقاً بالبواب؛ وهذا الشيء المجمع عليه من الكل يعدُّ تعقلاً، لكن أنستطيع

أن تتصور من الطارق ؟ رجل ؟ امرأة ؟ شاب ؟ شيخ ؟. المؤكد أننا سنختلف في التصور وإن اتحدنا في التعقل.

ونقول للفلاسفة : أنتم أرلئ الناس بأن ترهفوا أذانكم لمجئ رسول يحل لكم لغز هذا الكون ، واسم القوة التي وراء هذا الكون ، ومطلوب هذه القوة منا.

والحق سبحانه وتعالى يهدينا إلى هذا عبر الرسل ، ويقول هنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وهذه شهادة الفطرة ، ونحن نرى أن الفطرة تكون موجودة في الطفل المولود الذي يبحث بفمه عن ثدي أمه حتى ولو كانت نائمة ويمسك الثدي ليرضع بالفطرة وبالغريزة ، وهذه الفطرة هي التي تصون الإنسان منا في حاجات كثيرة ، وفي رد الفعل الانعكاسي ؛ مثال ذلك حين تقرب أصبعك من عين طفل ، فيغمض عينه دون أن يعلمه أحد ذلك.

وقد أشهدنا الحق على وحدانيته ونحن في عالم الذر :

﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾

ويقال " أشهدته " أي جعلته شاهداً ، والشهادة على النفس لكون من الإقرار ، والإقرار سيد الأدلة ؛ لأنك حين تشهد إنساناً على غيره ؛ فقد يغير الشاهد شهادته ، ولكن الأمر هنا أن الخلق شهدوا على أنفسهم وأخذ الله عليهم عهد الفطرة خشية أن يقولوا يوم القيامة :

﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾

فحين يأتي يوم الحساب ، لا داعي أن يقولن أحد إنني كنت غافلاً.

ويتابع المولى سبحانه : وتعالى قوله :

﴿ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً
مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (١٧٣)

كان الحق يريد أن يقطع عليهم حجة مخالفتهم لمنهج الله ، فنبه إلى عهد الفطرة والطبيعة والسجية المطمورة في كل إنسان ، حيث شهد كل كائن بأنه إله واحدٌ أحدٌ ، وذكّرنا سبحانه بهذا العهد الفطري قبل أن توجد أغيار الشهوات فينا.

﴿ أَلست بربكم قالوا بلى ﴾ وهل كان أحد من الذر وهو في علم الله وإرادته وقدرته يجرؤ على أن يقول : لا لست ربى ؟ طبعاً هذا مستحيل ، وأجاب كل الذر بالفطرة " بلى " . وهى تحمل نفى النفى ، ونفى النفى إثبات مثل قوله الحق :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٨)

(الآية ٨ سورة التين)

و " أليس " للاستفهام عن النفى ، ولذلك يقال لنا : حين تسمع " أليس " عليك أن تقول " بلى " وبذلك تنفى النفى أى أثبت أنه لا يوجد أحكم الحاكمين غيره سبحانه ، وهنا يقول الحق : " ألت بربكم " ؟ وجاءت الإجابة : بلى شهدنا ، ولماذا كل ذلك ؟ قال الحق ذلك ليؤكد لكل الخلق أنهم بالفطرة مؤمنون بأن الله هو الرب ، والذي جعلهم ينقلون عن هذه الفطرة تحرك شهواتهم فى نطاق الاختيار ، ومع وجود الشهوات فى نطاق الاختيار إن سألتهم من خلقهم ؟ يقولون : الله ، وما دام الله هو الذى خلقهم فهو ربهم .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَنَحَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة العنكبوت)

وجاء الحق بقصة هذه الشهادة حتى لا يقولنَّ أحدٌ : ﴿ إنما أشرك آبائنا من قبل ﴾

ويذلك تعلم أن أعذار العاصين وأعذار الكافرين التي يتعللون ويعتذرون بها تنحصر في أمرين اثنين : الغفلة عن عهد الذر، وتقليد الآباء.

وما الغفلة؟ وما التقليد؟ الغفلة قد لا يسببها كفر أو معصية، ويقلدها الناس الذين يأتون من بعد ذلك. والمثال الواضح أن سيدنا آدم عليه السلام قد أبلغ أولاده المنهج السوي المستقيم لكنهم غفلوا عنه ولم يعد من اللاتق أن يقول واحد منهم إن أباه قد أشرك. ولكن جاء هذا الأمر من الغفلة، ثم جاء إشراك الآباء في المرحلة الثانية؛ لأن كل واحد لو قلد أباه في الإشراك؛ لانتهى الشرك إلى آدم، وآدم لم يكن مشركاً، لكن الغفلة عن منهج الله المستقيم حدثت من بعض بني آدم، وكانت هذه الغفلة نتيجة تروهم أن هناك تكاليف شاقة تطالبها المنهج، فذهب بعض من أبناء آدم إلى ما يحبون وتناسوا هذا المنهج ولم يعد في بؤرة شعورهم؛ لأن الإنسان إنما ينفذ دائماً الموجود في بؤرة شعوره. أما الشيء الذي سيكلفه مشقة فهو يحاول أن يتناساه ويغفل عنه، هكذا كانت أول مرحلة من مراحل الانفصال عن منهج الله وهي الغفلة في آبائهم. وهنا يضاف عاملان اثنان : عامل الغفلة، وعامل الأسوة في أهله وآبائه. ولم تكن القضايا الإيمانية في بؤرة الشعور، ولذلك يقال : الغالب ألا ينسى أحد ما له ولكنه ينسى ما عليه؛ لأن الإنسان يحفظ ما له عند غيره في بؤرة الشعور، ويُخرج الإنسان ما عليه بعيداً عن بؤرة الشعور. ولأن البعض قد يتصور أن في التكليف الإيماني مشقة، لذلك فهو يحاول أن يبعد عنه ويتساه، وكذلك يحاول هذا البعض أن يتأني بنفسه عن هذه التكاليف.

وتأخذ المثل من حياتنا : قد نجد إنساناً مديناً لمحل بقالة أو لنجار وليس عنده مال يعطيه له، لذلك يحاول أن يبتعد عن محل هذا البقال، أو أن يسير بعيداً عن

أعين النجار. وهكذا يكون افتعال الغفلة في ظاهره هو أمراً منجياً من مشقات التكاليف، لكن البشر في ميثاق الذر قالوا : ﴿ بلى شهدنا ﴾

وقد أخذ ذلك العهد عليهم ، وأقرؤا به واستشهد الحق بهم ، على أنفسهم حتى لا يقولوا يوم القيامة ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ لأنه لا يصح أن تغفل عن هذا العهد أبداً ، ولكن الحق تبارك وتعالى عرف أننا بشر ، وقال في أبينا آدم :

﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ فَنَسَىٰ ﴾

(من الآية ١١٥ من سورة طه)

وما دام آدم قد نسى ، فنسيانه يقع عليه حيث بين وأوضح لنا الإسلام أن الأمم السابقة على الإسلام تؤخذ بالنسيان ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بنخبر واضح : فقال عليه الصلاة والسلام :

(رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) (١) .

والخطأ معلوم ، كأن يقصد الإنسان شيئاً ويحدث غيره ، والنسيان ألا يجيء الحكم على بال الإنسان. والمكره هو من يقهره من هو أقوى منه بفقدان حياته أو بتهديد حريته وتقييدها ما لم يفعل ما يؤمر به ، وفي الحالات الثلاث يرفع التكليف عن المسلم . وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أكرم الأمة المحمدية بصفة خاصة برفع ما ينسأ المسلم . وهذا دليل على أن من عاشوا قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يؤخذون به . وإذا سلسلنا ما قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نصل إلى سيدنا آدم الذي خلق بيد الله المباشرة ، بينما نحن أبناء آدم مخلوقون بالقانون ؛ أن يوجد رجل وتوجد امرأة وتوجد علاقة زوجية فيأتي النسل .

وقد كلف الله آدم في الجنة التي أعدها له ليتلقى التدريب على عمارة الأرض بأمر ونهى ؛ فقال له سبحانه وتعالى :

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبان ، والدارقطني والطبراني والحاكم في المستدرک من حديث ابن عباس رضي الله عنهما

﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَقْدًا حَبَّتْ شِجَّتًا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

إذن فقصارى كل تكليف هو أمر فى " افعل " ، ونهى فى " لا تفعل " ، وقد نسى آدم التكليف فى الأمر الواحد البسيط وهو المخلوق بيد الله والمكلف منه بأمر واحد أن يأكل حيث يشاء ويمتنع عن الأكل من الشجرة ، وإن لم يتذكر آدم ذلك ، فما الذى يتذكره ؟ وما كان يصح أن ينسى لأنه مخلوق بيد الله المباشرة ، ومكلف من الله مباشرة ، والتكليف وإن كان بأمرين ؛ لكن ظاهر العباء فيه على أمر واحد ؛ الأكل من حيث شاء هو أمر لمصلحة آدم ، و" لا تقرب " هو تكليف واحد .

- ولذلك قال الحق فى آية أخرى : ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

وهو عصيان لأنه نسيان لأمر واحد ، ما كان يصح أن ينساه . لعدم تعدده ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾

(سورة الأعراف)

جاء هذا القول لينبهنا إلى أن الغفلة لا يجب أن تكون أسوة لأن التكليف شاقة ، والإنسان قد يسهر عنها فيورث هذا السهو إلى الأجيال اللاحقة فيقول الأبناء : ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ .

وهذا يعنى أن إيمانهم هو إيمان المقلد ، رغم أن الحق قد أرسل لهم البلاغ ، وإذا كان الآباء مبطلين للبلاغ بالمنهج فلا يصح للأبناء أن يغفلوا عن صحيح الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٦)

والآيات التي فصلها الحق هنا هي العهود الخاصة، ورفع الجبل ليأخذوا التوراة بقوة، وكذلك العهد العام الذي اشترك فيه كل الخلق من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، وجاء سبحانه بكل ذلك ليؤكد لهم أن قضية الإيمان عقيدة يجب أن تكون في بؤرة الشعور، فمن غفل فليتذكر، ومن قلد آياه في شيء مخالف للمنهج القويم، فليرجع عن هذا التقليد؛ لأن التكليف الإيمانية تكاليف ذاتية، وسبحانه لا يكلفك وأنت في حاجة إلى أبيك، أو إلى أمك، لكنه يكلفك من بعد البلوغ؛ لأنك بعد البلوغ تستقل بذاتيتك استقلالاً كاملاً مثل والدك، ومادمت مكتمل الرجولة كوالدك وصالحاً للإنجاب فلا ولاية إيمانية لأبيك عليك أبداً، فلا تقل إني أقلد أبي ولو كان على غير المنهج السليم؛ لأن مثل هذا القول يمكن أن يكون مقبولاً لو كان التكليف للإنسان وهو في دور الطفولة، حيث الأب يسعى لإطعام أبنائه ورعايتهم، لكن التكليف لا يأتي للإنسان إلا بعد البلوغ، ومعنى بعد البلوغ : أنك صالح لإنجاب مثلك ورعاية نفسك.

ولذلك يطلب الحق سبحانه وتعالى من الآباء أن يدرّبوا أبناءهم ويعودوهم على مطلوبات التكليف قبل مجيء أوان تكليف الله، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام :

(مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم على تركها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع . . إلخ) (١)

الأب إذن يأمر ويُعاقب قبل أوان التكليف ليتدرب الأبناء عليه ويصير دربة سهلة لا يتعب منها الإنسان بعد البلوغ.

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

أي أن على الغافل أن يرجع عن غفلته فينتذكر، وأن يرجع المقلد لآبائه

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن (رياض الصالحين ص ١٨١)

عن التقليد، ويقتنع اقتناعاً، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾

(من الآية ٣٣ من سورة لقمان)

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾



ولأنهم قالوا: ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا خبر هؤلاء فيقول : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ .

والنبا هو الخبر المهم وله جدوى اعتبارية ويمكن أن نتفع به وليس مطلق خبر . ولذلك يقول سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۚ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ۝١﴾

(سورة النبا)

كما يقول ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ﴾ ، كأن هذا النبا كان مشهوراً جداً، ويقال : إنه قد قيل في « ابن بعوراء » أو أمية بن أبي الصلت ، أو عامر الراهب ، أو هو واحد من هؤلاء ، والمهم ليس اسمه ، المهم أن إنساناً آتاه الله آياته ثم انسلك من الآيات ، فبدلاً من أن يتفجع بها صيانة لنفسه ، وتقرباً إلى ربه ﴿ فانسلخ منها ﴾ واتبع هواه ومال إلى الشيطان .

وكلمة « انسلك » دليل على أن الآيات محيطة بالإنسان إحاطة قوية لدرجة أنها تحتاج جبروت معصية لينسلخ الإنسان منها ؛ لأن الأصل في السلخ إزاحة جلد

الشاة عنها، فكأن وبنا يوضح أنه سبحانه وتعالى أعطى الإنسان الآيات فانسلك منها، وهذا يعنى أن الآيات تحيط بالإنسان كما يحيط الجلد بالجسم ليحفظ الكيان العام للإنسان؛ لأن هذا الكيان العام فيه شرايين، وأوردة، ولحم، وشحم، وعظام. وجعل الله التكاليف الإيمانية صيانة للإنسان، ولذلك سمى الخارج عن منهج الله « فاسقاً » مثله مثل الرطبة من البلح، فبعد أن تضرب الشمس البلحة يتبخر منها بعض من الماء، فتكمش ثمرة البلحة داخل قشرتها وتظهر الرطبة من القشرة، ولذلك سمى الخارج عن المنهج « فاسقاً » من فسوق الرطبة عن قشرتها، والله عز وجل يقول هنا: ﴿ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ . وكان يجب ألا يغفل عنها، لأن الإتيان نعمة جاءت ليحافظ الإنسان عليها، لكن الإنسان انسلك من الآيات .

ونعرف جميعاً ثوب الثعبان وهو على شكل الثعبان تماماً، ويغير الثعبان جلده كل فترة، ولا ينخلع من الجلد القديم إلا بعد أن يكون الجلد الذى تحته قد نضج، وصلاح لتحمل الطقس والجو، وكذلك حين يتدلق سائل ساخن على جلد الإنسان، تلحظ تورم المنطقة المصابة وتكون بعض المياه فيها، ولو أفرغ الإنسان هذه المياه تصاب هذه المنطقة بالتهاب، أما إذا تركها فهي تحمى المنطقة المصابة إلى أن يتربى الجلد تحتها وتحف وتنفصل عن الجسم، وكذلك نعلم أن الشاة مثلاً لا تسلك نفسها . بل نحن نسلخها، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْبُيُوتُ تَبْنَاهُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يس)

فكأن الليل كان مجلداً ومغلفاً بالنهار، والليل أسود، والنهار فيه الضوء، ونعلم أن اللون الأسود ليس من ألوان الطيف، وكذلك اللون الأبيض ليس من ألوان الطيف؛ لأن ألوان الطيف : الأحمر، البرتقالى، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيلي، البنفسجى، واللون الأسود يأخذ ألوان الطيف ويجعلها غير مرئية، لأنك لا ترى الأشياء إلا إذا جاءت لك منها أشعة لعينيك، واللون الأسود يمتص كل الأشعة التى تأتى عليه فلا يرتد إلى العين شعاع منها فتراه مظلماً . والأبيض هو منزيح من

ألوان متعددة إن مزجتها مع بعضها يمكنك أن تصنع منها اللون الأبيض، وهكذا نعلم أن الأبيض مثله مثل الأسود تماماً، فالأسود يمتص الأشعة فلا يخرج منه شعاع لعينيك، والأبيض يرد الأشعة ولا يخرج منه شعاع لعينيك. وقوله الحق: ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ كأن سواد الليل جاء يغلف بياض النهار.

وإذا انسلك من آتاه خبر الإيمان عن المنهج يقول الشيطان: إنه يصلح لأن يتبعني، وكأن الشيطان حين يجد واحداً فيه أمل، فهو يجري وراءه مخافة أن يرجع إلى ما آتاه الله من الكتاب الحامل للمنهج، ويزكي الشيطان في نفس هذا الإنسان مسألة الخروج عن منهج ربنا.

وقلنا من قبل: إن المعاصي تأتي مرة من شهوة النفس، ومرة من تزيين الشيطان وأوضحنا الفارق، وقلنا: إن الشيطان لا يجزؤ عليك إلا إن أوضحت للشيطان سلوكك أن له أملاً فيك، لكن إن اعتديت وأصلحت من حالك فالشيطان يوسوس للإنسان في الطاعة ويحاول أن يكرهه فيها، والشيطان لا يذهب - مثلاً - إلى الخمارة، بل يقعد عند الصراط المستقيم ليرى جماعة الناس التي تتجه إلى الخير، أما الآخرون فنفسهم جاهزة له. إذن فالشيطان ساعه يرى واحداً بدأ في الغفلة عن الآيات فهو يلاحقه مخافة أن تستهويه الآيات ثانية، ولذلك لا بد لنا أن نفرق بين الدافع إلى المعصية هل هو من النفس أم من نزغ الشيطان، فإن جاءت المعصية وحدثت نفسك بأن تفعلها ثم عزت عليك تلك المعصية لأي ظرف طارئ ثم ألححت عليها ذاتها مرة ثانية، فاعلم أنها شهوة نفسك. لكن إن عزت عليك ثم فكرت في معصية ثانية فهذا من نزغ الشيطان؛ لأن الشيطان لا يريدك عاصياً بمعصية مخصوصة، بل يريدك بعيداً عن المنهج فقط، لكن النفس تريد معصية بعينها وتقف عندها، فإن رأيت معصية وقفت عندها نفسك، فاعلم أنها من نفسك، وإن امتنعت عليك معصية وتركتها، ثم فكرت في معصية ثانية. فهذا نزغ من الشيطان - ويقول الحق:

﴿ قَاتِلِمَا الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ ﴾

الغاوى والغوى هو من يضل عن الطريق وهو الممعن فى الضلال ، ونعلم أن الهدى هو الطريق الموصل للغاية ، ومن يشذ عن الطريق الموصل للغاية يضل أو يتوه فى الصحراء . وهو الذى يُسمى « الغاوى » ، ومادام من الغاوين عن منهج الله فالفساد ينشأ منه لأنه فسد فى نفسه ويفسد غيره .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَّلَ عَلَيْهِ
يَلْهَثَ أَزْوَاجَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾



وهنا أمران اثنان ، الرفعة : وهى العلو والتسامى ، ويأتى بعدها الأمر الثانى وهو الإخلاق إلى الأرض أى إلى التسفل ، والفعلان منسوبان لفاعلين مختلفين .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ ﴾ ، والفعل رفع هنا مستند لله . ولكنه اختار أن يخلد فى الأرض . وجاء الأمر كذلك لأن الرفعة من المعقول أن تنسب لله . لكن التسفل لا يصح أن يُنسب لله ، وكان كل فعل هو بأمر صاحب الكون . وربنا هنا يرفع من يسير على المنهج ، وحين يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ أى أنها مشيئتنا . فلو أردنا أن نرفعه كانت المشيئة صاحبة ، لكن هذا الأمر ينتقض الاختيار ، والحق يريد أن يُبقى للإنسان الاختيار ، فإن اختار الصواب فأهلا به وجزاؤه الجنة ، وإن أراد الضلال فلسوف يلقى العذاب الحق ، ولزيد من الاعتبار بقصص القرآن اقرأ معنى قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام :

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِزِّدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿١٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿١٦﴾﴾

(سورة الكهف)

ورغم أن موسى رسول من عند الله إلا أنه لم يتأب على أن عبداً من عباد الله تقرب إلى الله فاتبعه موسى ليقول له : ﴿هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً﴾ .

وفي هذا تأكيد على رغبة موسى أن يستزيد بالعلم ممن أعطاه الله العلم . وجاء القرآن بهذه القصة ليعلمنا أدب التعلم .

وماذا قال العبد الصالح ؟ لقد عذر موسى وقال :

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿١٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿١٨﴾﴾

(سورة الكهف)

أي أنك يا موسى لن تصبر لا لنقص فيك ، بل لأنك ستري أموراً لا تعرف أخبارها . لكن سيدنا موسى قال له لا : ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً﴾ وأصر موسى أن يتبع العبد الصالح وأنه لن يعصى له أمراً واشتراط العبد الصالح ألا يسأله سيدنا موسى عن شيء إلا أن يحدثه العبد الصالح . وكان كل ذلك مجرد كلام نظري ، فيه أخذ ورد ، وحين جاء الواقع تغير الموقف تماماً . بعد أن ركبوا في السفينة وخرقها العبد الصالح ، لم يصبر سيدنا موسى بل قال :

﴿لَقَدْ يَحْتَثَّ شَيْعًا مَرًّا﴾ .

(من الآية ٧١ من سورة الكهف)

وهكذا أثبتت التجربة العملية أن موسى لم يصبر على أفعال العبد الصالح ،

وحين ذكره العبد الصالح بما وعده من الأيسال، تراجع موسى، وتكرر السؤال، وتكرر التذكير، إلى أن أوضح العبد الصالح لموسى كل أسرار ما لم يحط به علما وهنا يقول الحق : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ لماذا ؟ لأن مشيئة الله مشيئة مطلقة، يفعل ما يريد، ولكنه سبحانه قد سبق منه أن جعل للاختيار جزاء، لهذا لم يرفعه مع أنه مخالف، لأنها سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. وسنة الله أن من عمل عملاً طيباً يشيبه الله عليه. ومن عمل سوءاً يعاقبه، ومشيئته سبحانه مطلقة، ولا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه.

و بمقتضى مشيئة الله فهو يعذب المذنب بعدله ويشيب الطائع بفضله، وله سبحانه مطلق الإرادة فهو عزيز، وحكيم في كل فعل.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

و ﴿ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾، أى أنه اختار أن ينزل إلى الهاوية، رغم أن الحق هدى الإنسان وبين له طريق الخير ليسلكه فيصعد إلى العلو، والحق يقول :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنِزُّ مَحَرَّمٌ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

ونخطيء حين نفهم أن « تعالوا » بمعنى « أقبلوا » فقط وهذا فهم ناقص، إنها دعوة للقبول وإلى العلو، لأنه سبحانه وتعالى يشرع لنا حتى لا نلزم منهج الأرض السفلى. بل نرتقى ونأخذ منهج الله الذى يضمن لنا العلو. وكأنه سبحانه يقول : تعالوا وتساموا فى أخذ منهجكم من الله العلى الأعلى وإياكم أن تأخذوا منهجكم مما وضعه البشر ويناقض ما جاء فى شرع الله، لأن فى هذا تسفلاً ونزولاً إلى الخضيض.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَنَسْنَأْ كَنَلِ الْكَلْبِ

إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

ويقال: «حملت على الكلب»، فأنت حين تجلس ويقبل الكلب عليك وتزجره وتطرده وتنهره، فهذا تفسير لقوله: «تحمل عليه»، أى أنك تحمل عليه طرداً أو زجراً؛ لذلك يلهث، وأن تركت الكلب بدون حمل عليه طرداً أو زجراً فهو أيضاً يلهث، لأن طبيعته أنه لاهث دائماً، وهذه الخاصية فى الكلب وحده، حيث يتنفس دائماً بسرعة مع إخراج لسانه.

ونعلم أن الحيوانات لا تلهث إلا إن فزعت فتجربى، لتفوت من الألم أو من العذاب الذى يترصدها من كائن آخر، وحين يجربى الحيوان فهو يحتاج لطاقة، فيدق القلب بشدة ليدفع الدم بما فيه من غذاء إلى كل الجسم، ولا بد للقلب أن يتعاون مع الرئة التى تمد الدم بالهواء. ونلاحظ أن الكائن الحى حين يجلس برتبة فهو لا يلحظ تنفسه، لكن إذا جرى يلحظ أن تجويف الصدر أو سعة الصدر تنقبض وتنشط لتسحب «الأوكسجين» من الهواء لتصل به للدم بكمية تناسب الحركة الجديدة، فيحاول أن يتنفس أكثر. ولا تفعل الحيوانات مثل هذه المسألة إلا إذا كانت جائعة أو متعبة أو مهاجرة، لكن الكلب وحده هو الذى يفعلها، جائعاً أو شبعان، عطشان أو غير عطشان، مزجوراً أو غير مزجور، إنه يلهث دائماً. ولماذا يشبهه سبحانه بالكلب اللاهث؟ لأن الذى يظهر بهذه الصورة تجده مكروهاً دائماً؛ لأنه متبع لهواه، وتتحكم فيه شهواته. وحين تتحقق له شهوة الآن، يتساءل هل سيفعل مثلها غداً؟ وتتملك الشهوة كل وقته، لذلك يعيش فى كرب مستمر، لأنه يخاف أن يفوته النعيم أو أن يفوت هو النعيم، ويصير حاله كحال الكلب يلهث آمناً أو غير آمن، جائعاً أو غير جائع، عطشان أو غير عطشان.

﴿فَسَلِّطُوا كَلْبًا عَلَى الْغَنَمِ فَإِنْ نَهِىَ عَنْهَا فَلْيُفْسِدْ فِيهَا وَلَا يُصْلِحْ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَرَمِ

الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَائِتِنَا ۖ فَاَقْصِصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

هكذا يكون مصير من كذب بالآيات .

وقول الحق : ﴿ فاقصص القصص ﴾ يوضح لنا أن الله لا يريد أن يعلمنا تاريخاً ، لكنه يعلمنا كيف نأخذ العبرة من التاريخ ، بدليل أنه يكرر القصة أكثر من مرة وكل مرة يأتى سبحانه بلفظة جديدة ، لثمد ما فى القصة الواحدة من العبر ، ولو أنه أراد أن يقص علينا التاريخ لقال لنا روايته مرة واحدة . ونجد فى القرآن الكثير من قصص الحق مع الباطل ، ومن قصص المبطلين مع المحقين ، ومن قصص المعاندين مع الرسل ؛ لأن القصة أمر واقعى ، والتقنين للمناهج أمر لفظى ، فيريد سبحانه وتعالى أن يوضح لنا المنهج المناسب للواقع ؛ لأن واقع الحياة يعطى القصة القولية حرارة ومخونة فلا يظل المنهج مجرد كلام نظرى معزول عن الواقع .

وهكذا يتبين الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية ، أنه سبحانه قد أنزل علم منهجه بواسطة الرسل إلى بعض خلقه ، فمنهم من يأخذ منهج الله بالاستيعاب أولاً ، وتوظيف ما علم ثانياً ، وبذلك يرتفع من منطق الأرض إلى منطق السماء . ومن يعطيه الله ذلك المنهج ، ما كان يصح له أن يترك ارتفاعه إلى السماء ، ليهبط إلى مستوى الأرض . وهذا ما يفعله البشر حين يقتنون لأنفسهم ، ويضعون نظم الحياة على وفق هواهم ، وعلى وفق نظمهم ، ويتركون منهج الله الذى خلقهم وصنعهم ووضع لهم قانون صيانتهم .

وهذا كلام نظرى له واقع فى ابن « باعوراء » ، هذا الذى آتاه الله العلم ، ولكنه أخلد إلى الأرض ولم يتبع ما علم ، فانسلك من المنهج كما تسلك الشاة من جلدها وقال فيه الحق :

﴿ فَشَلَّةٌ مِّثْلُ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهٖ يَلْهَثُ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

ومن يريد أن يرفعه الله إلى السماء بالوحى بالمنهج ثم يهبط إلى الأرض نجد

الحق سبحانه وتعالى يمثل حاله بحال الكلب، مع الفارق بين الاثنين ! لأن الكلب يلهث غريزة. فهو غير مذموم حين يلهث وهو مطرود، ويلهث غير مطرود فهذه غريزة فيه، ولا يذم على هذه ولا على تلك، لكن الإنسان الذي فطره الله على حب الخير وميز غرائزه بمنهج عقله يصون حركته ما كان يصح له أن يفعل ذلك ولا ينبغي أن تقولوا: وما ذنب الكلب في أنه يلهث، ويضرب به المثل في الكفر؟ لأن الكلب يفعلها غريزة، وهو بغير تكليف فيفعل ما يشاء، أما الإنسان الذي ارتفع بفكره وميزه الله بأن يختار بين البديلات ما كان يصح له أن يصل إلى هذا المستوى، ومثل هذا السلوك في الكلب محمود فيه لأن طبيعته هكذا، وإياك أن تقول: لماذا رينا يضرب المثل بأشياء وما ذنبها هي؟

والحق - سبحانه - هو القاتل عن اليهود :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَبَلُوا النَّوْثَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

(من الآية ٥ سورة الجمعة)

هل الحمار حين يحمل أسفاراً يستحق الذم لأنه لم يفقه ما في الأسفار؟ الجواب لا؛ لأن مهمته ليس منها فقه وفهم ما في الأسفار، بل مهمته أن يحمل ما عليه فقط، وكأن الحق يقول: لا تكونوا مثل الحمار الذي يكتفى من الخير بأن يحمله، ولكن أريد منكم أن تحملوا المنهج وأن تتفهموا بما يحويه من التشريع. إذن فهذه الأمثلة ليست ذماً للكلب، ولا هي ذماً للحمار. إنما ذم لمن يتشبه بهما؛ لأنه نزل إلى مرتبة لم يرد الله لها، وأراد الله المثل فيهما بشيء لا تدم منه، ولكنه مذموم من الإنسان.

والإنسان الذي لا يتبع منهج الله يكون مضطرب الحركة في الحياة، حتى وإن كان في نعمة، لأنه معزول عن الله، ومادام معزولاً عن الله تجده دائم التساؤل: أيدوم لي هذا النعيم أو لا يدوم؟ ويعيش دائماً في قلق ورعب مخافة أن يفوت النعيم أو ألا يدوم له النعيم، ومثله كالكلب يلهث حال راحته ويلهث حال تعبته.

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾

إذن حين يضرب الله لنا مثلاً من الأمثال الواقعية في هذا الرجل المسمى "ابن باعوراء" ، فسبحانه يعطينا واقعاً لما حدث بالفعل.

أى أن الذى يريد الله أن يرفعه بما علمه من منهج فانسلك من دينه فهو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، ولستم بدعاً فى هذا ، فإله يريد أن يرفعكم بمنهج السماء وأنتم تخلصون إلى الأرض ، وقد حدث هذا مع ابن باعوراء ، وكلمة "مثل" إذا سمعتها هى من مادة الـ"م" والـ"ث" والـ"لام" ، وتنطق كما يأتى : إما أن تنطقها مثل «يكسر الميم وسكون الشاء» ، وإما أن تنطقها مثل «يفتح الميم والشاء» ، والمثل هو المشابه والنظير ، فتقول : فلان مثل فلان فى الكرم ، فى العلم ، فى الطول ، فى العرض ، وبذلك أعطيت تشبيه ما هو مجهول للمخاطب بما هو معلوم له.

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

أى لا أحد يشبهه فى شيء ، لأنه مَرَّةً فى الذات والصفات والأفعال.

وأيضاً نقول : هذا مثل هذا ، أى أن فلاناً المشبه به يكون أعلى منه فيما يشبهه به ، لكن الناس لا تعرف ذلك ، وإن كان المشبه به ذائع الصيت ، بحيث يجرى اسمه على كل لسان ، فنحن نقول : إنه مثل ؛ كقولنا عن الكريم : "هو حاتم" لأن شهرة حاتم فى الكرم جعلته مثلاً ، والفرق أنك إذا قلت فى فلان إنه يشبه حاتم فى الكرم ، فقد تكون أول من يخبر عنه ، ولك أن تأتى بواحد له شهرة ذائعة الصيت على كل لسان ؛ فهذا مثل ، كأن تقول : مثل حاتم فى الكرم ، أو مثل عترة فى الشجاعة. والمثل فى الذكاء إياس ، لأن كل واحد منهم مشهور بصفة ، ولذلك لما مدح الشاعر (١) الخليفة (٢) قال فيه :

إقدام عمرو^(١) (في شجاعته) في سماحة حاتم (أى الطائي) في حلم أحنف (الأحنف^(٢)) بن قيس وكان مشهوراً بالحلم عند العرب (وفي ذكاء إياس^(٣) . وقال رجل من القوم : كيف تُشَبِّهُ الأميرَ بصعاليك العرب ؟ إن الأمير فوق من ذكرت جميعاً .

ما عمرو والنسبة للأمير ؟

وما حاتم بالنسبة للأمير ؟

فقال الشاعر :

وشبيهه المدّاح في الباس والندى

بمن لو رآه كان أصغر خادماً

ففى جيشه خمسون ألفاً كعتر

ولم يَحْزَنهُ أَلْفُ أَلْفِ كحاتم

أى أن عنده أمثال حاتم وأمثال عترة. فما كان منه إلا أن أسعفته ذاكرته ويديهته ؛ فقال :

" لا تتكروا ضربي له من دونه

مثلاً شروداً فى الندى والباس

فأالله قد ضرب الأقل لنوره

مثلاً من المشكاة والنيراس

وكان الشاعر يقول : أنا ضربت بهم المثل لأنهم أصبحوا المثل المشهور والأمثال لا تتغير .

(١) عمرو بن معدى كرب الزبيدى فارس اليمن (٢) من سادات التابعين كان شهماً حليماً (٣) كان قاضى البصرة ويضرب به المثل فى الفطنة والذكاء.

وأنت تقدر في المثل ، فقد تقول : فلان حاتم ، وحاتم انقضى عمره ، لكنه قد صار مثلاً مشهوراً في التاريخ ، أو تقول : " فلان عتر " ، أو " فلان إياس " ، وفي ذلك يرتقى التشبيه ، بأن صار المشبه به مشهوراً معلوماً متوارداً على الألسنة وكل واحد يشبه به .

ويعرفون المثل بأنه : قول شبه مورده بمضربه ، أي أنك تشبه الحالة التي قيل فيها المثل أولاً ، ومثال ذلك : حينما أرسل عظيم من عظماء العرب خاطبة اسمها " عصام " لتخطب له أم إياس ؛ فقد بلغه أنها جميلة وأنها وأنها ، فقال : اذهبي حتى تعلمي لى علم ابنة عوف ، فذهبت الخاطبة وخلت أم الفتاة بينها وبينها ، وقالت لها : يا هذه ، هذه خالتك جاءت لتتظر إلى بعض أمرك فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه ، من وجهه وخلق ، وناطقها فيما استنطقتك به . ثم أرسلت إلى خباء ، ونظرتها كلها وفحصتها فحصاً شاملاً . فلما عادت إلى من أرسلها ، وكان ينتظرها في شوق وكأنه على أحر من الجمر ، قال لها : " ما وراءك يا عصام ؟ " قالت : " أبدى المخض عن الزيد " أي أن الرحلة جاءت بفائدة .

وأصبح العرب بعد ذلك كلما أرسلوا رسولا ذكرا أو أنثى أو مشى أو جمعاً ؛ وبعد أن يعود إليهم ويستعلموا منه عن نتيجة رحلته ، فهم يقولون له : " ما وراءك يا عصام ؟ " ، ولو كان رجلاً ، لأن الأمثال لا تغير . وكل شيء يجدى الجهد فيه يقال عنه : " أبدى المخض عن الزيد " . فحين ينجح الولد ويأتى بالمجموع المناسب يقال : " أبدى المخض عن الزيد " .

والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ لَكَا فَوْقَهَا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وكانوا قد قالوا : كيف يضرب الله المثل ببعضه ؛ وقال سبحانه :

﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

لقد فهموا قوله : "فما فوقها" أنها أكبر منها، والمراد غير ذلك ؛ لأنه سبحانه ضرب المثل بالأقل ؛ لذلك قال : "فما فوقها" من باب فما فوقها في الاحتقار منكم والقلة في الحجم مما تتكبرونه ، وهو الضالة. وحتى تفهم ذلك نسمع أحياناً : فلان مريض . ويرد السامع وفلان فوقه في المرض . ونجد "فوقه" هنا لا تعني المرض الأقل ، بل المرض الأكثر شدة :

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

والكلام موجه لليهود : أي أنتم يا بني إسرائيل مثلكم مثل الرجل الذي آتيناها آياتنا فأنسلخ منها ، ولقد جاءت لكم في التوراة بشارة بمحمد ، ووصفته بسمات وعلامات ، بحيث إذا رآه الإنسان يعرف أنه الرسول الذي جاء ذكره في التوراة ، ويعرفه الواحد منكم كما يعرف ابنأ له ، لأنه مذكور لكم بنصه ونعته وشكله وطوله ، وعرضه . وكنتم تستفتحون به على العرب . لكنكم امتنعتم عن التصديق بالآيات ، وعندما جاءهم بما عرفتم عنه كفرتم به . وصار مثلكم كمثّل الرجل الذي آتاه الله الآيات فأنسلخ منها. ﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾

وهم بعنادهم وبغيبهم وكفرهم قد كذبوا بالآيات الكونية التي يراها البصر ؛ السماء والأرض والشمس ، والآيات المعجزات التي يثبت بها الرسول صدق بلاغه عن الله ، وكذلك آيات القرآن التي تحمل منهج الله.

﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ وعليك يا محمد أن تقصص القصص وأن تقول ما حدث وما كان ، وأنت لن تحكى الأمر التافه ، بل ستحكي ما يقال له قصص ويكون فيه عبرة ؛ تنتفع بها حركة المجتمع.

ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ ، ونعلم أن القرآن قد جاء فيه الأمر بالتفكير والتذكر والتدبر .

والتفكر - كما نعرف - هو عمل العقل في المقارنات بين البديلات المتنوعة ليرجع بديلاً على بديل فتعقل به القضايا .

والتذكر يعنى إن غفلت عن هذا فتذكره ، حتى يزيح عنك الغفلة عن القضية المعلومة .

أما التدبر فهو أيضاً بحث عقلي . فلا تنظر إلى واجهة الأشياء ، بل إلى كلية الأشياء من جميع جهاتها بواجهة وجوانب وخلف ، وما ينتج عنها . وعلى سبيل المثال يقال : انظر خلف العبارة ، لتجد المعنى الخفى فيه يقال . والمثال فى قول الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَوْقَهَا ﴾ .

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وحين تفكرنا وتدبرنا وجدنا أن معنى " فما فوقها " لا يعنى الأعلى منها فى القوة ، بل الأعلى منها فى الضعف الذى أنكروه . لذلك لا يجب أن تنظر إلى معنى ومدلول اللفظ حسب ظاهره فقط ، بل لما خلف اللفظ ، ومعانيه .

﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ أى يتفكرون فى أسلوب توجيه المتهج ؛ لعلهم يؤمنون . وهذه فائدة القصص .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ

كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ (١٧٧)

والحق قال فيهم من قبل : إنهم كذبوا بآياتنا ، وضرب لهم المثل بابن باعوراء
وكان مشهوراً في أيامهم . لكنهم فاقوا ابن باعوراء لأنه كان فرداً وهم جماعة ؛
لذلك لا تقل إن في المسألة تكراراً ؛ لأن المثل من قبل كان على فرد واحد ، أوتى
آيات الله فانسلخ منها ، ولكنهم كانوا جماعة . لذلك فانسلخهم عن المنهج
يجعل موقفهم أشد سوءاً .

﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾

و " ساء " أى قُبِحَ ، وحين نقول : ساء فلان ؛ أى قبح أمره ، ولكن أى أمر
من أموره هو القبيح ؟ فنقول : ساء صحةً أى صار مريضاً أو ساء حالاً أى صار
فقيراً ، أو ساء خلقاً أى صار شرساً ، وأنت حين تقول : ساء ، فهذا السوء عام
له جوانب متعددة ، ويقتضى الأمر التمييز .

و " ساء مثلاً " أى ساء من جهة المثل ، والمثل فى ذاته لا يسوء ؛ لأن الله
تعالى يضرب المثل لنا . والمثل إنما يجرى ليبين ويشرح ويوضح . والمعنى هنا :
ساء مثلاً حال القوم . أو القوم أنفسهم هم الذين ساءوا . لأنهم حين كذبوا
بالآيات ظلموا أنفسهم ، فالتكذيب منهم لم يعرقل منهج الله فى الأرض ، ولم
يعرقلوا بالتكذيب شيئاً فى كون الله تعالى ، فالكون بنظامه ونسقه يسير بإرادته
سبحانه وآيات الكون سائرة . إذن تكذيبهم بآيات الله لن يضير أبداً فى أى
شيء ، والخيبة إنما تقع عليهم . وإن كان التكذيب فى الآيات المعجزات فقد بقى
ذكر المعجزات إلى الآن . وهم الذين خابوا ، وإن كانوا قد كذبوا بآيات المنهج
فهم أيضاً الذين خسروا ولم يصب الآيات الإعجازية أو القرآنية أى شيء .
وهم قد ظلموا أنفسهم ومثلهم فى ذلك مثل المريض الذى لم يسمع كلام
الطبيب فإنه يسيء إلى نفسه ولن يضر الطبيب شيء ، والله سبحانه قد أعطانا
المنهج لنستقيم به حركة الحياة ، فمن يأخذه ينفع نفسه ، ومن لا يأخذه لن يضر
الله شيئاً .

هم إذن ظلموا أنفسهم ، ومن يظلم نفسه كان هو أول عدو لها ولن يضر الله
شيئاً ، ولا الرسول ، ولا المجتمع .

﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾

(من الآية ١٧٧ سورة الأعراف)

وحين نجد معمولا تقدم على عامله - قاعدة نحوية - فاعلم أن هناك ما يسمى بالقصر في علم البلاغة، وقد نقول: 'يظلمون أنفسهم' ويصح أن تعطف قائلا: ويظلمون الناس. ولكن حين نقول: أنفسهم يظلمون، فمعنى ذلك أنه لا يتعدى ظلمهم أنفسهم، ويكون الكلام فيه قصر وتخصيص، مثلما نقول: ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾، أي أن الأمر لا يتعدى إلى غيره أبداً.

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ

فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨)

وهذه الآية هي الوحيدة التي جاء فيها قوله سبحانه وتعالى: 'المهتدي' - بالياء - بينما جاء المولى سبحانه وتعالى بكلمة 'المهتد' - من غير ياء - في آيات متعددة عدا هذه الآية:

واقراً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾

(من الآية ٩٧ سورة الإسراء)

ويقول الحق: ﴿فَإِنَّهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحديد)

وكذلك تأتي الكلمة بدون 'ياء' في قوله سبحانه:

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾.

(من الآية ١٧ سورة الكهف)

والمعركة الخاصة بقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال أيضاً ذبول هذه المعركة موجودة إلى الآن ، وأوضحنا هذه القضية من قبل ولكتنا نكررها للتأكيد ولتستقر في الأذهان ، لأن هناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادى والمضل ، فلماذا يعذبني إن ضللت ؟ ، وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة. ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لا تذكر الثواب إن أحسنت وأمنت ؟ . إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التي جاءت لك هي مكسب تركته وأخذت المسألة التي فيها ضرر ، ولا يقول ذلك إلا المترفون على أنفسهم .

وضربنا من قبل أمثلة كثيرة. لنفرد في هذه المسائل بين المختلفين ؛ لأن الجهة عندهم منفكة. وهم قد ناقشوا مسألة "خلق أفعال العباد" وتساءلوا : مَنْ خلق هذه الأفعال ؟ هل خلقها الله أم أن العبد يخلق أفعاله ؟ .

ونسأل : ما هو الفعل ؟ . إنه توجيه طاقة لإحداث حدث ؛ فطاقة اليد أنها تعمل أي عمل تريده منها ؛ قد تضرب بها إنساناً أو تحمل بها إنساناً واقعاً على الأرض ، أو تربت بها على اليتيم .

إذن ففي اليد طاقة تصلح لأن تفعل الخير وتفعل الشر ، وأنت لحظة أن تضرب إنساناً ؛ فأى عضلة تحركها حين ترتفع اليد لتضرب ؟ . إنك بمجرد رغبتك في أن تضرب ، تضرب ؛ عكس الإنسان الآلى حين يرفع شيئاً ، فله أجزاء وأزراو تعمل . وكلها آلات .

وأنت حين تربت على كتف يسيم ، ما هي الأعضاء والأجهزة التي تحركها لتعمل هذا العمل ؟ . إذن فالله هو الذى خلق فيك الانفعال للفعل . فإن نظرت إلى ذلك ، فكل فعل من الله ، ولكن توجيهه الجارحة إلى الفعل هو محل التكليف .

إذن فأنت تحاسب لأنك فعلت ، لا لأنك خلقت ؛ لأن خالق الأفعال هو الله سبحانه وتعالى ، وأنت تفعل بمجرد الإرادة والاختيار ، مثل اللسان فيه طاقة

مخلوقة لبيان ما فى النفس ؛ إن أردت أن تقول بها " لا إله إلا الله " صلحت ،
وصلحت كذلك عند الملحد أن يقول - والعباذ بالله - لا يوجد إله . واللسان لم
يعص فى هذه ولا فى تلك .

إذن فالذى خلق قدرة الجارحة على الفعل هو الله . وأنت توجه الجارحة ،
إذن فكل الأفعال مخلوقة لله ، لكن توجيه الطاقة للفعل يالميل والاختيار إنما
يكون من العبد . والحق سبحانه وتعالى يهدى الجميع بالمنهج ، ومن يقبل عليه
بنية الإيمان ، يعينه على ذلك ، ولذلك لا يصح أن نختلف فى مسألة مثل هذه ،
وأن نسأل من خلق الأفعال ، بل علينا أن نحدد الأفعال وكيف توجد ، وما دور
الإنسان فيها ؛ لأننا نعلم أن الله قد يسلب طاقة الفعل على الأحداث ، مثل من
يريد أن يؤذى إنساناً بيده لكنه يصاب بشلل فلا يقدر أن يرفع يده . ولو كان هو
الذى يخلق لرفع يده وأذى بها من أراد ، لكنه لا يخلق الطاقة الصانعة للفعل .

وعلى ذلك تكون الهداية نوعين : هداية دلالة ، وهى للجميع ؛ للمؤمن
والكافر ؛ لأن الحق لم يدل المؤمن فقط ، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به ،
فمن يقبل على الإيمان به ؛ فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة .
فياخذ بيده ، ويعينه ، ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه ، ويعطى له طاقة لفعل
الخير ، ويشرح له صدره ويسر له أمره ؛ ومبجانه القائل :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ يُضِلِلْ قَاُولَتِكَ هُمْ أَخْتَسِرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة الأعراف)

فإذا كان الله قد عمم حكماً ثم خصّصه ، فالتخصيص هو الذى يحكم
التمميم .

ويقول ربنا عز وجل : إن من شاء هدايته فهو سبحانه وتعالى يعطيه الهداية ،

ومن شاء له الضلال زاده ضللاً ، وقد بين أن من شاء هدايته يهتدى وهذه معونة من الله ، والكافر لا يهتدى وكذلك الظالم ، والفاسق ؛ لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره ، وهكذا يمنع سبحانه وتعالى عنهم هداية المعونة . ونقرأ في القرآن الكريم ما يوضح هذه المسألة ، فهو سبحانه يقول :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

والهداية التي كانت لقوم ثمود إنما هي هداية الدلالة ، وليست هداية المعونة . ويقول سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ﴾

(سورة محمد)

أي أنه سبحانه قد زاد من اختاروا الهداية ، بالمعونة وجعل بينهم وبين النار وقاية ، والحق سبحانه وتعالى يقول لرسوله :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحَبَّتْ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

أي أنك يا محمد لن تعين أحداً على الطاعة لأن هذا أمر يملكه ربك . ويقول سبحانه لرسوله :

﴿وَأَنَّكَ لَا تَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

أي أنك يا محمد تهدي هداية الدلالة بالمنهج الذي أنزله الله إليك .

إذن إذا رأيت فعلاً أو حدثاً مثبتاً لواحد ومتنبياً عنه . فاعلم أن الجهة منفكة ، والكلام هنا لحكيم عليم . ولماذا يقول الحق سبحانه :

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

(سورة الأعراف)

لأن الحق سبحانه وتعالى حين ينصرف عن معونة عبده، فعلى العبد أن يواجه حركة الحياة وحده بدون مدد من خالقه. ويعيش وحالته كرب، سواء كان في أسر مادي أو في عسر. هذا إن اعتبر أن الدنيا هي كل شيء، فإذا أضيق إلى ذلك غفلته عن أن الدنيا معبر للآخرة، فالحسارة تكون كبيرة حقاً.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ
أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

وذراً، بمعنى بث ونشر، وقد قال الحق سبحانه وتعالى في أول سورة النساء :

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾

كما يقول الحق أيضاً : ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ونعرف أن في الكون أشياء عابدة بطبيعتها وهي كل ما عدا الإنس والجن ؛ لأن كلا منهما في سلك الاختيار، وهم من يقول عنهم ربنا في سورة الرحمن :

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾

وذرنا معناها بثنا وتشنا وكثرنا، وكلمة كثير لا تعنى أن المقابل قليل، فقد يكون الشيء كثيراً ومقابله أيضاً كثيراً، والحق سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا سَجَدُوا لِلَّهِ كَثِيرًا وَنَادَّاهُ قَلِيلًا وَالَّذِينَ كَفَرُوا سَجَدُوا لِلَّهِ قَلِيلًا وَنَادَّاهُ كَثِيرًا لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِهِ الْكِتَابُ لَفُتِنُوا بِهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾
وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْأَنْبَاءُ

(من الآية ١٨ سورة الحج)

إذن كل الكائنات من جمادات ونباتات وحيوانات تسجد لله سبحانه وتسبحه، ولكن الأمر انقسم عند الإنسان فقط، حيث يقول الحق في ذات الآية :

﴿وَكثيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

أى هناك كثير يسجدون ويخضعون لله، ومقابل ذلك كثير كفروا ولم يسجدوا وحق عليهم العذاب. وإذا كان المولى تبارك وتعالى يقول :

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ﴾

فقد يشور في الأذهان سؤال هو :

هل أنت خالقهم يارب جهنم - ماذا يستطيعون إذن ؟ ولا شيء في قدرتهم مادمت قد خلقتهم لذلك ؟

ونقول : لا . ولنلق الأنظار إلى أن في اللغة ما يسمى «لام العاقبة»، وهو ما يؤول إليه الأمر بصورة تختلف عما كنت تقصده وتريده ؛ لأن القصد في الخلق هو العبادة مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

(سورة الذاريات)

ومعنى العبادة طاعة الأمر، والكف عن المنهى عنه، والمأمور صالح أن يفعل وألا يفعل، فالعبادة - إذن - تستدعى وجود طائع ووجود عاص، وأضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى ومنزه سبحانه وتعالى : يأتي لك من يروى لمحة من سيرة إنسان ويقول لك : لماذا يقف منك هذا الموقف العدائى، أليس هو الذى أخذته معك لتوظفه؟ فترد عليه : « زوعته ليقلعنى »، هل كان وقت مجيئك به كنت تريده أن يقلعك؟ لا . ولكن النتيجة والنهاية صارت هكذا .

والحق سبحانه لم يخلق البشر من أجل الجنة أو النار . لكنه عز وجل خلقهم ليعبدوه، فمنهم من آمن وأصلح فدخل الجنة، ومنهم من عصى فدخل النار وهذا اسمه « لام العاقبة »، أى ما صار إليه الأمر غير مرادك منه، ومثال ذلك حينما قال الله سبحانه لأم موسى :

﴿ فَإِذَا خِفْتُ عَلَى آلَيْهِمْ وَلَا تُحِاطُ بِأَعْيُنِنَا إِنَّا رَأَيْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُهُ مِنْ
الْمُرْسَلِينَ ۝ فَانْقَطَعُ رَأْيُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ۝ ﴾

(من الآية ٧ ومن الآية ٨ سورة القصص)

هل انقطعت آل فرعون ليكون لهم عدواً؟ لا، لأن زوجة فرعون قالت :

﴿ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ لَا تَقْلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ۝ ﴾

(من الآية ٩ سورة القصص)

فقد كانت علة الالتقاط - إذن - هى أن يكون قرة عين، لكنه صار عدواً فى النهاية، وهذا اسمه - كما قلت - لام العاقبة .

وهكذا لا تكون علة الخلق أن يدخل كثير من الجن والإنس النار، فى قوله الحق :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۝ ﴾

لأن علة الخلق فى الأصل هى العبادة، والعبادة تقتضى طائعا وعاصيا، فالذى يطيع يدخل الجنة، والذى يعصى يدخل النار، ولله المثل الأعلى، أذكركم بالمثل الذى

ضربته من قبل حين يسأل وزير التعليم مدير إحدى المدارس أو عميد كلية ما عن حال الدواصة والطلبة فيقول العميد أو المدير : إننا نعلم جيداً من هم أهل للرسوب ومن هم أهل للنجاح وإن شئت أقول لك عليهم وأحدد لهم . لم يقل العميد أو المدير ذلك لأنه يتحكم في إجابات الطلبة ، ولكنه علم من تصرفاتهم ما يؤولون إليه ، والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير . وعلى ذلك فإن قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾

يعنى أننا تشرنا وبثنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، وهم من يعرضون عن منهجنا ، ثم يأتي الحق بالحیثیات لذلك وهى أولا :

﴿لَمْ يَلْمُ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثانياً :

﴿وَلَمْ يَأْتِ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثالثاً :

﴿وَلَمْ يَأْذَنْ أَلْأَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ولقائل أن يقول : إن كانت قلوبهم مخلوقة بحيث لا تفقه فما ذنبهم هم ؟ . وما دامت عيونهم مخلوقة بحيث لا ترى فما ذنبهم ؟ وكذلك ما دامت الأذان مخلوقة بحيث لا تسمع فلماذا يعاقبون ؟ . ونقول : لا ، لم يخلقهم الله للعذاب ، لكنهم انشغلوا بما استحوزوا عليهم من شهواتهم ، وصارت عقولهم لا تفكر فى شىء غيره وتخطط فقط للحصول على الشهوة ، وكذلك العيون لا ترى إلا ما يستهويها ، وكذلك الأذان . وكل منهم يرى غير مراد الرؤية ، ويسمع غير مراد السمع .

والفرق بين فقه القلب ورؤية العين وسماع الأذن . . أن فقه القلب هو فهم القضايا التى تنتهى إليها الإدراكات ، ونعلم أن الإدراكات تأتى بواسطة الحواس

الخمسة، فنحن نعرف أن الحرير ناعم باللمس، ونعرف أن المسك رائحته طيبة بالشم، ونعلم أن العسل حلوا الطعم بالذوق.

إذن لكل وسيلة إدراك، وهي من المحسّات، وبعد أن تتكون المحسّات يمتلك الإنسان خميرة علمية في قلبه وتنضج لتصبح قضية عقلية منتهية ومسلماً بها.

وكلنا يعرف أن النار محترقة؛ لأن الإنسان أول ما يلمس النار تلسعه، فيعرف أن النار محترقة، ويتحول الإدراك إلى إحساس ثم إلى معنى. إذن فالمعلومات وسائلها إلى النفس الإنسانية وملكات الحواس الظاهرة، وهناك حواس أخرى غير ظاهرة مثل قياس وزن الأشياء بالحمل. وقد انتبه العلماء لذلك واكتشفوا حاسة اسمها حاسة العضل؛ لأنك حين تحمل شيئاً قد تجهد العضلة أكثر إن كان الحمل ثقيلاً.

وحينما ترى واحداً من قريب وواحداً من بعيد، فهذه اسمها حاسة البعد، وكذلك حاسة البين وهي التي تميز بها سمك القماش مثلاً.

كل الحواس - إذن - تربي المعاني عند الإنسان وحين تربي المعاني في النفس الإنسانية تتكون القضايا التي تستقر في القلب.

ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على خلقه بأنه علمهم فقال تعالى :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(سورة النحل)

ونعود إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾

والفقه هو الفهم، ويصير الفهم قضية مرجحة انتهى إليها الاقتناع من المرائي والمحسّات، لكن هؤلاء الكافرين لا يرون بأعينهم إلا هواهم، وكذلك لا تسمع

أَذَانَهُمْ إِلَّا مَا يَرُوقُ لَهُمْ ، فَلَا يَسْتَمْعُونَ إِلَى هَدًى ، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى الْآيَاتِ الَّتِي يَسْتَدْلُونَ بِهَا عَلَى الْخَالِقِ فَتَعِيشُ قُلُوبُهُمْ بِلَا فِقْهٍ ، فَهُمْ إِذَنْ لَهُمْ قُلُوبٌ وَأَعْيُنٌ وَأَذَانٌ بِدَلِيلٍ أَنَّهُمْ فَقَهُوا بِهَا وَسَمِعُوا بِهَا وَرَأَوْا بِهَا الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَرُوقُ لِأَنْحِرَافِهِمْ .

وَيَصِفُ الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَؤُلَاءِ فَيَقُولُ :

﴿ أَوَلَيْكَ كَلَّا لَنَنْعَمَ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

وهنا وقفة لإثارة سؤال هو : ما ذنب الأنعام التي يُشَبَّه بها الكفار ؟ إن الأنعام غير مكلفة وليس لأي منها قلب يفقه أو عين تبصر آيات الله أو أذان تسمع بها آيات الله . هي فقط ترى المرعى فتذهب إليه ، وترى الذئب فتفر منه ، وتعود على أصوات تتحرك بها ، وكافة الحيوانات تحيا بآلية الغريزة ، ويهتدي الحيوان إلى أموره النافعة له وإلى أموره الضارة به بغريزته التي أودعها الله فيه ، لا بعقله .

والإنسان منا لا يبتعد عن الضرر إلا حين يجبره ويجد فيه ضرراً . لكن الحيوان يبتعد عن الضرر من غير تجربة بل بالغريزة ، لأن الحيوان ليس له عقل وكذلك ليس له قدرة اختيار بين البدائل ، وفطره الله على غريزة تُسَيِّرُهُ إلى مقومات صالحة ، ومثال ذلك : أنه قد يوجد الحيوان في بيئة ما ، ويعطى الله له لوناً يماثل لون هذه البيئة ليحمي نفسه من حيوانات أقوى منه .

ومثال آخر : نحن نعلم أن الحيوان مخلوق ليضع الإنسان ، ولا بد أن يتناسل ليؤدي ما يحتاج إليه الإنسان من ذرية هذا الحيوان ويمارس الحيوان العملية الجنسية كوسيلة للتناسل وليست كما هي في الإنسان ، حيث تصير في بعض الأحيان غاية في ذاتها ، بجانب أنها وسيلة للنسل . ولذلك نجد كثيراً من ظواهر الحياة المتعلقة بالإنسان قد تعلمها من الحيوان مثلما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَبَعَتْ أَلْفُ غُرَابٍ يَحْتَثُّ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

إِذْنُ فَالْغُرَابُ مَهْدَىٰ يَغْرِيزُهُ إِلَىٰ كُلِّ مَتَطْلِبَاتِهِ ، وَلِلذَلِكَ نَجْمِدُ مَنْ يَقُولُ : كَيْفَ نَشْبِهُ الْفَضَالَ بِالْأَنْعَامِ ؟ نَقُولُ : إِنْ الْفَضَالُ يَخْتَلِفُ عَنِ الْأَنْعَامِ فِي أَنَّهُ يَمْلِكُ الْإِخْتِيَارَ وَقَدْ رَفَعَ فَوْقَ الْأَنْعَامِ ، لَكِنَّهُ وَضَعَ نَفْسَهُ مَوْضِعَ الْأَنْعَامِ حَيْثُ لَمْ يَسْتَخْذِمِ الْعَقْلَ كَيْ يَخْتَارَ بِهِ بَيْنَ الْبِدَائِلِ . وَبِذَلِكَ صَارَ أَضْلُ مِنَ الْأَنْعَامِ ، وَكَلِمَةُ « أَضْلٌ » تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ الْأَنْعَامَ لَيْسَتْ ضَالَّةً ، لِأَنَّهَا مَحْكُومَةٌ بِالْغَرِيزَةِ لَا اخْتِيَارَ لَهَا فِي شَيْءٍ . لَكِنَّ الْكَفَّارَ الَّذِينَ ذَرَأَهُمُ رَبُّنَا لِلْجَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ، لَا يَعْرِفُونَ رَبَّهُمْ ، بَيْنَمَا الْأَنْعَامُ ، وَالْجَمَادَاتُ وَالنَّبَاتَاتُ تَعْرِفُ رَبَّهَا لِأَنَّ الْحَقَّ يَقُولُ :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(مِنْ آيَةِ ٤٤ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ)

إِذْنُ فَالْأَنْعَامُ تَعْرِفُ رَبَّنَا وَتُسَبِّحُهُ وَتُحَمِّدُهُ . وَفِي آيَةٍ أُخْرَى يَقُولُ الْمَوْلَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ عَلِيمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ ﴾

(مِنْ آيَةِ ٤١ سُورَةِ النَّوْرِ)

وَعَلَىٰ ذَلِكَ فَكُلُّ الْجَمَادِ - إِذْنُ - يَعْلَمُ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .

وَلِلذَلِكَ قِصَصُنَا قِصَّةً مِنْ قِصَصِ الْعَارِفِينَ بِاللَّهِ حِينَ يَجْلِسُونَ مَعَ بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ كَوَسِيلَةٍ تَنْشِيطٍ إِلَىٰ غَايَاتٍ وَأَهْدَافٍ سَامِيَةٍ . وَالْعَارِفُ بِاللَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ يَسْتَقْبِلُ الْأَحْسَنَ مِنْهُ فِي الْعِبَادَةِ بِالضَّحْكِ ، أَمَّا الْأَحْسَنُ مِنْهُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا فَيَسْتَقْبِلُهُ « بِالنَّكْشِيرِ » ، وَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ لِأَخِي : أَتَشْتَاقُ إِلَىٰ رَبِّكَ ؟ فَرَدَّ عَلَيْهِ : لَا .

تَسَاعَدُ الْآخَرُ : كَيْفَ تَقُولُ ذَلِكَ ؟ .

قَالَ لَهُ : نَعَمْ . إِنَّمَا يُشْتَاقُ إِلَىٰ غَائِبٍ .

﴿ أَرَأَيْتَ كَمَا لَا نَعْلَمُ بَلَّ مِمَّنْ أَضَلَّ أَوْ لَيْتَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

(مِنْ آيَةِ ١٧٩ سُورَةِ الْأَعْرَافِ)

ولا تظن أن الضلال لعدم وجود منهج، أو لعدم مذكر، أو لعدم وجود
مُنذر أو مُبشِّر. بل هي غفلة منهم؛ فالأمور واضحة أمامهم، لكنهم يهملونها
ويغفلون عنها.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ
يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴾

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ نقول : إنه لا
يوجد لغير الله اسم يوصف بأنه من الحسنى، إن قلت عن إنسان إنه « كريم »،
فهذا وصف، وكذلك إن قلت إنه « حلیم »، وكلها صفات عارضة في حادث،
ولا تصير أسماء حسنى إلا إذا وصف الله بها. فأنت - مثلاً - لك قدرة تفعل
أفعالاً متعددة، ولله قدرة، لكن قدرتك حادثة من الأغيار، بدليل أنها تسلب
منك لتصير عاجزاً، أما قدرة الله تعالى فلها طلاقة لا يحدها شيء. فهي قدرة
مطلقة. وأنت قد تكون غنياً، لك غنى، ولله غنى، لكن ثراك محدود، وأما
لغنى الله فإنه غير محدود.

إذن الأسماء الحسنى على إطلاقها هي لله، وإن وجدت في غيره صارت
صفات محدودة مهما اتسعت.

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾

والحسنى . . تأنيث لكلمة « الأحسن » اسم تفضيل، وهي الأسماء الحسنى
في صلاحية الألوهية لها، وصلاحيتها للألوهية. وحين تقول عنه سبحانه : إنه
« رحيم »، فهذا أمر حسن عندي وعندك لأننى أنظر إلى رحمته لى، وأنت تنظر
إلى رحمته لك. وحين تقول : « غفار »، فأنت وأنا وكل من يسمعا تعود عليه.

وحين تقول : « قهار » وأنت مذنب ستخاف ، وهي صفة حسنى بالنسبة للإله ؛ لأن الإله لا بد أن تكون له صفات جمال وصفات جلال ، فصفات الجمال لمن أطاع ، وصفات الجلال لمن عصى . ولذلك لا تأخذ النعم بمدلولها عندك ، بل خذ النعم بمرادات الله تعالى فيها .

وساعة يتكلم الحق سبحانه وتعالى قائلاً :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكَ آيَةَ الثَّقَلَانِ ۖ قَبَائِلُ آلَاءِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ۝ يَمَعَشِرَ الْحَنَ وَالْإِنْسِ
 إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُلُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُدُوا لَا تَنْفُدُونَ إِلَّا
 بِإِذْنِ ۝ قَبَائِلُ آلَاءِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ۝ يُرْسِلُ عَلَيْكَ شَوَاطِدَ مِنْ نَارٍ وَخُمُوحًا
 فَلَا تُنصِرَانِ ۝ قَبَائِلُ آلَاءِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

فهل إرسال الشواظ من النار والنحاس نعمة يقول بعدها : « قبائِلُ آلَاءِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ؟ »

نقول : نعم ، هي نعمة كبيرة ، لأنه سبحانه وتعالى ينبهنا قبل أن توجد النار ، أن النار قوية ، ويعطى لك نعمة العظة والاعتبار . وعظته وتنبهه - إذن - قبل أن توجد النار نعمة كبرى ، وأيضاً هي نعمة بالنسبة للمقابل ، فحين يطعمه المؤمنون في الدنيا ويلزمون أنفسهم بمنهج الله ، فلهم ثواب حق الالتزام ، والمقابل لهم الذين لم يلتزموا وأخذوا الخروج عن المنهج غاية ، يتوعدهم سبحانه بالعقاب ، وهذه نعمة كبرى

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾

والحق سبحانه وتعالى عرفنا اسمه بالبلاغ منه ، لأننا قد نعرف مسماء من

القوى القادرة وهي التي تعرف بالعقل، لكن العقل لا يقدر أن يعرف الاسم .
وسبق أن قلت : لنفترض أن أناساً يجلسون في حجرة ثم طرق الباب . هنا
يجمع الكل على أن طارقاً بالباب، لكن حين دخلوا في التصور اختلفوا،
فواحد يقول : إن الطارق رجل، فيرد الآخر : لا إنها امرأة لأن نقرتها خفيفة،
ويقول ثالث : هذه النقرة على الباب تأتي من أعلاه وهي دليل على أن الطارق
ضخم، وهو نذير لأنه يطرق بشدة، ويختلف تصور كل الحضور عن الطارق،
ولا أحد يعرف اسمه . إذن حين تريد أن تعرف من الطارق، فأنت تسأله من
أنت ؟ فيقول لك « اسمه » .

إذن فإن الاسم لا يدرك بالعقل . ومن خلق الخلق كله قوى، قادر، حكيم،
عليم، لأن عملية الخلق تقتضي كل هذا . أما اسم الله . فهذه مسألة لا يعرفها
العقل وتحتاج إلى توقيف . إذن فأسماء الله تبارك وتعالى توقيفية، فحين يقول
لنا : هذه أسمائي فإنا ندعوه بها، وما لم يقل لنا عليه لا دعوة لنا به، ولذلك
يقول تعالى : ﴿ فادعوه بها ﴾

فإذا أنت نقلت هذا إلى غيره . فأنت تدعو بالأسماء الحسنی سواء، مثلاً
كذاب اليمامة مسيلمة سمي نفسه الرحمن، وبذلك ألحد في اسم الله حيث
نقل أحد أسماء ربنا إلى ذاته، ومثله فعل غيره، ألم يسموا « اللات » من الله
؟ . ألم يسموا « العزى » من العزيز ؟ . ألم يسموا « مناة » من المنان ؟ . كل
هؤلاء ألحدوا في أسماء الله التي لا ندعو غيره بها، ولذلك ورد عنه صلى الله
عليه وسلم قوله في دعائه : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمك تاصيتي
بيدك ماض في حكمك، عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك، سميت
به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في
علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء همي وذهاب
حزني وغممي (١) .

إذن فهذه الأسماء وضعها ربنا لنفسه، لأنها لا تعرف بالعقل . أما إذا نظرت
إلى الأوصاف المبدعة للخلق فأنت تتعرف على هذه الأوصاف، لأنه تعالى
(١) رواه الإمام أحمد في مسنده وابن حبان والماكر في المستدرک .

خلق الكون بحكمة وتدير وقدره. وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - نحن نؤسس مصانع كثيرة وكبيرة لتصنع المصابيح، فنصنع زجاجاً ونفرضه من الهواء، ونضع داخله أسلاكاً تتحمل ذبذبة الكهرباء، وبعد استخدام هذه المصابيح لفترة تفسد، بينما الشمس تضيء الكون كل هذا العمر، من بدء الخلق، ولا تحتاج منا إلى قطعة غيار.

وحين نقول هو: «حكيم»، نقولها ونرى أثر ذلك في حركة الكواكب التي تسير منسجمة، وكل كوكب يدور في فلكه ولا يصطدم بآخر، وهذا دليل على أن الكواكب قد خلقت بحكمة.

وينبها الحق سبحانه وتعالى أن ندعوه بالأسماء الحسنى في قوله: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ لأنه يريد من خلقه دائماً أن يذكره؛ لأنه هو الرب الذي خلق من عَدَم، وأمد من عَدَم. وصان الخلق بقيومية، وحين تأتي لك حاجة وجب عليك أن تذكر أسماء الله الحسنى وتنادي الله بها، وحين تريد أن تتقرب إلى الله لا تناديه إلا بالاسم الذي وضعه لنفسه وهو «الله»، لأن هذا هو اسم علم على واجب الوجود، وأسماء الله الحسنى كلها صفات وصلت إلى مرتبة الأسماء، وهناك أسماء تدل على مجموع الصفات.

ولله المثل الأعلى: أنت تقول: «زيد» فيعرف السامع أن هذا اسم علم على شخص اسمه زيد، ثم له صفات أخرى، كأن يكون تاجراً، أو عالماً متفهماً في العلم، أو مهندساً. لكن الاسم العلم هو زيد وهو الذي لا يشترك معه أحد من معارفك فيه وهو زيد، لكن الصفات الأخرى قد يشترك معه فيها غيره.

والأسماء لله نوعان، اسم يدل على ذات الله، الذات المجردة عن أي شيء وهو الله، ولكن هناك صفات لله مثل الرحمن والرحيم والملك والقدوس والسلام والمؤمن والمهيمن، وهذه صفات ارتقت في السمو والعلو لأنه لا أعلى منها، حتى أصبحت إذا أطلقت إطلاق الكمال الأعلى لا تنصرف إلا لله. فصارت أسماء.

قد نقول فلان غني، وفلان كريم، وفلان حكيم، لكن الغنى على إطلاقه هو لله تعالى.

والأسماء الحسنی ناشئة من صفات مبالغة فی العلو فیها ، لأنه سبحانه الأكمل فیها وهی فی الأصل صفات لها متعلقات فعلية ، وهذه نوعان اثنان : نوع يطلق علی الله منها اسم ومقابله ، ونوع يطلق علیه الاسم ولا يطلق علیه المقابل ، ونأتی بصفة شبيهة بالاشتقاق ، فنقول : « غنی » ، ونقول : « مغنی » فهو غنی فی صفة ذاته قبل أن یوجد من یغنیه ، ومغنی وجدت بعد وجود من یغنیه من عباده ، وسبحانه حی فی ذاته ، ومحیی لغيره ، والإحیاء صفة فعل فی الغير . ولا بد لها من مقابل ، فنقول : محیی وممیت . ولم نقل حی ومقابله ، إذن فالاسم الذی ترى له مقابلاً هو صفات الفعل ، أما صفات الذات فهی التي لا یوجد لها المقابل . ویلحدون فی أسماء الله أی یُملونها إلى غیر الله ینقلها الواحد منهم لغير الله أو یأتی باسم للغير ویطلقه علی الله ، أو يطلق اسماً لیس له معنى أو لا یفهم منه أی معنى علی الله . إذن " الإلحاد " یأتی فی ثلاثة أشياء : إما أن ینقل أحد أسماء الله إلى غیر الله ، أو یأتی باسم للغير ویطلقه علی الله ، أو يطلق اسماً لله من غیر أن یشعر أنه قد أنزله الله توفیقاً .

﴿ وذروا الذین یلحدون فی أسمائه سيجزون ما كانوا یعملون ﴾

وتعلم أن " العمل " هو اسم للحدث من أی جارحة ؛ فنطق اللسان عمل ، وشم الأنف عمل ، وتعلم أن هناك ما یسمى بـ [قول وفعل] ، والفعل عمل الجوارح ما عدا اللسان ، والقول عمل اللسان ، والاثنان يطلق علیهما عمل ، ولذلك یقول الحق : تبارک وتعالی فی سورة الصف :

﴿ لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

إذن فالقول مقابله الفعل ، والجزاء هنا علی الفعل والقول لأن کلّهما عمل . وإذا كان لله أسماء كثيرة ، فهل یجوز لنا أن نأخذ من فعل الله فی شیء اسماً له ؟ وخصوصاً أنه القائل :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾

وهو القائل أيضاً :

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

هل يمكن أن نقول : إن الله معلم ؟ وهل يصح أن نأخذ من قوله :

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾

(سورة الطارق)

اسماً هو كائد ؟

لا يجوز ذلك لأن أسماء الله توقيفية ، وإن رأيت فعلاً منسوباً لله فقف عند الفعل فقط ولا تأخذ منه اسماً لله تعالى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ

يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

وبعد أن قال سبحانه : " ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس " أراد أن يطمئن أهل منهج الله ، فلم يقل : " كل الناس " ، بل كثير من الجن والإنس " ، وعرفنا المقابل يكون كثيراً أيضاً بدليل قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ أى كثير من الناس يسجدون لله وكثير حق عليهم العذاب .

ويعنى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

(سورة الأعراف)

أن كون الله لا يخلو من هداة مهدين ، لتستمر الأموة السلوكية في المجتمع .

والأسوة السلوكية في المجتمع هي التي تربي عقائد المواجهين عند الصغار ،
فالصغير لا يعرف كيف يصلي ، ولا كيف يصوم ، ولا يميز بين الكذب
والصدق ولكنه يتعلم بالتقليد لوالديه ، فالطفل حين يرى والده وأمه ساعة
يؤذن للصلاة يقوم كل منهما إلى الوضوء وأداء الصلاة ، هنا يتعلم الطفل كيفية
الصلاة ، وحين يتكلم إنسان في سيرة آخر ، يقول الأب أو الأم : لا داعي
للخوض في سيرة الآخرين حتى لا نحبط حسناتنا ؛ بذلك يتعلم الطفل كيف
يصون لسانه عن الخوض في سيرة الغير ، لأن الأسوة السلوكية تنضج عليه ،
بدليل أن الصغير الذي لم يبلغ مبلغ الفهم إذا سمع المؤذن بعد ذلك يقوم من
نفسه ليحضر سجادة الصلاة ويقلد والده ووالدته.

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ وبه يعدلون ﴾

إنهم في حكمهم على الأشياء يقيمون العدل بالحق ، أو أن يكون العدل هو
نفي الشرك ، وقد يكون العدل في مسألة الكبائر ، أو يقيمون العدل في مسألة
الحقوق بين الناس.

﴿ وعن خلقنا أمة ﴾

وقوله في الآية الكريمة : " أمة " يعني أن صفات الكمال المنهجية أكثر من أن
يحيط بها واحد لينفذها كلها ، فكل واحد له جزء يقوم به ، فهناك من يتميز
بالصدق ، وآخر في الشجاعة ، وثالث في الكرم ، وهكذا تبقى الأسوة في
مجموع الصفات الحسنة ، وقد ميز الله سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه
السلام - فقال :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٣١ ﴾

(سورة النحل)

أي أنه جامع لخصال الخير التي لا توجد إلا في مجتمع واسع ،

﴿ وعن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

وأى أمة من أمم الأرض - إذن - هى التى تهذى بالحق ؟ لقد قال سبحانه فى قوم موسى :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الأعراف)

ثم جاءت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا رسول بعده ، لذلك نظل هذه الأمة المسلمة مأمونة على صيانة منهج الله إلى قيام الساعة .

فإذا رأيت إلحاداً انتشر فاعلم أن لله مدداً ، وكلما زاد الناس فى الإلحاد ، زاد الله فى المدد ، وحتى إن صارت بلد مسلمة غارقة فى الفسق فقد يكون فيها واحد يجمع كل هذه الصفات الكريمة الهادية إلى الحق لتبقى شريعة الله مصونة بالسلوكيين التابعين لمنهج الله .

إذن فالحق سبحانه وتعالى ترك للفساد أن يصنع الشر ، ولسائل أن يسأل : ما لزوم هذا الشر فى كون خلقه الله على هيئة محكمة ؟ نقول ! لولا أن الناس يضارون بالشر ؛ لما تنبهوا إلى حلاوة الخير ، ولو أن الإنسان لم يصب من أصحاب الباطل بسوء ؛ ما تحمس للحق أحد ، ولا عرف الناس ضرورة أن يتأصل الحق فى الوجود ، فللشر - إذن - رسالته فى الوجود . وهو أن يهيج إلى الخير ، فكما ذرأ الله لجهنم كثيراً من الجن والإنس ؛ أوضح سبحانه وتعالى فى قوله : « وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ، وَبِهِ يَعْدِلُونَ » فى الحكم ، عدلاً فى القمة ؛ وهو ألا يشركوا بالله شيئاً ، لأن أول مخالفة لقضية العدل هى مخالفة الشرك وهو ظلم عظيم ، فالشرك والعباد بالله ينقل الأمر من مستحقه إلى غير مستحقه ، وكذلك تحريم ما أحل الله ، أو حل ما حرم الله ، وكل ذلك ظلم ، وكذلك عدم حفظ التوازن فى الحقوق بين الناس ، فإن لم يحصن العدل بحفظ الحقوق بين الناس من حاكم وولى ومسلط ؛ منجد كل إنسان وهو يضمن بجهده فى الحياة يكتفى بأن يصنع على قدر حاجته بحيث لا يترك للظالم أن يأخذ منه شيئاً ، فلا يتحرك فى الحياة إلا حركة محدودة ، ولا يعمل إلا بقدر ما يكفيه فقط ، فإذا ما حدث ذلك ؛ فلن يجد الضعاف الذين لا يقدرون على الحركة الإنتاجية أى فائض ليعيشوا به .

إذن أراد الله أن يضمن بالعدل عرق وتعب كل واحد ، فأوضح له أن ما تكسبه من حل هو ملك لك . لكن لله حق فيه ، وأنت لك الباقي ، حتى يجد الضعيف الذي لا يقدر على حركة الحياة من يقبته . ولذلك يحذرك المنهج الإيماني بقوله : إياك أن تستكثر أن تدفع للضعيف ، لأن قوتك التي استعملتها في تحصيل هذا المال إنما هي عرض لا يدوم لك ، فإن أخذنا منك وأنت قوى قادر على الحركة ، ستأخذ لك حينما تكون عاجزاً لا تقدر على الحركة ، وذلك هو التأمين والعدالة .

وبالنسبة للأمة في تلك الآية ﴿ ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

فقد جاء في الآثار أن المراد بالأمة في هذه الآية الأمة المحمدية ، قال قتادة : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إذا قرأ هذه الآية : هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون^(١)

ويخاطب النبي صلى الله عليه وسلم صحابته بقوله : هذه لكم ، أي في أمثكم ويؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

وكلمة " للناس " هنا تفيد أن الله لم يجعل خيرية الأمة المحمدية وهي أمة الإجابة للمؤمنين فقط ، بل جعل خيريتها للناس جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم .

﴿ ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

وذكر " أمة " لأن خصال الخير لا يمكن أن تجتمع في إنسان واحد ، بل كل واحد يأخذ لمسة من خير ، هذا فيه ذكاء ، وذلك فيه شجاعة ، وذلك عنده مال ، وذلك له خلق . فكان الأمة المحمدية قد وجد في أفرادها ما يجمع المواهب

(١) تفسير ابن كثير المجلد الثاني، والطبري المجلد السادس.

الصالحه للخلافة فى الأرض.

ويأتى الحق بعد ذلك بمقابلهم ، لأن مجيء الشىء بمقابلته أدعى إلى أن يتمكن من النفس فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

وهؤلاء هم المقابلون للذين خلقهم الله أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، والآيات جمع آية ، وقلنا : إن الآيات التى فى الكون ثلاث ؛ آيات تنظرها لتتهدى بها إلى من صنع ذلك الكون المترامى الأطراف بتلك الدقة العظيمة ، وذلك الأحكام المتقن ، آيات تلفتك مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، وكذلك آيات تخرق ناموس الكون لتثبت صدق الرسول بالبلاغ عن الله ، وآيات قرآنية تحمل منهج الله ، والذين كذبوا بآيات الله الكونية ولم يعتبروا بها ، ولم يستنبطوا منها وجود إله قوى قادر حكيم ، وكذبوا الآيات المعجزات لصدق النبوة ، وكذلك كذبوا آيات القرآن فلم يعملوا بها ، ولم يتمسكوا بها ؛ هؤلاء يلحقون بالحكم من الله قلن يدخلهم الحق النار فقط ، بل لهم عذاب أقرب من ذلك فى الدنيا ، لأن المسألة لو أجلت كلها للآخرة لاستشرى بغى الظالم الذى لا يؤمن بالحياة الآخرة ، لكن من يؤمن بالآخرة هو من سيمحيا بأدب الإيمان فى الكون ، وتكون حركته جميلة متوافقة مع المنهج ، عكس من يعربد فى الكون ؛ لذلك لا بد أن يأتى العقاب لمن يعربد فى الكون أثناء الحياة الدنيا ، وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

أى أن لهم عذاباً قبل الآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك عن العذاب فى الدنيا :

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا مِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُونَ﴾

وحين تقول : أنا استدرجت فلانا ، فأنت تعنى أنك أخذت تحتال عليه حتى يقر بما فعل ، مثل وكيل النيابة حين يحقق مع المجرم ، ويحاصره بالأسئلة من هنا ، ومن هناك ، إلى أن يقر ويعترف ، وهذا هو الاستدراج . و " الاستدراج " من الدرج ونسميه فى لغتنا اليومية " السلم " وهو وسيلة للانتقال من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل فمن المستحيل على الإنسان أن يقفز بخطوة واحدة إلى الدور الخامس مثلاً فى عمارة ما ، ولذلك صمموا الصعود على درجات إلى مستويات متعددة على وفق الحركة العادية للنفس ، وهناك من يجعل علو الدرجة مثلاً اثنى عشر مستقيماً بحيث يستطيع كل إنسان أن يرفع قدمه ويضعها على الدرج دون إرهاق النفس ، وهذا يعنى أننا نستدرج العلو لتصل إليه أو نترل منه .

وقد خصوا فى الآخرة الجنة بالدرجات العليا ، والنار بالدركات السفلى .

وهنا يقول الحق :

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايُنِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

(سورة الأعراف)

أى نأخذهم درجة درجة ، ونعطى لهم نعمة ثم نرهبهم بها وصلوا إليه ، كما قال سبحانه من قبل :

﴿حَقِّقْ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

لأن الله حين يريد أن يعاقب واحداً على قدر جرمه فى حق أخيه الإنسان فى الدنيا يأخذه من أول جرم ؛ لأن الأخذ فى هذه الحالة ستكون لينت ، لكنه يملئ له ويعليه ثم يلقى من عل .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَفَتَحْنَا عَلَيْهِمُ ابْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ وَخَلَّوْا حُرًّا بِمَا آوَوْا وَاتَّخَذْتَهُمْ
بَغْتَةً ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الانعام)

وهكذا يكون الأخذُ أخذ عزيز مقتدر.

وحين يستدرج البشرُ، فإن الطرف المستدرج له أيضا ذكاء، ويعرف أن هذا نوع من الكيد وقع منصوب له، لكن حين يكون ربنا القوي العزيز هو الذي يستدرج فلن يعرف أحد كيف يفلت. والعلة في قوله: "سنستدرجهم" هي قوله: ﴿من حيث لا يعلمون﴾؛ لأن البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾

والإملاء هو الإمهال وهو التأخير، أي أنه لا يأخذهم مرة واحدة، فساعة يقوم الفاسد بالكثير من الشر في المجتمع، نجده أهل الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات، ونسمع دائماً من يقول: لو لم يكن هناك إيمان لأكل الناس بعضهم بعضاً، فالإيمان يعطي الأسوة واليقين. والإملاء للظالم الكافر ليس إمهالاً له من المولى تعالى، بل هو إمهال فقط، ثم يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وهنا يوضح الحق: إذا كنت سأستدرج وسأملئ فاعلم أن كيدي متين. والكيد هو المكر، والمكر أخذهم من حيث لا يشعرون وهو عملية خفية تسوء المكور به.

وهو تدبير خفي حتى لا يملك المكور به ملكات الدفع، وإذا كان البشر يمكرون ويدبرون تدبيراً يخفى على بعضهم، فماذا حين يدبر الله للكافرين مكيده أو مكرأ؟ أيستطيع واحد أن يكشف من ذلك شيئاً؟ طبعاً لن يستطيع أحد ذلك. هذا هو معنى ﴿إن كيدي متين﴾؛ ومتين أي قوى، والمتانة مأخوذة من المتن وهو الظهر، ونعرف أن الظهر مكوّن من عمود فقرى وفقرات عظمية، تحيط بها عضلات، فلو كان العمود الفقري من عظم فقط لكان

أى حمل عليه يكسره. فشاءت تهنيتاً ربنا عز وجل واقتضت رحمته وقدرته أن يحاط هذا العظام بعضلتين كبيرتين، وهما مانسميه في عرف الجزارين "الفلتو" لحماية الظهر وتقويته ووقايته.

وإذا نظرنا إلى كلمة "متين"، نجد "المتن" هو الشيء العمودى فى الأشياء، وفى العلم مثلاً ندرس الفقه وندرس النحو، ويقال: هذا هو المتن فى الفقه، أى الكلام الموجز الذى يختزل العلم فى كلمات محددة، والذى هو من يستوعبه. وغالباً نجد مع المتن الموجز شرحاً للمتن، ثم حاشية للمتن.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ
إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

وهنا ينبه الحق سبحانه وتعالى كل الخلق أن يتفكروا فى أمر الرسول المبلغ الذى ينقل عن القوة العليا مرادها من الخلق. وأول ما يستحق التفكير فيه أن نعرف هل هذا الإنسان الذى يقول إنه رسول صادق أو غير صادق؟ ولقد ثبت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل نزول الرسالة عليه، وجاءت الرسالة لتأخذ بيد الخلق إلى الإيمان بالله، لكنهم لا يريدون أن يسمعوا، ليوجدوا لأنفسهم مبررات بالنكوص عن المنهج، فقال بعضهم اتهاماً للرسول: إنه مجنون، مثلما قال بعضهم من قبل: إنه ساحر، وكاهن، وقالوا: شاعر، ويرد ربنا على كل تلك الأقاويل.

ونتساءل: من هو المجنون؟

نعلم أن المجنون هو من فقد التوازن الفكرى فى الاختيار بين البدائل، وحين يأخذ الله منه هذه القدرة على اتوازن الفكرى، يصبح غير أهل للتكليف؛ لأن التكليف فيه اختيار أن تفعل كذا أو لا تفعل كذا، والمجنون لا يملك القدرة على هذا الترجيح.

والحق سبحانه وتعالى لم يكلف الإنسان إلا حين يبلغ ويعقل ؛ لأنه حين يبلغ تصير له ذاتية مستقلة عن أهله وعن أبيه وأمه ؛ لذلك نلاحظ الطفل وهو صغير يختار له والده أو والدته الملابس والطعام ، ويعد أن يكبر نجد الطفل قد صار مرافقاً يتمرد ويقرر أن يختار لنفسه ما يريد لأنه قد صارت له ذاتية ، والذاتية - كما نعلم - توجد في النبات وفي الحيوان والإنسان وذلك بمجرد أن يصير الفرد منها قادراً على إنجاب مثله ، سواء كان هذا الفرد من النبات أو الحيوان أو الإنسان. أما إن كان الإنسان قد صارت له ذاتية في الإنجاب والنسل ، وليست له ذاتية ناجحة عاقلة في التفكير ؛ فهذا يسقط عنه التكليف ؛ لأنه مكره بفقدان العقل.

وهكذا نعرف أن التكليف يسقط عن الذي لم يبلغ ، والمجنون والمكره بمن هو أقوى منه ، وهذه عدالة الجزاء من الحق ، وهكذا نجد أن التكليف لا يلزم إلا من بلغ جسمه ونضج عقله ، وبهذا يحرس ربنا الكون بقيوميته .

وإذا كان المجنون هو فاقد الميزان العقلي الذي يختار بين البديلات ، فكيف يقولون ذلك على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وهو قد عاش بينهم ، ولم يكن قط فاقداً لميزان الاختيار بين البديلات ، بل كانوا يعتبرونه الصادق الأمين ، وكانوا يحفظون عنده كل غل نفيس لهم حتى وهم كافرون به . وخلقته الفاضل ذاتي مستمر ودائم .

لقد قالوا ذلك على محمد ظلماً له ، وبغور عائية ، وكل واحد يلقي اتهاماً ليس له من الواقع نصيب ؛ لذلك قال الحق تبارك وتعالى لأصحاب هذه الاتهامات :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيكُمْ بِرَحْمَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئٍ وَقَرَأْتُمْ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جُنَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة سبا)

أى أن يجلس كل اثنين ويتدارسا : هل محمد عاقل أم مجنون ؟ وسيجد كل منهما من واقع تجربته أن محمداً هو أكثر الناس أمانة ، وكان الجميع يسمونه

الأمين ، حتى قبل أن يتصل به الوحى ، وليس من المعقول أن يضره الوحى ،
أو أن يفقد بالوحى توازنه الخلقى ، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ تَبَّ وَآلَقِلْمٌ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَأَبْرَأٌ
غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾

(سورة القلم)

كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقاً عظيماً ، لأن الخلق هو
الصفات التى تؤهل الإنسان لأن يعيش فى مجتمع سليم وهو مسالم . وما دام
خلقاً سليماً ، فمعيار الحكم عنده سليم .

وبعد ذلك قالوا عنه : إنه " ساحر " ، ونقول لهؤلاء : لماذا إذن لم يسحر
كبار رجال قريش ليؤمنوا برسالته ؟ إن كل ذلك جدل خائب ، والمسألة ليس
فيها سحر على الإطلاق .

﴿ أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين ﴾

الجنة التى تقولون عليها وتفترون بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم -
هى منتهى العقل ومنتهى الخلق ، فمحمد صلى الله عليه وسلم نذير واضح ،
جاءكم أولاً بالبشارة ، لكنكم فى غيكم لا تستحقون البشارة ، بل تستحقون
الإنذار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ فِي آيٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾

وبذلك ينتقل الجدل من الرسول المباشر لهم الذى يأخذ بيدهم إلى الإيمان
الأعلى ، ينتقل الجدل إلى التفكير ومستوليته :

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

والتفكر هو إعمال العقل حتى لا يقولنَّ أحد : إن رسول الله مجنون ، لأن مجرد النظر في الكون يجعل الإنسان راثياً للسماء مرفوعة بلا عمد ، والأرض مبسوطة والهواء يتحرك في انتظام دقيق .

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

إذن فوقنا سماء ، وهناك ما فوق السماء ، وتحتنا الأرض ، وفيها ما تحت الأرض ، وهناك ما بين السموات والأرض . وما نراه في الظاهر هو ما يسمونه « مُلْكٌ » أما الخفى عنك الذى لا تقدر أن تصل إليه بمعادلات تستخرج منها النتائج فاسمه « ملكوت » .

ويقول سبحانه في سيدنا إبراهيم :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنعام)

فكلمة « ملكوت » معناها مبالغة في الملك ، مثل رهبوت أى الرهبة الشديدة ، ورحموت أى الرحمة الشديدة ، وكلها صيغة « فعلوت » وهى صيغة المبالغة .

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾

ونحن نرى السماء والأرض بوضوح ، ولكن العظمة والسر ليسا فى السماء والأرض فقط ، بل هناك أشياء دقيقة جداً ، بلغت من اللطف أنها لا تدرك بالنظر ، ومع ذلك فإن فيها الحكمة العليا للخلق . وأنت قد ترى ساعة « بيج بن » الشهيرة فى لندن وتكاد أن تكون أضخم ساعة فى العالم ، لكن الصانع المحترف من البشر صنع ساعة يد صغيرة فى حجم الخاتم ، ونبهر ونعجب بدقة عمله وصنعتة . فما بالناس بالخالق الأعظم الذى يعظم خلقه من السموات والأرض لأنها فوق إدراكات البشر ، وخلق أيضاً مخلوقات دقيقة لطيفة

لا نستطيع أن تدركها أنت بمجرد النظر، كالميكروب، أو تدركها بصعوبة كالذبابة والبعوضة ويكل هذه الكائنات كل مقومات حياتها، حتى لكائن الذي لا معدة له يجهزه خالقه بقدرة على امتصاص الدماء مباشرة بعقله أو غريزته ويسعى ليأكل ويملا معدته وله أجهزة تحول غذاؤه ليكون دماً.

إذن فليست العظمة مقصورة على خلق السموات والأرض فقط، لذلك يقول الحق:

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ أَفْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

يُؤْمِنُونَ

أى من أول شيء يقال له شيء، صار محكوماً عليه وجودياً، بأنك إن نظرت إليه ستجد الأجهزة التي تعطى له الحياة، وتعينه، حتى وإن كانت حواس استشعارية فى ذات هذا الكائن، ولا يقوى عليها صاحب العقل. مثال ذلك: نجد أن ما يفر قبل حدوث الزلازل هو الحمير التي تنهمها بالغباء.

وحين يتأمل العقل ما وصل اليه العلم فى البحث فى عالم الحيوان وعالم البحار، ستجد الإيمان بضرورة وجود خالق حكيم. وإن كان الكافرون مصروفين عن النظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من كائنات قد لا تراها العين المجردة، كان عليهم أن يراعوا مصلحتهم فعسى أن يكون قد اقترب أجلهم.

إننا نعلم أن لإنسان جنس، وأن له نوعين: نوع ذكورة، ونوع أنوثة، وبينهما جنس مشتبه نسميه الخنثى، والأجناس لها أفراد متعددة. وكل واحد له خلق، وكل واحد له موهبة، وكل واحد له مهمة. وساعة يطلب منا الحق: إياك أن تستصغر شيئاً منك ضد غيرك، وإياك أن تستكثر شيئاً منك لغيرك، ويجب عليك أن تجعل كلمة «شيء» هذه هى المقياس، ولذلك يقول لك الشرع: إنك حين تقدم حسنة إياك أن تستكثرها، بل قل هى ليست بشيء ذى بال. وإن هم واحد يعمل سيئة فلا يقل: وماذا ستفعل لى سيئة واحدة؟

مستصغراً شأن هذه السيئة . وهذا نقول له : لا ، لأن كلمة « شيء » يجب أن تحكم الكون . إنك إن نظرت لهذه المسألة قد تجد واحداً مثلاً ضئيل التكوين ، ولا بسطة له في جسمه ، لكن من الجائز أن له موهبة كبيرة ، وقد تجد إنساناً آخر متين التكوين وليست عنده أية موهبة ؛ لأن الله قد يعطى الضئيل فكراً عميقاً ، أو حيلة كبيرة ، أو موهبة خاصة في أي شيء . فلا تنظر إلى شيء قليل في أي إنسان ، بل انظر إلى الشيء الجميل الذي فيه وهو المخفى عنك في نفسك .

﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾

ولماذا تأتي هنا حكاية اقتراب الأجل ؟ وللإجابة عن التساؤل أقول : إنها هامة جداً ؛ لأننا مادمت أفراداً أي جنسين أو ثلاثة أجناس ، وقال عنا ربنا إننا خلفاء في الأرض ، فعلينا أن نعلم أن الخليفة في الأرض جاء ليخلف من سبقوه ، وقد يُميت ربنا أي إنسان في سن شهر أو سنة ، أو سنتين أو خمسين عاماً ؛ لأن العمر بالنسبة لكل إنسان هو أمر قد اختص به الحق - تبارك وتعالى - نفسه ولا يعلمه أحد ؛ لأن غاية المتساوي لا بد أن تكون متساوية ، وعلى سبيل المثال : إن سألنا طلبة كلية الحقوق عن غايتهم من دراسة الحقوق قالوا : لنيل إجازة الليسانس ، وسنجد منهم الطويل ، والقصير ، والأبيض ، والأسود ، والذكى والغبي ، والقوى والضعيف ، وهم لا يتفكرون إلا على دراسة الحقوق ، وكذلك لا نتساوى جميعاً كبشر إلا أمام الموت ، فهناك من يموت وهو في بطن أمه ، ومن يموت وهو طفل ، ومن يموت وهو فتى . وإن كنا نختلف فيما بقى بعد ذلك ، والمؤمن أو الكافر يرى هذه الأحداث أمامه ولا يستطيع أن يقول : لا لن أموت .

وعادمت ستموت فانظر إلى مصلحتك أنت ، لثاب على ما فعلت في الدنيا بدلاً من أن تعاقب ، فعسى أن يكون قد اقترب أجلك وأنت لا تعرف متى يجيء الأجل ، وإبهام الأجل من الله لنا إشاعة للأجل ، والإبهام هو أوضح أنواع البيان ، فحين يريد ربنا أن يوضح أمراً توضيحاً كاملاً فهو يبهمه .

ومثال ذلك : لو جعل الله للموت سناً ، لصار الأمر محدداً بلا أمل ، لكنه

سبحانه لم يجعل للموت سنّاً أو ميّناً، وأشاعة في كل زمن، والإنسان عرضة لأن يستقبل الموت في أى لحظة، ونزول الموت لا يتوقف على سبب، فقد يأتي بسبب وقد يأتي بغير سبب، وما دام الإنسان يستقبل الموت في أى وقت، فعلى العاصي ألا يستقبل الموت وهو على عصيان لله.

وإياك أن تقول: كيف مات فلان وهو غير مريض؟ لأن هناك العديد من الأسباب للموت، واعلم أن الموت بدون أسباب هو السبب، فالإنسان الذي نفقده بالموت، مات لأن أجله قد انتهى، والحق هنا يوضح: أيها الكافرون ألا تعلمون أن منكم من مات وعمره سنة ومن مات وعمره ستان، ومن مات وعمره ثلاث سنوات، ومن مات وهو ظالم، ومن مات وهو مظلوم، ولو لم تكن هناك حياة ثانية فماذا تسارى هذه الحياة؟ وما ذنب الذي لم يعيش في الدنيا إلا شهراً؟ لا بد إذن أن تعرفوا أن هناك غاية ثانية تنتظركم، غايات فردية هي آجال الناس بذواتهم، وآجال إجماعية تمثل في يوم القيامة.

وفي قوله تعالى ﴿فَبَأَىٰ حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

يوضح الحق تبارك وتعالى: أنه إذا كان هذا الحديث الذي أنزلته إليهم وفيه ما فيه من الإعجاز ومن الإبداع، ويجمع كل أنواع الكمالات، فماذا يريدون أكثر من ذلك؟

وهل في اتباعهم للأهواء ولتقنيات بعضهم لبعض سعادة لهم؟ بالعكس إنهم يشقون بذلك. وكان يجب عليهم أن يتأدبوا مع الله ومع الرسول.

ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ لَهُ يُرِيدُ لَهُمْ

فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٨٦)

وقد كرر الحق هذا التحذير كثيراً؛ لأن الأشياء التي قد يقف العقل فيها، أو تأخذ مذهب الحياة منها، ويكررها الله، ليجعلها في بؤرة الاهتمام دائماً، لعل هذا التكرار يصادف وعياً من السامع. وانظر إلى الحق وهو يعدد نعمه في سورة الرحمن فيقول بعد كل نعمة:

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾

إنه يكرر ذكر النعم ليستقر الأمر في ذهن السامع.

﴿ من يضل الله فلا هادي له ﴾

وسبحانه لا يرغب واحداً على أن يهتدى، فإن اهتدى فلنفسه، وإن لم يهتد فليشرب مرارة الضلال.

وكلنا يعرف أن الطبيب يكتب أسلوب العلاج للمريض، ليتم الشفاء بإذن من الله، الدواء إذن وسيلة إلى العافية، فإن رفض المريض تناول الدواء فهل في ذلك إساءة للطبيب؟ لا. وكذلك منهج الله.

﴿ من يضل الله فلا هادي له ﴾

لكن هل يريد الله الضلال لأحد، لا، بل سبحانه دعا الناس جميعاً بهداية الدلالة، فمن اهتدى زاده بهداية المعونة، ومن ضل فليذهب إلى الكفر كما شاء. ولذلك يقول لنا الشرع: إياك أن تشرك بالله شيئاً في أي عمل؛ لأن ربنا يقول لنا في الحديث القدسي الذي يرويه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه فيقول: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه ﴾ (١)

ومعنى الشراكة في عرف البشر، أن مجموعة من الناس عرفوا أن عمل كل منهم ومال كل منهم، وموهبة كل منهم، لا تكفي لإقامة مشروع ما، لذلك يكونون شركة لإنتاج معين، فهل هناك ما ينقص ربنا ليستكمل من آخر؟ حاشا

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في باب تعزيم الربا.

لله . بل إن مجرد توهم العبد بأن هناك شريكاً يجعل الله رافضاً لعبادة العبد المشرك . لذلك يقول في الحديث القدسي : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه» . ومادام ربنا قد تنازل عن رعايته له فليتلق المتاعب من حيث لا يدري .

ومن قوله تعالى :

﴿ من يضل الله فلا هادي له ﴾

نستبين أنه حين يحكم الله بضلال إنسان أو بهداية آخر فلن يستطيع البشر أن يعدل على الله ، ليجعل شيئاً من ضلال هو هدى ، أو شيئاً من هدى هو ضلال .

كما يتضح من تلك الآية الكريمة أن من فنى قلوبهم مرض بزيدهم الله مرضاً ويتركهم فى طغيانهم يعمهون ، والعمه هو فقدان القلب للبصيرة ، والعمى هو فقدان العين للبصر .

ويقول الحق - تبارك وتعالى - بعد ذلك :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا
عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ يُقَلِّتُ فِي السَّمُوتِ
وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ الْبَغْثَةُ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ



والسؤال هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسائل إما هم اليهود الذين سألوه عن الساعة ، وعن الروح ، وعن ذى القرنين ، فكان الجواب منه مطابقاً لما عندهم فى التوراة لأنهم ظنوا أن الكلام الذى يقوله محمد إنما يأتى منه جزافاً

يدون ضابط وليس من رب يُنزله . فلما أجاب بما عندهم في التوراة ، علموا أنه لا يقول الكلام من عنده ، ولذلك سألوه أيضاً عن أهل الكهف وما حدث لهم ، وكانوا جماعة في الزمن الماضي ، واتفقوا معه على كل شيء حدث لأهل الكهف إلا على الزمن فتزل القرآن يحدد هذا الزمن بقوله سبحانه :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۝٤٥﴾

(سورة الكهف)

فقال اليهود: الثلاثمائة سنة نعرفها ، أما التسعة فلا نعرفها ، وما علموا أن الحق سبحانه وتعالى يؤرخ لتاريخ الكون بأدق حسابات الكون لأن ربنا هو القائل :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ۝٤٦﴾

(من الآية ٣٦ سورة التوبة)

إذن التوقيعات كلها حسب التوقيت العربي ، ونعلم أن الذين يريدون أن يحكموا التاريخ حكماً دقيقاً فهم يؤرخون له بالهلال ، والمثال أن كل عالم البحار تكون الحسابات المائية فيها كلها بالهلال ، لأنه أدق ، وأيضاً فالهلال آية تعلمنا متى يبدأ الشهر ، ولا نعرف من الشمس متى يبدأ الشهر ؛ لأن الشمس دلالة يومية تدل على النهار والليل ، بينما القمر دلالة شهرية ، ومجموع الاثنين عشر هو الدلالة السنوية . لكنهم لم يفتنوا إلى هذه ، وأخذوها على الثلاثمائة سنة بالحساب الشمسي ، وأضاف الحق : ﴿ وازدادوا تسعا ﴾ لأنك إن حسبت الثلاثمائة سنة الشمسية بحساب السنة القمرية تزداد تسع سنين .

ومادة السؤال في القرآن ظاهرة صحيحة في الإيمان ؛ لأن الإيمان إنما جاء ليحكم حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل » ، وساعة يقول الشرع : افعل ، ففي ظاهر هذا الفعل مشقة ، وساعة يقول : لا تفعل ففي ظاهر هذا الطلب أنه سهل ومرغوب ، والمنع عنه يناقض شهوات النفس ، وللتأكد من أن الأسئلة ظاهرة صحيحة من المؤمنين نجد أسئلة كثيرة موجهة لرسول الله من أمته ، حكاه القرآن بصور متعددة ، ورد السؤال مرة بفعل مضارع مثل قوله : « ويسألونك » ، ومرة

ورد بصورة فعل ماضٍ « وإذا سألك » . وكثيراً ما جاء السؤال بهيئة المضارع « يسألونك » ، لأن المضارع يكون للحال وللإستقبال .

وجاءت الأسئلة بالقرآن في صيغة المضارع خمس عشرة مرة ، وجاءت بصيغة الماضي مرة واحدة . وإن نظرت إلى الخمس عشرة مرة تجد كل مرة منها جاءت لتبين حكماً . وإذا نظرنا إلى مادة الفعل « يسأل » في القرآن وترتيب المصحف ، نجد القرآن يقول :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ مِنْ مَّوَقِفَتِ النَّاسِ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

ويقول سبحانه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾

(من الآية ٢١٥ سورة البقرة)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

ومرة أخرى يقول في ذات الآية السابقة :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَنَامِ قُلِ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

ويقول عز وجل :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْرِضُوا أَلَيْسَ فِي الْمَحِيضِ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ قُلِ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾

وبعد ذلك في سورة الأعراف يقول :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

وأيضاً يقول سبحانه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ كَثِيرًا حَتَّىٰ عَنَّا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

ثم يقول الحق :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الإسراء)

ويقول المولى سبحانه :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

(سورة الكهف)

ويقول الحق :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾

(سورة طه)

ويختتم هذه الأسئلة بقوله :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِمَّا أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴾

(سورة النازعات)

تلك هي خمس عشرة آية جاء فيها الحق بقوله « يسألونك » ، وآية واحدة يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة البقرة)

والآيات الخمس عشرة التي جاء فيها الحق بصيغة المضارع « يسألونك » نجد كل جواب فيها مُصدرًا به « قل » وهو أمر للرسول : قل كذا ، قل كذا ، ولكن في الآية الواحدة التي جاء فيها بصيغة الفعل الماضي و « إذا سألك » ، لم يقل : فقل إني قريب ، بل قال : « فلإني قريب أجيب دعوة الداع » ، لأن الله يعلم حب محمد لأمته ، وحرصه عليهم ولذلك يقول :

﴿ لَعَلَّكَ يَنْجِعُ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة الشعراء)

ويقول سبحانه :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَمِغْثِ غَفْلِكَ عَلَى أَثَرِهِمْ أَنْ لَا تَبُذُّوهَا كَذِبًا ﴾ (١)

(سورة الكهف)

ولذلك حين علم الحق علم وقوع : أن رسول الله مهتم بأمر أمته ومشغول بها وحريص على أن يشملها الله بمغفرته ورحمته وألا يسوزه فيها ، أخبره المولى عز وجل بأنه سوف يرضيه في أمته . وقد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك ، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم صلى الله عليه وسلم ﴿ رَبُّ إِنْهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ ﴾

وقول عيسى صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنْ تَعْلِبْهُمْ فَيَنْهَضُوا عَنْكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (فرغ يديه فقال : أمتي أمتي وبكى فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وريك أعلم قَسَلَهُ ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله تعالى : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا استرضيك في أمتك ولا نسووك) (١)

وتأكيداً لعلم الحق تبارك وتعالى من حرص رسوله على أمته ، أراد أن يكرم هذه الأمة من نوع ما كرم به الرسول ، فجاء الخطاب في آية الدعاء بدون « قل » .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة البقرة)

وأراد الله أن يبين لمحمد ولأمة أن الله يعلم لا بما تسألونه فقط ، بل يعلم ما سوف تسألونه عنه . لذلك نجد أربع عشرة آية تأتي فيها « يسألونك » وتكون الإجابة « قل » ، والآية الخامسة عشرة جاء فيها « يسألونك » وكانت الإجابة « فقل » لتدل « الفاء » على أن السؤال لم يقع بعد ، فكان الفاء دلت على شرط

(١) رواه مسلم

مقدر هو: إن سألوك فقل ينسفها ربي نسفاً، وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿بَسَّطُونَكَ فِي السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً بَسَّطُونَكَ كَكَانَكَ حَتَّىٰ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

(سورة الأعراف)

و«يجليها» أي يظهرها، وهناك ما يسمى «الجلوة» وما يسمى «الخلوة»، و«الجلوة» أن يظهر الإنسان للناس، و«الخلوة» أن يختلي عن الناس، و«لا يجليها» أي لا يظهرها، و«لوقتها» ترى أنها مسبقة باللام، ويسمونها في اللغة العربية «لام التوقيت»، مثلما يقول الحق سبحانه:

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

وهي بمعنى «عند»، ومعنى ذلوك الشمس، أنها تتجاوز نصف السماء، وتميل إلى المغرب قليلاً. وقوله: «لا يجليها لوقتها إلا هو» أي لا يبينها عند وقتها إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾

والثقل يعني أن تكون كتلة الشيء أكبر من الطاقة التي تحمله؛ لأن الكتلة إن تساوت مع الطاقة فهي لا تثقل على الحمل.

أو أن الطاقة التي تحمل لم تقدر على جاذبية الأرض؛ فيكون الشيء ثقيلًا، وقد يكون هذا الثقل أمراً مادياً، كما يحمل الإنسان - مثلاً - على ظهره أرباباً من القمح فيقدر على حمله، لكنه إن زاده إلى أرباب ونصف، فالحمل يكون ثقيلًا على ظهره لأن طاقته لا تتحمل مثل هذا الوزن «فينخ» به.

﴿ثقلت في السموات والأرض﴾

والثقل لا يكون مادياً فقط ، بل هو ثقل فكري وعقلي أيضاً ، مثال ذلك حين يقوم الطالب بحل تمرين هندسي أو تمرين في مادة الجبر ، فالطالب يشعر أحياناً أن مثل هذا التمرين ثقيل على فكره ، وصعب الحل في بعض الأحيان .

وقد يكون الأمر ثقيلاً على النفس في ملكاتها ، مثل الهم جاثم على الصدر وثقيل عليه ، وهو أقسى أنواع الثقل ، ولذلك فالشاعر القديم يقول :

ليس بحمل ما أطاق الظهر

ما الحمل إلا ما وعاه الصدر

إذن هناك ثلاثة أثقال : ثقل مادي ، وثقل فكري ، وثقل نفسي .

﴿ثقلت في السموات﴾ ، ونحن نعلم أن السموات فيها الملائكة . ونعلم أن الملائكة أيضاً لا تعرف ميعاد الساعة ، ولا يحاول معرفتها إلا الإنسان بشهوة الفكر ، أما الملائكة فهي ليست مكلفة لأنها لا اختيار لها ، وبعضها يخدم البشر ، وهم الملائكة الذين سجدوا لآدم وهم الموكلون بمصالحه ، وبحياته ، وقد رضخوا لأمر الحق بأن هناك سيّداً جديداً للكون . فكونوا جميعاً مسخرين في خدمته ، وهم الملائكة الحفظة الكرام الكاتبون ، ولهم إلف بالخلق ، إلف كاره للعاصي ، وإلف محب للطائع . ومن يسير على منهج الله من البشر يفرحون به . وإن وقع من الطائع زلة ، يأسون له ويتمنون ألا تقع منه زلة أخرى . ومن يسير ضد منهج الله يغضبون منه ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفاً » (١)

ونعلم أن المتفق سيأخذ ثواب إنفاقه ، أما الممسك فإن تلف ماله وصبر عليه فهو أيضاً ينال ثواباً عليه . وهكذا تدعو لنا الملائكة .

(١) رواه الدار قطنى في سنته ،

« ثقلت » هنا تعنى أن ميعاد الساعة لا يعرفه إلا ربنا ، فلا يعرف ذلك الميعاد من هم فى السموات وكذلك من هم فى الأرض ، وكل من على الأرض خائف مما سوف يحدث لحظة قيام الساعة ، وخصوصاً أن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، يعطى لها صورة توضح قوله الحق :

﴿ لا تأتیکم إلا بغتة ﴾

ويخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالحالة التى تأتى عليها فيقول : « إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقيم سلعته فى السوق والرجل يخفض ميزانه ويرفعه » (١)

ومثل هذه التوقعات تخيف .

وقوله الحق :

﴿ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتیکم إلا بغتة ﴾

أى أن الواقع فى هذا اليوم يكون فوق احتمال البشر وهو يأتى بغتة ، أى يجرى من غير استعداد نفسى لاستقباله . ويتابع سبحانه :

﴿ يسألونك كأنك حفى عنها ﴾

وحفى من الحفاوة ، والحفى هو الملح فى طلب الأشياء ، مثل التلميذ الذى يتوقف عند درس لا يفهمه ، فيسأل هذا ، وذاك إلى أن يجد إجابة .

والحفى بالسؤال عن أمر يحاول أن يصل إليه ، والحفى أيضاً عالم بما يسأل عنه ، وسبب العلم أنه ألح فى السؤال عليها .

والأمور التى يعالجها الإنسان إما أن يعالجها وهو مستقر فى مكانه كالأمور الفكرية أو العضلية الموقوتة بمكان ، وقد يكون أمراً بعيداً عن مكانه ويريد أن

يعالجه، فيقطع المسافة إلى المكان الثاني لتحقيق هذه المهمة، إنما يمشى ويسعى على رجليه، ولا يدوب « النعل الذي يضعه في قدميه من المشى فيقال عنه إنه : « حافى » . ولذلك يقال : حفى فلان إلى أن وصل للشىء الفلانى، أى سار مرات كثيرة وقطع عدة مسافات، مزقت نعله حتى جعلته يمشى حافياً. وهنا يقول الحق على ألسنة القوم : ﴿ كأنك حفى عنها ﴾ أى أنك مُعْنى بها، ودائب السؤال عنها، وعارف لها.

وتأتى الإجابة من الحق :

﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾

وفى ذات الآية سبق أن قال : ﴿ علمها عند ربى ﴾

والربوبية متعلقها الخلق، والرعاية بالقيومية لمصالح البشر، والألوهية متعلقها العبادة وتطبيق المنهج، وجاء الحق فى هذه الآية، مرة بالربوبية، ومرة بالألوهية. والأولى هى علة الثانية، فأتت أخذت الله معبوداً، وأطعته لأنه خلقتك ووضع لك المنهج، ولا يدخر وسعاً بربوبيته أن يقدم للعبد الصالح كل شىء ويمنحه البركة، وكذلك يعطى الكافر إن أخذ بالأسباب ولكن دون بركة وبغير ثواب فى الدنيا أو الآخرة، لذلك هو الإله الحق الذى تتبع منهجه.

﴿ قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

وأكثر الناس الذين يسألون عن موعد الساعة لا يعلمون أن ربنا قد أخفاها، وسبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۗ ﴾

(سورة طه)

هم إذن لا يعلمون أن علمها عند الله .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ
وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ
وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾



ويقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله : أنتم تسألونني عن الساعة ، وأنا بشر ، ومتلق فقط ، والإرسال بالمتنهيح يأتي من الله وأنا أبلغه ، ولا علم لي بموعد قيام الساعة ، ولا أملك لنفسي لا ضراً ولا نفعاً ، أى لا أملك أن أدفع الضر عنى أو أجذب النفع لنفسي ، ولكن حين يسوق الله النفع أو يمنع الضر ، فالإنسان يملك ما يعطيه الله ، والعاقل حين يملك ، يقول : إن هذا ملك عرّضى ، لا آمن أن ينزع منى . ولذلك قال لنا الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُنْزِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة آل عمران)

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾

أى أن أحداً لا يملك شيئاً إلا ما شاء الله أن يملكه ، ورسول الله من البشر .
ويضيف :

﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾